

خِصَامُ الْعَالَمِ الْأَسْلَمِيِّ



دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت

مسلمو الاندلس

المؤلف

كأن المؤلف يريد أن يقول ان المسلمين لا يرتدون عن دينهم من أنفسهم وبمطلق اختيارهم والا فما ثبت تاريخاً ان مئات ألوف من مسلمي الاندلس قد تنصروا وان كثيرين من الأسبانيول اليوم لا سيما سكان جنوبي أسبانية هم من سلالة العرب وتجدهم يحفظون أنسابهم ومنهم من عندهم شجرات النسب ومنهم من يدلى بقربي الى بعض المسلمين في أفريقية .

وان كثيراً من الأسر النبيلة الأسبانيولية ينمى الى أصل عربي ولا يزال يحمل الى يوم الناس هذا أسماء عربية فتجد في اشبيلية مثلاً بني أمية - وأحياناً يلفظها الأسبان خيئة - وتجد بني عباد و بني عمرو و بني الفخار وغيرهم . وقد ناولني المستشرق الأسباني الفرناطي السنيور « ايزيدورو دولاس كاخيكاس » Isidoro de las Kajikas قنصل أسبانية في تطاون جدولا فيه أسماء عائلات اسبانيولية نبيلة متحدرة من أصل عربي مثل « عائلة الدوق البرقوقي » في طريف والأسبانيول يقولون Alburquerque وحدثنى صديق الحاج عبدالسلام بنونه الذي هو من أعلام المغرب وانجحه الطالعة بأن في « انجرة » من جبال الريف عائلة البرقوقي أي أنه يوجد البرقوقي في طريف وفي العدو المغربية المقابلة لطريف . ومثل عائلة « القلعة » Alkala ومنها المركيز « الداما » ومنها عائلة « الكدية » Alkudia في « اتارفي » ومنها عائلة « المازان » Almazan في « بنالوه » ومنها عائلة « المناره » Almenara في « بناميسج » ومنها عائلة « المدور » Almodavar في « كسيرس » وهم منسوبون الى قلعة المدور عند قرطبة ويوجد في طنجة وتطاون بنو المدور . ومنها عائلة « بيانة » Baena نسبة الى بلدة بهذا الاسم . ومنها بنو « دانية » Dénia في « وادي اليازان » ويوجد بنو

دانية (تلفظ بالامالة) في الرباط وهم عائلات كثيرة. ومنها بنو «غرناطة ديغا» Granada De Ega ومنها بنو «جريكا» والأسبان يقولون «جريكا» ومنها «بنو مدينة سالى» Medinaceli وهكذا يلفظ الأسبانيون مدينة سالم على القطع بل يلفظون السين من سالم ثاءً ويقولون «مدينة ثالى» ومنهم الكونت «دوكافيا». ومنها بنو «مدينة شنونيه» Medina Sidonia ومن هؤلاء الفيكونت «دولا البوراده» ومنها بنو «ناجره» Naejra ومنها بنو «سويقو» Succo ومنها عائلة المريكز «دو ابراده» De Abrada في «دلا مازان» ومنها عائلة الباتان Albatan. ومنها عائلة البلوطى Albolote لعلها عائلة القاضي منذر بن سعيد البلوطى الشهير قاضى الجماعة بقرطبة لعهد الناصر وكان ينسب الى خص البلوط. ومنها عائلة «القصور» Aleocévar في بلدة «قزازه» ومنها عائلة «البروسس» Alborroces في «كانيشى» ومنها عائلة «الفراس» Alfarras في «قمارش» Camares. ومنها عائلة «دولا الغابه» De la Algaba في «ديلار». ومنها عائلة «الغار» Algara في بلدة «الش». ومنها عائلة «دولا غرفه» Algorfa في «وادي المينا». ومنها عائلة «الجه» Alhama في «ايزباتى» ومنها عائلة «الهندين» Alhendin في «مرشلينه» ومنها عائلة «المنصوره» Almanzora في «تامريت». ومنها عائلة «المرسى» Almarza في «تاراسينه». ومنها عائلة «القبلة» Alkibla في «الزهرا» Zahra ومنها عائلة «آرمونيه» Armunia في «صفرا» ومنها عائلة «باشرس» Baçares في «زويه» ومنها عائلة «بيدس» Baides

ويقال ان رئيس جمهورية أسبانيا الحالى «القلعه سموره» Alkala Zamora هو من أصل عربى. ويقال أيضاً ان رئيس الوزارة الحالى Azania الذى يغلب أن يكون «السانيه» هو أيضاً من أصل عربى. وكذلك ناظر المعارف الحالى فى أسبانية De los Rios هو حسبما يروى من أصل عربى. وقد تألفت فى أثناء تجديد هذا الكتاب جمعية أسبانيولية اسلامية فى مجريط عاصمة أسبانيا مقصدها التقريب بين المسلمين والأسبان رئيسها السنيور «خوشى فرانشى» نائب مجريط وخليفته الرئيس محرر هذه الأسطر والسنو «اميليو بيانو» وفيها بضعة عشر شخصاً من نواب المجلس الأسبانى ومن أدباء أسبانيا وساستها. وفيها من المسلمين عدا هذا الفقير الى ربه الأخ احسان بك الجابرى زميلى فى الوفد السورى الفلسطينى والحاج عبد السلام بنونه عين أعيان تطوان والسادة محمد الفاسى وأحمد

بلافريج وعبدالخالق الطوريس ومحمد الداود ومحمد بن الحسن الوزاني وهؤلاء هم نخبة شبان المغرب علماً ونجاة وتحصيلاً وسراوة . وفي هذه الجمعية السيد خليل بن أمية من صحافي اشبيلية والسيد « انريكي دورافولس » وهو أيضاً من أصل عربي يقول ان أصل اسمهم رحال ولما كان الأسبانيول كثيراً ما يقلبون الحاء فاءً فقد جعلوها « رفال » كما قالوا في البحيرة « البفيرة » في بلنسية وبعد أن صار اسمهم « رفال » جعلوه « رفولس » فهو عربي المحتد بحسب قوله . ومن هذا النمط بنو سراج المشهورون في الأندلس من أعقابهم أناس بالاقعة يقال لهم « بنو سراخ » على عادة الأسبانيول في قلب الجيم خاء . وفي مدينة جنيف بسويسرة شارع « أبو زيت » Abouzit وهو منسوب الى الميسو « أبو زيد » الذي كان أعلم علماء زمانه وكان عربياً مشهوراً أصله من « تولوز » وأصل سلفه من جالية الأندلس الى جنوبي فرنسا كانوا أطباء وتنصروا على مذهب البروتستانت فيمن تنصر من تلك الجالية . ثم لما صدر أمر لويس الرابع عشر بمنع المذهب البروتستانتى من فرنسا جلا كثير من البروتستانت الى سائر البلدان مثل ألمانية وهولاندة وسويسرة وجاء أبو زيد هذا الى جنيف وكان معاصراً لفولتير ولروسو ولنيوطن وللينيتز وكان جميعهم يعجبون بسعة معارفه وكان فولتير يستفتيه في عويص المسائل ويقول له « صديقنا العربى » . وفي سويسرة أكثر من اسم عربى وأما في فرنسا فهو كثير لاسيما في الجنوب ومن هذا القبيل الميسو « موروجافرى » المحامى نائب كورسيكا Moro Jaferi وهو المغربى الجعفرى كما لا يخفى وتحرير هذه المسألة أنه لما غلب فرديناند وايزابلا على آخر مملكة اسلامية فى أسبانية وهى دولة بنى الأجر من سلالة الخزرج الذين كان كرسيمهم غرناطة واستولوا على هذه النبلة سنة ١٤٩٢ عقدا مع المسلمين معاهدة ليس هنا محل تفصيلها وانما نلخصها حسبما جاء فى نفع الطيب : تأمين الكبير والصغير فى النفس والأهل والمال وابقاء الناس فى أما كنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك . وأن لا يدخل النصرارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً . وأن لا يولّى على المسلمين نصرانى أو يهودى ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل . وأن يفتك جميع من أسر فى غرناطة من حيث كانوا وخصوصاً أعياناً نص عليهم . ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا لسواه

والسلطان يدفع ثمنه مائة الف دينار . ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع ويجوزون في مدة عينت في
مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر ما لهم والكراء .
وأن لا يؤخذ أحد بدين غيره وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم . وأن
من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من
النصارى فإن أبى الرجوع الى الاسلام تبادى على ما أراد . ولا يعاتب من قتل نصرانيا أيام
الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة . ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد
النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات ولا يزيدون على المغارم المعتادة . وترفع عنهم جميع
المظالم والمغارم المحدثه ، ولا يطلع نصراني للسور ولا يتطلع على دور المسلمين ولا يدخل
مسجداً من مساجدهم ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله ، ولا يجعل علامة
كما يجعل اليهود وأهل الدجن ولا يمنع مؤلف ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه
ومن ضحك منهم يعاقب . ويتركون من المغارم سنين معلومة وأن يوافق على كل الشروط
صاحب رومة (أى البابا) انتهى

ولقد أوردت تلخيص هذه المعاهدة في كتابي « آخر نبى سراج » الذى ذيلته
بتاريخ الأندلس المطبوع أول مرة سنة ١٨٩٧ مسيحية فقلت : انها خمس وخسون مادة
تضمن من تفاصيل ما وقع عليه الاتفاق وفي طيها من عهود المحاسنة والملاطفة والمراعاة
والمحافظة على أعراض القوم وعقائدهم ودياناتهم وأموالهم وكراماتهم وراحاتهم ما لا ينفى به
الا نصه ، وقد تكرر في المادة الخامسة العهد من الملك والمملكة باحترام ديانة المسلمين
ومساجدهم وأوقافها وأموالها المحفوظة وعدم التعرض لأموالهم الشرعية بل إعادة ذلك الى
فقهاءهم وبالمحافظة على أصول الفقهاء وعاداتهم وملابسهم وأن يبقى هذا العهد معمولاً به في
الأعقاب وأعقاب الأعقاب

وفي المادة السادسة عدم سلب أسلحة المسلمين ولا مراكبهم ولا مواشيهم الا
الاسلحة النارية فمقرر أخذها . وفي المادة السابعة تسهيل السفر لكل من شاء الهجرة
بأمواله وأمتعته وفيما بعدها اجازته على نفقة دولة قشتالة من أى مرسى أراد . وتسهيل
معاملات بيع العقار لمن شاء الرحيل واذا لم يتهبأ البيع ووكل صاحب الملك وكيلاً تعتبر
وكالته ويساعد على استيفاء حاصلاته وإيصالها اليه بمكانه من وراء البحر . وورد في المادة

الحادية عشرة تشديد مجازاة كل من يدخل من النصارى جامعاً بدون رخصة من الفقهاء .
 وورد في المادة الخامسة عشرة اعفاء السلطان أبي عبد الله وسائر أمراء المسلمين وقوادهم
 وفقهائهم من الضرائب والرسوم واقرار الجميع على امتيازاتهم كما كانوا لعهد ملوكهم وان
 تكون كلمتهم نافذة وقولهم مسموعاً . وورد في المادة السادسة عشرة والتي بعدها ما
 يتضمن عدم جواز دخول أحد من النصارى بيوت المسلمين ولا الملك ولا الملكة ومن خالف
 ذلك يجازى بشدة . وفي المادة الخامسة والعشرين اذا فر أحد من أسرى المسلمين المعتقلين
 في سائر الممالك ، ووصل الى غرناطة فقد نجا ولم يكن لشرطة غرناطة أن تمسكه لكن هذا
 الامتياز خاص بعرب الأندلس لا يتناول أسرى المغرب . وفي المادة الثلاثين أن من أسلم من
 النصارى قبل هذه الكائنة فلا يعامل الا بالحسنى ولا يلقي أقل تحقير ومن خالف ذلك ينال
 من الجزاء شدة . وفي المادة الواحدة والثلاثين لا يجبر مسلم ولا مسلمة على قبول الدين المسيحي
 وفي المادة الثانية والثلاثين اذا كان المسلم متزوجاً بنصرانية وأسامت لا تجبر على الرجوع الى
 دينها الأصلي والذين يتولدون من هذا الزواج يعدون مسلمين ولو ارتدت الزوجة عن اسلامها
 وفي المادة الخامسة والثلاثين لا يرد المسلمون شيئاً مما غنموه أثناء الوقائع التي جرت الى يوم
 تسليم البلد وفيما بعدها لا يعاتبون على شيء مما مضى من تحقير الاسرى أو اهانتهم . وفي المادة
 الثانية والاربعين تفصل الخصومات بين المسلمين والنصارى في مجلس مؤلف من قائدين أحدهما
 مسلم والآخر مسيحي . وفي الثالثة والاربعين تعاد جميع اسرى المسلمين في مدة ثمانية أشهر من
 أى بلدة وجدوا فيها من اسبانية وفي مدة خمسة أشهر ان كانوا في بلاد الاندلس . وفي التي
 تليها ذكر اطلاق سبيل ابن الدرامي المأسور عند غونزالف هر ناندز وعثمان اسير كوند
 تانديله ورضوان اسير صاحب قبره واعادة الفقيه ابن محيي الدين ورفاقه الذين غابوا على أثر
 حادثة ابراهيم بن سراج اينما وجدوا . وفي السادسة والاربعين تسهيل حركات سفن المغاربة
 في مراسى الاندلس واعفاؤها تلك المدة من دفع رسوم بشرط عدم نقلها اسرى من
 النصارى . وفي الثانية والخمسين عدم استخدام شرطة من النصارى لمراقبة شؤون المسلمين
 بل تكون شرطتهم من أنفسهم

وفي آخر هذه المعاهدة تعهد الملك فرديناند وامرأته ايزابلا صاحبا ممالك قشتالة واراغون
 وليون وصقلية بان يحافظا على نص شروطها حرفاً بحرف ويجريا جميع أحكامها من خاص

وعام وكلى وجزئى بكمال التدقيق وبدون ادنى زيادة ولا نقصان مهما كان من الاسباب وان تبقى على شكلها وهيئتها ولا يتغير ولا يتبدل حرف منها الى الأبد . ولا يمكن أحداً من خلفاء الملكين المشار اليهما ولا خلفاء خلفائهم ولا حفدتهما ولا أولادهم الى ما شاء الله ان ينقضوا أقل حكم من أحكامها أو يبدلوا حركة من حركاتها . وأعطى الأمر بها الى الامراء والوزراء والقواد والأجناد والرهبان والرعية من حاضر وغائب وقاص ودان وكبير وصغير واعلن أن من يجرؤ على الخلل بشئ مما تضمنته هذه المعاهدة يجزى جزاء من أقدم على افساد البراءات الملوكية أو تقليد الحجاج والسندات وذلك بدون أدنى تأخير

وأقسم الملك فرديناند والملكة ايزابلا وسائر من أمضوا الشروط على دينهم وشرفهم برعايتها الى الابد على الصورة الميئة وكتبت على رق غزال محلى ومطرز تحريراً فى ثلاثين من ديسمبر سنة احدى وتسعين واربعائة والف من الميلاد

وحررها « فرناندو صفرد » بامر الملكين وامضاها الملك فرديناند والملكة ايزابلا وأولادهما الدون جان والدونة ايزابلا والدونة حنة والدونة ماريانة والدونة كاتالينه ورئيس أساقفة اشبيلية الدون دياغو هرتادو ورئيس اساقفة صانتيا غو الدون الفونس وكبير فرسان صانتيا غو المسمى بالدون الفونس أيضاً والدون جان كبير فرسان الفنطرة والدون الفارو زعيم رهايين ماريوحنا والدون بيرو غونزالس كردينال اسبانية ورئيس اساقفة المملكة والدون هنرى كبير حكومة اراغون ومن ابناء عم الملك والدون الفونس من أبناء عمه أيضاً والدون الفارو مدير دائرة الملكين والدون بترو فرناندز رئيس جند قشتاله ويليههم نحو من أربعين دوناً كلهم من أبناء السلالة المالكة واساقفة البلاد وأمرائها وأعيانها وقوادها

وكتب ايضا معاهدة اخرى لسلطان غرناطة أبى عبد الله بن أبى الحسن متضمنة أربع عشرة مادة فيها تملكه الاقطاعات والاراضى والبلدان التى وهبها اياها الملكان معيناً كل منها بذاته والتعهد باعطائه اربعة عشر مليوناً وخمسمائة قطعة من السكة المعروفة بالمراويد وذلك عند دخولها قلعة الجراء واقرار ملكيته لجميع العقار الموروث واعفاؤه من دفع الضرائب والرسوم وأداء المكوس عما يجلب من الأمتعة برسمه وانه فى أى وقت شاء بيع هذه الأراضى والأمالك يشترىها كلها الملكان بقيمتها العادلة وان لم يشأ بيعها وأراد النقلة الى المغرب

فالوكيل الذي يعينه عليها يستوفى له حاصلاتها ويوردها عليه في أية جهة كان مأموراً بالبحر . وفي أي وقت عوّل على الاجازة تنقله مع رجاله وعياله وأمواله سفن دولة قشتالة مجاناً . ولا يطالب بشيء ولا يكون مسؤولاً عن شيء مما حصل الى حين عقد الصلح ولا يسترد شيء مما غنمه . وجميع هذه الشروط كما هي جارية في حقه تجري أيضاً في حق والدته وشقائقه وزوجته وزوجة مولاي أبي نصر . والمعاهدة الثانية مؤرخة في يوم تاريخ الاولى الا اني وجدت أكثر المؤرخين يؤرخون امضاء هذه المعاهدات في ٢٥ دسمبر وفق ٢٢ محرم سنة ٨٩٧ ولما كان الاسبانيول قد أعطوا المسلمين مهلة سبعين يوماً لأجل التسليم بناء على أمل هؤلاء في ورود النجدة من وراء البحر ازداد الطاغية تيقظاً وسهرراً وجعل الجيوش محيطة بغرناطة احاطة السوار بالمعصم وجع الأساطيل وبشها في مراسي الأندلس وفي فرصة المجاز منعاً لكل مدد وارد فلم يطلّ أحد (تلك أمة قد خلت) وان أطلّ فلم يغن شيئاً لأن سلاطين الاسلام كانوا في ذلك الحين متشاغلين بفتنهم الداخلية ومحاربة بعضهم بعضاً فضلاً عن ان الذي أصبح مقررّاً في أذهان عامة المسلمين ان لا أمل بحفظ مملكة الاندلس وتجديد دولة الاسلام فيما وراء البحر الى جهة العدو الاسبانية وان الجهاد في هذه السبيل عبث وهذا الأمر كائن لا محالة فتركوا الأمور وشأنها وأهل غرناطة يعللون أنفسهم بلعل وعسى . ولكن ابتداء الجوع بعضهم بأيابه فرأى أبو عبد الله ان انتظار آخر المدة مما لا يكون له نتيجة سوى زيادة الضيق والمجاعة ولا رجاء في ورود أقل مدد ولو كان في قيد الحياة تنفس . فشاوّر الرؤساء فأشاروا بالنسليم قبل انقضاء الأجل المضروب . وفي العشرين من دسمبر أرسل وزيره يوسف بن كاشة مع الرهائن الى الملك فرديناند وأصحبه بفرسين كريمين وسيف ثمين على سبيل الهدية فبشه مقصده وعزم الجماعة على تسليم البلاد قبل مضي الأمد . وفي اليوم التالي ظهر درويش اسمه حامد بن زارة فأخذ يطوف الأسواق منادياً بالجهاد مستنفرّاً العامة الى الدفاع قائلاً لهم انه سيرد اليهم نجيدات من البشرات ومن بر العدو وان الأمل عظيم بالفرج لكن الملك أبا عبد الله والرؤساء خائفون وكثر القيل والقال في البلد وصبوا اللعنات على أبي عبد الله ورموه بالخيانة وبيع الدين والوطن فنار نحو من عشرين الفا من أهل غرناطة وتقلدوا أسلحتهم وخرجوا في الأسواق بضوءاء ملائت الفضاء عازمين على الجهاد مستعينين بالله في دفع العدو فاستمروا يوماً كاملاً وقسماً من الليل

في هذه الحركة واذا باعصار شديد قد عصف بشدة فالزم الناس بيوتهم وانتهى الهياج بهبوب العاصف وفي اليوم التالي خرج أبو عبد الله من الجراء محفوفاً برؤساء البلد وخطب الأمة قائلاً لهم : « لا ذنب الا ذنبي . أنا الذي عقلت والدي وجلبت الأعداء على المملكة لكن الله قد أخذني بجرائري وأزل النعمة كلها على رأسي وها أنا ذا الآن قبلت بهذه المعاهدة لأجلكم يا قومي ضناً بدمكم أن يراق سدى وبأطفالكم أن يموتوا جوعاً وبسائكم وذرائعكم أن تنزل فيهن معرات الحرب وحفظاً لأموالكم وأملاككم وحریتكم وشریعتكم وديانتكم في ظل ملوك أسعد طالعاً من أبي عبد الله المشؤوم » فأثرت رقة كلامه في خواطر القوم وسكنت سورة حقدهم واستلت نعومة خطابه ماخشن في صدورهم فانفضوا الى أمكنتهم . وفي الحال أرسل أبو عبد الله الى الملكين يعرض عليهما التسليم في اليوم التالي حذراً من تجدد الحوادث فرضياً بذلك وتأهباً لدخول الجراء كما ان أبا عبد الله وأسرته وحشمه أحيوا الليل في التأهب للخروج وقد غسلوا ابهاء الجراء بدموعهم وملأوا نواحيها بنواحيهم وزموا حقائبهم بما فيها من النخائر والاعلاق وجلوها البغال . وقبل أن تبليج الفجر انساب حريم أبي عبد الله وأهل القصر من أحد الأبواب حيث كان بانتظارهم فرقة من فرسان المسلمين الذين بقوا متمسكين بعروة سلطانهم الى الآخر وساروا من أحد الأحياء المعتزلة من المدينة والناس نيام والشوارع خالية . أما عائشة الحرة والدة أبو عبد الله فكانت متجلدة متجملة . وأما امرأته وسائر جوارى القصر فقد قرح البكاء ما قيهن وخدد الدمع خدودهن . ولما وصل الموكب الى احدى القرى التي على طريق البشرات وقف ينتظر وصول أبي عبد الله وعند مطلع الشمس جاءت فرقة من الخيالة والمشاة يصحبها « هرنا ندودولا تافيره » مطران افيلاً ودخلت من أحد أبواب المدينة حسباً كان وقع عليه الاتفاق فالتقاها السلطان ابو عبد الله وقال للمطران المذكور : « امض وتسلم هذه الحصون التي صيرها الله الى يدكم عقاباً للمسلمين على اعمالهم » ثم تقدم للقاء الملكين وتقدمت العساكر فدخلت الجراء وكان فرديناند وايزابلا ينتظران رؤية اعلام اسبانية فوق ابراجها فضت مدة وأنظارهما شاخصة فلم يرا شيئاً فحشياً وقوع حادث لكن لم يكن الا قليل بعد ذلك حتى خفقت راية الصليب فوق أبراج الجراء وبجانبيها راية مار يعقوب وعلا هتاف العساكر فلما رأى الملكان ذلك بمكانهما على ضفة الشنيل خرواً جائيين على ركبهما واقتدى بهما جميع الأمراء

والقواد والجند شكراً لله تعالى على مامن^١ به . وبعد انتهاء الصلوات استأنفوا المسير حتى صاروا بجانب جامع صغير قريب من النهر فهنا التقوا بالسلطان أبي عبد الله الشقي^(١) فلما وقعت العين على العين أراد السلطان الترحل أجلاً للسلطان فغناه من ذلك فهوى على يد الطاغية ليقبلها فلم يمكنه فرديناند من ذلك . وقيل ان الملكة أيضاً أبت أن ترسل له يدها وانها أحسنت تعزيتة وسلمته ابنه الذي كان مرهوناً عندها فضمه الى صدره وأخذ يقبله كأن الشقاء زاد من تعلق أحدهما بالآخر . ثم سلم أبو عبد الله مفاتيح البلد الى الملك قائلا له « هذه المفاتيح هي آخر ما بقي من سلطان العرب في أسبانية خذها فقد أصبح لك ملكنا ومتاعنا وأشخاصنا كما قضت بذلك مشيئته تعالى فتقبلها بالرأفة التي وعدت بها والتي نتظرها منك » فأجابه فرديناند : « لاشك في اجراء ما وعدنا به وعسى أن يكون لك من صحبتنا الحظ الذي لم يكن لك من عداوتنا » ثم دفع فرديناند المفاتيح الى الملكة فدفعتها الى ابنهما البرنس جويان وهذا أعطاها الى الكونت تنديله الذي كان قد عين قائداً لغرناطة

ثم انفصل أبو عبد الله عن الملكين قاصداً المقر الذي كان قد عين له في وادي برشاة وسار الطاغية وامراته نحو المدينة وأصوات الموسيقى مسموعة الى بعيد ولم يدخلها يوم تسليمها خوفاً من الغدر وانتظرا ان تنبأها جميع العساكر لما كان يرعبهما من اسم غرناطة . أما سلطان غرناطة السابق فلما وصل الى مرقب عال على مسافة مرحلتين من المدينة يشرف عليها وقف يودع مدينته فلم تكن في عينه أجل منها في تلك الساعة فأخذ يتأمل في أبراجها وقلاعها ومنارها الضاربة في السماء ومرجها النضير المنقطع النظير ووقف وراءه حاشيته وجنده الذين لم ينفصلوا عنه وهم يتأملون سكوتا قدأ بكمهم الحزن وأخرسهم الهم واذا بالدخان قد ارتفع فوق القلعة ودوى صوت المدافع ايذاناً بأن المدينة دخات في حوزة الأسبانيول وانقطعت منها دولة الاسلام فعندها خفق فؤاد أبي عبد الله ولم يملك نفسه من البكاء فصاح « الله أكبر » وفسح مجال الدمع واستمطرماء العيون فجادت بالشآيب فقالت له أمه عائشة الحرة المشهورة بالشدّة « عليك أن تبكي بكاء النساء ما عجزت أن تدافع عنه دفاع الرجال » وهي الكلمة الشهيرة التي تناقلتها جميع التواريخ . واجتهد وزيره

(١) في أثناء رحلتي الأندلسية سنة ١٩٣٠ واقامتي خمسة عشر يوماً بقرناطة مررت بهذا المكان الذي سلم فيه أبو عبد الله مفاتيح عاصمة ملكة الأخير الى فرديناند ودلوني على مكان الجامع

يوسف بن كاشة في تعزيتة فلم يقبل قلبه العزاء و بقيت شؤون عينيّه فائضه وزفراته متصاعدة وهو يقول: « أى شقاء مثل شقائى » وقد سمي الأسبانيول تلك الهضبة التى وقف عليها آخر سلاطين غرناطة يبكى المنزل والحبيب « بآخر حسرات المغربى »^(١) ولما وقف فرديناند عن دخول البلد خوف الغيلة الى أن تكون عسا كره احتلت المواقع جميعها أرسل مركيز « فيلنه » وكونت « تسديله » بثلاثة آلاف فارس وجيش من المشاة مصحوبين بالأمير سيدى يحيى الذى سماه النصارى بعد تنصره بالدون « بدرو دو غرناطة » وعين للنظر في أمور المغاربة وبابنه الذى أطلقوا عليه اسم الدون « الوزو دو غرناطة » وكان أميراً للأسطول فتبواؤا جميع الأبراج ونشروا فوقها الاعلام الأسبانية

ولم يدخل الملكان المدينة الا فى سادس يناير وكان الاحتفال بدخولهما باهراً وظلاً سائرين الى مسجد غرناطة الأعظم فخلد كنيسة^(٢) وأقيمت الصلاة شكراً لله تعالى على هذا الفتح المبين وأقبل الأمراء والقواد وعظماء الأسبانيول على الملكين يقبلون أيديهما ويهنئونهما على هذه النعمة التى اختصهما الله بها وكرمهما باحرازها . وبعد الخروج من الكنيسة سارا الى الجراء الموصوفة فألفياها فوق ما كانا يتصوران من اتقان الصنعة ونخامة البنيان ورحابة الساحات ولطافة الرسوم والنقوش وأعجبا بما فيها من الزخرفة التى تنقطع دونها الأيدى والتألق البالغ حده سواء فى الإبهاء أو المقاصير أو النوافر والصحاريح أو المداخل والتعاريح اذ يتعجب الناظر ما بين مرمر مسنون وعسجد مصون وسوار كأتانها مفرغة فى أحسن القوالب وسقوف كأتانها السماء زينت بالكواكب . فاتخذ الملكان لها عرشاً فيها وجلسا للتهنئة حيث جاء أهل غرناطة والبشرات يقدمون لها واجب الاجلال ويقبلون أيديهما صاغرين . ووجد فى غرناطة يوم دخول الملكين اليها خمسةة أسير من الأسبانيول

هكذا انتهت تلك الحرب التى استمرت عشر سنين لم تفتر فيها الوقائع ولا نشفت

(١) وهذا المكان قد مرت به أيضاً فى سياحتي الى جبال البشرات

(٢) وقد دخلت هذه الكنيسة وشاهدتها فى أثناء زيارتي لغرناطة سنة ١٩٣٠ وشاهدت مدفن فرديناند وايزابلا بقرب هذه الكنيسة ورأيت صوراً كثيرة على الحيطان منها صورة جماعة من مسلمي الأندلس من رجال ونساء يتنصرون بين أيدي أخبار الاسبانيول وعلى وجوههم غيرة الموت

فيها الدماء ولا انقطعت المصارع وبنهايتها انصرم جبل الاسلام من بلاد الأندلس بعد ان استتب دولته فيها سبعائة وثمانيا وسبعين سنة منذ انهزم لذريق على صفاف الوادي الكبير الى تسليم غرناطة والله وارث الأرض ومن عليها

ثم نقلنا ماجاء في نفح الطيب عن هذه الكائنة العظيمة مما يقدر أن يراجعه من شاء اما في كتابنا « آخر بني سراج » المذيل بتاريخ الأندلس واما في نفح الطيب نفسه كما أنه يمكنه أن يراجع وصف هذه الكائنة في كتاب « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » لمؤلف لم يذكّر اسمه يظهر من نسق روايته أنه كان حياً في ذلك الوقت وانه شاهد الوقائع بنفسه وهذا الكتاب مطبوع أيضاً ذيلاً لآخر بني سراج . ثم قلنا :

« وبعد أن دخلت غرناطة في حوزة الأسبانيول انقطع السلطان أبو عبد الله بن الأحمر في أرضه بوادي برشانة حيث وفر له الطاغية الاقطاعات وكذلك لوزيره يوسف بن كاشة الذي لزم بابه فأقام مدة هناك ذاق أثناءها طعم الراحة وانتفض من عوارض ما كان فيه من هياط ومياط . ولكن الأمر لم يطل به حتى عاد يذكّر ماضى ملكه وعليائه ويحن الى غابر جرائه فتشور فيه الأشجان ويستشعر فؤاده الأحزان . وفي هاتيك المدة لم يدع الملك وسيلة الا استعمالها لأجل صباه عن دين آباءه وادخاله في النصرانية فأخفت مساعيها وبقي بالها مشغولاً من جهته اذ لم يزل وجوده هناك محلاً للخوف من انتقاض مسامى الأندلس تحت رايته والتفافهم حواليه ففي سنة ١٤٩٦ داخل الملك فرديناند وزيره يوسف بن كاشة سراً في ابتياع أراضي مولاه بثمانية آلاف دوكان من الذهب فتمت الصفقة وانعقد البيع بدون علم أبي عبد الله وبدون أن يعنى فرديناند بسؤال يوسف عن سند الوكالة بل نقده المال فحمله البغال وسار الى البشرات فلما وصل بين يدي مولاه ثر الدنانير أمامه قائلاً له :

« رأيت يامولاي أن بقاءك هنا معرض للخطر فان المغاربة أهل اقدام وثار وحمله أوتار ولا يبعد أن يشوروا مرة رافعين رايته وتغزى ثورتهم اليك فتقع في المقيم المقعد . وما دمت في هذه البلاد يخطر في بالك أنك كنت أميرها على حين لا أمل في رجوع هذه الامارة لك . لذلك رأيت الأنجح في حقك بيع أراضيك وقبضت ثمنها وها هو لديك يمكنك أن تتملك به أراضي واسعة جداً وراء البحر »

« فلما سمع أبو عبد الله هذه الكلمات استشاط غضباً واختلط سيفه وكاد يضرب به رأس وزيره فأسرع هذا الى الفرار من حضرته وبقى أبو عبد الله وحده يتأمل في هذه المسألة ويقلب من وجوها فلم يلبث أن ذهب ما به وعاد اليه سكونه واستدل على أن هذه الصفقة لم تكن لتجرى لولا رغبة فرديناند في زياله من هناك وأن الحق قد يكون مع وزيره يوسف بن كماشه فأجمع الرحلة وشد حقائبه . وجع أمواله وكنوزه وتحمل الى أحد الثغور^(١) حيث شيعة كثير من قومه داعين له بالتسهيل^(٢) . فلما ركب السفين وغابت عن عينيه جبال غرناطة انهملت منهما العبرات وتصادت من صدره الزفرات ونزل بمليلاً ومنها سار الى فاس نزلاً على سلطانها متلفهاً على ماسلف . وفي بعض تواريخ الافرنج أنه توفي قتيلاً في احدى الوقائع مع سلطان فاس سنة ١٥٣٦ أى بعد ٤٤ حولاً من فراقه أسبانية ولذلك قال فيه أحد المؤرخين انه قتل في سبيل الدفاع عن مملكة سواء بعد أن جبن عن أن يقتل في الدفاع عن حوض مملكته »

وأما النفع فيقول في نهاية أمره ما يأتي :

« ثم احتال (أى الطاغية) في ارتحاله (أى أبى عبد الله) لبر العدو وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور فكتب لصاحب المرية : انه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدو ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له . فانصرف في الحين بنص هذا الكتاب وركب البحر ونزل بمليلة واستوطن فاساً وكان قبل طلب الجواز لناحية مرا كش فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدو لقي شدة وغلاء و بلاء »

ويقول بعد ذلك : « والسلطان المذكور الذى اخذت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذى انقضت بدولته مملكة الاسلام بالأندلس ومحيت رسومها ابن السلطان أبى الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير على ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغنى بالله واسطة عقدهم ومشيد مبانيهم الانيقة وسلطان دولتهم على الحقيقة وهو المخلوع الوافد على الأصقاع

(١) وقد مررت بنفسى في سنة ١٩٣٠ بالمرسى الذى أقام منه أبو عبد الله بن الأحمر من الأندلس

فاصدا المغرب

(٢) وقرأت أنه هاجر معه نحو من ألف نسمة من مسلمي الأندلس

المرينية بفاس العائد منها للملكه في أرفع الصنائع الرجائية العاطرة الانفاس — وهو سلطان لسان الدين بن الخطيب — ابن السلطان ابى الحجاج يوسف ابن السلطان اسماعيل قاتل سلطان النصارى دون بطرءه يمرج غرناطة ابن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر بن قيس الانصارى الخزر جى رحهم الله تعالى جميعا . وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة الى مدينة فاس باهله وأولاده معتزلاً عما أسلفه متلهفاً على ما خلفه وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس رأيتها ودخلتها وتو في رجه الله تعالى بفاس عام أر بعين وتسعمائة ودفن بازاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف ولدين أحدهما اسمه يوسف والآخر أحمد . وعقب هذا السلطان الى الآن بفاس وعهدى بذريته بفاس الى الآن سنة ١٠٣٧ يأخون من أوقاف الفقراء والمساكين ويعدون من جملة الشحاذين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . انتهى

قلت : وقد قرأت في بعض كتب الافرنج انه كان للسلطان أبى عبد الله اخوة صغار من غير أمه لبشوا في غرناطة بعد أخذ الاسبانيول اياها وتنصروا وتحولوا اسبانيولاً ولكنى لم أطلع على خبر اسبانيول في الوقت الحاضر ينتسبون الى بنى الأجر . ولقد سمعت من الأخ الكريم الحاج عبد السلام بن العربى بنونه من عيون أعيان تطاون بل من عيون أعيان المغرب كله ان ببلدهم اسرة تنتسب الى بنى الأجر الى يومنا هذا . وقيل لى انه لا يزال منهم بفاس أيضاً

ثم انى أقول فى ذيل « آخر بنى سراج » ما يلى :

« ولندكر حالة بقية مسامى الاندلس بعد ذهاب ملكهم فنقول : ورد فى تاريخ

« الاسلام فى اسبانية » تاليف « ستانلى لانبول » ما محصله :

« ان آخر أنفاس أبى عبد الله على تلك الربوة لم يكن بأخزحر أنفاس المسلمين فى

تلك الديار بل بداية أنفاس يرسلونها الصعداء وافتتاح عهد انتقام وابتلاء وان اسقف غرناطة

الأول « هرناندو دونا لا فيره » كان رجلاً حليماً . عادلاً أحسن معاملة المغاربة وأبى للجور

عليهم وتعلم العربى وكان يصلى به وعلى يده ارتد ألوف من المغاربة الى النصرانية قيل ان

ثلاثة آلاف تنصروا فى يوم واحد . الا أن الكردينال « كسيميناس » الذى كان من

القسم المحارب بين رؤساء الكنيسة اعتسف السبيل ومال الى العنف والاكره وأساء

معاملة المسلمين وحل الملكة ايزابلا على ما بقى نقطة دهما في تاريخ حياتها من اضطهادهم واستعبادهم واكراههم على التنصر فانار ذلك ساكنهم وأخرج كل منهم وفي احدى المرات حبست امرأة في البيازين لشأن من هذا القبيل فنار سكان البيازين وتحصنوا وحلوا السلاح وكادوا يفتكسون بالجند وأوشك الدم أن يسيل بحدة الكردينال كسيميناس الا أن المطران هرناندو الموصوف بالوداعة دخل ربض البيازين بالسكينة والأنس مع نفر قليل من حاشيته بدون سلاح وسأل القوم عن شكواهم وتقبلها منهم بالاستماع والاحتفال وهدأ روعهم واعاد طائر الأمن الى وكره وحجب الدماء يومئذ . اما كسيميناس المشهور فلم يزل يغوى الملكة حتى أصدرت أمرها باكراه المسلمين على احدى الخطتين الجلاء أو النصرانية وذلك بانهم كانوا يذكرون المسلمين بانهم من سلالة النصارى في الأصل فاقفلت المساجد وأحرقت الكتب التي هي ثمرات القرون وزبدة الحقب ^(١) وأذيق المسلمون العذاب اشكالاً والواناً ففضل عامتهم فراق دينهم على فراق أوطانهم الا أن شعلة من الحمية الاسلامية بقيت تلمع في جبال البشرات حيث حتمهم أوعارهم من مضطهديهم

«وأول جيش أرسل اليهم كان تحت قيادة الدون «الونزو دو اغيلار» البطل المشهور انهزم هزيمة شنعاء وذلك سنة ١٥٠١ وقتل الدون المذكور وقيل انه الدون الخامس المقتول من تلك العشيرة في حرب المسلمين فازداد انتقام الاسبانيول من المغاربة بعد هذه الغلبة وهجم كونت «طنديله» على «قوجار» وهدم كونت «سرين» جامعاً على جاعة التجأوا اليه من المسلمين بنسائهم وأطفالهم . وأمسك الملك فرديناند بنفسه الطريق على الفارين من الجبال فن بقى حياً من الثوار فرّ الى مراكش ومصر والبلاد العثمانية وانتهت الثورة الأولى في الجبال

«ومضى على ذلك نصف قرن والبغض دفين في القلوب والمسلمون المنتصرون يعمدون أولادهم ظاهراً فاذا انصرف القسيس مسحوا عن الولد ماء المعمودية واذا تزوج أحد المورييسك ^(٢) أجرى القسيس عقد الا كليل ثم بعد ذهابه عقدوا النكاح بحسب السنة الاسلامية

(١) ذكر في بعض كتب الأسبانيول أنه أحرق في غرناطة في يوم واحد مليون مجلد وقيل بل مائة ألف مجلد وقرأت في بعض كتبهم أنهم أحرقوا كل الكتب الا التأليف المتعلقة بالطب والرياضيات
(٢) لقب المنتصرة من المغاربة

«وكانوا يتقبلون قرصان البحر من أهل المغرب ويعاونونهم على اختطاف أولاد النصرى ويأتون غير ذلك من الأعمال انتقاماً فلو كانت ثمة حكومة عاقلة قوينة ترعى عهودها لنى واثقت عليها عند تسليم غرناطة لم يكن محل لذلك البغض العميق ولكن حكام الاسبانيول لم يكونوا أهل عقل ولا أهل عدل وكانوا يزدادون بتمادى الأيام شرّاً ولم تلبث الأوامر ان صدرت باكره المسامين على ترك ألبستهم الخاصة بهم ولبس البرنيطة والسراويلات الاسبانيولية وحظر عليهم الغسل ودخول الحمام اقتداءً بغالبيهم في احتمال الاقدار^(١) ثم منعوهم من التكلم بالعربية وصدر الأمر بان لا يتكلموا بغير الاسبانيولى وبان يغيروا اسماءهم ويسيروا سيرة اسبانيولية ويسموا أنفسهم اسبانيولاً . وكان تصديق الامبراطور شرلـكان هذا الأمر القطيع في سنة ١٥٢٦ على انه لم يكن الظاهر منه اعتماده على اجرائه بالفعل لكن عماله اتخذوه ذريعة لاستنزاف أموال الموسرين من الموريسك وصار ديوان التفتيش يحترف ويتجرب بهذه المسئلة . ولما صار الأمر الى فيليب الثانى شدد في انفاذ الأوامر بحق الموريسك وسنة ١٥٦٧ عزز الأمر الصادر بشأن تغيير الزى واللغة باستيشاق غريب لأجل منع النظافة التى هى من سنن الاسلام وذلك بانه أخذ يهدم حمامات الجراء البديعة . فالتطرق التى أخذوا بها لتسكير أحوال تلك الأمة البائسة كانت أشد من أن يتحملها أى قبيل دع سلائل المنصور وعبدالرحمن وابناء سراج ولذلك لم يطل الزمن حتى استطار الشر واشتعلت الفتنة ونار فرج بن فرج من نسل بنى سراج بجماعة من ذوى الحمية من غرناطة قاصداً الجبال قبل ان يسكنت الحامية من تعقبهم ونودى « بهرناندو دوفلور » من نسل خلفاء قرطبة ملكاً على لأندلس تحت اسم محمد بن أمية وعمت الثورة فى اسبوع واحد جميع جبال البشرات ووقع ذلك فى ١٥٦٨ ولما كانت هذه الجبال من اصعب تضاريس الارض مرتقى واوعرها مسلكاً كان تدويخ سكانها من أصعب الأمور مثلاً وكانت الفتنة فيها بعيدة المدى فاستمرت هذه المرة حولين كاملين حافلاً تاريخها بحوادث لا تحصى من القتل والغدر والتعذيب والاستباحة والاحتياط وذلك من الجانبين لامن جانب واحد لكنه حافل ايضاً بوقائع ينسدر فى تاريخ الفروسية وكتب الحاسة الظفر بامثالها وتبقى على صفحات السير نظراً للقرون والأمم . وكان

(١) كان من عادة الشعوب اللاتينية التفرز من الطهارة والاستحمام وكانوا يبنون المسلم بقولهم « الذى يدخل الحمام » وكان الاسبانيول يهدمون الحمامات بالشره التى يهدمون بها الجوامع

المغاربة هناك في موطنهم الاخير والموقف الذي يحاولون فيه ادراك الثأر عن نحو من مائة سنة قضاوها في البلاء العظيم والهون الذي ليس له نظير فهبوا جميعاً منادين باخذ الثأر واقتضاء الاوتار قرية بعد قرية وهدموا الكنائس واهانوا ما فيها وفتكوا بالقسيسين وعذبوا النصارى الذين وقعوا في ايديهم واعتصم الذين نجوا بالمعاقل والابرار ودافعوا دفاعاً شديداً . وكان مركيز « مونيتجارة » قائداً في غرناطة فعمد الى المسألة واخذ بالملاينة وكادت الوقدة تنطفئ لولا ما اعاد الشرر من ذبح مائة وعشرة سجناء من المغاربة في حبس البيازين قيل ان ذبحهم وقع بغير علم المركيز لكن الموريسك لم يقبلوا العذر ونشروا لواء الثورة وصار ابن امية اميراً بالنعول على جميع جهات البشرا لا انه لم يكن ممن يحسن السياسة فقام بعض اعوانه وقتلوه وبويع لرجل آخر موصوف بالنجدة والحجاسة اسمه عبدالله بن أبوه

« فأرسلت دولة اسبانية لتدويع النوار الدون «جون الاوسترى» أخا الملك وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر فباشر القتال في شتاء ١٥٦٩ الى ١٥٧٠ وأتى من الفطائع ما بخلت بانداده كتب الوقائع فذبح النساء والأطفال امام عينيه وأحرق المساكن ودمر البلاد وكانت علامته « لا هوادة » وانتهى الأمر باذعان الموريسك لكنه لم يطل واستأنف مولاى عبدالله بن أبوه الكرة فاحتل الأسبانيول حتى قتلوه غيلة وبقي رأسه منصوباً فوق أحد أبواب غرناطة ثلاثين سنة . وأخفش الاسبانيول في قمع الثورة بما أقدموا عليه من الذبح والحريق والخنق بالدخان حتى أهلكوا من بقية العرب خلقاً كثيراً وخنع الذين نجوا من الموت لكنهم وقعوا في الرق وسيقوا بماليك وعبدانا ونفي منهم جلة فأخذ عددهم يتناقص . ولما كان اليوم المشهود والمذكور في التواريخ وهو عيد جميع القديسين سنة ١٥٧٠ بلغ عدد من ذهب منهم عشرين ألفاً والذين أخذوا منهم في معمة الفتنة صاروا الى الاستعباد وأخرج الباقون من البلاد مخفورين فمات كثير منهم على الطرق تعباً ومنهم من أجاز الى بر العدو وطافوا هناك سائلين لأجل قوتهم الضروري . ومنهم من لجأ الى بلاد فرنسة حيث استقبلوهم برّاً وترحبوا واحتاج اليهم هنرى الرابع لأجل دسائسه في مملكة أسبانيا^(١) ولم ينته اخراجهم تماماً الى سنة ١٦١٠ اذ وقع الجلاء

(١) الحقيقة ان هنرى الرابع أصدر أمراً بقبولهم في فرنسة لكن على شرط أن يتحولوا كاثوليكين وقد نفذ الأمر وأجبروا على التنصر الى أن طلب السلطان ابن عثمان اخراجهم من فرنسة الى بلاد الاسلام

الأخير ولم يبق في تلك البلاد مسلم واحد بعد أن وليها الاسلام ثمانية قرن . ويقال ان عدد من خرج منهم منذ اليوم الذي سقطت فيه مملكة غرناطة الى السنة العاشرة بعد الألب والستمائة يبلغ ثلاثة ملايين وان الذين خرجوا الآخر مرة يبلغ نصف مليون

«وأما الاسبانيول المساكين فلم يعرفوا ماذا يصنعون ولا فهموا أنهم كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم بل كانوا فرحين مسرورين بطرد المغاربة الذين اسبانية كانت بهم مركز المدنية ومبعث أشعة العلم قرونا . وقاما استفادت بقعة أوربية من حضارة الاسلام بمقدار ما استفادته هذه البلاد . فلما غادرها الاسلام انكسفت شمسها وتسلب نحسها وان فضل مسامي الاندلس ليظهر في همجية هؤلاء القوم وتأخرهم في الحضارة وسقوط هذه الأمة في مكاتبتها الاجتماعية بعد ان خلت ديارها من الاسلام». انتهى كلام ستانلي لامبول ملخصا

وأستشهد في حاشية هذه الجلة بنقل يمثل لك درجة هذه الحقيقة وهو ان لذلك حول مدينة غرناطة ضياعاً واسعاً ومزارع اضطروا الى بيعها سنة ١٥٩١ بسبب أنهم كانوا يخسرون عليها أكثر من غلتها مع ان هذه البقاع كانت لعهد العرب حدائق غذاء وغياضاً وارقة الافياء وموارد ثروة ورعاء . ومن أراد أن يعرف ما كانت عليه تلك المزارع من الخصب والنماء في زمان العرب فما عليه الا أن يقرأ الاحاطة في أخبار غرناطة تأليف وزير غرناطة الشهير لسان الدين بن الخطيب قال من جلة ما ذكر من وصف بساتينها :

« وتحف صررة هذه المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى البساتين العريضة المستخلصة والأدواح الملتفة فيصير سورها من خلف ذلك كأنه من دون سياج تلوح نجوم الشرفات أثناء خضرائه . (الى أن يقول) :

فخرج أكثرهم وبقى منهم من اختار الإقامة بفرنسة مع النصرانية ولما ظهر مذهب البروتستانت وكان منهم من اختار هذا المذهب وصدر أمر لويس الرابع عشر باخراج البروتستانت كما لا يخفى هاجر قسم من هؤلاء الى سويسرة وبينهم العالم العلامة الشهير «أبو زيد» Abouzyt الذي كان من أعلم علماء عصره في كل فن وكان صديقاً لثولير وروسو ونيوطن ولايينيز وكان ثولير يقول عنه « صديقنا العربي » وطالما كان ثولير يستفتيه في عويص المسائل وكانت بينه وبين روسو مراسلات كثيرة جمعها أحدم في كتاب . وفي جنيف الآن شارع باسم ابوزيد تحديداً لذكر هذا العبقري العربي العظيم وكان أبو زيد من عائلة أطباء عربية ساكنة في تولوز بجنوبي فرنسا

« فليس تعرفون من جنباته عن الكروم والجنان جهة الامالا عبرة به مقدار غلوة أما ما حازه السفلى من حومته فهي عظيمة الخطر متناهية القيم يضيق جرد من عدا أهل الملك عن الوفاء بأثمانها منها ما يغفل في السنة الواحدة نحو الألف من الذهب قد غصت منها الدكاكين بالخضر الناعمة والفواكه الطيبة والثمرة المدخرة يختص منها بمستخلص السلطان المدور طوقاً على ترائب بلده ما يناهز مائة منها الجنة المعروفة بعداً أن الميسة والجنة المعروفة بعداً أن عصام^(١) والجنة المعروفة بالعروى والجنة المنسوبة الى قداح بن سحنوق والجنة المنسوبة لابن المؤذن والجنة المنسوبة لابن كامل وجنة النخلة العليا وجنة النخلة السفلى وجنة بن عمران والجنة التي الى نافع والجرف الذي يُنسب الى مقبل وجنة العرض وجنة الحفرة وجنة الجرف ومدرج نجد ومدرج السبك وجنة العريف^(٢) كلها لانظير لها في الحسن والريع وطيب التربة وغرقد السقيا والتفاف الأشجار واستجادة الأجناس الى ما يجاورها ويتخللها مما يختص بالأحباس الموقفة والجنان المتملكة وما يتصل بها بوادي سحل ما يقيد الطرف ويعجز الوصف قد مثلت منها على الأنهار المتدافعة العباب المنارة القباب واختصت من أشجار العاريات ذات العصير الثاني بهذا السقع ما قصرت عنه الأقطار الخ » اقتصرنا على هذه الجبل من وصف طويل

ولا شك أن جنان السلطان الموصوفة هذا الوصف كله والتي كانت تدر بالاموال والأرزاق أيام العرب هي التي آلت بعد فتح الاسبانيول لغرناطة الى ملك الاسبانيول وعادت لعهدهم لا تعطى من الغلة ما يفي بالنفقات اللازمة لها

وقال واشنطنون ارثين في تاريخه الشهير لفتح غرناطة ما ملخصه :

« انه بعد دخول هذه البلدة في حوزة الاسبانيول بقيت الحال غير مستتبّة تماماً مدة سنوات الى أن وقع من اجتهاد رؤساء المذهب الكاثوليكي في حمل المسلمين هناك على

(١) العبدان بفتح أوله وتشديد ثانيه وفد يكسر أوله هو زمن الشيء وعهده وهو يقال لدور أصحاب المياه في سقيا البساتين وهذه اللغظة مستعملة في الشام بهذا المعنى وقد سرت الى الاندلس الذين أكثر عربها كانوا شاميين

(٢) هذه التي يقول لها الافرنج Généralif

النصرانية^(١) ما أياأس مغاربة الجبال المتشدين في دينهم فثاروا برؤساء الدين الكاثوليكي وقبضوا على اثنين منهم وعرضوا عليهما الاسلام فامتنعا فقتلوهما . وقيل ان النساء والأولاد قتلوهما قعصاً بالعصى وشدخاً بالحجارة وأحرقوا جثثيهما فاتتقم النصارى من هذه الفعلة بأن اجتمع منهم نحو من ثمانمائة فارس وساروا الى قرى المغاربة يخرّبون ويعيثون فاعتصم المغاربة بالجبال وانتشرت الفتنة في الجبال كلها لكن وسطها كان في جبل « برميجه » المصاقب للبحر^(٢) فلما اتصل الخبر بالملك فرديناند أصدر أوامره بنقل المسلمين الساكنين في جهات الثورة الى قشتالة وأعطى الأمر سرّاً بأن من يدخل منهم في النصرانية يبقى في وطنه ثم رمى تلك الأمة بالقائد المشهور « الوزودواغيلار » ومعه جيش وهو الذى قضى معظم شبابه في قتال المغاربة فما اقترب من بلادهم حتى هرع جلة وافرة منهم الى رندة للدخول في النصرانية^(٣) وجرم الباقيون منهم تحت قيادة فارس منهم اسمه الفهرى الى

(١) قد وقع في تاريخ الاسلام أن بعض ملوكه عززوا الاسلام وأحبوا نشره بطرق سلمية ولكنه لم يقع ولا مرة أن المسلمين أكرهوا النصارى أو اليهود على قبول دينهم

(٢) لقد طفت يوم ذهابي الى اسبانية بهذه الجبال ورأيتها متدلّية الى البحر مع علوها الشاق وفهمت ما كان من السهولة على المسلمين من الثورة فيها والاتصال بالمسلمين الذين كانوا يجذبونهم الفينة بعد الفينة من وراء البحر

(٣) عندما كنت في رندة سنة ١٩٣٠ وشاهدت آثار العرب الباقية فيها كالحمام والجسر والأبراج التي عند الباب وحنية المياه المجرورة اليها ولا سيما القصر الذي منه درج تحت الأرض منحوتة في الصخر تبلغ ٣٦٠ درجة نزولا من القصر الى النهر وغير ذلك من الآثار قلت لما كنت هناك أجبت أن أستعلم عن منزل أبى البقاء صالح بن شريف الرندى فلم أقف له على أثر وقيل لى ان محامياً اسمه « لوزاو » هو أخبر الناس بمخطط رندة وله تأليف في تاريخها فجاء وأطلعنا على كثير من آثارها وأخبارها وسألته عما اذا كان معلوماً محل بيت صالح بن شريف الرندى الشاعر المشهور فاجاب بالنفي . ثم سألته عما اذا كان باقياً هناك عائلات عربية معروفة فقال انه كان في رندة أسرة عربية اسمها venega تحريف Benega اقرضت وانه كانت عائلة اسمها الزغري وانه بقرب رندة في تلك الجبال قرية اسمها venadali لعلها محرفة عن « بنى عدالي » أو ما أشبه ذلك معروف أن أصل أهلها عرب وقرية أخرى اسمها ben arrabat أو « بنى الرباط » وقرية أخرى اسمها ben alariah وهذه يرجح أنها محرفة عن « بنى رباح » وهؤلاء من أشهر قبائل العرب بالمغرب . وذكر لى اسم قرية اسمها Zara أظنها محرفة عن « صخرة » وقال لى انه توجد في قرية « خوبريكه » أسماء عربية كثيرة

حيث يتعذر السلوك من تلك الأوعار رابطين شعاب الجبال دون مرور عساكر الاسبانيول فتلاقى الجمعان أمام بلدة « مونارده » وانتشب القتال فيقال ان الدون « الوزو » مع ابنه الدون « بطره » وثلاثمائة من شجعانه صدقوا الحملة على المغاربة فأزاحوهم وتلاحقوا في الهزيمة فتبعضهم الجند يغنمون وينهبون ولما امتلأت أيديهم بالغنائم كرم عليهم الفهرى بجماعة من أبطاله وعلت الصرخة فارتجت لها جوانب الأودية وذعر الأسبانيول فتداعوا الى الفرار وثبت الوزو في مكانه يحرضهم ويضم من شئت شملهم فصر معه جماعة وولى الأكثرون ودخل الظلام وخيم الغسق واشتد الخناق بالاسبانيول وجرح بطره بن الوزو فأمره أبوه بالرجوع فأصر على البقاء بجانب أبيه فأمر أتباعه بحمله الى معسكر كونت « أورينه » فاحتملوه متخفاً جراحاً ولبت الدون بمائتين من رجاله يناضلون الى أن فنوا عن آخرهم

« وتحصن الدون بين صخرين يتقى بهما فبصر به الفهرى فقصده واستحضر الصراع وألح الفهرى وطمع في قرنه وكانا متماثلين في ثبات الجنان مع قوة الاضلاع وتوثق الخلق فصاح الوزو بخصمه : « لاتحسبن نفسك وقعت على صيد هين فأنا الدون الوزو دواغيلار » فأجابه المغربي : « ان كنت أنت الدون الوزو فاعلم أنى أنا الفهرى » ثم كوره صريعاً ومات بموته مثال الفراسة الاسبانية والنموذج الغشمسمية في الأندلس . واندفع المغاربة ذلك الليل بطوله يطاردون الاسبانيول ولم ينكشفوا حتى لاح الصباح فأجلى المعترك عن قتل الدون « فرانسيسكو دوراميز » المجريطى الذى كان قائد المدفعية الأكبر وكانت له المواقف المشكورة في حصار غرناطة لكن مصرع الدون الوزو دواغيلار أنسى الأحزان جميعها . وعند وصول خبر هذه الفاجعة الى الملك زحف بالجيش الى جبال رندة فسكنت بحضوره النائرة واشترى بعض المغاربة أرواحهم بخازوا الى افريقية واحتمى آخرون بالنصرانية . وأما أهل البلد الذى قتل فيه فرسان الاسبانيول فسلكوا فى سلسلة العبودية وبحث الملك عن جثة الدون فوجدوها بين مائتي جثة فيها أجساد عدد من الأمراء والكبراء وجلت تجاليد الدون الوزو الى قرطبة فى مشهد حافل بين مدامع كالسحاب الهواطل ودفن فى كنيسة مارهيبيوليتو ونذبه الاسبانيول دهرأ طويلاً . انتهى كلامه مجملًا

وذكر المؤرخ الشهير الفرنسي فيكتور دروى Victor Duruy في تاريخه ما يأتى ملخصاً :

« ان اسبانية تخلصت من العرب لكنها بقيت حافظة عليهم احنة شديدة ربّتها في قلوبهم ثمانية قرون قضتها معهم في الحرب . وكان لذلك سكان الجزيرة اخلاطاً من مسلمين ونصارى ويهود فعول فرديناند على توحيد الهيئة بوحدة الاعتقاد تعزيزاً للدولة فأنشأ ديواناً جديداً للتفتيش وكان الملك هو الذى يعين الرئيس والمفتش الكبير ويضع يده على أملاك المحكوم عليهم . وكان هؤلاء في البداية من النصارى المتهودين والمسلمين المنتصرين ظاهراً الباقين باطناً أمناء لمحمد ﷺ ثم شملت أحكام الديوان أهل البدع السياسية كما شملت أهل البدع الدينية . وسنة ١٤٩٢ قرر ديوان التفتيش المذكور طرد اليهود من اسبانية بعد أن سلبوهم أموالهم . وقد قدر بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الحادثة عدد من خرج منهم بثمانمائة ألف (١) والقسم الأكبر منهم هلكوا وعذبوا بما لم يعذبه أحد من العالمين وسنة ١٤٩٩ صدر الأمر بسلب المسلمين حريتهم الدينية التى تقررت لهم بموجب عهد غرناطة فجلا منهم جم غفير ولم يتم خروجهم جميعاً حتى القرن التالى سنة ١٦٠٩ وهكذا فازت اسبانية بوحدتها الدينية لكنها خسرت صناعتها وتجارتها اللتين كان العرب واليهود اهم عمالهما » اهـ

وذكر مرة عند كلامه على شرلكان انه اكمل مقصد فرديناند فاكره مسامى بلنسية على التنصر. وأهل غرناطة على ترك زيههم والتكلم بغير لغتهم . وقال فى عرض الكلام على فيليب الثانى انه اضطهد المغاربة وضيق عليهم حتى اضطروا للثورة سنة ١٥٦٨ وأوقدوا نيرانهم على تلك الجبال ايذاناً بالخروج وكان يمكنهم بما امسكوه من مخائق جبالهم الثبات طويلاً لو امتدت اليهم يد معونة من اخوانهم فى افريقية . ففرق فيليب شملهم وبددهم فى مقاطعاته ولم تمض سنون عشر حتى صاروا كلهم ارقاء

(١) منهم جماعة وافرة فى أزميز وأقوام فى الاسطانة وسلانك هاجروا اليها فى تلك الكائنة ومنذ خمس سنوات — وقد صارت المدة الآن ٣٥ سنة أى انها كانت خمس سنوات يوم طبعنا تأليفنا آخر بنى سراج مع ذيله فى تاريخ الأندلس الطبعة الأولى — احتفلوا بعيد مضى الأربعمئة سنة على دخولهم بلاد الدولة العثمانية أكثروا فيه من الدعاء لسلطنة آل عثمان التى هى كهف الطارودين

ثم لنذكر بحسب عادتنا في المقابلة بين تواريخ الافرنج وتواريخ العرب كلام المقرئ عن هذه الوقائع الأخيرة مع بعض تصرف . قال : « ثم ان النصارى نكثوا العهود ونقضوا الشروط عروة عروة الى ان آل الحال لجلهم المسلمين على التنصّر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم انهم قالوا ان القسيسين كتبوا على جميع من كان اسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً الى النصرانية ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا قوة لهم . ثم تعدوا الى امر آخر وهو ان يقولوا للمسلم ان جدك كان نصرانياً فأسلم فلترجع انت نصرانياً . ولما خش هذا الأمر قام أهل البيّازين على الحكام وقتلوهم وهذا كان السبب للتنصّر : قالوا ان الحكم خرج من السلطان ان من قام على الحاكم فليس الا الموت الا ان يتنصّر . وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة . وامتنع قوم من التنصّر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى واما كن كذلك منها بلفيق واندرش^(١) وغيرهما فجمع لهم العدو الجوع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسييا الا ما كان من جبل بلنقة فان الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة^(٢) وأخرجوا على الامان الى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر . ثم بعد هذا كان من أظهر التنصّر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلى فشدد عليهم النصارى في البحث حتى انهم احرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوه من حل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد . وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله تعالى لهم ناصراً الى ان كان اخراج النصارى اياهم بهذا العصر القريب عام سبعة عشر والرب خرجت الوف بفاس والوف آخر بتلمسان من وهران وجهورهم خرج بتونس فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا اموالهم وهذا ببلاد تامسان وفاس ونجا القليل من هذه المصرة

«وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى منهم عسكرياً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ماهو مشهور الآن وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات وهم الآن بهذا الحال ووصل منهم جماعة الى القسطنطينية

(١) هي البلدة التي ذهب اليها أبو عبدالله بعد أن أخذت منه غرناطة

(٢) هو الوزو دو اغيلار

العظمى الى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام وهم لهذا العهد على ما وصف والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين » انتهى ثم قلت في ذيل آخر بنى سراج :

« ثم ان الأندلسيين المطرودين النازلين ببر العدو اتفقوا من الاسبانيون ومن طوائف الفرنج عما أذاقوهم اياه من العذاب وذلك بجهاد البحر الذى اشار اليه المقرئ حيث انهم انتظموا فى سلك بحرية الجزائر وغيرها من بلاد المغرب ايام كان اهلها يلقبون بملوك البحر وكانت دول أوربة بأسرها تدفع لهم الجزية وتواصل الى والى الجزائر الهدايا دفعاً لغائلة السفن المغربية عن سفنها فكان من قطع المغاربة خصوصاً الأندلسيين منهم السبل البحرية على بحارة الاسبانيول وغيرهم من السبي والاسر والعيث على شواطئ أوربة لاسيا اسبانية ما ألف له الاوربيون تواريح خاصة به وهو يدل على استحكام الاحن فى صدورهم . وفى الواقع لانرى عداوة طال امرها وتوقدت جرها كالعداوة التى بين المغاربة والاسبانيول

« وقد اتفق الكتاب على ان الأندلسيين الجالين عن بلادهم الى بر العدو احتملوا معهم على أيديهم صناعة الاندلس وفى صدورهم هم اهلها ونقلوا ذوق تلك البلاد الموصوف بالسلامة الى حيث القوا عصا تسيارهم . فأخذت عنهم فنون وشاعت بواسطتهم صنائع وانتشرت بسببهم فوائد وكانوا مع رثانة حالهم وتشريدهم من بلادهم صفر الايدى الامن زهيد المتاع يمتلئون حينما حلوا قطعة من الاندلس ولا يزال على يثاتهم وأنواع معاشهم وسائر شؤونهم وما أخذهم مسحة اندلسية تمتاز بالذوق وتدل على الاصاله فى التمدن حتى ان الكتاب الافرنسي «فيليكس دوبوا» الذى ساح فى أواسط افريقية فى العام المنصرم (أى سنة ١٨٩٦) عثر على قبيل فى جوار تنبكتويقال لهم الاندلولز حقق بما أخذه من اخبار اصول تلك القبائل انهم من جالية الاندلس كما يدل عليه اسمهم . وذكر انهم مع فقرهم تجدهم اسمى ذوقاً وأعلى طبقة فى المدنية من القبائل المجاورة لهم وان لهم صناعات مخصوصة بهم كالصياغة والنقش وغير ذلك والظاهر انهم مترامون الى السودان عن مرا كش وسبحان من بيده تصاريف الأمور . انتهى ماقلته فى ذيل آخر بنى سراج

ثم نعود الى موضوع تحويل الاسبانيول لعرب الأندلس من الاسلام الى النصرانية فنقول ان أهم ما عثرنا عليه فى هذا الباب وأدقه هو ما جاء فى كتاب « الأنوار النبوية فى

آباء خير البرية « للعالم النسابة سيدى محمد بن عبد الرفيح الأندلسى المتوفى فى رجب عام اثنين وخسين وألف (١) وهو كتاب خطى عزيز الوجود نقل عنه العالم المؤرخ الشيخ أبو عبد الله محمد أبو جندار فصلاً بتمامه جليل الخطر فى هذا الموضوع وذلك فى كتابه « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » رعيماً لكون جل انساب أهل الرباط اندلسية وأن البيونات النبيلة فيها كلها أوجلها من بقايا جالية الأندلس واليك ما يقوله محمد بن عبد الرفيح :

« قد كثر الانكار علينا معشر أشراف أهل الأندلس من كثيرين من اخواننا فى الله بهذه الديار الافريقية من التونسيين وغيرهم حفظهم الله تعالى بقولهم : من أين لهم الشرف وقد كانوا ببلد الكفار دمرهم الله ولهم مئون من السنين كذا وكذا ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الاسلام وقد اختلطوا مع النصارى أبعدهم الله . الى غير ذلك من الكلام الذى لانظيل به ولا أذكره هنا صوناً لعرضهم ولحجى فيهم فأقول وبالله التوفيق وهو الهادى الى أقوم طريق : مع انى صغير السن حين دخولنا هذه الديار عمرها الله تعالى بالاسلام وأهله بجاه النبى المختار ﷺ فقد أطلعنى الله على دين الاسلام بواسطة والدى رجة الله عليه وأنا ابن ستة أعوام وأقل مع انى كنت اذ ذاك أروح الى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ثم أرجع الى بيتى فيعلمنى والدى دين الاسلام فكنت أعلم فيهما معاً وسنى حين جئت الى مكتبهم أربعة أعوام : فأخذ والدى لوحاً من عود الجوز كائى أنظر الآن اليه مملساً من غير طقل ولا غيره فكتب لى فيه حروف الهجاء وهو يسألنى حرفاً حرفاً عن حروف النصارى تدريباً وتقريباً فاذا سميت له حرفاً أعجبيا كتب لى حرفاً عربياً فيقول لى هكذا حروفاً حتى استوفى لى جميع حروف الهجاء فى كرتين . فلما فرغ من الكرة الأولى أوصانى أن أكتب ذلك حتى عن والدتى وعمى وأخى وجميع قرابتنا وأمرنى أن لا أخبر أحداً من الخلق ثم شدد على الوصية وصار يرسل والدتى الى فتسألنى ما الذى يعلمك والدك فأقول لها : لاشئ . فتقول : أخبرنى بذلك ولا تخف لأنى عندى الخبر بما يعلمك : فأقول لها : أبداً ما هو يعلمنى شيئاً . وكذلك كان يفعل عمى وأنا أنكر أشد الانكار . ثم أروح الى مكتب النصارى وآتى الدار فيعلمنى والدى الى أن مضت مدة فأرسل الى من اخوانه فى الله الأصدقاء فلم أقر لأحد قط بشئ مع أنه رجه الله تعالى قد ألقى نفسه

للهلك لا مكان أن أخبر بذلك عنه فيحرق لا محالة . لكن أيّدنا الله سبحانه وتعالى بتأييده وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته بين أظهر أعداء الدين» اهـ

قلت فهمنا من هنا أن هؤلاء الجماعة كانوا أُجبروا على النصرانية طرّاً وإنما كانوا باقين في الغالب على الاسلام سرّاً وكانوا مضطرين أن يرسلوا أطفالهم حتى من سن أربع سنوات الى مكاتب النصارى ولم يكن يباح لهم أن يعلموا أولادهم شيئاً عن الاسلام ومن كان يقدم على ذلك وكانت الحكومة تعلم به كان يحرق بالنار . وبرغم هذا كله كان بعضهم حريصاً على تعليم أولاده عقيدته الاسلامية ولغته العربية فكان يعامهم ذلك مع أشد الاحتياط والامتنان خشية أن السلطة تأخذ سر الأمر من الأولاد فتحرق أولئك الوالدين بالنار كما هو قرار ديوان التفتيش الكاثوليكي . ولكننا لا نظن ان عدد الوالدين الذين كانوا يعلمون أولادهم الاسلام والعربية سرّاً كان كبيراً وذلك لأن كثيراً من العوام كانوا اميين لا يعرفون الكتاب فلا يمكنهم التعليم ثم لأن كثيراً من المسلمين كانوا يخشون أن تطلع السلطة على السرب بواسطة الأولاد فيقعوا في الهلاك . ولذلك كانوا يجتنبون بدون شك التعرض لهذه الهلكة . وقد نشأ أولادهم في النصرانية باطنياً ظاهراً وهم لا يعلمون أن آباءهم كانوا مسلمين وان قلوبهم كانت مطمئنة بالايمان وذلك نظراً لشدة كتمان الوالدين وخنزهم اطلاع السلطة على حقيقة حالتهم ولكون شعائر الاسلام كانت كلها ملغاة وكان هؤلاء المسلمون المحمولون على النصرانية كرهاً والذين يقال لهم الموريسك مضطرين اذا ولد لهم ولد أن يستدعوا القسيس ليعمده واذا تزوج منهم متزوج أن يستدعوه لعقد الاكليل واذا مات منهم ميت أن يستدعوه للصلاة على الجنازة وكانوا جميعاً يلتزمون الذهاب الى الكنيسة نهار الأحد فعلى هذه الحالة نشأ أولادهم في النصرانية وكان من الاسبانيول اليوم ملايين أصلهم من المسلمين بهذا السبب . ثم يقول :

« وقد كان والدى رحمه الله تعالى يعلمنى حينئذ ما كنت أقوله عند رؤيتى للاصنام وذلك أنه قال لى : اذا أتيت الى كنائسهم ورأيت الاصنام فاقراء فى نفسك سرّاً قوله تعالى : «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله ان يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون» الى آخرها وغير ذلك من الآيات الكريمة وقوله تعالى :

وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً وقولهم : انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً». فلما تحقق والدي رجه الله تعالى اني اكنتم أمور دين الاسلام عن الأقارب فضلاً عن الاجانب أمرني أن أتكلم بأفشاءه لوالدتي وعمي وبعض أصحابه الاصدقاء فقط . وكانوا يأتون الى بيتنا فيتحدثون في أمر الدين وانا أسمع فلما رأى حزى مع صغر سنى فرح غاية الفرح وعرفني بأصدقائه وأحبائه واخوانه في دين الاسلام فاجتمعت بهم واحداً واحداً اه

قلت ان الاسلام في الاندلس حسبما يظهر من هذا الوصف كان أصبح شبيهاً بجمعية سرية تكتم أمرها أشد الكتمان ولا يقدر الواحد من المسلمين أن يبوح باسلامه الا لمن يكون قد ابتلى أمانته وامتحن صدقه فكانوا يجتمعون سراً اذا كان بعضهم واثقاً ببعض ويتكلمون في أمر الدين في أشد الخفية . ثم يقول :

« وسافرت الاسفار لأجتمع بالمسلمين الاخيار من جيان مدينة ابن مالك (١) الى غرناطة والى قرطبة واشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء أعادها الله تعالى للاسلام فتلخص لى من معرفتهم أنى ميزت سبعة رجال كانوا كلهم يحدثننى بأمور غرناطة وما كان بها في الاسلام حينئذ وبما أقوله بعد وقتله قبل فسندى عال لسكونه ما تم الا بواسطة واحدة بينى وبين الاسلام بها » اه

ان من عرف كون ابن عبد الرافع توفى عام ١٠٥٢ لا يخفى عنه أنه كان شاباً في أول سنى الالف للهجرة أى منذ نيف وثلاثمائة سنة . ويظهر له أنه منذ نيف وثلاثمائة سنة كان في جيان وغرناطة واشبيلية وقرطبة أناس يدينون بالاسلام سراً وهم في الظاهر نصارى . وأغرب من هذا وجود مثل هؤلاء في طليطلة المصاقبة لمجريط والتي كان مضى على استرجاع الاسبانيول لها يوم زارها ابن عبد الرافع أكثر من خمسمائة سنة . أى انه بقى أناس مسلمون في الباطن في طليطلة من بعد أن زال عنها حكم الاسلام بخمسمائة عام . ولقد علمت من كتب الاوربيين أن اللغة العربية بقيت هي لغة الثقافة عند الاسبانيول ولغة المعاملات والأخذ والعطاء وبها تكتب الصكوك والعقود الى سنة ١٥٨٠ أى الى العهد الذى

كان فيه ابن عبد الرافع الأندلسي شاباً فعند ذلك صدر الأمر من الدولة الاسبانية بمنع الكتابة والكلام بالعربي . ولقد سمعت ما هو أغرب من هذا وهو أنه بقيت قرى الى أوائل القرن التاسع عشر في نواحي بلنسية يتكلم أهلها بالعربي . أما تحجب النساء في بعض قرى بلنسية وفي بعض قرى الجنوب مثل طريف فباق الى يومنا هذا . هذا ولدى مجموع وثائق كبير عدة أجزاء طبعه « انجل عونزا لز بلنسية » من أساتيد الآداب في جامعة مجريط اسمه « المستعربون في طليطلة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر »

Los mozarabes de Foledo en los siglos XII y XIII

وهو يتضمن صكوك بيع وشراء نقلت عن خطها العربي الأصلي بالزنكوغرافيا وجعلت

بازائها ترجمتها بالاسبانيولى

نذكر مثلاً من هذه الصكوك وهو هذا :

« اشترى رنى بو اسحق بن نحيمش اليهودى من جيلة بنت فرج زوج البليوشى البنأ جميع خصها وهو النصف من الكرم المعروف بالقوجوال بحومة قرية جلنكش من قرى مدينة طليطلة وعلى الاشاعة فيه مع من يشركها بسايره وحده فى القبله الطريق وفى الجوف جبل لابن برطال وفى الشرق كرم ابن فرنجيل وفى الغرب الطريق وفيه بابه بثمان عده ثلاث مائة مثقال من الصروف الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ بما فيه عشر درهما بمثقال على سنة المسلمين فى ... (هنا كلمة لم تمكن قرائتها) بيوعهم فى رمضان المعظم عام خمسة وتسعين وأربعمائة^(١) ومن أشهده على بن البليوشى باجازته له وامضائه له واقاراره ألا حق له فى شئ من المبيع المذكور وبوجه من الوجوه ولا سبب من الأسباب وانه كان لوالدته جيلة الى أن باعته حيث وصف . ابراهيم على بن سعيد بن أبو الفتح اللحنى ، و ابراهيم بن وهب بن أبى .. و ... بن يوسف بن الربابى . ومحمد بن أحمد بن سعد ... وعبد الرحمن بن أحمد بن عفيف الفهرى . وأحمد بن محمد ... ومحمد بن عبد الله بن مظاهر الانصرى . وأحمد بن يوسف الانصارى و ابراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ... وسلمة بن يوسف الانصرى ويحيى بن عبد الله ... الغافقى واليك مثلاً آخر :

« اشترى عبيد الله بن أسد من خلف بن عبد الله جميع الكرم الذى له فى أول منزل

(١) أى بعد سقوط طليطلة بيد الاسبان بعشرين سنة

رزين حده فى القبلة نهر تاجه وفى الجوف كرم يشت الحريرى وفى الشرق كرم لأبى خالد وفى الغرب غروسات السلطان أيدى الله بثمان عدته ستون ديناراً من البريزات الجارية بطليطة حين هذا التاريخ ، وفى شهر نونبر الكاين فى سنة ثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر

«ومما وجب الحاقه الى المدخل للكروم الموصوف فوق هذا على باب الكروم الذى لرد ريقه قيس السلطان . . الذى هو من ليون والباب المذكور مشترك بينهما اذ كان الكرم فى القرع واحد وعلى ذلك كله يقع الاشهاد

«عبد الرحمن بن زكريا . يوان بن خلف شاهد . سلم بن زكريا وكتب عنه . سليمان ابن عمر شاهد وكتب عنه . وعلى بن الحرير . عبد العزيز بن خير . ولبر فيم . . . وعبدالله ابتيال . وسليمان بن المجال . اليان بن سعيد . وعبد الملك بن عبد الملك وكتب عنه وعليه شهد عندي . وبخط عجمي جليانث بيترس تشتا . وبخط عجمي سيكاله بن مشارك شاهد وعلى كل اسم من العجمي معلم شهد عندي وبالعربي خالد بن اصتر»
واليك مثلاً ثالثاً :

« اشترى خير بن ركوى من يحيى بن عبد السلام جميع الدار التى له بحومة رحبة القشالى حد الدار فى الشرق دار خلف بن جواد وفى الغرب دار جلبرت الفرنجى وفى القبلة دار أبى الحسن بن زكرى وفى الجوف دار مفرج بن عثمان بثمان عدته أربعون ديناراً من الدنيرات الجارية بطليطة حين هذا التاريخ فى شهر ابريل الكاين فى سنة واحد وثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر

«وشهود الأصل فيه وفرج بن عبد الله . ومسعود زرقون شهد وكتب . عبد الرحمن ابن يحيى شاهد على ذلك . وعيسى بن الحسن شاهد وكتب عنه بأمره . وعيشون بن يحيى شاهد . هذيل بن حكم شاهد وكتب . زكرى بن عثمان شاهد وكتب عنه . وبالعجمي يشتش فليش بطره تشتش صحت هذه النسخة (الح) فى العشر الأوسط من شهر شتبر سنة ثلاثين ومائتين . وألف للصفر . يوان بن يليان السقلى شهد . ويوانث بن مقابل بن عبد العزيز المشنارى . وباطره بن عمر بن غالب بن القلاس »

وهذه المجموعة تشتمل على ١١٥١ صكاً يفهم الناظر منها أن التعامل كان فى طليطة

بعد استيلاء الاسبان عليها ^(١) لا يزال باللغة العربية وأن أكثر أهلها كانوا عرباً أو مستعربين وأن نزرأ منهم كانوا غير مستعربين وكانوا لا يعرفون أن يوقعوا أسماءهم بالعربي فكان يكتب أنهم وقعوا « بالعجمي » وما يدل على أن العروبة قد كانت هي السائدة انه ان كان ثمة شاهد أو بائع أو مشتر أفرنجي جرى تعريفه بلفظة « الافرنجي » ويرى الناظر في هذه المجموعة أن أناساً أسماؤهم مسيحية وأسماء آبائهم أو أجدادهم اسلامية مما يدل على كونهم تنصروا . ثم انه كان الطقس الكنسي في طليطلة بالعربي rite mozarabe وكان يختلف عن الطقس اللاتيني في ثلاث عشرة نقطة .

واغد اطلعت في جزيرة ميورقة على صك مقاسمة الاسبانيول لأملاكها وأراضيها بعد أن استولوا عليها سنة ٦٢٨ وهو محرر بالعربي أيضاً مع أنه صك تقاسم بين جماعة لسانهم غير اللسان العربي . وهذا الصك محفوظ في خزانة البلدية في « پالميا » على أنه لا يستغرب كل هذا أيام كان العهد بالعرب والعربية حديثاً . ولكن اللسان العربي بقي لسان أهل طليطلة الى سنة ١٥٨٠ وفي ذلك العهد كان يذهب اليها ابن عبد الرفيع فيجد اخواناً له باقين على الاسلام في الخفية . وقيل لى ان أحد المغاربة وقع في هذه الأيام الأخيرة ببعض قرى طليطلة فوجدهم يذبجون الأكباش يوم عيد النحر عندنا ويقولون انها عادة توارثوها عن آبائهم

ثم نعود الى كلام ابن عبد الرفيع الأندلسي فهو يقول :

« فباجتماعي بهم حصل لى خير كثير ولله المنة وقد قرأوا كلهم رحمهم الله على شيخ من مشايخ غرناطة أعادها الله للإسلام يقال له الفقيه اللوطورى رحمه الله تعالى ونفعنا به فانه كان رجلاً صالحاً وياً لله فاضلاً زاهداً ورعاً عارفاً سالكاً ذا مناقب ظاهرة مشهورة وكرامات زاهرة مأثورة قد قرأ القرآن الكريم في مكتب الاسلام بغرناطة قبل استيلاء العدو عليها وهو ابن ثمانية أعوام وقرأ الفقه وغيره على مشايخ أجلاء حسب الامكان لأن الوقت ضاق في السر والاعلان لشدة القتال والحصر الذى كان عليهم مع صغر سنه . ثم بعد مدة يسيرة انتزعت غرناطة من أيدي المسلمين أجدادنا وقد أذن العدو فى ركوب البحر والخروج منها لمن أراد وبيع ما عنده واتيانه لهذه الديار الاسلامية أبقاها الله تعالى عامرةً بالاسلام الى

يوم الدين وذلك في مدة ثلاثة أعوام . ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل بعد شروط
اشتراطوها والزامات كتبها عدو الدين على أهل الاسلام . فلما تحركوا لذلك أجدادنا وعزموا
على ترك ديارهم وأموالهم ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم وجاز الى هذه الديار
التونسية والحضرة الخضراء بقتة من جاء اليها حينئذٍ ودخلوا في زقاق الأندلس المعروف
بهذا الاسم وذلك سنة اثنتين وتسعمائة وكذلك للجزائر وتطاون وفاس ومراكش وغيرها
ورأى العدو العزم فيهم لذلك نقض العهد فردّهم رغم أنوفهم من سواحل البحر الى
ديارهم ومنعهم قهراً عن الخروج والحق باخوانهم وقرابتهم لديار الاسلام . وقد كان
العدو يظهر شيئاً ويفعل بهم آخر مع أن المسلمين أجدادنا استنجدوا مراراً ملوك الاسلام
كذلك فاس ومصر حينئذٍ فلم يقع من أحدهما الا بعض مراسلات ليقضى الله أمراً كان
مفعولاً» اهـ

قلت الذي يظهر من خبر الشيخ الصالح اللوطوري رحمه الله أنه نشأ وشب تحت حكم
الاسبانيول لكنه كان يعلم فرائض الاسلام سراً بقدر طاقته بعد أن أنفى الاسبانيول
شعائر الاسلام من كل الأندلس . وانه هو الذي أقرأ الأشخاص السبعة الذين ميزهم ابن
عبد الرافع ممن كان يجتمع بهم ويتحدث معهم في النجوى بأمر الاسلام . وأما مسألة اذن
العدو للمسلمين بالرحيل ثم منعه اياهم بعد الاذن فقد جاء هذا في التواريخ وربما كان العدو
توجّس خيفة أنه ان خلت الأندلس من المسلمين وصاروا كلهم في بر العدو انقضوا على
السواحل الاسبانية وأنزلوا بها المصائب أخذوا بالتأثر هذا فضلاً عن أن خروجهم جميعاً يخسر
الأندلس من جهة المال والجبايات ويخرب البلاد . ثم انه كان في نية فرديناند وإزابلا
اكراههم جميعاً على ترك الاسلام فلم يكن الاسبانيول بعد هذا يخشون بقاء أناس على
الاسلام في اسبانية . وأما استنجد الأندلسيين بملوك الاسلام وعدم اجابتهم الا بالكلام فان
هذه النازلة وقعت في عصر كانت فيه دول العرب بانحطاط لا تكاد تسد الفتوق التي عندها
في داخل بلادها فضلاً عن أن تسد الثغور البعيدة . وأما دولة الترك فكانت لا تزال قوية
الا أنها كانت في الجهاد الدائم مع الدول الأوربية كما لا يخفى فلم يكن من السهل عليها
التفرغ لأمر الأندلس . وبرغم هذا قد ثبت أن خير الدين بربروس وغيره من ولاة الجزائر
طالما أرسلوا نجادات بالمال والرجال الى مسامى جبال البشترات المشرفة على البحر .

ثم قال :

« ثم بقي العدو يحتال بالكفر عليهم غصباً فابتدأ يزيل لهم اللباس الاسلامي والجماعات والجماعات والمعاملات الاسلامية شيئاً فشيئاً مع شدة امتناعهم والقيام عليه مراراً وقتلهم اياه الى أن قضى الله سبحانه ما قد سبق في علمه فبقينا بين أظهرهم وعدو الدين يحرق بالنار من لاحت عليه أمانة الاسلام ويعذبه بأنواع العذاب فكم أحرقوا وكم عذبوا وكم نفوا من بلادهم وضيعوا من مسلم فانا لله وانا اليه راجعون حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه وتعالى وكان ذلك سنة ثلاث عشرة وألف لهجرته ﷺ » اهـ

قلت من أدل الدلائل على وجوب تمسك المسلمين بأزيائهم ومشخصاتهم القومية وعدم استخفافهم بهذا الأمر ان أعداءهم عندما يحاولون اخراجهم من الاسلام يبدأون باجبارهم على تغيير أزيائهم وأوضاعهم التي نشأوا عليها . وذلك كما فعل الاسبانيول من اكراه مسلمي الأندلس على نبد اللباس الاسلامي وترك الذهاب الى الجماعات وما أشبه ذلك فالعمل الذي عملته حكومة أنقرة بمسلي تركيا في هذا العصر من اكراههم على لبس البرنيطة ودق عنق من لم يلبسها أو من اتقذ لبسها ان هو الا مرحلة من مراحل خروج المسلمين الأتراك من الدين الاسلامي وعمل مشابه لما فعله الطاغيتان فرديناند وايزابلا بمسلي الأندلس بين يدي حملهم على النصرانية . نعم ان اللباس لا يتعلق بالدين والدين لا يتعلق باللباس ولكن لكل أمة مشخصات قومية ظاهرة ذات تأثير كبير في أحوالها الروحية الباطنة ومن ينكر ذلك يكن مكابراً ، ولو لا هذا التأثير ما كان الاسبانيول لتسهيل خروج مسلمي الأندلس من الاسلام بادروا باجبارهم على تغيير ملابسهم وعاداتهم وايم الله لو لا متانة الأمة التركية وشدة اعتصامها بحبل الاسلام لكان تأثير الأوضاع الجديدة التي حملتها عليها أنقرة عميقاً جداً ولا أزال أقول انه ان استمرت هذه الحالة مدة طويلة في تركيا كان على اسلام الترك خطر عظيم لا سيما بعد الغاء أنقرة كل تعليم ديني اسلامي من مكاتب الحكومة .

ثم قال :

« نخرج بعض أحبابنا واخواننا وهو الفقيه الاجل المدرس الشريف لامة أبو العباس أحمد الحنفي المعروف بعبد العزيز القرشي ومعه أحد اخواله رحمهم الله تعالى الى

مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية العظمى فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان أحمد ابن السلطان محمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى وأيدهم فأخبراه بما حل باخواننا الأندلسيين من الشدة بفرانسة وغيرها فكتب أمراً لصاحب فرانسة دمرها الله بأعلام السلطان نصره الله بأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين الأندلسيين وخدام آل عثمان ويوجههم اليه في سفن من عنده معما يحتاجون اليه »

قلت طالما ذكر المبغضون للدولة العثمانية تقصيرها في نجدة مسلمي الأندلس الذين حل بهم كل ماحل وانتزعت من أيديهم مملكة غرناطة أيام كانت هي في عزها وعنجبية أمرها. وأنا لأبرئ الدولة العثمانية من تبعة هذا التقصير وأقول انها برغم ما كانت عليه من الحروب في البلقان ومن مجاهداتها يومئذٍ للامان والمجر والبولونيين والبنادقة وغيرهم كان في استطاعتها أن تجرد جيشاً ينزل في سواحل غرناطة ويفرج عمن هناك من المسلمين ولكن قدّر الله أن لا تفعل ذلك وكان أمر الله قرأ مقدوراً ولكن بما لا يجوز انكاره أن أتراك الجزائر سواء لعهد بربروس أو من بعده كانوا لا يفتأون ينجدون ثوار المسلمين في جبال البشرات المتدلية الى البحر

ثم يقول :

« فلما قرئ الأمر السلطاني في ديوان الفرنسيين فسمعه من كان عنده مرسلًا من قبل صاحب الجزيرة الخضراء وهو اللعين فيليبو الثالث فأرسل لسيده وهو يخبره بالواقع . وأن السلطان أحمد نجل آل عثمان أرسل أمره الى فرانسا وأمر صاحبها بأن يخرج من كان عنده من الأندلس فقبل كلامه وأمر باخراج المسلمين وأذن لمن جاء من الأندلس بأن لا بأس عليهم وان يركبوا عنده في سواحله مزاكبه ويبلغهم الى حيث شاءوا من بلاد المسلمين » اهـ

قلت ان السلطان أحمد نجل آل عثمان الذي ذكره ابن عبد الرفيح الأندلسي هو السلطان أحمد الأول ابن السلطان محمد الثالث العثماني وهو السلطان الرابع عشر من سلسلة آل عثمان ولد سنة ٩٩٨ للهجرة (١٥٨٩) وتولى السلطنة وهو ابن أربع عشرة سنة وبقى فيها ١٤ سنة اذ توفي في ٢٢ نوفمبر سنة ١٦١٧ وهو ابن ٢٨ سنة لا غير . وله في استانبول جامع السلطان أحمد العظيم وسبيل الماء الذي في الطوبخانه .

« وفي ايامه عصى أهل البغدان وقع ثورتهم ونشبت الحرب مع العجم وعقد معهم الصلح وتغلب اسطوله على اسطول فرسان مالطة وذلك في بحر قبرص ودمره وكان مراد باشا صدر أعظم في ايامه فاخضع الثوار الذين كانوا حصوا الدولة وهو الذي بواسطته أصدر السلطان أحمد أمره بانقاذ الأندلسيين . وأما ملك فرانسة الذي في ايامه التجأ الى فرانسة المورييسك (أى مسامو الأندلس) الذين أكرهوا على التنصر فهو هنرى الرابع المتوفى سنة ١٦١٢ وكان هذا الملك قد قبلهم في بلاده على شرط أن يقبلوا الدين الكاثوليكي . فلما أرسل اليه السلطان أحمد العثماني باركابهم البحر الى بلاد الاسلام لم يسعه الا الاجابة وأركبهم البحر الى البلاد التي أرادوها من بلاد الاسلام وبقيت منهم بقايا في فرانسة اندمجوا في أهلها » ثم يقول .

« فلما أحس بهذا الأمر عدو الله فيليبو صاحب اسبانية دخله الرعب والخوف الشديد وأمر حينئذ بجمع أكبر القسيسين والرهبان والبطارقة وطلب منهم الرأى وما يكون عليه العمل في شأن المسلمين الذين هم في بلاده كافة فبدا الشأن في أهل بلنسية فأخذوا الرأى وأجمعوا كلهم على اخراج المسلمين كافة من مملكته وأعطاهم السفن وكتب أوامر وشروطاً في شأنهم وفي كيفية اخراجهم وشدد على عماله بالوصية والاستحفاظ على كافة المسلمين من الأندلس . نعم أريد أن أذكر لك نبذة يسيرة اختصرتها وترجتها من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر أبعد الله في أوامره التي كتبها في شأن اخواننا الأندلسيين حين اخراجهم من الجزيرة الخضراء لتكون على بصيرة من أمرهم وتعلم بعض الاسباب التي أخرجوا من أجلها على التحقيق لا كما يزعم بعض الحاسدين وليؤيد ذلك ما قدمناه آنفاً من أمر السلطان أحمد المنصور بالله نجل آل عثمان نصرهم الله آمين ونكمل الفائدة ولثلاً يساء الظن بنا معشر الأندلسيين فأقول وبالله التوفيق : قال الملك الكافر أبعد الله تعالى وزلزه آمين : « لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيدة موجبة لاجراج من يكدر المعاش على كافة الرعية النصرانية في مملكتها التي تعيش عيشاً رغداً صالحاً والتجربة أظهرت لنا عياناً أن الاندلسيين الذين هم متواسون من الذين كدروا مملكتنا فيما مضى بقيامهم علينا وقتلهم أكبر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم وقطعهم لحومهم وتمزيقهم أعضاءهم وتعذيبهم اياهم بأنواع العذاب الذي لم يسمع فيما تقدم مثله مع عدم توبتهم مما

فعلوه وعدم رجوعهم رجوعاً صالحاً عن قلوبهم لدين النصرانية وانه لم ينفع فيهم وصايانا
ورأينا عياناً أن كثيراً منهم قد أحرقوا بالنار لاستمرارهم على دين المسلمين وظهر منهم
العناد بعيشهم فيه خفيةً واستنجادهم كذلك عون السلطان العثماني لينصرهم علينا وظهر لي
أن بينهم وبينه مراسلات اسلامية ومعاملات دينية وقد تيقنت ذلك من اخبارات صادقة
وصلت الى ومع هذا ان أحداً منهم لم يأت إلينا ليخبرنا بما هم يدبرونه في هذه المدة بينهم وفيما
سبق من السنين بل كتموه بينهم علمت بذلك ان كلهم قد اتفقوا على رأي واحد ودين
واحد ونيتهم واحدة وظهر لي أيضاً ولا ريب العقول والمتدينين من القسيسين والرهبان
والبطارقة الذين جعتهم لهذا الأمر واستشرت ان من ابقائهم بيننا ينشأ فساد كبير وهول
شديد بسلطتنا وأن باخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشئ من ابقائهم بمملكتي فارت
اخراجهم من سلطتنا جلة ليزول بذلك الكدر الواقع والمتوقع للنصارى الذين هم رعيتنا
طائعين لاؤامرنا وديننا ورميتهم الى بلاد المسلمين أمثالهم لكونهم مسلمين « انتهى
قلت ظهر من هنا جلياً أنهم كانوا نصر وهم كرها والمملك معترف بذلك ومعترف بأكثر
من ذلك وهو أنهم كانوا يحرقون بالنار من يلحظون عليه انه كان باقياً مسالماً في السر .
وهذا أفضع عمل عرفه البشر في التاريخ . والمملك يعجب أيضاً من كونهم راسلوا السلطان
ابن عثمان سرّاً كسالمين يلتمسون نجده مع ان ملك اسبانية كان يظن أنهم بعد ان
أكرهوا على النصرانية ومضت عليهم هذه المدة الطويلة نحو من مائة سنة وترى أبنائهم
وأحفادهم في مدارس النصارى قد آمنوا بالدين المسيحي إيماناً خالصاً وزال كل أثر للإسلام
من قلوبهم فإراع المملك الا والأخبار تأتيه بأن هؤلاء القوم لا يرحون على دين آبائهم
في دخال نفوسهم وانهم يدبرون أموراً فيما بينهم ولا يوجد منهم من يأتي ويخبر حكومة
الاسبانيول بتدبيرهم الخفية مما يدل على كونهم بأجمعهم لا يزالون مسلمين فلماذا أجمع في
الآخر طردهم

ثم يقول ابن عبد الرفيق :

« ولم أعرض لذكر شروط كتبها ودققها فانظر رجلك الله كيف شهد عدو الدين
المملك الكافر بأنهم مسلمون واعترف أنه لم يقدر على ازالة دينهم من قلوبهم وانهم
متمسكون كلهم به مع انه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين ثم وصفهم بالعناد لرؤيته

فيهم لوائح المسلمين وأماراتهم فأى علامة أكبر من صبرهم على النار لأجل دين الحق ومن استنجاههم ملك دين الاسلام المؤيد لحماية الدين أمير المسلمين السلطان أحمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى فهذا غاية الخير والعز والبركة لهذه الطائفة الطاهرة الأندلسية التي قال فيها شيخنا الأستاذ القطب الغوث سيدى أبو الغيث القشاش نفعا الله تعالى به دنيا وأخرى في بعض مكاتيبه التي كان يكتبني بها في بعض شأنهم حين قدومهم الى هذه الديار أدامها الله للاسلام فقال لى : «وسلم لى على هؤلاء الأنصار الأطهار الأخيار فانه لا يحبكم الا مؤمن ولا يبغضكم الا منافق» انتهى بلفظه . ويؤيد كلام الأستاذ رحمه الله تعالى الأحاديث الشريفة السابقة فى أول هذا الكتاب فى الفصل الأول منه فى النوع الثالث منها كحديث سلمان الفارسى رضى الله عنه وحديث على رضى الله عنه وهو قوله عليه السلام : لا يبغض العرب الا منافق وغيرهما وكما جاء فى شأن قريش ثبوت نسب أكثرهم منهم ومن الأنصار الخزرج والاوز وغيرهما تغليباً فضلاً عمن هو منهم من الأشراف من ذرية الحسن والحسين والعباس وغيرهم رضى الله عنهم من بنى هاشم كما سيأتى ذكرهم ان شاء الله تعالى مع ما تقدم والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق نخرجوا كلهم سنة تسع عشرة وألف (١) ووجد فى دفتار السلطان الكافر أبعد الله تعالى أن جلة من أخرج من أهل الاندلس كافة نيف وستمئة ألف نسمة كبيراً وصغيراً فكانت هذه الواقعة منقبة عظيمة وفضيلة عجيبة لجماعتنا الاندلسيين زادهم الله شرفاً بمنه وأمر أيضاً باخراج من كان مسجوناً فى كافة مملكته وكل من كان أمر باحراقه فأخرجه وعفا عنه وزوده وأرسله الى بلاد الاسلام سالماً اه

قلت قد حصص الحق وظهر أن آل عثمان لم يهملوا تماماً مسلمي الاندلس وأن خلاص هذه الستمائة ألف الاخيرة من نفوسهم انما كان على يد السلطان أحمد الاول رحمه الله وكان مشهوراً بالتقوى والورع والحمة الدينية

هذا ولما كنا شارعين فى تأليف كتاب اسمه « الحلة السندسية فى الرحلة الاندلسية » يتضمن رحلتنا منذ سنتين الى اسبانية وما شاهدناه فيها من آثار العرب وعلمناه من تاريخهم فقد تركنا استقصاء أخبار الموريسك لذلك التأليف وانما نحب أن نلحق بهذا

(١) رواية فتح الطيب أن الخروج الأخير كان سنة سبع عشرة وألف فيجوز أن يكون وقع تحريف فى اللفظة لما بين تسع وسبع من التشابه

المبحث فصلاً جديداً عثرنا عليه في جريدة « آربايترسايتونغ » Arbeiterzeitung جريدة العملة النمساوية الصادرة في فيينا عددها المؤرخ في ٣ يناير سنة ١٩٣٢ قد أتى فيه بمناسبة الكلام عن ثورات أهل العمل على خبر موريسك بلنسية في أوائل القرن السادس عشر فقال :

« سنة ١٥١٩ ثار الاهالي في مملكة بلنسية من بلاد أسبانيا وصادف ذلك زمان ثورة « الكومونيروس » في قشتالة وثورة الفلاحين في ألمانيا . وبدأت ثورة بلنسية هذه بانتفاض أهل العمل . ولم يكن انتفاضهم على الملك نفسه بل على النبلاء أصحاب الاراضى . وكانت خلاصة مطالبهم المساواة في الحقوق مع الطبقات العليا وكان يتقدمهم يوان لورازو قائداً وما زالوا حتى أدخلوا اثنين من زعمائهم أعضاء في الهيئة الحاكمة في بلنسية . ولما كانت بلنسية تحت خطر غارات القرصان دائماً كان جميع الاهلين يحملون السلاح بدون حرج فساعد ذلك على نجاح الثورة كما أن العنف الذى كان يجرى من الحكومة في قمعها قد زادها اشتعالا وانتهى الامر بأن الاهالى تغلبوا على الحكومة والنبلاء وطردهم من بلنسية . ولما كان الموريسك يومئذ مستعبدين يعملون في أراضى النبلاء كانوا هم في الجهة المعارضة لهذه الثورة ولما كانت هذه الأمة مختلفة عن الثائرين في الجنس والدين وكانت تقاوم الثائرين بالسلاح نشأ عن ذلك مذابح تقشعرت منها الأبدان وانفجر بركان التعصب الدينى بصورة هائلة كما لا يخفى

« ولقد كان العرب فتحوا بلنسية سنة ٧١٥ مسيحية وبقيت من جلة ولايات قرطبة مركز الخلافة . وفي أيام ملوك الطوائف استقلت بنفسها وذلك سنة ١٠٣١ ثم افتتحتها مملكة اراغون سنة ١٣١٩ وبقيت في يدها وبقي العرب في الأراضى مزارعين بعد ان كانوا مالكيين وصار الملك للنبلاء . وكان هؤلاء العرب ذوى مقام عند الاسبانيول بسبب حسن قيامهم على الاملاك ومعرفتهم التامة بالزراعة وكانوا يؤدون ضرائب فادحة ولا يتكادهم ذلك لنشاطهم في العمل . ومن هناك جاء المثل الاسبانيولى : حيث لا عرب لا فائدة

Mi entras mas moros , ntar ganancia

« فكان النبلاء أصحاب الاملاك يكرهون سياسة الكنيسة التى كانت تعمل دائماً لتحويل العرب الى النصرانية لائن تنصر العرب كان يحرمهم فوائد جزيلة وسنة ١٥١٥

أمكنهم بشدة إلحاحهم الحصول على أمر من شريكهم بأن لا يجبر أحد من العرب على التنصرو بأن لا يطرد أحد منهم في كل أرض بلنسية . وهذا العضد الذي عضده النبلاء للعرب في أمر حريتهم الدينية جعل هؤلاء ينتصرون لهم بالسلاح عند مآثرهم حزب العملة

« فتحوّلت المصارعة بين العملة والنبلاء الى مصارعة بين المسيحيين والمسلمين بهذا السبب وفي وقعة « غانديا » في يوليو ١٥٢١ بين الحكومة والثائرين كان ثلث العسكر من العرب . ولهذا لأجل أن ينتقم الثائرون من النبلاء تعمّدوا تعميد المسلمين بالقوة القاهرة لأن المسلمين المنتصرين كانوا يحصلون على حقوق المسيحيين أنفسهم ويعودون مالكيين بعد أن كانوا مزارعين وترفع عنهم ضريبة إلحاحهم الخاصة بالمسلمين . فصار الثوار يجوبون البلاد وينصّرون أي مسلم صادفوه بالاكراه وينهبون مزارع النبلاء . وقد ازداد ذلك بعد وقعة « غانديا » التي كان الظفر فيها للثوار تحت زعامة « فيسنتي بيريس » فكان حزب العملة يزحفون ويجمعون المسلمين بالقوة ويأتى القسيسون فيرشونهم بماء المعمودية وما زال الأمر كذلك حتى تغلبت الحكومة على الثوار وذلك بعد وقعة شاطبة التي دافع فيها الثوار عن تلك البلدة دفاع الليوث وقتل فيها « بيريس » زعيمهم . وقد كان المأمول أن يحصل الفرج للمسلمين بتغلب الحكومة فحصل العكس وذلك بأن المسلمين بعد تنصيرهم كرهاً صاروا تحت نظرديون التفتيش الذي تأسس سنة ١٤٨٠ وكانت مهنة هذا الديوان حرق من لم تثبت نصرانيته بالنار . والحال أن جميع أولئك المسلمين الذين تنصروا بالقوة لم يكونوا يعلمون من النصرانية قليلاً ولا كثيراً . فكان وقوعهم في الائم في نظرديون التفتيش من أسهل الأمور . وبدأ اضطهاد هؤلاء المسلمين بشكل لم يسبق له مثيل . وكان النبلاء يحاولون الدفاع عن مزارعهم المسلمين فيسترضيهم رجال ديوان التفتيش بأصناف المنح حتى لا يعارضوهم في عملهم الوحشي بحق المسلمين . وبعد أن كان المنتصرون ممتنعين بحقوق النصارى الاصليين عادت الحكومة فلسبتهم هذه الحقوق وصاروا يؤدون الضريبة الخاصة بهم مثل ذى قبل ولم يعودوا أحراراً في منازلهم . وما برحت هذه الأعمال الوحشية تتفاقم بحق المسلمين حتى أخذت الرأفة بعض الاساقفة فراجعوا البابا سائلين إياه اذا كان التنصير تحت التهديد بالحريق جائزاً . وكان البابا بونيفاس الثامن فأجابهم : « بأن التهديد

بالموت لا يعد اكرهاً يبطل مشروعية التنصّر^(١) وأن الا كراه لا يكون اكرها الا اذا سيق المسلم الى المعمودية ويداه موثقتان ورجلاه مقيدتان وكان يصيح بأعلى صوته محتجاً على هذا العمل « وكان البابا يعلم جيداً أن المسلم الذي كان يحتج على تنصيره بهذه الصورة لم يكن يرفع صوته حتى يسقط صريعاً

«ففي هذه السنين التي وقعت فيها هذه الفظائع فرّ خمسة وعشرون ألفاً من مسامى بلنسية الى افريقية فالحق الضرر بالنبله في مزارعهم وراجعوا الامبراطور شارل كان بشدة فاصدر امره بتأليف لجنة لحل هذه المشكلة . فبعد مذاكرات طويلة قررت هذه اللجنة قراراً غريباً جداً وهو ان تعميد المسلم بالقوة ذنب يعاقب فاعلمه الا انه لا ينبغي ان يزول به اثر التعميد . والمسلم المعمد بالقوة يجب ان يبقى نصرانياً^(٢) وان الله هكذا يكون جعل من الشر خيراً وبالاختصار رجع المسامون الى نظرديون التفطيش وهم يجهلون اسط قواعد المسيحية

«فأخذ هذا الديوان ينقب وينقّر عن السكية والجزئية من اعمال المسلمين ومنع جمع شعائرهم الدينية بل منع جميع عاداتهم ومذاهبهم في الحياة ولو لم يكن لها تعلق بالدين وعاقب على ذلك . وكان يعاقب أشد العقاب من علم عنه انه لا يأكل لحم الخنزير أو الميتة أو عرف عنه انه لا يشرب الخمر أو قيل انه ادرج ميتة في كفن نظيف . وكانت النظافة في ذاتها ذنباً يعاقب عليه . وفي سنة ١٥٩٧ وجد في طليطلة المسمى « موريكو بارتولوم شانجه » فلاحظ عليه القوم انه شديد التطهر فعذبوه عذاباً شديداً ومازالوا يعذبونه حتى اقرّ بانه يتطهر عن عقيدة فحكموا عليه بالسجن المؤبد وبضبط جميع املاكه . ووجدوا قرآناً عند عجوز اسمها « ايزابلا زاسيم »^(٣) فقات انها لاتقدر ان تقرأه فلم ينفعها هذا القول وعذبوها ولكن لما كان عمرها تسعين سنة اكتشفوا من اهانتها بحملها على حمار والطواف بها في الشوارع وعليها غطاء مكتوب عليه اسمها واثمها ... ثم زجّوها في السجن وبقيت فيه الى ان علموها قواعد المسيحية . وقد عزبت نساء كثيرات على اطعامهن لحم الميتة للكلاب

(١) ليتأمل القارئ في صدق هذا البابا وحرية وجدانه ...

(٢) ليتأمل القارئ في هذا الرثاء وهذا التعليق الفارغ ونحمد الله على ان تاريخ الاسلام خال من المعرات التي تلوث بها غيره في باب الحرية الدينية

(٣) لعلها محرفة عن قاسم أو جاسم

بدلاً من الكهنه له . وكان من جملة الذنوب تخضيب الاظافر بالحناء . وكان اشد شيء على الموريسك ما كانوا يكرهونهم عليه من دفن موتاهم في وسط الكنائس ودينهم يأمرهم باضجاعهم تحت التراب . وكانوا يعاقبونهم بالغرامات الثقيلة وابتزاع املاكهم منهم واذا تكررت التهمة فبالحرق بالنار . وكان الذي ينجو منهم من الموت يحلف يمينا مؤكدة بأن لا يخبر أبداً بما جرى معه . وكان ديوان التفتيش يعمل العملين بالمسلمين سراً وكان منهم من يخفى اشهرأ . وكان منهم من يخفى سنين ولا يعلم احد به وكثيراً ما كان يؤتى بالرجل فيجد امرأته بعد ان كان فقدها ويؤتى بالاب فيجد اولاده بعد ان كان فقدهم وذلك التلاق بينهم عند محل الحريق . وقد حدث ان ابنة عمرها ١٩ سنة سعت بوالديها واهلها لدى ديوان التفتيش فاتوا بالاب فلم يقر بشيء فاحرقوه واما الام فافترت فحكموا عليها بالسجن المؤبد . وكانت ضحايا وشاية هذه البنت ٢٥ شخصا منهم أربعة ماتوا حرقاً بالنار والباقيون حكم عليهم بالسجن وأما أملاكهم فقد ضبطت بأجمعها

« ولقد انتهت هذه الفظائع الوحشية باجلاء جميع الموريسك عن اسبانية وقد كانت ثورة العملة في بلنسية هي السبب في اكرامهم على التنصر جوعاً وتمسك ديوان التفتيش بذلك لأجل اتمام عمله الشنيع » انتهى

قلت ان مبدأ « الغاية تبرر الوسطة » معروف عند هؤلاء الجماعة وليس منحصرأ في رهبانية الجزويت وحدهم . وتحريره أن الدخول في الدين الكاثوليكي هو خير محض وخلص من عذاب جهنم . وعليه فاذا ساءت الوسائل المستعملة لادخال غير الكاثوليك في الكتلكة فلا بأس لأن الغاية حسنة ... وهكذا أجازوا لأنفسهم ان يعملوا ما عملوه في اسبانية بالمسلمين واليهود وفي جنوبى فرنسا وفي بلاد اخرى بالمبتدعين الذين يسمونهم باهرطقة . وكل هذا جرى بأمر الباباوات ورؤساء الكنيسة وقلماً نازع فيه منازع منهم . ولهذا لما جرت في السنة الماضية مناقشة بين حزب الفاشيست في ايطاليا والفايكان من أجل قول موسوليني رئيس الفاشيست ورئيس الحكومة : انه يجب على الفاشيست ان يكرهوا أعداءهم وقول جريدة الفايكان ان هذا مخالف لمبادئ المسيحية اضطر موسوليني أن ينشر رداً تحت امضاء أحد أعوانه ذكر فيه مبادئ الكنيسة بشأن أعدائها وعدد أسماء الباباوات الذين أصدروا الأوامر بالقتل العام والحرق بالنار وأجازوا كل ألوان العذاب لأجل مجد

الرب... من هؤلاء الباباوات يوليوس واينوشنيوس وغريغوريوس واسندري بوجيا وغيرهم

ومن طالع تاريخ هؤلاء وبخاصة تاريخ البابا اسكندر بوجيا واولاده وعلم ما كان يجري من الفظائع بامرهم في نفس رومة لم يعجب مما جرى بامرهم وأمر اخوانه على مسلمي الأندلس . ولا جدال في صحة هذه التواريخ لأن رواياتنا متواترة وقد اجتمع عليها المؤرخون حتى من انفس الكاثوليك

ثم اتنا نعود الى موضوع مسلمي الاندلس فنقول انه مما لامرية فيه أنه لما خرجوا من اسبانية خروجهم الأخير سنة ١٠١٩ أو ١٠١٧ وكانوا ستائة الف نسمة لم يكونوا هم جميع المسلمين الباقين بالاندلس بل بقيت منهم بقايا كثيرة في كثير من المدن والقرى انتهى أمرهم بأن اندمجوا في الاسبانيول وصاروا نصارى فعلاً . ويقال ان رئيس جمهورية اسبانيا الحالي « السنيور القلعة زمورة » Alcala Zamora هو من سلالة العرب . ويقال ان رئيس نظارها الحالي « السانية » Azania هو أيضا من أصل عربي وان اناساً من اسبانيول شاطبة ينتسبون الى الامام الشاطبي صاحب القراءات . وقد شاهدت اناساً من بلنسية قالوا لي ان اصلهم عربي . وشاهدت من غرناطة رجلاً اسمه « الفخارو » قيل لي ان اصله عربي أي « الفخار » وهذه اسيرة معروفة في الاندلس وقيل لي انه يوجد في مالقة من ذرية بني سراج . والاسبانيول يقولون لهم « سراج » على عادتهم في قلب الجيم خاء . ولقد وجدت ذكر اعقاب السراجيين هؤلاء في كتاب رحلة الوزير الغساني الى اسبانية في ايام السلطان الكبير مولاي اسماعيل صاحب المغرب . وكنت قرأت ترجمة هذه الرحلة باللغة الافرنسية وأعجبتني جداً على كوني لم اطالع أصلها العربي . ثم اتصل بعلم المؤرخ الكبير العلامة النحرير الشريف الاثيل الاثير مولاي عبد الرحمن بن زيدان رئيس العائلة السلطانية العلوية بالمغرب أدام الله عزها ووفقها لخدمة الاسلام والمسلمين اني أبحث عن رحلة الوزير الغساني الاندلسي الكاتب الذي سافر لعهد مولاي اسماعيل الى اسبانية فتنفض بكرم اخلاقه بان أمر باستنساخ نسخة من هذه الرحلة بنصها العربي الأصلي واهداني اياها في جلد محلى بالذهب أطال الله بقاءه ونفع به وعلمت ان الوزير الغساني المذكور توفي في فاس سنة تسع عشرة ومائة والف . واما اسم رحلته فهو « رحلة الوزير في افتسكاك الاسير » وقد عثرت فيها على ذكر بني سراج عند

ذكر مدينة « اندوخر » من عمل قرطبة قال :

« وهي مدينة قديمة أثرها أثر الحضارة وهي على ضفة الوادى الكبير أيضاً وعلى هذا الوادى بقرب المدينة قنطرة من عهد الاسلام و بفحص هذه المدينة من الزياتين والغروس والبساتين وأراضى الحراثة مالا يحصى . وأهلها أهل حراثة وفلاحة والغالب على عمالها أنهم من بقايا الأندلس وجلهم من أولاد السراج الذين كانوا تنصروا على عهد السلطان أبى الحسن آخر ملوك غرناطة . وذلك فيما يزعمونه النصارى وينقلونه في تواريخهم ان بعض أولاد ابن زكرى الغرناطين كان وشى الى الملك بأحد أولاد السراج وذكر عنه أن له كلاماً مع زوجة ابن الملك ومخالطة . فحنق الملك على أولاد السراج الذين معه بغرناطة فقتل منهم جماعة أعيان وكان أولاد السراج لذلك العهد هم أقوى جيش المسلمين وبلادهم « اندوخر » بيدهم باقية بعد تغلب الكفرة على قرطبة واحوازها يحاربون عليها ويذبون عنها فحينما بلغهم خبر من قتل من اخوانهم بغرناطة حملتهم الحمية والأنفة والحنق والغيظ على أن ركبوا من ساعتهم وقصدوا طاغية الوقت فتنصروا على يده وخرجوا من عنده قاصدين غرناطة فأغاروا وحضروا بعد ذلك مع الطاغية في حروب غرناطة واحوازها نعوذ بالله من الضلال بعد الرشاد ومن الغواية بعد الهداية . وجل بقية هؤلاء المتنصرين الذين باندوخر يعد من أكابر أهل البلد غير أنه لا يعد عند النصارى مثل ما لهم من الكبرة التي يتوارثها النصارى خلفاً عن سلف مثل الدوك والقند وشبههما . وأكثراً يحصل لهم اليوم من الكبرة أن من يكون من نسل هؤلاء القوم الذين تنصروا أن يرث عمل الصليب على كتفه يرقه في ثوبه المتدثر به فتلك هي علامة الأكابر منهم . والخطط التي يتولونها بقايا هذا الجنس المذكور هي الكتابة وحكومة البلدان والشرطة وغيرها مما ليست وجاهة كبيرة وولاية سنية مثل التصرف في المحال^(١) أو الولاية للأقاليم الكبيرة والمدن القواعد مثل اشبيلية وما شاكلها . وعلى كل حال فهم في هذه النواحي كثيرون لا يحصون فمنهم من ينسب ومنهم من لا ينسب ومنهم من ينفر من سماعه الانتساب ذاك . والذين هم من هذه النسبة ويتأبى عنها ينتسب الى جبال نبارة وهي جبال يعهده من قشتالة^(٢) كان انحاز اليها من بقى من النصارى ساعة تغلب المسلمين على العدو وتفاخرون

(١) جمع محلة أى مركز قيادة الجيش

(٢) لعله يعنى نافاره

بالانتساب الى تلك الجبال وما والاها . والذين بيدهم ولاية أو خطة من الخطط المخزنية (١) من أهل هذا الجنس لا ينفرون من الانتساب فلقد لفت يوماً بمدينة مدريد (٢) رجلاً أنسيتُ اسمه الآن راكبا ومعه جماعة من النساء صغاراً وكباراً لهم حسب وجمال فوقف وسلم سلاماً كثيراً وأظهر هرو ومن معه من النساء بشراً وترحباً فقابلناه بما يجب وحين أراد الانصراف عرّف بنفسه بأن قال : نحن من جنس المسامين من نسل أولاد السراج . فسألت عنه بعد ذلك فقيل لي انه من كتّاب الديوان وهو الذي يقرأ ما يحصل بالديوان من رقايع وعرض حال وشبهه . وكذلك أيضاً كانت جماعة من أهل غرناطة لهم بغرناطة ولاية وأحكام وسكناهم بمدينة مدريد ترد علينا صحة ضون (٣) « الوصل » الذي هو من عقب ملك غرناطة (٤) ويتسبون الى الجنس الذي كان بغرناطة وغلب عليهم الشقاء والعياذ بالله . ولقد كانوا يسألون عن دين الاسلام وعن أشياء منه فحين يسمعون ما نجيبهم به عنه من الديانات وأحكام الطهارة التي بُني الاسلام عليها وغير ذلك يعجبهم ما يسمعون منه وينصتون اليه ويشكرونه بمحضر النصارى ولا يعباؤون بمن حضر . ولم يزالوا مدة مقامنا بمدريد يكثررون التردد لدينا ويردون علينا المرة بعد المرة ويظهرون من المحبة والتحنن شيئاً كثيراً . فنسأل الله أن يهديهم الى الصراط المستقيم ويرشدهم الى الدين القويم » انتهى

ثم اننا ننقل من رحلة الفاضل الوزير الغساني ما ذكره عن مدن أخرى أنس فيها رائحة الاسلام ولا عجب فان بين جلاء المدجنين الأخير وبين عهد هذه الرحلة نحواً من مائة سنة لا أكثر

قال عند ذكر مدينة « لينارش » : « وبها من بقايا الأندلس النزر من سكانها » وقال عند ذكر مدينة اسمها « مورا » هكذا : « ومعناها المسامة وسبب تسميتها بذلك والله أعلم انها ربما تأخرت عن جيرانها من المدة بشئ مافى التنصير »

(١) نسبة الى المخزن ومعناه في المغرب والأندلس ما يقال له الحكومة اليوم في الشرق

(٢) والعرب قديماً كانوا يقولون مجريط

(٣) أى الدون وهو من القاب الشرف عندم

(٤) بحسب هذه الرواية يكون من عقب أبى الحسن على بن الأحمر من تنصر وتحول أسبانيولياً وهذا يطابق ما قرأته من أن اخوة أبى عبد الله الصغار مذ سقط غرناطة تحولوا أسبانيولين

وقال عند ذكر مدينة « شريش » ما يلي :

« ومدينة شريش هذه تلقب بشريش الغرنطيرة ومعناها المقابلة ويعنون بها المقابلة لبرّ الاسلام أعزه الله وجل أهلها من أهل الأندلس وأعيانهم لأنهم تنصروا وهم أهل حراثة وفلاحة »

وذكر مدينة في جهات شريش اسمها « البربيجة » فقال : « وأنزلونا داراً لبعض أكابرهم وجعلوا يئنلون علينا للسلام وفيها من انتسب لنا الى الأندلس بأشارة خفية لم يقدر على التصريح بغير كلام خفي . والغالب على جل سكانها انهم من بقايا الأندلس الا أن العهد طال عليهم وربوا في بحبوحة الكفر فغلبت عليهم الشقاوة والعياذ بالله »

ثم ذكر مدينة « اطريرة » فقال من جملة كلام : « وجل أهلها من بقايا الأندلس » ثم قال : « وأهلها ذوات عظام والغالب عليهم الحسن رجالاً ونساء ولقد شاهدنا ابنتين احدهما بنت حاكم البلد والأخرى بنت القاضي في غاية من الحسن والجمال والكمال لم تر عيني في جميع ما رأيت من بلاد أصبانيا على سعتها أجل منهما وهما من بنات الأندلس ومن دم ملك غرناطة الأخير الذي غلب عليها وهو الملك المعروف عندهم « بالرى الشيكو » ومعناه السلطان الصغير . ولقد أخبرني بمدينة مادريد رجل يسمى « ضرن الوص » حفيد موسى أخى السلطان حسن^(١) المتغلب عليه بغرناطة ان البنتين اللتين باطريرة من دمه . وضرن الوص هذا رجل حسن الأخلاق حسن الشباب له قوة وشجاعة معروفة عند النصارى وهو معبود من فرسانهم وشجعانهم ومع هذا فهو مائل الى من يلقاه من أهل الاسلام ويذكر نسبته ويعجبه ما يسمعه من الحديث عن الاسلام وأهله وانشد حدثني عن أمه أنها حين جلت به اشتتت أكل السكسون فقال لها أبوها : لعل هذا الجمل الذى فى بطنك من ضنّ المسلمين يداعبها بذلك اذ كانوا لا ينفرون من نسبتهم لعامهم أنهم من بيت الملك نعوذ بالله من الخذلان والغواية ونسأله التوفيق والهداية »

قلت انه بمناسبة الحسن والجمال قد لحظت وأنا فى أسبانيا ان أهل الجنوب منها أى أهل البلاد التى يقال لها الأندلس أجل من أهل الشمال أى قشتالة وناوار واراغون وبرشلونة . فلما كنت فى غرناطة ذكرت هذه الملاحظة لأحد نهبائها فأجبنى على الفور :

« نعم لأتنا نحن عرب »

ثم ذكر الوزير الغساني مدينة « مرشينة » فقال : « وأهلها أهل بشاشة ومنهم من ينتسب الى الأندلس انتساباً »

وذكر في موضع آخر من كتابه أن الذين تنصروا كانوا يعطون علامة الصليب يرقونها على ثيابهم فقال : « الذين هم من جنس الأندلس وكانوا أكبر قومهم وتنصروا لأغراضهم فأعطوا تلك العلامة وهي دالة على عراقتهم مع الاصلة لعهد اسلامهم وعلامة على كبرتهم الخ »

فن هنا وأشباهه تعلم أن المورييسك - أو المدجنين كما كان يقال لهم عند العرب - كان بقي منهم قسم عظيم بالأندلس وأنهم تنصروا أولاً بالقوة ثم اندمجوا مع طول الزمان في النصرى ولكنهم لبثوا يتذكرون أصلهم ونزاهم حتى هذه الساعة يذكرون ذلك وفي أخريات هذه الأيام بعد أن انقلبت الحكومة الأسبانية من الملكية الى الجمهورية وانطلقت الحرية في أسبانية وجدنا كثيراً من أهل الاندلس يجاهرون بأن أصلهم من العرب ويطالبون الحكومة باعطائهم الأراضي التي هم مزارعون فيها قائلين ان هذه الأراضي كانت لأبائهم لما كانوا مسلمين وانه لما افتتح الاسبانول الاندلس وانتزعوها من يد الاسلام أقطعوها النبلاء والكنائس وأبقوا العرب فيها كمزارعين فلماذا هم يريدون إعادة هذه الأراضي اليهم . ولقد أجابت الحكومة الجمهورية طلبهم وسأت قانوناً بموجبه ترجع هذه الأراضي الى الفلاحين . ولما كان النزاع على الأراضي قد اختلط مع تذكار النسب العربي القديم كنت تجد عند هذه الطبقات العامة بالاندلس من كراهية النبلاء وبخاصة من كراهية القسيسين والرهبان ما لا تجده عند غيرهم . وطالما أحرقوا بهاتين السنتين الأديار والكنائس ودور الأساقفة ولولا محافظة الحكومة عليها لما كانوا أبقوا منها شيئاً فيما يليهم وليس هذا كله ناشئاً عن المبادئ الشيوعية أو الاشتراكية كما يظن بل ثمة عرق عربي عظيم فزع في الاندلس بعد اعلان الحكم الجمهوري . وكان بعض نبهاء الاندلس قد هبوا يطالبون بالانقلاب الداخلي خاص بالولايات الاندلسية قرطبة واشبيلية وغرناطة ومالقة وقادس الخ وذلك على أن تنضم اليها منطقة الريف التي أهلها مسلمون بحجة أن بينهم وبينهم وحدة في الأصل والصفات والثقافة وكانت هذه الفئة تنزع الى تجديد الثقافة العربية في

الاندلس واحياء ذكريات العرب وقد خاطبني بعض زعماء هذه الفئة من أشبيلية قائلين انهم يرون أن عظمة الاندلس كانت لعهد العرب وانه لما برحها العرب ابتدأ سقوطها فلهذا هم يريدون إعادة الثقافة العربية اليها ويفكرون في إعادة مسجد قرطبة الأعظم للإسلام وفي بناء جامع في اشبيلية . وقد حدثني الأخ الحاج عبد السلام بنونة من أعيان تطاون بأنهم خاطبوه فيما اذا كانوا سيقومون ببناء الجامع في اشبيلية هل يساعدهم المسلمون في الكلفة فأجابهم بأنهم يساعدون بنصف الكلفة . وقد كان من نتائج الحكم الجمهوري الحر في أسبانية أن سياسة التودد الى الاسلام قد ظهر لها أنصار كثيرون وكل من يقاوم الكتلركة والحزب الملكي قد مال اليها . ويقال ان ستين نائباً في مجلس النواب بمجريط يميلون اليها . ولقد قدم أحد نواب مجريط طلباً يقترح فيه إعادة مسجد قرطبة الى الاسلام مع بقاءه مسجداً أسبانياً وذلك لان الوفد المغربي الذي كان قد ذهب من تطاون الى مجريط سنة ١٩٣١ يطالب ببعض الحقوق الأهلية في منطقة الريف قد طلب أيضاً إعادة مسجد قرطبة مسجداً تقام فيه شعائر الاسلام كما كان . الا أن الحكومة خافت من هيجان حزب الكتلركة ولم تعد الوفد المغربي بشئ من هذا الامر . وذهب بعضهم الى أنه يجوز جعل هذا المسجد أثراً تاريخياً لا تقام فيه شعائر الاسلام ولكن تخرج منه شعائر المسيحية وان كثيرين من الاسبانول يرون هذا الرأي . ومما يدل على تقدم سياسة التودد الى الاسلام في أسبانية أن بعض النواب والصحفيين والمفكرين في مجريط على رأسهم السنيور « ارجيلا » والسنيور « فولس » أسسوا جمعية اسمها الجمعية الاسبانية الاسلامية As ciation Hispano slamique واتدبوا الوفد السوري الفلسطيني محرر هذه السطور وزميله احسان بك الجابري للدخول فيها وقد وافقناهم على رغبتهم ودخلنا في هذه الجمعية وانتخبت أنا الفقير اليه تعالى نائب رئيس ودخل فيها زميلي وغيره من كبار الاسلام أعضاء . ومن دخل فيها عضواً من أعيان المغرب وأدبائه ورجالاته الحاج عبد السلام بنونة والسيد محمد الداود والسيد عبد الخالق الطوريس من تطاون والسيد اجنريلا فريج والسيد مكي الناصري من الرباط والسيد محمد القاسي والشريف محمد بن الحسن الوزاني من فاس ولا تزال هذه الجمعية دائمة في نشر دعايتها وتأسيس فروع لها وقد وفق السيد مكي الناصري لتأسيس فرع لها في غرناطة في هذه الايام الاخيرة كما أن أحد أعظم بني أمة

من اشبيلية شارع بالاتفاق مع بعض أصحاب هذا المشرب هناك بتأسيس فرع في اشبيلية
 عود الى موضوع اختلاط الأمتين العربية والاسبانيولية : لما أُجلى بقايا المسلمين من
 الاندلس الى افريقية حسبما تقدم الكلام عليه كان فيمن جلا من المسلمين من أصلهم
 عربي ومن أصلهم اسبانيولي . فكما أنه باق في اسبانية ملايين تجرى في عروقهم دماء
 عربية يوجد في افريقية مئات ألوف تجرى في عروقهم دماء اسبانيولية . ولا نقدر أن نحصى
 جميع العائلات الاندلسية التي ارتحلت الى فاس والرباط وتطوان وتلمسان والجزائر وتونس
 وغيرها ولكننا نذكر بعضاً منهم على سبيل التمثيل

فن هؤلاء آل مرينو ذكرهم صاحب كتاب مقدمة الفتح في تاريخ رباط الفتح
 وعدّد جماعة منهم تولوا المناصب العالية من قيادة وقضاء وحسبة . وآل شنتياك Santiago
 وآل ابن طوجا . وأولاد التونسى . وأولاد القرطبي . وأولاد القصرى . وأولاد ابن عبدون .
 وأولاد الدك . وأولاد الوليتي . وآل أبي جندار . وآل اللوشى . وصيرون . واشكلانط .
 وكلهم ممن تولوا المناصب واشتهر منهم رجال . ومنهم آل برকাশ وهم بيت مجد قديم وحسب
 صميم لم تنقطع الرئاسة من بيتهم ومنهم السيد عبد الرحمن برকাশ باشا الرباط الخالى عرفته
 مرتين احدهما في باريس سنة ١٩٢٦ عند ما حضر مع المرحوم السلطان يوسف فاجتمعت
 معه بطريق المصادفة في فندق « ماجستيك » والثانية في قرطبة سنة ١٩٣١ وهذه أيضاً
 بطريق المصادفة وكان معه أحد أنجاله الأدباء وبعض من حاشيته وهو وأنجاله من سراة
 الاسلام وأمائل القطر المغربي سائرون على آثار سلفهم الكريم ومنهم آل الزبدى . وآل
 غنام . وآل الزهرا . وآل التنازى . وآل السويسى . وآل مارسيل . وآل فرج . وآل
 بلا فريج الذين منهم الشاب الناهض النابغ السيد احمد بلا فريج حرس الله مهجته وهو من
 نخبة فتيان الأمة المغربية بل الأمة العربية بهذا العصر ومنهم بنو العوفير . وأبى عزه .
 والباشا . وقد ترجم المؤرخ أبو جندار جميع هذه العائلات وذكر الذين اشتهروا منها وذكر
 أفراداً آخرين من الطائفة الأندلسية مثل الرئيس ابن عائشة الرباطى سفير السلطان اسماعيل
 الى لوز الرابع عشر والسيد طاهر بنانى الرباطى سفير السلطان محمد بن عبد الله الى السلطان
 العثماني والحاج التهامي المدور سفيره الى بلاد السويد والرئيس العربي المستيرى سفيره الى
 انكلترا والحاج الهاشمي المستيرى والحاج العربي ملين والحاج العربي بنانى والسيد محمد

فريون والحاج عبد القادر المعموري والحاج محمد الأزرق والسيد ابن عيسى بن مسعود طريدانو والسيد محمد بن العباس الزكي والسيد الجيلاني العدلاني وغيرهم ممن تولوا نظارة الرباط أو الحسبة أو غيرها من المناصب. ثم ذكر أبو جندار عدداً من أمراء البحر وقواد البحرية اشتهروا في القديم من الأندلسيين الجالين الى المغرب منهم الرئيس مكي الشرقوبي والرئيس علي بريس والرئيس العربي المستيري والرئيس العربي حكم والرئيس محمد السبيع والرئيس محمد العنقي والرئيس لبريس والرئيس عاشور والرئيس الهاشمي المستيري والرئيس علي التركي والرئيس ابن مبارك والرئيس لباريس والرئيس الحسن بناني والرئيس بركاش والرئيس بريطل والرئيس المعطى وغيرهم

وأما في تطاون فقد كتب من أسماء العائلات الأندلسية التي فيها بنى قشتيليو وأصلها Castillio . و بنى بايصه أصلهم من بسطة بالأندلس . و بنى أراغون وهؤلاء يرفعون نسبهم الى الزير بن العوام رضى الله عنه . و بنى سالس . و بنى القرطبي . و بنى الغرناطي . ويقال الغرنوطي . و بنى الطوريس الذين منهم الشاب الأديب الفاضل السيد عبد الخالق الطوريس وأخوه الماجد وجدهم السيد محمد الطوريس كان الوزير الأول بالمغرب وأصل بنى الطوريس من جبال البشرات بالأندلس و بنى قردناش . و بنى مورارش و بنى الخطيب أصلهم من شاطبة بشرقي الاندلس . و بنى اللوقش من ذرية خلفاء بنى أمية . و بنى الديروكان يقال لهم أبناء المسوس . و بنى زريق أصلهم من اشبيلية . و بنى الرميثة منهم في تطوان مسلمون ومنهم اسبانيول نصارى لأن في تطوان جالية اسبانيولية . وعائلة الرميثة كثيرة في اسبانية ومنها من بنى رميثة المسلمين أجد رميثة ناظر احباس طنجة و بنى مارين ومنهم مسلمون ونصارى على هذا الضرب . و بنى مارتيل . و بنى الصفار . و بنى زكري . و بنى الداود الذين منهم الشاب الشهم الفاضل الناهض الأستاذ محمد الداود مؤسس المدرسة الاهلية بتطوان . وفقه الله و بنى طنانه . و بنى الأبار اقارب الحافظ ابن الابار البلنسى القضاعي صاحب « ادرك بختيار خيل الله اندلسا » و بنى مدينه . و بنى مولتينه . وأصلهم من ثغر المرية بالاندلس . و بنى اجزول . و بنى البولو و بنى اللوشى من لوشة من مدن غرناطة . و بنى بالامينو وأصلها بالمغرب . و بنى ديينه منهم في تطوان ومنهم في الرباط . و بنى مسطاسي . و بنى مولاطو ومنهم في الرباط أيضا . و بنى كرسبو . و بنى سوباطا وأصلها سواباطا .

و بنى مندوسه وقد انقرضوا . وقد انقرض من اندلسية تطوان بنو غرسية . و بنو اشبيليانو . ثم ان من الاسر الاندلسية الشريفة بنو رزين الذين منهم صديقنا الوجيه السيد محمد الرزيني وهؤلاء بحسب تاريخ البيان المغرب لابن عذارى أصلهم بربر وكانوا ملوك « شتمرية » الشرق بالاندلس

وذكر لي الاخ الحاج عبد السلام بنونه عائلات اندلسية في الرباط لم اجدها في «مقدمة الفتح» مثل عائلة قديره . وهذه العائلة هي التي منها المستشرق الاسبانيولى الشهير فرانسيكو كوديره Codera استاذ المستشرق الشهير القسيس آسين بالاسيوس . وعائلة فلورس وهي بالاسبانيولى Flores . وعائلة ميتجينوس واصلها بالاسبانيولى Montegenos وقال لي ان عائلة مارشيه معروفة في اسبانية ومنها نخذ مسلمون في تطوان وان من بنى مارتين انخاداً كثيرة في اسبانية وان منهم نخذاً مسلمين في تطوان . وان من بنى عباد اناساً في سرقسطة في شمالي اسبانية واناساً في فاس . وقال لي الاخ المشار اليه ان جبال الريف ملائى بالاندلسيين

وفي فاس اندلسيون كثيرون أشهرهم آل الفاسى وهم من بنى الجد الفهريين الذين كانوا في قرطبة ثم في اشبيلية ثم في مالقة الى أن ارتحلوا الى فاس عندما لم يبق دار للاسلام في الاندلس . وفي كل من العدوتين حفظت هذه الاسرة مجدها وسراوتها ورئاستها . ومنها الشاب الناهض السيد علال الفاسى والشاب الناهض الفاضل المدقق السيد محمد الفاسى وفقه الله وهو من نخبة شبان المغاربة وأنجم العرب الذين اتوا تحصيلهم في باريز . ولم يتيسر لي الى ساعة تحريره احصاء للعائلات الاندلسية في فاس ولا للعائلات الاندلسية في تلمسان والجزائر وتونس . فتنى تسر لي ذلك أضمه الى المعلومات التي حررتها هنا وان فصح الله في الاجل نجعل ذلك في الطبعة الثالثة من هذا الكتاب

ولقد بعث لي الاخ المفضل نبيل النضال الاستاذ السيد أحمد توفيق المدنى التونسى مولداً الاندلسي أصلاً المقيم الآن بمدينة الجزائر نفع الله به يقول لي في جواب على سؤال في هذا الموضوع مايلي :

العائلات الاندلسية في شمالي أفريقيا أكثرها بالمغرب الاقصى وتونس . ومنها قليل في تلمسان ومنها قليل ببقية البلاد الجزائرية . أما في نفس مدينة الجزائر فالمعروف منها عائلة

الشيخ الجليل أحد أنى الركائب وهو ابن عمنا متفرع من عائلة ابن عمر . وعائلة ابن عبد اللطيف

«وعائلة ابن الأمين . وعائلة ابن سوسان . وعائلة المرار التي كان منها الشيخ مصطفى المرار قاضى الجزائر عاش في أواسط القرن الماضى . وعائلة السبستى »
قال حفظه الله :

«وأما بالبلاد التونسية فالجاليات الاندلسية بقيت على حالها تقريباً ولها الى يومنا هذا بعض امتيازاتها حتى ان صناعة الشاشية الاندلسية — الطربوش المغربى — لا يتولاها مبدئياً الا أعقاب العائلات الاندلسية ولا يمكن أحدا أن يباشر هذه الصناعة الا اذا كان عنده نشان أحد أسلافه من الاندلس . وهذا النيشان هو نفس ما يسمى اليوم « ماركة مسجلة » ويسجل بالخيوط الاسود على نفس الطربوش من الداخل ويطبع على الورقة الخارجية مع اسم صاحبه »
قال :

«وفى البلاد التونسية مدن ودساكر اسسها الأندلس ولا يزال سكانها الى اليوم يعتزون بأصلهم الاندلسى سواء كانوا من المسلمين أو من اليهود وأشهر هذه المدن مدينة تستور بالشمال التونسى »

وقرأت فى بعض جرائد تونس أن الاندلسيين أثروا فى تستور ما ثر تاريخية كثيرة منها مأذنة جامعها الكبير فهى على أسلوب هندسى بديع ولا نظير لها فى العالم الاسلامى فان الناظر من أعلاها يرى قعرها لفراغ وسطها وكونه على شكل اسطوانى مع ضيقه وتنسيقه

ونختم هذا الفصل عن الاندلسيين الجالين الى افريقية والاندلسيين المدجنين الذين بقوا فى اسبانية حتى اندمجوا فى الاسبانية بذكر مكتوب من السلطان الكبير مولاي اسماعيل صاحب المغرب الى ملك اسبانية فى عصره يذكره فيه بفنر أسلافه بالمسلمين نشره السيد الشريف العلامة مولاي عبد الرحمن بن زيدان فصح الله فى عمره وذلك فى كتابه « اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس » ولم يجتزئ بنشره بالحروف المطبوعة بل نشره بالفتوغرافيا فى جانب المطبوع بالحروف ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم من عبد الله اسماعيل المتوكل على الله المفوض أموره الى الله أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الحسيني أيده الله آمين (ثم الطابع الملوكي بداخله اسماعيل بن الشريف الحسيني أيده الله ونصره . وبدأثرته : انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)

« الى عظيم الروم وملك أقاليم أصبانية وبلاد الهند والمتولى أمورها والمتصرف في أقطارها (دون كارلوس) السلام على من اتبع الهدى أما بعد فقد بلغنا كتابكم صحة خديكم (دون منويل يردلون) وخديكم (دون ايبيل مسيح) وهو الكتاب الذي وجهتم لنا جواباً عن كتابنا الذي أصدرناه اليكم ووصلكم صحة الغرابلي قبل هذا وبعد ان قرأناه وفهمنا لفظه ومعناه وألقى الينا خديكم (دون ايبيل مسيح) ما في خاطرهم وما طلبتموه منا من فك هذه المائة من النصارى الذين وقع الكلام قبل هذا رددنا اليكم جواب كتابكم ووجهناه مع خديم دارنا العلية بالله كاتبنا ومتولى الخط الأقرب من بساتنا السيد محمد بن عبد الوهاب الوزير ولولا مزيتم عندنا ومعرفتنا بمنصبكم ما سمحنا بفراق كاتبنا عن بساتنا لمهمات أمورنا واذا لخدينا الأ كبر الأعز الأشهر أبى الحسن القائد على بن عبد الله أن يبعث معه رجلا من أصحابه فوجه خدينا عبد السلام بن أحمد جسوس معاشراً له ومرافقاً وعند الكاتب المذكور قضية دخول جند الاسلام المظفر بالله على نصارى العرائش وفي عامه وعلى باله كل ما كان في ذلك من الكلام والاسباب وكيفية الخبر في ذلك فثقوا به وتعرفوا منه فانه حفظه ووعاه من أوله الى آخره ملازمته لبساتنا العلى بالله في سائر أوقاته ونحن بلا شك كنا أعطينا القول لهذه المائة من النصارى بالسراح ولكن وقع من النصارى ما اختل به منهم من الاسباب ما يوجب عدم الوفاء لهم بذلك ففهم من كان ينادى بلفظ مينا على رؤوسهم ومنهم من لم يرض بخروجهم على ذلك انلك القول وكاد يفتك بمن دخل اليهم من خدامنا الذين أوفدناهم عليهم وبعضهم ركب لجج البحر فاراً بنفسه حتى أدرك وقتل على الموج . وحاجنا مع هذا كله كبار ملتنا وعلماء شريعتنا وأئمة ديننا بأن قالوا لنا بأن المسلمين كانوا أشرفوا على الغنيمة ساعتئذ ووقع الغلب والمظفر ولم يبق للنصارى الا الموت بالسيف أو بالغرق فلا وجه لسراحهم في الشريعة رأساً . وكنا

في أثناء هذه المدة كلها نتراد الكلام مع هؤلاء العلماء حفظهم الله وقالوا لنا : هؤلاء المائة يكونون أسارى ويسترقون من كل وجه كيف وقد أخذوا العرايش من أول وهلة بلا موجب بل أضغطوا الشيخ ابن السلطان الذهبي وقبضوا عليه حتى أنفقوا عليه أموالاً عديدة ومسكوا أولاده بسببها حتى أعطاهم العرايش على ضغطٍ منه وعلى غير تأويل حقيقي في ذلك . وذكرونا في مسألة غدر أسلافكم بأهل غرناطة وغيرهم بما يزيد على الأربعين ألفاً بعد تعدد الشروط على ستين شرطاً ولم يوفوا لهم بواحد منها الى غير ذلك من الغدر والمكر بأهل غرناطة وغيرهم من أهل الأندلس في كل بلد وقرية بعد بلد وقرية فألفيناهم ما تكلموا الا بالحق (الى أن يقول) : وذلك أن تعطونا في الخمسين نصراً من هذه المائة خمسة آلاف كتاب مائة كتاب عن كل نصراني من كتب الاسلام الصحيحة المختارة المثقفة في خزائنها ببشيلية وقرطبة وغرناطة وما والاها من المدن والقرى حسبما يختارها خديمتنا المذكور من المصاحف وغيرها وتعطون خمسمائة أسير من المسلمين في الخمسين الأخرى عشرة أسارى لكل نصراني وان لم توجد الكتب التي هي مرادنا فاجعلوا عوضها من أسارى المسلمين وأعطوهم لنا من الاسارى الذين في الأغرربة وغيرهم وقبلنا منكم في العدد المذكور الرجل والمرأة والصبي الصغير والشيخ المسن من ايلاتنا وغيرها اذ مالنا قصد الا في الأجر والثواب في فكك اسرى المسلمين كيف ما كانوا ومن أى بلاد كانوا الخ»

فأنت ترى أنه كان مضى أكثر من مائة سنة على الغدر الفظيع الذي غدره ملوك الاسبانيول بمسلمي غرناطة وسائر الأندلس . وكان المسلمون لا يزالون يتذكرونه ويتحرقون من أجله . ولم يقتصر مولاي اسماعيل في تفريع معاصريه من ملوك الافرنج على ملك اسبانية فقط بل تناول بالتفريع من أجل الخيس بالعهود لويس الرابع عشر أعظم ملوك فرنسا وهاك ما ذكره مولاي عبد الرحمن بن زيدان حفيد مولاي اسماعيل في كتابه « اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس » في الصفحة ٥٤ من الجزء الثاني قال حفظه الله

« ومن أ كبر البراهين وأوضح الدلائل على ما كان بينه وبين عظماء ملوك أوربا من العلائق السياسية ما وقفت عليه في عدة كتب ومخابرات صدرت بينه وبينهم ألم بكثير منها مؤرخ فرنسا الماهر الشهير الرحالة القياسوف الخبير الكنت دو كاستري في عدة من

كتبه واليك نصوص بعضها وصورها الفوتوغرافية وقد خاطب فيها لويس الرابع عشر ملك فرنسا وجامس ملك الانكليز ودون كرلوس ملك اصبانيا

« بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم من عبد الله تعالى الامام المظفر بالله أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الحسيني أيداه الله ونصره . (ثم الطابع) بداخله : اسماعيل بن الشريف الحسني الله وليه (وبدائرته) : العز والاقبال » الى عظيم الروم بفرانصيص لويس الرابع عشر من هذا الاسم السلام على من اتبع الهدى وابعد طريق النفي والردى أمابعد فاعلم أن الذي ظهر انا انك ليس عندك قول صحيح ولا كلام رجيح ولا أظنك الا غلب عليك أهل ديوانك وصاروا يلعبون بك كيف شاءوا ولا يقي لك معهم ضرب ولا لقب ودليل ذلك اتنا ما زانا ماقبضنا منك صحة قول ولا أبرمت معنا شيئاً ففلامنك (أى مملكة هواندة) الذين ليس لهم رئيس وما عندهم الاالديوان تكلموا معنا كلمة وقبضناها عليهم ووفوا بها خين ذهب خديمنا لبلادهم لما ان طلبوا منا ذلك فرحوا به واكرموا وبرّوا به وأتى من عندهم بعشر مائة مكحلة وستة عشر مائة قنطار من البارود ومائة وسبعة من المسلمين أطلقوهم من الأسر لوجوهنا وعملاؤنا من الخير ماعملوا مراعاة لنا وثبتوا في قولهم ووفوا بكلامهم . وأنت لا زال لم يصح منك قول ولا وفاء واولئك الذين كانوا قدموا اليك من هذه البلاد ليس هم من خدامنا ولا من أصحابنا ولا من لهم معرفة معنا فالحاج على معنيين حيث أسره ولده لاذ بالبعض من خدامنا واستحرم به وقدم اليكم على شان اولئك المسلمين وجاز على دار السباع ودار النعام واتى اليكم بما اتى ولا شعرنا به ولا عرفنا كم اخذ وقلنا انه ان وصلكم ولا بد تعملون له غرضه في اولئك المسلمين وتسرحونهم . فاذا به هو تحيل على ولده الى ان جاء به واتم ماعملت صواباً في غيره ولا صدر منكم ما تراعون لاجله . ثم بعد ذلك قدم لعلى مقامنا صاحبكم انبشدر وانا نا بشىء من الخرق مع فالصواحرير وهل نحن ممن يعجبه ذلك ويسره فنحن معشر العرب لانعرف الا الصحيح ولا يسرنا الا بما فيه مصلحة المسلمين كلهم ومع ذلك اعطينا لصاحبك عشرين نصراً نياً سيفطناه بها ووطننا انك ولا بد تراعى الخير وتبعث لنا ولوعشرين مسلماً تجبر بها خواطرننا وتسكون هي الطريق للسلام الذي تريده منا . فاذا بك ماعملت شيئاً من هذا ولاجازيت باحسان . وثانياً قبضنا لك سفينة قبل ان يقع الكلام بيننا وبينك بثلاثة أيام أوأربعة على التحقيق وهي موسوقة

بالسكر وتبغة وثقفناها نحواً من ثلاث سنين بقصدك ولا تركنا احداً يديده فيها وقلنا انك تراعى خيرنا وتعمل لاولئك المسلمين طريقاً وتسرحهم وان كانوا ليس فيهم من هو خديمنا ولا من هو محسوب من جيشنا ولا من هو معرفتنا فما هم الا من لاخلق لهم ولا يركب البحر عندنا الا أهل التمرين . ولو أطلقتهم وان كانوا ليسوا بشيء فتكون عمالت الخير بذلك وتقول انك عملت مسئلة تراعى عليها . وأعظم من ذلك كله هو ان رئيساً من بلادنا اسمه التاج كان أعطاه صاحبك الذى اتانا خط يده على انه يشتري سفينة من الجزائر يسافر بها قرصان وماعليه فيمن لقيه من فرنسيص فلما ان اشترها وسافر بها وغنم قطارمة موسوقة بالرخام والريال مع مافيه من الحرير وغيره وبعثها مع أصحابه ستة وعشرين مسلماً وتعرضوا لها سفنكم واخذوها وثقفتها انت اياماً ثم بعد ذلك مزقتها والمسامون الذين كانوا معها خدمتهم فى الغراب. فلماذا لم تردّها أو ثقفتها ثلاث سنين كما ثقفنا نحن سفينتكم وهل هذه هي صحة القول فهذا يدل على عدم صحة كلامك وبما يثبت الاخلال بقولك وقلة وفائك لفتى الآن فالذى ظهر لنا انه ما يليق بنا معك الا الشروا اذا أردت تثبيت المهادة وابرام الكلام فيها وامضاء حاجتها فابعث لنا من عندك قونصو بالتفويض على الأمر ويجلس هنا فى أحد مراسينا ويكون الاثمناء معه فى هذا كله ونبرم معه هذا الأمر ويكون من أهل الحل والربط عندكم والا بان ظهر لكم خلاف ذلك فاعلمنا وعرفنا بما عليه عملك وما اضرته طويتك والسلام على من اتبع الهدى وفى التاسع من شعبان المبارك سنة خمس وتسعين والى « انتهى

ولقائل أن يقول كيف يكتب السلطان اسماعيل مثل هذا الكلام الجاسى الى لويس الرابع عشر أعظم ملوك اوربة فى عصره بل الى هذا العصر ؟ والجواب أن السلطان اسماعيل لم يقل شيئاً غير صحيح وقد كان لويس الرابع عشر قليل المبالاة باليهود لا سيما مع المسلمين وقد كان يستبقي اسرى المسلمين عنده سنين طوالاً لا يرضى بفكاكهم ولو أمكن أن يفك بهم بقدر عددهم من اسرى الفرنسيس . ولقد عابه بعض مؤرخى الافرنجة فى ذلك واطهروا ما بينه وبين مولاي اسماعيل من الفرق وقالوا ان مولاي اسماعيل كان يبذل ما عز وهان فى فكاك أسير مسلم أياً كان وطالما فادى وهادى لاجل استخلاص اسارى المسلمين الذين فى بلاد الافرنج غير مهتم بالاستفادة من اسرى النصارى الذين كانوا عنده

وربما بلغ عددهم ثلاثين ألف أسير . أما لويس الرابع عشر فكان يهمله أن يوفر على خزينته وان يشغل في سفنه وأغرته اسارى المسلمين ولا يبالي أن يكون بقى في الاسر عند ملوك الاسلام اضعاف عددهم . قرأت هذا الانتقاد في كتب من تواريخ الافرنج المعبرة فهان على مولاي اسماعيل أن يقرعه ولم يكن اسماعيل بالذى يهاب لويس وقد كان عند اسماعيل جيوش جرارة منها مائة ألف أسمر يقال لهم جيش البخارى وان كان لويس الرابع عشر قد تولى ملك فرنسا رأساً أربعاً وستين سنة فان السلطان اسماعيل تولى ملك المغرب خساً وستين سنة حتى كان أهل المغرب يسمونه بالحقى الدائم

وليس لويس الرابع عشر أول من خاس بالعهود بين ملوك اوربة بل أكثرهم كانوا لا يوفون بعهودهم ولا سيما مع من عاهدوا من المسلمين صدق فيهم قوله تعالى (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ) وهذه بينهم وبين المسلمين شئنة قديمة فن صدر الاسلام الى الآن المسلمون يوفون معهم بعهودهم الا ما ندر وهم يغدرون بالمسلمين لمجرد البغض والشنآن وبناء على ذلك المبدأ الجزويتى الشهير (الغاية تبرر الوسطة) . أما الشريعة الاسلامية فليس فيها (الغاية تبرر الوسطة) ولا (الشر الذى ينشأ عنه خير هو خير) بل فيها أن الشر شر بنفسه الا ما كان من قصاص أو نكال شرعى . وفيها أن العهد لا بد من القيام به ولا يجوز الخيس به ولو مع المشركين وفيها « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا » الآية وفيها « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً » وفيها « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَكُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » وفيها « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ » وفيها « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا » وغير ذلك من الآي الكريمة والأحاديث الشريفة مما لا يكاد يحصى . وقد عمل بذلك ملوك الاسلام وأمراؤه الا ما ندر وكان تاريخ الاسلام من هذه الجهة ناصعا طاهراً بالنسبة الى تواريخ الأمم الأخرى

وقد بلغ من وفاء المسلمين بيهودهم أنهم كانوا يوفون بها لمن سبق منه الغدر أحيانا روى البلاذرى فى فتوح البلدان : ان الروم صالحت معاوية على أن يؤدى اليهم مالا وارتمن معاوية منهم رهنا فوضعهم فى بعلبك ثم ان الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسامون قتل من فى أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم وقالوا : « وفاء بغدر خير من غدر بغدر » . وهو قول الأوزاعى وغيره

وروى البلاذرى فى فتح قبرس أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك كان أجلى خلقا من أهل قبرس الى الشام لأمرٍ اتهمهم به فأنكر الناس ذلك فردهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الى بلدهم وكان حميد بن معيوف الهمداني غزاهم فى خلافة الرشيد (وكان أمير البحر لعهد الرشيد) لحدث أحدثوه فأسر منهم بشراً ثم انهم استقاموا للمسلمين فأمر الرشيد برد من أسروا منهم فردوا . قال البلاذرى : وحدثني بعض أهل العلم من الشاميين وأبو عبيد القاسم بن سلام قالوا : أحدث أهل قبرس حدثاً فى ولاية عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس فى الثغور فأراد نقض صلحهم والفقهاء متوافرون فكتب الى الليث بن سعد ومالك بن أنس وسفيان بن عيينة وموسى بن أعين واسماعيل بن عياش ويحيى بن حزة وأبى اسحاق الفزارى ومحمد بن الحسين فى أمرهم فأجابوه وكان فيما كتب به الليث بن سعد ان أهل قبرس قوم لم نزل تهتهم بغش أهل الاسلام ومناصحة أعداء الله الروم وقد قال الله تعالى « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » ولم يقل لا تنبذ اليهم حتى تستيقن خيانتهم وانى أرى أن تنبذ اليهم ويُنظَرُوا سنة يأتَمرون فمن أحب منهم اللحق ببلاد المسلمين على أن يكونوا ذمة يؤدى الخراج قبلت ذلك منه ومن أراد أن ينتحى الى بلاد الروم فعل ومن أراد المقام بقبرس على الحرب أقام فكانوا عدواً يقاتلون ويُغزَوْنَ فان فى انظار سنة قطعاً لحجتهم ووفاء بعهدهم . وكان فيما كتب به مالك بن أنس : ان ائمان أهل قبرس كان قديماً متظاهراً من الولاة لهم وذلك لأنهم رأوا أن اقرارهم على حالهم ذل وصغار لهم وقوة للمسلمين عليهم بما يأخذون من جزيتهم ويصيبون به من الفرصة فى عدوهم ولم أجد أحداً من الولاة نقض صلحهم ولا أخرجهم عن بلدهم وأنا أرى أن لا تعجل بنقض عهدهم ومناذتهم حتى تتجه الحجة عليهم فان الله يقول : (فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ) فان هم لم يستقيموا بعد ذلك رددعوا غشهم

ورأيت أن العذر ثابت منهم أوقعت بهم فكان ذلك بعد الاعتذار فرزقت النصر وكان بهم الذل والخزي ان شاء الله تعالى »

وروى البلاذري أن قوماً بجبل لبنان خرجوا على عامل بعلبك فوجه صالح بن علي ابن عبد الله بن عباس من قتل مقاتلهم واقرب من بقي منهم على دينهم واجلى قوماً من أهل لبنان فحدث القاسم بن سلام عن محمد بن كثير أن الازاعي كتب الى صالح رسالة طويلة حُفظ منها : « وقد كان من اجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم . وحكم الله : أن لا تزر وازرةٌ وزر أخرى وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به . وأحق الوصايا ان تحفظ وصية رسول الله ﷺ فانه قال : من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فانا حجيجهُ »

فتأمل أيها القارئ في هذه الآثار وقابل بينها وبين أعمال ملوك الاسبانيول وسائر ملوك الافرنج في المسلمين وتأمل في فتاوى الازاعي رضى الله عنه وأمثاله من الأئمة في النصارى وقايس بينها وبين فتاوى الباباوات والكراذلة في أهل الاسلام : لا شك أن المسلم له الحق بعد ذلك أن يهتف :

اولئك آبائي فجنني بمنلهم اذا جمعتنا يا جريرُ المجامع

وانى لاختتم كلامي ببعض جل ذكرها المؤرخ المصرى الفاضل محمد لبيب البتنونى فى كتابه « رحلة الاندلس » وذلك انه بعد أن أتى على ذكر كل ما ارتكبه الاسبانيول من الفظائع فى مسلمى الاندلس قال : « كان الخلفاء وهم فى قوتهم وعصيتهم الدينية يحترمون عقائد شعوبهم وكانوا يحترمون المتدينين من أهل الذمة وكانوا يوظفونهم فى حكومتهم فكان منهم الاطباء والوزراء . وكان المتوكل العباسى على صلابته فى دينه يؤاخذ النصارى على عدم تمسكهم بدينهم كما فعل مع طيبيه حنين وكان بلغه انه تفل على صورة السيدة العذراء فغده وسجنه . وفى أيام المعتض بالله قامت العامة على رجل من النصارى اتهموه بانه سب النبى واحضروه بين يدى الوزير القاسم بن عبيد الله وطالبوه باقامة الحد عليه فصرخهم لعدم تحققه صحة دعواهم . وقد صلب الخليفة الحكم بن الناصر أحد عماله لأنه بلغه انه ظلم أحد أهل الذمة »

ثم قال : « ان الدول النصرانية كانت تلجأ الى سماحة الاسلام وعدالته فقد أرسلت دولة المجر الى السلطان أحمد الاول ترجوه أن يأخذ المجر تحت حمايته وقاية لها من ظلم النمسا المسيحية

« ولما فتح المسلمون الجزيرة (العراق) هربت قبيلة اياد (وكانوا نصارى) الى بلاد الروم فكتب عمر الى هرقل بردها . فاخرجها هرقل من دياره وكان على الجزيرة الوليد ابن عقبة فابى ان يقبل منهم الا الاسلام . فكتب اليه عمر : دعهم ان لا ينصروا وليدأ ولا يمنعوا أحداً من الاسلام . ثم عزل الوليد عنهم اشدته

« وفي مدة السلطان ابراهيم العثماني استولى الترك سنة ١٦٤٥ على خانية عاصمة جزيره كريد . وكان نصارى كريد يساعدون البنادقة على الاتراك فاراد السلطان ان يقتل نصارى كريد في مقابلة ذلك لكن المفتي أسعد زاده عارضه في هذا الأمر معارضة شديدة قائلاً انه مخالف للشرع الاسلامي . فلم يقع سلطان العثمانيين في الشناعة التي وقع فيها ملوك الاسبان امام الله والتاريخ »

وتحرير ذلك انه لما غلب فرديناند وايزابلا على آخر مملكة اسلامية في اسبانية وهي دولة بني الأجر من سلالة الخزر ج واستوليا على غرناطة سنة ١٤٩٢ عقدا مع المسلمين معاهدة تتضمن لهم حقوقاً كثيرة ومن الجلة حريتهم الدينية التامة وفصل أمورهم الشخصية لدى قضاتهم وغير ذلك من الشروط التي أمضاها فرديناند وامراته على أمل تسهيل الفتح وتقدير أجل المقاومة وهما ناويان باطلاً نقضها منذ أمضاها - كما جرى هذه المرة في معاهدات الحلفاء أثناء الحرب العامة مع ملك الحجاز أمضوها مؤقتاً على نية نقضها فيما بعد - فلم يمض على تسليم غرناطة عدة اشهر حتى ذهبت تلك المعاهدة كأن لم تكن أو كما قال صاحب نفع الطيب « نقضها الطاغية عروة عروة » وتأسس ديوان التفتيش الشهير مؤلفاً من الأساقفة وبأمر من البابا وصار يسيطر على عقائد الناس فحمل المسلمين واليهود على النصرانية أو يجالوا عن البلاد فجلا أكثر المسلمين الى مراكش وتونس والجزائر ووصل منهم أناس الى مصر والشرق وجلا أكثر اليهود الى مملكة ابن عثمان فأقاموا بالقسطنطينية وسانليك وازمير وهم فيها الى يومنا هذا القتهم الاسبانيولية وبقي عدد كبير عز عليهم فراق أوطانهم فنظاها بالانصرانية تخلصاً من الجلاء ولكنهم بقوا على عقائدهم

سراً فصار ديوان التفتيش يعمل عمله فيهم وارتكب تلك الفظائع التي يحفظها له التاريخ وقتل وصلب وأحرق بالنار كما هو مشهور . ومع هذا فبقى أكثر المسلمين نحو ٢٠٠ سنة وهم يحفظون دياتهم سراً ويتظاهرون بالكثلكة وقد يزداد عليهم الضغط فيلجأون الى الثورة ولاسيما في جبال البشرات التي اعتصموا بها لمنعتها فجرت بينهم وبين الاسبانيول وقائع عديدة الى ان انتهى أمرهم في زمان فيليب الثاني في أوائل القرن السابع عشر بجلاء البقية الباقية منهم الى افريقية . على انه مما لاشك فيه ان كثيرين من الآباء أجبروا على تعليم أولادهم الديانة المسيحية منذ الحداثة فنشأ هؤلاء مسيحيين وبطول الزمن صاروا اسبانيولا وهؤلاء هم الذين اليوم ينتسبون الى العرب تدل على ذلك خلقتهم وسحتهم وأساؤهم وأما كنهم . وربما يقال ان مسلمي الاندلس أنفسهم لم يكن أصلهم كلهم عربا بل أسلم في الفتح العربي اسبانيول كثيرون وهذا جائز وهو ما كان يدعيه ديوان التفتيش ويجعله مبرراً لأعماله وان كان تاريخ المدينة انكرها ولقد اعتادت الدنيا هذا المد والجزر في الحكومات والديانات فخذوا لو خفت حدة هذا التباغض بين الناس من جراء الفوارق الدينية لاسيما بين ارباب المذاهب التي تدعو جميعها الى عبادة الخلاق ومكارم الاخلاق

مصير الأندلسيين

للأستاذ الأبرسي محمد الطاهر بن عاشور التونسي

وقد اطلعنا على محاضرة تحت عنوان « مصير الأندلسيين » بقلم الاستاذ الاكبر سيدي محمد الطاهر بن عاشور التونسي كبير أهل الفتيا من السادة المالكية بتونس جاء فيها خبر احتضار دولة الاسلام بالاندلس وفق ما جاء في النفح وغيره ثم قال : قلنا ان عدداً من المسلمين اختاروا الخروج من الأندلس لما رأوا بوارق الغدر والحياة . ثم عزم أكثرهم على الخروج حين أرغموا على التنصر وضيق عليهم في أمور دينهم وقد قدمنا أنهم كانوا اشتروا على الاسبان في عقد الصلح أن من رام من المسلمين الخروج يخرجونه الى بر العدو من غير دفع كراء ولا مغرم .

فما طلب جميع المسلمين الخروج لم يحضروا لهم الا قليلا من الاجفان حتى انوا عناء عظيما .

ولما صالحوا أهل جبل (بلقنة) على الخروج الى فاس أخرجوهم بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر ثم لما أصدر فيليب الثالث أمره باخراج كل من اشبه أمره من الموريسكو أمر بأن لا يخرجوا معهم نقود الذهب من المملكة وبذلك لم يجدوا فائدة في بيع أملاكهم فتركوا معظمها وأحضرهم قليل من المراكب وكان الخارجون على التقدير الصحيح ثلاثمائة ألف ومن المؤرخين من يقول نحو المليون فسافر كثير منهم الى فاس وتطوان وسلا والرباط وتلمسان ووهران وتونس وعددهم يقرب من مائة وثلاثين ألفاً . ومات منهم في الطريق ما يقرب من تسعين ألفاً من الجوع والتعب وخرج منهم الى بلاد فرانساً بمقدار مائة ألف فاشتريت عليهم الافرنج أن يتدينوا بالديانة الكاثوليكية فرفضوا ذلك فردوا من حيث أتوا فاختاروا في أمرهم وقصدوا المراسي الفرنسية للسفر الى المغرب فمات كثير في فرنسا ونجا قليل منهم وقد تسلط أعراب البوادي على كثير ممن خرجوا الى فاس وتلمسان في الطرقات ونهبوهم ولم يسلم من ذلك الا الذين خرجوا الى تونس

الأندلسيون في البلاد التونسية

علاقة الأندلس بتونس قديمة من وقت الدولة الحفصية فقد وفد منهم على تونس عدد كثير في مدة الحفصيين لاسيما في زمان السلطان المستنصر بالله الحفصي وكان لوفودهم على تونس أثر عظيم في انتقال حضارتها من البساطة الى الرقي والترف والرفقة قال ابن خلدون في ذكر المستنصر «ومدت اليه ثغور القاصية من العدوتين^(١) يد الاعتصام بما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه (أبي زكرياء) من شاعر مفلح وكاتب بليغ وعالم نحير وفي أيامه عظمت حضارة تونس وكثر ترف ساكنيها وتأنق الناس في المراكب والملابس والمباني والماعون والآنية» .

وكان بتونس في الدولة الحفصية جند من الأندلس خاصة وكان رجال شوري السلطان من الموحدين ومن الأندلس قال ابن خلدون عند ذكر نزول الفرنسيين على قرطاجنة «وتفاوض السلطان (أبي المنتصر) مع أهل الشوري من الأندلس والموسدين - ثم قال - وملئت سواحل رادس بالمرابطة من جند الأندلس والمتطوعة»

وأيضاً قد كان بين تونس والأندلس ارتباط بولاية أبي حفص الهنتاتي جد الحفصيين امارة اشبيلية من جهة عبد المؤمن بن علي ثم ابنه عبد الواحد ثم ابنه زكرياء لذلك لما انجلي المسلمون من الأندلس جلاءهم الأخير كانت البلاد التونسية من أول ما وقع نصب أعينهم في هجرتهم فركبوا اليها البحر ونزلوا بشطوطها والظاهر أن نزولهم كان بمرسى بنزرت و بمرسى المهدية ومن هذين المرسين قصدوا حاضرة تونس ثم تفرقوا في البلاد فاقتبلهم أهل المملكة بالترحاب ولم ينلهم في طريقهم نهب ولا ضرر كما قلنا آنفاً وقبل أن يفدوا على الحاضرة أرسلوا الى أهلها يستنبئون أيسمحون لهم بالدخول فوجدوا من أهل الحضرة رغبة في قدومهم وإكراماً لمثواهم .

وقد وقفت على كتاب اسمه نور الأرماس في مناقب سيدي أبي الغيث الفشقاش ألفه السيد المنتصر القفصي وكان من مریدی سيدي أبي الغيث وهذا الكتاب موجود بخزنة جامع الزيتونة تحت عدد ٣٨٨٣ قال في أول الفصل الثاني منه ما نصه « لما جاء الأندلس لتونس كنت أنا بتونس برسم الزيارة وكنت ذات يوم خارجاً من باب بشرقي جامع

(١) هي عدوة الأندلس لأنها أبعد عنا من عدوة المغرب

الزيتونة فلقيت كبراء الأندلس ومشائخهم وفي أيديهم ورقة كاغد وهم يفتشون على من يقرأها لهم فصادفوني فقالوا أنت تقرأ خط الشيخ سيدي أبي الغيث فقلت لهم نعم فأطلعوني على ورقة مكتوبة بالأخضر فيها مكتوب « الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله الى ساداتنا الاندلسية خصوصاً منهم سيدي فلان وسيدي فلان الى أن سمي من أكابرهم عشرة رجال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فلا مزيد بحمد الله تعالى إلا خيراً وأنا داعي لكم بخير وما ذكرتم لنا على أنني أستخير الله تعالى لكم فاستخرت لكم عند والدي والثاني ليلة عند أستاذي سيدي محمد حذيفة والثالث ليلة عند والدي فرأيت لكم خيراً والمهدية مشتقة من الهدى وأنتم كما قال الشاعر :

تحيا بكم كل أرض تنزلون بها كأنكم ببقاع الأرض أمطار

وذكر تكملة الأربعة الأبيات والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته من العبد الفقير أبو الغيث ثم أخذوا الورقة من يدي وساروا فرحين مستبشرين بكلام الشيخ اه « وهذه الحكاية صادرة من شاهد عيان وهي أجلى ما يمثل لنا جالية الأندلس ولا يعادها فقرات مثلها في كتب التاريخ ويستفاد منها أمور أحدها أن أهل الأندلس نزلوا بشاطئ المهدية ليقول الشيخ لهم والمهدية مشتقة من الهدى فتفاعل لهم بذلك الثاني أنهم كانوا على حالة جهل حتى لم يستطيعوا قراءة كتاب الشيخ أبي الغيث الثالث ان اسناد رئاستهم الى عشرة كانت من الأمر المطرد فيهم في سائر أحوالهم ومنه كان رؤساء صناعة الشاشية - وهي من مآثر الجلاء الأندلسي - عشرة يلقبون عندنا الى اليوم «بالعشرة الكبار» الرابع أنهم كانوا أوجسوا خيفة من سوء القبول فاوفدوا الى الشيخ من يراجعه في شأنهم ولذلك استبشروا لما رأوا منه حسن القبول لأن الشيخ أبا الغيث في ذلك العصر هو معتقد أهل تونس من أمير ومأمور

وكان وفود الأندلس الى تونس في سنة ١٠١٧ في ولاية عثمان داي قال ابن أبي دينار في المونس « وفي سنة ١٠١٧ والتي تليها جاءت الأندلس من بلاد النصارى نفاهم صاحب اسبانية وكانوا خلقا كثيرا فأوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا فاشترى الهناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا في عدة أما كن ومن بلدانهم المشهورة (سليمان . وبلي . ونيانو . وقرنباليه .

وتركى . والجديدة . وزغوان . وطبرية . وقريش الواد . ومجاز الباب . والسوقية . وتستور .
وهي من أعظم بلدانهم وأحضرها والعالية . والقلعة - أى قلعة الاندلس - وغير ذلك بحيث
تكون عدتها أزيد من عشرين بلدا فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الكرم والزيتون
والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد « ولم يذكر
ابن ابى دينار من استوطن منهم بحاضرة تونس وبلد بنزرت فأما تونس فنزلها منهم أهل
الصنائع والفنون فأهل الصنائع الدقيقة سكنوا المدينة وهم أهل الثروة منهم وبنوا لأنفسهم
حومة تعرف بزقاق الأندلس قرب جامع القصر . وأما أهل الصنائع الأخرى وبعض الفلاحين
من أهل الحواضر فسكنوا رضى باب السويقة وهم أول من بنى هناك خارج السور فبنوا
الحومة المعروفة بحومة الأندلس ولم يزل من بقاياهم هناك عائلات منهم عائلة الأندلوس .

ولما نزلوا تونس احتفى بهم أهل البلد قال السيد المنتصر فى مناقب سيدى أبى الغيث
القشاش « ولما أن جاء الاندلس الى تونس ضاقت بهم المحاجج والطرقات والأسواق والديار
والمخازن والحوانيت وصاروا يأتون الى الشيخ والى سباطه وجرى معهم الشيخ رضى الله عنه
كل ربح المرسلة فى إطعام الطعام وكسوة العزيان حتى انى أحصيت ما يخرج لمؤوتهم اثنتى عشرة
مائة خبزة من القمح وقفيزين من الدقيق والكسكسو شىء يابس وشىء مسقى وزوج أجال
من الخروب - لعلف الدواب - بخلاف اللبن واللحم رأسين بقر كل يوم هذا على حساب
العام الكامل ضيقتهم الشيخ ولما كثرت الاندلس بتونس وعمروا اقليمها ودوائرها وعمروا
الجزيرة وكثرت بلدانهم وكثر خيرهم وحرثهم وتأهلوا صاروا يأتون من كل بلد لهم لزيارة
الشيخ سيدى أبى الغيث ويأخذون على يديه العهد من كل بلد حزبا وكل حزب يجعل له
نقيا والنقيب هو شيخ الفقراء ويعطيه علما - أى علما - أخضر ويوصيه بطاعة الله
وكان الأندلس ممتلئين لأمر الشيخ سامعين له مطيعين فى كل أمر وكان يحسن إليهم
ويواسيهم ويكاتبهم ويأخذ بنحو اطهرهم ويقضى حوائجهم فى كل ما يحتاجون إليه وكان
أقربهم إليه سيدى محمد بن عبد الرقيق الاندلسى » اهـ

أما بلد بنزرت فقد سكنها الاندلس وبنوا بها حومة تعرف الآن بحومة الأندلس
وأسسوا قربها قرية منزل جيل ومنزل عبد الرحمن والعالية وغار الملح وكذلك نزلوا منازل
من الجزائر القبلية غير ما ذكره ابن ابى دينار مثل منزل أبى زلى ومنزل تيم بالدخلة وقرية

الفهرى وقرية دار شعبان ونزل فريق منهم ببلد نابل
وقد نظم الأندلسيون لأنفسهم بهذه البلاد نظاما حفظ لهم عوائدهم وقوانينهم الأصلية
وأقاموا عليهم كبيرا بلقب شيخ الأندلس فكانوا يحكمونه في فصل الخلاف بينهم ويرجعون
إليه في مهامهم ودام هذا الوظيف فيهم الى مدة الأمير محمد باشا وآخر من وليها الشيخ مصطفى
شلي بعد سنة ١٢٧١

الأندلس بالمغربين الأقصى والأوسط

انصال أهل الأندلس بالمغرب الأقصى قديم من عهد الدولة المتونية ثم الموحدية ولما
استولى الاسبان على غرناطة قصد سلطانهم أبو عبدالله بلاد فارس وتبعه جمع عظيم منهم ثم
لما نجلى الأندلسيون الجلاء الأخير قصدت جوع عظيمة منهم بلاد المغرب واستوطن معظمهم
مدينة سلا ورابطها المعروف اليوم بالرابط أو بقلعة سلا وبنوا هناك قصورا ودورا وحمامات
واتفتح بهم ملوك المغرب في تعليم الصناعات وتدييج الحضارة وجندوا منهم جندا عظيما في
البر والبحر وبهم فتح الملك المنصور السعدى اقليم السودان فن أجل ذلك لقب مسامو
السنغال عند الافرنج بلفظ مور^(١)

ويظهر أن جل أهل الثروة من الأندلسيين قصدوا المغرب الأقصى واستوطنوا فاسا
وبثوا هناك الحضارة الأندلسية في جميع مظاهرها ولا سيما فنون البناء والنقش والتزويق
وأساليب المعيشة وبث العلم

وكذلك خاتمة علماء الأندلس قد انتقل معظمهم الى فاس وبثوا هناك العلوم فكان
دخولهم نهضة عامة في الحضارة العلمية والفنية بالمغرب الأقصى

وأما المغرب الأوسط فقد نزلوا منه بتلمسان وهران وانحاز الى تلمسان طائفة من
أهل العلم فظهرت هناك أيضا نهضة في العلم والحضارة

والخلاصة أن ملحق مهاجرى الأندلس من السعادة والعمران قد حصل نقيضه فيما أخلاه
من بلادهم التي سكنها الاسبان وما عمروها وعد المؤرخون إخراج الأندلسيين من وطنهم
أعظم خطيئة أخطأها فيليب الثالث على مملكته واشفى بها لأجل ذلك على الفقر والتأخر
وإذا نظرت الى البلاد وجدتها تشقى كما يشقى العباد وتسعد

(١) قلت وقد وجد في تنبكتو قوم يقال لهم الأندلس من بقايا هؤلاء

طرابلس الغرب وإيطاليا

المؤلف

(١) الكتب الواردة على السيد احمد الشريف السنوسي من لورد كفتنر والسير مكاهون والجنرال مكسويل وهي ثلاثة .

(٢) ما سبق في التاريخ من استيلاء الافرنج على طرابلس الغرب

(٣) عرب طرابلس الغرب لعبد الستار بك الباسل

قد جرى بعد طبع الجزء الأول^(١) من هذا الكتاب حوادث كثيرة في طرابلس الغرب ان لم يسعنا شرحها كلها فلا مناص من الاشارة اليها ولو على وجه الاختصار لأنها من آلم ما آلم بالمسلمين في هذا العصر

منذ استولى على ايطالية حزب الفاشيست تحت رئاسة موسوليني بدأ الاسلام في طرابلس وبرقة يؤول الى الانقراض التام

ومن المعلوم أن مبادئ الفاشيست هي الوصول الى أغراضهم بكل وسيلة وبدون أدنى نظر الى ما يقال له « حقوق الأمم » و « حقوق الانسانية » وما أشبه ذلك مما انفقت الأمم على مراعاته . بل يعلنون ويصرحون ولا يجمعون بأنهم لا يعرفون الحرية ولا يقدسون للحقوق العامة عهداً وان كل شيء يرونه ضرورياً لأجل تعالى ايطاليا وبسطنها في الأرض أو لأجل توطيد دولة الفاشيست فهو عندهم سائغ جائز طابق ذلك الحقوق الانسانية والحقوق الدولية أو لم يطابق . ولموسوليني خطب كثيرة وكتابات بتوقيعه تؤخذ منها هذه المقاصد بدون اشكال فلهذا لم تنق في ايطاليا لا حرية قول ولا حرية كتابة وكل شيء يصادم ارادة الفاشيست فهو ممنوع . ولما أراد البابا تأليف جمعيات كاثوليكية هب الفاشيست في وجهه ومنعوه من تأليفها وأقفلوا أما كن هذه الجمعيات لا عداوة للكثلكة التي هم أنصارها الأشداء بل خشية أن يوجد في ايطالية حزب خارج عن حزب الفاشيست

ولقد احتج البابا على استبداد الفاشيست به واشتد الخلاف بينه وبين موسوليني ولكنه حاب في مسعاه وزهبت احتجاجاته مدعى وهذا بعد أن ألحق به الفاشيست اهانات كثيرة وبعد أن داسوا صورته بالأقدام علنا في أسواق رومة

فالحزب الكاثوليكي الذي يهين البابا نفسه والحزب الإيطالي الذي لا يميز أن يكون في إيطالية حزب سواء ولا يقبل في تلك المملكة قانوناً غير الذي ينطبق على مبادئ الفاشيست لاشك أنه إذا تسلط على طرابلس الغرب كانت مبادئه أظفح وأشنع وأبعد في الظلم مدعى . فإن الأمم الحرة الديموقراطية في أوروبا تهتهد مبلغ إمكانها في العدل والمساواة في بلادها حتى إذا صارت بازاء المسلمين نسيت مبادئ العدل والمساواة وكالت بمكيال للآور بين و بآخر للمسلمين وأوضح دليل على ذلك حالة الإدارة الفرنسية في الجزائر وتونس والمغرب وحالة الإدارة الهندية في الجاوى وسومطرة ولا يستثنى من ذلك أيضاً حكم الإنكليز في الهند . فإذا كان هذا دأب الأمم التي تقيم للعدل والمساواة والحرية وزناً فما ظنك بالقوم الذين لا يعرفونها من الأصل ولا يتقيدون بها تجاه أبناء جنسهم أنفسهم ومن يقولون انهم لا يدينون بشيء الا بالوصول الى عرضهم لا جرم أن المظالم التي أوقعها الطليان الفاشيست في طرابلس وبرقة هي مما لم يقع نظيره في هذا العصر . وقد يكون نادراً حتى في القرون الوسطى . وما أحسن ما قاله الوطني المصري المشهور الاستاذ عبد الرحمن عزام في إحدى مقالاته البليغة وهو (ان الناس يبحثون عن أخبار الأندلس وكيف أجرى الأسبانيول بالمسلمين هناك .. وما لهم وللأندلس وأمور جرت في القرون الوسطى فأمام أعينهم طرابلس الغرب فليذهبوا ويشاهدوا بأعينهم في هذه الأيام فظائع لا تقبل عما جرى بالأندلس)

فالفاشيست قرروا تحويل طرابلس وبرقة بلاداً لاتينية وأجمعوا انزال مليونين أو ثلاثة من الطليان بها بزعمهم أن إيطاليا ضاقت بأهلها . والحقيقة أن انزال نصف مليون إيطالي بطرابلس وبرقة قد تعجز عنه إيطاليا لما يتقاضاها ذلك من النفقات الوجيعة ولكون الأراضي الجيدة في تلك البلاد قليلة جداً وهي على كل حال لا تستحق الهجرة اليها ولا يعيش بها الا القنوع . والفاشيست انما يقصدون في الحقيقة مجرد الافتخار والابتهاار بأنهم فتحوا بلداناً واستعمروا أقطاراً لأنه لو كان المقصود مجرد اجتجاع الأراضي ففي نفس إيطاليا أرضون مهمة هي أجود من أرض طرابلس وأقرب للطليان وجزيرة سردينية من

من اخصب البقاع وأوسعها وهي تكاد تكون خالية

ومن شاء أن يعرف مايعترض ايطاليا من الموانع الاقتصادية في استعمار طرابلس الغرب وما يوجد في نفس ايطاليا من الاراضى التى هى أولى بالاستعمار منها فليطالع للسنيور « نيتى » رئيس وزراء ايطاليا سابقاً ومن أعظم رجال السياسة والعلم في أوربة تأليفه الذى يبحث فيه عن الديموقراطية والفاشيستية والبلشفية فانه يزداد بمطالعة هذا الكتاب يقينا بأن استعمار طرابلس لم يكن الا لأجل مسابقة الدول الأخرى في ميدان الفتوحات والتمرينات العسكرية لا لأجل مقاصد اقتصادية كما يزعمون وأن طرابلس لم تكن ولن تكون بلاداً تؤتى أكلها على أثر استعمار أو استثمار

وخلاصة القول أن اخواننا الطرابلسيين لأمر يريد الله ابتلاوا من الاستعمار الايطالى الفاشيستي بالدهاية الدهماء والبلية الصماء التى مهما كثرت مصائب الاسلام في هذا العصر فلا شئ منها يشبهها

فقد حزر بعض الواقفين بعشرين الف نسمة عدد الذين شنقهم الطليان من أهالى طرابلس وبرقة منذ احتلالهم وكثيراً ما شنقوا اناسا بدون محاكمة بل بمجرد ارادة قائد أو بمجرد ارادة ضابط صغير . وقد وقع لهم انهم شنقوا نساء جردوهن من ثيابهن وأبقوهن مجردات عدة ايام . وقد وقع انهم كانوا يسلكون ستين أو سبعين شخصاً في سلسلة واحدة ويحبسونهم على هذه الصورة مدة الى أن يموتوا . وقذف البحر مرة عدة جثث الى ساحل السلاوم مربوطاً بعضها ببعض فرجح الناس انها من جثث أهالى طرابلس لكثرة ما ربط الطليان من اولئك المساكين بالحبال ورموا بهم في البحر . وقضية الفضائع التى ارتكبتها العسكر الطلياني بأهل المنشية في أول نزولهم بطرابلس هذه قد اقشعرت لها أبدان الاوربيين . رغم انهم على وجه الاجمال لا يشعرون بالآلام المسلمين . وقد حاول الطليان تبرير تلك الاعمال الوحشية بكون الطرابلسيين قد هاجوا العساكر الايطالية من الوراى بينما هم يحاربون الجيش العربى الذى امامهم ولكن ألؤفا من الافعال الوحشية التى أقدموا عليها قد أقدموا عليها بدون موجب سوى حب الانتقام من المسامين والعمل لاستئصال شأفتهم من طرابلس وبرقة ليخلوا للطليان الجوبها ويسكنوها آمنين

ولما كانت اراضى الجبل الاخضر من برقة هى أجود قطعة من برّ طرابلس وفيها

المياه الجارية والعيون الصافية والغابات الملتفة والمروج المريجة توجهت انظار الطليان الى استعمار هذه القطعة قبل غيرها وأخذوا يفكرون في الطريقة التي تمكنهم من اسكان الجنس اللاتيني فيها بدون أن ينازعهم أحد عليها. فلم يجدوا طريقة سوى اجلاء القبائل العربية الساكنة في الجبل الاخضر وجوارره عن أراضيهم وجعوا منهم ثمانين الف نسمة رجالاً ونساءً وأطفالاً وساقوهم الى صحراء « سرت » في الأراضي الواقعة بين برقة وطرابلس على مسافة عشرة أيام من أوطانهم الأصلية وأنزلوهم في معاطش ومجادب لا يمكن أن يعيش بها بشر ولا بقر فمات جانب كبير منهم جوعاً وعطشاً ومات مواشيهم بأسرها من فقد الكلاء والماء . وعند ذلك جعلت الحكومة الإيطالية لكل عائلة منهم فرنكين ايطاليين يومياً أشبه بما يسمونه « قوت لايموت » وارتفع صراخ هؤلاء الأهالي وراجعوا الحكومة الإيطالية وشكوا لها موت ذراريهم وموتان مواشيهم فزادها ذلك الامضاء في عزيمتها ولكنها جاءت فأخذت منهم الرجال الذين من سن البلوغ الى الخامسة والأربعين وأدخلتهم في سن الجندي . ثم عمدت الى الاحداث من فوق أربع سنوات الى ١٢ سنة فأخذتهم قهراً من أحضان آبائهم وأمهاتهم في يوم تشيب من هوله الأطفال ودفعتهم الى ايطاليا لأجل تربيتهم وتنشئتهم في النصرانية . وهذا هو العمل الذي لم تقدم عليه حكومة بعد في هذا العصر والذي يشبه عمل الاسبانيول بمسلمي الاندلس منذ أربعة قرون قد أعاده موسوليني في هذا القرن ولم يبال صراخ أولئك المساكين ولا بالي مخالفة ذلك للحقوق البشرية العامة التي تجعل الأب والأم أوصياء طبيعيين على أولادهم القاصرين . وقد زعمت الحكومة الإيطالية أمام الناس انها إنما نقلت هؤلاء العرب من أوطانهم لتعزلهم عن عصابة الثوار الذين كان يقودهم عمر المختار رحمه الله . وهو كلام فارغ لا يقبله عقل ولا عدل اذ كيف تقدم حكومة على نقل ٨٠ ألف نسمة من مساقط رؤوسها خشية أن يتصلوا بخمسمائة نائر لا غير ثم ان الطليان تغلبوا على الثوار المذكورين وقبضوا على قائدهم عمر المختار الذي ما فتى يجاهد من عشرين سنة وشنقوه بمحضر جم غفير من أبناء جلدته ففضى الى ربه شهيداً وبكاه العالم اسلامي بأجعه وانطفأت الثورة من كل برقة ومع هذا لم ترض الحكومة الإيطالية أن تعيد هؤلاء الاهالي الى بيوتهم وأوطانهم بل انتخبت من بقاياهم أربعة أو خمسة آلاف وأرجعتهم الى الجبل الاخضر يحرثون ويزرعون لا كالكين بل

كعملة في الأملاك التي نزعتها الحكومة الايطالية منهم وسلمتها الى المستعمرين الطليان .
وبعبارة أخرى مثلت ايطاليا في هذه المسألة أيضاً دور الاندلس عندما انتزعت أراضي
المسلمين وسلمتها الى كبار الاسبانيول والى الرهبان ثم جعلت المسلمين أصحابها القدماء
الكرة في نفس أراضيهم لحساب غيرهم . وهذا هو السبب الذي أثار فلاحى الاندلس اليوم
وحلهم على مطالبة الحكومة الاسبانية بعد سقوط الملكية وتأسيس الجمهورية فيها باعادة
هذه الاراضى ملكاً لهم بحجة أنها كانت لأبائهم الذين كانوا مسلمين في الأصل . ولقد
قررت الحكومة الاسبانية الحاضرة تملك فلاحى الاندلس هذه الاراضى ونزعت
أيدى الرهبان ونبلاء الاسبانيول الذين كانوا يملكونها . فالفاشيست اقتفوا آثار
فرديناند وايزابلا في الاندلس من كل وجه . ثم لما نارت اعتراضات المسلمين على ايطاليا
من أجل اجلاء الثمانين الف عربى عن اراضيهم واغتصابها اياها وتسليمها الى الطليان
قامت ايطاليا بتمويه آخر لا يقل عن التمويه الاول سخفاً وهو ان تقول : ان كثيراً
من الحكومات الاسلامية قد أجبرت القبائل الرُّحَّل من رعاياها على التحضر والعدول
عن الهيام فى البرارى وانها هى اى ايطاليا انما أرادت حمل هؤلاء العرب على قبول
الحضارة . كما فعلت الحكومات الاسلامية نفسها ولا نعلم لماذا يستلزم حلهم على ترك
البداءة أن يجلبوا عن أملاكهم وأراضيهم ويصار بهم الى فلاة قاحلة لاماء فيها ولا كلاً
تقريباً ؟ وهل كانت تعجز ايطاليا عن اجبارهم على ترك البداءة وهم فى وسط أراضيهم
الخصبة بالجبل الاخضر ؟ ان هذا التمويه لم يقنع أحداً وقد أشرنا اليه مراراً والى سائر
فظائع ايطاليا بطرابلس فى مجلتنا العربية المنهج الافرنسية الملهج المسماة « بالامة العربية »
La Nation Arabe ويزيد على ذلك قولاً نقوله عن علم وعن خبرة وهو اننا فى أوائل
غارة ايطاليا على طرابلس ذهبنا بنفسنا ومعنا بعض من أتباعنا وجاهدنا مدة ثمانية أشهر فى
درنه وبنغازى فاتبع لنا أن نجوب الجبل الاخضر والاراضى التى تمتد من عقبة السوم الى
سهل بنغازى من أولها الى آخرها وعرفنا السوم ودفنا وطبرق وغور الطنفسة وسائر ما
يسمى بالبطنان ثم الجبل الاخضر بما اشتمل عليه من أراضى قبيلة العبيدات فى درنه وعين
منصور ونبع مارية وترت وبنشابة والقيقب وشحات مدينة سيرنا القديمة وأراضى قبيلة الحاسه
فيها وبعد ذلك أراضى قبيلة البراعة فى قلب الجبل بجوار الزاوية البيضاء وبعد ذلك

أراضى قبيلة الدرسا وأراضى العرفا والعبيد حول قصبة المرج الى أراضى العواقر والمغاربة بظاهر مدينة بنغازى . وقد تعرفنا الى كثير من رؤساء هذه القبائل ومن مشايخ الزوايا السنوسية التى منها لكل قبيلة زاوية أو زاويتان أو ثلاث بحسب عدد تلك القبيلة وقد زرنا أكثر تلك القبائل فى بنجوعها ولم نجد منها قبيلة واحدة يصح أن يقال فيها انها عريقة فى البداوة بل جميعها أصحاب زراعات وجنان وبساتين ومنها من يسكن المضارب ومنها من يسكن المدر ولكن الجميع حراثون زراعون مستقرون لا يظعنون الى أما كن بعيدة وانما يشتون ويصيفون فى بلادهم على عادة الكثيرين من الفلاحين وسكان الحجر فى جميع الدنيا . ولنفرض جدلاً ان ايطاليا شاءت تحضيرهم كما تزعم أفلم يكن ذلك ممكناً مع ابقائهم فى أراضيهم ؟ أكان من الضرورى لأجل تحضيرهم اخراجهم من أراضيهم المربعة البديعة واسكانهم فى فلاة قاحلة ليموتوا ؟ كل الادلة متظاهرة من اعمال ايطاليا فى طرابلس وبرقة على ان مراد الفاشيست هو استئصال الشعب الاسلامى من ذلك القطر لاحتلال اللاتين محله . ولقد وصلت ايطاليا الى هذا الغرض ان لم يكن بتمامه فالى جانب كبير منه . فلقد كان أهالى طرابلس وبرقة قبل غارة ايطاليا عليهما مليوناً ونصف مليون من النسم فلم يبقَ منهم الآن بحسب الاحصاء الأخير سوى سبعمائة ألف نسمة . فيكون قد تناقص عددهم الى النصف بالظلم والعسف والقتل وما نشأ عن ذلك من رحيل الأهلىين منهم من قصد السودان ومنهم من دخل مصر ومنهم من تحول الى تونس ومنهم من وصل الى الجزائر . والطلبيان مسرورون بان الجوب ذلك يخلو لهم مغرورون بان افريقية ألفت اليهم بقيادها بواسطة طرابلس . وكل هذا أوهام وأحلام وستبدى لهم جهلهم الأيام . ولكنهم تركوا فى قلوب المسلمين من جراء أعمالهم فى طرابلس جراحات لاتوسى وحزازات لاتنسى ومن جلة أعمالهم فيها عدا ماتقدم ذكره انهم لما احتلوا واحة الكفرة فى ١٣ يناير من سنة ١٩٣١ الماضية استباحوا قراها ثلاثة أيام فقتلوا من صادفوه من الأهلى . وكان من جلة القتلى بعض الشيوخ الأجلاء مثل السيد محمد بن عمر الفضيل والسيد حميد الفضيل والشيخ فضيل الديفار وغيرهم ممن قتلوه صبراً غير داخل فى ذلك من قتلوا فى المعركة التى جرت بين الأهلى وجيش الجلة الطليانية وهم ٢٠٠ شخص . ثم ان الطليان انتشروا فى القرى والبساتين ونهبوا كل ماوقع فى أيديهم ولم يرجوا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء وصادفوا الشيخ مختار الغدامسى وهو

شيخ فان بالغ ثلاثا وتسعين سنة ومن جلة علماء السنوسية فخلوه مقيداً بالحبال على جل ونفوه من الكفرة فأت في الطريق . ثم اغتصبوا النساء في أعراضهن وقتلوا منهم كثيراً ممن دافعن الى الآخر عن أعراضهن . وكان نحو من ٢٠٠ امرأة من نساء الأشراف قد فررن الى الصحراء قبل وصول الجيش الايطالى فارسلوا قوة في أثرهن تتأثرهن حتى قبضوا عليهن وسحبوهن الى الكفرة حيث خلا بهن ضباط الجيش الطلياني واغتصبوهن وهكذا أنزلوا المعرات بسبعين أسرة شريفة من أشراف الكفرة الذين كانت الشمس تقريبا لا ترى وجوههن من الصون والعفاف . وقد أشارت الصحف الطليانية الى هذه الحادثة وصرحت في باب الافتخار قائلة : « ان الجيش قبض على ٢٠٠ امرأة من نساء الزعماء » وقرأنا ذلك باعيننا ولحظنا ان مقصود البلاغ العسكرى الايطالى التبجح يكون حلائل زعماء الكفرة صرن الى الضباط . الا اننا انتظرنا جلاء الاخبار من الجهة الثانية حتى نعلم ماذا جرى بعد التثبت فامضى شهر حتى وردت الاخبار من المهاجرين الذين دخلوا حدود مصر بان هؤلاء السيدات المقصورات الناشئات في أكرم مهود الطهارة والصون قد قبضوا عليهن في الصحراء وصرن الى أولئك الفجرة الذين لا يعرفون لصيانة العرض معنى ولا يقيمون للشرف وزناً . وعلمنا ان بعض شيوخ الكفرة الذين احتجوا على هتك أعراض السيدات المذكورات قد أمر القائد بقتلهم . ثم لما هاج هائج العالم الاسلامى من جرأ هذا الخبر وأشباهه أذاعت الحكومة الايطالية تمويهاً ظاهراً زعمت فيه أن الجيش تأثر النسوة المائتين المذكورات شفقةً عليهن ولأجل أن يرجعهن الى بيوتهن آمناً وغير ذلك من الأقاويل التى قصدت ايطاليا بها تخدير أعصاب المسلمين الذين بلغهم ما كان جرى بالكفرة من هذه الفظائع من هتك أعراض مخدرات المسلمين ومن استباحة الزاوية السنوسية المسماة « بالتاج » وارقة الخور فيها ودوس المصاحف الشريفة بالاقدام هذا منضمنا الى ما كان بلغهم من قبل من اجلاء ١٨ ألفاً من عرب الجبل الأخضر عن أوطانهم وامانتهم بالجوع والعطش وأخذ أطفالهم قهراً الى ايطاليا لأجل تصيرهم الى ما كان بلغهم من فظائع كثيرة مثل حل الشيخ سعد شيخ قبيلة « الفوائد » و ١٥ شيخاً من رفاقه بالميارات وقذفهم بهم من الجوع على مشهد من أهلهم حتى اذا وصل أحدهم الى الأرض وتقطع ارباً صفق الطليان طرباً ونادوا العرب قائلين : « يأت محمد هذا نبيكم البدوى الذى أمركم بالجهاد وينقذكم من أيدينا » والى غير ذلك من

الأمر التي جرحت قلوب المسلمين فجرت مظاهرات في الشام وحلب وطرابلس الشام وبيروت وفلسطين وانعقدت اجتماعات في كل مكان للاحتجاج على أعمال إيطاليا في طرابلس وأبرق المسلمون بالاحتجاجات الشديدة الى جمعية الأمم بجنيف والى نفس موسوليني بالعبارات القاسية وقامت قيادة الجرائد العربية وحلت على توحش الفاشيست من كل جانب وامتلات جرائد مصر بالاحتجاج والطعن في إيطاليا الى أن عطلت الحكومة المصرية بعضها اجابة لطلب الحكومة الإيطالية ووصل الصريح الى الهند والجاوى وأضح المسلمون لهذه الأخبار وانعقد في الجاوى اجتماع كبير حضره ألوف مؤلفة من المسلمين وخطبوا خطبا شديدة ودعوا الى مقاطعة البضائع الإيطالية وتدخلت الحكومة الهولندية في الأمر وانتصرت لايطاليا بمقتضى قاعدة التكافل الأوربي بوجه المسلمين وقاعدة التكافل الاستعماري بوجه الأمم المقهورة وأشاع قناصل إيطاليا ان كل هذه الاخبار عما حل بمسلمي طرابلس ملفقة لا أصل لها وبلغت بهم القحمة انهم كانوا يخاطرون الناس مخاطرة على أن يذهبوا الى طرابلس بأنفسهم ليشهدوا كذب هذه الأقاويل وبلغ بهم البهتان انهم أشاعوا أيضاً أن إيطاليا اقترحت على جمعية الأمم أن ترسل الى طرابلس لجنة من عندها للتحقيق عما ينسب الى رجالها من الأعمال الشنيعة التي هم أبرياء منها . وكل هذا اختلاق محض قصدت به إيطاليا التمويه وتخدير الاعصاب وصرف المسلمين عن مقاطعة بضائعها وقد سكن كثير من المسلمين الى هذه التكذيبات وهدأ بالهم والحق خلاف ذلك . وكل ما شاع من الاخبار عن أعمال الطليان لا سيما بعد مجيء دولة الفاشيست هو دون الواقع . ولو تأمل المسلمون فيما يأتيه الفاشيست في نفس إيطاليا من الموبقات ومن اغتيال أعدائهم السياسيين ومن حجز كل حرية ومن منع تأليف كل حزب يخالف حزبهم ولو نظروا الى اهانتهم للبابا نفسه ومنعهم إياه من تأليف الجمعيات الكاثوليكية بحجة ان الحزب الفاشيستي الذي هو كاثوليكي الصبغة يغني عن تأليف أحزاب كاثوليكية أخرى لعلموا ان الذين يفعلون تلك الافاعيل بأبناء أمتهم وملتهم ووطنهم لا يقال انهم لا يفعلون اضعافها بالمسلمين الذين ينوون هم استئصال شأفتهم من طرابلس لنحويل تلك البلاد الى ملكة لا تينية كما كانت لعهد الرومان بزعمهم ولايطان ثلاثة ملايين ايطالي فيها . على أن الأعمال الوحشية التي أتوها في

طرابلس وبرقة منذ بدء احتلالهم الى الآن والمظالم المتوالية التي أجروها من قتل وتغريب وحبس وضبط أملاك وانتزاع أراض وغير ذلك قد أصبحت في حكم المتواتر الذي لا يصح فيه المراء لاتفاق عشرات الألوف من الأهلين على روايته فقد نزع عن طرابلس وبرقة نحو من مائتي ألف نسمة وقيل من ٣٠٠ ألف نسمة منهم ٢٠ ألفاً دخلوا تونس والجزائر ومنهم ٦٠ ألفاً دخلوا مصر ومنهم من شردوا الى السوادين ومنهم من تفرقوا في الصحارى وقد أطبقوا بأجمعهم على صحة هذه الأخبار ومشاهدتهم تلك الافعال بالعيان وانه ليستحيل اتفاق تلك الألوف المؤلفة على الكذب هذا فضلاً عن كون لسان الحال أفصح من لسان المقال فلو لا كون هذه المظالم حقيقة راهنة ما كان هذا العدد الكبير من الاهالي يترك وطنه ويهيم على وجهه في البرارى أو يلتمس الرزق عاملاً في أرض غيره بعد ان كان سيداً في أرضه . ومن أغرب المتناقضات والتناقض من عادة كل كاذب أنه ينهأ بمثله ايطاليا في بلاد الاسلام يذيعون أن من شاء أن يذهب الى طرابلس بنفسه ليتحقق كذب تلك الاخبار عن فظائع الطليان فيها فان أبواب طرابلس مفتوحة لمن شاء الذهاب الى هناك وبينما فصلهم في يروت يشيع ذلك في يروت وبينما الحكومة الايطالية تقول هذا القول لشوكت على الزعيم المسلم الهندي إذ بقيت ايطاليا مدة طويلة بعد احتلال الكفرة وحوادثها المؤلمة تمنع كل دخول وخروج بين الحدود المصرية والحدود البرقاوية لئلا يقف أهل مصر على حقائق الاخبار فيزدادوا هياجاً . ولكن الحقائق لابد أن تظهر ولا يمكن ايطاليا اخفاء كل ما تأتية من الأعمال الوحشية في طرابلس وليس المسمون وحدهم هم الذين شاهدوا أعمال الطليان وضجوا منها بل ثمة كثير من الافرنج شاهدوها وأنكروها ومن ذلك المستر « فراسز ما كولا » الانكليزي الذي كان مرافقاً للجيش الايطالي في طرابلس عند الاحتلال وشاهد تلك الفظائع بعينه فقد قال :

« أبيت البقاء مع جيش لاهم له الارتكاب جرائم القتل وان ما رأيته من المذابح وترك النساء المريضات العربيات وأولادهن يعالجون سكرات الموت على قارعة الطريق جعلني أكتب للجنرال « كانيقا » كتاباً شديد اللهجة قلت له : اني أرفض البقاء مع جيش لأعدته جيشاً بل عصاة من قطاع الطرق والقتلة »

ومن ذلك شهادة الكاتب الالماني « فون غوتبرغ » الذي قال : « انه لم يفعل جيش

بعده من أنواع الغدر والخيانة ما فعله الطليان في طرابلس فقد كان الجنرال كانيغا يستهين بكل قانون حربى ويأمر بقتل جميع الاسرى سواء أقبض عليهم في الحرب أو في بيوتهم . وفى سيرا كوزه الآن كثير من الاسرى الذين لم يؤسر واحد منهم في الحرب وأكثرهم من الجنود الذين تركوا في مستشفى طرابلس »

وقد قبض الطليان على ألوف من أهل طرابلس في بيوتهم ونفوسهم بدون أدنى مسوغ الى جزر ايطاليا حيث مات أكثرهم من سوء المعاملة

واقراً ما قاله « هرمان رنول » المراسل النمساوى الحربى فقد وجد في الباخرة التى نقلت جانباً من هؤلاء الاسرى فوصف تلك الحالة فقال :

« فى الساعة السادسة من مساء كل يوم تكبل هؤلاء المرضى بالحديد من اليد اليمنى والرجل اليسرى . حقاً ان موسيقى هذه السلاسل تتفق مع « المدينة » التى نقلتها ايطاليا الى افريقية . لا ريب أن الطليان قد أهانونا كثيراً فلم يكف أنهم أسقطوا منزلة أوروبا العسكرية فى نظر افريقية حتى شوهوا اسم النصرانية أمام الاسلام » ثم قال :

« قد قتل الطليان فى غير م د ان الحرب كل عربى زاد عمره على ١٤ سنة ومنهم من اكتفوا بنفيه . وأحرق الطليان فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٩١١ حياً خلف بنك روما بعد أن ذبحوا أكثر سكانه بينهم النساء والشيوخ والاطفال » . قال : « ورجوت طبيبين عسكريين من أطباء المستشفى أن ينقلوا بعض المرضى والمصابين المطروحين على الأرض تحت حرارة الشمس فلم يفعلوا . فلجأت الى راهب من كبار جمعية الصليب الاحمر هو الأب « يوسف بافيلكو » وعرضت عليه الأمر وأخبرت شاباً فرنسياً أيضاً لكن الأب « بافيلكو » حول نظره عنى ونصح للشباب بأن لا يزعج نفسه بشأن عربى فى سكرات الموت وقال : « دعه يموت ... »

قلت ليتأمل القارئ أن هذا الذى يقول هذا القول هو قسيس يزعم أنه ممثل المسيح على الأرض وأنه من رجال الصليب الاحمر أى الجمعية التى تزعم أنها تخدم الانسانية بلا استثناء !

ثم قال هذا المراسل النمساوى : « ورأيت على مسافة قريبة جندياً ايطالياً يرفس حشة عربى برجله . وصباح اليوم التالى وجدت الجرحى والمرضى الذين رجوت الراهب من

أجلهم قد ماتوا . وقد رأى ذلك معى فون غونبرغ الألمانى وبكى من تائه « ثم قال :
 « رأينا طائفة من الجنود تطوف الشوارع مفرغة رصاص مسدساتها فى قلب كل
 عربى تجده فى طريقها قد نزع أكثرهم معافهم ورفعوا الكمام قصانهم كأنهم جزارون »
 وقال فون غونبرغ فى احدى رسائله : « خرجت عصابة من الجنود وراء البيوت
 فلما دنوا منا وجدنا بينهم خمسة من العرب غلّت أيديهم خلف ظهورهم . ثم سمعنا صراخاً
 وإذا ببعض الجنود خرجوا من منزل يجرون عربياً ضمّوه الى الخسة الأولين وقتلوهم رُمياً
 بالرصاص . فعلمنا أن ليس هناك محاكمة ولا عدالة عسكرية بل هناك مجزرة محضة . ولقد
 قيل لى ان الطليان قتلوا ٤٠٠ امرأة وولد فى هذه الأيام الأخيرة وأربعة آلاف رجل .
 وكانوا يقتلون النساء ويقولون : ظنناهم رجلاً » قلت : وهذا لم يكن من الفاشيست بل من
 الطليان غير الفاشيست لأنه حصل فى سنة ١٩١١ قبل أن يوجد الفاشيست

ثم قال : « فى ٢٧ اكتوبر سنة ١٩١١ سرت فى الطريق شاملى بئر « أبى مليانة »
 فأبصرت شابة عربية خرجت من بيتها ممسكة بيدها طفلاً الصغير . ثم ما لبثت أن سمعت
 ثلاث طلقات نارية ثم رأيت المرأة سقطت على الأرض ميتة أما الطفل فولى هارباً مذعوراً
 فلقيت حينئذ ضابطاً فقلت له : جنودك قتلوا الآن امرأة عند البئر . فقال : جنودنا
 لا يستطيعون التمييز بين الرجل والمرأة أول وهلة . فعلمت من هذا الجواب أن العرب
 مباح قتلهم سواء كانوا مجرمين أو ابرياء »

ثم قال « انه صاف ٥٠ جندياً يقودون ستة من العرب الى خرابة يستعملها الجنود
 لقضاء الحاجة ... ولما أدخلوهم اليها اشترك الضباط والجنود فى قتلهم بالمسدسات والبنادق .
 قال : وما كدت أفر من هذا المشهد الهائل حتى رأيت ما هو أشد هولاً وهو طائفة من
 الجنود يسوقون ٥٠ عربياً بين رجال وأطفال . ضرب أحدهم بحربة بندقيته اثنين منهم
 فمات الواحد لوقته وسقط الآخر يتخبط فى دمه فرفسه أحد الجنود برجليه ثم أدخلوا الباقين
 الى مكان قد تهدم وبدأ الضباط يقتنصون هذا الصيد الكريه بمسدساتهم وبنادق جنودهم
 مدة عشرين دقيقة . وكما سمعوا أنيناً من جثة أعادوا عليها النار الى ان انقطع الأنين »

وقال مراسل التامس يومئذ - قلت ولا يجوز أن ننسى أن غارة ايطاليا على طرابلس
 كانت بالاتفاق مع فرنسة وانكلترة استرضاءً لايطاليا على أثر تقاسم انكلترة وفرنسة مصرأ

والمغرب - : « ان قسوة الانتقام التي استعملها الطليان في وقعة يوم الاثنين يليق أن يقال عنها انها أعمال قتل عام فقد فتكوا بكثير من الأبرياء وستبقى ذكرى هذا الانتقام زمناً طويلاً ... » قلت ان كان بقى عند العالم الاسلامى ذرة من الشرف فلا يجوز له أن ينسى هذه الالهانات التي لحقت به مادام في الأرض شئ يقال له اسلام

وقالت جريدة « الدالى كرونيكل » الانكليزية: « استمر الجيش الايطالى ثلاثة أيام يطلق الرصاص على كل من يلقاه من العرب فهلك عدد كبير من النساء والأطفال وبلغ مجموع القتلى بين الاثنين والجمعة أربعة آلاف عربى . وصدر الأمر بقتل كل من وجد خارج السور الى جهة « قرقارش »

وقال المسيو كوسيرا مراسل جريدة « اكسيلسور » الباريزية :

« لا يخطر ببال أحد ما رأيناه بأعيننا من مشاهد القتل العام ومن أكوام جثث الشيوخ والنساء والأطفال يتصاعد منها الدخان تحت ملابسهم الصوفية كالبخور يحرق أمام مذبح من مذابح النصر الباهر . ومررت بمائة جثة بجانب حائط قضى عليهم باشكال مختلفة . وما فررت من هذا المنظر حتى تمثلت أمام عيني عائلة عربية قتلت عن آخرها وهي تستعد للطعام . ورأيت طفلة صغيرة أدخلت رأسها في صندوق حتى لا ترى ما يحل بها وبأهلها . ان الايطاليين فقدوا عقولهم وانسانيتهم من كل وجه »

وقد أشار الى الحوادث نفسها مراسلا « الدالى ميرور » المستر توماس كرانى والسيدة فرانك ماجى . وقال المستر راليس اشמיד برتل مراسل شركة روتر فى رسالة بعث بها من مالطة يصف فيها ما شاهدته بعينه هو والمستر كرانى مراسل الدالى ميرور والمستردانىس مراسل المورننغ بوست وقد سجلت هذه الرسالة فى دائرة رسمية انكليزية تحت توابعهم : « صادفنا بمجرد خروجنا من المدينة جماعة بين رجال واولاد لا يقل عددهم عن السبعين قتلوا بدون محاكمة . وكنا نشاهد فى طريقنا بعد كل بضع خطوات جثث القتلى فى كل مكان قتل بعضهم برؤوس الحراب والبعض ضرباً وآخرون جرحوا وماتوا على اثر جراحهم . وأبصرنا على مسافة قريبة خمسين رجلاً وولداً هلكوا بالرصاص والسيوف وشاهدنا رؤوساً مهشمة . ومن المشاهد التي رأيناها :

١ - شيخ عربى عاجز بينا هو جالس بقرب مدرسة الزراعة اذ اتخذته طائفة من الجنود

الايطالى هدفاً لرصاص بنادقها فمات

٢ - سمعنا فجأة صوت عيار نارى فعلمنا أنه أطلق على رجل خرج من منزله فسقط والدم يتدفق منه وخرجت زوجته ويدها اناء فيه ماء — لعلها تريد أن تسقيه أو تغسل جراحه — فلما رأتنا نكصت على أعقابها خوفاً منا ...

٣ - التقينا فى أحد الشوارع بثلة من الجنود امسكوا ثلاثة من العرب وصفوهم عند حائط واخذوا يتلهون باطلاق النار عليهم «

وقال المستر بنيت بورلى مراسل « الدالى تلغراف » :

« قتل الطليان فى ٧ نوفمبر (١٩١١) اربعة آلاف شخص بينهم ٤٠٠ امرأة ورأيت رجلاً مقعداً قتله الجنود قريباً من قنصلية النمسا «

وقال مراسل « فرانكفورتر تسايتونغ » :

« لقد رأيت بعينى فظائع هائلة لم تسمع أذن انسان بمنلها . ولقد بلغ الى الآن عدد المذبوحين من الأهالى سبعة آلاف من رجال ونساء وأولاد اذ أبيع للجنود قتل كل من بصادفونه «

قلت هذه اعمال جيش منظم هو جيش ايطاليا تحت قيادة قائد برتبة جنرال هو الجنرال كانيغا يقود ذلك الجيش الى طرابلس الغرب بحجة انها بلاد متوحشة وان ايطاليا تريد ان تمدنها وتدخل اليها مبادئ الانسانية ! ولذلك حاجتها بغيا وعدواناً وأوقعت باهلها كما يعلم كل احد . ولماذا هذا الانتقام الذى تأبى الوحوش الضواري الاتيان بمنله بحق الاهالى الوادعين المجردين من السلاح ؟ جواب ذلك ان المقاتلة من العرب دحروا الجيش الطليانى عند المسكان المسمى بالمنشية وان طائفة من المقاتلة جاءت الجيش الطليانى من الورا على غرة منه فانكسر وتلف منه كثير . فابتقم الجنرال كانيغا هزيمة جيشه هذه بذبح الاهالى الوادعين المستقرين فى بيوتهم رجالاً ونساء واطفالاً ولم يبال لاهو ولا حكومته شناعة هذه الأحداث ولا مخالفة هذه الأعمال لقوانين الحرب الدولية وكيف يبالى وهو وغيره من الأور بين لاسيا الجنس اللاتينى يعتقدون ان الاسلام خارج عن الدائرة التى يجب ان تراعى فيها الحقوق الدولية وانه لانصيب له من ذلك وان كل مايعمل به وباهله جائز . وليس فى هذا شئ من المبالغة بل نحن أولاء نرى من الأور يبين أما اسمى مقاماً اجتماعياً من الطليان نستدل من

كثير من اقوالهم وافعالهم ومن صريح كتبهم الحقوقية انهم لا يقبلون مبدأ المساواة بين الأوربي والمسلم ولا يرون الحقوق العامة التي يدعيها الأوربي مما يجوز ان يدعيه المسلم في المواقف الدولية . فلهذا تجد جيوش هذه الأمم ترتكب في مستعمراتها لاسيا بالمسلمين ما يقرب من أعمال الجيش الايطالي في طرابلس ولا يمتاز عنه بكثير . ولقد ارتكب الفرنسي في هذه السنة عند احتلال واحة تافيلالت بالمغرب افعالاً بعيدة جداً عن الحقوق الدولية وعن الحقوق وهم وان كانوا اخفوا خبرها عن الناس ولم تتصل بالجرائد فلم يمكن طمسها ولا نطمسها تماماً وهم بدون شك أعلى درجة في المدنية من الطليان . ومن غريب الأمراض التي ابتلى بها المجتمع الاسلامي في هذا العصر ان كثيراً من المغترين بزخارف الأقوال من المسلمين لا يصدقون بصدور هذه الافعال عن الأوربيين ويكذبون أخبارها ويكبرون فيها ويقولون ان أعمالاً كهذه يستحيل أن تصدر عن أمم متمدة . وهذا من أعظم البلايا التي أصيب بها المسلمون في هذا القرن وقد تفوق هذه البلية في عمائتهم عن الحقائق بليتهم بفظائع الاستعمار الأوربي . ولكن هذا التصور العالي الذي كان لهم بالمدنية الأوربية والانسانية الأوربية والنزاهة والنبالة اللتين كانوا يعتقدونهما من اخلاق الأمم الغربية قد تناقص كثيراً بعد الحرب العامة عند ما احتل الجيش الافرنسي سورية وجزءاً من تركيا واحتل الانكليز العراق وفلسطين واستانبول وظهر ما ظهر منهم بمصر واليمن وعند ما عمل الفرنسي ماعملوه من تدمير دمشق واطفئ الجميع ما ظهر من أعمال الطليان في طرابلس الغرب وبرقة مما لم يسمع به احد الا في القرون الوسطى ونعود الى ذكر تلك الفظائع فنقول ان الجمعية لطرابلسية البرقاوية في الشام قد نشرت في هذا العام كتاباً عنوانه « الفظائع السود الجر » أو التمدين بالحديد والنار هو الحلقة الأولى من سلسلة فظائع الطليان في ذلك البر . وقد نقلت اخبارها بالوثائق ونقلت من كلام مراسلي الجرائد الكبرى كالتايمس والطان ووستمينستر غازت وغيرها وعن كتاب « فظائع الطليان في طرابلس الغرب » المطبوع في الاستانة سنة ١٣٣٥

ولقد ورد في هذا الكتاب ذكر فظائع أعمال الطليان بالتسلسل من بدء احتلالهم الى الآن سنة فسنة كل سنة مع ذكر ما ارتكبه فيها من الأعمال المخجلة الخارجة عن حدود الانسانية . ومما جاء فيه اهانة الطليان للدين الاسلامي وتعرضهم أحياناً للمسلمين في مساجدهم

ودخول الجنود سكارى الى الجوامع يهزأون بعبادة المسلمين وما من وازع ولا رادع واجبارهم المسلم ولو كان في وسط صلاته أن يترك الصلاة ويحي الضابط أو المأمور الايطالى أياً كان .
وان احتقار الطليان للمسلمين يظهر في الدقيق والخليل من معاملاتهم لهم حتى أننا قرأنا مرة برنامج مراسم أحد الأعياد الايطالية وكيفية الدخول على القائد الكبير في طرابلس فإذا به على هذا الترتيب : يدخل أولاً جالية الطليان وثانياً جالية الأوربيين من غير الطليان وثالثاً اليهود وأخيراً المسلمون ...

ومن كان يهتمُّ الاطلاع على ما فعله الطليان في طرابلس - ويجب أن يهم ذلك جميع المسلمين - فعليه بمطالعة هذا الكتاب من أوله الى آخره وهذا يغنينا عن نقل كثير مما فيه على أننا نتقل منه بعض فقرات على سبيل التمثيل . ففي الصفحة ٥٩ تجد ما يلي :
« الحاج مفتاح مشاوف رجل طرابلسى ذهب الى الحج فأخذ معه من النقود نحواً من ألف جنيه لأنه رجل يجهل معاملة المصارف ولما عاد الى وطنه شعر الفاشيست بما معه من النقود فابتكروا لمصادرتها حيلة سخيفة إذ ادعوا أنها اعانة لجعها للمجاهد السيد عمر المختار فرجاً منهم أن يحققوا هذه الفرية فأبوا الا أن يغتصبوا أمواله بلا تحقيق ولا محاكمة وقالوا له : احمد الله على أن الحكومة لم تقتلك

« لاقيمة لأعراض الناس عند الفاشيست فطالما هتكوا حرمت وتجاوزوا على أعراض نساء شريقات . فن ذلك أن ثلاثة ضباط ايطاليين طلبوا ثلاث بنات من أهالى قضاء « جالو » للاستمتاع بهن فاغتصبوا منهن اثنتين والثالثة فرَّ بها أبوها ونجهاها من برائن أولئك الوحوش المفترسة

« واحة جغبوب هي مركز السادة السنوسية وحصن عبادتهم الأمين والايطاليون شديدو الحرص على اباداة رجال الدين ومحو معالم الاسلام من تلك البلاد لذلك هاجوا هذا المركز وأجلوا عنه أهله وكان أكثرهم من العلماء وطلاب العلم مثل السيد حسين السنوسى شيخ زواية جغبوب والشيخ أحمد اليوسف والشيخ صالح المسارى والشيخ الفضيل الكيش والشيخ محمد أبى شهبه وغيرهم ونفوا معهم نساءهم وأطفالهم الى حيث لا يعلم أحد ويظهر أنهم أُجِّلوا « الى بردى سليمان » وقد سقط من السيارة فى الطريق الشيخ صالح المسارى فلم يهتموا له وكان من خلف السيارة التى تحملها سيارة أخرى داسته وذبحت بحياته

«أصدرت حكومة الفاشيست في لواء بنغازي أمراً بسد جميع المكتاتيب التي تعلم الأطفال أمور دينهم وتحفظهم قرآنهم الكريم
«فاجأ الفاشيست رجلاً يدعى الشيخ يونس بن مصطفى البرعصي وهو معتكف في غار بزاوية الفايدية بالجبل الأخضر فسدّوه عليه وأحرقوه مع عائلته المؤلفة من تسعة أشخاص تأويلاً لاعتكافه بالتجسس عليهم
«تفنن الفاشيست في التنكيل بالسكان حتى انهم ألغوا جماعة منهم الشيخ عبد الحبيب أبا عمران البرعصي والشيخ المكدن العبيدي وأجد خليل السعيطي من طيارة من علو ٤٠٠ متر في المكان المعروف بجردس العبيد بالجبل الأخضر. وربطوا الشيخ مفتاح يحيى العبيدي وابن عمه صالح على بين سيارتين دفعوهما الى اتجاهين مختلفين فتقطعت أجسامهما ارباً ارباً أمام قبيلتهما المستسلمة القاطنة بجوار المعسكر الفاشيستي في «تاكنس»
هذا ما نقلناه عن صفحات ٥٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ من هذا الكتاب. واليك أمثلة أخرى من صفحة ٦٣ :

«أسس الجنرال «غرسيان» محكمة عرفية سيارة تقطع البلاد على متون الطيارات وتحكم على الأهالي بالموت ومصادرة الأملاك لأقل شبهة فتمنحها لمرتزة الفاشيست الذين سدت في وجوههم أبواب المهاجرة الى أمريكا وغيرها. ومن أغرب ما يفعله الفاشيست أنهم يحكمون وينفذون ثم بعد ذلك يحققون... فقد أخبرهم أحد جواسيسهم أن احمد عبد الهادي يقتني بندقية فحكموا عليه بالموت شنقاً وبعد أن نفذوا فيه الحكم فقتلوا منزله فلم يجدوا فيه نوعاً من السلاح ثم ثبت لهم أن هذا الخبر مختلق فلم يعاقبوا الجاسوس وكثيراً ما أزهقت أرواح بمثل هذه التهم الباطلة»

قلت ان تقديمهم التنفيذ على التحقيق هو ناشئ عن خوفهم من ظهور البراءة وعند ذلك تضيع عليهم فرصة ازهاق نفس مسلمة على حين أنهم يعتقدون أن كل مسلم يفارق هذه الدنيا في طرابلس يفسح مكاناً لاطلياني مستعمر. ففي قتل المسلم بأي وجه كان مصلحة لهم بزعمهم ولهذا يسارعون في تنفيذ حكمه بدون تحقيق
ثم انه جاء في هذا الكتاب صفحة ٦٤ :

«نزلت محكمة الطيارات العرفية في هذا العام^(١) على الأهالي المشهورين في عين

الغزاة حكمت فوراً على ستة أشخاص بالقتل وعلى عشرين شخصاً بالسجن - وأقل مدة السجن ٢٠ سنة - وكان بين المحكوم عليهم الشيخ الطلحي الموالى للطلليان المقيم معهم بطبرق . فلما تلى عليهم الحكم همس أحد المحكوم عليهم بالحبس ٢٠ سنة في أذن جاره قائلاً له : انهم ظلموا الطلحي بحكمهم هذا . فأحسَّ بذلك أحد الجواسيس فأبلغه للحاكم فأقسم بأن يكون صاحب هذا القول أول المقتولين وأعدموه الحياة فعلاً . ثم في ساعة تنفيذ الحكم طلب المحكوم عليهم أن ينفذ الحكم بحقهم خفية عن أهلهم وأطفالهم فلم يسعف طلبهم »

ثم جاء في صفحة ٦٥ :

« انتزعت حكومة الفاشيست من أيدي الأهالي ٢٠٠ ألف هكتار من الأراضي بلا مقابل فأعطت مائة ألف للمستعمرين وأوعزت الى اخوانهم المقيمين في الأرجنتين أن يبيعوا أراضيهم فيها ويأتوا الى طرابلس وبرقة حيث يأخذون بدلها مجاناً وقد صرح بذلك السنيور موسوليني في عدة خطب له . وقال المارشال بادوليو والى طرابلس وبرقة في خطاب له : يجب على الذين تمنحهم الحكومة آلاف هكتارات أن يشمروا عن سواعدهم فانتا قد وفقنا الى استملاك الآلاف المؤلفة من الهكتارات ولم يحتج أحد . . . »

لم يحتج أحد طبعاً لأن الذي يحتج جزاؤه الموت . الا أننا نقول : أفليست هجرة هؤلاء البؤساء احتجاجاً عملياً على هذا الظلم الفظيع ؟
وفي صفحة ٥٤ جاء ما يلي :

« في قضاء زواره أرض خصيبة وبتاتين كثيرة فيها أنواع الفواكه وهي ملك لنبائل « النوائل » و « خويلد » و « السعيفات » اغتصبها الفاشيست وسلموها الى مستعمرهم وأجبروا أصحابها على تركها والجلأ الى البادية »
وجاء في صفحة ٦٦ ما يلي :

« من فظائع الابداء والافناء التي قام بها الجنرال « غراسياني » انه حشر كافة سكان الجبل الاخضر في بقعة ضيقة من الارض على الساحل بين المكانين « طلميش » و « بنينة » بعد أن زج زعماءهم في السجون وألحق بهم من الاهانات ما لا يوصف وقتل من المشاهير رجلاً يدعى الشيخ سعيد الرفادي مع خمسة عشر شخصاً شر قتلة وذلك بان أمر باركاهم

في الطيارات والقائم من عن علو ٤٠٠ متر على مشهد من أهلهم وكما هوى منهم شخص صاح الضباط والجنود ساخرين منادين : « فليأت نبيكم محمد البدوي الذي أغراكم بالجهاد وينقذكم من أيدينا » ثم عزم على ترحيل سكان برقة الغريبة فصادر نقودهم ومواشيهم وساقهم محاطين بفرسان وسيارات مصفحة ولم يسمح لهم بالانحراف عن الطريق ولو للاستقاء ومن كان يحاول ذلك أو يجنح للاستراحة يعاقب بالقتل فوراً لا فرق بين رجل وامرأة وطفل الى أن حشرهم بهذه الحال المخرجة في صعيد ضيق على ساحل المكان المعروف بالمقطاع . أما سكان برقة الشرقية (متصرفية طبرق) فلم يكن نصيبهم من الضرر باقل من نصيب اخوانهم حين نفوا مع نساءهم وأطفالهم الى ايطاليا . وهاك أسماء القبائل التي رُحلت لافنائها عن بكرة ابيها : العبيدات والحاسه والمنفه والحوته والشواعر وحبون .

« وقد كانت مخيمة في أرض خصبة واسعة يحدها شرقاً السوم والاراضي المصرية وغرباً وادى الثعبان وشمالاً البحر المتوسط وجنوباً الصحراء . ثم العواقر والمغاربة وعائلة المهشش وأولاد الشيخ والغربيات والسعيط والفواخره والشهبيات وزويّه وجراره ومشيكات والزاوية . وهذه كانت مخيمة في الاراضي المحدودة شرقاً بمسوس وغرباً بالمقطاع وعين الكبريت وخليج سرت وشمالاً بالبحر المتوسط وجنوباً بالصحراء . فهذه القبائل وغيرها البالغ عددها ٣٠ قبيلة وأنفسها ثمانين ألفاً حشرت بأجمعها في بقاع « بنينه » و « طلميشه » و « العقيلة » الضيقة القاحلة ومنعت عن التجول خارج الاسلاك الشائكة التي ضربت حولهم بعد أن سلبت الحكومة الفاشيستية حيواناتهم ومواشيهم

« جمع الجنرال غارسياني جميع مشايخ السنوسية ومتولي أوقافها وأئمة المساجد والمؤذنين والفقهاء والسدنة وسجنهم كلهم في مركز « بنينه » وهو بناء قديم لاسقف له ذاقوا فيه أمر العذاب جوعاً وعطشاً وعذاباً ثم نقلوا الى سجون ايطاليا وبعد أن مكثوا فيها مدة أعيدوا الى « بنينه » حيث أفنوا بالجوع وغيره وهاك بعض أسماء الهالكين : عمر السكوري شيخ زاوية المرج . السنوسي بن جلّول شيخ زاوية البراعصة . السنوسي بن ميلود شيخ زاوية المرازيق . السنوسي الهاني شيخ زاوية أمركبة . ادريس أبو فارس شيخ زاوية أم حفير . ولا ذنب لهؤلاء المساكين سوى أنهم يعاصون أبناء المسلمين كتاب الله وسنة رسوله الكريم »

فلنا ان استئصال الدين الاسلامي من طرابلس واجتثاث عروقه بمحو رجاله من هناك كان ولا يزال محور سياسة الفاشيست في ذلك القطر . وقد صرح قائد طبرق أمام جماعة من المسلمين انهم لا يمكنهم أن يصيروا بنى آدم ما دام هذا الكتاب الذى هو القرآن بين أيديهم

ثم جاء فى كتاب « الفظائع السود الجر » ما يلى :

« أما الاخوان السنوسيون القاطنون فى جغبوب فقد رُحّلوا ببعائلاتهم جميعاً مشياً على الأقدام الى قضاء « جالو » تحت رجة الجنود الذين كانوا يسوقونهم سوق الانعام بقصد الحاقهم باخوانهم فى سجون « بنينه » و « ساوق » وغيرهما . وقد مات أكثرهم جوعاً وتعذيباً . وكان منظر الأطفال الصغار على جانبي الطريق يفتت الأكباد زيادة على مناظر الموتى من الرجال والنساء

« حدثنا ثمة ان الثمانين الف مسلم الذين نزعت من أيديهم بلاد الجبل الأخضر الخصب وأرسلوا الى بادية « سرت » القاحلة التى تبعد مسافة ١٥ يوماً عن الجبل المذكور فى منطقة ضيقة لا ماء فيها ولا كلاً مات أكثرهم من الجوع والعطش والابوثة وهلك أكثر مواشيهم وصادرت الحكومة بقية ما كان عندهم من مال واثاث وحلى وتركوهم يفترشون الغبراء ويلتجفون الساء بصورة لم يسبق لها نظير حتى فى أظلم عصور التاريخ . زد على ذلك انهم جندوا منهم من يتراوح عمره بين ١٥ وال ٤٠ سنة ليحاربوا بهم اخوانهم فى الدين والوطن وأرسلوا أطفالهم الى ايطاليا لتنصيرهم

« ضبطت الفاشيست أولاً زوايا السنوسية وعددها يزيد على المائة مع أوقافها واغتصبوا أخيراً جميع أراضي القبائل المنتسبة الى الطريقة السنوسية ^(١) وهى قبائل الجبل الأخضر وبرقة العبيدات وفروعها والبراعة والحاسة والدرسة والعرفا والعبيد والفوايد والمراطين والعواقر والمغاربة وغيرهم ونفوس هذه القبائل تزيد على ٢٥٠ ألف نسمة وقد أصبحت أراضيها ملكاً للحكومة الفاشستية بموجب أمر ملك ايطاليا ^(٢) نشرته الصحف الأوربية برقياً عن

(١) قلت وجميع قبائل برقة منتسبة الى الطريقة السنوسية

(٢) قلت وقد نشرت هذا الأمر جرائد ايطاليا ونشرنا فى مجلتنا الافرنسية اللغة « لاناسيون آراب » مقالة خاصة فى أحد أعتاد السنة الماضية عن فظاعة هذا العمل

روما . واذا كان ملك ايطاليا وقع أمراً بانتزاع أراضي القبائل السنوسية واعترف المارشال « بادوليو » لندوب جريدة « زيوني كولونياني » بأن الحكومة أعطت أكثر من ٢٠٠ ألف هكتار من الأرض لأربعمئة من المستعمرين الفاشيست الذين أتوا من تونس بقصد الاستملاك وأذاعت ايطاليا في بلاغاتها الرسمية أنها قد أسكنت في برقة بضعة عشر ألف فاشيستي مستعمر وأنها ستسكن خلال ٢٠ سنة في برقة ٣٠ ألف فاشيستي وأعلنت على صفحات الجرائد بلسان أكبر رجالها أنها امتلكت أكثر من ٩٠٠ ألف هكتار وصرح موسوليني أنه سيسكن فيها من مليونين الى ثلاثة ملايين . اذا تم كل ذلك فعنى هذا كله أن حكومة الفاشيست انتزعت مع أراضي برقة والجبل الأخضر أراضي طرابلس ومصراته ومسلاته وزهونة وزايطن وغريان وأورفلة وسوكنة وغيرها حتى يبلغ العدد ستمائة ألف هكتار كما جاء في بلاغاتها الرسمية الخ :

وجاء في هذا الكتاب صفحة ٨٧ ما يلي :

« وقد وفقوا للناحية الأولى حيث شردوا ثلث مليون من السكان ونفذوا الناحية الثانية حيث أفنوا ثلث مليون آخر ونيط تنفيذ الناحية الثالثة بالمدارس الطليانية ولم يتركوا في طول البلاد وعرضها مدرسة غير طليانية وهكذا الأخلاق الاسلامية قد ضمنت المدارس الطليانية القضاء عليها بوسائل التعليم الاجباري . وتكفلت دور الفحش والدعارة بافساد أخلاق الشبان . وأما الناحية الرابعة وهي تنصير المسلمين ودفعهم لاعتناق الكتلثة فقد صرح أحد سفراء الدول للامير الجليل شكيب أرسلان بأنه تحدث مع أحد رجال حكومة ايطاليا فقال له : اننا نأمل كثيراً تنصير الجنس البربري من أهل طرابلس وبرقة »

نعم قد سمع محرر هذه السطور من سفير أوربي أعرفه من زمن طويل وأعرف أنه من الثقات في جميع أقواله

انني أرى في هذا النقل عن كتاب فظائع ايطاليا في طرابلس ما به مقنع وان كانت عقول بعض الناس لا تزال تستنكف من قبول جميع هذه الروايات وتظنها من قبيل الغلو والاغراق في وصف مظالم الفاشيست . وما هي بغلو ولا اغراق بل هي بأجمعها وقائع قد جرت فعلاً

ولما حررت المقالة التي نشرتها عن فجائع طرابلس وبرقة سنة ١٩٣١ على أثر دخول

الطليان الى الكفرة وارتجف لها العالم الاسلامي غضبا وعلا الصراخ من كل جهة جاءني من الشهيد الأكبر بطل الجبل الأخضر السيد عمر المختار الكتاب الآتي :

« انه من خادم المسلمين عمر المختار الى المجاهد الأمير الخطير أخينا في الله وزميلنا في سبيل الله الأمير شبكيب ارسلان حفظه الله

« بعد السلام الاتم والرضوان الشامل الاعم ورحمة الله وبركاته قد قرأنا مادبجه يراعكم السبال عن فظائع الطليان وما اقترفته الايدي الاثيمة من الظلم والعدوان بهذه الديار فاني وعموم اخواني المجاهدين نقدم لسامي مقامكم خالص الشكر وعظيم الممنونية . كل ما ذكرتموه عما اقترفته أيدي الايطاليين هو قليل من كثير وقد اقتصدتم واحتطتم كثيرا ولو بذكر للعالم كل ما يقع من الايطاليين لا توجد اذن تصفى لما يروى من استحالة وقوعه . والحقيقة والله وملائكته شهود أنه صحيح وأتينا في الدفاع عن ديننا ووطننا صامدون وعلى الله في نصرنا متوكلون وقد قال الله تعالى : وكان حقاً علينا نصر المؤمنين وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، في ٢٠ ذى الحجة ١٣٤٩ » انتهى

وما لاحظه الشهيد المشار اليه هو عين الحقيقة فان الناس يصعب عليهم أن يصدقوا أن جيلا على وجه الأرض يقدم على ارتكاب مثل الشناعات والدناءات والندالات التي أقدم عليها الطليان في طرابلس ولا سيما الفاشيست منهم . وان الناس لا يزالون يتوقفون عن تصديق هذه الروايات لغرابتها وفرط بعدها عن العقل بحيث كنا كثيراً ما نتمسك عن الخوض في هذا الموضوع أمام بعض الاوربيين خشية أن ننتهم بالافتراء أو بالمبالغة والحقيقة ان كل ما روينا عنهم وما رواه كتاب « الفظائع السود الحمر » هو قليل من كثير مما لا يمكن استقصاؤه من اعمالهم في هذه العشرين سنة التي انصب فيها بلاؤهم على ذلك القطر الحزين . وهذا مما يحجب دليلاً مؤكداً على ان الأوربيين عموماً واللاتين خصوصاً اذا ظفروا بالمسلمين لا يربقون فيهم إلاً ولازمة ولا يعرفون شفقة ولا رجة

ولما اشتد غضب المسلمين على الطليان مما أنزلوه باخوانهم في طرابلس وتحدثوا في كل ناد بوجوب مقاطعة تجارتهم خشي الطليان عاقبة هذا الأمر وشرعوا يتوددون الى زعماء المسلمين وينفون لديهم كل ماشاع من أخبار تلك الفظائع . وكانوا من قبل قد امتنعوا عن الاعتراف بابن سعود ملكاً على الحجاز وأخذوا يترصون به الدوائر ... وقيل انهم مدوا أيديهم في الخفاء الى أعدائه ليكنونوا يداً واحدة عليه فلما أرادوا التزلف الى المسلمين لينسوهم

أفأعيلهم باخوانهم في طرابلس أسرعوا الى عقد المعاهدة التي كانوا رفضوا عقدها مع الملك ابن سعود وكانوا تطلبوا لأجل ذلك شروطا نحن أدري بها لأن المذاكرة وقعت معنا في كل من سنة ١٩٢٧ و ١٩٢٨ وما أمكن الاتفاق يومئذ بما اقترحوا من الصيغ التي لم نوافق على تحريرها في المعاهدة . ثم كانوا من أسرع الدول الى الاعتراف باستقلال العراق ومن أكثرهن مصانعة للملك فيصل بن الحسين . ولقد سمعنا أيضاً أنهم خففوا من وطأتهم في طرابلس وشرعوا يتزلفون الى المسلمين بما لم يسبق لهم من قبل وأخذوا من بعض مشايخهم شهادات بأنهم راضون شاكرون ! فأما الثمانون الف عربي الذين أجلاهم عن أوطانهم البديعة وأراضهم المريعة في الجبل الأخضر فما أعادوا منهم سوى خمسة آلاف رجل يقال أنهم انما أعادوهم اليها كعملة فيها لا كالكين . ولا بد أن ينجلى الغبار وتنكشف الأسرار ولو بعد حين . على أن الذي فعله الطليان بمسلي طرابلس لا يجوز للامة الاسلامية أن تنساه أبداً الدهر اذا كانت تريد أن تبقى في الوجود ولله در يزيد بن الطائية القائل :

لا أبقى حسك الضغائن بالرقى فعل الذليل ولو بقيت وحيداً
لكن أجرد للضغائن مثلها حتى تموت وللحقود حقوداً

ولما كنا قد دخلنا في بحث طرابلس وبرقة فقد رأينا أن تتم هذا الفصل بمعلومات احصائية وجغرافية عن تلك البلاد كنا جعناها في أثناء ذهابنا بنفسنا الى الجهاد في برقة سنة ١٩١١ الى ١٩١٢ وأجعنا ان نحررها في كتاب مستقل برأسه الا أن العوائق الكثيرة من توالى الاسفار وتحرير الاسفار وغير ذلك من الأشغال والمهمات لم تتح لنا أن نبرز هذا الكتاب الى الوجود . فرأينا الآن أن نلخص هذه المعلومات هنا في هذه الطبعة من هذا الكتاب كما أننا كنا في الطبعة الأولى منه قد ذكرنا كثيراً منها في عرض البحث عن السادة السنوسية وزواياهم . وهكذا لا نكون أفلطنا هذه المعلومات من قيد التسجيل ثم يعرف المسلمون بواسطة هذا الكتاب ماذا كان يوجد من السكان المسلمين في طرابلس وبرقة وكيف كانت معاهد الطريقة السنوسية وغيرها في ذلك القطر يوم شن الطليان الغارة عليه بحيث اذا تغيرت المعالم وتبدلت الاوضاع نعرف مقدار الحق الذي ضاع وعنده العرب الذين خلت منهم تلك البقاع

فنقول ان أهالي برقة ينقسمون الى قسمين حضر وبادية فالحضر هم أهل بنغازي

ودرنه . والبادية هم أهل الجبل الأخضر وما يجاوره . وهم في الحقيقة نصف بادية ولهم أراضٍ كإراضى الحضر يحرقونها وجنان وأشجار يحرسونها وإنما هم يعتمدون في الغالب على رعاية المواشى وعندهم المراعى التى يندر مثلها في البلدان ويصدرون الغنم والسمن والاقط الى الاسكندرية وغيرها .

والبلاد التى تسمى « برقة » تبتدىء من قم الفج من محل يسمى العصيدة على طريق سيدى عمر المهبشش ممتدة الى غاية مقطع الكبريت من جهة عمل طرابلس . وثمة برقتان الجراء والبيضاء كاتاهما ضمن قضاء اجدابية

ومن العصيدة الى غاية وادى أبى الضحاك الذى تنصب مياهه الى درنة هذا هو الجبل الأخضر

ومن وادى أبى الضحاك الى عين الغزالة شرقاً يقال له الخرمة

ومن عين الغزالة الى وادى بلوك باش الى الشرق ما يسمى بالبطنان

ومن وادى بلوك باش الى مركز السلوم يسمى دفنة

ومن السلوم الى الشرق صارت الديار المصرية فالى حجاج العقيبة ما يسمى بالعقبة

ومن رأس حجاج العقيبة الى المحل الذى يقال له سيدى عبدالرحمن ما يسمى بالعقبة

ومن سيدى عبدالرحمن الى غاية خشم العيش يقال له المقطوعة

ومن خشم العيش الى الاسكندرية يقال له مريوط

وأما من البحر المتوسط الى الداخل فاذا مدت خطاً من البحر عند بنغازى الى

وادى الكفرة جنوباً فانها مسافة ٢٥ يوماً . وان مدت خطاً من « دفنه » الى الجنوب

مستقيماً وقع في واحة جغبوب

وعلى مسافة ثمانية من ساحل البحر الى الجنوب قضاء جالو وأوجه التابع لبنغازى

وأهله نحو من ستة آلاف نسمة يقال لهم المجبرة ثلثان منهم في جالو وثلث في أوجه

وفي الجبل الأخضر مياه جارية عذبة كياه جبل لبنان فيها نهر درنة وهو من وادى

أبى الضحاك ويقال له أيضاً وادى المنحر . وهو يجري من عينين احدهما عين منصور .

وعلى مقربة منها بقى معسكر انور والمجاهدين مدة سنة فأكثر . وتدور على نهر درنة

الارحية وتكثر في درنة الساتين وكلها سقى . وفيها عدا النهر آبار عذبة . والى الغرب من

درة نهر « ماره » يدير الرحي أيضاً فيه ٢٥ عيناً وماؤه عند رأس نبعه في غاية البرودة والعذوبة تخاله نبع الصفا في لبنان وعليه بساتين ومزارع ومنه الى درة مسافة خمس ساعات. ويوجد الى الغرب من درة نهر « كرسه » على ساحل البحر. والى الغرب من كرسه وادى الاترون لقبيلة الشواعر. ثم وادى القليعة. ثم وادى رأس الهلال. ثم وادى سوسه وهى قرية كان فيها مهاجرون من مسلمى كريد. ثم عين شحات أى سيرنا القديمة تبعد عن البحر مسافة ساعتين ونصف ساعة. وشحات جبل مشرف على البحر أشبه بجبال غرب لبنان أو جبال متن لبنان المناوحة للبحر والماء يتفجر منه من مغارة في أعلاه ويتصب من هناك في شفير عال أمامه الفضاء التام الى البحر. وعلا هذا الشفير المقطوع نحو من ٣٠٠ متر. ومنظر شحات باشراف جبلها واقبالها على البحر وعلا شفيرها الذى تجرى خلاله عين شحات وعيون أخرى هو من أجمل مناظر الدنيا. وأرض شحات لقبيلة الحاسة التى منها نفر في مرج بن عامر بفلسطين. وفيها زاوية كانت أجمل زوايا السنوسية مبنية على حافة ذلك الشفير الشاهق بتنا فيها ليلة يوم كنا في جهاد طرابلس سنة ١٩١١ وكان شيخها يومئذ سيدى الدردفى من كبار الطريقة السنوسية وكان لهذه الزاوية أحسن أراضى شحات. وشحات هذه أو « سيرنا » الشهيرة في القدم بناها التيريون من يونان سنة ٦٣٠ قبل المسيح وصارت مدينة عظيمة تضاهى قرطاجنة ونبع فيها فلاسفة وحكماء منهم اريستيب Arystippe الذى نسبت اليه الفلسفة السيرية وغيره. وقيل بناها اليونانيون سنة ٦٦١ قبل الميلاد وكان رئيس هؤلاء اسمه باتوس وبقيت دولتهم هناك ٢٠٠ سنة وخرج منها عشرون ملكاً أفضلهم باتوس الثانى. وهذا وغربى نهر ماره واد يقال له « الحيز » فيه عيون كثيرة منها عين اسكندر وعين الحى وعين القبة وعليها بناء قديم متقن. وقد بتنا عندها ليلة في أثناء اختراقنا للجبل الأخضر من معسكر المجاهدين في درة الى معسكر المجاهدين في بنغازى. ثم عين أم قديم وعين زاوية بشاره وهى زاوية سنوسية مشايخها آل فرকাশ مررنا بها في تلك السياحة. ثم عين الجريوله وأبو شمال في محل يسمى الفرش. وأرض الدرياس فيها عيون جارية منها عين القيقب وهناك قصر قديم فيه بقايا مدافع قديمة رأيت على بعضها تاريخ سنة ١٨٠٤ فيما أتذكر. وللعين ميزاب من داخل القلعة وميزاب وحوض من خارجها وماؤها بارد كأحسن مياه لبنان. وقد بتنا عند قصر

القيقب هذا ليلة واحدة ونحن صادرون عن سهل بنغازي الى جبل درنة . وكان ذلك في شهر أغسطس أي أبان الحر ومع هذا فقد اضطررنا أن نشعل النار أمام خيامنا طول الليل اتقاء البرد . ثم عين لالى فعين الفيدية فعين زوية فعين باطية وكلها غربي درنة على مسيرة يومين للفارس وعليها زرائع وجنان وبساتين . هذا وفي سهل « دفنة » معطن مأوه ينبع من الأرض ^(١) ومعطن في بلوك باش ومعطن في مرسى طبرق ومعطن في العودة غربي طبرق ومعطن في عقيلة أبي حسنا وكلها في سيف البحر . وعلى ساحل البحر أيضاً عين الغزالة والى الغرب منها معطن اسمه الشقيق ثم سانية التميمي قبلي خليج مبرا والى الغرب منها عقيلة التميمي ثم أم ارزم ^(٢) وهي عين ماء نضّاجة عليها بستان عظيم وزاوية للسوسية بتنا فيها ليلة من ليالى رمضان منصرفنا من برقة في أوائل حرب البلقان . وجاعة هذه الزاوية عائلة مطرودة . ثم الخريبة غربي أم مرزم وغربها زاوية أم عفين بها زاوية للسوسية وعين جارية تبعد عن الأولى نصف ساعة . وكل هذه الأما كن مناوحة للبحر على مسافة ساعة ونصف منه . ثم وادي جنين فيه معطن قبلي ملاحه رأس التين يبعد عن البحر مسافة ساعة ونصف ساعة أيضاً . والى الغرب من وادي جنين معطن السوينية . والى الغرب من السوينية وادي الغرابي فيه معاطن عدة . والى الغرب من الغرابي عين مرطوبة غزيرة جارية عليها أشجار وزرائع وهناك زاوية عظيمة للسوسية بتنا عندها ليلة في طريقنا الى معسكر انور في عين منصور . وغربي مرطوبة وادي بلغراف فيه معطن وهذه الاما كن هي على مسافة ثلاث ساعات من البحر . وغربي بلغراف وادي بالصف والى الغرب منه عيون البقر خمسة معاطن وثلاث آبار . وغربي عيون البقر وادي المنحر الذي فيه عين منصور الذي كان فوقها مخيم أنور أيام جهاد طرابلس سنة ١٩١١ الى ١٩١٢ مسيحية وجميع هذه المياه هي في أراضي قبيلة العبيدات

وأما مدينة درنة على ساحل البحر فهي بلدة شامية في مياهها وفواكهها وزرائعها وفيها التين والرمان والعنب والنخيل والتفاح والكمثرى ورماتها موصوف بجودته . والعنب أنواع كثيرة منه الزبيبي ويض الحمام والتركي والبيوضي والسوادي وزق

(١) المعطن في اللغة مناخ الابل حول الماء

(٢) والارزم الريح ويجوز أن يكون أم مرزم وهي بمعنى الريح أيضاً

الطير وغيرها

هذه نبذة مما علمناه من المعلومات الجغرافية المتعلقة بالجبل الأخضر وما أخذناه من أفواه الثقات من أهل تلك البلاد . وأما طول هذا الجبل من الشرق الى الغرب فقد سرنا من أول الجبل مما يلي زاوية مرطوبة الى سهل مدينة بنغازى فى ١٢ يوماً كل يوم كنا نسير من ست الى سبع ساعات . وقيل لنا ان عرضه من البحر الى الصحراء مسيرة يومين . وهو اسم طابق مسماه اذ كيف توجهت وقع نظرك على مروج خضر كالزمرد وغاب اشب متلف عظيم السرح فينان الدوح يسير الراكب مساوفاً طوالاً بالأيام لا بالساعات وهو فى ظل الشجر . وقيل لنا انه طالما شبت النيران فى الغابات فبقيت تأكل منها أياماً ولم يشعر الناس أنه نقص منها شئ . ويروى عن سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه لما فتح مصر ومنها سار الى برقة وطرابلس وفتحهما لم يعجبه مكان كالجبل الأخضر وقال : لولا أموالى بالحجاز ما اخترت مكاناً للإقامة الا الجبل الأخضر . وأكثر الشجر الذى هو فى هذا الجبل هو من الأرز والصنوبر والعفص وفيه غابات عظيمة من الزيتون البرى وفيه أشجار بأسقة كثيرة متنوعة تعلو الشجرة منها نحواً من ٢٠ الى ٢٥ متراً . فلا عجب اذا توجهت رغبة الطليان الى استعمار هذا الجبل بنوع خاص وكانوا قد رأوا الوسيلة الوحيدة لانفرادهم بحيازته أن يجالوا عنه جميع قبائل العرب التى تسكنه . ويفصبوا تلك الأراضى من أيديهم غصباً ويصير وهم الى فلات لا ماء ولا كلاً الا ما نذر ليكون مصيرهم الانقراض ولا يبقى على الطليان خوف من كره العرب عليهم لاسترجاع أراضيمهم

وأما قبائل العرب التى هناك فكلهم جاءوا من جزيرة العرب فى أيام الفاطميين كما سيأتى . ولقد تبدلت أسماء الكثير من بطونهم وأخفاهم بكرور الأيام ونحن نذكر الآن أسماءهم وتقاسيمهم على حالتهم الحاضرة ثم نعقب ذلك بأسمائهم وتقاسيمهم فى الأعصر الماضية للمقابلة بين الغابر والحاضر فنقول :

هؤلاء العرب ينقسمون الى قسمين الأول يقال له « السعدى » والثانى يقال له المرابطون . والفرق بينهما أن السعدى أشبه بالعلالات الممتازة أو الحاكمة وأن المرابطين أشبه بالاهالى الذين تحت الحكم . وتسمية القبائل الممتازة بالسعدى هى أن عقار قد ولد هذه القبائل من سعدى وهى امرأة هلالية فيكون بنو هلال اخوال السعدى

هكذا يروون . فالسعدى منهم القبائل التى يقال لها ولد على وكل هؤلاء فى داخل الديار المصرية منتشرون من مربوط الى السلاوم . وهم ثلاث فرق أولاد على الأبيض وأولاد على الأحمر وأولاد على خروف . وهؤلاء أولاد على خروف من فروع أولاد على الأبيض . وأشهر بطون أولاد على الأبيض الصناقرة والمغاورة والموامنة والعجارمة والافراد . وأما أولاد على الأحمر فهم القيسات والحشيبات والكميلات وأبو سنية وهؤلاء ينقسمون الى أخفاد العراوة والقطيعة والمحافظ

ولأولاد على مرابطون أى تبع كما للقبائل السعدى التى فى برقة ومرابطو أولاد على هم العوامنة والزعيرات والموالك وحبون والحوته وسمالوس والمنفة وكلهم فى أرض مصر وأولاد على مع مرابطيهم يبلغون نحواً من مائة ألف نسمة ولهم نحو من عشرين زاوية يديرها السادة السنوسية كل فرقة منهم تختص بزاوية

ثم من السعدى القبائل المسماة « بالخرابى » وهم ضمن حدود برقة وهؤلاء ينتسبون الى حرب بن عفار من ولد سليم بن منصور من العرب العدنانية وهم عدة قبائل العبيدات والبراعة والحاسة والدرسة وقائد

فالعبيدات ينقسمون الى بطون منها عائلة غيث ومنها عائلة مريم الذين فى جوار طبرق كان منهم شيخ مشهور يقال له المبرى استشهد فى واقعة مع الطليان قبل وصولنا الى هناك بقليل . ومنهم البناني ومنهم العواكلة أى شاهين وعوكل وهذان البطنان يقال لهما عائلة عبيد . ومنهم مسعودة وهم عدة عائلات عائلة منصور وعائلة قابس وعائلة أبى ضاوى وعائلة مباركة وعائلة أبى جازية وعائلة عبدالكريم وعائلة رفاد وعائلة المليط . ومن العبيدات أيضاً عائلة مزين (بضم ففتح) والعلافة والعدال والشرائع وعبيد

وعدد رجال غيث نحو من أربعة آلاف مسكنهم من القيقب فى وسط الجبل الاخضر الى حد دفنه شرقاً . وعائلة مريم عددهم ١٥٠٠ رجل مسكنهم من طبرق الى دفنه . والعواكلة عددهم أربعة آلاف مسكنهم من القيقب الى دفنه . والشاهين ثلاثة آلاف منزلهم من الحيلة الى السلاوم . وعائلة منصور من درنة الى أم مرزم شرقاً وهم ثمانية آلاف والقرب منهم قابس وهم خمسة مائة . وأبو ضاوى زهاء ألفين منزلهم غربى درنة بجوار زاوية بشارة . ومباركة عددهم ألف فى ناحية القبة غربى أبى ضاوى . وأبو جازية شرقى درنة فى ناحية خليج بما

عند زاوية مرطوبة وهم ١٥٠٠ ويليهم عبد الكريم وهم ألف وخسمائة أيضاً . ويليهم
رفاد وهم كذلك ١٥٠٠ رجل . ويليهم المييط وهم ٥٠٠ وكلهم في ناحية بمبا
وأما عائلة مزين ففي سبخة رأس التين من بمبا وعددهم زهاء ألفين . وأما العلالقة
نخسمائة منهم فريق بالفرش غربى درنة وفريق من البطنان غربى طبرق . والعدال ألف
رجل وهم ينزلون بقرب العلالقة

ومن العبيدات عدد غير قليل في الديار المصرية . فالشرائع منهم ثلاثة آلاف ويقال
أكثر في الفيوم . ومن عبيد وعائلة مريم نحو من ١٥٠٠ في الفيوم أيضاً . ويقال ان من
العبيدات نخذاً اسمهم الرزنا نحو من ١٥٠٠ في الفيوم أيضاً . ومن العواكلة في الفيوم
وفي كفر الزيات ١٥٠٠ رجل . ومن الشاهين فريق في الفيوم يقال لهم الشلقات . ومن
أبى جازية نحو ٥٠٠ في الديار المصرية . ومن رفاد زهاء ٦٠٠ في منهور ومن مزين ٥٠٠
في البحيرة ومن عائلة مريم ٥٠٠ في طنطا ومن العلالقة في العقبة والفيوم والبحيرة ألف
وخسمائة رجل ومن العدال ألف رجل في الفيوم وفي مربوط

وبالجملة يبلغ عدد قبيلة العبيدات في الجبل الأخضر والديار المصرية من ٤٠ الى ٤٥
الف مقاتل هذا بحسب الروايات التى تلقيتها من المرحوم صالح سركيوه من وجوه درنة ومن
غيره من العارفين بأحوال ذلك القطر لأنى حيث حلت كنت أسأل وأبحث
وقد روى الى أيضاً ان العبيدات ينقسمون الى ضنى بنينه وضنى واعرفن ضنى بنينه
العواكلة والشاهين . وان العواكلة منهم عائلة بركات وعائلة خليل وعائلة سجيح وعائلة أبى
فسيخة وعائلة عبد الكريم وعائلة سعدى . ويقال ان أصل العواكلة من حرب من الحجاز .
وقيل لى ان العواكلة والحوته والجرارة والتركى كلهم من سليم بن منصور
وأما الشاهين فعائلة المجلوم وعائلة غاضرات وعائلة حبيب

وبطون عائلة غيث عائلة الخادم وعائلة الفضيلة وعائلة حسين الفرخ وعائلة ابراهيم
الفرخ وعائلة الصغير وعائلة أبى نظارة وعائلة جبر وعائلة عويضة وعائلة عبد الله وعائلة محمود
وعائلة ابن صيت وزاويتهم زاوية ترت - وكان شيخها يوم كنا هناك سيدى محمد الغزالى -
وقبل لى انهم يناهزون عشرة آلاف رجل
وعائلة غيث هم من ضنى واعرف . وكذلك من ضنى واعرف مسعودة أى عائلة منصور

ورفاقها ومن ضنى واعر عائلة مريم وعائلة مزين وعبيد . ويقال ان العلاقة والعدال ليسوا في الأصل من العبيدات وانما انضموا اليهم والتحقوا .

والعبيدات مرابطون كما تقدم . وهم كثير و العدد مثل العبيدات وربما أكثر فمنهم قبيلة القطعان وأولهم الرحامنه منهم ستة آلاف رجل بين دفنة والعقة . ويليهم عائلة بريدان وهم ثلاثة آلاف رجل منهم الثلاثان في العقة ودفنة والثالث في أبي حص بمصر . ومن القطعان عائلة أبي سعيدة وهم زهاء الفين في دفنة والبطنان ومنهم نحو الف في مريوط والبحيرة . ومن القطعان الرخامي منهم ٥٠٠ بناحية بمبا ونحو من الف نازلون بين العقة ومريوط . ومن القطعان المعابدة منازلهم من العقة الى مريوط وهم نحو من ثلاثة آلاف . ومن القطعان عائلة الفزار نحو من الفين في العقة أيضاً . ومما يرويه الناس هناك أن القطعان هم من ذرية كعب الأبحار

ومن مرابطي العبيدات المنفة وهم خمسة آلاف رجل منهم العلوم ومنهم مسيكة ومنازلهم من البطنان الى مصر . ومنهم عائلة الخائب زهاء خمسمائة في برقة ومنهم عائلة الحاج رجب المنفة في برقة وهم نحو من الف

ويقال ان اصل المنفة هؤلاء هم من بني هلال الا عائلة المقورى فانهم أشرف هاشميون ومن مرابطي العبيدات الموالك منازلهم من دفنة الى مريوط ويقال انهم نحو من خمسة آلاف ومن مرابطي العبيدات عائلة عبدالواحد الجرارة مسكنهم بدفنة والعقة وهم ١٥٠٠ رجل وعائلة عبدالسميع عددهم الف رجل بين دفنة والبطنان . ومنهم عائلة أبي حليلة زهاء ٦٠٠ في البطنان ودفنة . والسنينات زهاء الف هناك أيضاً ومنهم أناس في بر مصر

ومن مرابطي العبيدات قبائل الحوتة منهم عائلة الديداني الف رجل بالجبل الأخضر ثم الجبيبات وعددهم أيضاً نحو الألف ومسكنهم بالقيقب في الجبل الأخضر . ثم الصوانع وعددهم ٥٠٠ رجل ثم الدقش وعددهم ٢٠٠ وهم أيضاً من سكان الجبل الأخضر . ثم الحوتة النفوفه أكثرهم في بر مصر ومنهم فرقة بالبطنان زهاء ٥٠٠ أما الذين في بر مصر فنزلهم من العقة الى مريوط وهم يناهزون ستة آلاف رجل . ثم المرازقة وهم في البطنان نزلهم من ٥٠٠ ولكن في أرض مصر يبلغون خمسة الى ستة آلاف . ثم الشرسات وهم زهاء الفين من العقة الى البحيرة

ومن مرابطى العبيدات الشوارع منهم الغوالب عددهم ألف رجل وهؤلاء فى دفنة ومنهم ألف أخرى فى داخل حدود مصر . ومنهم شوارع قطيشة وهم أيضاً فى دفنة وعددهم يبلغ الألف ومنهم ألف أخرى بين العقبة ومريوط . ومن الشوارع الوداس وهم زهاء ٢٠٠ فى دفنة ومنهم ٥٠٠ من العقبة الى مريوط . ثم عائلة زائد الشوارع ٥٠٠ فى وادى درنه و ٥٠٠ من العقبة الى مريوط . وقبيلة عمر الشوارع نحو من ألف فى الجبل الأخضر ومنهم نزر فى مصر . ثم اللامشة بالجبل الأخضر وهم نحو من ألف والعسيرات وهم ٥٠٠ ومسكنهم فى الجبل الأخضر والطوارسة ومنهم ألف فى دفنة والبطنان وألف أكثر من العقبة الى مريوط . وكل هؤلاء هم الشوارع وهم جميعاً زهاء عشرة آلاف مقاتل .

ومن مرابطى العبيدات الزعيرات ومنهم ٢٠٠ فى بمبا و ٨٠٠ فى برمصر وعائلة القرى مسكنهم بمبا وهم فيها ٥٠٠ ومنهم بمصر نحو من ألف

ومن مرابطى العبيدات الشلاوية ومنهم نحو ٢٥٠٠ داخل الجبل الأخضر و ٥٠٠ فى أرض بمبا ومنهم ألف فى مديرية البحيرة بمصر . والتراكى وهم فى الجبل الأخضر وعددهم ألف رجل . وهناك قبيلة اسمها القبائل منهم بالجبل الأخضر الفان وخسمائة ومنهم بأرض مصر ٥٠٠ رجل . وجميع مرابطى العبيدات فى الجبل الأخضر ومصر يناهزون سبعين ألف مقاتل حسبما روى لى الثقات وعليه يكون العبيدات مع مرابطيهم نحواً من مائة وعشرة آلاف وأكثر أى يزيدون على أولاد على

وقيل لى فى تقسيم العبيدات رواية أخرى تختلف عن الأولى وهى انهم من ثلاث سلاسل ضنى سعدى وضنى أبى امامة وضنى غيث . وقالوا : ان سعدى من بنى هلال وزوجها هو عبيد فالعبيدات أخوالهم بنو هلال . قالوا : وضنى سعدى منصور وقابس ومباركة وأبو ضاوى وعبد الكريم وأبو جازية ورفاد . قالوا وضنى أبى امامة عائلة مريم ومزين وحبيده ويوسف والعبيدى والثور وفاطمة وأبو جود وصالح . قالوا : وضنى غيث هم عائلة عبد الله وهو أكبر ولد غيث ثم عائلة محمود ثم عائلة الرجا ثم عائلة أبى فضيلة ثم عائلة ماضى ثم عائلة الخادم ثم عائلة جبر عويضة ثم عائلة جبر مطيريد ثم عائلة ابراهيم الفرخ ثم عائلة حنين الفرخ ثم عائلة بصيص الفرخ ثم أبو نضارة

قالوا : والبنان هم العواكة والشاهين . قالوا كة هم عائلة بركات بلجا وعائلة سميع

وعائلة عبدالكريم ودادى والابيج ودادى و خليل ودادى والهيب ودادى وعائلة مريكب وعائلة
مقعور الطاقية والخالشة

والشاهين عائلة ذويب وعائلة المجوم وعائلة غاصرات وعائلة حبيب وعائلة جبيره وعائلة
الأعور وعائلة أبى قفة وعائلة أبى قوبة

هذا وقد سألنا صديقنا على افندى العواكله قائم مقام قصبه المرج أيام جهاد طرابلس
عن نسبه فى العواكله فقال : على بن حامد بن سعيد بن صالح بن سميع بن فكير بن بن سعيد
ابن ادريس بن أبى عوكل بن عبيد بن حرب بن عقار من بنى سليم

وقيل لى فى مرابطى العبيدات انهم القطعان وهم الرحامنة وأبوسعيدة والفزار والرخامى
وزاغوت وأبو ترعى والمعبدة وبريدان والتراكى و قبيلة اسمها القبائل واللامشة وعائلة عمر
الشواعر وعائلة زائد الشواعر وعائلة سليمان المرخى الشلاوية وعائلة على الشلاوية وعائلة
الخواجه وعائلة اسرافيل وعائلة بركات وقبيلة الصوانع وعائلة النعيمه والجهدى وقبيلة الحوتة
منهم الجرارة والنفوفة والمرازقة والطيره والمقاعى والشرسات والعميرة وعائلة بلل والسنينات
والديدانى وكل هؤلاء ضنى حويت . وأولاد منيف أو المنفا وهم مسيكة وعلوم فالسيكة
الكحشات وعائلة سباق والدبابسة وعائلة المصمود وعائلة أبى خديجة وعائلة المقورى
والجحيشات . وأما العلوم فعائلة رجب وعائلة الجزار وعائلة الخائب وعائلة علوش والعرايات
والرقيووات وعائلة الغضارف وغيرها

هذا ما ذكره عن قبيلة العبيدات أكبر قبائل الجبل الأخضر ومرابطيها ونعود الى
القبائل الأخرى من الحرابى وتسكلم عن الحاسة فنقول :

الحاسة ينقسمون الى قساسمة وقلاطة . فالقساسمة هم الشباركة والبخايت هم الذين
منهم عقيلة الحاسى الزعيم المشهور الذى كان فى مرج ابن عامر بفلسطين ولا تزال ذريته
فيها وهم المحامدة والمواسى . فالشباركة هم عائلة عبدالله وعائلة مغانة ثم ان عائلة عبدالله هى
عبارة عن عائلات غزالة وعقيلة وأبى قفة وناقف والأعور وشريرة والميار وجبر وشدة وأبى
محجوبة وزلط وغويزى والمجذم وأبى الكسيرات .

وأما عائلة مغانة فهى عبارة عن عائلات موسى الفيشى ومنى وسعيد والرقاعة وأبى

حطيلة وخالد

وأما البخايت فهم عائلة غرير والتوازة . فعائلة غرير هم عائلات عمر وأبي حناء وأبي عيسى والنكاع والعيورة . وأما التوازة فعائلات الجماعة وعبد الصادق وبرعاص والطويل وعبد الحاكم وأبي قتلة

وأما القلابطة فهم المحامدة وهؤلاء هم عائلة ابراهيم وعائلة المساطل فعائلة ابراهيم هم عائلات المرتبط وهيبة وكش والفريد . وأما المساطل فهم أبو كفيفة والدويلى والسليخ وعائلة بالرعى وعائلة وافي

ثم ان القسم الثانى من القلابطة هم المواسى وهؤلاء فريقان عائلة نقو وعائلة الحرار فعائلة نقو هم الرفادى وسعد وعائلة الحرار هم أبولوية وحويج وأبو سداة .

وأما الحاسه فكلهم زهاء تسعة آلاف رجل منهم ثلاثة آلاف شباركة والفان بنخايت وأربعة آلاف قلابطة نصفهم محامدة والنصف الآخر مواسى . ومنازل الحاسه أجل منازل الجبل الأخضر شحات وسوسه والدرباس غربى درنة

وللحاسة مرابطون منهم مسامير الرزقة منهم فى الجبل الأخضر ومنهم فى بمبا شرقى درنة وعددهم ألف وخمسمائة رجل . ومن مرابطيهم اسماعيل المسامير بجوار شحات زهاء خمسمائة رجل . ومنهم اسماعيل التراكى مائة رجل بجوار القيقب . ومنهم أبو ربيعة ٢٠٠ رجل بجوار الفايدية

ومن أهم قبائل الحرابى قبيلة البراعصة

وهم قسمان احمد وجليل . فجليد تزوج خضرا ومغير بية . فولدت خضرا عائلة خضرا الذين بالقيوم . ومغير بية ولدت طامية الذين منهم حدوث وجلغاف وزائد والجوينى وعبد الرحمن وعائلة عبد ودائحه وحليمة واليتامى والمساعد وعائلة عريف وعائلة خزاعل . ومن بطون البراعصة أولاد أحمد وهم الطلوح والظوافر وقندول ونائل وبلدان ومنهم عائلة حسين البراعصة . وعدد الجميع يتجاوز العشرين ألف مقاتل وقيل لى ان البراعصة فيهم أناس من بنى جماز اشرف حسينية أصلهم من السوارقية بقرب المدينة المنورة وقيل لى ان أصل البراعصة هو هكذا :

شريف اسمه حميد بالتشديد من ذرية سيدى عبدالسلام بن مشيش من أولاد نائل

من أهل الساقية الحرا من المغرب الأقصى جاء قاصداً الحجاز للحج فمر على الجبل الأخضر

وكانت امرأته حاملاً فلم يمكنها إكمال الطريق إلى الحجاز فتركها في بيت أجد الحرابي من أهل الجبل الأخضر وذهب إلى الحج وتوفي فيه وولدت امرأته بعده ولداً اسمه برعاص لأنه كان متحرراً جداً^(١) وهو طفل . فبرعاص ولد مسعوداً وحسيناً وعبد المولى ومخلب بن ذرية مسعود حليلة وطامية وجلفاف وحدث ومنهم عائلة عريف واليتامى وعائلة خزاعل وذرية حسين وذرية عبد المولى وقد انقرضت ذرية مخلب . وأما ذرية أجد الحرابي فهم الطلوح والظوافر وفندول

ولما كنت في معسكر أنور بعين منصور أردت السفر إلى معسكر بنغازي وكانت لي معرفة بسیدی محمد العلّمي شيخ زاوية البراعة ومن أصحاب السادة السنوسية وكبار رجال هذه الطريقة فتكلمت معه في أن يجد لي من عند جماعته ظهراً لنقل خيامي وأسبابي فاستأجر لي رجلاً من البراعة اسمه علي بن محمد من عائلة حسين وحمل هذا أثقالنا على جلاله وفي أثناء الطريق مال بنا على نجعه وسألته عن نسبهم في النجع الذي استرحنا فيه فقال لي : انه علي بن محمد بن علي بن يوسف بن أبي خسيم بن عبد بن القادر بن علي بن محمد بن حسين بن برعاص . فخررنا ان برعاص قد عاش في أواسط القرن الحادي عشر للهجرة . وللبراعة مرابطون السعيط والعوامّة والحسانّة والعلاونة وهم عدة آلاف

وأما الدرسة فيقال انهم أولاد ادريس ولد عقار بن حرب . ولقد خلف عائلة عادل وعائلة حامد والخشبات وعائلة مسعود وعائلة عبد وعائلة حسين أبي عوينه وعائلة السريريك وعائلة دغار وعائلة الشاماني وعائلة داينحه وعائلة الحجازات . ومجموع الدرسة نحو عشرة آلاف مقاتل وقيل ١٥ ألفاً ومنازلهم عند زاوية القصرين والعرقوب ومنهم فريق إلى جهة بنغازي ولهم تسع زوايا من الزوايا السنوسية كل نخد منهم له زاوية وأما فائد من الحرابي فائة رجل لاغير وكانوا قبيلة كبيرة لكن على أثر عداوة بينهم وبين العواقر جلاأ أكثرهم إلى مصر وهناك قبيلة البراغيث وهم برغوث الكبير والعبيد والسرطنة ويقال لهم البراغيث الحر والبدور والعبادة وهم يتجاوزون عشرة آلاف

وبين مساكن البراعة من جهة الغرب وبين قصبة المرج قبيلة يقال لها المسامير مستقلة بذاتها يقال أصلها من الاشراف

(١) تبرعوا اضطرب وتحرك تحتك وقبل التبرع هو اضطراب العضو المقطوع

هذه تقاسيم قبائل الحرابي ومرابطيهم بقدر ما وصل اليه علمنا . وهناك فريق آخر من عرب برقة يقال له الجبارة أى أولاد جبرين وهم العواقر والمغاربة والعرفا والعبيد والعريبات ووطنهم بلاد بنغازى

فالعواقر ثلاث فرق : السيدى و ابراهيم ومطاوع . فالسيدى أربعة عشر بطنا : عائلة سليمان وعائلة العبار وعائلة هويدي والفوارس والعمارة والحدادة وعائلة ماضى وعائلة راج والتواجير وعائلة غريبيل وعائلة دينال وعائلة الاديرع والقطارنة وسعيط وعائلة ابراهيم هم عائلة اللواتى وعائلة الغمق وعائلة النمر وعائلة هذيلة وعائلة الحلاق وعائلة قنفوذ وعائلة عازة وعائلة مشرى والبراغنة والبدور وعائلة الغزاي وسعيط الشمول وأما مطاوع فهم عائلة صالح والعشيبات والسكواديك وعائلة الوزرى والخفيفات وعائلة صالح ودرمام وعائلة زيد وعائلة على والفصيات والعبادلة وعائلة درقة وعائلة فرانس وعائلة القطعانية وعائلة الخشمى وعائلة السورى والعمامرة ومبيديل والشويطرة وعائلة معيوف وأما المغاربة فهم الرعيزات وعائلة على وعائلة عليوه وعائلة صبح والعقارب وعائلة الاسود وعائلة الباسل والقبائل والمشيطات والعريبات

وأما العرفا فهم السلطنة والطرش . وأما العبید فهم عائلة شعوه واليتامى وعائلة الدخانى وعائلة أبى شلوفة وعائلة حماد

والعواقر من أكبر القبائل يناهز عددها ثلاثين ألف مقاتل فأكثر وأكثرها عدداً السيدى ثم عائلة ابراهيم ثم مطاوع ومنازلهم من مدينة بنغازى الى مسوس جنوبا وهى مسافة ٢٤ ساعة ومن الشرق الى الغرب مسافة ٣٠ ساعة . وأما المغاربة فيقال انهم ٢٥ ألف مقاتل ومنازلهم من اجدايية الى عمالة سرت ومنهم كثير فى نفس سرت ويسير الانسان فى أراضيهم خمسة أيام من الشرق الى الغرب وأما العرفا فعددهم ألف وخمسمائة ومحلهم المرج . وأما العبید فهم ثلاثة آلاف ينزلون قبلى المرج

وللعواقر قبائل تابعة او مرابطون فالسيدى مرابطوهم الشهبات وعائلة ابراهيم مرابطوهم الفواخر . ويقال ان الشهبات هم من ذرية الصحابي سيدنا عكاشة . ويقال ان الفواخر هم من عرب اليمامة . ومن مرابطى عائلة ابراهيم الجرارة ومن مرابطى عائلة صالح من مطاوع بعض من المنفة . ومجموع مرابطى العواقر ٢٠ ألف مقاتل

ومن عرب برقة الجلالات وهي قبيلة مستقلة بذاتها نحو من ٤٠٠ رجل
ولنذكر الآن قبائل عرب برقة حسبما كانت في القديم لنعلم مراجع أنسابها ونقابل
القديم بالحاضر فنقول :

جاء في كتاب « نهاية الارب في معرفة قبائل العرب للقلقشندي » مايلي :

« بنو أجد بطن من بنى هيب من سليم من العدنانية مساكنهم مع قومهم هيب في
أطراف برقة مما يلي الغرب . قال ابن سعيد : ولهم اجدانية وجهاتها وهم يربهم حجاج المغرب »
قلت : لا يبعد أن يكون بنو أجد هؤلاء هم أصل القبيلة التي تسمى اليوم المغاربة
والتي لها اجدانية وجهاتها . ثم ان من البراعة فرقة يقال لها بنو أجد هم أصل قبيلة البراعة
كما تقدم الكلام عليه . ويوجد في ترهونة من عمل طرابلس قوم يقال لهم بنو أجد
لا ندري هل هم منهم أم لا ؟

قال : « وأولاد سلام بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : يوجد الآن في برقة الجراء عائلة سلام

قال : « أولاد محمد بطن من صبيح من فزارة من العدنانية ومنازلهم بلاد برقة وهم
فرق كثيرة » قلت : يوجد اليوم قوم اسمهم الصبيحات في الغوارشة في الطرف الغربي من
مدينة بنى غازي ويخرج منهم هناك ستمائة مقاتل

قال : « البرُّ كات بطن من لبيد من سليم من العدنانية ومساكنهم مع قومهم لبيد
بلاد برقة »

قلت : يوجد الآن البركات في أطراف كينس غربي بنغازي على مسافة عشر ساعات
منها . ثم ان في ترهونة وفي مصرطة أقواماً اسمهم البركات وأهم بادية مصرطة منهم وكذلك
منهم أناس في سرت

قال : « البشره بطن من لبيد أيضاً ومنازلهم مع قومهم برقة أيضاً »

قلت : لا نعلم هل الناحية المسماة « بشارة » في الجبل الأخضر في أرض العبيدات
منسوبة اليهم أم لا ؟ فيجوز أن تكون « بشارة » ممدودة من « بشرة »

قال : « البلايش بطن من سليم من العدنانية منازلهم بلاد برقة »

ثم قال : « الجواشنة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم بلاد برقة وهم غير

الجواشنة الذين مساكنهم الخوف من الشرقية بالديار المصرية لأن الجواشنة هؤلاء (أى الذين بمصر) هم بطن من الحميديين من هلبا سويد من جذام من العرب القحطانية»

قلت : يوجد الآن فرقة من قبيلة المغاربة المارة الذكريقال لها عائلة أبى خادة منهم قوم اسمهم الجواشنة

قال : « الحدادة (بتشديد الدال الثانية) بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم بلاد برقة »

قلت : يوجد الآن الحدادة من العواقر ويوجد حدادة فى نفس بنغازى ويوجد حدادة فى مصرطة

قال : « الحسانة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : يوجد الآن حسانة فى جهات اجدابية

قال : « الفحوص بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم بلاد برقة »

قلت : موجودة الآن عشيرة اسمها « الفحاصى » غربى بنغازى لعلمهم هؤلاء

قال : « الدروع بطن من لبيد من سليم من العدنانية مساكنهم بلاد برقة مع قومهم »

قومهم

قلت : موجود الآن عائلة الاديرع من فرقة السديدى من العواقر . وما لا يجوز أن ننسأه أن أسماء العائلات والقبائل تتغير وقد تتحرف عن أصلها . ثم لما لا يجوز أن ننسأه ان القبيلة كثيراً ما يدخل فيها أقوام ليسوا منها فى الأصل ثم يندمجون فيها تماماً

قال : « الرقيعات بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم لبيد

بلاد برقة »

قلت : فى الحاسة اليوم عائلة الرقاعة

ثم قال : « الزراير بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

ثم قال : « السبوت بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

ثم قال : « السوالم بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : يوجد الآن عشيرة اسمها السوالم فى عائلة مطاوع من العواقر منهم بأرض

بنغازى ومنهم بمصرطة

قال : « الشبله بطن من لبيد من سليم من العدنانية بلادهم برقة »
 قلت : يوجد الآن جماعة اسمهم « الشبله في قبيلة المغاربة باجدانية »
 قال : « الشواعبة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »
 قلت : في قبيلة المغاربة عائلة اسمها الشعيبات
 قال : « الشعوب بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم برقة »
 قلت : في الدرسة الآن عائلة شعيب وفي المغاربة الشعيبات فلا نعلم هل الشعوب هم هؤلاء أم أولئك أم هو تشابه أسماء ؟

قال : « الشنعة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح بلاد برقة »
 قلت : لا نعلم هل هي بنون فعين أم بنون فعين أم محرقة وأصلها « شعة » لأنه سيأتي ان من فزارة بطن اسمهم الشعة

ثم قال : « الصريرات بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »
 ثم قال : « العقيبات بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح بلاد برقة »

قلت : في غربي بنغازي اليوم قوم يقال لهم العقيب
 قال : « العواسي بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح بلاد برقة »

قلت : من العواسي اليوم في نفس بنغازي وفي تهرونة
 قال : « العواكلة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم لبيد برقة »
 قلت : قد تقدم ان العواكلة فرقة من العبيدات يسكنون القيقب وسط الجبل الأخضر ومنهم الجبالية بكفر الزيات بمصر

قال : « العلاوة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم لبيد برقة »
 قلت : بلغني أنه يوجد علاوة في ناحية غريان بطرابلس ثم انه تقدم كون العلاوة من مرابطي البراعة في الجبل الأخضر

قال : « العلاوي بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح برقة »

قلت : وفي العواقر عائلة « عليوه » فربما كان العلوى هم هذه العائلة
ثم قال : « الغشامة بطن من صبيح من فزارة منازلهم مع قومهم صبيح برقة »
قلت : ويقول القلقشندى نفسه في صبح الاعشى : « ان فزارة هو ابن ذبيان قال
في العبر : وكانت فزارة بنجد ووادي القرى ولم يبق منهم بنجد أحد ونزل جيرانهم من طي
مكائهم وذكر بأن بأرض برقة الى طرابلس الغرب منهم قبائل رواحة هيب وفزارة قال :
وبافريقية والمغرب منهم الآن احياء كثيرة اختلطوا مع أهله (الى أن يقول) : ومنهم مع
سليم بافريقية طائفة أخرى أحلاف لأولاد أبي الليل من كعوب بنى سليم يستظهرون بهم
في مواقف الحرب ويقيمونهم لأنفسهم مقام الوزراء للملوك . (ثم يقول) : وفي برقة ببلاد
هيب جماعة منهم نازلون بها ومنهم طائفة بصحراء المغرب »

قلت : لم أجد اسم « هيب » الآن الا اسم فرقة من العواكلة يقال لها « الهيب » يغلب
على الظن انه بقية الاسم القديم الذي كان أعم وأشهر . والأسماء كالمسميات تشق وتسهل
ثم قال : « القيوس بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم
بلاد برقة »

قلت : وفي أولاد على مر بنا اسم فرقة يقال لها القيسات إلا أن تكون مصحفة
ثم قال : « اللواحق بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم
بلاد برقة »

ثم قال : « المساورة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم
بلاد برقة »

قلت : من المساورة الآن في نفس درنة وفي مصراطه
ثم قال : « المسامير بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم
بلاد برقة »

قلت : تقدم ذكر قبيلة مستقلة بنفسها اسمها المسامير تنزل الجبل الأخضر ويظن
أن أصلها من الأشراف . فان كانت هي البطن الذي ذكره بحسب هذه الرواية ليست من
الأشراف الفاطميين الا أن يكون دخل فيها يت منهم كما يجرى كثيراً بين القبائل . ثم من
مرابطي الحاسة قوم اسمهم المسامير . فأى المسامير هم الذين أشار القلقشندى الى انهم بطن
من صبيح ؟ الجواب عنه متعذر

ثم قال : « المواعدة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مسا كنهم مع قومهم بلاد برقة »

ثم قال : « المقادمة بطن من سليم مسا كنهم الجيزة من الديار المصرية ومنهم يبرقة والامرة فيهم الآن لأولاد التركية من بنى فائد »

قلت : يوجد اليوم في العواقر عائلة اسمها « المقادمة » وأما « التراكي » فهي قبيلة من قبائل الجبل الأخضر تُعد من مرابطى العبيدات . وللحاسة مرابطون يقال لهم بنو اسماعيل التراكي

ثم قال : « والمواسى بطن من صبيح المقدم ذكرهم مسا كنهم برقة »
قلت : اليوم من الحاسة فرقة كبيرة اسمها المواسى . وفي المغرب الأقصى قبيلة اسمها المواسى

ثم قال : « الموالى بطن من لبيد من سليم من العدنانية مع قومهم لبيد يبرقة »
ثم قال : « النبله بطن من لبيد من سليم من العدنانية مع قومهم لبيد يبرقة »
ثم قال : « النحاحسة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مع قومهم يبرقة »
قلت : النحاحسة وقد يلفظونها النعاعسة قبيلة معروفة اليوم في تاجورة بطرابلس
قال : « النوافلة بطن من لبيد من سليم من العدنانية مسا كنهم يبرقة »

قلت : في جهات اجدابية وسرت قوم اسمهم النوافلة
ثم قال : « بنو بعجة بطن من هلال بن عامر بن صعصعة . قال ابن سعيد : منازلهم بين مصر وأفريقية »

قلت : سمعت أنه يوجد اليوم بنفس بنغازى عائلة بهذا الاسم
ثم قال : « بنو ذياب من سليم من العدنانية . قال في مسالك الأبصار : منازلهم من فاس الى طرابلس من بلاد المغرب . وذكر في العبر أن منازلهم ما بين فاس وبرقة »
قلت : سمعت أن منهم الآن في زوارة بطرابلس وجنوبى يفرن

ثم قال : « بنو زغب بطن من سليم من العدنانية ذكر ابن سعيد ان ديارهم كانت بين الحرمين ثم انتقلوا الى الغرب فسكنوا بأفريقية بجوار اخوتهم بنى ذياب بن مالك ثم صاروا في جوار بنى هيب »

قلت : يوجد الآن قوم اسمهم الزغيبات في مدينة بنغازى
ثم قال : « بنو زنارة بطن من لواتة من البربر . قال في مسالك الأبصار : مساكنهم
فيما بين الاسكندرية والعقبة الكبيرة وبرقة »

قلت : ويقول القلقشندي نفسه في صبح الاعشى عند ذكر نسب البربر : ومن لواتة
هؤلاء زنارة (بضم الزاي وتشديد النون والفاء ثم راء مهملة مفتوحة وهاء الآخر) وهم ولد
زنارة من ولد بر بن قيذار بن اسماعيل عليه السلام . وقال انه اخو هواره وأكثر زنارة
ببلاد المغرب ومنهم جماعة بالبحيرة وجماعة بالمنوفية . وقد عدّ الجداني من بطونهم بالبحيرة
بنى مزديش وهم مزداشة وبنو صالح وبنو سام وورديفة وجرهان ولقالا . وزاد بعضهم
بنى حبون وواكد و فرطيطة و غرجومه وطازوله ونغات وناطوره و بنى السعوية و بنى أبى
سعيد . وهم عرب بدر بن سلام . ومن لواتة أيضاً مَزَاتَه (بضم الميم وفتح الزاي والتاء المثناة
فوق وهاء في الآخر) وهم بنو مزاتة بن لواتة الأصغر ومنازلهم من البحيرة الى العقبة
الكبيرة ببرقة »

قلت : و قبيلة حبون في دفنة و بنو سعيدة هم في تلك الجهات . ومن العواقر فرقة
يقال لها عائلة اللواتى

ثم قال : « و بنو سماك بطن من العرب عدهم الجداني في عرب البحيرة وبرقة والعقبة
الكبيرة ولم ينسبهم في قبيلة »

ثم قال : « بنو شماخ بطن من هيب من سليم من العدنانية قال ابن سعيد : منازلهم
بالمحصب من بلاد برقة مثل المرج وطلميش »

قلت : في قبيلة المغاربة اليوم عائلة الشامخ لا نعلم هل الشامخ والشامخ واحد أم هو
تشابه اسماء ؟

ثم قال : « و بنو عوف بطن من بهته قال الجداني : ومنهم بالصعيد والقيوم والبحيرة
أناس كثيرة وفي برقة الى الغرب مالا يحصى »

ثم قال : « بنو فزارة بطن من ذبيان من العدنانية ومن بطونهم الآن أولاد محمد
والجماعات والدمالى والشعوب والشعنة والعقبان والعواسى والعلاوى والغشاشمة والقيوس
والمساورة والمسامير والمقادمة والمواحدة والمواسى والنحاحسة . قال في العبر : وكانت فزارة

في نجد و وادى القرى ولم يبق بنجد منهم أحد ونزل جيرانهم من طي مكناتهم وذكر ان بأرض برقة الى طرابلس منهم قبائل »

قلت : يوجد الآن في برقة أولاد محمد ويوجد « الجماعات » في سرت ويوجد في الحاسة عائلة الجماعة بالتشديد ويوجد « الجميعات » في اورفلة من عمل طرابلس وكذلك في أولاد سليمان من العواقر . وأما العواسى فقد تقدم أن منهم اليوم في بنغازى وفي تrehوة . وقد تقدم أن في درنة اليوم قوماً اسمهم المساورة . وكذلك يوجد اليوم في الجبل الأخضر قبيلتان باسم المسامير . وأما القيوس ففي أولاد على الذين بين الاسكندرية والعقبة فرقة اسمها القيسيات . وأما المقادمة فيوجد الآن في العواقر بطن اسمهم المقادمة . وأما المواسى ففرقة من الحاسة كما تقدم . وأما النحاحسة فيوجد اليوم في تاجورة من طرابلس من يحمل هذا الاسم كما سبق القول عليه

ثم قال : « بنو قطاب بطن من لبيد من العدنانية مساكنهم مع قومهم برقة »
قلت : يوجد اليوم بنو خطاب في الفواخر في برقة ولانعلم هل هو الاسم نفسه محرفاً أم اسم آخر ؟

ثم قال : « بنو لبيد بطن من سليم من العدنانية مساكنهم برقة وهم خلق كثير لا يكادون يحصون منهم أولاد سالم والحواشبة وقطاب و بطون أخرى متسعة »
ثم قال : « بنو محارب من سليم من العدنانية ذكرهم في العبر ولم يرفع نسبهم وقال : ديارهم بركة في الشرق عن بنى أحد المجاورين لبلاد المغرب الى العقبة الكبيرة والصغيرة »
قلت : يشبه أن يكون قاصداً بينى محارب القبائل التي يقال لها اليوم الحرابى .

ثم قال : « بنو قرة بطن من هلال بن عامر بن صعصعة من العدنانية وذكرهم الجداني في عرب الديار المصرية وقال : بلادهم اخيم من صعيد مصر . وذكرهم ابن سعيد في عرب برقة وقال : منازلهم فيما بين مصر و افريقية . قال في العبر : وكانت منازلهم ببرقة وكانت رئاستهم أيام الحاكم العبيدى لماضى بن مقرب . ولما بايعوا الأبي ركوته من بنى أمية بالأندلس وقتله الحاكم سلط عليهم الحبوش والعرب فأفناهم وانتقل من بقى منهم الى الغرب الأقصى فهم مع بنى جشم هناك »

وذكر القلقشندى بنى هلال في صبح الأعشى فقال : « هم بنو هلال بن عامر بن

صعصة قال الجداني : وكان لهم بلاد صعيد مصر . وذكرهم ابن سعيد في عرب برقة وقال : منازلهم فيما بين مصر و افريقية . ثم ذكر ماورد في العبر عما جرى عليهم في أيام الحاكم العبيدي وقال ان بحلب طائفة منهم وانه صار لهم بلاد اسوان وما تحتها ولم يخص منهم بنى قره الا عند قوله : و باخيم منهم بنو قره الى عيذاب وبساقية «قلته» منهم بنو عمرو و بطونهم وهم بنو رفاعه و بنو بحير و بنو عزيز و باصفون واسنه منهم بنو عقبه و بنو جيله »

وذكر القلقشندي نسب سليم الذى منه أكثر قبائل برقة فقال : « هو سليم بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان قال الجداني : وسليم أكبر قبائل قيس . قال في العبر : وكانت منازلهم في عالية نجد بالقرب من خيبر . ثم قال : و بافريقية منهم حى عظيم قال الجداني : مساكنهم بركة عمالي الغرب و عمالي مصر وفيهم الأبطال الأنجاد و الخيل الجياد . قال في العبر : وقد استولوا على اقليم طويل متسع الأطراف » . قات : وقد ذكر في صبح الأعشى انه كان لسليم من الولد بهته (بضم الباء الموحدة في أوله وفتح المثناة بعد الهاء) ومنه جميع أولاده . وقد انفقت الروايات على انه كان بنو سايم بن منصور بن عكرمة و بنو عقيل ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة و بنو تغلب بن وائل بن جديلة كلهم في البحرين وكانوا أعظم القبائل هناك وكان أظهرهم بالكثرة والغلب بنو تغلب . ثم اجتمع بنو عقيل و بنو تغلب على بنى سليم فأخرجوهم من البحرين وآل أمرهم الى أن نزلوا بصعيد مصر ثم تقدموا الى برقة واستولوا عليها و اتجمعوا جبالها الأخضر ولم يتركوا بها ولاية ولا امرة الا لمشايعهم . قال القلقشندي : « قال والدى رحمه الله : وقد عدّ لى بعض عرب برقة من بطونهم أولاد سلام وأولاد سليمان الركاب والبشرة و البلايش و الجواشنة و الحدادة و الحوتة و الدروع و الرقيعات و الزايزير و البيوت و السوالم و الشبلة و الشواعة و الصريرات و العواكة و العالوتة و القدوة و النوافلة انتهى »

قلت : تقدم أن من العواقر عائلة سليمان و الحدادة و الرقيعات و تقدم أن الحوتة قبيلة من العرب المرابطين و تقدم ان العواكة هم من فرق العبيدات . و تقدم ان بنى سلام منهم باجدانية و أما سائر الأسماء فمنا ما تغير بمرور الأيام و ربما بقى ولكن لم يتصل الينا لأنه لا نقدر أن نقول ان الذين قد أعطونا هذه المعلومات قد أحاطوا بكل سكان برقة و طرابلس عما

قال المقریزی فی « البیان والاعراب عمن نزل بأرض مصر من الاعراب » : فاما بنو هلال فانهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ويقال قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وقال المقریزی : و بأرض مصر عوف بن سليم بن منصور بن عكرمة بن قيس بن عيلان وهم نخد . و بنو عوف بن بهر بن امرئ القيس بن بهته نخد . و بنو عوف بن فالح بن ذكوان بن ثعلبة بن بهته نخد . وعوف هؤلاء فی بلاد الصعيد وفي الفيوم وفي البحيرة وفي برقة الى بلاد المغرب منهم أمم لا تحصر كثرة

وقال المقریزی : « ومن سليم بنو عوف بن بهته ما بين قابس و بلد العناب بالمغرب و بنو هيب بن بهته اخوة عوف بن هيب ما بين السدرة من برقة الى حدود اسكندرية و بنو أحمد لهم عدد و يرجعون الى شماخ ولها العز في هيب . ومن هيب سبال ومحارب و رئاستهما في عزاز . ولهيبة في سليم عزة لاستيلائها على اقليم طويل خربت مدنه وصارت ولايته لأشياخهم وتحت أيديهم خلق كبير من البربر وفيهم طائفة الأبطال الانجاد والامارة فيهم في أولاد عزاز بن مقدم »

قلت يغلب على الظن أن يكون « المقادمة » الذين هم من العواقر يرجعون الى اسم مقدم هذا وأن يكون « العازة » يرجعون الى عزاز : ثم ظهر من كلام المقریزی هذا انه كان في برقة بربر كثير ون وأن بعض القبائل العربية الآن مثل حبون مثلاً أصلها بربر ثم قال المقریزی :

« وفيما بين الاسكندرية والعقبة الكبرى جماعة فائد وزنارة ومزاته وخفاجه وهواره وسمال ولبيد جماعة سلام وفزارة ومحارب والعلانة وقطاب والزعاوية والبشرة والجواشنة والبعاجنة والقبايص وأولاد سليمان والقصاص ومنازلهم من العقبة الكبرى الى سوسة . ثم جماعة جعفر بن عمر وهم المثانية والميامنة وعرعرة وعظيمه والعكمه والمزايل والمعزة ومن المعزة الجعافرة جماعة ابن عمر ومنهم البداري أيضاً ومنهم السهاونة والجلده . وأولاد أحمد . ومنازلهم من سوسة الى يبر السدرة وهي آخر حدود ديار مصر مسافتها من الاسكندرية نحو شهر بسير القوافل »

قلنا : جماعة فائد منهم نزر اليوم بالجليل الأخضر وجماعة في الديار المصرية . ولقد

مرّ بنا أن زنارة هم بربر وهم أصل قبائل عدة مستعربة الآن مثل حبون . وأما خفاجة
ففي اجدابية . وأما الهوارة فقبيلة شهيرة أصلها بربر . وأما فزارة فقد تقدم ذكرهم بطن
من ذيبان واما محارب ففي هذا الزمان لا نعلم قبيلة في برقة وطرابلس اسمهم محارب الا ان
كان المراد بهم الحرابي . والعلاوة قد مرّ أنهم موجودون الآن كما ان الجعافرة مشهورون
في بلاد أورفلة من طرابلس ومشهور انهم من بني سليم بن منصور . وأما القُصّاص ففي
أورفلة وهون عائلة أبي قصيصة . أفتراهم هؤلاء ؟ الجواب لا يبعد ذلك . وأما البداري
فربما كانوا هم البدور الذين من العواقر . وأما أولاد أحد والجلده فقد تقدم ان قبيلة
البراعصة أصلها أحد وجليد فيظهر ان المقصود بهذين الاسمين البراعصة لأن النسبة الى
برعاص ابن الشريف المغربي غلبت عليهم . واما بنو سلام فمنهم في بنغازي

ثم قال : « وفي برقة احياء لبني جعفر وكان شيخهم أبو ذؤيب وأخوه حامد بن كحيل
وهم ينسبون في العرب تارة في بني كعب بن سليم وتارة في فزارة والصحيح انهم ينسبون الى
مصرطه أحد بطون هوار . وفيما بين برقة والعقبة أولاد سالم . وما بين العقبة الكبيرة
والاسكندرية أولاد مقدم وهم بطنان أولاد التركية وأولاد فائد مقدم وسلام معاً وهم ينسبون
الى ليبد بن علي بن هبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر . وقال في آخر الكتاب : قال
العلامة الشيخ حسن العطار . ما ذكر في هذه الرسالة من القبائل اختلط حالهم الآن فالبعض
لا وجود له والبعض صار معدوداً من جلة فلاحى مصر الا قبائل باقية على عدم اختلاطها
بغيرها » انتهى

قلت : هذا ما أمكننا أن نردّه من أسماء القبائل الحالية الى الأصول المعروفة في الكتب
ولاشك انه قد فاتنا منها كثير الا اننا نظن ان الذى ذكرناه من هذا الباب هو أوفى
ما ورد في كتاب مطبوع

ولندكر الآن توابع برقة الى الجنوب داخل الصحراء فنقول :

ان أهم ملحقات برقة جغبوب وفيها زاوية سنوسية كانت هي مركز السادة وفيها
مدرسة وفيها مدفن سيدى محمد بن على السنوسى مؤسس الطريقة رضى الله عنه . وقد
علمنا أن الطليان بعد احتلالهم جغبوب أغلقوا المدرسة نفلت جغبوب من الشيوخ والمريدين
والطلاب وأقفرت تلك الواحة . وقد استولى الطليان على جميع الزوايا السنوسية التى في

برقة وطرابلس مع أوقافها ثم جالو وأوجلة وقد تقدم ذكرهما

ثم واحة الكفرة الشهيرة وفيها زاوية التاج السنوسية مركز السادة وفيها أودية وجنان ومزارع كثيرة وسكانها أكثرهم من قبيلة « زوية » ويبلغ عددهم أربعة آلاف مقاتل ومن أودية الكفرة « الهواري » و « الهوبيري » و « الجوف » و « الزرق » و « الطلاب » و « الطليلب » و « تاهيده » و « بزيمه » و « ربيانه » وفيها كلها النخل والتين والعنب والرمان وقصب السكر ومن مزرعاتها الحنطة والشعير وعندهم عيون جارية وآبار وسوان

ثم « تزر بو » على مسافة خمسة أيام من الكفرة وأهلها زويه أيضاً

ثم « ون » وهي بلاد منها « بلتو » و « اهدة » و « درية » و « الزواية » وفيها أربعة آلاف من السكان

ثم « قرو » وهي واحة فيها ألف نسمة

ثم « عين كلك » محركة وهي واحة شهيرة فيها زاوية سنوسية كان الفرنسي قد جاءوها بقوة من بلاد كاتم وقاومهم السنوسيون وجرت بين الفريقين معارك قرأت تفاصيلها في كتاب لأحد ضباط الفرنسيين ممن شهدوا المعارك وبعد ذلك تغلبت فرنسا على عين كلك. وفي عين كلك وجوارها نحو من سبعة آلاف نسمة من السكان

و واحة « قورى » وهي على ثلاثة أيام من قرو وفيها ألف وخمسمائة نسمة و واحة « أرضى » على مسافة يوم من قورى ويقال ان فيها أربعة آلاف ثم هناك « الوجنقات » فالوجنقة الأولى على مسافة ١٢ يوماً من الكفرة الى الجنوب . والوجنقة الثانية على مسافة يوم من الأولى وفيهما ألفاً نسمة

ثم « فرم » على مسافة نصف يوم من « أرضى » الى الغرب وفيها ٥٠٠ نسمة ثم « بودو » على مسافة يوم من « أرضى » الى الجنوب ويقال ان أهله سبعة آلاف

و « العميان » على مقربة من عين كلك وأهلها ألفان

والى الشرق من كلك « بمية » وفيها ١٥٠٠ نسمة

و « الدور » وأهلها من قبيلة ذوية نحو من ألفي نسمة وهي عن كلك على مسافة أربعة أيام الى الجنوب وعلى مسافة ١٦ يوماً من مملكة واداي و ١٤ يوماً من دارفور

السودان المصرى وستة أيام من الوجنقات وستة أيام من قرو
ثم « وادى الاكوره » تابع كلك وهو من الوجنقات الى الجنوب وأهله عرب بادية
زهاء ثلاثة آلاف

و « ويته » بين الدور والوجنقات أهلها من جيل يقال لهم القرعان سودان فيهم
جال وهم هناك من ثلاثة الى أربعة آلاف
و « باكيه » من « ويته » الى الجنوب على مسافة يوم واحد وكلها مراعى وأهلها
قرعان نحو من ألفين

و « وادى ندو » على مسافة يوم من « باكيه » الى الشمال وهى مراعى أيضاً وأهلها
قرعان زهاء ألفين وهم يأكلون الحنظل يصلحونه حتى يقدروا على أكله
و « رشى » على مسافة يوم ونصف من باكيه الى القبلة كلها مراعى وفيها ثلاثة آلاف
قرعان وعندهم نبت اسمه الكريب له حب

و « بسكرى » الى الشرق من « رشى » على مسيرة يومين وهى مراعى أيضاً وفيها
نبت الكريب أيضاً وأهلها ثلاثة آلاف قرعان

وكل أهل هذه الواحات اخوان سنوسية تابعون لزاوية كلك
ثم « أم جرس » على مسيرة ثلاثة أيام الى الشرق من كلك أهلها سودان يقال لهم
البديات وهم خمسة آلاف

والى الشرق من أم جرس على مسيرة ثلاثة أيام « باو » وكلها مراعى وفيها المواشى
بكثرة وأهلها بديات عددهم ستة آلاف

و « جبل مردى » بين أم جرس و باو و وادى الاكوره فيه ١٢ ألف مقاتل كلهم
قرعان يقال لهم المرداوية وعندهم مواشى بكثرة

وأما « التيبو » فهم جيل من السودان الى الغرب وهم أعداد كثيرة وكانوا من
الجهل فى أقصى ما يتخيل العقل فهدبهم السنوسية وعلموهم الصلاة والدين وحفظوهم القرآن
وأما اعراب كانم فبعد ان احتل الفرنسيين كانم انكفأوا الى كلك والدور . وجبال
الدور وعرة جداً وفيها مراعى ومياه غزيرة وعندهم نخيل واشجار واللحم عندهم كثير
ولهم من الخيل والابل وسائر المواشى ما يذكر . وأهل الدور من زوية وهم أشد أهالى تلك

الجهات بأساً . وكان شيخ الدور يوم أخذت هذه المعلومات منذ عشرين سنة صالح أبو كريم الزويي وأما شيخ الجميع في تلك الاقطار فقد كان شيخ زاوية عين كلك وكان وكيل الحضرة السنوسية وكان عنده خمسمائة مقاتل بمعاشات مرتبة ضمن الزاوية وكان للدولة العثمانية عسكر في كلك

ووجدت في كناشاتي في مكان آخران « ون » تبعد عن مملكة واداي مسافة ٢٠ يوماً وفيها زاوية سنوسية وزهاء ألفي مقاتل ١٥٠ شيخاً سنوسياً . ومزروعاتها القمح والشعير والقطن وعندهم عيون جارية وآبار . وكان الفرنسيين جاءوها ثم رجعوا عنها . ومن ون الى كلك مسيرة يومين . وفي كلك رباط نحو ٧٠٠ مقاتل من رجال السنوسي .

ومن كلك الى قرو مسافة سبعة ايام وفيها ١٥ وادياً جميع سكانها عرب . وفي قرو زاوية سنوسية يتبعها ٥٠٠ مقاتل . ومن قرو الى الكفرة الى الشرق مسيرة ٢٠ يوماً . وفي الطريق مياه استنبطها السيد السنوسي من عمق ٣٠ قامة . ومن كلك الى واداي ٢٠ يوماً . ومن كلك الى ون شمالاً يوم . ومن كلك الى قرو شمالاً خمسة ايام . ومن قرو الى الوجنقات ثلاثة ايام . ومن الوجنقات الى الكفرة ٢٠ يوماً . ومن الكفرة الى جالو ١٥ يوماً . ومن جالو الى بنغازي ثمانية ايام

ولما اتفق الفرنسيين والانكليز على تقسيم افريقية منذ سنة ١٩٠٢ وقعت واحدة الكفرة ضمن الحدود الانكليزية وجعلوا من السفرة الى جهة واداي التابعة لفرنسة مسافة ٤٤ كيلو متراً وجعلوا جميع الصحارى التي الى الغرب من جالو وواجهه ضمن المنطقة الانكليزية وعدوا جالو وواجهه آخر حدود المملكة العثمانية الى الغرب . ومثل ذلك انهم جعلوا الحدود العثمانية من مرزوق قصبة فزان الى الجنوب ٣٥٠ كيلو متراً فقط على حين كانت أحكام المملكة العثمانية جارية على مسافة ٨٠٠ كيلو متر الى الجنوب من الكفرة وكان العلم العثماني يخفق في كلك وون وقرو فضلاً عن الكفرة وتزربو ومقيد في كناشاتي الاحصاء الآتي :

كيلو متر	كيلو متر
١٠٠	من اسكندرية الى الحجاج ٢٥٠
١١٠	من الحجاج الى السلوم ٣٠٠
٦٠	من السلوم الى دفنه بئر الشيخ رسلان ٥٠
٥٠٠	من دفنه الى طبرق ٩٠
٨٣٠	من طبرق الى عين الغزال ٦٢
٨٧٦	من عين الغزال الى درنه ١٠٦
٧٧	من درنه الى بني غازى ٢٥٠
٤١٠	من بني غازى الى طرابلس ٩٢٠
	من درنه الى اوجله

هذا ولنختم كلامنا على برقة بما قاله المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم لمعرفة

الأقاليم » :

« برقة قصبة جليلة عامرة نفيسة كثيرة القواكه والخيرات والأعسال مع يسار وهي
تغرقد أحاط به جبال عامرة ذات مزارع على نصف مرحلة من البحر فى هوية قد أحاط بها
تربة حمراء^(١) شربهم من آبار وما يحوونه من أمطار فى جباب وهي على جادة مصر
يحسنون الى الثرباء . أهل خير وصلاح وأقل انقلاباً من غيرهم »
وذكر اجدائية فقال :

« عامرة بنيانهم حجارة على البحر وشربهم من الأمطار و « سرت » كذلك ولها
بوادٍ وشعارى . وأما المسافات فتأخذ من برقة الى الندامة مرحلة ثم الى تا كنست مرحلة .
ثم الى المغار مرحلة . ثم الى حليان مرحلة . ثم مخيل مرحلة . ثم الى جب المنعار مرحلة .
ثم الى جناد الصغير مرحلة . ثم الى حى عبد الله مرحلة . ثم الى مرج الشيخ مرحلة . ثم
الى العقبة مرحلة ثم الى خرائب أبى حليلة مرحلة . ثم الى خربة القوم مرحلة . ثم الى
قصر الشمس مرحلة . ثم الى سكة الحمام مرحلة . ثم الى جب العوسج مرحلة . ثم الى حنية
الروم مرحلة . ثم الى ذات الحمام مرحلة . ثم الى بومنية مرحلة . ثم الى الاسكندرية مرحلة »

(١) الله يقصد بركة هنا مدينة بنغازى لأن هذا الوصف ينطبق عليها والهوية هذه قد عرفناها الى

واند كر الآن شيئاً عن طرابلس أخت برقة والتي ينسب ذلك الفطر اليها فنقول
طرابلس مدينة عامرة كانت مركز الولاية أيام الدولة العثمانية وهي الآن لعهد انطليان
مركز الولاية وكان يتبعها نوثلث اح جفارة وتاجورة وززور . ثم قضاء النواحي الأربع
وهي ناحية هاني وناحية المشية وناحية الساحل وناحية الرفيعات . ثم قضاء نجاد . ثم قضاء
غريان . ثم قضاء أورفلة . ثم قضاء ترهونه . ثم قضاء الزاوية . ثم قضاء زوارة . ثم قضاء
العريزية . ثم قضاء العجيلات . ثم لواء ابده ويتبعه ناحية جس وناحية الساحل وناحية
تاورغه . ثم قضاء مصراته . ثم قضاء زليطن . ثم قضاء مسلاته . ثم قضاء سرت . ثم لواء
المجل الغربي ويتبعه ناحية يفرين وناحية ككله وناحية الحوض وناحية مراده وناحية
زنتان . ثم قضاء فساطو . ثم قضاء غدامس . ثم قضاء نالوت . ثم لواء فزان يتبعه رأساً
ناحية مرزوق ثم الوادي الشرقي ثم الوادي الغربي ثم الحفرة الشرقية ثم سبن وسمنو ثم زاء
ثم قطرون ثم قضاء سوكنه . ثم قضاء الشاطي . ثم لواء غات مربوط به رأساً ناحية جانت
وناحية البركة وقضاء تيبورشاده الجلة أربعة ألوية و ٢٠ ناحية

وقد كان في الدولة العثمانية لواء بنغازي يتبع طرابلس أحياناً وينفصل أحياناً وكان
يتبعه أربع نواح ناحية البراعة وناحية سلوك وناحية فيمنس وناحية برسيس ثم قضاء
درنة يتبعه ناحية السوم وناحية طبرق وناحية بمبا وناحية القبة وناحية الحاسة . ثم قضاء
المرج يتبعه ناحية الدرسة . ثم قضاء جالو وأوجله يتبعه ناحية بريقه . ثم قضاء أجداية الى
الغرب من بنغازي . ثم قضاء الحفرة مع توابعها السالفة الذ كر

ومما وجدته في كمناشاتي عن طرابلس ما يلي :

أول بلد من طرابلس الى الغرب من برقة سرت وهي مركز قضاء وهي سرت
البيضاء وسرت الحمراء . وبعد سرت عين تاورغا ووادي بن وايد ومصرطة وهي مركز قضاء
وزليطن قضاء أيضا والخمس متصرفية . ومصرطة تمتد مسافة يوم الى الجنوب وآخرها من
الغرب زاوية محجوب عند مقام سيدى أبي رويه . وبأراضي مصرطة الزيتون والتخيل
والنفاح والرمال وجميع أهلها تقريباً خيالة لكثرة الخيل في بلادهم ويخرج منهم ألوف
مؤلفة من الفرسان وهم بغاية الشدة . وينقسمون الى قروغلية ورعية . فالقروغلية تحريف
« قول أوغلي » وهم أولاد العساكر والمأمورين الأتراك والأرناؤوط والچركس والبشناق

وغيرهم ممن كانوا يخدمون في الجيش العثماني والحكومة في طرابلس . والرعية هم الأهالي الأصليون . ومن القروغلية في أكثر المدن كبنغازي ودرنه ومصرطة ومنهم يدر ومنهم الزواي والشواهدة والجرأكسة . وأما الرعية ففي مصرطة يقال لهم زمورة ومنهم أهل قصر جد وقزير وزاوية المحجوب وغيران والشتاونة وأولاد الشيخ والهريشات . وفي مصرطة عشيرة اسمها خدام الزروق وهم الرعيزات وسورجابر وبلاط والشويخات والحسرون والفرجان ومعدان وبركات . وكل قبيلة من هؤلاء لها قرية هي مستقلة بها وبعض خدام الزروق يسكنون في المضارب . وزعماء القروغلية عائلة الأدغم في نفس مصرطة وبنو المنتصر زعماء الآخرين ومزروعات مصرطة الحنطة والشعير والدخن وأرضها سهول ورمال والخيول عندهم لا تحصى وماؤهم من الآبار والسواني ولكنه كثير

وأما سرت فأهلها أولاد سليمان وهم بدو وعشيرة يقال لها القبائل والقذاذقة والفرجان وبركات ومعدان والحسون وزاوية . وكل هؤلاء منهم بدو ومنهم حضر . وفي آخر سرت إلى الغرب بلد تاورغا أهلها حضر وهم سمر الألوان مثل السودان . وفي تاورغا أنهر جارية وعين اسمها عين سمهود ماؤها وفي تاورغا النخيل والقمح والشعير وكان أهل سرت يوم جمعنا هذه المعلومات أزيد من ٢٠ ألف مقاتل أما الآن فلا نعلم الحقيقة وإنما نعلم أن أهل طرابلس وبرقة منذ مجيء الطليان إلى الآن قد تناقصوا إلى النصف مما كانوا وذلك بالقتل والرحيل وتوالى المحن

وإلى الغرب من مصرطة قضاء « أورفلة » وأهلها بغاية الشدة يقولون « أورفلتي ما يواي » وهم جماعة سيدي عبد السلام ابن سليم الأسمر من أكبر أولياء الله . وأهل أورفلة منهم حضر ومنهم بدو وفي الصيف يأوون إلى بيوت الحجر وفي الشتاء يسكنون المضارب . وإلى الغرب من أورفلة بلاد زليطن ويقال لأهلها الفواتير وهم أشرف وسيدي عبد السلام الأسمر منهم وهؤلاء الفواتير يبلغون عدة آلاف ويوجد في زليطن قبائل أخرى كأولاد غيث والعلم والبراهمة وغيرهم . وفي زليطن قروغلية كما في مصرطة . وإلى الغرب من زليطن الساحل وفيه نهر جار يقال له عين كعاوه وأهل الساحل اسمهم الحوامد وعندهم زيتون ونخل وهم يزرعون الحنطة والشعير والذرة والقمح ومن الساحل إلى الغرب محل يقال له المرقب ثم مركز يقال له الخمس كان مركزا للتصرفية لعهد الدولة العثمانية وكانت

سرت ومسراطه وزياطن وترهونة تابعة لتصرفية الخمس . وأما ترهونة فتمتد من المحل المسمى بالساحل الى تاجورة بقرب مدينة طرابلس وسكان ترهونة قبيلة يقال لها ترهونة أيضا وكانت كثيرة العدد جداً لأيام الدولة العثمانية وكان زعيم ترهونة على بك المُرِيض . وفي أيام الحرب الكبرى عندما انتقض أهالي طرابلس على الطليان وطردوهم وحصرهم في مدينة طرابلس ومدينة بنغازي ومدينة درنة لا يقدرّون أن يخرجوا إلى الخارج استقلت ترهونة بحكومة خاصة بها كما استقلت مصراته واستقلت أورفله وغيرها . وبقيت الحال كذلك الى أن حضر نوري أخوانور من جهات بنغازي على أثر اتفاق السيد إدريس السنوسي في ذلك الوقت مع الطليان وعقدتهم معاهدة معه يعترفون له فيها بالإمارة فجاء نوري منهزماً الى مصراته ومعه الاستاذ عبد الرحمن عزام المصري فسلم له رمضان السواحل الذي كان مستبداً بأمر مصراته أمور تلك البلدة وبعد ذلك بحسن تدبير نوري ومستشاره عبد الرحمن عزام اتحدت جميع تلك الحكومات حكومة واحدة وصار برطرابلس كله تحت إمارة نوري الذي كان يمثل السلطان وكان أخوه أنور يرسل اليه بالامدانات من الاستانة بواسطة الغواصات الألمانية وانحصر حكم الطليان في مدينة طرابلس وأما بنغازي فكانت الإمارة فيها للسيد إدريس السنوسي ما عدا مدينتي بنغازي ودرنة . وبقيت الحال كذلك حتى جاء حكم الفاشست في إيطاليا فنقضوا المعاهدة التي كانت إيطاليا عقدتها مع السنوسي المشار اليه وفرّ السيد إدريس الى مصر حيث هو الآن وسلك الفاشست بمسعى طرابلس وبرقة المسلك الفظيع الشنيع الذي سلكوه ونقلنا طرفاً من أخباره في هذا الفصل

هذا والى الجنوب من ترهونة قضاء مسلاته وكان لعهد الدولة العثمانية تابعا لتصرفية جبل غريان وفي مسلاته قبائل كثيرة وأكثر محصولها العنب والزيتون ومن مسلاته الى فزان عشرون مرحلة . وأما جبل غريان ففيه نحو من مائة قرية وفيه بيوت منحوتة في الصخر وهناك جبل يغرن وجبل نالوت وجبل فسّاطو وجبل شفانه والجبل الغربي وقصبة زوارا على البحر وأهل الجبل الغربي وزوارا أباضيه وكذلك أهل فسّاطو ونالوت وأكثر محصول جبل غريان التين . والى الغرب من بلاد طرابلس الزاوية الغربية ثم غدامس على حدود بلاد تونس ومما وجدته أيضاً في كنداشاتي أن طريقة سيدي عبد السلام الأسمر ولي الله الأكبر رضى الله عنه هي الطريقة العروسية وأتباعها كثيرون

هذا ما اخترنا ذكره عن طرابلس وبرقة ولأجل اتمام الفائدة يجب أن نذكر خلاصة عن كيفية احتلال إيطاليا لطرابلس فليعلم القارئ أن مبدأ هذه النازلة كان احتلال الفرنسيين لفاشودة في منطقة السودان المصري جاءوها من جهة السودان الغربي فاعتزضت عليهم إنجلترا وحصل خلاف شديد بين الدولتين وأنذرت إنجلترا الفرنسيين بالحرب إن لم يرجعوا عن فاشودة فرجعوا عنها ولكنهم طلبوا تحديد الحدود بين المنطقة الانجائزية والمنطقة الافرنسية في السودان فبعد أن حددوا الحدود بدا هاتين الدولتين أن تتقاسما افريقية فيما بينهما سراً وكان ذلك سنة ١٩٠٢ فزلت فرنسا لانجلترا عن مصر والسودان المصري وأوغندة وغيرها ونزلت إنجلترا لفرنسا عن مرا كس وشمالي افريقية والبلاد التي كانت فرنسا احتلتها في السودان الغربي وقد كان هذا التقسيم من أظلم ما سجله التاريخ لأن الدولتين تقاسمتا به بلدان الناس بدون علمهم وتجاوزتا على حقوق دول كثيرة مستقلة اعتداء محضاً وتسليطاً صرفاً وقد كان هذا التقسيم لافريقية بين فرنسا وإنجلترا أكبر عامل في الحرب الكبرى لأنه على أثره قامت ألمانيا تعترض على سعي فرنسا بالاستيلاء على المغرب وكذلك اعترضت دول أخرى كإيطاليا وإسبانيا فاتمهي الأمر بعقد مؤتمر دولي في الجزيرة الخضراء أمام جبل طارق وهناك قررت الدول استقلال سلطنة المغرب برغم ما كان بين إنجلترا وفرنسا من الاتفاق السري ولكن هاتين الدولتين وقعتا على معاهدة الجزيرة من جهة وبقيةا تعملان لتنفيذ الاتفاق السري الذي بينهما وبناء على هذا الاتفاق تعرضت فرنسا للمغرب وسافت جيوشها وتجاوزت على هذه السلطنة من جهة الشرق واحتلت « وجدة » ثم أرسلت جيشاً نزل بالدار البيضاء وكان ذلك مبدأ لبسطها الحماية على مرا كس كما لا يخفى . وقد كان أهالي المغرب رأوا في سلطانهم عبد العزيز ابن مولاي الحسن ضعفاً عن مقاومة الفرنسيين فبايعوا أخاه عبد الحفيظ على أمل أن يقوم هو بالمدافعة عن البلاد ولم يبايعوه الا على شرط تنظيف البلاد من الأجانب ولكن الفرنسيين أعملوا القوة العسكرية من جهة والسياسة والمصانعة من جهة أخرى واتمهي الأمر باقناع عبد الحفيظ بقبول الحماية الافرنسية ولعب في ذلك الوقت قدور بن غبريط المشهور دوراً مهماً في اقناع السلطان عبد الحفيظ بقبول الحماية بعد ان كان هذا السلطان امتنع عن قبولها أشد الامتناع وأراد الاستعفاء من السلطنة . وخلاصة القول أن فرنسا وإنجلترا من

ورأها ظهر نفقتا معاهدة الجزيرة بفعلهما وكان ذلك مما أثار غيظ ألمانيا وحل امبراطور ألمانيا على المجيء بنفسه الى طنجة وعلان أن استقلال المغرب لا يمكن أن يمس أحد ولولم يكن السلطان عبد الحفيظ قد قبل الحماية الافرنسية من نفسه لبقيت ألمانيا متمسكة بمبدأ استقلال المغرب التام . وهذا الذي دعاها قبل الحرب العامة بقليل الى ارسال بارجة الى مرسى أغادير يوم نار الخلاف بينها وبين فرنسا وكادت الحرب بينهما تنشب الا أن ألمانيا نكصت وأوانتذ عن الحرب لتكون إنجلترا وعدت فرنسا بجعل الأسطول الانجليزي تحت ارادتها فيما اذا نشبت حرب بين فرنسا وألمانيا . وقد كانت هذه من أمهات المسائل التي أوجبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ ومقصدا من ذكر هذه المقدمة أن إيطاليا بعد أن رأت تقسيم إنجلترا وفرنسا لأفريقية واستئثار كل منهما بمالك و بلدان طويلة عريضة واحتلال فرنسا للمغرب واعطاء قسم منه لاسبانيا اسكتاً لها عن الاعتراض قامت فطالبت فرنسا وإنجلترا بحصة لها في أفريقيا واقترحت أن تنزلا لها عن طرابلس الغرب وبرقة وتم الاتفاق على ذلك بين هذه الدول الثلاث سرا وبعد ذلك هاجت إيطاليا طرابلس الغرب بغتة بدون أدنى سبب سوى أن فرنسا وإنجلترا تقاسمتا افريقيا وأنها هي إيطاليا دولة كبيرة فلا يمكنها أن تبقى بدون حصة من هذه القارة ولما هاجت إيطاليا طرابلس الغرب أبلغت تركيا أنها ان رضيت أن تتخلى لها عن طرابلس وبرقة تعوض عليها بعض تعويضات مالية وتبقى للسلطان العثماني السيادة الدينية ولكن العالم الاسلامي يومئذ نار ثأره لهذا الاعتداء الفظيع واضطر الدولة الى المقاومة . نعم انه لم يكن للدولة قوة في طرابلس أكثر من أربعة آلاف عسكري على حين ان إيطاليا جهزت لاحتلال ذلك القطر مائة ألف عسكري الا أن الاهالي ثاروا بأجمعهم ورأى الباب العالي أنهم قوة قادرة على مقاومة الطليان فأمدهم بما أمكن من الأسلحة وجاء أنور متنكراً ودخل الجبل الأخضر من الحدود المصرية وجاء على فتحى ودخل طرابلس من الحدود التونسية وكان بلغ أهالي مصر وتونس استعداد أهالي طرابلس وبرقة للحرب فأرسلوا اليهم بالأرزاق وأمدوهم بما أمكن من الأموال وكانت الحماية الاسلامية في ذلك الوقت غير ما آلت اليه بعد الحرب الكبرى فرأت إيطاليا ورأى العالم الأوروبي كله من مقاومة الطرابلسيين مالم يخطر لهم على بال . ولغد كانت إيطاليا تعتقد ان احتلالها لدينك القطرين يتم في خمسة عشر يوماً . وأتذكر أني

قرأت بيانات للورد كتشيران هذا الاحتلال أصعب مما يظنون وانه قد يأخذ مدة ثلاثة أشهر ... فكان من مقاومة الطرابلسيين أن استمرت الحرب بينهم وبين ايطاليا عشرين سنة تامة بدلا من ثلاثة أشهر ولم تنقطع الا في السنة الماضية بعد أسر الشهيد عمر المختار . وقد بلغت خسائر ايطاليا في هذه الحرب مدة العشرين سنة مائة وخمسين ألف قتيل وثلاثمائة مليون جنيه ذهب ولو تيسر للاهالي السلاح اللازم والعدة لكان يستحيل أن تقدم ايطاليا من ساحل البحر الى الداخل ولو مسافة بضعة كيلومترات ولكن الذي فت في أعضاد الأهالي هو فقد السلاح والذخيرة كما لا يخفى . وكان نزول الطليان في طرابلس النهار الرابع من اكتوبر سنة ١٩١١ وخرجت الحكومة العثمانية من طرابلس ومعها العسكر بقيادة نشات بك وخيموا في جهات غريان وكانوا ينتظرون الأوامر من الباب العالي بالتسليم وكانت ايطاليا تنتظر ذلك لعدم تصور العقل امكان ادنى مقاومة . ورأى الأهالي أن الدولة تركتهم يخضعوا في أول الأمر للطليان وهؤلاء أخذوا يزعمون الأسوال على وجوه الاهالي في طرابلس وناحيتها وفي بنغازى وفي درنة واستجلبوا كثيرا منهم وكان من جملة من خدم الطليان من أعيان بنغازى المعروفين منصور الكاخيا وكان منهم ابن المنتصر في مصراته . وفي ذلك الوقت بينما ظن الطليان أن الأمر استوثق لهم قام سليمان البارونى زعيم الاباضية الذى هو اليوم وزير امام الأباضية في مملكة عمان وقام معه فرحات وغيرهم من زعماء طرابلس واستنفروا الأهالي فأتوا بالسلاح وهددوا العسكر العثمانى المنسحب الى خارج طرابلس بالقتال ان لم يصل الطليان الحرب فاشتد عزم العثمانيين وعلم الباب العالي أنه يقدر أن يعتمد على الاهالي وفي أواخر شهر اكتوبر المذكور كان المتطوعون منهم قد تكاثروا جداً فزحف العسكر العثمانى والمتطوعون الى مدينة طرابلس وقتلوا الطليان قتلا شديداً وفي أحد الأيام ظنوا أنهم مستولون عليها لا محالة . ولكن مدافع الطليان من البر والبحر حالت دون تحقيق هذه الأمنية . وكان قد لحق بالجيش العثمانى أهالي ترهونه وأهل الساحل والمنشيه والرجيحيات تحت قيادة على بك الشايبى الذى امتاز في معركة يربطراس والتحق أيضاً بالجيش أهالي تاجوره بقيادة على محمد كرموس وجه أيضاً الطوارف والفضائية وأهالي زليطن وتاورغه وزمتان ورجبان ومزده وأهالي غريان وأورفله ومصراته وناوير والزاوية وزنزور والعجيلات وغيرهم وبدأت الحرب

وجاء خمسمائة فارس من أولاد أبي سيف وهم سنوسية يسكنون في سكنه وكان جميع هؤلاء الأهالي مقبلين على الحرب كأهمهم موفضون الى أعراس واستردت الأهالي جميع النواحي التي حول مدينة طرابلس حتى دخلت سيدى الهانى وسيدى المصرى فشاهد العالم بأجمعه من بسالة هذه الأقوام ما قضى بالعجب العجيب ولكن الطليان ضاعفوا قواتهم ومعداتهم وفي ٢٦ نوفمبر اسرجعوا سيدى الهانى وسيدى المصرى ثم بدءوا بتلك الأفعال الفظيعة وقد ذكرنا فيما تقدم مذبحه المنشئية التي تبقى عاراً على إيطاليا أبد الدهر . ولولا مدافع الطليان ومعداتهم ما كان يمكنهم أن يثبتوا في مدينة طرابلس فضلاً عن أن يتقدموا الى الداخل وكان جميع المدافع التي في المعسكر العثماني سبعة مدافع فقط معها ثلاثون من المدفعية ولهم قائد اسمه أحمد شكرى قاوم جميع مدافع الطليان بمدفعه هذه ووصل الى مسافة كيلو مترين فقط من الطليان والى مسافة ستة كيلومترات من المدينة وكانت قنابره تسقط في حديقة البلدة وفي واقعة قارقارش قاوم أحمد شكرى هذا بأربعة مدافع جميع مدافع الطليان الهائلة وفي واقعة عين زاره بقى يقاوم مدافع الطليان مدة عشر ساعات إلى أن تمكن العثمانيون من الرجوع بانتظام . وقد وصل اليينا ونحن في معسكر درنه الميسودريمون مراسل جريدة الأستراسيون المصورة خدثنا عن وقائع الحرب التي شهدا في طرابلس وقال إنه لم يجد قوما عندهم شغف بالقتال واستخفاف بالموت كهؤلاء القوم . وقرأت له مقالة في الأستراسيون أنه شاهد في المعسكر العثماني أمام طرابلس متطوعة من الطوارق ومن فزان ومن جبل غريان وزليطن وأورفلمة وترهونه ومن الساحل قال : «واذا سمع هؤلاء نداء الحرب قامت قيامتهم وتدفقوا إليها كالسيول من الجبال وبالجملة فالحرب عندهم أشهى لذة تتصورها عقولنا » ثم إن الدولة العثمانية جعلت معسكراً آخر في مصراطه بقيادة خليل بك عم أنور ونورى أخى أنور واشتعلت الحرب بينهم وبين الطليان الذين كانوا في قصر جرد على البحر . وأما من جهة بنغازى فإن الحرب بدأت بعد ١٨ يوما من إعلان إيطاليا الحرب على تركيا . وفي الليلة الثانية من نزول الطليان في بنغازى هجمت عائلة ابراهيم والبراغثة بغتة على محلة يقال لها الصابرى وسط نخيل بنغازى كان الطليان أرسلوا إليها جانباً من جيشهم فحصلت معركة شديدة انهزم بها الطليان الى محل يقال له الزرايب وتلف منهم ذلك اليوم نحو من ثابورين . ووقعت واقعة أخرى يوم نزولهم اسمها واقعة جوليانة قتل منهم فيها

ثلاثمائة ومن العثمانيين سبعون وكان الطليان يضربون بنغازى بمقذوفات مدافعهم من البحر فقتل من الرجال والنساء والأطفال نحو أربعمائة وتمكنوا بمدافعهم من النزول الى البر لأنه لم يكن عند العثمانيين مدافع تحمى البلدة فنزلت عساكر الطليان واحتلت الثكنة العسكرية فقاتلها الأهالى وسقط من الطليان جماعة فى ميدان الثكنة . وخرجت الجنود التى كانت فى بنغازى مع قائدها شاكر بك الى سيل الهوارى على مسافة أربعة كيلو مترات من المدينة و بقيت خمسة عشر يوماً فى الهوارى وكانت أربعمائة جندي فقط تم تأخرت هذه القوة الى الأبيار على مسافة ثلاثين كيلو مترا . وكان سيدى عمران السكونى شيخ الزاوية السنوسية فى قصبة المرج وقد عرفته يوم ذهبت الى بنغازى فرأيت فيه صنيديداً من الصناديد رجه الله وأكثر من مثله فهذا الرجل استنفر قبيلة العرفا التى هو شيخ على زاويتها وقبائل أخرى والتحق بالجند العثماني الذين بقيادة شاكر بك وزحفوا الى الطليان فكسروهم الى مدينة بنغازى ومن ذلك الوقت لبشوا فى بنغازى تحت حاية اسطوهم . وأقام المعسكر العثماني ومعه العرب بالحل الذى يقال له الرجه . وكان الطليان قد قصدوا قرية الكوييفية على مسافة ساعة ونصف الى الشرق من بنغازى وعلى ربع ساعة من شاطئ البحر ولم يكن فى الكوييفية الا نزر من المقاتلة وكان الطليان عدة آلاف فانهزم الطليان وقتل منهم مئات وغنم منهم العرب بنادق ومسدسات وأعتدة كثيرة

وفى ١٥ يناير سنة ١٩١٢ بعد حضور عزيز بك المصرى قائداً للمعسكر العثماني فى بنغازى جرت وقائع كثيرة نذكر منها أن أربعمائة عربى هجموا على استحكام اسمه شويليك دخوله من شاطئ البحر فذبحوا الطوبخية الطليان على المدافع وأحضروا المكاتب التى فى جيوبهم من أهلهم اليهم وفى ١٦ الشهر المذكور دخل سبعون عربياً الى استحكام الفويهات وقتلوا وغنموا مقداراً من البنادق وفى ١٨ منه جرت وقعة الزريرعية اذ دخل من العرب ليلاً ٣٥٠ رجلاً بين استحكامين من استحكامات الطليان وقعدوا فى حفرة وقعد ٥٠ عربياً من الجهة الأخرى فسار الطليان فوقعوا فى الحفرة بغتةً ونشب قتال شديد بين الفريقين وكانت أربع بوارج طليانية تطلق القنابر من البحر منعاً للعرب من امداد ذويهم ولكن أصيب الطليان ذلك اليوم برزايا فادحة وقتل منهم مئات وقيل ١٥٠٠ جندي وقتل من العرب ٣٥ مجاهداً وجرح ثمانون . ومن بعد هذه الوقعة ازداد اهتمام الطليان

بالاستحكامات ووضعوا حولها الأسلاك الشائكة

وفي ٣١ ديسمبر سنة ١٩١١ ذهب ٥٠ عربياً من قبيلة الفوارس ودخلوا استحكام الفويهات وغنموا وقتلوا وقتل منهم ١٠ رجال وجرح ١٢ رجلاً

وفي ٢٢ فبراير سنة ١٩١٢ هجم العرب من جهة اللثامه على الاستحكام الطلياني الذي هناك فغنموا خيلاً قتلوا فرسانها وغنموا بنادق وأدوات

وفي ٢٦ منه اجتهد الطليان في احتلال « غريونس » على شاطئ البحر جاءوها من جهة شويليك فردهم العرب وغنموا منهم ١٩ بندقية

وفي ١٢ مارس ١٩١٢ جرت وقعة الفويهات الشهيرة وكان سببها أن ٢٠٠ عربى دخلوا بين استحكامى الفويهات والبركة فنار في وجوههم الطليان واشتدت الحرب وأحاط الطليان بهذه المائتى مجاهد من العرب وقصد عزيز بك المصرى ومن معه من العرب امداد هؤلاء فلم يتمكنوا من ذلك بسبب القنابر التي كانت تنساقط كالطر من البر والبحر. فلبث هؤلاء العرب يقاتلون مستميتين الى الظلام وعند ذلك نجا فلهم ولحقوا بالمعسكر العربى بعد قتال استمر طول النهار ويقال انه نجا ٨٠ رجلاً من المائتين. وأما الطليان فقتل وجرح منهم ألف وخمسة مائة مقاتل منهم ٢٨ ضابطاً برتب مختلفة وجنرال برتبة لواء وأصيب بالجنون عدة ضباط من هول تلك الوقعة. وكانت هذه الواقعة قد شقت كثيراً على العرب وقامت النوادر تسبب أولئك الأبطال الذين حالت مدافع الطليان دون امكان نجاتهم. وبينما العرب فى مآتم على قتلاهم اذ وردت برقية من أنور القائد العام فى درنه الى عزيز على المصرى قائد مجاهدى بنغازى عن برقية من الاستانة عن برقية من برلين عن برقية من رومة تفيد أن وقعة الفويهات هذه كانت من أشد المصائب على الطليان خسروا فيها ألفاً وخمسة مائة مقاتل ومنهم ضباط كثيرون قتلى وجرحى ومنهم من أصابهم الجنون من هول ذلك اليوم. فلما بلغ العرب ذلك شفى من حرقهم على أبطالهم وتحول حزنهم سروراً

وفى ٤ ابريل اشتبكت دورية من العرب مع ثلاثة آلاف جندى طليانى فى الفويهات أيضاً فانتكشف الطليان بغير انتظام وخسروا ٨٠ قتيلاً ولم يقع من العرب الا قليل من القتلى والجرحى

وحصلت بين الفريقين وقعة اسمها وقعة السلماني وذلك أن ٦٠ عربياً هجموا على

استحكام المسلمين فخرج الطليان ودارت رحى الحرب ووردت نجدات للعرب فكسروا الطليان وألزمهم داخل الاستحكام بعد أن تركوا مئات من القتلى على الحضيض . ثم وقعة البركة وهي أن الدرسه والعبيد دخلوا ليلاً بين الاستحكامات في راس عبيدة وكانوا ثلاثمائة مقاتل فدارت رحى الحرب طول الليل وأصبح الصباح عن ٣٠٠ قتيل من الطليان ولم يقتل من العرب سوى ثمانية مجاهدين وجرح ١٢ مجاهداً . وفي ١٩ يونيو جرت وقعة مع دورية الكوفية وكانت ٥٥ مجاهداً لا غير فتلاقت مع الطليان في سواني عثمان وكان هؤلاء تابورين من المشاة والاي من الفرسان ومعهم بطارية مدافع جبلية و بطارية صحراوية وثبت العرب مع قلة عددهم نحواً من ساعتين الى أن وصلت اليهم النجدات فعند ذلك انهزم الطليان ونقلوا عشر عربات وثلاث سيارات كهربائية ملائى بالقتلى والجرحى منهم ثلاثة ضباط وغنم العرب أسلاباً كثيرة

وهكذا كانت وقائع بنغازي في بداية الغارة الطليانية واستمرت بعد ذلك بدون انقطاع الى أن جرت الحرب العامة وخدع الطليان بالاتفاق مع الانكليز السيد ادريس السنوسي نجل سيدى المهدي واعترفوا به أميراً على برقة وانقطع بذلك القتال وصارت الامرة في البركة للامير ادريس وبقي كذلك سبعة الى ثمانى سنوات اذ جاء الفاشيست وتكثروا بالمعاهدة واستأنفوا الحرب ففر الأمير ادريس الى مصر وتولى قيادة المجاهدين زعماء متعددون أشهرهم الشهيد عمر المختار الذى ثبت الى الآخر وبلغت مدة جهاده عشرين سنة وأما مبدأ نزول الطليان في درنه فهو أنهم جاءوا ودمروا فيها بيت التلغراف اللاسلكي ثم ضربوا المدينة بالقنابر . وكان في درنة ٦٠ جندياً عثمانياً لا غير تحت قيادة البيكباشي شا كرك بك فانضم اليهم بعض الأهالى وجاء على افندى العوا كللى قائم مقام قصبه المرج ومعه عشيرته العوا كلة وبعض عائلة غيث فقاوموا الطليان بشدة لكن أهالى درنة اختاروا التسليم . وخرج شا كرك بك بجنده الى عين « ماره » وأخذ الطليان يستجلبون الأهالى بالمصانعة ووزعوا أموالاً وكاتبوا مشايخ الزوايا السنوسية ورؤساء القبائل ومع هذا فالعرب بقيت تآبى طاعتهم فأخرجوا تابور بحرية وثلاثة تواير مشاة و بطارية مدافع وصعدت هذه القوة الى رأس نبع درنه فى الوادى المعروف بوادى الشوارع قصدتهم على افندى العوا كللى بقومه وتوافت اليه الاعراب فهزموا الطليان هزيمة شنعاء قتل منهم فيها

مئات وجرح مئات بعد أن استمر القتال ١٢ ساعة وغنمت قبيلة الشواعر ٨٠ بندقية والعوا كلة ١٢٠ بندقية ومن الحيوانات وقرطاس البنادق شيئاً كثيراً . ولم يسقط من العرب الا ١٢ مجاهداً من العوا كله وستة من الشواعر . فاشتدت بهذه النصرات عزائم العرب وتقوت قلوبهم وكان أنور قد وصل الى « دفنا » يوم جرت واقعة وادى الشواعر هذه فكاد يطير فرحاً وعلم أنه يقدر أن يقاتل رجال كهؤلاء . وقبل واقعة وادى الشواعر لم يكن حصل الا مناوشتان مع العرب بنى جازيه من العبيدات قتل فيهما ٥٠ طليانياً . أما بعد وصول أنور فان الطليان امتنعوا عن الخروج مدة واعتصموا باستحكاماتهم وأخيراً خرجوا بقوة عظيمة وصارت الواقعة المسماة بواقعة « الضَبْط » وألخوا على معسكر أنور ولكن العرب هزمتهم وتركوا مئات من القتلى والجرحى وغنم العرب ١٣ بغلاً موقرة ومئات من البنادق واستشهد من العرب ٤٠ مجاهداً . وكانت هذه المعركة في ٣١ ديسمبر ١٩١١

ثم في ١٧ يناير سنة ١٩١٢ جرت وقعة بين الطليان وجيش العرب الشرقي أي النخيم شرقي درنه فتقهقر العرب وقتل منهم ١٨ مجاهداً وأسرع الجيش الغربي لنجدته فوجد في طريقه تابورين من الطليان فهزمهما وقتل منهما ١٥٠ جندياً . ثم في ٣٠ يناير هجمت قبيلة البراعصة على استحكام سيدى عبد الله ليلا وهو ملاّن بالمدافع الهائلة الكبيرة وكان هجوماً بجرأة نادرة المثال في تواريخ الحروب الا أن البراعصة لم يقدروا على الاستحكام ووقع منهم ٧١ شهيداً . وجرت وقعة في ٣٠ مارس ١٩١٢ استمرت طول النهار وانهمز الطليان وقتل منهم أربعائة منهم ثلاثة ضباط كبار وقتل من العرب ٣٧ وجرح ١٥٠ مجاهداً وغنموا ١٥٠ بندقية وثمانية صناديق ملائى بالمقذوفات

وفي شهر مارس جرت واقعة كنت أنا السبب فيها لأني كنت وصلت مجاهداً ومعي خمسة رجال من أخصائي من جبل لبنان باق منهم في الحياة واحد هو عجاج أغا عبد الصمد من عماطور فلما وصلت الى معسكر عين منصور تقابلت مع أنور ومصطفى كمال وغيرهما من القواد وصرت مترقباً لنشوب واقعة لأشهدها . فضت أيام ولم يحصل شيء سوى مناوشات بين الطلائع . فبينما أنا أتحدث الى رشيد بك ابن المشير فواد باشا الجركسى ^(١) قال لى :

(١) استشهد رحمه الله في حرب البلقان عند استرداد العثمانيين لادرنه سنة ١٩١٢

ان شئت نريك وقعة غداً . فذهبت أنا واياهُ الى ضلع جبل مناوح لاستحكام سيدى عبد الله و بينهما واد عميق وجميع تلك الهضاب مكسوة بالأشجار من عفص وغيره وقررنا أن تكون الوقعة هناك وجررنا مدفعين صغيرين من خمسة مدافع صغار هي كل ما كان فى جيش أنور ووضعناهما بازاء استحكام الطليان . وثانى يوم بكرنا الى ذلك المكان وجئنا العرب فى المتاريس بازاء الاستحكام . وذهبت أنا وتقدمت وجئمت مثلهم وراء متراس . ثم جاء مصطفى كمال وكان يومئذ قائد ألف وثانى أنور فى القيادة فجلس بجانبى . ثم جاء أنور رجه الله ثم جاء رشيد بك ابن فؤاد باشا ثم جاء ضابط دمشق ذهب اسمه من بالى ثم جاء ضابط ألماني اسمه البارون غومبينبرغ من أنبل عائلات مونيخ وهو لا يزال فى الحياة ومن أعز أصدقائى . وبعد أن أخذنا مقاعدنا بدأنا برمى القنابر من المدفعين الصغيرين اللذين كنا وضعناهما هناك قبل الوقعة بيوم . فأكادت أصوات قنابرنا تدوى حتى انفتحت أفواه مدافع استحكام الطليان المسمى بسيدى عبد الله تقصف قصف الرعود وأخذت القنابر تنساق علينا كالطر وهي من نوع الشراييل واشتد رمى الرصاص من العرب . فاستمرت الواقعة من الصباح الى الظلام لكن بقى كل فريق فى أرضه فلا نحن زحفنا اليهم ولا هم زحفوا نحونا . ولما انتصف النهار اشتد بنا الجوع وكان مع مصطفى كمال رغيف من الخبز فقسمه بيننا وكنا خمسة وراء ذلك المتراس فاصاب كلاً منا فردقة . وكان الهلال الاحمر المصرى قد جعلنى مفتشاً على بعثاته الطبية فى تلك الحرب فلما رأوا فى مخيم الهلال الاحمر انه انتصف النهار والحرب مشعلة ولا تقدر أن نبرح المصاف أرسلوا لنا غداء تاماً فيه مايكفى من الخبز والجبن والزيتون والعسل وارسلوا زمزمية ماء وجاء شاب صفاقسى اسمه على كنت استخدمته عندى ومعه الطعام فاخذ يدب بين المتاريس الى أن وصل الينا فنفعنا السفرة وأكلنا وقد نال منا الجوع كل منال فلم أعهد فى حياتى انى أكلت أكلة أشهى منها . وبعد الطعام غلب على النعاس لأنى نهضت ذلك اليوم من الفجر لحضور الواقعة فأشار على مصطفى كمال بان أبيت فى ظل شجرة عفص صغيرة على مسافة ٢٠ متراً من المتراس . فذهبت واضطجعت على التراب ومن شدة النعاس غلب الكرى على برغم قصف المدافع وأغفيت نحواً من ٢٠ دقيقة واذا بكتلة تراب غمرتني فجأة فاستيقظت مذعوراً فاذا بكرة شراييل سقطت بجانبى وانفجرت فاصابني منها التراب الذى اطارته من الارض فقامت

وزُجعت فجلست الى جانب مصطفى كمال وانور وراء المتراس . واخذ البارون غومببرغ بالتوغرافيا صورنا جميعاً ونحن هناك ولا تزال هذه الصورة محفوظة . ذكرت هذه القصة لأنها من ألد ذكريات حياتي ولأن رفاقي ذلك اليوم صاروا فيما بعد من رجال التاريخ أحدهم أنور أشهر من أن يذكر والثاني الغازي مصطفى كمال رئيس جمهورية تركيا الحالي ولم يقع منافي تلك الوقعة الا نزر من القتلى والجرحى

ثم جرت وقائع فيما بعد أشهرها واقعة قصر اللبن استشهد فيها من العرب ٤٠٠ وقتل من الطليان أكثر من هذا العدد . وما زالت المعارك هناك تتوالى الى أن نشبت حرب البلقان فألح الأتراك على أنور بالرجوع الى الاستانة فرجع مكرهاً وسلم القيادة الى عزيز بك المصرى الذى واصل قتال الطليان . ثم لما عقدت الدولة الصلح مع ايطاليا رأى عزيز بك نفسه مضطراً الى ترك القتال فسحب العسكر النظامى الذى كان فى برقة وكانوا زهاء أربعمائة وأخذ الأسلحة التى أمكنه أخذها وسار قاصداً الحدود المصرية . وهو بهذا لم يعمل الا بحسب الأصول الدولية ولكن المجاهدين السنوسيين تقموا عليه انه عطّل المدافع التى بقيت عندهم ودفن القراطيس والقذائف فى الأرض . وهذه روايتهم التى رووها لجميع الناس وحرروها وقدموها الى الاستانة والله أعلم بها . ثم ان عزيز بك أبى أن يسلم العرب البنادق التى مع عسكره وذلك وفقاً للأصول الحربية التى تقضى بعد انعقاد الصلح بين تركيا وايطاليا أن لا يسلم العسكر العثمانى أسلحة لأعداء ايطاليا . ولكن العرب لم يقبلوا هذا العذر أيضاً ولم يفهموا كيف أن الدولة بعد أن عقدت الصلح مع ايطاليا مكرهة مرغمة بسبب حرب البلقان تعود فتسحب هذه القوة الضئيلة التى كانت باقية لها فى برقة ثم تأبى أن تترك لهم البنادق التى كان يحملها الأربعمائة عسكرى الذين مع عزيز بك ؟ ولذلك أصرتوا على عزيز بك فى تسليمهم البنادق وبدأوا أولاً معه بالجدال وانتهوا أخيراً الى الجلال . فوقعت حادثة مؤسفة مؤلة نرى من واجبات الأمانة التى تلزم المؤرخ عند ذكر الوقائع أن لاندعها مسكوتاً عنها كيف كان الخطأ فيها . وذلك أن الاعراب بجهاهم عند مقاطعوا أملهم من تسلم البنادق بالرضى أطلقوا الرصاص على العسكر العثمانى وكان قد خيم فى « دفنا » غربى السلاوم ولم يبق الا أن يصل الى الحدود . ولعلمهم قتلوا أو جرحوا بعضاً من العسكر . فأمر عزيز بك بمقابلتهم بالمثل فنشبت معركة سقط فيها أكثر من ستين قتيلاً من العرب وبضعة

عشر قتيلاً من الجند . وعند ذلك امتدّ صريح العرب بعضها الى بعض وأقبلت من كل صوب تريد الانتقام من عزيز بك وعسكره . وهذا كله في دفنا والأراضي المسماة بالبطنان . وأخذت العرب تجتمع لمهاجمة الجند النظامي . وكان السيد أجد الشريف السنوسي في الجبل الأخضر وقد سفر الجو بينه وبين عزيز بك المصري بسبب سحب هذا للعسكر النظامي وتخليته لبرقة ولكنه لم يكن يرضى بأن تكون النهاية قتل المسممين بعضهم بعضاً وان يوقع العرب بجند الدولة التي كانت تحافظ على بلادهم . فأرسل السيد السنوسي الأكبر الشهيد السيد عمر المختار لئلا في الشر ومنع الأعراب من الهجوم فقطع عمر المختار مسافة أربعة أيام في يوم واحد مواصلاً الإغذاذ الى أن أدرك العرب قبل هجومهم فحجز الشرّ وبلغهم مافي مقاتلة عسكر الدولة من الفضيحة والسماتة وسوء القالة وسد أبواب عواطف الدولة على عرب طرابلس ومازال بهم حتى اقنعهم بأمر السيد السنوسي أن يتركوا ثأرهم ويعتدوا هذه الواقعة كأنها لم تكن . وبمقابلة ذلك أخذ لهم فيما سمعت البنادق التي كانت مسئلتها هي سبب الشر الذي وقع . ولكن عزيز بك على المصري وصل الى مصر ثم الى الاستانة وقد امتلأ صدره وغراً على السنوسية كما أنهم هم أيضاً قدموا الشكوى بحقه الى الدولة بعد أن صار أنور ناظراً للحرية واتهموه بأشياء كثيرة أحالته الدولة من اجلها الى المحاكمة . ثم خلّت بعد ذلك سبيله بشرط أن يغادر تركيا فغادرها الى مصر وطنه في خبر ليس هذا محله لأنه يتعلق بموضوع الحركة العربية على تركيا أكثر مما يتعلق بطرابلس الغرب

و بعد أن خرج عزيز بك من برقة أصبحت القيادة الفعلية بيد السيد أجد الشريف السنوسي كبير الطريقة السنوسية وكان أكثر اعتماده في الأمور الجهادية على عمر المختار . واهتبل الطليان غرة الحرب البلقانية مع تركيا فأوجفوا على السنوسية بقوتهم لعلمهم يدوخون ذلك القطر بتخلي الأتراك عنه فلم ينالوا أرباباً لأن السنوسيين صدّوهم من كل جهة . ولبت الطليان منحصرين في المدن الساحلية . فلجأ الطليان الى الخديوى السابق واقنعوه بالتدخل في القضية لعل السنوسي يخضع لاطيالة بواسطته — ولغط الناس يومئذ بأن الطليان وعدوا الخديوى بأن يشتروا منه خط حديد مربوط الذي كان يخصه والله أعلم فأرسل الخديوى رسلاً من قبله عدة مرات يقترح على السنوسي الاتفاق مع ايطالية فاعتذر السنوسي عن قبول ذلك حسبما حدثني هو بغمه وأجاب الخديوى بأنه هو لا يملك ذلك القطر

لينزل عنه لاطالية وان الاسلام يمنعه من تسليم البلاد للطلبان مادام فيه عرق ينبض . ولعل الخديوى السابق أراد بهذا التوسط تخفيف الشر ولم يكن له مقصد فى ضرر السنوسية الا أن قضية بيع سكة مريوط من الطليان قد دارت على الألسن سواء كانت صحيحة أم لم تكن فحذشت وجه الوساطة وأصمّت آذان السنوسية عن سماع الكلام . ثم ان الطليان لم يتمكنوا من شراء سكة مريوط نظراً لمعارضة الحكومة المصرية لذلك بالتواطؤ مع الانكليز سراً . ولقد أشار جيوليتى رئيس نظار ايطالية الشهر فى «مذكراته» الى مساعدة الخديوى السابق لاطالية فى الحرب الطرابلسية ولكنه لم يذكر شيئاً من قضية سكة مريوط وانما قال : «إن عباس حامى الخديوى السابق كان مساعداً لنا من أول هذه الحرب وبواسطته أمكننا الاتفاق مع الادريسي فى عسير ويقول الخديوى انه أراد بما فعله مكافأتنا على حسن المعاملة التى لقيها منا أبوه عند ما كان منفياً من مصر وأقام بنابولى »

ومن هذه الجلة يعرف القارئ ان جيوليتى لا يؤخذ كلامه قضية مسلّمة افلا ترى انه يخلط بين والد الخديوى وجده اسماعيل باشا الذى كان هو المنفى الى ايطالية لا والد الخديوى ولا عجب فى هذا فان جيوليتى حرر مذكراته بعد أن ناهز الخامسة والثمانين من العمر ومن علت سنه الى هذه الدرجة فأحر به أن يروى عن زيد ما يكون أحياناً صدر عن عمرو . والله أعلم بالحقيقة

ونعود الى خبر برقة بعد أن تركها الاتراك فنقول ان السيد السنوسى أسس فيها حكومة سنوسية وبقى يجاهد فيها الطليان ويقمعهم فى الثغور البحرية بنغازى ودرنه الى الحرب العامة اذ بعث اليه أنور بأخيه نورى ومعه الاوامر بالزحف الى مصر لمشاغلة الانكليز فيها . وكان السيد غير مرتاح الى هذه الغزاة خوف الفشل وكان الانكليز كتشتر وما كسويل وغيرهما يصانعونه ويقدمون اليه الهدايا اللطيفة يكتفون بها شره عليهم وقرأت عنده كثيراً من رسائل اللورد كتشتر والجنرال ما كسويل وهما يبالغان فى تعظيمه واسترضاء خاطره وما استجلب نظرى أكثر من الجميع مكتوب بالعربى من اللورد كتشتر محرر عبارة بليغة وباسجاع رشيقة وبخط لم أجد أبداً منه فى حياتى يخاطب فيه اللورد كتشتر السيد أجد الشريف كما يخاطب الملوك ويلقبه بسلاة النبى الأعظم ﷺ وكل هذا مداراة منهم له ليكف عن مهاجمة مصر . ولم يكن السنوسى قد تلسكاً عن الزحف الى مصر بسبب هذه المصانعات

الانكليزية وانما كان يعوقه ان القوة التي كانت بيده لم تكن كافية وكان يخشى أن تدور عليه الدائرة فلما رأى ما رأى من الحاح أنور ونورى وتوبيخ الوطنيين من المصريين اياه على التناقل اختار الزحف وكان من الأمر ما كان من الفشل الذي قد توقعه مما قد استوفينا شرحه في صفحة ١١٤ و صفحة ١١٥ و صفحة ١١٦ الى صفحة ١٢٩ من الجزء الاول من الطبعة الاولى من هذا الكتاب فن شاء فليراجع هذا المبحث هناك ولكننا هنا ننشر مما وجدناه بين أوراقنا كتباً واردة من السير مكماهون معتمد انجلترا بمصر ومن اللورد كتنشر ومن الجنرال مكسويل القائد العام للجيش الانكليزية بمصر الى السيد السنوسي أحمد الشريف أخذنا نسخها من نفس السيد المشار اليه وهي من أهم الوثائق التاريخية المتعلقة بالحرب العامة

هذا وأحسن تاريخ عربي لطرابلس الغرب هو « المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب » تأليف أحمد بك النائب الاوسى الانصارى الطرابلسى أصله من جالية الاندلس في القرن السابع للهجرة وهذا التاريخ مطبوع في الاستانة العلية سنة ١٣١٧ هجرية وأول رحلة قام بها أوربي الى طرابلس الغرب الميسولومير قنصل فرنسة في طرابلس جويل في تلك البلاد وكتب عنها رحلة بأمر لويس الرابع عشر ملك فرنسة . ثم اقتفى أثره بولس لوكلان فزارها سنة ١٧١٠ ثم سنة ١٧٣٣ ثم الدكتور توماس شاو زارها سنة ١٧٣٨ ثم في سنة ١٧٦٠ جاءها من مصر فرنسي معلم طبيعيات اسمه غرانجه وفي سنة ١٧٦٨ و ١٧٧٢ زارها جنس بروس السائح الى الحبشة

وفي أوائل القرن التاسع عشر المسيحي ساح فيها الدكتور سرفلي الايطالى وتحرير ذلك أن والى طرابلس يوسف باشا القرمانيلى سیر جيشاً لعقاب ولده الذى كان في درنه وعصاه . فكان في هذه الحملة الدكتور سرفلي وحرر أشياء مهمة نشرتها جمعية فرنسة الجغرافية . ثم عصى بعض العرب في جهة المرج بالجبل الأخضر فصرح اليهم والى جيشاً كان فيه طليانى آخر اسمه « دلاسل » فكتب رحلة ترجت الى الانكليزى سنة ١٨٢٢ ثم زار برقة والجبل الأخضر الأب باسيفيك جاءها من طرابلس . سنة ١٨٢٠ أراد جنرال روسياني أن يعمل سياحة في هذا القطر فاستصحب علماء وكتّاباً وسار اليه من مصر لكنه فقد ثلاثة من أصحابه قبل أن وصل الى الجبل الأخضر فرجع أدراجه . سنة ١٨٢١

ساح القبطان ييشى فى بر طرابلس وصور المواقع بالضبط وسنة ١٨٢٤ و ١٨٢٦ خرج باشو الفرنساوى وقام برحلة فى القطر الطرابلسى وكتب عنه أربعة مجلدات . وكان الميسو دوبورفيل قنصلا لفرنسة فى بنغازى وذلك سنة ١٨٤٨ فجمع كثيرا من الآثار القديمة التى وجدها فى الجبل الأخضر وهى الآن فى متحف اللوفر . ثم ان الدكتور برث ساح فى طرابلس قبل أن ساح الى تنبكتو . سنة ١٨٥٥ ساح المسترجس هاميلتون من بنغازى الى أوجله الى سيوه الى مصر

وسنة ١٨٦٠ و ١٨٦١ أجرى هذه السياحة القبطان مردوك سميث والكومندور بورشر الانكليزيان وكتبوا كتابا طبع سنة ١٨٦٤

وكان للقطر الطرابلسى من الصولة والمنعة وهبوب ربح العزفى البحر المتوسطا للقطر التونسى وللقطر الجزائرى وللقطر المراكشى وكانت له الأساطيل القاهرة وكان ولاية طرابلس يأخذون الجزى من الدول الاوربية وتدفعها هذه لهم . وقد روى صاحب كتاب « المنهل العذب » السالف الذكر فى حوادث سنة ١٢١٣ ما يأتى :

« وفى هذه السنة كلف يوسف باشا ^(١) دولة الاسويج بدفع مائة ألف فرنك عطية وثمانية آلاف فرنك سنوية فرفض قنصلها هذا الاقتراح فأرسل يوسف باشا الأساطيل لمهاجتها وبث السرايا على سواحلها والقبض على مرأى رعاياها التجارية فغنموا سبع سفائن فالتجأوا الى نابليون بونابرت وهو وقتئذ بمصر . وسنة ١٢١٣ انعقد الصلح بواسطة مندوب بونابرت على أن تدفع السويج ثمانين ألف فرنك غرامة وثمانية آلاف فرنك سنوية وترك تلك السفائن للحكومة المحلية وتعاد أسارى الاسويج »

وذكر بعد ذلك وقائع كثيرة كانت تحصل بين دولة نابولى وطرابلس وبين دولة سردانية ^(٢) وطرابلس من أجل استنكافهما عن دفع الهدية السنوية لولاية طرابلس . وتلك الأيام نداولها بين الناس

(١) أي الفرمانلى والى طرابلس

(٢) دولة آل ساقوى ملوك ايطالية الحاليين

الكتب الواردة

على السيد احمد الشريف السنوسى

من اللورد كتشنر والسير مكماهون والجنرال مكسويل

* (١) *

من مصر القاهرة فى ٢٢ صفر ١٣٣١

بسم الله قبل كل شئ

من عبد الله المتوكل على الله سبحانه وتعالى لورد كتشنر المعتمد السياسى لجلالة

جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى بالانظر المصرى

الى مهبط اسرار الحضرة الربانية ومصدر صفوة الارشادات اللدنية صاحب التجليات
الأنسية والنفحات القدسية قطب دائرة أهل الفضل والكمال وخلاصة أرباب الحجا والجلال
المتحلى بروحانية اسلافه الطيبين الطاهرين والمتجمل بصفات أهل الجبال واليقين والمتخلى عن
أوضار الاغيار فى مهيع عبادة رب العالمين دوحة الشجرة الهاشمية وبضعة السلالة العلوية
خليفة صاحب ذلك النور القدوسى سيدي أجد الشريف السنوسى رضى الله عنه وايدده
بروح منه

أما بعد فان الفرصة التى دعتنى الآن لمكاتبة السيد الجليل أحسبها من أشرف الفرص
وان كانت قصتها الداعية اليها ليست من أحسن القصص على أن السيد الجليل والشريف
النبيل خليفة ذلك الامام المهدي العظيم وولى الله الكريم قد يسره أن ترفع اليه الظلامات
ليحقق آمال رافعيها وأن تصل اليه أصوات الضراعات ليكون ملجأ ضارعيها ولهذا يسرنى
أن أكون الواسطة لديكم لرفع مظالم قد ارتكبها من لم تخالط هدايتكم قلوبهم ولم تستأصل
ارشاداتكم العالية من نفوسهم الخاطئة ذنوبهم ولذلك أكتب لمقامكم الجليل بما يلى :

قد ورد لى من سعادة حاكم السودان العام أن جماعة من عربان الكبايش التابعين
لحكومة السودان وبلغ عددهم تسعة وعشرين رجلا قصدوا بير النظرون التابع لمديرية
دنقلا وبينما كانوا عند البئر اذ انقض عليهم عدد عظيم من العربان بينهم نحو مائة من

(م ٩ - ثانى)

أهل فزان أتباع الطريقة السنوسية الشريفة والباقون من أهل زغاوة والبديات واعتدوا عليهم شر اعتداء وكان دافعهم الى هذا الشر وداعيتهم اليه قبل كل أحد زعيم الفزانين واسمه الشيخ محمد أبودوشي الفزاني أحد الخاضعين لسلطانكم والمستظلين بظل حايتمكم واحسانكم اذ ذهب برجاله الى عربان زغاوة والبديات وطلب منهم الانضمام اليه لمقاتلة الكبايش وحرصهم على ذلك حتى انصاع اليه جمع منهم فبلغ ذلك عدد عصابته التي أغار بها على ذلك النفر القليل زهاء مائتين وسبعة وأربعين رجلاً . أغار بهذا العدد الكبير على أولئك النفر القلائل ولم يخف سطوة الله عز وجل ولم يذكر أن عمله المنكر فضلاً عن بونه يغضب الله وملائكته سيجلب عليه سخطكم وغضبكم الذي هو من سخط الله وغضبه وكأنه لم يكفه أن يكون عدده كثيراً كالجيش الجرار بازاء جاعة الكبايش الذين كانوا عند البئر بل أخذهم غدرًا وفاجأهم على غرة منهم فينما كانوا آمنين لا يحسبون للشر حساباً اذ أطلق عليهم رجاله من بنادقهم ناراً حامية كادت أن تحصدهم حصداً فلما رآهم قد وقفوا أمامهم برهة من الزمن حملوا عليهم بسيوفهم ورماحهم فطعنوهم في صدورهم أنكى الطعنات وقتلوا بذلك ثمانية وجرحوا ثلاثة وأسروا اثنين وسلبوا ما كان معهم من سلاح ومتاع ثم استاقوا جالهم وعددها مائة وواحد وأربعون بما عليها من الاجال غير مبالين بأن يعدوا في شريعة الاسلام من العائنين في الأرض فساداً وأن جزاءهم فيها اذا وجدوا قضاة عدولا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض الخ الآية الكريمة فيرى السيد حفظه الله ووفقه لاجراء عدله على حكم الله وسنة رسوله الأمين أن جاعة الفزانين الذين ينسبون أنفسهم لطريقتكم الشريفة ويعتزون في طول البلاد وعرضها بعزها قد خانوا الله وخانوا محجة رسول الله البيضاء وخانوا عهد طريقتكم السمحاء ولم يبالوا بغضب الله ولا بغضبكم ولم يذكروا اليوم الآخر وحسابه وبطش الله وعقابه وهذا غريب جداً أيها السيد الكريم مع ما يعلم القصى والداني من خضوع هؤلاء الأقوام لسلطوتكم واثثارهم بأوامركم ومع ما سارت الركبان والأمثال من أخبار عدلكم المشهور وشدة بأسكم على أهل البغي والعناد وما تحلى به شخصكم الكريم من صفات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي انتهت اليكم ترانا عن أسلافكم العظماء الأفاضل ذوي البأس الشديد والتاريخ المجيد فكيف مع هذا يجرؤ قوم أشداء كثير العدد

من أتباع طريقتمكم الشريفة على الاعتداء على قوم مستضعفين قليلي النفر فيقتلون منهم
الأنفس ويسلبون الأموال والمتاع وهم مع هذا يرون أنهم من أتباعكم خليقون بحمايتكم
وحسن رعايتكم

لقد كان في وسع حكومة جلالة الملك أن تتخذ في مثل هذا الحادث اجراءات أخرى
عظيمة التأثير والأثر على أمثال أولئك الطغاة البغاة وتضرب بهم الأمثال للناس وهي لاتعدم
الوسيلة لذلك ولكنني بما أعرفه عن سيادتكم من حب العدل والانصاف والغيرة على اقامة
معالم الشريعة الغراء في البلاد والجهات التي يصل لها نفوذكم وتمتد اليها سطوتكم قد فضلت
أن أراجع مقامكم السامي في هذه النازلة لرفعها طبق ما يقتضيه العدل الاسلامي الذي لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه

فاذا شاء السيد حفظه الله تحقيق آمالي في عدله وانصافه فما أسهل على حضرته أن
يأمر تابعيه بكف الاذى عن جيرانهم واخوانهم في الدين وأن يكلف أولئك المعتدين برد
الجمال والاحمال التي سلبوها مع دفع التعويضات كما يراها السيد بالحق الدية للمقتول والتعويض
للمجروح ظالما وعدوانا ولست أظن انه يوجد من الموانع ما يحول دون توقيع هذه
الجزاءات على مستحقيها عند فضيلة السيد ولكن اذا كان هناك مانع لا اعرفه فأتني أرجو
من حضرته الدريمة أن تشرفني بافادتي عن الطريقة التي يحسن اتباعها للوصول الى تلك
الغاية من غير ان يمس كرامتكم التي اود أن أحافظ عليها دائما وأطلب من الله المزيد فيها
وقد أرفقت بكتابي هذا بيانا مشتملا على أسماء الاشخاص المعتدى عليهم من عرب
الكبايش ومن قتل ومن جرح منهم لتكونوا على بينة من الامر ولتبروا العدل فيهم كما
أمر الله جعلكم الله ملاذا أعلى لتحقيق عدله بين خلقه وامدكم بروح منه مادامت احساناته
اليكم متواصلة وعنايته بكم شاملة ونفعنا الله ببركاتكم على الدوام آمين
(اللورد كتشنر باشا)

* (٢) *

مصر القاهرة في ١٥ يناير سنة ١٩١٥ — ٢٩ صفر ١٣٣٣

قطب دائرة أهل الفضل والكمال وخلاصة أرباب الحجي والجلال أمام المصلحين

وقدوة المرشدين الاستاذ الاعظم والملاذ الانعم السيد أحمد الشريف السنوسي أعزه الله

سلام الله الاسنى وتحياته المباركة الحسنى تخص مقام السيادة وبعد فاني بحمد الله ومعونته وصلت الى مصر نائباً عن جلالة الملك جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى وامبراطور الهند الذى أعلن حاجته على هذا القطر السعيد ليحفظ سلطنته من اعتداء المعتدين ويرقى به وبأهله فى معارج التقدم والفلاح . ولما كانت علاقة حكومة هذا القطر على الدوام ودية مع سيادتكم رأيت أن أبلغكم وصولى وأؤكد لكم ان العلاقات الودية التى كانت لكم ولأسلافكم الكرام مع الحكومة المصرية ستستمر فى هذا العهد الجديد كما كانت عليه من قبل من الود والسلام

الامضاء

السير مكهمون المهر الرسمى

* (٣) *

مصر القاهرة فى ٣ ديسمبر سنة ١٩١٥ - ٢٥ محرم سنة ١٣٣٤

حضرة الاستاذ الأعظم السيد أحمد الشريف السنوسى الخطابى الادريسى الحسنى دام

وجوده الكريم

تحية وسلاماً وبعد فقد أدهشنى ما وجدته بعد عودتى الى مصر من زيارة الجيوش المتحالفة فى غليبولى — ان العلاقات بيننا قد حدث فيها تغيير . وان اتباع سيادتكم قد ارتكبوا أعمالاً عدائية ضد الحكومة المصرية .

وقد سمعت بارتياح انكم أرسلتم كبيراً من مستشاريكم الى البرأتى ليسعى فى ارجاع بعض اتباعكم الذين عصوا أوامركم ولكنى تعجبت اذ سمعت ان هؤلاء الاتباع قد تمادوا فى العصيان حتى انهم لم يطيعوا الأوامر فقط بل أطلقوا الرصاص فعلاً على جعفر أفندى . هذا وقد بلغنى أيضاً ما همنى وهو أن سبعين رجلاً من رعايا الدولة البريطانية الذين نجوا من مركب غرقته غواصة العدو قد حجزوا غرب حدودنا . فأسألكم برهاناً على العواطف الودية التى أظهرتموها لنا أن ترسلوا هؤلاء الرجال المنكودى الحظ حالاً بدون اذى الى مرسى مروح .

هذا ويظهر ان نفوذ نورى بك وأصدقائه الألمان عليكم يشبه نفوذ أنور باشا على حلافة سلطان تركيا . وهذا النفوذ الضار هو الذى زجّ تركيا فى هذه الحرب المهلكة والتى

سنتهى حتما بزوال دولة الأتراك من الوجود إنكم تعلمون أن الحكومة المصرية والحكومة البريطانية عاملتا سيادتكم بكل اهتمام واحترام وأما الآن فقد اضطرت بسبب المقاصد السيئة التي تحيط بسيادتكم أن استدعى رجالى من نقطة السلم وأتخذ لهم مركزاً فى مرسى مطروح . وعليكم الآن أن تبينوا بأعمالكم وأعمال اتباعكم اذا كنتم تحبون بقاء العلاقات الودية أم لا .

ومن الآن فصاعداً كل رجل من اتباعكم يتعدى الحدود حاملا سلاحه أضطر أن أعده كمن له مقاصد عدائية وأعماله كذلك . لقد سألتكم أن تظهروا مقاصدكم الودية بإبعاد الأشخاص الذين معكم الآن المعروفين بعداوتهم لنا وأنأسف أن أرى أنكم لم تتمكنوا الى الآن من ابعادهم .

انى لا أشك فى أن السيد محمد شريف الادريسى قد سلمكم كتابى وفافضكم فى جميع الشؤون التى ولى اليه مفاوضتكم فيها ولا أشك فى أنه بين لكم ان مقاصدنا نحوكم ودية محضة وان ما أوجب التغيير فى العلاقات بيننا هو اعمال صدرت من جهتم لا من جهتنا .

ولا يسعنى الا الظن بأن الدساسين قد نقلوا اليكم أخباراً كاذبة عن الحرب الأوربية والحقيقة هى ان خسارة امبراطور الألمان وحلفائه بطيئة ولكنها أكيدة على جميع خطوط القتال والمستقبل يريكم ما أراد الله .

وانى أسألكم ان تنعموا النظر فى الأمر وتعتبروا انه اذا اتخذتم لسوء الحظ خطة عدائية فانكم لا تجلبون عليكم ايطاليا فقط بل فرنسا وانكلترا ومصر وتحملون مسئولية جميع النفوس التى تضع فى هذا السبيل وتعرضون بلادكم للجوع اذ تسد عليكم طريق الزاد والمؤونة برأ وتحصر الشطوط البحرية . واذا كان مستشاروكم يعتمدون على غواصات الأعداء فاعتمادهم قائم على لا شئ وانى أبسط لكم ذلك كله ليس بقصد التهديد بل بقصد النصيحة كصديق . والأتراك يقضون بكم مأربهم ثم يبنذونكم بنذ النواة وراء ظهورهم .

ان الحالة الحاضرة لا يمكن أن تبقى على ما هى عليه الآن ولذلك فانى أسألكم أن تبرهنوا حسن مقاصدكم بالأعمال وليس بالأقوال وأن ترسلوا حالا الى مرسى مطروح الرجال

الانكليز الذين نجوا من مركبهم وهم الآن غرب حدودنا. وأن تعيدوا العلاقات الودية معنا وتخرجوا من بلادكم المستشارين الأتراك والألمان أى نورى بك ومانسمان وغيرهما من الذين لاشك في أنهم يجلبون عليكم وعلى بلادكم بلاءً عظيماً .
ولى الرجاء انكم توفون هذه المسائل حقها من الاهتمام قبل أن يقع ضرر لا يمكن تلافيه والسلام

الجنرال السيرجون مكسويل
القائد العام لجنود جلالة ملك بريطانيا العظمى بمصر

* (٤) *

مصر في ٤ جادى الأولى سنة ١٣٣٤ الموافق ٨ مارس سنة ١٩١٦

حضرة صاحب السيادة الأستاذ السيد أحمد السنوسى الكبير
تحيةً وسلاماً وبعد فقد وصلنى كتابكم المرسل بيد رسولكم موسى وليس لى أن أزيد فى الرد عليه عما قبلته فى كتبى السابقة . انى كنت دائماً أحذركم من خطر الاصغاء الى نضائح نورى بك وجعفر وغيرهما لأن مصلحة هؤلاء تناقض مصلحتكم على خط مستقيم . فانكم بالاصغاء الى نضائحهم قد أثرتم حرباً على مصر ونسيتم جيل بيت محمد على باشا الكبير الذى يمثله صاحب العظمة السلطان حسين سلطان مصر الحالى .
إنكم تعدّيتم الحدود ودخلتم الأراضى المصرية برجال مسلحة ومدافع وقد أطلقت نيرانكم على العساكر المصرية والانكليزية . وأظهرتم بكل جلاء ووضوح أن مقاصدكم عدائية .

تقولون انى صدقت مقالة سنوبك ولم أصدق ما قلتتموه أتم . فما هو الصحيح ؟
إن جماعات من المحافظة المسلحين كانت على الدوام تأتى الى الأراضى المصرية اما بعلم منكم أو بغير علم منكم وتسيء معاملته العرب الذين تحت إدارتنا وتأخذ منهم ضرائب بالقوة وقد أطلق أتباعكم النيران على الغواصات الانكليزية لغير ماسبب . وأنزلات الغواصات الألمانية الأسلحة والعساكر وغيرها بقرب برديّة وأطلقت نيرانها على طراد لغفر السواحل وأغرقت وأتباعكم لم يطلقوا النار على الغواصات الألمانية بل استقبلوها بالترحاب . ثم انكم حفظتم فى الأسر جماعة من رعايا الدولة البريطانية الذين غرقوا وابورهم وجؤوا الى سواحلكم . وقدهاجم أتباعكم نقطنا فى البرأتى والسبيل وأسرو عساكر الحرس

وسرقو بنادقهم وقطعو خطوطنا التلغرافية وهددو نقطنا بالسلوم حتى اضطررت أن أصدر الأمر الى سنو بك بالرجوع الى مرسى مطروح وفي الوقت الذي كنتم فيه تصرّحون بأن علاقاتكم معنا على غاية الوداد كنتم تستببون وترسلون مع رسلكم كتباً كالتى أرفقها بكتابى هذا وإنى مرسلها اليكم لنعلمو الحقيقة .

أرى انكم لازلتم تدكرون أمر معاهدة عقدت مع الطليان ووجدت بين أوراق سنو بك . وأنا أعود فأكرر القول ان ذلك غير صحيح لسبيين . الأول لأنه لم نعمل معاهدة مثل هذه قط والثانى لأن سنو بك لم يكن عنده السلطة لأن يعقد معاهدة كهذه .

ان جعفر الذى هو الآن أسير حرب يقول ان الانكليز الذين نجو من الوابور والآن فى الأسر عندهم هم فى شقاء عظيم وليس عندهم ما يلزم من الثياب والطعام . واتم تقولون انهم على أتم الراحة والأمان . فأى القولين أصدق .

إنكم تشكون من أنى حجزت رسلكم هنا وأنا لم أفعل ذلك الا بعد أن بادأتمونى بالعداء . إن الله وحده يعلم بالخفايا وما هو فى ضميركم . وكل ما يمكننى أن أقوله لكم ان أعمالكم كلها دلت على عدم تبصّر وروية ويلزم أن تحصدوا الزرع الذى غرستموه .

إنكم بأعمالكم قد وقفتم موقف العدو ومادام فى الأراضى المصرية رجل مسلح من رجالكم فأنى اعتبركم عدواً وقد سبقت فأخبرنكم عن الشروط التى بها وحدها يمكننى أن أبدأ بالمفاوضة معكم . وهذه الشروط أرسلتها فى كتاب مؤرخ فى ٢٨ صفر سنة ١٣٣٤ الموافق ٤ يناير سنة ١٩١٦ وهى كما يأتى :

- (١) أن تردّو بسلام جميع الأسرى البريطانيين أو الهنود أو الأوربيين الذين فى يديكم .
- (٢) يجب أن تبعدو كل الأتراك أو الألمان الذين عندهم . وإن كنتم تجدون صعوبة فى إبعادهم فيمكنكم أن تسلموهم لى أسرى حرب .
- (٣) يجب أن تخرجو جميع رجالكم المسلحين من الأراضى المصرية وتتعهدوا بعدم دخول رجال مسلحين الى الأراضى المصرية وإذا دخلو عوملوا معاملة أعداء حينما وجدوا .
- (٤) يجب أن تجلو جلاء تاما عن سيوه والسلوم وعن جميع البلاد التى الى الشرق منها وتقيموا بسلام فى الجغبوب فإذا كنتم الآن تجيبون هذه المطالب وتظهرون بالأعمال أنكم تريدون أن تكونوا على الوداد فأنى مستعد للتساهل معكم أكثر مما تؤملون .

المهر الرسمى لجنرال السرجون مكسويل

القائد العام لجيوش جلالة ملك بريطانيا العظمى

ماسبق في التاريخ من استيلاء الافرنج

على طرابلس الغرب

للشيخ

عند ما ضعف شان العرب في صقلية وطردهم منها الملك رجار النورمندی واختلت إدارة أمورهم في تونس وطرابلس فكرر رجار في غزو طرابلس والمهدية فبعث بأسطول نازل طرابلس آخر سنة ٥٣٧ للهجرة فنقب الافرنج سور طرابلس وكادوا يستولون عليها إلا أن العرب انحدروا من الجوار فهزموا الافرنج وغنموا أسلحتهم ودوابهم ورجعوا خائبين . ثم ان رجار لم يقطع الأمل من تلك البلاد وصار يترقب الفرصة لغزوها وفي سنة ٥٤٣ للهجرة أرسل أسطوله بقيادة جورجى أمير البحر عنده فاستولى على المهدية بثلاثمائة مراكب ثم استولى على صفاقص وحصلت في طرابلس مجاعة أصاب الناس منها شدة عظيمة واختلت الأحوال وفنت الحامية فاهتبل الافرنج الغرة وجاء أسطول رجار ونازل طرابلس وقاتلها الافرنج برا وبحرا وكان أهل طرابلس قد اختلفوا فيما بينهم وأخرجوا الأمير الذى كان عليهم محمد بن خزون وولوا عليهم أميرا من لتونه وحصلت بينهم فتنة استفاد منها الافرنج فتمكنوا من البلدة وأخشوا في القتل والنهب ونجا كثير من أهل طرابلس الى الداخل وبعد أن تمكن الافرنج من البلدة نادوا بالأمان فراجع المسلمون إليها وأقاموا تحت حكم الافرنج وانقرض أمر بنى خزون من طرابلس ثم ولى الافرنج أبا يحيى رافع بن مطروح على طرابلس وأخذوا رهنا منه على الطاعة ونادوا في صقلية بالمسير الى طرابلس كما ينادى الآن موسوليني بالمسير إليها لأجل استعمارها فسار إليها أناس كثير من الافرنج واستولوا على بلاد الساحل كلها وضربوا على أهلها الجزية وصار لهم من طرابلس الى قرب تونس ولم يزلوا الى أن استنقذ تلك البلاد كلها منهم عبد المؤمن بن على سلطان دولة الموحدين وكان ذلك سنة ٥٥٥ هـ إذ نقض يحيى بن مطروح طاعة الافرنج واستنصر عبد المؤمن بن على الذى طرد الافرنج من المهدية بعد حصار شديد

ثم إن الافرنج رجعوا فغزوا طرابلس بعد ذلك بمائتي سنة . وكان فيها أمير اسمه ثابت بن محمد فجاءها الجنوية سنة ٧٥٥ وكانوا جمعاً غفيراً فزلوا بالبلدة أولاً كأنهم آتون للتجارة ثم بيتوها ذات ليلة وصعدوا الأسوار وملكوها على الأهالي وهتف هانفهم بالحرب ولبسوا السلاح فاستيقظ الأهالي من مضاجعهم فرأوا بلدتهم بيد الافرنج فلم يكن منهم إلا النجاة بأنفسهم فاستباحها الافرنج ونهبوها ثم داخلهم أبو العباس أحمد بن مكى صاحب قادس في فدائها فاشتروا عليه خمسين ألف مثقال من الذهب العين فجمعها الأهالي من قابس والحامة وبلاد الجريد ودفعوها الى النصارى وأخرجوهم من طرابلس وبقيت أيضاً نحواً من مائة وخمسين سنة خالية من الافرنج . ثم غزاها الاسبانيول سنة ٩١٦ وكان أهلها قد استناموا الى الدعة وأهملوا الدفاع عن بلدتهم فلما جاء الافرنج لم يكن منهم إلا الفرار وبقي الاسبانيول فيها الى زمان بنى عثمان فأرسل أهالي طرابلس وفداً سنة ٩٢٦ الى الاستانة العلية يستمدون السلطان سليمان القانوني رحمه الله لأجل إخراج الاسبانيول من طرابلس وكان الوفد الطرابلسي قد سهلوا الأمر على السلطان فأرسل معهم رجلاً اسمه مراد آغا ومعه قليل من الجند فنزل مراد آغا في قرية تاجوره على اثني عشر ميلاً شرقي طرابلس وحاصر طرابلس فعجز عن فتحها بتلك القوة القليلة ثم كان أهالي نابولي وجنوة غزوا المهديّة واستولوا على جزيرة جربة فأرسل السلطان سليمان أساطيله فأوقعوا بهم وطردهم ثم في سنة ٩٥٨ قدم طرغود بك أمير البحر الى طرابلس في مائة وعشرين سفينة وحاصرها وفتحها وجاء مراد آغا من تاجوره وتولى الأمر فيها وبعد ذلك رجع طرغود بك الى الاستانة ثم في سنة ٩٦٢ جاء طرغود بك بالأساطيل ونازل وهران وأخرج الاسبانيول منها ثم نازل بنزرت وأخرجهم أيضاً منها ثم غزا ميورقة وكورسكة ورجع الى الاستانة بغنائم وافرة

عرب طرابلس

(خاتمة : كنت رغبة الى حضرة الوجيه الأخ الفاضل السيد عبد الستار الباسل أحد كبار قبيلة الزماح بالفيوم ومن سرادة بر مصر أن يكتب لى خلاصة عن عرب طرابلس لأن صاحب البيت أدرى بما فيه فأرسل لى بالخلاصة التالية ثبتها حرفياً) : —

فى القرن الخامس من الهجرة رحلت قبيلة هلال من جزيرة العرب الى مصر . ورحل معها بطن من سليم خوولته فى بنى هلال . أقاما فى مصر ما أقاما ثم رحلا الى افريقية وكانت اذ ذاك تابعة لخلافة الفاطميين فى مصر

سبب الرحيل الى افريقيا

كان فى تونس عامل للفاطميين يدعى ابن باديس فخلع طاعة الفاطميين وخطب للخليفة العباسى ببغداد ورفع شعار العباسيين على دور الحكومة . كلفت حكومة مصر هاتين القبيلتين بالذهاب الى افريقية ومحاربة ابن بارس وفعلوا رحلا الى تلك الجهة ومحاربا ابن باديس ونصرائه من البربر وكانت زعامة قبائل البربر اذ ذاك فى زناته . انتصرت هاتان القبيلتان على ابن باديس ومن معه وفتحتا البلاد وأرسلتا الى مصر بخبر هذا الفتح . ولبدوا وهما لم يطمعا فى الحكم ولا فى الملك . بل سلما البلاد للفاطميين واكتفتا بأن تعيشا فى الصحراء كما كانتا تعيشان من قبل . ثم اقتسمتا الصحارى والمراعى بينهما فأخذت سليم صحراء طرابلس وأخذت هلال صحراء تونس . فى هذه القسمة غبن على سليم لأن صحراء تونس أخصب من صحراء طرابلس . والسبب فى ذلك أن سليم أقلية وهلال كثيرون لأن سليم لم ترحل من جزيرة العرب كلها كما رحلت هلال بل رحل بطن واحد منها وهو الذى خوولته فى هلال أما باقى سليم فبعضها فى الجزيرة الى الآن وبعضها فى السودان المصرى وهو ما يسمونه الآن (بعرب بقارة سليم)

سليم طرابلس

تقسم سليم فى طرابلس الى نخدين كبيرين . الكعوب وأبو الليل . أما الكعوب فهم ما يسكنون بين قصر سرت شرقا وحدود تونس غربا وتشمل الكعوب قبائل « المحاميد »

« وترهونه » و « أولاد سليمان » و « الرقلة » وقبائل أخرى صغيرة بعضها سكن مدن السواحل وبعضها اندمج في هذه القبائل الكبيرة

أما أبو الليل فهؤلاء المسمون الآن بالسعادي نسبة إلى امرأة تدعى سعدي من قبائل زناته بنت عظيم من عظمائهم أخذت في حرب ابن باديس وتزوج بها زعيم سليم إذ ذاك (أبو الليل) وهؤلاء كانوا يسكنون بين قصر « سرت » غرباً وعقبة السوم شرقاً .

يقسم أولاد سعدي هذه إلى ثلاث قبائل (١) براغيث (٢) عقاقرة (٣) سلالة

١ - السلالة أو بني سلام يكونون الآن ثلاث قبائل جميعها تسكن مصر وهم (١) الهنادي (٢) بني عون (٣) الجبالية

٢ - العقاقرة أو بني عقار . يكونون الآن أولاد على وهم جميعاً بمصر . والحراي وهذه القبيلة يتكون منها خمس قبائل وهي البراعة والعبيدات والدرسة والحاسة وأولاد فايد وهؤلاء فريق منهم في مصر وفريق في طرابلس

٣ - البراغيث وهم يكونون (١) الفوائد وهذه جميعها بمصر (٢) الرماح (قبيلتنا) وهذه غالبيتها بمصر وقليل منهم في طرابلس (٣) الجبارنة أو أولاد جبريل وهم ثلاث قبائل (١) العواقر وجميعها بطرابلس (٢) الجوازي وجميعها بمصر (٣) المفاربة وجميعهم بطرابلس

٤ - العبيد وجميعهم بطرابلس

٥ - العرفاء أو أولاد عريف وكلهم بطرابلس

هذه هي قبائل سليم التي سكنت طرابلس وأول محيى بعض هذه القبائل إلى مصر في أواخر القرن الثاني عشر من الهجرة وأول من جاء منهم بنو سلام ثم بعدهم جاءت قبيلة أولاد علي من العقاقرة . ثم في أوائل القرن الثالث عشر جاءت بعض القبائل الأخرى وكان ذلك بسبب حروب وقعت بينهم وبين إخوانهم الذين بقوا في طرابلس إلى حرب الطليان هذا يأسدي الأمير مختصر تاريخ هذه القبائل بعضها أخذته من ابن خلدون وصبح الأعشى . أما بعد القرن التاسع من الهجرة فهي روايات تتناقلها الأبناء عن الآباء أخذتها من الشيوخ نقلًا عن شيوخ قبلهم مدعمة ببعض أشعارهم وأغانيهم

السوسية

الشيخ

سبق ذكر مجمل الدعوة الوهابية ، وانها اصلاح ديني واناة الى عقيدة السلف الصالح لولا ما أصابها من الغلو والافراط . أما السوسية^(١) فهي طريقة عمل بالسنة والشرعية بدون شرط ولا قصور . مؤسسها سيدي محمد بن علي السوسى الخطابي من عيون أعيان القرن الثالث عشر للهجرة ، أصله من الجزائر من قبيلة مجاهر من جهات مستغافم ، جده سيدي عبد الله بن خطاب المجاهري . واطلعت لهم على نسب ينتهى الى علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء رضى الله عنهما ويقال ان عدد أبناء هذا الحى يبلغ ٧٠ ألف نسمة وانه ينتمى اليهم وينضوى حولهم نحو ٢٠٠ ألف أ كثرهم فى (عمالة) و (حران) بجوار نهر شلف . وقرأت أن رئيس هذه القبيلة اليوم هو سيدي أحمد الشارف بن تلوكة^(٢) وان سيدي احمد الشارف هو شيخ الطريقة السوسية بالقطر الجزائرى . والذي أعلمه أن الحكومة الفرنسية فى المغرب لا تسمح بنشر الطريقة السوسية التى تعدها خطراً عظيماً على الاستعمار ، وأنها تسمح لسائر الطرق مع المراقبة اللازمة لها لكنها لا تقبل صرفاً ولا عدلاً من جهة السوسية التى تعلم من قوتها ومن مقدرتها العملية ما تعلم .

أما سيدي محمد بن علي السوسى فقد كان عالماً عاملاً ، كبيراً مجتهداً ، خرج من الجزائر عند ما احتلها الفرنسيين . وطاف بالبلدان وحج البيت الحرام ولقى كبار الأشياخ من جيلتهم والد الادريسي القائم بعسير . ويظهر أنه رأى القطر الطرابلسي أكثر استعداداً من غيره لقبول دعوته فابتدأ بتأسيس طريقته فى طرابلس وعاونه على ذلك سيدي أبو القاسم العيساوى والد الشيخين الاجلين سيدي أحمد العيساوى شيخ زاوية السوسى بينغازى ، وصديقنا سيدي عبد العزيز العيساوى الذى أوفده السادة السوسية ثلاث مرات الى الاساتنة فيما يعرض لهم من الأشغال لدى الدولة ، آخرها فى أثناء الحرب العامة . وقد

(١) راجع صفحة ٣٠٠ من الجزء الاول

(٢) ولا أعلم درجة قرباه من صديقي سيدي محمد الشارف ابن عم السادة السوسية وشيخ احدى زوايا دفنا من جهة السلمو

وفق الاستاذ السنوسى الأعظم الى نشر طريقته فى أكثر بقماع طرابلس وبرقة ، ولا سيما برقة فان أهلها فى الحواضر وقبائلها البادية بأجمعهم سنوسية مجاهدون وفى كل بلدة زاوية وعند كل قبيلة زاوية . واذا تعددت أخذت القبيلة فكل فخذ منها زاوية ، وكذلك زوايا السنوسى ممتدة الى مصر ، فلهم زوايا عظيمة فى سيوة والواحات الدواخل الى الفيوم ، وزواياهم متسلسلة مطردة من بنغازى الى اسكندرية وعندهم نحو ١٢ زاوية فى نفس الحجاز لها تبع كثير من قبائل حرب وغيرها وزواياهم كثيرة فى السودان وانما أشهر زواياهم زاوية جغبوب على مسافة يومين أو ثلاثة من الحدود المصرية الى الغرب وهى بلدة تامة فى عظمها واتساعها وعدد سكانها . وكانت جغبوب واحة مالحة يأوى اليها الدعار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العيث فى أنحائها فلما اختارها سيدى محمد بن على السنوسى مقرآ له وبنى بها زاويته الكبرى صارت مهد امان ، ومركز عبادة ومشرق أنوار ومعلم هداية فغرس بها الأشجار ، ونسق الجنان واستنبت العيون ، وتوسع فى البناء ، وأسس مدرسة لتخريج مریدى الطريقة ، أجلس للتدريس فيها جملة العلماء . وكان مركزه بادئ ذى بدء فى الزاوية البيضاء من الجبل الأخضر على مقربة من شحات ، وهى قرية مبنية على خربة « سیرنا » عاصمة برقة أو « سیرنا ييك » فيها بقايا آثار من ايام يونان ومن قبلهم ومن بعدهم ، وموقع سيرنا هذه أوشحات على جبل عال مشرف اشرافاً قائماً على علو ثلاثمائة الى اربعمائة متر ومن حذاء هذا الجبل الى البحر مسافة ساعتين وهناك مرسى اسمه سوسة ولا مبالغة اذا قيل ان هذا الموقع هو من أبدع ما خلق الله فى أرضه ، لمحّة منظر ، وحسن هواء ، وطيب نجعة ، لاسيما وفى أعلاه مغارة تنجس منها عين فياضة بمياه كنوب اللجين ، تنحدر من هناك فى مثل شلال الى أسفل الجبل حيث تسقى البساتين والغياض ، وأما الزاوية البيضاء فليست فى شحات بل فى هذه زاوية أخرى لقبيلة الحاسة^(١) يديرها سيدى محمد الدردفى ولكن الزاوية البيضاء على مسافة ساعة من شحات الى الجنوب مبنية فى وسط غابة من غاب الجبل الأخضر على مسافة خمس دقائق من مقام سيدى رافع الانصارى أحد الصحابة الذين فتحوا تلك البلاد ، وقد كان سيدى محمد السنوسى بناها وجعلها مقره ، وقد رأيتها رأى العين فى اثناء جهادى

(١) التى ينتسب اليها عقيلة الحامى الشهير فى مرج ابن عامر من ديار فلسطين

بتلك الديار سنة ١٩١١ وبت مرة بتلك الزاوية فاذا هي عبارة عن مدرسة تحيط بصحنها
 الغرف لاقامة الطلبة وفيها جامع حسن ، وهي اليوم زاوية قبيلة البراعصة المشهورة بالشجاعة
 والنجدة ، وعهدى بمشيخة البراعصة ورئاسة هذه الزاوية لسيدى محمد العلمى الغمارى من
 ذرية سيدى عبدالسلام بن مشيش المدفون فى جهات طنجة من المغرب الأقصى ولكن هذه
 الزاوية فقدت كثيراً من رونقها بعد تحول السنوسى عنها الى جغبوب ، ويقولون انه كان
 قد شعر بدنو استيلاء الاجانب على تلك الديار فاختر الايغال الى الجنوب والاقامة بالصحراء
 فعمر زاوية جغبوب وتوفى بها رضى الله عنه وله فيها ضريح يزوره السنوسية من جميع
 الديار ، وولده بالزاوية البيضاء سيدى المهدي والد سيدى ادريس أمير برقة الحالى وسيدى
 الشريف والد سيدى أحمد الشريف نزيل الأناضول عند كتابة هذه السطور وامام الطريقة
 السنوسية كلها ، ولقد استخلف السنوسى واده المهدي وأنبا بأنه سيكون له شأن عظيم .
 وصدقت فراسته فيه فانه أكمل عمل والده ، وبني زوايا عديدة ، وذاع ذكره فى الأقطار
 وحسبت له دول الاستعمار حساباً كبيراً وحاولت أن تتقرب اليه بأنواع الوسائل ، وأصناف
 الاطاف ، فأعرض عن كل هذه المداخلات ، وعكف على عمله الذى هو بث الدعوة وايقاظ
 الأمة ، وتأسيس الزوايا وربط الأهالى بها ، حتى هال أمره السلطان عبد الحيد فأراد أن
 يكتشف حقيقته ويستطلع طلع حاله ، فأرسل اليه بمقره فى جغبوب وفداً كان فيه صديق
 المرحوم صادق بك المؤيد من آل العظم فى دمشق وأحد حجاب السلطان ، فحدثني رحمه الله
 عن تلك الرحلة وعمما لقوه فى جغبوب وان السيد السنوسى لم يكن الاداعياً مرشداً ، وانه
 دائماً يدعو الله بتأييد الدولة العثمانية وتوفيق الحضرة السلطانية ثم ان سيدى المهدي السنوسى
 تحول من جغبوب الى الكفرة ، وهذه هي واحة كبيرة تسكنها قبيلة اسمها زوية فى وسط
 الصحراء تبعد مسافة ٢٥ يوماً عن بنغازى الى الجنوب ، يمر السائر اليها فى طريقه على بلدتى
 جالو وأوجلة اللتين هما فى أول الصحراء على مسيرة ثمانية أيام من بنغازى فاختلفت الأقوال فى
 أسباب ترك السيد السنوسى مركزه الذى فيه قبة المقدس والده ، والمدرسة التى شادها مبعثاً
 لأشعة أنوار الشريعة والطريقة ، واختياره الانزواء فى الكفرة بمكانها من البعد عن
 العمران ، فقال بعضهم انه لما استقرت قدم الانكايذ بمصر أجفل السنوسى ووضع نصب
 عينيه الايغال فى الصحراء ، وانتجاع واحة تكون أقصى من جغبوب مكاناً وأعز منالاً ،

وقال آخرون بل السنوسى منذ زمن مديد كان يتكهن بوقوع الحرب مع النابوليتان (الطليان) وان هؤلاء لابد في يوم من الايام ان يغزوا طرابلس وبرقة ، فشرع يهيم اتباع طريقته للمقاومة ، ويعلم فضائل الجهاد ، مما ظهر أثره في حرب ايطالية سنة ١٩١١ ظهوراً أدهش الشرق والغرب ، وأثبت أن الطريقة السنوسية هي عبارة عن دولة بل كثير من الدول لا تملك ما تملكه الطريقة السنوسية من الوسائل الحربية وذلك بكونها طريقة عملية لا تعرف سوى العمل بالكتاب والسنة والافتداء بسلف هذه الامة ، ومن جملة ما فكر فيه أن يجعل مركزه بعيداً ما أمكن عن مطارح انظار الدول الاستعمارية ليخلوله الجو في تجهيز قومه وبث دعوته ، فانتبذ هذا المكان القصي من الصحراء في النقطة الوسطى بين ساحل البحر المتوسط والسودان . وقال آخرون بل ساءته معاملة بعض مأمورى الأتراك في التحرى والتنقيب عن السلاح وكبس زوايا السنوسية في الجبل الأخضر وشاع أن الدولة أخذت تشبه في أمره ، وتتوجس خيفة ادعائه الخلافة فقصد أن يعتزلها الى الصحراء الكبرى ، ولعل هذه الاسباب جميعها متوفرة في قضية تحوله الى الكفرة يضاف اليها انه من الكفرة كان يقصد القرب من السودان وبث دعوته في تلك الاقطار ونشر الاسلام في أواسط افريقية من طريق واداي ، وبرنو ، وكام ، واداموا ، والداهومي ، وغيرها من أواسط افريقية وغربها مما كان ولا شك فيه للسنوسية اليد الطولى ، فضلاً عن كون اقامته بواحة الكفرة سببت عمران تلك الواحة وازدياد الفراس والفلاحة فيها وترقية عقول أهلها ، فبنى فيها زاوية عظيمة سماها التاج وجعلها مقراً وبنى في أماكن أخرى من تلك الواحة ، وفي واح قريبة منها زوايا أيضاً وأسس مثلها في واحات الوجنقات التي تقع وراء دارفور الى الشمال ، وأخرى في واح ونّ وواحة قرو وزاوية في عين كلك التي وقعت فيها الحرب بين السنوسية والفرنسيين الذين قصدوها من واداي . وزوايا عديدة عمر بها واحات الصحراء الكبرى وآنس بها وحشتها ، ونضر غبرتها ، وأيقظ غفلتها ، وشغل أفكار الدول الاستعمارية من كل جهة ، فانكثرة تحسب حسابه من جهة السودان المصري ، وفرنسا من جهة واداي ومستعمراتها في أواسط افريقية وشمالها وغربها . وإيطاليا كانت تترك له لعلها تنال سدوته فيما كانت تنويه من الغارة على طرابلس . ولم يخل الأمر من كون السلطان عبد الحميد الذي كان لا يهدأ له بال قد أراد أيضاً معرفة مقاصد

السنوسى من ابتداء ذلك المحل القاصى . فبلغنى أنه أوفد اليه مرة ثانية المرحوم صادق بك المؤيد الى نفس الكفرة فأخذ منه الجواب بأنه لا يقصد سوى خدمة الاسلام ، وأبث الدعوة لطاعة السلطان . هذا ولم يزل سيدى المهدي السنوسى يث طريقته ويكمل أهبته ، الى أن مضى الى ربه منذ نحو ٢٠ سنة خلفه سيدى احمد الشريف ابن أخيه الذى اشتهر أثناء الحرب الطرابلسية وقام فيها المقام المحمود الذى لم يقمه أحد ، ولولاه لم يمكن انور ولا غيره من أبطال الدفاع عن بر طرابلس أن يعملوا شيئاً ، واتصل جهاده من الحرب الطرابلسية الى ما بعدها فلم تخمد له نار الى الحرب العامة ، الى ان دخل الانكليز والطيلىان فى المفاوضات مع ابن عمه سيدى ادريس ابن سيدى المهدي وأقنعوه بالاتفاق معهم على أن يكون هو أميراً على داخل برقة ويكون الحكم للطيلىان فى مدينتى بنغازى ودرنه ، ويكون لهم احتلال بعض المراسى فانعقد الاتفاق على شروط معلومة كانت خلاصتها ما تقدم . ولما رأى سيدى احمد الشريف ذلك وكان الوثام بين أبناء البيت السنوسى من القواعد المقدسة لم يستحسن فى باطنه خطة ابن عمه ولكنه لم يشأ أن يجاذبه الحبل وصبر على المرء ، وأرسل الى المرحوم أنور ناظر الحربية يومئذ وذلك سنة ١٩١٨ يطلب منه ارسال غواصة لنقله الى الاستانة فاستقبلها بحاشيته الى تريبته ومنها ركب قطار الحديد الى فينا ومنها جاء الى الاستانة واستقبله أهلها استقبالا فائقاً ، وأعظم السلطان محمد وحيد الدين قدومه وصادف ذلك بداية جلوس السلطان على عرش آل عثمان ، فاختر السيد المشار اليه لتقليده السيف فى الحفلة المعتادة لذلك فى جامع أبى أيوب الانصارى فى الخليج وهو الذى يسميه الاتراك جامع سلطان أيوب . ولما دخل الحلفاء الاستانة أقام يبروسة ثم لما احتلتها اليونان تحول منها الى قونية ثم ذهب الى حدود العراق العربى داعياً الى الوحدة الاسلامية . ولم أحصل الى هذا اليوم على شرف معرفته شخصياً وان كنت أمت اليه بصدقة أكيدة وكانت المراسلة بيننا متصلة منذ سنين عديدة . أيدى الله وأبقاه ونفع هذه الأمة على يده

بعد تحرير ما تقدم بشأن السادة السنوسية ، أسعف القدر ، وفى الدهر ، بعد أن غدر ، بتحقيق الامنية التى طالما كنت أتمناها ، وادراك الغاية التى كنت من سنين عديدة أتوخاها ، وهى مشاهدة الحضرة السنوسية ، واجتلاء تلك الأنوار الأنسية ، بعد ان حال بيننا وبينها طول السفار وتباعد الاقطار ، واحتلال الاعداء بعد الحرب الكونية أكثر

الديار . فلما كنت في معسكر الجبل الاخضر ، بعين منصور في ظاهر درنة سنة ١٩١٢ كان الاستاذ الأكبر سيدى أحمد الشريف نجل سيدى محمد الشريف ، نجل سيدى محمد بن على السنوسى مؤسس الطريقة السنوسية وخليفة عمه سيدى محمد المهدي رضى الله عنهم جميعاً ، لا يزال في واحة الكفرة الواقعة في وسط الصحراء على مسافة ٢٥ يوماً الى الجنوب من مدينة بنى غازى ، ترد منه الافادات والأوامر الى الادوار المراقبة في وجه الطليان ^(١) وهو بعد في زاوية التاج مركز السادة السنوسية ، ثم تقدم السيد من واحة الكفرة الى واحة الجغبوب ، ليكون أقرب الى ميدان الحرب ، ولتشتد به عزائم المجاهدين . فكان في ذلك الوقت قد وافق سفر هذا العاجز من الجبل الاخضر ، قاصدا الاستانة لمذاكرة رجال الوزارة الجديدة وهى وزارة مختار باشا وكامل باشا وحسين حلمى باشا ، في أمر طرابلس وثنى عزمهم عن التساهل فيها مع الطليان كما كان شائعاً . فلم يقسم لى القدر فى تلك الآونة ملاقة الاستاذ السنوسى المشار اليه ، وبقيت العلاقات فيما بيننا بالمراسلة ، الى أن شبت الحرب الكبرى ، فانقطعت قليلا ثم استؤنفت ببرد الغواصات التى كان المرحوم الشهيد أنور ينفذها الى سواحل طرابلس .

ولما قدم السيد الى الاستانة العلية بالغواصة سنة ١٩١٨ صادف وجردى بألمانية بمهمة التايف بين العثمانيين والألمان ، فيما شجر بينهم فى بلاد القافقاس . فلما وصل السيد الى العاصمة لم يكن انتهى شغلى فى برلين ، وما انتهى شغلى هناك الا وقد طلب البلغار الهدنة وبدأ الانهيار فى أجرف ألمانية وحلفائها . فأبرق الى أنور بى رقية رقية بواسطة سفارة الدولة بىرلين يترجانى سرعة الاوبة . فذهبت قاصداً الاستانة من طريق رومانية ، وركبت الباخرة من مرسى براىلا على الطونة ، ومنها الى ميناء كوستنجه ، حيث تلقت الباخرة أمراً بعدم دخول البوسفور والانصياع الى اودسا . فذهبت مكرهاً وضاق صدرى جداً بهذا التأخير ، والمسافر عليل دواؤه الوصول . ولكن قد ينون الخير فيما كره الانسان ، « ولو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع » . اذ لو أكلت الباخرة الشقة الى الاستانة ، لم يلبث الحلفاء

(١) أهالى طرابلس الغرب يسمون المعسكر دوراً ، وأصل هذه التسمية - والله أعلم - أن قبائل العرب تأتي الى الحرب بالناوبة ، كل قبيلة تفرض عليها خدمة كذا من الأيام أو من الاسابيع ، أو من الاشهر ، فتقوم بها أو ترسل عدداً معيناً يقوم بها ، ثم تذهب الى مناجمها ويأتى الى محلها غيرها ؛ وهكذا بالتعاقب لئى أن تكون نوبتها ثانية ، وهلم جرا ، فسمى المعسكر الذى تخيم به تلك القبائل دوراً

أن قبضوا على مع رفاقي ، وغربوني الى مالمطة . فكان في نكوص الباخرة عن اكمال الجرى الى دارالسعادة ، وذهابها الى اودسا ، وملاقاتي ثمة المرحومين الاستاذ الشيخ عبدالعزيز جاويش والاستاذ الشيخ صالح التونسي ، والأستاذ الشيخ خضر حسين التونسي ، ورفاقهم من مصريين وتوانسة ، وما علمته منهم من انسلال انور وطلعت وغيرهما من الاستانة ، ما غير وجهتي واعادني مغرباً بعد أن كنت مشرقاً ، مما سبق تحريره في موضع آخر .

قل هذا لم يتيسر لي وقتئذ لقاء سيدي احمد الشريف . وبقيت أ كاتبه من اوربا الى الاستانة ، ثم الى الاناضول . فلما يسر الله الاجتماع في هذه الايام الاخيرة ، حدثني هو بنفسه عن أمور كثيرة وحوادث جرت معه ، آثرت أن اخصها لقراء هذا الكتاب ، لكوني سمعتها من فمه ، وأحسن التاريخ ما أخذه الانسان من فم صاحبه ، وأروى الروايات ما استقاه المؤرخ من رأس نبعه .

ذكر لي السيد ، حفظه الله ، خلاصة رحلته من طرابلس الى الاستانة ، الى الاناضول ، الى أن حصل في مرسين التي يقيم بها اليوم . وذلك أن أنور كان أنفذ أخاه نوري أثناء الحرب السكونية الى طرابلس الغرب قائداً عاماً ، وعزز به بعض ضباط وأسلحة ونقود ، وأمره باقناع السادة السنوسية بمهادنة الطليان ، ومهاجرة الانكليز في مصر ، حال كون سيدي أحمد الشريف اعتقد عكس هذه السياسة ، وهو مهادنة الانكليز ومطاردة الطليان . فشرع نوري يغادي سيدي أحمد ويرأوه في أمر الزحف صوب مصر ، والسيد ثابت في رفضه . حتى وقع الخلاف بينهما . وليس من المظنون أن يكون أنور أمل فتح مصر بتلك القوة الضئيلة ، وانما يغلب انها كانت سياسة المانية ، المقصود منها تحميل انكلترا خسائر جديدة ، وتحويل جانب من قوتها الى جهة السنوسية ، اذ كل ما يتحول من قوة الانكليز نحو الأقوام الاسلامية كان يخف عن الألمان . حتى ان كثيراً من أركان الحرب يذهبون الى أن حلة التركة نفسها لم تكن على أمل كبير بافتتاح الديار المصرية ، وانما كان هدف الألمان منها تحويل جانب كبير من قوة انكلترا لحماية التركة ، التي هي مجرى نفس هذه الدولة . أما سيدي أحمد الشريف ، فلم يكن يعتقد بصواب الهجوم على مصر ، أولاً : لأنه كان يريد حصر قوة العرب في مجاهدة الطليان ، وعدم الاشتغال بغيرهم . ثانياً : انه كان يخشى فيما لو هاجم مصر ، أن يقع الفشل في صفوفه ، لما كان يعلمه من عظمة الاستعدادات

الانكليزية . فاذا فشلت جلته على مصر ، فترت عزائم العرب ، وضعف فآلمهم . ثالثاً : انه كان يهمه بقاء الطريق مفتوحة بين مصر والجبل الأخضر ، خوفاً على العرب من الجوع ، ويعلم انه لوهاجم مصرأ لسد الانكليز طريق مصر ، ووقع العرب في حيص بيص . وكان الجنرال ماكسويل الانكليزي يصانع السيد كثيراً ، ويراسله دائماً ، ويتحفه ببعض الكتب ، ويتزلف اليه بكل الوسائل ، اتقاء غارة من جهة السنوسية على مصر ، كما أن السيد كان يصانع الجنرال ماكسويل ، ويؤمنه من جهة السنوسية ، ويستخدمه في قضاء أغراضه ، وكان يستصنع في مصر ألبسة لتواير الجيش السنوسي ، وغير ذلك من لوازمه ، ولا يجد من جهة الانكليز حرجاً . فكل من الفريقين كان في الواقع يتقي الآخر ، ووقعت في يد السيد أسرى انكليز ، نجوا الى بر طرابلس من بارجة انكسرت عند مالطة ، فقيدوا من ساحل طرابلس الى السيد وهو في السوم ، فألبسهم وأكرمهم وبعضهم هدية الى الجنرال ماكسويل . وكان هذا ينفذ اليه من وقت الى آخر بعض كبارضباطه ، ممن يعرفون سياسة العرب ، ويعرض على السيد محالفة انكلترة ، ويطمعه في مغام كثيرة ، بشرط أن السيد يطرد نوري أخا أنور من السوم ، ويترك الأتراك . فكان السيد يصم أذنه عن هذه الاقتراحات ، ولا يعد الجنرال ماكسويل الا بالمسألة فحسب . ولكن أنور كان يصدر الأمر تلو الامر الى أخيه ، بأن يتحرش بالانكليز ، ويستقذح زناد الحرب بينهم وبين السنوسية ويكتب الى السيد ملحاً عليه بشد عضد نوري ، وأنه لا يقبل له عذراً في التباطؤ . ولما تلكأ السيد عن غزو مصر وقع الخلاف بينه وبين نوري ، وشرع نوري يتحرك بالانكليز ، بدون معرفة السيد ، ويضرب بالقنابر سفائنهم التجارية ، التي كانت تأتي بالبضاعة والأرزاق الى السوم . فاغتاظ السيد من عمله ، وبين له سوء مغبة ذلك ، فلم يأبه لكلامه وبقى على عمله ، بل كتب الى أخيه في الاستانة بأن سيدي أحمد الشريف لا يريد معاداة الانكليز ، بل انه ممالىء لهم سرأ ، وغير ذلك من الأقاويل . ثم أرسل نوري سعاة الى مصر يقولون ان السيد يأبى الزحف الى مصر مدارة للانكليز ، مع انه هو حضر من الاستانة لأجل اعداد حملة على مصر ، وانقاذها من أيدي الانكليز . فصارت تتوارد من مصر الرسل الى السيد ، تعاتبه على موقفه هذا ، وتبين له ما يحتاج المصريين بحقه من الظنون ، بسبب تخلفه عن الزحف . عند ذلك استدعى السيد نوري وقال له : هوذا أنا

حاضر للسير ، فلاتقدر أن تقول ان العائق كان مني ؛ وانما اذا فشلت هذه الحلة فلاأ كون أناالمسؤول . وركب السيد وسار بالجيش ، ومعه نوري قائدأ أول ، وجعفر العسكري قائدأ ثانياً^(١) وكان عدد كل ماجعوه من الجند أربعة آلاف . ولما أحس الانكليز بالحركة أخلوا منطقة السلام ثم بقى ، وانكفأوا الى الورا . ولكنهم بعثوا الى السيد ونوري انكم إن تجاوزتم سيدى برانى الى الشرق ، فليس بيننا وبينكم الاالحرب . فتجاوز العرب سيدى برانى ، ومازالوا حتى خيموا بزاوية أم الرخم غربى مرسى مطروح . وليلة ما كانوا هناك جاء أميرالاي انكليزى يحسن العربية متزيياً بزى بدوى متجسساً فدخل على نوري وأركان حرب ، فلم يعرفوا حقيقة أمره ، ونظر في القوة التى معه ، فرآها ضئيلة ، وفي جوف الليل اتسل من الخيم ، فأخبر قومه بالواقع . فكانت انكلترة جهزت ثلاثين ألف مقاتل ، ومعها عدد كبير من المدافع ، وفيها كثير من كواكب الفرسان ، فصمدت الى القوة التى مع نوري ، فلم تقف هذه لها ، وتراجع المجاهدون الى الورا واحتشد منهم ألفان فى محل يقال له بئر تونس ، فطمع الانكليز فى أسرهم ، وساقوا عليهم ١٣ ألف مقاتل ، فأرادوا أن يحيطوا بهم ، فخابوا ، وثار فى وجههم العرب ودحروهم وألحقوا بهم خسائر جمة . وكان السيد أجد الشريف بنفسه فى هذه المعركة . فلما ارتد الانكليز الى الورا ، رجع بمجاهديه هؤلاء الى السلام . وأما الانكليز فقصدوا الباقي من القوة التى تحت قيادة نوري فهزموها ، وأخذوا جعفر العسكري أسيراً ، وأفلت نوري من أيديهم بأعجوبة . ثم سار السيد الى سيوه ، وتقدم الى الواحات الدواخل على مسيرة سبعة أيام من سيوه نحو الفيوم . فجهز الانكليز قوة عظيمة لقتاله ، فاضطر أن يرجع أدراجه الى سيوه ، فتعقبوه الى سيوه ، فدافع عن نفسه فى سيوه دفاعاً شديداً ، ودحروهم وخرب عدداً من دباباتهم المصفحة والطرايلسيون يسمونها بالكهربات - جمع كهربا ، لكونها تسير بالقوة الكهربائية - وبعد أن ارتد الانكليز الى الورا أجاز السيد من سيوه الى الجغبوب ، وهى مسيرة ثلاثة أيام وتحصن بها . وكان الانكليز بعد أن قطعوا الأمل من سيدى أجد ، شرعوا فى مخاطبة ابن عمه سيدى ادريس ابن سيدى المهدي فى الصلح ، والاعتراف بامارته على برقة ، والجبل الأخضر بشرط أن يطرد نوري ومن معه من الاتراك ، ويشير الى ابن عمه سيدى أجد الشريف بالخروج

(١) هو جعفر باشا العسكري رئيس وزراء بغداد بالأمس ومن أعضاء الوزارة اليوم وهو من أعز أجباء الانكليز

من تلك المنطقة ، وأبلغوه أنه ان بقي سيدى أجد فى الجغبوب فانهم يهاجون الجغبوب ويستولون عليها . فأرسل سيدى ادريس بالخبر الى سيدى أجد ، ففارق الجغبوب مغدّاً السير الى جالو ، وواجهه ، وهى مسيرة ١٢ يوماً من الجغبوب ، فى صحراء يباب تباء ، لاعشب ولاماء ، وصادف رحيلهم جارة قىظ فكادوا يهلكون من العطش ، ولم يتوقف السيد أجد فى جالو وواجهه اتقاء الخلاف مع ابن عمه سيدى ادريس ، وهو أحرص الناس على الوفاق بين السنوسية ، لاسيما بيت الرئاسة ، الذى هو القدوة لجميعهم . فقصده السيد الغرب ، ونزل بسوكنه من برطرابلس ومعه ثلاثة آلاف مقاتل . واعصوب حوله السنوسيون الذين بتلك الديار ، مثل بنى سيف النصر وغيرهم ، أما سيدى ادريس فلما رأى الضيق الذى وقع فيه العرب بين الانكليز من جهة ، والطلليان من جهة أخرى . والمخمصة التى أصابتهم على أثر سد الطارق ، بين الجبل الأخضر ومصر ، جنح الى الصلح ، وعقد مع ايطالية وانكلترة الاتفاق الذى اعترفنا له فيه بامارة برقة والجبل الأخضر ، وتقلد بموجبه ادارة أمورها ، ماعدا مدينتى بنغازى ودرنة ، وتعهدت ايطاليا بدفع الرواتب لجنوده . وهو الاتفاق الذى نقضته ايطاليا ، بعد حكم وزارة الفاشيستي مباشرة ، وجدت من بعده الحرب ولما كان شرط هذا الصلح الأسمى هو اخراج نورى والأتراك من هناك ، خرج هؤلاء من برقة الى الغرب لاحقين بمصرطة . وكان استبدّ بأمر مصرطة رجل أصله من غمار الناس اسمه رمضان شتيوى ، ساد بشجاعته وحزمه ومضائه ، وكان فى خدمة ايطاليا أولاً ، ثم انقلب عليها ، واستخلص من يدها مصرطة وما جاورها ، بعد الواقعة الشهيرة المسماة بالقرضائية ، التى انهزم بها الطليان شر هزيمة سنة ١٩١٥ ، وكان مبدأها بين الطليان والسنوسية . فالطليان استنفروا لمعاونتهم رمضان شتيوى وقومه ، فزحف ببضعة آلاف من رجاله ، فلما وجد السنوسية وهم الف وخسمائة مقاتل قد وقفوا فى وجه ١٢ ألف مقاتل من الطليان ، وأذاقوهم مرّة الكفاح ، هجم هو على الطليان من الوراء ، وهم على غير انتظار ، فلم ينج من ذلك الجيش الايطالى كله سوى خمسمائة شارد فروا الى جهة البحر ، وغنم العرب جميع أثقال ذلك الجيش . واسترجع العرب بعد هذه الواقعة جميع برطرابلس ، سوى مدينة طرابلس المحمية بالبوارج الحربية ، واستمر ذلك من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩٢٣ ، اذ جهزت وزارة الفاشيستي جيشاً جراراً استرجع مصرطه ، ومسلاته ، وترهونه ، وغريان ،

وغيرها . ثم كر العرب عليها وأخذوها ، ثم زحف الطليان ثانية واسترجعوها ، والأحوال بين الفريقين لاتزال مدأً وجزراً . وقد مثل دوراً عظيماً في هذه الوقائع رمضان شتوي هذا الملقب بالسواحلي ، وجاهد في الطليان حق الجهاد ، ولكنه كان صعب المقادة ، أشوس ، مر العداوة ، وكان يناسب السنوسية العدا . فلما قدم عليه نوري مغتاضاً مما فعله سيدي ادريس ، تلقاه برأ وترحيباً ، وعزز به مركزه ، مما كان يرد على نوري من نظارة الحرية بالاستانة من الأموال والاعتاد ، وعلت كلمته بانتسابه الى الدولة ، وقبوله نوري قائداً ووالياً ، وان كانت في الحقيقة الكلمة بقيت لرمضان في الأمر والنهي . وقد وفق الله طرابلس في أمر ، وهو أنه كان الاستاذ عبدالرحمن عزام ، من آل عزام بالجيزة ، ومن شبان مصر الناهضين ^(١) ذوى الحصافة والنجابة ، يجمع حنكة الشيوخ الى حسنة الشبان ، قد التحق بمجاهدي السوم يوم زحفوا لفتح الانكليز ، شهد الوقائع ثم غرب مع نوري الى طرابلس ، ولما دخل نوري مصراته ، كان عبد الرحمن يده اليمنى ، فعرف كيف يأخذ رمضان بالحسنى ، ولين بقدر الامكان من شدته ، وأصلح بينه وبين أهالي تروونه ، وزايطن ، واورفه ، وغيرها ، وشكلوا حكومات متحالفة ، مركزها مصراته ، وعلى رأسها نوري باشا . وكان القائم بأعبائها عبدالرحمن عزام المؤمأ اليه . ثم لما استدعى أنور أخاه نوري الى الاستانة ، وولاه قيادة جيش القافقاس ، استصحب معه الى الاستانة الأستاذ عبد الرحمن عزام ، وقال لي نوري مرة هذه الجملة ، واستدللت منها على عقله وانصافه : « لولا هذا الشاب ، ما كان يمكنني أن أوفق في طرابلس » .

ثم لما أرسلت الدولة الأمير عثمان فؤاد ، ابن الأمير صلاح الدين ، ابن السلطان مراد ، ابن السلطان عبد المجيد خان ، الى طرابلس أميراً وقائداً عاماً عليها ، مكان نوري باشا أرسلت معه عبد الرحمن عزام المصري مستشاراً ومديراً ، فلما انتهت الحرب الكبرى وانعقدت المتاركة ومن جملة شروطها اخلاء الأتراك لطرابلس ، صدرت الارادة السلطانية الى الأمير عثمان فؤاد بترك تلك البلاد . فذهب الى تونس ، وسلم نفسه الى الفرنسيين ، وهؤلاء سلموه الى الطليان الذين أفرجوا عنه . ولكن بقيت الحكومة الوطنية في طرابلس على ما كانت عليه ، وهي حكومة حلقية ، مركزها مصراته ، وعبد الرحمن عزام هو الذي يدير

(١) وهو من أعضاء مجلس النواب المصري في عهد الوزارة الوفدية

أمورها ، ويرتق فتوقها ، ويؤلف بين الجهات المتنافرة ، حتى يتسنى لهم بالاتحاد حفظ استقلالهم . الا أن شرة رمضان السواحلى ، كانت غالبية عليه ، فقصده مرة قتال اورفله ، فعطل أهل اورفله فى وجهه الآبار ، وأنشبهه فى معاطش هلك فيها أكثر رجاله ، وقيد فيها أسيراً . ولما أرادوا احضاره الى عبد النبي بلخير زعيم اورفله ، قال هذا لقومه : « لاتدعوه يصل الى خوفاً من أن يغلبنى الحياء فأستحييه » . ففهموا منه انه يرجع قتله فقتلوه ، وبعد رمضان المذكور جعل الطرابلسيون رئيساً على حكومتهم الوطنية الحلفية أحمد بك المريضى وهو زعيم ترهونه ، وظل رئيساً مقيماً بمعسكر المجاهدين جنوبى البلاد التى استرجعها الطليان .

ثم نعود الى سيدى أحمد الشريف . فنقول انه لما فارق برقة ، تفادياً للخلاف مع ابن عمه الذى صار أميراً على برقة ، غرب الى سوكنه كما سبق فأرسل اليه رمضان السواحلى قوة تقاتله ، عليها ضباط من الترك ممن كانوا مع نورى باشا أخى أنور . فالسيد هزم القوة التى جاءت تقاتله ، وقتل فى تلك الواقعة الضابط المدعوبرتو توفيق . ولكن اشتدت الأزمة بالسيد لانقطاع المدد عنه من كل الجهات ، فالانكليز أصبحوا أعداءه وضبطوا أملاكه ، وزواياه ، فى سيوه والواحات الدواخل ، وذلك لانقياده الى الأتراك ومسيره مع نورى لمهاجرة مصر . والأتراك تركوه أيضاً ، لانحياز نورى باشا الى رمضان السواحلى فى مصراته ، واعتصامه به ، وهذا كان عدواً للسوسية . فوصل الأمر بالسيد وعساكره التى كانت نحو ثلاثة آلاف ، أن أخذوا يقتاتون الحشائش ، وأن مات منهم خلق كثير جوعاً ، وهو صابر على هذه البلية صبر الكرام ، والازمة تزداد به وبأجناده يوماً فيوماً ، وهو لا يقدر أن يعود الى الجغبوب ، خوفاً من الخصام مع ابن عمه ، واتقاء التحرش بالانكليز . ولا يقدر أن يدخل مصراته والبلاد التى حوّلها ، لكون رمضان السواحلى وغيره من أعداء السوسية له بالمرصاد . قال الى السيد من فقه : « بلغ فى الضيق من هذه الحالة ، وأنا أرى رجالى امام عيني تموت جوعاً ، أن وصلت الى درجة اليأس ، وقررت فى نفسى الصلح مع الانكليز مستخيراً الله ، وفى تلك الليلة رأيت فيما يرى النائم ، استاذى سيدى أحمد الرينى يقول لى : قد عرف الاخوان مرادك ، فلم يرضوا لك بما عزمتم عليه ، فارجع الى ما كنت عليه واستأنف العمل ، فلما استيقظت من النوم أقبلت عن تلك الفكرة وحررت الى

أنور كتاباً ، بعثت به ضمن كتاب الى نوري قائلاً له : احذر أن تؤخر ارسال كتابي الى أخيك . فأرسل بالكتاب الى الاستانة ، وجاءني من انور الجواب » .

وكان السيد قبل ذلك ، بعث الى " ، انا محرر هذه السطور ، بكتاب يشكولى به من معاملة نوري ، أيام كانا في السolum ، ويبدى لى شيئاً من التعتب على انور ، ولكن لم تقع له فرصة لارساله ، وبقي محتفظاً بذلك الكتاب الى أن جاء الى الاستانة العلية ، وانهت الحرب ، وشرعت أرساله من اوربا الى مكانه . يروسه ، فأرسل الى " بذلك الكتاب بعينه ، بعد فوات وقته ، كأنه يريد أن يطلعنى على تلك الماخرات الماضية ، ولولا كون هذا الرقيم فى أوراقى التى تركتها فى أوربا ، لكنت أكلت هذه القصة بنشره . ومن الغريب ، اننى مع كون هذا الكتاب من السيد لم يصلنى يومئذ ، فقدقت تجاه السيد بما لم أكن لا عمل زيادة عليه فيما لو وصلنى كتابه اذكنت بدأت انهم من معية أنور رائحة الوحشة من سيدى احمد الشريف ، وأسمع بعض رجال الدائرة المسماة بدائرة « التشكيلات » التابعة للحربية يلغزون السيد ، ويعزون اليه امورا ، كنت على يقين انها بهتان محض . مثل كونه يريد الخلافة لنفسه ، ومثل أنه غير مخلص للدولة وما أشبه ذلك . وكان أنور دعانى مرة للافطار معه فى رمضان فقلت له : « ان بعض بطاتك بدأوا يغمزون السيد احمد الشريف ويشيعون عنه أراجيف يصعب تصديقها ، وهذا الأمر يمس جانبك أنت ، ولا ينحصر فى السنوسية ، لأن أكثر مظهرك كان بهؤلاء الجماعة . فان ظهر بعد ذلك انهم خائنون ، لا سمح الله ، فسكون أنت الملووم ، ويستدل الناس بذلك على كونك فائل الرأى . وان كان عندك شئ راهن بحقهم ، فصرح لى به لنعلم درجة الخبر من الصحة » . قال لى أنور رحمه الله : « حاشا ، ما يقدر أحد أن يتهم سيدى أحمد الشريف بالخيانة ولكن الانكليز كانوا يخذعونهم أحيانا » . قلت له : « ان سيدى أحمد الشريف لم ينخدع للانكليز ، وانما كان يصانهم كما يصانعون ، وما تلكا عن محاربتهم الا خشية الفشل ، إذ كان يعلم أن القوة التى لديه غير كافية للدخول الى مصر ، أفلا ترى كيف أن الانكليز بمجرد زحف الأربعة الآلاف مجاهد الى مرسى مطروح ، رموهم بثلاثين ألف مقاتل ، وبالمدافع ، والطيارات ، والدبابات ، ولولا لطف الله بهم لوقعوا جميعاً أسرى وأخوك من الجملة ... » قال لى انور : « أنا أعطيتهم أوامر بأن يتجنبوا المعارك الفاصلة » . فقلت له : « ياسبحان الله ! انت

عسكري صنعتك الحرب وأدرى منى بهذه الامور ، أفأذا هاجم الانسان من هو أقوى منه مراراً ، أفبقى له الاختيار في الكرّ والفرّ ؟ . » وانتهت هذه المحاوره باقتناع أنور ، وتركه مؤاخذه السيد . ثم أخذت منه الاذن لسيدى عبد العزيز العيساوى ، الذى كان معتمداً للسادة السنوسية في استانبول ، وهو من الفضلاء الاجلاء ، أن يواجهه في نظارة الحرية ، بعد أن بقى محجوباً عنه عدة أشهر ، ثم أن يعود الى وطنه بالغواصة . فأذن له وأعادته معززاً مكرمأ ، وكتبت معه كتاباً الى السيد . وما مضت مدة حتى جاء مكتوب السيد الى أنور ، حسباً تقدم . فأنفذ أنور يوسف بك شتوان بالغواصة ، فتلاقى مع السيد وتقرر بحجى السيد الى الاستانة بالغواصة ، فركب من مرسى العقيلة من ساحل سرت ، قاصداً بحر الادرياتيک .

قال لى السيد : « قبل ركوبى الغواصة ، تحدثت مع الضباط الألمان الذين فيها ، وسألتهن عن خطر ركوبها فقالوا لى : لا يخلو الأمر من الخطر ، ولكننى ما باليت بذلك لأننى كنت رأيت أستاذى سيدى احمد الريفى فى المنام فقال لى : الشئ الفلانى ستأخذه من « بولا » فى اليوم التالى سألت الضباط هل يوجد محل اسمه بولا ؟ فقالوا لى : « نعم ان المرسى الذى سننزل فيه من بلاد النمسا اسمه « بولا » فاعتقدت أننا بالغوا هذا المكان ، بحول الله وقوته » قال لى : « وقد عرضت لنا اهللكة ثلاث مرات ، ونحن فى البحر : أول مرة صادفنا بوارج للعدو ففصنا تحت الماء ، ورأيت مراكب العدو بعينى ، بواسطة مرآة يرى الانسان بها من تحت البحر ما هو فوق البحر ، وما زلنا متوارين عنهم حتى مضوا . ومرة ثانية أصاب الآلة المحركة تعطيل ، فكنت أرى ضباط الغواصة يبحيئون ويذهبون ، وهم فى حيرة عظيمة ، فلم يخبرونى بالحقيقة الا بعد أن أصلحوا الآلة . ومرة ثالثة نام قيم الآلة ، فصادمت الغواصة صخراً وكادت تغرق ، ولكن كنا على مقربة من « بولا » وقد فصل سيدى أحمد الشريف من مرسى العقيلة بساحل سرت فى ٧ ذى القعدة . سنة ١٣٣٦ ، ووصل الى « بولا » من ساحل النمسا فى بحر الادرياتيک بعد أسبوع من ركوبه وسافر من « بولا » الى فينا ومعه حاشيته ، ويوسف بك شتوان . ولما حصل فى فينا أرسل الامبراطور يبنى مشاهدة السيد ، فاجاب شتوان معتذرا عن امكان هذه الملاقاة قبل أن يذهب السيد الى الاستانة ويقابل السلطان . ولكن هذا

الجواب وقع بدون اطلاع السيد ، ولما اطلع عليه فيما بعد لم يستحسنه اذ رأى أنه كان يليق بمقابلة الامبراطور في عاصمته لاسيما أنه طلب ذلك . ثم سافروا الى الاستانة ، فاستقبل في محطة « سرکه جى » بمزيد الاجلال والاكرام ، وكان أنور باشا في المحطة بنفسه . وأقبل علماء الترك عليه ، وهنأوه بالقدوم ، وتبركوا بمعرفته . وأنزله الدولة بسرأى « طوب قبو » مقر السلاطين القديم . وصادف وقتئذ الاحتفال بتقليد السلطان محمد السادس السيف ، في مسجد أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، الذى يقول له الأتراك : « سلطان أيوب » . وكانت العادة أن الذى يقلد السلطان السيف عند جلوسه ، هو الشلبي شيخ الطريقة المولوية . وسلالة مولانا جلال الدين الرومى ، قدس الله سره . فاختار السلطان السابق محمد السادس ، الاستاذ السنوسى لتقليده سيف السلطنة في ذلك المحفل المشهود ، وأنعم عليه برتبة الوزارة السامية ، وبالنشان المرصع ، واحتفى به كثيراً ، هو وولى العهد الأمير عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز خان ، الذى تولى الخلافة بدون سلطنة بعد انتصار الأتراك على اليونان ، وخروج محمد السادس من دار السعادة . ثم خلعت الجمهورية التركية أخيراً وأقصته هو وجميع آل عثمان عن المملكة ، والسلطنة وأسقطتهم من التبعية التركية .

وكانت الحرب أوشكت أن تنتهى ، وأيقن الأتراك أن الدائرة ستدور عليهم وعلى الألمان فتكلم أنور مع السيد السنوسى ، فى لزوم رجوعه بالسرعة الى طرابلس ، وقال له كلاماً يدل على كونه آماله فى مسامحة افريقية صارت أكثر منها فى سائر العالم الاسلامى . وصرح له أن السلطان نفسه ، يريد أن تعود الى بلدك لتقوى بك عزائم المجاهدين ، ونحن حاضرون أن نقويك بالمال والعتاد والسلاح . وقرر أنور اعطاء السيد (١٢) ألف بندقية مع عدتها ، و (١٠) مدافع و (٣٠) رشاشاً و (٢٠٠) ألف جنيه . فساله السيد قائلاً « بلغنى من بعض الضباط الطرابلسيين الذين فى خدمة الدولة ، انكم تبغوننى أقاتل ابن عمى سيمى ادريس ، لكونه اتفق مع الانكليز والطلين » . فقال له أنور : « معاذ الله أن نبغى منك ذلك ، لأننا نعلم أنه لم يبق للإسلام فى افريقية حصن أحسن من هذا البيت السنوسى الكريم ، وانه ان وقع لا سمح الله الشقاق فى هذا البيت فسد الأمر واضمحلت القوة السنوسية التى عليها معول الاسلام فى افريقية . فكن على ثقة باننا نبغى اتحادكم قبل كل شئ ، نصحاً بالاسلام وضماً باستقلاله ، وان معاونتنا لكم

انما هي محض حجة على الاسلام ، لأن تركيا من جهتها لم يبق لها أدنى أمل باسترداد طرابلس ، ولستنا لا نحب أن نرى اخواننا مسلمي افريقية تبعة للجانب . وكان أنور كما هو مشهور عنه ، متمسكا بوحدة الاسلام ، يغار عليه في أى بقعة كانت ، ولا يفرق بين عربى وتركى وهندى الخ ، وطالما اختلف مع زملائه من أجل هذه السياسة .

وبعد أن أجمع السيد الاوبة الى طرابلس ، جاء من قال له ان الغواصة ستترك في ساحل مصرطة ، وهي نيب رمضان السواحل اليوم ، فلا يجوز أن تأمن جانبه ، فأخذ السيد يفكر في كيفية النزول الى البر بحيث يطمأ ساحتا لا يكون فيه عليه يد لا من الطليان ولا من رمضان شتيوى ، واذ ذاك صارت تتتابع الحوادث بسرعة البرق ، فتغيرت الوزارة ، وسقط أنور ، وندم السيد على تأخره عن السفر ، وحاول الانسلال من الاستانة الى النمسا ، حتى يركب منها الغواصة قافلا الى وطنه فلما أحس محمد السادس وحيد الدين بذلك ، أخذ يداوره عن عزيمته هذه ، ويقول له : « يعز علينا أن تفارقنا في هذه الآونة الحرجة » . والسيد يظن أنه أثناء عقد الهدنة مع تركيا شدد الحلفاء على السلطان في ملاوصة السيد عن الابحار الى طرابلس ، حتى اذا دخلوا الاستانة كان السيد في قبضة يدهم ، أما أنور فكان السيد يختلف اليه بعد سقوطه فكان يداور السيد في السفر معه الى أوروبا ويقول له : « لا يجوز أصلا بقاءك في الاستانة والحلفاء على وشك دخولها » . وأما الصدر الأعظم ، المشير اجد عزت باشا ، فلما كان السفر بالغواصة ممسأ من بحر الادرياتيک ، أشار على السيد بالسفر خفية واللاحاق ببلاده ، وبأن لا يبالي بكلام السلطان . فلما انعقدت المئاركة ، وصار السفر بالغواصة متعذرا اشار على السيد في الذهاب الى بروسة ، وكان هذا رأى وحيد الدين ايضا . فتحول السيد من الاستانة الى بروسة ، وقامت الحكومة العثمانية بكل ما يلزم له . وكان السلطان يديم السؤال عنه وكلما تعين وال لبروسه يتلقى الامر بالذهاب الى السيد قبل كل شئ ، والوقوف عند خاطره ، والمبادرة الى مرضيه . فالسيد السنوسى من أول يوم قدم فيه الى تركيا ، الى هذه الساعة ، لقي من بر الاتراك وحفاوتهم واجلالهم ، سواء من حكومة الاستانة مع تقلب وزراتها ، أو من حكومة انقره في مختلف صفحاتها ، ما لم يطرأ عليه أدنى تغيير ، ولا اوجب التبرم في قليل ولا كثير . حتى كأن جميع الايام التى قضاها بين اظهرهم يوم واحد . فكانت الامة التركية اينما حل وكيف

ارتحل ، تهرع اليه على اختلاف الطبقات ، بدون تكلف ولا تصنع ، ولا انتظار أوامر حكومة ، بل بشعور عام أوجده فيها اتحاد الكلمة على نزاهة هذا الرجل ، وتجرده عن المآرب الشخصية ، وعزوفه عن حظوظ الدنيا وانصراف همه كله الى الذب عن بيضة الاسلام بدون غرض سوى مرضاة الله ورسوله ، وحفظ استقلال المسلمين . فكان كثير من الترك ، والكرد ، والجرکس ، والارناؤوط ، يقصدون زيارته لمجرد التبرک بتقبيل يده ، والاقتداء بهديه وتلقى وارداته الروحية ونفحاته القدسية ، وكثير منهم اخذوا عنه الطريقة السنوسية . وكانت مدة مقامة بروسه ما يقرب من سنتين تأسست خلالها الحكومة الانقروية ، فارسل اليه رئيسها مصطفى كمال باشا يدعوه الى الانحياس الى انقرة ، شداً لعضد الاسلام ، وترجيحاً لكفة الجهاد على كفة القعود . وكانت القوى المليية التي مركزها انقرة ، هي في الحقيقة آخر ما بقي من قوة الدولة الفعلية ، فاعمل السيد الروية في هذا الامر ، فرأى ان حكومة الاستانة ، لا سيما في ايام الداماد فريد ، اصبحت كالحلس الملقى ، لا تملك ضرا ولا نفعا ، ولا تقدر أن تذود عن حق مسلم ، فضلاً عن كون بقائه في بروسه مع دنو اليونان منها ، يعرض شخصه للوقوع في ايدى الحلفاء . فأزمع السيد التحول الى الاناضول ، واول بلدة نزل بها اسكى شهر ، حيث وافاه مصطفى كمال باشا ومعه رهطه باجمعهم ، وتلقوه برأ وتكريما ، واحتفلوا بمقدمه احتفالا عظيما . ثم ان بعض الترك ، ممن لا حاجة الى بيان اسمائهم ، استطلعوا رأيه في أمر الخلافة ، وارادوه عليها ، وأبدوا واعادوا في اقناعه بها ، فاعتذر عن ذلك وأفهمهم ان لا سبيل الى قبوله هذا الأمر ، لاسباب عديدة . فتركوا مراجعته في هذا المشروع ، وخبروه في الإقامة بأى بلد يريد فاختار قونية ، وأقام بها عدة أشهر . وأثناء إقامته بقونية ثارت تلك الثورة على الحكومة الانقروية ، لأسباب ليس هنا موضعها ، فبذل السيد كلمته في اجاد الثورة ، ونصح الأهالى بطاعة الحكومة المليية ، وصعد المنبر يوم الجمعة ، فحث الناس على اجتناب الفتنة ، وبصرهم عواقب الشقاق بينما العدو أخذ منهم بالخنق ، وبين لهم كيف أن أنقرة هي ثمال الاسلام ، وثمالة ما بقي في حوضه في هذه الأيام ، فلا يجوز لهم والحالة هذه الخروج عليها ، وتوهين قوتها ، حتى لقد عاتبه كثيرون من أهل قونية في تشييعه لأنقرة ، وغضب آخرون . ولولا احترامهم لمقامه العظيم ، ونسبه الكريم ، لمسه السوء يوم سالت الدماء في أسواق قونية ،

وما زال في الوعظ والارشاد ، حتى وصلت العساكر المليية فبددت شمل الثأرين وقبضت على مئات منهم وحاصرتهم في ديوان حرب ، وصلبت كثيراً منهم ، وكادت تبطش بالشلي شيخ المولوية وسلالة مولانا جلال الدين الرومي البكري الصديقي قدس الله سره . فكان السيد واسطة خير وشفيعاً له ولغيره . فأقنذ كثيرين ولطف مصائب كثيرة ، بحسن شهادته ولطف مواعظه ، في هذه الفتنة التي كسائر الفتن لا تصيب الذين ظلموا خاصة . ثم انتدبت الحكومة المليية للذهاب الى بلاد الاكراد ، لاجاد بعض الفتن ، واعمال نفوذه الديني في نصيحة العشائر التي كانت غير راكنة . فذهب السيد الى ديار بكر ، وأقام بها وبماردين وباورفا ، مدة وفدت فيها عليه زعماء القبائل العربية والكردية الضاربة في هاتيك الديار ، وراودوه على الإقامة بينهم ، وأظهروا له من الطاعة لأمره والانقياد لسكنته ما هو فوق الوصف ، ولكنه أبدى لهم استحالة ذلك عليه وكونه مقيداً ببلاده ، لا بد له من الرجوع الى الغرب ، وانما نصح لهم في الاتفاق مع الحكومة المليية ومظاهرتها توحيداً لكلمة الاسلام واتقاء الفتنة ، التي انما يستفيد منها العدو أثناء حرب لافح لا يدري ما تلد . وكان يشدد عزائم الناس ، ويحثهم على الجهاد . واحدى المرار بينما هو في ماردين ، قال : « ان هجوم الأعداء سيبدأ بهذين اليومين وسيكون نصيبهم الخذلان » فلم يمض يومان حتى ورد عليه برقية من الغازي مصطفى كمال باشا قائلاً : « ان العدو بدأ بالهجوم نساءك الدعاء . فكان ذلك مدعاة لهشة الضباط الأتراك ، الذين سمعوا من السيد أن العدو سيهاجم بهذين اليومين وقيدوا ذلك بالورق يوم قاله لهم ، فكان الأمر طبق ما قال . وكان الغازي في برقيته طلب أيضاً من السيد قراءة البخاري الشريف تبركا واستنزالا للنصر على جيوش الاسلام ، فذهب الى المسجد الجامع بماردين ، وشرع بالقراءة ، وداوموا عليها الى أن وردت البشائر بكون العدو ارتد خاسراً من وقعة سقاريا . ثم أقام السيد بطرسوس فراراً من برد الأناضول . وفي أثناءها تم الظفر الأخير بالعدو ، وأخرج من كل أقسام تركيا ، وجاء مصطفى كمال باشا الى ولاية أطنه ، وزار السيد في منزله بطرسوس ، فبالغ السيد في الاحتفال به ، وقدم بعض هدايا نفيسة للسيدة الخاتون حليته . وبعد ذلك ذهب الى أنقره لهنئة الحكومة بظفرها الأخير ، واستتباب الأمر وعقد الصلح ، وكانت زيارات السيد لأنقره ثلاث مرات : أولاها يوم توجه الى بلاد الأكراد بطلب من الحكومة

الملية . والثانية أثناء الحرب بعد هزيمة العدو في سقاريا . والثالثة بعد نهاية الحرب وعقد الصلح . وفي هذه المرة الأخيرة كان معه عجمي باشا السعدون ، أمير المنتفق الذي لم يفارق جيش الدولة وترك وطنه العراق حباً بها ، ومداومة على مبدئه . وقد كان السيد في جميع زياراته لأنقره يلقي من الغازي ومن هيئة الحكومة جميع ما هو أهله من الاجلال والاكرام . وآخر مقامه كان بمرسين ، التي آثرها على طرسوس ، فنزل بقرية « خريستان كوي » التي كان يسكنها الأروام قبل الهجرة ، وهي على مسافة نصف ساعة وكان كولونل ايطالى قد وافى أنقره آخر مرة من زياراته لها ، واستأذن السيد في ملاقاته ، فأذن له ، فتكلم مع السيد في حقن الدماء في طرابلس ، والاتفاق على أساس للصلح . فاجابه السيد بأنه لا يكره الصلح ، على شرط استقلال وطنه الحقيقي وبعد الاخذ والرد ، أحال السيد أخذ خلاصة الاقتراحات الايطالية الى الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويز . وكان السيد قبل أن رضى بالاخذ والرد مع هذا الكولونل سأل : « أعندك تفويض من حكومتك بالدخول معي في حديث الصلح ؟ » فقال له الكولونل : « كلا . وإنما يمكنني الحصول على التفويض من اليوم الى شهر » . فقال له السيد : اذا ، بعد الحصول على الاذن من حكومتك ، تفويض بما تريد بيانه الى الاستاذ الشيخ جاويز . وأوعز السيد الى الشيخ جاويز بان يعيد عليه الجواب . فبعد مدة جاءه الشيخ بخلاصة الشروط . فوجدها السيد غير موافقة وقال للشيخ جاويز : « قل لهم لا نقبل أن تكون القوة العسكرية في أيديهم ، ولا أن تكون الشرطة منهم ، وكل ما نتسامح معهم فيه هو الامتيازات الاقتصادية ، واستثمار البلاد حقاً لهم دون غيرهم من الاجانب . فاما حقوق الملكية فلا نزل عن شيء منها ، وسلاحنا لا بد أن يبقى في أيدينا ، وعلى غير هذه الشروط فلا سلام ولا كلام ، لأن طرابلس وبرقة ليستا ملكي لأجود به على الطليان ، بل هما ملك أهلها » . فلما عاد الشيخ الى الطليان بالجواب علموا أن لا سبيل الى الصلح ، فاذاعوا في الجرائد أن خبر مفاوضاتهم للسيد السنوسي بالصلح غير صحيحة . والحال أنه قبل هذه الاذاعة بقليل ، كان ورد الى السيد اخبر من الشيخ جاويز بان الكولونل الايطالى قادم الى مرسين لمواجهته ، كما أن هذا الكولونل لما واجه السيد وشافهه بأمر الصلح في أنقره ،

أخبر السيد الغازي مصطفى كمال بما جرى فأشار عليه بالصلح ان طاب له ووافقته شروطه .
عند ما قدمت الى الاستانة في أواخر سنة ١٩٢٣ ، وهي أول مرة دخلتها بعد الحرب
قررت لأجل الاستجمام من عناء الاشغال وترويح النفس بعد طول النضال ان أسكن ببلد
صغير تنهياً لى فيه العزلة وتسهل الرياضة ، ويكون دانياً من وطنى سورية لملاحظة شغلى
الخاص ، وتعهد أملاكى فيها ، فاخترت مرسين ، والقيت مرساة غربتى فيها . وكان السيد
السوسى بلغه قدومى الى دار السعادة ، فكتب لى يرغب الى فى سرعة المجئ ويرحب بى .
فلما جئت الى مرسين ذهبت توراً لزيارته ؟ فأبى الا أن انزل عنده ، ريثما اكون استأجرت
منزلاً فى البلدة ، وقد رأيت فى هذا السيد السند بالعيان ، ما كنت اتخيله عنه بالسمع وحق لى .
والله أن أنشد :

كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيّب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت اذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

رأيت فى السيد جبرا جليلا ، وسيدا غطريفا ، وأستاذا كبيرا ، من أنبل من
وقع نظرى عليهم مدة حياتى ، جلالة قدر ، وسراوة حال ورجاحة عقل ، وسجاجة خلق ،
وكرم مهزة وسرعة فهم ، وسداد رأى ، وقوة حافظه ، مع الوقار الذى لا تغض من جانبه
الوداعة ، والورع الشديد فى غير رثاء ولا سمعة . سمعت أنه لا يرقد فى الليل أكثر من
ثلاث ساعات ، ويقضى سائر ليله فى العبادة والتلاوة ، والتهجد ، ورأيت مراراً تنفج بين
يديه السفر الفاخرة اللاتقة بالملوك فى كل الضيوف والحاشية ويجتزئ هو بطعام واحد
لا يصيب منه الا قليلا ، وهكذا هى عادته . وله مجلس كل يوم بين صلاتى الظهر والعصر
لتناول الشاى الأخضر الذى يؤثره المغاربة . فىأمر بحضور من هناك من الأضياف ورجال
المعية ، ويتناول كل منهم ثلاثة اقداح شاى مزوجاً بالعنبر . فأما هو فيتجأى شرب الشاى
لعدم ملائمته لصحته . وقد يتناول قدحا من النعناع . ومن عادته أنه يوقد فى مجالسه غالبا
الطيب ، وينبسط السيد الى الحديث ، وأكثر احاديثه فى قصص رجال الله وأحوالهم ورقائقهم
وسير سلفه السيد محمد بن على بن السوسى ، والسيد المهدي ، وغيرهما من الاولياء والصالحين
واذا تكلم فى العلوم قال قولاً سديداً ، سواء فى علم الظاهر أو علم الباطن . وهو يذهب الى
تعظيم الاولياء ، ويرى فيهم الوسائل بين الله والعبد . وينكر على القائلين أن لا وسيلة

بين الخالق والمخلوق ، بل يقول ان الانبياء ، صلوات الله عليهم ، ان هم الا وسائل الى الله . ويقول اذا وقع خلاف في مسألة بين علماء الشرع ، و بقيت غامضة ، فالقول فيها ما يقوله علماء الباطن أهل التصوف . وهو شديد الاعتقاد والافتداء باثنين : الاول عمه سيدي محمد المهدي الذي لا يرى فوق طبقته احداً الا سيد الكائنات ، عليه السلام . والثاني استاذه ومرشده سيدي احمد الريفي ، من أكار السادة السنوسية ، وأركان هذه الطريقة ، ويقول انه كان علامة بحراً في جميع العلوم . قرأ في فاس وأتقن العلوم بأسرها حتى الفلك والاسطرلاب ، والهندسة ، والرياضيات . وهو يعتمد على كلامه له ، ومن جلة ذلك أنه قبل وفاته ، رحمه الله ، بأيام قال له : أماكم جهاد طويل عريض ، فينبغي لك أن تجاهد ولا تقعد ، وان الجهاد ينتهي بنصركم . وانما لا تجعل لنفسك مركزاً معيناً تلازمه ، ولا تكن مهاجماً للنقاط المحكمة بل قف دائماً على قدم الدفاع . وإياك والصلح » فسأله السيد « اين يكون هذا الجهاد ؟ » وكان ظن انه يعني حرباً تقع بين السنوسية والفرنسيس في جهة واداي ، لانه كان القتال مستمراً بين الفريقين على عين كلك . فأجابه سيدي احمد الريفي : « كلا ! هذا جهاد ضد عدو يأتيكم من جهة البحر ، وهو الطليان » . قال له : « وستأتيكم النجدة من استانبول . » فما مضى على وصاة سيدي الريفي شهران ، حتى نشبت حرب طرابلس وتحقق كل ذلك . فالسيد متمسك بكلام استاذه لا يحيد عنه . وقد لحظت منه صبراً قل أن يوجد في غيره من الرجال وعزماً شديداً تلوح سماؤه على وجهه ، فيينا هو في تقواه من الابدال : اذا هو في شجاعته من الأبطال . وقد بلغني أنه كان في حرب طرابلس يشهد كثيراً من الوقائع بنفسه ، ويمتطي جواده بضع عشرة ساعة على التوالي بدون كلال ، وكثيراً ما كان يغامر بنفسه ولا يقتدى بالأمرء وقواد الجيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب مسافة كافية ، أن لا تصل اليهم يد العدو فيما لو وقعت هزيمة . وفي احدى المراتر أوشك أن يقع في أيدي الطليان ، وشاع أنهم أخذوه اسيراً . وقد سألته عن تلك الواقعة فحكى لي خبرها بتفاصيله ، وهو أنه كان يبرقة فبلغ الطليان بواسطة الجواسيس أن السيد في قلعة من المجاهدين ، وغير بعيد عن جيش الطليان ، فسرحوا اليه قوة عدة آلاف ومعها كهرابة^(١) خاصة لركو به . اذ كان اعتقادهم أنه لا يفلت من أيديهم تلك المرة . فبلغه خبر زحفهم ،

وكان يمكنه أن يخيم عن اللقاء أو أن يتحرف بنفسه الى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر، أو يترك الحرب للعرب تصادمهم فلم يفعل . وقال لى « خفت اننى ان طلبت النجاة بنفسى ، أصاب المجاهدين الوهل ، فدارت عليهم الدائرة ، فثبت للطلبيان وهم بضعة آلاف بثلمائة مقاتل لا غير ، واستمات العرب ، وصدمو العدو ، فلما رأى هؤلاء وفرة من وقع من القتلى والجرحى ، ارتدوا على اعقابهم ، وخلصنا نحن الى جهة واقتنا فيها جوع المجاهدين . » قال لى : « وفى هذه الواقعة جرح الضابط نجيب الحوراني ، الذى كان من أشجع أبطال الحزب الطرابلسية ، كان قائداً ولكنه كان يغامس بنفسه فى كل واقعة ، فخرج مرتين واستشهد فى الثالثة رحمه الله . ولم يحزن السيد على أحد حزنه عليه ، لباهر شجاعته وشديد اخلاصه . وكان السيد يكتب لى من الجبل الأخضر وافر الثناء عليه ، وهو اليوم دائم الترحيم عليه . والشهيد المذكور هو نجيب بك بن الشيخ سعد العلى ، من مشايخ بلاد عجلون ، ترك فى بلاد الغرب ذكراً خالداً .

والسيد أحمد الشريف سريع الخاطر ، سيال القلم ، لا يمل الكتابة أصلاً . وله عدة كتب منها كتاب كبير أطلعنى عليه فى تاريخ السادة السنوسية ، وأخبار الاعيان من مرديهم والمتصلين بهم ، ينوى طبعه ونشره فيكون أحسن كتاب لمعرفة أخبار السنوسيين وانما يفهم الانسان من مطالعة أخبار سيدى محمد السنوسى ، وولده سيدى المهدي ، ومحاذنة سيدى أحمد الشريف ، ان طريقتهم طريقة عملية ، تعمل بالكتاب والسنة ، ولا تكتفى بالاذكار والاوراد ، دون القيام بعزائم الاسلام ، كما كان عليه الصدر الأول . ولذلك وفقوا للجهاد ووقفوا فى وجه دولة عظيمة كدولة ايطالية ، منذ ثلاث عشرة سنة ، لولاهم كانت سيدة طرابلس وبرقة منذ أول شهر من غازاتها عليهما . ويذكر الناس ان الطليان قدروا لتدويع طرابلس وبرقة كليهما مدة خمسة عشر يوماً ، من أول نزولهم . وان قواداً من الانكليز المحسكين فى حروب المستعمرات والبوادي ، قالوا ان الطليان افرطوا فى التفاؤل بظنهم الاستيلاء على بر طرابلس فى ١٥ يوماً ، والحقيقة انه قد تأخذ هذه المسئلة معهم ثلاثة أشهر ... فلينظر الانسان كيف ان المدة التى قدرها أركان الحرب فى ايطالية ١٥ يوماً وقدرها أركان الحرب فى انكلترا ثلاثة أشهر ، تطاولت ثلاث عشرة سنة كاملة ، والحرب اليوم هى كما كانت فى بدايتها . وكل هذا بفضل السادة السنوسية ، ولا سيما هذا السيد

العظيم سيدى أحمد الشريف . وكان الاوربيون فى عهد السلطان عبد الحيد يشكون الى السلطان حركة السنوسى ، ويتوجسون خيفة من تشكيلاته وحركاته ويرون فيه أعظم خصم للدعوة الاوربية فى افريقية ، وطالما ضغطت دول أوربا على السلطان لاجل أن يستدعى سيدى المهدي الى الاستانة ، ويأمره بالاقامة بها ، ولا يأذن له بالعودة الى وطنه ، ليخلو للأوربيين الجو فى تقسيم أواسط افريقية ، وخضد الشوكة الاسلامية فى تلك الديار . فكان السلطان يماطل هاتيك الدول ، ويعتذر لهم بصنوف الاعذار ، بل كان يلاطف السنوسى كثيراً بالهدايا والكتابات ، الى ان اشتد الضغط على السلطان فى قضية السنوسى ، فارسل رجلا اسمه عصمت بك الى بنغازى ، ومنها الى جغبوب ، بمأمونية سرية ، فبلغ المهدي ما هو عليه السلطان من الارتباك من جهة ضغط الدول عليه فى أمر الدعاية السنوسية ، فاجابه السيد المهدي بحسب ما قرأت فى التاريخ الذى تقدم ذكره ، بكلام لا يتضمن نفيا ولا ايجابا ، وانما تلا له آيات كريمة فى معنى الاتكال على الله ولكن السيد المهدي لم يعتم بعدها ان فارق جغبوب الى واحة الكفرة ، وبنى فيها زاوية التاج ، وعمر الكفرة عمارة جعلتها جنة فى وسط الصحراء . والأغلب ان سبب تحوله من واحة الجغبوب ، القريبة من مصر وبرقة ، الى واحة الكفرة ، التى هى فى أواسط الصحراء الكبرى ، ثم توغله من الكفرة الى ناحية قرو التى اختاره الله فيها ، وهى على أبواب السودان هما من ارتياحه الى العزلة ، وميله الى التناى عن مرا كز السلطة الرسمية ، والخروج من مناطق تأثير الدول الاستعمارية ، بحيث انتبد مرا كز محاطة بالفيافي والفقر ، مأهولة باقوام لا يزالون على الفطرة ، فاصبح حراً فى بث دعوته لا تصل اليه يد بضغط ، ولا تعلو فوق كلمته كلمة ، وعكف على تهذيب تلك الأقوام ، ونشأهم فى طاعة الله بعد ان كانوا يتسعون فى مهامه الجهل فبدات به الأرض غير الأَرْض ، وانقلبت به أخلاق هاتيك الأمم انقلاباً حير العقول ، ولم يقف فى الدعاية الروحية على واحات الصحراء ، واطراف السوادين ، بل بث دعائه فى أواسط افريقية فكان منهم مثل الشيخ محمد بن عبد الله السنى ، والشيخ حودة المقعاوى ، والسيد طاهر الدغمارى . ورجالات آخرون جابوا السوادين مبشرين وهادين ، فكان السيد المهدي هو الزاحم الاكبر لجمعية المبشرين الاوربية ، المنبثة فى قارة افريقية كلها ، وعلى يده وبسبب دعائه الحثيثة اهتدى للإسلام ملايين من الزوج ، فلهذا جميعات المبشرين بأسرها

تشكو حزنها ، وبثها من نجاح الاسلام في أواسط افريقية ، مثل بلاد النيجر ، والكونغو والكامرون ، وديار بحيرة تشاد ، وتوجه أكثر شكواها الى الطريقة السنوسية ، كما طالعنا ذلك في مؤلفات أوربية عديدة : هذا من جهة القوة الروحية وأما من جهة القوة المادية ، فقد كان السيد المهدي يهدي هدى الصحابة والتابعين ، لا يقتنع بالعبادة دون العمل ، ويعلم ان أحكام القرآن محتاجة الى السلطان ، فكان يحث اخوانه ومريديه دائماً على الفراسة ، والرياسة ، ويث فيهم روح الأنفة والنشاط ، ويحملهم على الطراد والجلاد ، ويعظم في أعينهم فضيلة الجهاد ، وقد أثمر غراس وعظه في مواقع كثيرة ، لا سيما في الحرب الطرابلسية التي أثبت بها السنوسية أن لديهم قوة مادية تضارع قوة الدول الكبرى وتضارع أعظمها جبروتا وكبراً ، وليست الحرب الطرابلسية وحدها هي التي كانت مظهر بطش السنوسيين بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيين في مملكة كانم ومملكة واداي من السودان استمرت من سنة ١٣١٩ الى سنة ١٣٣٢ هجرية ، وحدثنى السيد أحمد الشريف ان عمه المهدي كان عنده خمسون بندقية خاصة به ، وكان يتعاهدها بالمسح والتنظيف بيده ، لا يرضى أن يمسحها له أحد من اتباعه المعدودين بالآلاف ، قصدا وعمدا ليقنن به الناس ويحتفلوا بأمر الجهاد ، وعدته وعتاده . وكان نهار الجمعة يوما خاصا بالتمارين الحربية ، من طراد ورياسة ، وما أشبه ذلك . فكان يجلس السيد في مرقب عال ، والفرسان تنقسم صفين . ويبدأ الطراد ، فلا ينتهي الا في آخر النهار . وأحيانا يضعون هدفاً ، يأخذون بالرياسة حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرساناً ورماة ، لكثرة ما كان يأخذهم بهذا المران . وكان يحيز الذين يسبقون في الطراد أو يقرطسون في الرمي بجوائز ذات قيمة ، ترغيباً لهم في فضائل الحرب . كما أنه كان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصاً عندهم للشغل بالأيدي ، فيتركون في ذلك اليوم الدروس كلها ، ويشغلون بأنواع المهن من بناء ، ونجارة ، وحداثة ، ونساجة ، وصحافة ، وغير ذلك ، لا تجد منهم ذلك اليوم الا عاملاً بيده والسيد المهدي نفسه يعمل بيده لا يفتر حتى ينه فيهم روح النشاط للعمل . وكان السيد المهدي ، وأبوه من قبله ، يهتمان جد الاهتمام بالزراعة ، والغرس تستدل على ذلك من الزوايا التي شادوها ، والجنان التي نسقوها بجوارها ، فلا تجد زاوية الا لها بستان أو بساتين ، وكانوا يستجلبون أصناف الأشجار الغريبة الى بلادهم من أقاصى البلدان . وقد أدخلوا

في الكفرة وجفوب زراعات وأغراساً لم يكن لأحد هناك عهد بها. وكان بعض الطلبة يلتصقون من السيد محمد السنوسي أن يعلمهم الكيمياء فيقول لهم : « الكيمياء تحت سكة المحراث ». وأحياناً يقول لهم : « الكيمياء هي كد اليمين وعرق الجبين ». وكان يشوق الطلبة والمريدين الى القيام على الحرف والصناعات ، ويقول لهم جلاً تطيب خواطرهم ، وتزيد رغبتهم في حرفهم ، حتى لا يزددوا بها أو يظنوا أن طبقتهم هي أدنى من طبقة العلماء ، فكان يقول لهم : « يكفيكم من الدين حسن النية ، والقيام بالفرائض الشرعية ، وليس غيركم بأفضل منكم ». وأحياناً يدمج نفسه بين أهل الحرف ، ويقول لهم وهو يشتغل معهم : « يظن أهل الاوريات والسيحات انهم يسبقوننا عند الله لا والله ما يسبقوننا ». يريد بأهل الاوريات العلماء وبأهل السبيحات العابدين والقانتين فكأنه يريد أن يقول للمحترفين والصناع لا تظنوا أنكم دون العلماء والزهاد مقاما ، بمجرد كونكم صناعا وعملة ، وكونهم هم علماء وقراء . هذا ليزيدهم رغبةً وشوقاً ، ويعلم الناس حرمة الصناعة التي لا مدنية الا بها .

هذه الفرقة فرقة عملية لا تعتمد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل والسير . فهي تجمع بين العمل الشرعي بخدافيه ، والتجرد الصوفي الى أقصى درجاته ، وتنظم بين الظاهر والباطن ، نظماً لم يوفق اليه غيرها . ويظهر أن مؤسس هذه الطريقة السيد محمد بن علي بن السنوسي ، وولديه السيد المهدي ، والسيد الشريف ، وكبار أعوانهم مثل سيدي أحمد الريني ، وسيدي عمران بن بركة ، وسيدي أحمد التواتي ، وسيدي عبدالرحيم بن أحمد ، وسيدي عبدالله السني ، وسيدي أبي القاسم العيساوي ، وغيرهم كانوا على أخلاق عظيمة ومدارك سامية ، تدل عليها أقوالهم وأفعالهم . حدثني سيدي أحمد الشريف أن عمه الأستاذ المهدي كان يقول له : « لا تحقرن أحدا ، لا مساماً ولا نصرانياً ولا يهودياً ولا كافراً ، لعله يكون في نفسه عند الله أفضل منك . اذ أنت لاتدرى ماذا تكون خاتمة ». وبمثل هذه الآداب كانوا يأخذون أولادهم ومريديهم ، فكان من هؤلاء أقطاب وأبطال ، يتجمل التاريخ بذكرهم . وواسطة عقدهم اليوم هو السيد أحمد الشريف الذي نحن في ترجمته . وقد ذرف السيد المشار اليه على الخنيتين ولكن هيئته لاتدل على وصوله الى هذه السن ، لدورة الشيب في شعره ، وهورائع المنظر ، بهي الطلعة ، عبل الجسم ، قوى

البنية ، لا يمكن أن يراه أحد بدون أن يحله ويحترمه (١).

بقي علينا شيء لابد من الإشارة إليه وهو ان الذين يقرأون هذه السيرة من الناشئة الجديدة يرون فيها مالا يوافق مشربهم ، من القول بالولايات والكرامات ، والاعتقاد بالكشف ، وبما فوق الطبيعة ، مما يرونه حديثاً ماضياً ، لا يليق بالتربية العصرية التي ينبغي أن تكون مبنية على محض الحقائق الفنية . ولما يعظم في أعين هذه الناشئة رجل ينطوى على هذه العقائد ، مهما كان عظيماً . بل قصارى ما هناك أنهم يحترمونه لحسن نيته وخلص اعتقاده لا غير .

وانني أحب أن أجاب هذه الطبقة التي قد توجه مثل هذا الانتقاد الى هذا المقام بأن العالم المتمدن لا يزال حتى هذه الساعة منقسماً الى فريقين : روجي ومادى ، وأن الفريق الروجي هو أكبر جداً وأحصى عدداً من الفريق المادى ، بل يوجد في أوروبا وأميركا واليابان عدد لا يحصى من خول علماء الطبيعة ، يعتقدون بوجود العالم الروجي ، وآخرون يعترفون بأن مشكل الروح لم ينحل بعد ولا أكنه سر الروح واتصالها بالجسد أحد . وإذا رأينا أناساً مثل فلما ريون الفلكي الشهير وفيكتور هوغو أكبر شعراء الفرنسيين ، وسواهما من صيابة العلماء ، يعتقدون باستحضار الأرواح ويشهدون بوقوع المحاورات بينهم وبين الأموات ، وعرفنا أن جمعيات لاتعد ولا تحصى في أوروبا مؤلفة خاصة للباحث الروحية ، واثبات الحوادث التي لاتعلل الوجود شيء وراء المادة ، لم يحق لنا أن نعجب من اعتقاد بعض العظماء بالخوارق والكرامات والمناسبات الروحية . وإذا علمنا أن رجلاً مثل باستور بمكانه من العلم والاكتشافات الكيماوية التي لم يسبق إليها أحد ورجلاً مثل غلادستون في الشهرة ، وبتوقد الذهن كانوا من أشد الناس تمسكاً بالدين ومن الموقنين بأن السيد المسيح اله وإنسان معاً ، ظهر لنا أن الاحاد النام أو الرفض للاعتقاد بكل ما هو خارج عن المادة ، ليسا بشرط في علو درجة العقل ، ولا بدليل على التبحر في العلم . وما أوتيم من العلم الا قليلا .

(١) لقد كتب سعادة أمير البيان هذا الفصل من عهد بعيد وحدث في أثناء طبع الكتاب للمرة الثانية أن وافتنا أخبار الحجاز بوفاة السيد أحمد السنوسي في المدينة المنورة في منتصف ذي القعدة سنة ١٣٥١ والعصر الأول من مارس سنة ١٩٣٣ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح رياضه « الناشر »

الجزائر والأمير عبد القادر وفرنسا

الشيخ

ليس هنا محل سرد تاريخ المغرب الأوسط من أوله الى آخره ، وإنما نذكر بمناسبة الأمير عبد القادر الحسنى الجزائرى سبب استيلاء فرنسا على الجزائر ، وأوليات ذلك ومصايره ، تمهيداً للدور الذى قام به هذا المجاهد الكبير فى الديار المغربية فنقول :

لا يخفى انه عندما استولت فرنسا على الجزائر كان هذا القطر من جملة أجزاء السلطنة العثمانية التى افتتحته منذ سنة ١٥١٦ وأجلت الاسبانيول عن أكثر مدنه البحرية التى كانوا احتلوها وامتدوا الى ما وراءها . وكان القائم بهذا الفتح هو عروج الريس البحرى التركى ، ثم أخوه خير الدين الملقب ببروس ، أى ذى اللحية الجراء ، الذى وصلت القوة البحرية الاسلامية فى أيامه الى أوجها الأعلى بحيث أصبحت هى سيدة البحر المتوسط بلا مرء ، وتضاءلت أمامها جميع أساطيل النصرانية . وكان مركز خير الدين هو مدينة الجزائر ، وقد مد منها جناح سلطته باسم السلطان العثمانى على سواحلها ودواخلها ، فصارت تلمسان وما يليها ، وقسطنطينة وما يتبعها ، داخلة تحت الحكم العثمانى . وقد توالى بعد خير الدين الولاة من قبل الدولة على تلك البلاد يتولون أمورها على شكل ادارة داخلية مستقلة أشبه بادارة ترنس ومصر . وكان هؤلاء الولاة فى شغل دائم ونصب مقيم من مكافئة الدول المسيحية فى البحر المتوسط ورد غاراتها المتوالية على سواحل المغرب . ولما كان أساس نزول خير الدين بهانيك الديار هو القوة البحرية فقد بقيت تلك الاية مركز قوة بحرية عظيمة مدة ثلاثة قرون ، استفحل فيها شأنها طيلة القرن السابع عشر وأدرك أمرها الهزال والضعف فى القرن الذى بعده . وكانت الدولة العثمانية تتوكأ دائماً فى حروبها على أسطول الجزائر ، وتجعله رداءً للأسطول العثمانى فى كل موقف خطير ، الى أن انقلب أسطول الجزائر من الجهاد الى المصاص ، ومن الدفاع الشريف عن حوزة الاسلام الى الاعتداء على الناس والسبي والنهب والاسترقاق ، مما لم يزل يتماهى ولا تنجح فيه الوسائل حتى ضاق بذلك ذرع ودل النصرانية ، وآل الأمر الى تولى احداهن (فرنسا) كبر اسقاط تلك القوة واستئصالها

من شأقتها ، والاستيلاء على العش الذي درجت منه . فقد صارت لصوصية البحر ، أو القرصنة ، في أواخر القرن السادس عشر مورد رزق وواسطة كسب لحكومة الجزائر ولأهلها وأصبح هؤلاء يؤلفون الشركات ويننون السفن ويجهزون بها بالعدد اللازمة ، ويشنونها في البحر تغزو وتعيث ، فتأخذ السفن غصباً وتنهب البضائع التي فيها ، وتسطو على ركبها فتسوقهم أسارى من رجال ونساء وأطفال وتبيع بعد ذلك الأموال والأرواح في أسواق الجزائر ، فتأخذ الحكومة من ذلك نصيباً معلوماً ويتقسم الباقي على أصحاب السفن والبحرية . وإذا كان الأسير من أسرة ذات ثروة أو واجهة فنعم الغنيمة إذ كان أقارب الأسرى وحكوماتهم المتبوعة وبعض رهبانيات النصارى يفكون الأسرى بمبالغ طائلة . واستمرت هذه الحال دهرأ حتى عيل صبر الدول الأوروبية لا سيما فرنسا وانكلترا وضربت الجزائر بالمدافع سنة ١٦٥٩ وسنة ١٦٦٤ وتكرر ذلك سنة ١٦٨٢ و١٦٨٣ ثم سنة ١٦٨٦ إلى أن تمكنت دولنا انكلترا وفرنسا من صيانة سفائنها من اعتداء قرصان الجزائر وصارت تجول في البحار بدون معارض . أما الدول التي من الدرجة الثانية مثل السويد وهولندا والدانمرك وناپولي الخ فكانت مضطرة أن تدفع لحكومة الجزائر جزية سنوية تشتري بها حرية سير سفائنها . وكانت دولة أوستريا والمجر معفاة بوصاة خاصة من الباب العالي . وما زال الأمر كذلك حتى أيام نابوليون ، فانهز قرصان الجزائر فرصة الحروب التي اشتعلت يومئذ في كل أوربا وضاعفوا عيشهم في البحر المتوسط ، فارتفع العويل من كل جهة ، ولما تقرر الصلح قررت الدول في (اكس لاشابل) منع الجزائريين بتاتاً من التعرض لأي سفينة ، فلم يسمعوا لأحد كلاماً فأطلق الانكليز مدافعهم على الجزائر انتقاماً

وفي سنة ١٨٢٧ حصلت منافرة بين حسين داي والى الجزائر ودفال قنصل فرنسا فمد يده الداي الى القنصل وضر به بالمروحة ، فخصرت فرنسا سواحل الجزائر واغتنتمتها فرصة لفتح تلك البلاد ، فاحتلت الجزائر في ٥ ايلول سنة ١٨٣٠ وكان ذلك لعهد الملك كارلوس العاشر ، وكان مراد الفرنسي في الأول الاحتفاظ ببعض المدن البحرية وتقرير نظام لادارة البلاد الداخلية بالاتفاق مع الدول ، ثم انقلبت الأفكار وتألفت لجنة اسمها « اللجنة الافريقية » لذاكرة فيما اذا كان الاولى ترك الجزائر تحت شروط معلومة ، تفادياً من الكلف الباهظة التي يقتضيها فتح القطر الجزائري أو الاستمرار على سياسة الفتح والاحتلال

الى النهاية . مسألة شبيهة جداً بمسئلة سورية اليوم بين الحزب الذى يرى تركها لأهلها خوف التورط فى حروب مستقبلية اما مع العرب أو مع الترك أو مع غيرهم ؛ والحزب الذى يرى التمسك بسورية والسيطرة عليها لأجل نفوذ كلمة فرنسا فى المشرق مهما كلف ذلك من المشاق . وفى سنة ١٨٣٤ رجح رأى الاستيلاء ، وتعين حاكم عام للجزائر ، ولكن بقي الفرنسيين مترددين فى قضية الزحف الى الداخل ، وجعلوا يدخلون المدن تدريجاً ، فاستولوا على وهران ومستغانم وعنابة وبجاية . وسنة ١٨٣٦ قصدوا قسنطينة ، وكان فيها أجذبك فهزمهم . فأعدوا حملة ثانية فى السنة التالية ففتحوها وامتدوا من هناك الى الصحراء . وفى سنة ١٨٤٤ كانوا فى يسكرة

أما فى الجهة الغربية فان المقاومة كانت أطول أمداً ، وأصعب مراساً ؛ وذلك أن الأهالى اختاروا لهم أميراً قاتلوا تحت لوائه وهذا الأمير كان رجلاً من أعظم الرجال وهو عبد القادر بن محي الدين الحسنى . أصل سلفهم من المغرب الأقصى ومن آل البيت فيما يقال . هاجروا من هناك الى نواحي وهران ، واشتهر منهم رجال بالورع واقتدت بهم الناس ولا سيما السيد مصطفى بن محمد المختار ، والسيد محي الدين والد المترجم . وكانت ولادة المترجم سنة ١٢٢٣ الموافقة لسنة ١٨٠٨ ونشأ فى مهد العلم والتقوى ، واعتنى بالتحصيل جد الاعتناء ؛ حتى تفوق بالأدب والفقه والتوحيد والحكمة العقلية ؛ وكان مع ذلك لا يهمل المناققة بالسلاح وركوب الخيل بحيث نبغ من جهة عالماً فاضلاً ، ومن جهة ثانية ثقفاً فارساً جفيع بين السيف والقلم . وفى سنة ١٨٢٧ وقعت مشاحنة بين والده السيد محي الدين وبين حسن بك حاكم وهران التركى ، فانتهى الأمر بجلاء السيد محي الدين عن وطنه ، فأزمع الرحلة الى المشرق وحج البيت الحرام وكان معه ولده عبد القادر . وبعد سنتين من غيابهما عادا الى وطنهما ، فكانت بعد ذلك الحرب بين أتراك الجزائر والفرنسيين فيقال ان عبد القادر منع والده من الانضمام الى حسن بك حاكم وهران فسلم الحاكم البلدة الى الفرنسيين ، ودارت رحى القتال بين الحامية الفرنسية وبين الأهالى ؛ فتولى قيادة هؤلاء السيد محي الدين ، وظهر فى أثناء هذه الحرب من بسالة عبد القادر وإقدامه ورباطة جأشه وإصالة رأيه ، ما جمع له محاب القلوب وعقد به آمال الناس . ولما أراد أهالى تلك البلاد مبايعة السيد محي الدين أميراً عليهم ؛ اعتذر بعلمه سنه ، وأشار عليهم بولده عبد القادر فى

٢١ تشرين الثاني سنة ١٨٣٢ فبوع بالامارة ، وقيل بالسلطنة أولا ، فتحاشى لقبها مراعاة لسلطان فاس ، واكتفى بالامارة . ونص هذه المبايعة منشور في كتاب « عقد الاجياد في الصافنات الجياد » تأليف أكبر أولاده الأمير محمد باشا .

فجعل عبد القادر عاصمته مدينة المعسكر ، ورتب جنوده وباشر القتال ، ولم يكن قتاله قاصرا على جهاد الفرنسيين فحسب ، بل اضطر ان يقاتل حساده ورقباءه من أهل البلاد أنفسهم ، فقام بجميع ذلك أحسن قيام ، حتى دانت له كل عمالة وهران تقريباً ، وفي ٢٦ شباط سنة ١٨٣٤ انعقدت بينه وبين الفرنسيين المعاهدة المعروفة « بمعاهدة ديمشيل » التي بها تعترف فرنسا لعبد القادر بجميع العمالة الوهرانية خلا مدينة وهران وآرزاو ومستغانم وكان له الحق بموجب هذه المعاهدة ان يعين معتمدين (قناصل) في وهران والجزائر ومستغانم وغيرها ، وان يستورد الاسلحة من أى جهة أراد . فعظم شأن عبد القادر وتأثر سلطانه . وصار الامر الشرعى لجميع أهالى الجهات الغربية من المغرب الاوسط . ثم مدرواق ملكه على البلاد التي لم تكن داخلة في ضمن حدوده ، مثل ميدية ومليانة ، ورتب فيها المساح بالرغم من احتجاج حاكم الجزائر العام ، ولما كان الحسد والمنافسة هما أقتل أمراض المسلمين . بحيث لا تثقل عليهم سلطة الغريب كما تثقل سلطة أخيهيم ، ثار على الامير قبيلتنا الدوائر والزمانة وانضمتا الى فرنسا فطلب تسليم رؤسائهم اليه فأبى الجنرال « تريزل » ذلك فبرز عبد القادر الى القتال وانتصر على الفرنسيين في يوم المقطع (٢٦ تموز ١٨٣٥) فجردت فرنسا جيشاً كثيفاً استولى على عاصمته المعسكر تحت قيادة المارشال « كلوزل » وكانت بقية من الاتراك لا تزال في قلعة تلمسان فناوشوه من وراء . فانهمزم هزيمة ثانية في حرب مع الجنرال الفرنسي ساوى « بوجو » ولكنه بقى ثابت العزم متوفر القوة . وتمكن بدهائه السياسى ان اصطلح مع الفرنسيين على شروط تضمن له أحسن مما ضمنته معاهدة (ديمشيل) وذلك في معاهدة « التفنة » (٣٠ ايار ١٨٣٧) التي اعترفت فرنسا له فيها بجميع عمالة وهران وقسم كبير من عمالة الجزائر . فلما انتهى الخصام بينه وبين فرنسا شرع يقوى سلطته على البلاد التي ادخلت حديثا تحت حكمه . ورتب مساح في لاغوات وميجانة وزيبان وخضع له أهل هاتيك الاطراف ما عدا المارابط محمد التيجانى الذى أبى الاعتراف بامارته . فزحف عبد القادر بنفسه الى (قصر عين ماضى) وحصره وبعد

حصار خمسة أشهر افتتحه مع أنه حصن منيع لم يتمكن الأتراك طول مدة حكمهم في الجزائر أن يدخلوه ثم رتب عبد القادر جيشاً منظماً على نمط جيوش الدول ، وقسمه الى مشاة وفرسان ومدفعية ، واستجاد لتعليمه وتدريبه ضباطاً من الجيش التونسي ومن الجند التركي الذي بطرابلس ومن الفارين من الجيش الفرنسي . وسن لهذا الجيش نظاماً يتعلق بمأكله وملبسه ورواتبه ومدة التعليم وشروط الترقى فيه ونيل الاوسمة وغير ذلك . وجعل دهايز لادخار الحبوب واناير للاقوات ومعامل للسلاح ، ورمم القلاع ، ولم يغفل عن شئ مما يلزم لتأسيس الحكومات الشرعية

ولما كانت معاهدات الدول الاستعمارية مع أهالي الاقطار التي تضع نصب اعينها الاستيلاء عليها هي في الغالب محاط استراحة بين الحملة والحملة . ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لا غير بحيث لدى توفر القوة لا تعدم عنراً في نقض تلك المعاهدات التي لم تبرمها منذ البداية الا على نية النقض ، وكانت في الواقع مصدقة لئوله تعالى في هؤلاء « وما وجدنا لاكثرهم من عهد » شرعت فرنسا بالتعلل من جهة تفسير بعض فقرات معاهدة التفنة ، وارادت التفصي منها ، حال كون الامير يتقاضى العمل بها فنشبت الحرب بين الفريقين . لأن فرنسا كانت اعدت عدتها والامير ابت نفسه النزول عما خولنه اياه المعاهدة ، فزحف المارشال « فالى » و « الدوق دومال » من جهة ، واغارت عساكر الامير على متيجة من جهة اخرى . ونادى الامير بالجهاد وذلك في ٢٠ تشرين الثانى سنة ١٨٣٩ فاستمرت الحرب من ذلك التاريخ الى سنة ١٨٤٣ بدون انقطاع . وقام فيها الامير عبد القادر مقامه المحمود الذى طبق ذكره الآفاق . وان كان عدم تكافؤ القوتين المتقابلتين آل أخيراً الى سقوط اكثر حصونه ، واستيلاء العدو على اكثر مدنه ، مثل تاغدمت والمعسكر وتازة ووادي الشليف . فانكفأ الى الغرب ، فزحف العدو الى تلمسان ونواحي ندرومة واختلها فتحول الأمير الى الجنوب وهناك ايضاً كبس (الدوق دومال) محلته (ما يسميه الأتراك بالقرار كاه) وغنم أكثرها ففت هذا الحادث في عضده وخذله أكثر أنصاره ففر الى المغرب وسعى في حل سلطان المغرب على اصلاء الفرنسيين الحرب فكانت بين جيش المغرب والجيش الفرنسي « واقعة ايسلى » (١٢ أغسطس ١٨٤٤)

ولما كان المغاربة لا يملكون من آلات القتال ما يملكه الفرنسيين انتصر الجنرال « بوجو » على الجيش المغربي ، وكانت بوارج فرنسا ضربت بالمدافع ثغرى طنجة ومغادور ، فضيقت فرنسا على سلطنة المغرب من البر والبحر . وأجبرت السلطان مولاي عبد الرحمن صاحب الغرب على عقد الصلح (١٠ ايلول ١٨٤٤) بالشروط التي تريدها . وأولها منع عبد القادر من تجاوز حدود الجزائر . فلبث هذا نحو سنتين متربصاً منتظراً غرة من العدو ليهتبلها . فلما لاح له في ثورة سنة ١٨٤٦ انقض على بلاد الجزائر ثانية وأوجف في الغارة حتى بلغ بلاد البربر المسماة عند الفرنسيين (كايلى) ، وأعاد الأمر كما بدأ . الا أن قوة عبد القادر كانت هذه النوبة قد تناقصت ، وقدم الفرنسيين في الجزائر قد رسخت . فلم تستمر غارته وأحاطت به الجيوش من كل جهة . فأسرع الاوبة الى الحدود المراكشية فعدت فرنسا تتقاضى مولاي عبد الرحمن تسليمه . وما زالت تلح في ذلك حتى ساق عليه السلطان قوة عظيمة . فلما رأى نفسه بين نارين وان اخوانه المسلمين قد صاروا عليه الباء مع الفرنسيين ، اشتد به الغضب وسلم نفسه الى الفرنسيين على يد « الجنرال لاموريسيار » (٢٣ كانون الأول ١٨٤٧) . ووقع الاتفاق على أن يخرج بعائلته من الجزائر ذاهباً الى الاسكندرية أو عكا

وعلى رواية أخرى وهى التى مال اليها صاحب « تاريخ الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى » لما يئس الأمير عبد القادر من الفوز على الفرنسيين بقوته الخاصة ، حدثه نفسه بقلب سلطنة المغرب ، والجلوس على عرش فاس ، فأوجس السلطان عبد الرحمن خيفة من دسائسه ، وأرسل تلك القوة لمطاردته وخضد شوكرته ، قبل أن يستعصى أمره . ولذلك صاحب الاستقصا بعد أن أثنى أولاً على جهاده وعلو همته ، عاد فرماه أخيراً بسوء النية والفساد فى الأرض . وهو فى كلتا الحالتين لم يلقبه بالأمير بل « بالحاج عبد القادر بن محي الدين »

فأخذ الأمير الى طولون حيث كان المراد تسفيره الى الشرق بحسب العهد الذى انعقد . الا انه فى تلك الايام حصلت فى فرنسا ثورة سنة ١٨٤٨ وسقط الملك لويس فيليب فاعتلت الحكومة الموقفة فى اطلاق سراحه وأبقتة فى بلادها أسيراً الى سنة ١٨٥٢ اذ بشره لويس نابليون بنفسه انه تقرر اخلاء سبيله . فذهب الى الاستانة ثم أقام ببرصا . وسنة ١٨٥٥

استاذن في الذهاب الى الشام بمعرفة الحكومة الفرنسية فأذنت الدولة العلية له بذلك . ولما حصلت في دمشق الحادثة المؤلة المسماة بحادثة سنة الستين . التي كان منشأها من رعاغ القوم ؛ اهتم الأمير عبد القادر بوقاية المسيحيين وأنقذ منهم عدداً وافراً . وان لم يكن هو المنفرد بذلك بل شاركه في هذه المبرة كثير من أعيان دمشق مثل محمود أفندي حزة ، وبنى العابد ، وبنى المهاني وغيرهم ، فاستحق بهذا الفعل الجليل ثناء الجميع وجاءته الأوسمة مع عبارات الشكر من فرنسا وأكثر الدول الأوروبية . وقضى بقية حياته في مشافنة العلماء واسداء الخيرات ، وكان كل يوم يقوم الفجر ويصلي الصبح في مسجد قريب من داره في محلة العمار . لا يتخلف عن ذلك الا لمرض . وكان يتعهد الليل ويمارس في رمضان الرياضة على طريقة الصوفية وما زال مثالا للبر والتقوى والاخلاق الفاضلة الى أن توفي رحمه الله سنة ١٨٨٣ فدفن بمقام الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي في الصالحية . وترك من الولد الأمراء محمد باشا ، ومحيي الدين باشا ، والهاشمي ، وابراهيم ، وأحمد ، وعبد الله ، وعلى وعبد الرزاق ، وعبد المالك ، فالأمير محمد باشا وشقيقه محيي الدين انتقلا الى الاستانة وجعلتها الدولة في مجلس الأعيان الى ان توفيا وكان الثاني منهما شاعراً أديباً ، عالي الهمة ، وذهب سنة ١٨٧٠ بدون علم أبيه الى الجزائر ليرأس الثورة القبائلية التي اشتعلت يومئذ فلما بلغ الخبر أباه أعلن سخطه عليه لأن الأمير بعد أن أعطى عهده لفرنسا حافظ على قوله الى المات واما الهاشمي فن ولد له الأمير خالد الذي هو على رأس الحركة الوطنية الحاضرة في الجزائر وأما الأمير عبد الله فهو في قيد الحياة بدمشق ، وأما الأمير على فقد كان مبعوثاً عن الشام منذ سنة ١٩١٤ في مجلس الأمة بالاستانة ، وكان محرر هذه السطور قد انتخب عن حوران أيضاً وسفرنا يومئذ الى دار السعادة معاً ، فلما افتتح المجلس وصارت المذاكرة في انتخاب الرئيس ونواب الرئيس وكانت العادة أن يكون الرئيس الاول تركيا والرئيس الثاني من أبناء العرب ، واستشارني طلعت بك حينئذ ، وكنت العضو العربي الوحيد في القلم العمومي لمجلس الامة ، وطلعت هو الرئيس ، فانفقنا على دعوة المبعوثين لانتخاب الأمير على رئيساً ثانياً ، وهكذا كان ، ولما شبت الحرب العامة أرسلته الدولة الى ألمانيا حيث قابل الامبراطور غيليوم وأمضى مناشير ألقت بها الطيارات الألمانية على العساكر المغربية ، تحشم على ترك العسكر الفرنسي . والاتحاق بالامان حلفاء الدولة العلية ، فأخذ الفرنسيين حذرهم من

مفعول هذه المناشير ، وصاروا يؤخرون المغاربة الى الوراء بعد ان كانوا يضعونهم دائماً في الأمام وقوداً للنار . وبعد أن قضى الأمير على مدة في ألمانيا عاد الى الاستانة ومنها الى سورية اذ وجد أخاه الأمير عمر محبوساً مع من حبسهم جال باشا قائد الجيوش في سورية اثناء الحرب لأوراق وجدت عليه في قنصلية فرنسا ، فتشفع الى جال في أخيه فلم يقبل شفاعته ، ونفاه هو أيضاً مع أولاده وسائر أسرة الأمير عبد القادر الى برصا ، ولم يرع حرمة جهاد والده ولا خدمة الأمير على في ألمانيا ولا قبل ذلك في حرب طرابلس الغرب ، فاشتد عليه الغم ولم يلبث ان مرض ونقل الى الاستانة وتوفي بها رحمه الله . وأما الأمير عمر فكان من جملة الاعيان المشنوقين . وطالما راجعنا في أمرهم وطلبنا عنهم العفو أو تحويل جزاء القتل الى النفي فلا مريد له الله أني جال باشا الا ازهاق الانفس ، فكانت من الاغلاط الكبرى التي ذاقت الدولة العلية مرارة مغبتها وسهلت طريق الاجانب . وما أذكركه ان جال باشا سألني عما اذا كنت انكر مما لا إله الا الله الأمير عمر لفرنسا مع انه هو لم يقدر على الانكار . فأجبتنه لست ممن ينكر ذلك ولكن أرى وجوب الصفع عنه حرمة للمرحوم والده الذي لا يخفى ماله من المكانة في العالم الاسلامي فقال لي جال بالتركية (بكانه) أي وماذا يجيئني من ذلك . وأما الأمير عبد الرزاق فذهب شاباً وكان نادراً في الذكاء وجمال الصورة والسيرة . وآخر أولاد الأمير عبد القادر هو الأمير عبد المالك قضى بضعة عشرة سنة مجاهداً في المغرب بين القبائل النائرة على فرنسا وعلى اسبانية . ولم يزل في تلك الديار يتحرك تارة ويسكن أخرى الى كتابة هذه السطور

وكان المرحوم الأمير عبد القادر متضلعا من العلم والادب ، سامي الفكر ، راسخ القدم في التصوف ، لا يكتفي به نظراً حتى يمارسه عملاً ، ولا يحن اليه شوقاً حتى يعرفه ذوقاً . وله في التصوف كتاب سماه (المواقف) فهو في هذا المشرب من الافراد الافذاذ وربما لا يوجد نظيره في المتأخرين وله كتاب آخر تمتع اسمه (ذكرى الغافل وتنبيه الجاهل) في الحكمة والشريعة . وقد ذكر مؤرخو الافرنجة أن مملكته العلمية والدينية كانتا من أكبر أعوانه على تأسيس الحكومة التي أسسها وانه كان ينال باللسان ما قد يعجز عنه باللسان . ولم ينكروا عليه حفاظه للعهود لكنهم زعموا انه كان لا يتوقف ان يخفها فيما لورأى في ذلك مصلحته المندمجة في مصلحة الاسلام . قال في دائرة المعارف الاسلامية

الفرنسوية : « كان عادلا لكن على الطريقة الشرقية ، برأ رؤؤفا ، لكن يجوز أن ينقلب سفا كاللدماء جاسياً اذا رأى ضرورة ايقاع الرعب في قلوب الاعداء »

قلنا يظهر ان الافرنج يريدون أن يحفظوا مزية خفور العهد لدى تبين المصلحة لأنفسهم دون سواهم ، وكذلك سفك الدماء لأجل القاء الرعب عند الضرورة . وجبذا لو حصروها في دائرة الضرورة ، بل اعمالهم في غاراتهم الاستعمارية ثم في الحرب العامة الاوربية قد فضحت أمورهم وأثبتت أنهم يسفكون الدماء في ضرورة وفي غير ضرورة . وليس مثلهم بمن يحق له أن ينتقد في هذا الباب رجلا شهدت له جميع أعماله بالوفاء كالامير عبد القادر . ولنختم هذه الترجمة بشئ من شعر الامير الذي يدل على علو نفسه :

تسائلني أم البنين وانها لأعلم من تحت السماء بأحوالى
الافاسألى جنس الفرنسيس تعلمى بأن منايهم بسيفي وعسالى
ومن عادة السادات بالجيش تحتمى وبى يحتمى جيشى وتمنع أبطالى

الجزائر وقبائل البربر

للأمير شكيب

بعد أخذ الأمير عبد القادر أسيراً وانعقاد معاهدة الصلح بين فرنسا والمغرب (١٨٤٥) تحددت الحدود بين الجزائر ومراكش ، وعلت كلمة فرنسا في القطر الجزائري ، فأخذت العساكر الفرنسية تتقدم الى جهات الصحراء وتبني فيها المخافر وتؤسس المساح وتوطئداً لقدمها في البلاد ، فنار ثائر يقال له أبو زيان في واحات زيبان من الصحراء ، فكان نصيب ثورته الفشل فنار زعيم آخر اسمه الشريف محمد بن عبد الله فسيقت عليه العساكر الفرنسية فافتتحت مدينه لغوات وزحفت الى ورغله (١٨٥٤) وفر الشريف شريداً .

وكانت البلاد المسماة (كايلى) أى القبائلية ، اشارة الى قبائل البربر التى تسكنها ، لا تزال مستعصية على الفرنسيين شامخة بانفها ، لا تعطى المقادة ، فوالى هؤلاء عليها الزحوف بقيادة « الجنرال بوجو » و « الجنرال سانت آرنو » و « الجنرال راندون » فما زالوا يغادونها القتال ويراوحونها من سنة ١٨٤٤ الى سنة ١٨٥٧ والدماء جارية من الفريقين حتى خضعت تلك القبائل فى وادى الساحل ووادى سيباو ، وانهمز أبو بغلة الذى اشتهر فى تلك الحرب وبقيت قبائل الجرجورة مدة حافظة استقلالها ، الى أن أذعننت هي أيضا ولكن على شرط حفظ تشكيلاتها الادارية وعاداتها وعرفها ، فولت فرنسا على بلاد القبائل رؤساء مسلمين يراقب عليهم ضباط فرنسيس بجانبهم ، وجعلت أقلاماً عربية فى تلك الادارات ، وسمحت للقبائل بالمحافظة على عاداتهم وأوضاعهم مما هو سنة الدول الاستعمارية فى الأقوام التى تبالو منها شدة البأس وصعوبة المراس ، الى أن تكون تمكنت منها بطول

عهد الحكم وازالة مابقى من أسباب المقاومة ، فتعدل حينئذ الى اجراء الأحكام الاستعمارية على وجهها الأكمل ، ولكن الثورات فى الجزائر لم تكن انتهت لذلك العهد بل كان على فرنسا أن تخمد ثورات أخرى ، كلما انطفأت نار احداها اشتعلت أخرى . ففى عام ١٨٥٩ كانت ثورة بنى سنان على حدود المغرب الأقصى ، فكلفت فرنسا حملة عسكرية

وفي جنوبى وهران كانت ثورة أولاد سيدي الشيخ التي استمرت ثلاث سنوات متتابعة . واضطر بها الجنرال « فيمفن » الى تعقب الثوار الى وادي الجير من عمل المغرب ، ولم تسكن هذه الفتنة الا سنة ١٨٦٧ . ولكن لما انكسرت فرنسا في الحرب مع المانيا سنة ١٨٧١ كانت الثورة الكبرى اذ لاحت الفرصة للجزائريين ورأوا الصيد سانحاً ، فنار المقراني قائد ميجانه ، وضافره على الحركة مرابط يقال له الشيخ الحداد مع ولده سي عزيز ومعهم أتباع الطريقة الرحانية ، فاشتعلت الفتنة في جميع القبائل ، وامتدت الى بعض أعمال قسنطينة واتصلت ببعض عمل الجزائر ، ولكن العمالة الوهرانية في تلك الآونة بقيت ساكنة لم تشارك سائر اخواتها ، أما الثائرون فأحاطوا بجميع الحصون الفرنسية التي في بلاد القبائل وخربوا قرية « بالسترو » وكادوا يستولون على متيجة ، فجردت فرنسا جيوشاً جرارة عقدت عليها للاميرال « غويدون » شهرته بالصرامة والمضاء ، فدارت رحى القتال ونشبت هناك ٣٤٠ واقعة انتهت أخيراً بسبب التفوق الفرنسي في فن الحرب ووفرة اعتادها بنحمود نار الثورة ، وسقط المقراني قتيلاً في وادي سفلات ، خلفه في الزعامة أخوه أبو مزراق ، فما زال هذا يكافح حتى وقع أسيراً بمحل يقال له الرويسات في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٧٢ وكان ذلك ختام الثورة فاقصت فرنسا من القبائل أولاً بأن ألغت لهم استقلالهم الاداري ، ثانياً بأن اغتصبت من أراضيهم ٤٥٣ ألف هكتار (الهكتار ١٠ آلاف متر مربع) سلمتها الى المستعمرين الفرنسيين الذين يقال لهم « الكولون » ، ثالثاً بان ضربت عليهم غرامة حربية فادحة تجعلهم دائماً رازحين تحت أوقار الديون ، ومن بعد هذه الثورة لم يحصل من مقاومات الجزائريين ما يستحق الذكر الا ثورة أبي عمامة سنة ١٨٨١ ، ومن ثمة ساد السكون في ذلك القطر وانقطع الأمل من القيام بالسيف ، لاسيما بعد أن لحق القطر التونسي ثم القطر المراكشي بالقطر الجزائري وصارت كلها مستعمرة واحدة يلقبها الفرنسيين بأفريقية الفرنسية . الا أن الحرب العامة انشأت روحاً جديدة في بر الجزائر لم تكن موجودة من قبل ، وهي ان الجزائريين قدموا لفرنسا جزراً للسيوف وقوداً للكرات النارية أكثر من ٢٠٠ ألف مقاتل في الحرب العامة قتل منهم نحو ٦٢ ألفاً كانوا فداء لفرنسا بأرواحهم ، وكان الفرنسيين يوم نشوب الحرب العامة واحتياجهم الى أعضاء المستعمرات قد بالغوا في التملق للاهالي ، وتبذلوا جلود النمر بأصواف النعاج ، وطافوا

على الجزائريين يقولون انما هو وطن واحد ندافع عنه جميعا حتى اذا فزنا بما نرجوه قسمنا حقوقه بالمساواة بدون تمييز لفرنساوى عن جزائرى ، ولا لمسيحى عن مسلم ، وان ادارة الجزائر بعد الحرب ستكون شكلا آخر لا يشبه شيئا مما كان الى ذلك الحين ، وان المسامين سيتمتعون بجميع الحقوق التى تتمتع بها الامم المستقلة ، الى غير ذلك من المواعيد التى كانت فرنسا وسائر دول الحلفاء توزعها جزافا على الأمم المهتزمة ، ترغيباً لها فى القتال الى جانب الحلفاء ، مما يعرفه عرب آسية اكثر من سواهم ، كيف لا وهم الذين وعدهم الحلفاء بأنهم اذا انحازوا الى صفهم فى الحرب العامة أعادوا لهم السلطنة العربية بحذافيرها ، والخلاصة مواعيد بدون حساب يبذلها أناس كانت تجول فى محاجرهم دموع التماسيح ؟ وهم يقولون هلموا ايها الاقوام الى القتال فى جانب الحلفاء لنصرة الحق على الباطل ، وانفروا خفافاً وثقالا لمكافئة هذه الامة الالمانية الغاشمة التى تريد استعباد الامم ، حال كون مقصد الحلفاء من هذه الحرب هو رفع سلطة القوى عن الضعيف ، وايتاء كل امة قسطها من حق الاستقلال . فما زالت هذه المواعيد تبذل ، وتلك الالفاظ تتكرر وتصل ، حتى استوسق للحلفاء النصر وانتهت الحرب ، وقضى الأمر فقلب الحلفاء لتلك الامم ظهر المجن ، وتناسوا جميع تلك الوعود ، ونكثوا بعامية هاتيك العهود ، وادرك اولئك الاقوام الذين بذلوا ارواحهم فى سبيل نصرتهم أن هذه النصرة انما كانت عليهم لا لهم ، وانهم انما اعانوا على انفسهم ، وشاركوا فى تخريب بيوتهم بايديهم . ومن جلة هذه الامم اهل الجزائر ، فثارت خواطرهم وغلت قلوبهم وتنجزوا فرنسا ما سبق من وعودها ، وذكروها بالاثنين والستين الف قتيل الذين ذهبوا منهم فى سبيلها ، فبعد اللتيا والتى اعطتهم فرنسا حق الانتخاب بمعنى أن تقبل اصواتهم فى الانتخابات البلدية ، وكذلك حق الترقى فى الدرجات العسكرية . بعد أن كانت لهم دائرة معينة لا يتجاوزونها مهما بلغ من نصح خدمتهم . وكذلك تساوا مع المستعمرين فى الامول الاميرية ، بعد أن كان هؤلاء يدفعون مالا والجزائريون يدفعون أمثاله عن الارض الواحدة . وكل هذه الحقوق الجديدة ليست شيئا مما كان الفرنسيين يمنونهم اياه اثناء الحرب ، وما هى الافك بعض حلقات من تلك السلسلة الطويلة التى هم راسفون بها منذ نحو قرن . فلذلك قاموا يناصبون الفرنسيين الحرب المعنوية التى بدأت تتجلى فى الانتخابات والاجتماعات ، واخذت تمتد بينهم الحركة الفكرية النازعة الى

الاستقلال ، وانتهاز حزب الشيوعيين في فرنسا فرصة القنوط والغضب اللذين استوليا عليهم ، فبنوا فيهم الدعوة الاشتراكية الشيوعية . فتلقاها كثير من عملتهم وصعاليكهم وربما من التمويل منهم ؟ لا رغبة فيها بذاتها بل فيما يصاحبها من تخفيف السلطة الحاكمة والوطأة الاستعمارية .

ولقد كان الفرنسيين يظنون ان الواسطة الوحيدة لنزع فكرة الاستقلال من رؤوس الوطنيين ، وامانة روح المقاومة ، هي ملاشاة التعليم الاسلامي ، وطمس معالم الشريعة التي يظنونها هي وحدها موقداً للحمية الاهلية ، ومنزعا للتملص من الحكم الاجنبي ، فلهذا كانت سياستهم في الجزائر من الاول الى الآخر سياسة تساهل ديني في الظاهر ، مع التحامل في الباطن ، فانهم متعوا ليس الفرنسيون فقط ، بل الايطالي والاسبانيون ، بل اليهودي والمالطي ، بحقوق لم يسمحوا بها للجزائري المسلم . وجعلوا المسلمين هم الطبقة الدنيا في السياسة والادارة والاجتماع وكل شيء . وقصروا امتاعهم بالحقوق - التي يتمتع بها كل الخلق من سواهم - على تجنسهم بالجنسية الفرنسية ، وقبولهم القانون الفرنسي الذي يصادم الشريعة في كثير من الاحوال الشخصية ، بحيث لا يقدر المسلم ان يقبل العمل به الا بعد ان ينزل عن اسلامه . وجعلوا كثيراً من التمتع بالنعم والأعطية والمكافئات موقوفاً على التنصر . ولم يرق الجنرال يوسف رتبة جنرال الاعلى هذا الشرط . ومنذ سنتين طلب أحد النواب الأحرار في البرلمان في باريس الغاء القانون الذي تمنح بموجبه في الجزائر الهبات العقارية للأوربي وللإيهودي والجزائري الذي يرضى أن يتنصر . وهو قانون سنته الحكومة الفرنسية منذ نحو ثلاثين سنة لا غير أي على عهد الجمهورية التي تزعم ان الاديان عندها سواء ، وقد أجاب ممثل الحكومة يومئذ موافقاً على استهجان هذا القانون ، ومعلناتية الحكومة الغاءه ، لا سيما بعد التفادي الذي تفاداه المسلمون في هذه الحرب ، ولكن است على ثقة من كونهم قرنوا القول بالفعل اذ طالما قالوا ولم يفعلوا ، ولم يجتزئ الفرنسيين بهذه الوسائل الرسمية لتزهد المسلمين في الاستمسك بعروة شريعتهم ، بل فسحوا المجال للبعثات الدينية ، وعضدوا « الكريدينال لا فيجري » في بث مرسلية الملقين بالمرسلين البيض ، والتقطوا كثيراً من أطفال الفقراء من المسلمين وأيتامهم ، ونشأوهم في المدارس الدينية ، وقد جعلتني الاقدار في احدى مدن ايطالية بقائد الف في

الجيش الايطالى كان يرغب الى أن أرسله الى احدى الحكومات الاسلامية لاجل الخدمة فيها فسالته عن سبب هذا الحنين ، فاجابني انه مسلم مغربي ، وكانت سحنائه تدل على ذلك ، فقلت له وكيف صار ضابطا في الجيش الايطالى ، فقال لى انه تربى في احدى تلك المدارس على أن يجحد الاسلام ، ويتجنس باحدى الجنسيات الثلاث الكاثوليكية : الفرنسية ، والايطالية ، والأسبانيولية . فهو يومئذ اختار الايطالية ولكنه اليوم يبنى الرجوع الى أصله وبالجملة فانه وان كانت الحكومة الفرنسية غير دينية في بلادها الأصلية ، فهي في الخارج سائرة على قول غمبنا : « عداوة الدين ليست من بضائع التصدير » . وهذا مرجعه الى سببين أحدهما أنها تعتقد أن الدعوة الدينية قد تكون عضداً للحركة الاستعمارية ، ومن هذا الباب كان جنب فرنسا بضعب الجزويت في سورية ، مع أن الجمهورية تناصب هؤلاء العداوة في فرنسا ، والثاني أن أكثر النفوذ في المستعمرات إنما هو للقوة العسكرية ، وأكثر أمراء الجيش تجدهم من الحزب الكاثوليكي . وما لا ينبغي أن ننساه أن الفرنسيين قبلوا كثيراً من مساجد الاسلام في الجزائر كنائس . فجامع القشاوة في نفس مدينة الجزائر هدموه وبنوا محله كنيسة ، والمسجد المسمى بمسجد « ميزومورتو » حولوه كنيسة ، وكثير من الجوامع حولوها كنكناً عسكرية وانباراً ، وكان في مدينة الجزائر يوم فتحوها ١٧٦٦ مسجداً وزاوية فلم يبق منها الا ٤٨ فقط . وأما الأوقاف وما استولوا عليه منها فذلك شرحه طويل ، لا يسعه هذا المكان ، وقد تقرأ في التآليف الرسمية عن حالة الجزائر ما يخيل لك أنه وان كان لا أثر للساواة بين الأوربيين والمسلمين في الادارة ، ولا في القضاء ، ولا في الهيئة الاجتماعية ، فهناك شيء من الاعتناء بحالة المسلمين ، ومن النظر في رفاهيتهم وسعادتهم ولكن اذا سألت هؤلاء أو قرأت مؤلفات الأحرار من الفرنسيين أنفسهم ، تعلم من الحقائق ما يسوء كل ذى وجدان سليم ، وفي العام الماضى ذهب المسيو « فاليان كوتوريه » أحد النواب الشيوعيين في البرلمان ، وساح مدة طويلة في الجزائر وتونس فنشر في جريدة « الأومانيتيه » مقالات متعددة عن درجة اهتزام أولئك الاهلين لا يبقى معها أدنى مجال للكابرة . وحسبك أن ستمائة ألف ولد من أولاد الجزائريين لا يجدون مكتباً يتعلمون فيه القراءة ، من أصلهم ستة آلاف في نفس مدينة الجزائر ، فكيف يقال ان الحكومة

تعتنى بهم .

وقد لجأ الفرنسيين الى وسيلة أخرى لنمكين قدم استيلائهم في المغرب ، وهو زرع الخلاف بين العرب والبربر ، واقناع البربر بكون أصلهم من سلالة أوربية ، وان لغتهم غير عربية ، فلا ينبغي ان يتعلموا العربي . وما لا يكتمه بعضهم ان على فرنسا قصر اللغة العربية ضمن حدود معلومة ، وحل جميع من أصلهم بربر على اللغة البربرية ، وهذا ينافي دعواهم ، من كونهم انما يتوخون في الاستعمار نشر المدنية ، لأنه مما لامشاحة فيه أن البربرية لا تصلح للدينة بخلاف اللغة العربية التي تعد في الدرجة الأولى من لغات الأرض شرقاً وغرباً ، وانما هناك سبب آخر نأتيك منه بشاهد واحد :

قال « فيكتور بيكه » الفرنسي في كتابه المسمى (مراكش) Le Maroc, Par Victor Piquet الذي ظهر سنة ١٨١٨ ما ترجمته :

« ان البربر كان منهم مجوس ووثنيون ويهود ، وفي صدر النصرانية قبلوا الدين المسيحي لكنهم نسوه عند ما تمكنوا من الاستقلال . ثم دانوا بالاسلام الذي ببساطة قواعده يستميل العقل ويرسخ في جميع الأمم التي تدين به » .

ثم قال : « ان البربر أسلموا اسلاماً لا يزال مشوباً بأحوال وأوضاع خاصة بهم »
ثم قال : « ان العالم الاختصاصي في أمور البربر المسمى « دوته » الذي جال بين قبائل البربر نوه بمحاسن سجايا هذا الشعب البربري . وقال ان به مناط الآمال في شمال افريقية »
ثم قال : « انه شعب يظهر عليه الميل من نفسه الى المدنية الفرنسية . لذلك يجب علينا قبل كل شيء أن لا نعر به أكثر مما هو . ولأجل بلوغ هذه الغاية يجب أن يحمل البربر على الثقافة الفرنسية ، وأن يتكلموا بالفرنساوي قبل وصول الثقافة العربية واللسان العربي اليهم . وعلى هذا الشكل يتحقق بلاريب - أكثر مما هو مظنون - خيالنا العظيم بمراكش فرنسوية » .

ثم قال في صفحة ٣٠٢ من كتابه :

« وفي النية تأسيس مكاتب فرنسوية بربرية في الجهات التي لم تستعرب من بلاد البربر . وهذا تصور حسن جداً لكننا لسوء الحظ قد تأخرنا في انفاذه . فاذا كانت بلاد القبائل من الجزائر ليس فيها الا بعض أقوام من البربر . فان قسماً عظيماً من أهل المغرب الأقصى لا يعرفون العربية أو يتكلمون باللغتين البربرية والعربية ، وليس لنا أدنى

مصلحة أن ننشر بينهم اللغة العربية — لغة الجامعة الاسلامية — بل بالعكس .
ولسنا ممن يقول ان جميع المفكرين من الفرنسيين هم على هذا الرأي من مناصبة
اللغة العربية والشرعية الاسلامية بالوسائل الممكنة ، كلا فان فئة منهم تجنب الى الحرية
التامة ، وتناضل دائماً عن حقوق الأهالي ، وتعتقد عقم تلك الوسائل الاستعمارية ، ولئن
مع الأسف لا تزال هذه الفئة هي الفئة القليلة ولا تزال الدولة لاولئك ، وأنت ترى أنه مع
كل مساعي الفرنسيين في مناصبة العربية والشرعية لم يقدروا أن يمنعوا الحركة الوطنية التي
تتقوى يوماً فيوماً في الجزائر ، مع أن أكثر القائمين بها هم ممن حصلوا جميع علومهم
باللغة الفرنسية »

ونود أن نلخص هنا فصلاً من كتاب « البسيكولوجيا السياسية » للفيلسوف
الافرنسي الشهير غستاف لوبون وذلك فيما يتعلق بسياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر .
قال في صفحة ٢٢٨ مايلي :

« إنني لا أتوخى هنا انتقاد الأشخاص وإنما أريد انتقاد الآراء والمبادئ التي ينفذها
الأشخاص بقطع النظر عنهم لأنني أعلم أن الضرورات السياسية لا المبادئ والنظريات هي
التي تدير أعمال رجال السياسة . فليس على الأشخاص إذاً يجب توجيه الاعتراض فان هؤلاء
مقيدون بمبادئ وأوضاع معلومة وان تغييرها في غاية الصعوبة . ومن نظر الى ظاهر الشعب
الافرنسي حسبه أشد الشعوب نزوعاً للثورة ولكن الشعب الافرنسي في الحقيقة هوفي
نفسه محافظ أكثر من كل شعب آخر

« جزائر الغرب قطر مساحته كمساحة فرنسا ولكن سكانه قليلون بالنسبة الى سعة
أرضه . وفيه خمسة ملايين من المسلمين تؤكد التقارير الرسمية أنهم مخلصون للحكومة
الفرنسوية إلا أنهم برغم اخلاصهم المزعوم يحتاجون الى ستين ألف عسكري لتقييمهم على
الطاعة أي إلى جيش بمثله تقريباً تخضع انكلترا ٢٥٠ مليوناً من الهنود من هؤلاء ٥٠
مليوناً من المسلمين أشد مراساً من الجزائريين^(١)

وبين هذه الخمسة الملايين من مسلمي الجزائر ثمانمائة ألف أوربي نصفهم افرنسيون

(١) غستاف لوبون عول على احصاءات قديمة والحقيقة أن عدد أهل الهند اليوم ٣٢٠ مليوناً منهم

والنصف الآخر طليان واسبانيون وغيرهم . وهؤلاء الأوربيون لا يختلطون في النسب مع المسلمين وإنما يختلطون بعضهم مع بعض بحيث يتكون منهم في المستقبل شعب قائم بذاته «أما المسلمون فنلتاهم بربر والثلث عرب والفوارق بينهم قليلة أهمها انقسامهم الى حضر وبدو

«ولقد كتب المسيو «لوروا بولايو» Leroy Beaulieu من أساتيد مدرسة «كوليج دوفرانس» كتاباً مهماً عن مشكلة الجزائر هو زيادة التعبير عن الرأي السائد في فرنسا بشأن الجزائر والجزائريين وهو أنه يجب علينا «أن نفرنس المسلمين» أما الكيفية التي يريدون أن يفرنسوا بها هؤلاء المسلمين فهي قريبة من طريقة الأمريكيين الأوائل في اغتصابهم أراضي الأقوام الجر في أمريكا وتركهم إياهم أحراراً أن يموتوا جوعاً

«نعم هذه هي طريقتنا الادارية في الجزائر وانظر كيف يصفها المسيو «فينيون» Vignon في كتابه الذي هو من أهم الكتب في هذا الموضوع . قال :

«لما رأت الادارة أن الولاة كانوا بعد كل ثورة يضبطون جانباً من أراضي القبائل رأيت أنه يمكن أيضاً اعتياد أحسن الأراضي وتسليمها للمستعمرين «الكولون» ودحر القبائل الى الصحراء . وكلما كان العنصر الأوربي في الجزائر ينمو كانت القبائل تخرج بالقوة من أراضي آباؤها وأجدادها وتُدحر الى الصحارى حتى خرجت قبائل بأسرها من بلاد كانت هي أوطانها ومساقط رؤوسها . ولا جرم أن نتيجة هذه السياسة التي استمرت نحواً من ثلاثين سنة على وتيرة واحدة لم تكن غير المنتظر . فان العربي المدحور بدون انقطاع الذي ليس آمناً ولا ساعاً أن يجني ثمرة تعبته قدفرت همته وأصبح لا يعتنى بحرث ولا زرع . ولو فرضنا أنه حرث وزرع فلم يكن له أن يسترجع البذر الذي زرعه في الأرض لأن القبائل كانت قد أخرجت من الأراضي الصالحة الخصيبة ودُحرت الى أراض جرداء محرومة من المياه لا تخرج ما يقوم بقوت الزراع ولا ما يكفي لعلف مواشيهم . وهكذا كانت تزداد بغضاء الوطنيين للمستعمرين وتزداد الهوة الفاصلة بينهما عمقاً

«ولما قرر المجلس الاستشاري سنة ١٨٦٣ أن أصحاب الأملاك يلبثون متصرفين بالأملاك التي كانت في أيديهم لم يمنع ذلك من تتبع سياسة دحر الأهالي الى الصحراء وإنما

لجأوا فيها الى طريقة ثانية وهي تغيير الصيغة والاسم . فهي الآن تسمى « بالاستملاك لأجل المصلحة العمومية » وطريقة هذا الاستملاك تمتاز بأمرين أحدهما انها لاتجد أراضي للمستعمرين الامن أراضي المسامين وانها تحدث دوائر استعمارية خالصة للأوربيين لايحق لأهالي الجزائر المسلمين أن يسكنوا فيها كدوى أملاك^(١) الثاني أن المسلم يأخذ تعويضا عن الأرض التي تُزعت من يده ٥٠ أو ٦٠ فرنكاً عن كل هكتار^(٢) فإذا كان الجزائري المسلم يملك ٣٠ أو ٤٠ هكتاراً خرج منها بألف وخمسة فرنك . هذا كل مايحوزه لمعيشته طول حياته وهو مبلغ لا يقوم بأوكده أكثر من سنتين » . اهـ

قال : « ومن أغرب الحوادث التي جرت في الجزائر وتجلى فيها استبداد الحكومة بافطع شكل الاستعمار الرسمي الذي أورد له المسيو فينيون أمثلة من أعاجيب الدهر من قبيل توزيع أراضي على أناس يعرفون من الزراعة بقدر ما يعرفون من لغة السنسكريت وبناء دور لم يبقَ فيها الآن دينار وذهبت نفقاتها كلها سدى . ولم تفد هذه التجارب رجال حكومتنا أدنى عبرة لأنه من عهد قريب كان والى الجزائر يطلب من الحكومة ٥٠ مليوناً لينزع بها أراضي من أيدي العرب ويبنى قرى للمستعمرين مكان قرى كانت قد خربت ولكن مجلسي البرلمان والسنات لحسن الحظ رفضا هذا الاقتراح خشية أن يؤدي تنفيذه الى ثورة

» فلا عجب اذا كنا بأعمال كهذه أنفقنا على استعمار الجزائر أربعة مليارات من خزانة فرنسة فضلاً عن دخل بلاد الجزائر

« فانتا منذ احتلنا الجزائر لم يوجد عندنا في أمرها الا رأيان أحدهما أن نطرد العرب الى الصحراء ونأخذ أراضيهم والثاني أن نفرسهم ونصبغهم بصبغتنا . فأما العرب فلم يتهيا طردهم كما كان المظنون لأن الصحراء لاتنبئ مايعيش به هؤلاء وهم ملايين من النسم ولأن طردهم قولاً واحداً لا يمكن بدون مقاومة منهم . وكذلك لم يتيسر لنا أن نفرسهم كما ظننا لأن نقل أمة من عقلية نشأت عليها الى عقلية أخرى غريبة عنها شديد الامتناع

« فكل من هاتين الطريقتين مذمومة ولا مصلحة لنا بها . ولاتزال فرنسة باستعمالها

(١) أى يسكنون فيها كفيلة لاغير

(٢) ثلاث ليرات عن مساحة ١٠ آلاف متر مربع فتأمل

تخسر وتضيع الى أن تفهم أن أمثل الطرائق هي ترك أهالي الجزائر على عاداتهم وعقائدهم وطرز معيشتهم كما هو عمل الشعوب المستعمرة كالانكليز والهولنديين في مستعمراتهم فهم أبسط الطرق وأقلها خساراً وأعلاها حكمة

«ولكن الرأي العام في فرنسة ضد هذا الأسلوب في الاستعمار . وعندنا الناس لا يعرفون أهمية الأوضاع الدينية في الشرق وان الحياة عند أتباع محمد كما عند أتباع سيوا (معبود الهنود) وأتباع بوذا (معبود الصينيين) هي كلها جارية وفق أوامر دينية . وليس عند الانكليز من يعتقد أنه لأجل حياة مبدأ يجوز أن تموت بلاد .

«فنحن كان يجب أن تكون سياستنا تعزيز الديانة الاسلامية ورجاها بدلا من مناصبتها العداء وكذلك كان يجب علينا احترام العادات والمنازع والأوضاع العربية التي هي عند هذه الأمة من الدين . فالسيو «لوروا بوليو» يسفه هذا الرأي ويقول «ان احترام منازع العرب وتقاليدهم وقواعدهم يوجب خروج جيشنا ومستعمرينا من افريقية . ولعمري لم نجد تعليلا معقولا لهذه الدعوى . وهانحن أولاء نرى الانكليز يحترمون قواعد المسلمين وعقائدهم في الهند وليس في نية الانكليز أن يجلبوا عن الهند» اه

ثم يذكر غستاف لوبون رأي «لوروا بوليو» في البربر وزعمه انهم أوريون وانه من الممكن كثيراً أن يتفرنسوا . وهو يهزأ برأيه هذا ويرد على زعم «لوروا بوليو» ان العرب كلهم رعاة وبدو ويقول ان القبيلين فيهما بدو وحضر بحسب طبيعة الأرض وان من العرب حضراً في الجزائر كما في سورية ومصر وجزيرة العرب . وان قابلية العرب للتمدن ثابتة بالحضارة الزاهرة التي كانت لهم ولم يكن مثلها للبربر

قال : «ثم يذكر «لوروا بوليو» من الأمور التي أوجبت تأخر العرب تعدد الزوجات ولا أريد الآن الخوض في هذا المبحث ولكني أكتفي بالقول ان تعدد الزوجات الشرعي عند المسلمين أفضل من تعدد النساء بدون صورة شرعية عند الأوربيين وماينشأ عن ذلك من الولادات غير المشروعة . ولقد أعطيت هذا البحث حقه في كتابي «تاريخ مدينة العرب» وأثبت أنه في ممالك العرب تعلمت نسوة تحت الحجاب ونبع منهن مثلما نبغ من مدارس الاناث في عصرنا»

ثم قال : « لقد تحقق الآن ان تعدد الزوجات لم يكن في يوم من الأيام سبباً في جود المسلمين . أيلزم أن ننبه قومنا الى أن العرب وأن العرب وحدهم هم الذين عرفونا بالعالم اليوناني اللاتيني وان جامعات اوربة ومن جللتها جامعة باريز بقيت مدة ستة قرون متوالية تعيش بتراجم كتب العرب وتطبيق قواعدهم العلمية . نعم لقد كانت المدنية العربية من أبهر المدنيات التي عرفها التاريخ ولقد ماتت كما مات غيرها ولكن لتعليل موتها بكونه من نتائج تعدد الزوجات ليس فيه شيء من التدقيق »

ثم قال : « وقد عدّ « لوروا بوليو » الثقافة اللاتينية من جملة العوامل التي يجب أن نعتمد عليها في استجلاب العرب اليها . وهذا هو الرأي السائد في فرنسا اليوم وقد كنت أنا نفسي من القائلين به ولم أعدل عنه الا بأسفار ومراقبات كثيرة . ومع اني لا أوصل أن أهدي طريق قارئاً أفرنسياً واحداً فاني أرى الموضوع أجل من أن لا اصارح فيه بكل أفكارى . ولقد خصصت الفصل الآتي من كتابي هذا بهذا المبحث وسيجد القارئ أن الثقافة الاوربية بعيدة عن اصلاح حالة الشرقيين بل هي أجدر بأن تزيدهم بؤساً في مادتهم ومعنائهم . فان هذه الثقافة التي هي نتيجة احساساتنا واحتياجاتنا نحن منذ قرون وأعصر لم تكن لتطابق احساسات أقوام آخرين واحتياجاتهم فتكون نتائج تطبيق ثقافة مخالفة لأذواقهم وشواعرهم واحتياجاتهم هي تجريدهم دفعة واحدة سواء كانوا عرباً أو هنوداً أو شرقيين آخرين من أفكارهم وعقائدهم الموروثة التي عليها قائم بناء وجودهم . فان صح حلم « لوروا بوليو » وأمثاله ممن يشيرون بنشئة العرب في الثقافة الاوربية فان الجزائر تكون لنا ما كانت البندقية لاوستريا وايرلاندة لانكلترا والالزاس لالمانيا

« ان مؤرخينا يندبون فقدنا الهند بعد أن كنا فتحنا جانباً منها . وأنا أقول : لا ينبغي لنا كل هذا الأسف لأنه لو بقيت لنا الهند وأخذنا نديرها كما ندير سائر مستعمراتنا الآن أى بالمبادئ والطرق التي يشير بها « لوروا بوليو » لما طال الأمر حتى اشتعلت بها الفتنة وعم الخراب وخرجت من يدنا .

« ولقد طبقوا في الهند الصينية وفي السودان والسنغال هذه السياسة بعينها أى حمل الأهالي الوطنيين على أوضاعنا وقوانيننا فجاءت باقبح النتائج وكرهتنا الى أولئك الأقوام

وأفقدتنا الأموال والرجال »

الى أن قال : « لقد أثبت التاريخ ان مدينتين مختلفتين تمام الاختلاف لاتندجان وأنه مارؤيت الأمة المغلوبة مندحجة فى الغالبة الا اذا كانتا متشابهتين من الأصل . فالشرق يندمج فى الشرق أما فى الغربى فلا . وهذا هو سر نفوذ العرب فى الشرق وفى الصين وفى الهند وفى افريقية فانهم كانوا كيفما تقلبوا طبعوا تلك الأمم بطابعهم وأعطوها صبغتهم وحيث حلت حضارة الاسلام ظهر أنها استقرت وثبتت . فهى فى الهند قد غلبت على حضارات أقدم منها وهى فى مصر قد عرّبت بلداً دخل فيه الفرس والرومان واليونان ولم يؤثروا فيها الا قليلا . واننا لنجد الاسلام يتقدم فى الهند والصين وفى القارة الافريقية وهذا برغم معاكسة المبشرين بالانجيل المنبئين فى كل مكان .

« ان الاوربيين مستعمرون ماهرون بدون نزاع ولكن من بعد رومة العظمى لم يأت مدنون بالفعل أقدر من المسلمين الذين تمكنوا من أن يحملوا أمماً كثيرة على دينهم وشريعته وصناعاتهم

« والاوربيون نظير الانكايىز فى الهند يقدرون أن يتغلبوا على شعوب شرقية هى متأخرة عنهم فاما محاولة تغيير عقلية هذه الشعوب فليست مما ينال لأن الفرق بينهم وبيننا فى الأذواق والمشارب والشواعر والاحتياجات عظيم جداً لايتأتى قطع مراحلها الا بأعصر طويلة ولأن مايلزم لهم لايلزم لنا . ولقد كنت أقضى العجب من أن أرى المتأدين الشرقيين الذين زاروا أوربة هم أقل الشرقيين افتناناً بحضارتها . وكنت أجدهم يرون دائماً الشرق أسعد وأصلح وأقوم من الاوربى مادام لم يتصل به » انتهى ببعض اختصار

وفى الصفحة ٢٥٣ قال غستاف لوبون :

« ان رأى الذى أنا مبديه فى استحالة صيغ العرب بصبغتنا واقامتهم على ثقافتنا ليس هو رأياً خاصاً بى بل تجده عند جميع الاوربيين الذين ساحوا فى الجزائر واطلعوا على امورها حق الاطلاع ونظروا الى الحقائق كما هى لا كما هو الهوى . وهو أيضاً رأى الأدباء الراسخين من العرب . ولقد شافيت من المسلمين عدداً لا يحصى من مراكش الى أقصى آسية ورأيتهم مجمعين على أن التريبة الاوربية للمسلمين تزيدهم عداوة لاوربية وقد تكون

عداوتهم من قبل فآرة أو غير موجودة . ولقد أكد لى أرباب المعرفة من المسلمين الذين
 حادثهم ان النتيجة الوحيدة لتعليمنا ناشتتهم هى افساد أخلاقها ، وإيجاد احتياجات لم تكن
 بضرورة لها وإيجاد روح الثورة فيها . وأنا على ثقة ان التربية الاوربية ان تمت وعمت
 فى الجزائر تمنون نتيجتها صوتاً صارخاً من جميع مسلميها : «الجزائر للعرب» . وذلك كما
 ان جميع الهنود المتعلمين يصرخون بصوت واحد الهند للهنود » اه

وفى الصفحة ٢٩٣ يتكلم غستاف لوبون عن عقم مساعى المبشرين المسيحيين وكيف
 ان عدد الذين نصرّ وهم هو قليل جداً بالقياس الى الملايين والملايين التى بذلوها وان
 المتنصرين لا يكونون الا من أدنى الطبقات . ويفيض فى هذا الموضوع . ثم يذكر على سبيل
 الاستشهاد الأربعة آلاف يتيم مسلم الذين رباهم الكردينال لافيجرى فى الديانة المسيحية
 فقد كانوا فى محيط منقطعة فيه جميع علائقهم مع المسلمين وقد تلقوا التربية المسيحية بكل
 معناها وما بلغوا الرشد حتى عادوا الى الاسلام دين آبائهم الا النادر منهم » اه

بلاد الطاغستان والشيخ شامل

للمشكبي

على الضفة الغربية من بحر الخزر بين ٤٣ و ٤١ من العرض الشمالى بلاد يقال لها طاغستان مساحتها نحو ٢٩٧٦٣٠ كيلو متر مربع وعدد نفوسها سبعمائة ألف ، أما اذا انضم اليها جميع بلاد القوقاس الشمالية فيقال ان أهلها يبلغون مليونين الى ثلاثة . وقد فتح العرب فى خلافة هشام بن عبد الملك الطاغستان سنة ١٠٥ للهجرة ووطد أخوه مسلمة الحكم العربى فى تلك الديار ، وكانوا يلقبونها بالدر بند ، وكانت ثغرا من ثغور العرب ومنها انتشر الاسلام فى تلك الاقطار ، وكان الاهالى من قبل وثنيين ونصارى ويهوداً . وروى المؤرخون ان احد ملوك تلك الامة صاحب مملكة خيدان كان يقيم شعائر الملل الثلاث فيصلى يوم الجمعة مع المسلمين والسبت مع اليهود ، والاحد مع النصارى . وكان فى تلك الاقطار عدة ملوك يلون عدة شعوب صغيرة معروفة باسم اللزقيين ، ولما اجتاحت المغول بلادهم كان أكثر هؤلاء صاروا مسلمين ، ولما كانت غارة تمرلنك (سنة ١٣٩٥ مسيحية) كان أشهر شعوب الطاغستان قبيلتين أحدهما القايتاق ، والآخر القومق ويقال لهم غازى قومق ، وكان حكم القايتاق الذى يلى الدر بند فى يد السلطان طوقتاميش شرف الدين اليزدى ، وكان ملك القومق يسمى بالشامكال أشبه بلقب كسرى لفارس وفرعون لمصر ، وكان هؤلاء من أشد أنصار الاسلام وأجسهم فى بث دعوته . وفى سنة ١٥٧٨ استولى على هاتيك البقاع الاتراك العثمانيون ولكن لم تطل فيها مدتهم . وأكثر أشراف الطاغستان يدعون انهم من أصل عربى وان آباءهم قدموا مع مسلمة بن عبد الملك واحياناً يخلطون معه أبا مسلم ويجعلون قبره فى مدينة غنراق ويقولون انه هو باني الجامع الأول فى بلاد القمق . وقد صادفت فى الروسية بعض أشراف الطاغستان فقالوا لى ان أصلهم من العرب يوم فتحوا الدر بند وهم يفتخرون بذلك . واشتهر من ملوك القايتاق السلطان أحمد خان المتوفى سنة ٩٩٦ هجرية أى ١٥٨٧ مسيحية وهو الذى يقال انه بنى مدينة « المجلس »

لأنه كان يجتمع فيها شيوخ الأمة ويتفاوضون في الأمور العامة . وفي سنة ١٦٤٠ انفصلت فرقة من الفايثاق وانتجعت الأراضي الواقعة جنوبي الطاغستان وأمرت عليها حسين خان ، فجعل مركز امارته ساليان وكوبا ، ومن هذا الفرع ظهر في القرن الثامن عشر فتح علي خان أمير كوبا والدر بند

وقد طمع الروس في الاستيلاء على الطاغستان منذ أواخر القرن السادس للمسيح فلم يفلحوا وهزمهم أولاد الشامكال وأخرجوهم من بلد سولاك التي كانوا احتلوها ، ثم سنة ١٦٠٤ كروا ثانية على الطاغستان وقصدوا بلدة طاركهو فلم يفوزوا بطائل وكان الشامكال قد خضع لآل عثمان ، وتبعه أمير تابازاران ، والأمير الآخر الملقب بالعصمي ، فلما زحف الشاه عباس سلطان العجم على هذه البلاد سنة ١٦٠٦ انحاز اليه العصمي رستم خان و بقي الشامكال متمسكا بالعثمانيين الا أن رستم خان انحاز أخيراً الى هؤلاء خالفه الشامكال الى سلطان العجم ولما ضعف أمر الدولة الصفوية في فارس ثارت أهالي الطاغستان ونبنت طاعة الفرس ، واستقل سركاى خان بامارة القومق . ثم تحالف هو والأمير الملقب بالعصمي ، والمدرس الحاج داود ، ممن كان مطاعاً بين العامة واستولوا على شامكى ثم أرسلوا الى استانبول يطلبون من الدولة أن ترسل اليهم خلع الولاية وتعرفهم من رعاياها . فاحتج بطرس الأكبر صاحب الروسية بأن ثلاثمائة تاجر روسي قد قتلوا يوم فتح شامكى وساق جيشاً استولى على الدر بند وسائر سواحل الخزر الغربية (١٧٢٢) الا ان نادر شاه صاحب فارس غزا هذه البلاد واسترجع أكثرها من أيدي الروس (١٧٣٥) وزحف تتر القريم التابعون للدولة العثمانية على الطاغستان في تلك الأثناء ففشلوا ، وبقى الحكم هناك للعجم لكن المملكة الفارسية بعد نادر شاه تضعضع أمرها ، فتقلص ظلها عن الطاغستان ، وزحف الروس ثانية فاجتاحوا البلاد سنة ١٧٧٥ وفي سنة ١٧٨٤ خضع لهم الشامكال مرتضى علي وبعد ذلك استولوا على القوقاس ، فتمكنت قدمهم في الطاغستان ولما استولى آل قاجار^(١) على فارس أحبوا أن يستردوا حقوق فارس على الطاغستان فاشتعلت الحرب بينهم وبين الروس ولم تنته الا سنة ١٨٠٦ اذ فاز الروس بالاستيلاء على هذا القطر ، وسنة ١٨١٣ نزل لهم العجم عن كل حق لهم فيه

(١) الأسرة المالكة في ايران عند كتابة هذه السطور

ولما تخلى الترك من جهة والفرس من جهة عن الطاغستان ، عقد أمراء البلاد مخالفة فيما بينهم على مناهضة الروس فاشتبك القتال بين الفريقين ، وتجمعت الروسية كلها عظيمة الى أن تمكنت من تدويج البلاد فألغت لقب العصي من أمراء قايتاق (١٨١٩) ولقب المعصوم أمير تبازاران (١٨٢٨) وجعلت لدى الأمراء الباقين ضباطاً روسيين يأخذون على أيديهم ، فاستسلموا جميعاً للحكومة الروسية ، فثار الشعب على الروس وعلى الأمراء وتولى كبر الثورة علماءهم وشيوخ الطريقة النقشبندية المنتشرة هناك ، وكانهم سبقوا سائر المسلمين الى معرفة كون ضررهم هو من أمرائهم الذين أكثرهم يبيعون حقوق الأمة بلقب ملك أو أمير ، وتبوء كرسي أو سرير ، ورفع علم كاذب ، ولذة فارغة ، باعطاء أوسمة ومراتب ، فثاروا منذ ذلك الوقت على الأمراء وعلى الروسية حاميتهم ، وطلبوا أن تكون المعاملات وفقاً لأصول الشريعة لا للعادات القديمة الباقية من جاهلية أولئك الأقوام ، وكان زعيم تلك الحركة غازي محمد الذي يلقبه الروس بقاضي ملا ، وكان من العلماء المتبحرين في العلوم العربية ، وله تأليف في وجوب نبد تلك العادات القديمة المخالفة للشرع اسمه « اقامة البرهان على ارتداد عرفاء طاغستان »

وفي ٢٩ تشرين الاول سنة ١٨٣٢ بعد جهاد طويل احيط بغازي محمد في قرية جيمري ، واستشهد في معمة القتال رحمه الله ، فخلفه حزة بك الذي استشهد أيضاً رحمه الله بقرب غزاق بعد ذلك بستين ، فتولى زعامة الثورة الشيخ شامل افندي المقصود بهذه الترجمة . وهو على نمط الامير عبد القادر الجزائري ، خرج من المشيخة الى الامارة ، وتناول السيف من طريق القلم . ولم يدن الشيخ شامل في سعة علم سلفيه ولكنه كان احسن منهم ادارة للامور ، وبصيرة بالحروب ، فشرعن ساق الجهاد والتف ذلك الشعب الأبى من حوله ، فنب عن حوض ملته نحو ٣٥ سنة ظفر فيها بالروس في وقائع عديدة والتي الرعب في قلوبهم . وجلاهم عن جميع البلاد الا بعض مواقع ثبتوا فيها في الناحية الجنوبية وكانت أعظم الدبرات التي والاها عليهم هي في سنتي ١٨٤٣ و ١٨٤٤ حيث افتتح جميع الحصون التي كانت لهم في الجبال وغنم منهم ٣٥ مدفعاً وأعتاداً حربية ومؤناً وافرة ، وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى ، فجردت الروسية بعظمة ملكها وسلطانها جيوشاً جرارة ونادت هي بالجهاد في الطاغستان . ونظم شعراء الروس القصائد في وصف تلك الحروب ،

وما زالت توالى الزخوف حتى تمكنت من البلاد ولكن بقى الشيخ شامل عشر سنوات يناوشها القتال فى الجهات الغربية من الجبال ولم يسلم هذا المجاهد العظيم للروس الا فى ٦ ايلول سنة ١٨٥٩ فعمد الروس على أثر تسليمه الى اعادة سلطة الأمراء ليتمكنوا بهم من خضد شوكة العلماء الذين لم تمنى المقاومة الا بهم ومنهم . ولكن لما استتب لهم الامر بواسطة هؤلاء الامراء عادوا فخلعوهم هم أيضا كما هى العادة بأن هذه الدول تبدأ أولا باستعمال نفوذ الامير الوطنى فى اغراضها . وتصريفه فى حاجاتها ، حتى اذا قضتها كلها رجعت اليه ونبذته نبذ الحصى ، وذهب يقرع سن الندم على استرساله اليها واعتماده عليها ، فى عام ١٨٦٢ استأصلت الحكومة الروسية جميع ما كان بقى من جرائم الامارة الاهلية وأزالت اولئك الامراء حتى عن كراسيهم الوهمية . وبقى الامر كذلك الى سنة ١٨٧٧ اذ نشبت الحرب بين الروسية والعثمانية فثار الطاغستانيون وافتتحوا قلعة القومق ، ورفع ابناء البيوتات التى كانت مالكة من قبل أعلام الثورة ، واستعادوا لقب العصمى ، ولقب المعصوم ، ولكن لما دارت الدائرة على الدولة العثمانية فى تلك الحرب ، تمكن الروس من قمع الثورة بدون عناء كبير

ولما انحلت الحكومة الروسية القيصرية ، وقامت الحكومة البولشفيكية سنة ١٩١٧ محلها وأعلنت استقلال الأمم المهضومة ، وخيرت الشعوب التى كان القياصرة الروس قد أخضعوها بحمد السيف بين أن تبقى منضمة الى الروسية الأصلية ، أو تنفصل عنها ، كان أهالى بلاد القوقاس أجعين ممن أعلنوا استقلالهم التام ، فتألفت جمهورية فى كرجستان ، وأخرى فى الطاغستان ، والثالثة فى آذربيجان ، والرابعة فى أريفان ، وأودت كل من الجمهوريات الأربع وفودها الى الاستانة لمفاوضة الأتراك والألمان فى الاعتراف بهذه الجمهوريات الأربع ، وصار الحديث فى ارتباطها بعضها ببعض بشكل حلفى ، وكان الوفد الطاغستانى الجركسى مؤلفاً من عبد المجيد بك ، وعلى بك ، وحيدر بك بامات الذى كان ناظر الخارجية الطاغستانية . وما مضت مدة قصيرة حتى داخل الكرج الدولة الالمانية وطلبوا حمايتها فاعترفت لهم بالاستقلال دون غيرهم وحدث ذلك خلافاً بين الاتراك والالمان لان تركيا تقاضت حليفها المانيا الاعتراف باستقلال الجمهوريات الثلاث الباقية حتى ان طلعت باشا الصدر الأعظم يومئذ سعى لدى ألمانيا فى معرفة استقلال جمهورية اريفان الارمنية التى كانت

تتقرب من الدولة العلية ، وكان رجال الدولة يريدون بمساعدتها اصلاح ذات البين بينهم وبين الأرمن فتقدم أنور باشا الى هذا العاجز أن أذهب الى برلين وأتكلّم في هذا الموضوع وأقنع نظارة الخارجية الألمانية بلزوم المساواة بين جمهوريات القوقاس كلها ، والا لم يكن مناص من الاختلاف . وكلفني الوفد الطاغستاني أيضاً أن أهتم بقضيتهم نوعاً لأنهم حسبوا أن الترك قد يصرفون معظم عنايتهم في مصلحة جمهورية أذربيجان التركية فقط فبدلت في تلك الأيام جهدي مع نظارة الخارجية في برلين في تهديد الخلاف ، وكان أكثر الكلام مع فون روزنبرغ الذي كان مديراً للامور الشرقية ، وهو هو اليوم بينا أحرر هذه الأسطر ناظر الخارجية الألمانية . ولم يلبث أن حضر الى برلين طلعت باشا والكونت برنستورف سفير ألمانيا في الاستانة ، واشتركنا في حل هذه المسائل جميعاً وتم الاتفاق لولا أن الحرب في الجبهة المقدونية جاءت بما لم يكن في الحساب . وطلبت بلغاريا الهدنة ، وابتدأت نهاية الحرب فوقف كل شيء من جهة ألمانيا وتركيا ، واحتل الانكليز القوقاس ، وعلق القوقاسيون عامة آمالهم بانكثرة أنها تعترف باستقلالهم وتوطد لهم حكوماتهم ، لاسيما أنها كانت تعطف على الطاغستانيين قديماً أثناء مقاومتهم الطويلة للروس فكان الأمر بالعكس اذ حصرت انكثرة جهودها في مناهضة البولشفيك واعادة الحكم الامبراطوري على أصله وأمدت الجنرال دينيكن عدو هؤلاء بالمال والسلاح ، فبدأ الجنرال بالحرب مع البولشفيك حتى غزا الطاغستان وحاول القضاء على استقلالهم فحرت بين الفريقين الوقائع الدامية ، وما زالت الى أن انقضى أمر دينيكن ، واستتب الأمر للبولشفيين أنفسهم ، فجرد هؤلاء جيوشاً على جمهوريات القوقاس الأربع . فقبضوا على أزمتهما وأحقوها بحكومة موسكو خلافاً لوعدهم الأول ، ونار أهالي الطاغستان عليهم فتغلبت الخدمة البولشفية على الثوار وقبضت على بعضهم وألقته في السجون ، وشرد قسم من رؤساء الحكومة المستقلة ، ومنهم عبد المجيد بك وصديقنا حيدر بك بامات الى أوروبا ، حيث يواصلون مساعيهم لأجل قضيتهم القومية الى يومنا هذا .

وبلاد الطاغستان متعددة اللغات فمنها لغة الآقار ، ولغة القومق ، ولغة القايதாக ، ولغة الدارغا ، ولغة تابازاران ومنهم من يتكلم بلغة فارسية ، وفي الدردبند والسواحل يتكلمون بالتركية الاذرية أي الجغتاي ، وهي أرقى جداً من اللغات السابقة الذكر ،

ولكن لسان العلم في جبال الطاغستان هو اللسان العربي ، وهو اللسان الذي يتكاتب به أعيان تلك الأمة ، وقد صادفت سنة ١٩١٩ الوفد الطاغستاني الجركسي في « برن » قاعدة سويسرة ولزمتهم مكاتبات الى رؤساء بلادهم ، فكلفني حيدر بك بامات بتحريرها لهم بالعربية الفصحى ، وكثير من علماء طاغستان معدودون من علماء العربية .

قد حرر تاريخ الطاغستان كثير من مؤرخي الألمان والروس والفرنسيين مذكورة أسماؤهم في دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، واصديقنا الاستاذ عزيز بك مكير ناموس السفارة التركية الحالية بموسكو وأحد فضلاء الأمة الجركسية ، رسالة باللغة الفرنسية وافية بأخبار تلك الأمة . ولميرزا حسن افندي ابن الحاج عبد الله افندي الأقدري الطاغستاني تاريخ باللهجة الأذرية اسمه « كتاب آثار طاغستان » طبع في بطرسبرج سنة ١٨٩٥ ولم يسمح الروس بنشره الا سنة ١٩٠٢ بعد رفع المراقبة عن المطبوعات ، ومحرر هذا التاريخ كان ممن اشترك بثورة ١٨٧٧ ونفاه الروس مدة مديدة .

وقد عرفت في المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر كامل باشا حفيد المرحوم الشيخ شامل ، وانعقدت بيننا الصحبة لما رأيت من حسن أخلاقه ، ولما نشبت الحرب الكبرى استدعته الدولة الى الاستانة وكانت له مواقف في خدمتها تليق بمن كان حفيدا لذلك الجد الأجد .

المهدى المنتظر

لله شيب

اتفقت الأديان السماوية الثلاثة على ظهور واحد في آخر الزمان . فاليهود لا يزالون منتظرين المسيح الذى يحدد ملكهم قبيل انقراض الدنيا . والنصارى يرون فى عيسى عليه السلام المسيح الذى بشرت به الأنبياء ويقولون برجوعه فى آخر الوقت لآبادة الدجال الذى ينبئ به يوحنا . والمسلمون أيضاً عندهم المهدى الذى يظهر قبل قيام الساعة ليملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً . ويروون عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مامعناه لا تقوم الساعة حتى يخرج من ذريتي رجل اسمه كاسمى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ويظهر الاسلام على الدين كله . وبعضهم قال ان المهدى الذى سيظهر فى آخر الزمان هو عيسى عليه السلام . وبعضهم قال بل هو على بن أبى طالب . والشيعنة الامامية يقولون انه محمد الحجة ابن الحسن العسكري ، بن على النقي ، بن محمد التقي ، بن على الرضا ، بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، ابن محمد الباقر ، ابن على السجاد زين العابدين ، ابن الامام الحسين السبط ، ابن سيدنا الامام على رضى الله عنه وعنهم جميعاً ، وان محمد الحجة هذا دخل مع أمه صغيراً سرداباً بالحلة من أرض العراق واختفى فهم ينتظرونه الى الآن . قال القلقشندي فى صبح الاعشى : ويقال أنهم فى كل ليلة يقفون عند باب السرداب ببغلة مشدودة ملجمة من الغروب الى مغيب الشفق ، ينادون أيها الامام قد كثر الظلم ، وظهر الجور ، فأخرج إلينا . وروى ياقوت أنهم كانوا فى قاشان من بلاد العجم يركبون كل صباح الى لقاءه ، وذلك فى أواخر القرن الخامس للهجرة . وروى ابن بطوطة انه لما مر بالحلة رأى مسجداً مسدولاً على بابه سجن من الحرير ، وأنه كان يأتى كل يوم مائة رجل متقلدين السلاح فيصلون العصر ، ثم يذهبون الى قائد البلد ، فيعطيهم بغلة ملجمة مسروجة فيطوفون بها ، وهم يطبلون ويزمرون ، حتى اذا انتهوا الى باب ذلك المسجد نادوا : يا امام الزمان اخرج فان الظلم قد ظهر ، والفساد قد كثر .. الخ

والفرقة الكيسانية يجعلون المهدي محمداً بن الحنفية^(١) وينتظرونه ويقولون انه لم يمت وانه مختف في جبل رضوى ، بين المدينة وينبع . وكان عند ملوك الصفوية في العجم عادة ، وهي اسراج رأسين من الخيل معدين دائماً في القصر لاستقبال المهدي وعيسى المنتظر مجيئهما كل ساعة . وهذا يشبه عمل بعض المتهوسين من الافرنج الذين يقيمون بالقدس منتظرين مجيء السيد المسيح ويوم الدينونة . روى هوارت Huart الفرنسي صاحب تاريخ العرب المطبوع سنة ١٩١٣ أن انكليزيا ورد بيت المقدس وأقام بالوادى الذى يقال انه ستكون به الدينونة ، وشرع كل صباح يقرع الطبل منتظراً الحشر . وسمعت أن امرأة « انكليزية فيما أظن » جاءت القدس وكانت تغلى الشاي كل يوم لأجل أن تقدمه للسيد المسيح ساعة وصوله وحدث لامرتين الشاعر الفرنسي العظيم في رحلته بجبل لبنان أنه زار في قرية جون السيدة استيرستانهوب ابنة أخى بيت Pill الوزير الانكليزي الشهير فرأى عندها فرساً مسرجاً دائماً ليكون ركوبة للسيد المسيح المنتظر وصوله .

وقد استخدم قضية المهدي كثير من الدول الاسلامية لترويج دعواتها فالدولة الفاطمية عند مازهرت بتونس ادعت أن عبيدالله مؤسسها هو المهدي . ومحمد بن تومرت لما قام بمصمودة في المغرب قام بالدعوة الى المهدي ، وبها تأسست دولة الموحدين بنى عبد المؤمن . وقام في أيام الدولة المرينية بفاس رجل اسمه التويزرى أصله من توزر من تونس وادعى أنه المهدي واعتصم برباط حصين اسمه (ماسا) بالسوس الأقصى . واعصوب حوله رؤساء صنهاجة فقتله المصامدة . وكذلك ظهر رجل آخر اسمه العباس بين سنئ ٧٠٠ و٦٩٠ للهجرة في نواحي الريف من الغرب وقال انه المهدي وثار معه جماعة فقتل وانتهى أمره . وظهر في السنيغال سنة ١٨٢٨ ميلادية رجل ادعى أنه المهدي وأحدث ثورة ثم انكسر وذهبت ريحه . ولما احتل الفرنسيين مصرأ في زمان بونابرت قاتلهم بين دمنهور ورشيد رجل مغربي من طرابلس ادعى أنه المهدي ومازال يقاتلهم حتى قتل .

وبعد ثورة أحمدعرباني بمصر ظهر في السودان رجل اسمه محمد أحمد ادعى أنه المهدي ويقال ان والده كان يسمى عبدالله وأمه كانت تسمى آمنة ، وكان له أخوان أكبر منه يصنعان السفن في النيل الأبيض ، فأرسله يحصل العلم في نواحي الخرطوم ، ولما بلغ الخامسة

والعشرين من سنة انقطع الى العبادة في أحد الكهوف ، وظهر من ورعه وزهده ما تحدث به الناس فاتبعته قبيلة البقارة وهي قبيلة عظيمة عربية الأصل من جبهة فنصرته وقالت انه هو المهدى . وأعلن هو ذلك سنة ١٣٠٠ هجرية . وكان رؤوف باشا والى السودان المصرى أرسل ٢٠٠ جندي للقبض عليه ، فقتلهم جماعة محمد أحمد جميعاً ، وانحاز هذا الى جبل هناك والتف حوله السودانيون فجرت الحكومة المصرية جيشاً تحت قيادة جيفلر باشا البقارى فهاجه نحو ٥٠٠ الف سودانى وأبادوه ، ولم ينج من المصريين سوى ١٢٠ رجلاً ، فدخل المهدى الأبيض سنة ١٨٨٣ في ١٧ كانون الثانى وجعلها كرسى حكمه . فجرت الحكومة المصرية جيشاً آخر بقيادة هيكل باشا فأباده السودانيون أيضاً وأخيراً أبادوا قوة غوردون باشا في الخرطوم ، واستولوا على السودان كله . وبعد موت المهدى خلفه التعايشى أحد زعماء قبيلة البقارة ، واستفحل أمره فأشار الانكليز على مصر « والاشارة هنا بمقام الأمر » أن تتخلى عن السودان وتتركه وشأنه ، ولم يكن ذلك الا توطئة لفتوحهم هم للسودان ، فانهم مالبنوا أن جردوا جيشاً من المصريين يقوده ضباط انكليز رئيسهم الجنرال كتشتر فاستفتحوا السودان برجال مصر ومال مصر ، وعادوا يقولون للمصريين ان السودان مشترك بيننا وبينكم ، والحقيقة أن لاحق لهم بهذه الشركة ، لأن السودان كله لمصر ولا تستغنى عنه مصر طرفة عين فضلاً عن كون هذه الشركة هي اسمية ، لأن كل شئ في السودان هو في يد انكلترة ، ومن ولى أمر السودان فقد أخذ بمخنق مصر ، لاتملك هذه معه أن تصعد نفساً ، ولذلك مسألة السودان هذه هي العقدة الكبرى المعضلة الواقعة في وجه حل المسئلة المصرية بين انكلترة ومصر ، واذا تخلت مصر عن السودان فقد تخلت عن نفسها .

افغانستان

للامير شكيب

هنا موقف عظيم من أعظم مواقف الاسلام في العالم ، ومعتزك شهير من أجل مقاماته فيما حدث ، فضلا عما تقدم ، ولعمري لولم يبق للاسلام في الدنيا عرق ينبض ، لرأيت عرقه بين سكان جبال الجلایا والهندكوش نابضاً ، وعزمه هنالك ناهضاً ، ألا وانه من هناك غزا الفاتح العربي محمد بن القاسم في صدر الاسلام الهند ، وفتح السند (٧١٢ ميلادية) ووصل الى حدود الملتان ومن تلك الجبال انحدر ذلك المجاهد الكبير اسكندر الاسلام ، وحامي المعارف والعلوم في عصره ، السلطان محمود بن سبكتسين الغزنوي التركي ، في أوائل القرن الحادي عشر للميلاد ، ودوخ الهند من أقصاها الى أقصاها ، وتآلب عليه رجاوات (ملوك) لاهور ، واناغبال ، ودهلي ، واجير ، وقنوج ، وغفاليور ، وكالنجار ، واودجين ، حزمة واحدة ، ووقف العالم البراهمي بازاء العالم الاسلامي ، واصطفت الاقران ، وانتصب الميزان ، فادال الله للعالم الاسلامي من العالم البراهمي في واقعة «باتنداه» ، وتمزق شمل الراجاوات كل ممزق ، وفتح محمود كشمير ودهلي ، واقام ولاية من قبله في لاهور ، وجعل راجا قنوج من أتباعه ، واكمل توطيد ملكه في جميع البنجاب ، وغزا كالنجار تلك المدينة الموصوفة بمنعتها ، فانقاد له ملوك تلك الديار صاغرين وقصد كوجرات وحطم الصنم الأعظم المعروف بسومنتا وفتح بهاضية ذلك الفتح الذي تحدثت به الركبان ، وكتب فيه تلك الرسالة الطنانة شيخ الكتاب أبو الفضل بدیع الزمان ، فقال انه « الفتح الذي تضاءلت أمامه الفتوح ، وأنتت عليه الملائكة والروح » الخ وذكر عن الهند وعجائبها وعظمة الخلائق التي فيها ، ما عرف بقدر تلك الفتوحات التي أتاحها الله للاسلام على يد أمين الدولة ويمين الملة^(١) قال المسيو رينه غروسه René Grousset صاحب تاريخ آسية الذي ظهر سنة ١٩٢٢ في ثلاثة مجلدات مختصاً من روايات أكابر المحققين ، وذلك في بحث الهند لعهد الاسلام ، ما يأتي تعريبه :

(١) هو لقب السلطان محمود الغزنوي

« ان محمودا قام بصليبية اسلامية ^(١) استمرت الى القرن الثامن عشر وكانت كسائر الصليبيات ، جامعة بين روح الدعوة الدينية ، وروح الطمع في السحت ، وان محموداً بقيت صورته العالية مشرفة على ثمانية قرون ملأى بالفتوحات ، لأن الجهاد الذي كان هو أول أبطاله ، لم يبلغ حد النهاية الا في فجر العصر الحديث بعد أن عرفت أرض البراهمة من جبال جلالي الى سواحل كور وماندل ، اسم الله تعالى ودانت لسلطين الترك المغوليين »

واقفني أثر محمود بن سبكتكين التركي ، محمد الغوري الأفغاني ، الذي استولى على سلطنة آل سبكتكين وغزا مثلهم الهند ، وشتت في واقعة « تانسوار » الثلاثمائة ألف فارس والثلاثة آلاف فيل التي حشدتها لقتاله ملوك الهند ، وافتتح دهلي ، وقنوج ، وميرات ، وآغرا ، وضمها الى ممالكه (١١٩٤ ميلادية) وأتم عمله بملوكة آيبك التركي الذي فتح بنارس ، وضرب الجزية على ملوك كافالبور ، ومالفا ، وافتتح كوجرات ، وكالنجار ، وضم الى المملكة بوندلكاند . ثم القائد بختيار الأفغاني ، الذي افتتح مغدلا ، والبنغال ، وأزال الدولة البوذية من تلك الأقطار فكان عمل هؤلاء الفاتحين مقدمة لسلطنة اسلامية عظمى قاعدتها دهلي وقد بسطت جناحها على الهند بجذافيرها ، واستتبت من القرن العاشر للمسيح الى أوائل القرن التاسع عشر اذ هرمت وعجزت وانقرضت على أيدي الانكليز كما هو معلوم . وليس المراد هنا تاريخ الدول الاسلامية التي تعاقبت من ذلك الوقت على الهند ، ولكن المراد هو ذكر العلاقة الشديدة التي بين اسلام الهند وبلاد الأفغان التي منها انحدر الفاتحون المسلمون سواء كانوا من العرب ، أو من العجم ، أو من الترك ، أو من الأفغان واثبات ان تلك الجبال كانت ولم تزال على ما يعاوها من الثلوج مستوقد حاسية ، ومثار حية ، وموطن فتوة ، ومعدن فروسة ، واليك ملخص تاريخ علاقاتها مع الانكليز منذ وضعوا أيديهم على الهند الى يومنا هذا : -

قال المسيو لومارشان Le Marchand أحد ضباط الجيش الفرنسي ومن أعضاء الأكلادمية العسكرية في كتابه « حرب الانكليز مع الأفغان » الذي ظهر سنة ١٨٧٩ ما يأتي تعريبه ملخصا :

(١) يعنون بذلك سلسلة حروب أشبه بحرب الصليب

« ان مبدأ علاقة انكلترة مع افغانستان كان في القرن التاسع عشر ، وذلك عند ما أرسل نابليون الأول « الجنرال غاردان » لمفاوضة العجم في عقد محالفة بينها وبين فرنسا ، لأجل فتح الهند ، فلما بلغ الانكليز ذلك أسرعوا بارسال وفد الى كابول ليتخذوا من الأفغان رداءً ضد العجم ، وكان يومئذ في كابول أمير عليه لقب شاه مثل شاه الفرس فصلت عليه ثورة ، واستولى على الملك أخو الصدر الأعظم الذي كان عند ذلك الشاه وفر أحو الشاه الأفغاني الى الهند ، ملتجئاً الى الانكليز مستمداً نصرتهم لاسترداد ملكه كما ان أمير الأفغان الجديد ، وهو المسمى دوست محمد خان ، عقد حلفاً مع الروس فكان عمله هذا كافياً لتجريد حملة انكليزية على افغانستان ١٨٣٩ . وكان قد سبق الحملة الى كابول السائح الانكليزي المشهور برنس Burnes ليقاوم فيها دسائس الضابط فيكوفيتش الروسي فلما رجع برنس الى الهند أقنع « اللورد اوكلاند » بوجوب الزحف واعادة الشاه القديم شجاع الملك ، ولكن ما أعيد الشاه المذكور حتى وجد الانكليز حاجة ماسة الى تعزيزه بجيش عظيم ، لما كان قد انتشر في البلاد من الفوضى ، وظهر من عدوان الأهالي للانكليز . وفي سنة ١٨٤١ شبت نار الثورة في كابول ، وقتل فيها المعتمد البريطاني ، وعدد من ضباط الانكليز ، ثم اضطر القائد الانكليزي ، بالنظر الى تخرج موقعه ، الى طلب الأمان على نفسه وعلى جنده ، على أن يخرج من البلاد بدون توقف لا يلوى على شيء ، وهكـذا خرج في أشد زمهرير الشتاء ، وكان ما كان من الملحمة المشهورة التي استأصل فيها الأفغانيون ١٦ ألف أو ١٧ ألف جندي انكليزي ليس منهم سوى ٤ الى ٥ آلاف مقاتل ، وذلك في كين نصبوه لهم في « خورد كابول » فلم ينج سوى الطبيب العسكري « بريدون Brydon » الذي فر الى جلال آباد ليخبر قومه بالفادحة العمطى . ثم ان الأفغان تقدموا وحاصروا جلال آباد التي كانت فيه حامية انكليزية ، فقاومتهم زهاء شهرين الى أن زحف « الجنرال بولوك » من الهند فأنقذها . ثم بعد مدة زحف الانكليز بحملة عظيمة على كابول ونسفوا قلاعها ، ودار الملك وأخنوا بشارهم عماسبق (قال) : وقد أردنا الاشارة الى هاتين الحملتين اللتين تقدمتا للانكليز في افغانستان لما لهما من العلاقة بالحرب الحاضرة (١) كما أنه لا يخلو من الفائدة معرفة ما يعترض جيشاً أوروبياً يريد التوغل في تلك الديار من العقبات

(١) أي حرب سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٨٨٠

الصعاب وما يستجلب النظر من كون كتاب العساكر الأفغانية التي كان الانكليز قد كتبوها واستخدموها وظنوها أصبحت من جلة جيشهم قد انقلبت عليهم وكانت أشد أعدائهم وطأة في تلك الحرب » انتهى

نقول ما أستأصل جيش أوربي قوة وطنية في آسية أو افريقية ، وخطر ببال مؤرخ أوربي أن يذكر ما هناك من الاعذار المشروعة ، والاسباب المعقولة ، التي قضت بالطائفة للاوربيين على الوطنيين ، مع ما بين الفريقين من التفاوت في الاعتاد الحربية ، والاختراعات الفنية ، والمعرفة بعلم التعبئة ، وأصول القتال ، فاذا أتاح الله واقعة بالعسك قضى فيها بغلبة الوطنى على الاوربي أسرع المؤرخون الأوربيون الى تمويه تلك الدبرة بالتماس الأسباب الخفيفة ، واتتحال الأعذار المتنوعة ، التي لا تكاد تخلو منها هزيمة ، وذلك حرصاً على الشرف الاوربي أن يمسه نقص ، وعلى المسكاة الافرنجية أن تتزعزع في نظر الوطنيين . فالجيش الانكليزي في خورد كابل وهو ١٧ ألفاً قد أفنى على بكرة أبيه ، سواء كان كله مقاتلين أم كان بعضه مقاتلا والآخر حاملا للذخيرة . والانكليز قد تعاملوا من تلك الواقعة أن ينظروا الى الأفغان بغير العين التي ينظرون بها الى جيرانهم الهنود وعرفوا ان الأفغانى لا ينام على النار ، ولا يقبل أن يطاء الاجنبى وطنه ولا يواطىء العدو على استقلال بلاده ، كما حصل من كثير من أمراء المساميين الذين كان الواحد منهم يسعى بين يدى القوة الأجنبية ، ويدل أمامها مناكب قومه ، طمعاً في أن تلبسه تاجاً موهوماً ، أو تركبه عرشاً اسمياً ، كلا . ان الافغان منذ أول احتكاكهم بالانكليز أفهموا بأعمالهم هؤلاء أنهم ليسوا من طينة غيرهم من جيرانهم ، وأن المنافسة فيما بين أمراءهم على الملك لاتصل الى حد الاجتراف بالاستقلال ، والمسامحة بأموال الملك ، وأن الوفاء بالعهد عندهم لا يبلغ درجة تواطؤ الرجل مع الاجنبى على قومه ، ومقاتلة الجندي الافغانى جندياً افغانياً آخر يذب عن حوض وطنه ، بسبب كون الاول يأخذ جراية من ذلك الاجنبى ؟ كما فعل كثير من سلاطين الاسلام ورؤسائه واجناده ، واغتروا بالنعمة الزائلة والجائزة الموقته التي لم تلبث أن ألفت بكاءهم دماً ، واكلهم اناملهم ندماً ، بعد انقضاء الوتر ، واستتباب الأمر للفتاح الغريب ، بما لا تحصى ولا تعد أمائيله ، سواء في آسية أو في افريقية . ونقول مع الأسف ان الاسلام لما يبيل تماماً من هذا المرض ، وانه ان كان ورد في أثره الشريف انه لا

يلدغ المؤمن من جحر مرتين فتراه اليوم يلدغ من جحر واحد مائة مرة ولا يتوب . وقد رأينا أن أكثر فتوحات اوربا في بلاد المسلمين والشرقيين عموماً إنما انسقت لها على أيدي المسلمين والشرقيين ، فأوربا اعتادت أن تستعين عليهم بهم وأن تضرب الأخ بالأخ وان تقرر النبع بالنبع ، وان تجرد على الاقطار التي تنوى استعمارها جنوداً من أهالي المستعمرات ، تخطهم بنزر من جنود اوريية ، وتضع على رأسهم قواداً اورييين ، وتنال بذلك منها ، وفي حرب افغانستان هذه ، وفي التي تليها . قد استعملت من أجناد الهند ورجالها وجالها وأفيالها ، ومن العساكر المتقدمة من ملوكها وأفيالها ، حتى من نفس ملوك الاسلام في الهند ، ما لا حاجة الى احصائه هنا ، كما انه في ثورة الهند الكبرى سنة ١٨٥٧ وهي التي اشفت انكثرة فيها أن تخسر الهند بأسرها ، يعترف المؤرخ المتقدم ذكره وغيره أنهم لم يكن بقي في جميع الهند سوى ١٠ آلاف جندي انكليزي لحفظ ١٩٠ مليوناً^(١) يردفها لواء واحد من متطوعة البنجاب ، وانه في تلك الأزمة ظهرت مهارة اللورد لورانس باستنفار بعض الزعماء لتكثيب جنود من الأهليين ، اجتمع منهم فيما بعد فيلق جرار ، كان هو السبب في حفظ انكثرة لا للبنجاب فقط بل لجميع الهند . فالهنود هم الذين في الحقيقة فتحوا أنفسهم بأنفسهم لحساب انكثرة أولاً وآخراً ، وقد حاولت هذه الدولة أن تجري على هذه الطريقة في افغانستان فلم تنسق لها لا أولاً ولا آخراً ، ولو كان الأفغان مثل الهنود أو البلوج أو غيرهم من الأمم التي علفت في الحبال الاوربية لكانت افغانستان اليوم ولاية من ولايات الهند ، أو امارة يليها بالاسم أمير من أهلها والحكم الحقيقي فيها للوزير المقيم أو للمعتمد أو للعميد كما يسمونه ، ولم يكن في عرض البلاد وطولها بندقية واحدة يتق بها أفغانى ذل العبودية ، بل الشعب كان يومئذ كله أعزل مقلم الأظفار ، والقوة العسكرية التي تكون عنده يومئذ عبارة عن حامية انكليزية مؤلفة من بريطانيين وهنود وأفغان يخدمون في بلادهم على بلادهم ، بدراهم معدودات . هكذا كان شأن الأفغان لو اتبعوا خطة غيرهم من الأمم الشرقية الغافلة ، أو لو اقتدوا بنوابي « ايسا كل » و « تانك » و « تاونا » و « خان » خطأ السير خوجه محمود وغيرهم من أمراء الهند الذين كانت لهم اليد الطولى في قع الثورة الهندية الكبرى . بل تجدد المسيو لومارشان يقول في الصفحة ٢٨٩

(١) عدد سكان الهند في ذلك الوقت

من المجلد الأول من تاريخه « ان القبيلة الدورانية التي هي ثلث الأفغان ومنها الأسرة المالكة عندهم من الاعتزاز بنسبتهم وقومهم ما يجعلهم مؤثرين لأى أمير كان مهما كان سىء السيرة ، على الحكم الأجنبي ، ولم يكونوا يأسفون على سقوط الأمير وتشريده مع عثرته على شرط أن يكون لهم الخيار فيما بعد فى اختيار حكومتهم »

ثم نعود الى ذكر غزاة الانكليز فى بلاد الأفغان فنقول : ورد فى دائرة المعارف الاسلامية المحررة بالفرنسية بقلم المسيو هوتسمه Houtsma ورفاقه خلاصة تاريخ الأفغان مستخلصة من نحو مائة مصنف بالعربية والفارسية والانكليزية والفرنسية والألمانية ومن جملة ما فيها أن الانكليز بعد أن دخلوا بلاد الأفغان للاخذ بثأر جيشهم سنة ١٨٤٢ وحاولوا اجلاس الشاه شجاع الملك على عرش تلك المملكة ، رأوا ما هناك من صعوبة المراس ، وتعذر البقاء . وهجم على شجاع الملك من قتله ، فأزعم الانكليز الخروج من تلك البلاد وأخذوا معهم فتح جنك ابن الشاه المقتول ، ثم عمدوا الى مصالحة دوست محمد خان الذى عاموا أنه هو الملك الوحيد الذى يمكنه أن يضبط زمام الأفغان ، فانعقد الصلح بين الفريقين على شرط أن الانكليز يحترموا حدود الأفغان ، وانصرف دوست محمد خان الى تحصين بلاده ، واسترد بلخ ، وكولم وقندز ، وبذخشان . ولما اشتعلت الثورة الهندية الكبرى سنة ١٨٥٧ التزم الحياد ، ولم يهتبل تلك الغرة لمقاتلة الانكليز . ومات دوست محمد سنة ١٨٦٣ فنار الخلاف بين أولاده وتقاتلوا مدة طويلة ، والانكليز ينظرون اليهم من بعيد معترلين الخلاف كله لعلمهم أنهم لو أنشبوا أظفارهم فيه لتعرضوا لخسائر لا تحصى كالى عرفوها من قبل ، ولما كان آل الأمر الى اتحاد الأفغان كلهم يدأ عليهم ، فلم يزالوا متربصين الى أن استوسق الأمر لشير على خان أحد أولاد دوست محمد خان ، وأطلق أحد أدباء الانكليز كلمة « عزلة رئيسية » على خطة الحكومة البريطانية يومئذ وسارت مثلاً . فلما أجمع الأفغان على طاعة شير على اتفق معه اللورد لورانس أولاً ثم خلفه اللورد مايو فأيد اتفاق سلفه على شروط معلومة ، أولها أنه لا يدخل عسكري انكليزى واحد بلاد الأفغان لأجل اطفاء ثورة أو تدويج قبيلة عاصية ^(١) وأنه لا يرسل ضابط انكليزى معتمداً فى مدينة من مدن الافغان

(١) هذا خلاف طلب الدين تواتقوا مع الانكليز على أن يدخل هؤلاء بلادهم ويخمدوا لهم الثورات ويخضعوا لهم العصاة ثم بعد استتباب الطاعة يجلبون عن البلاد بزعمهم

وأنة لا يكون للامير راتب معين من انكلترة مشاهرة ولا مسانهة . وقد توارث أولاد دوست محمد خان هذه الغيرة الشديدة من رؤية الأجنبي في بلادهم من والدهم الذي كان يقول للورد لورانس سنة ١٨٥٦ ما يأتي : « ان كنتم تريدون أن نبقى أصحاباً فلا تكرهوني على قبول ضباط انكليز في بلادى »

ويقول المؤرخ لومارشان السابق الذكر « انه قد بقيت العلاقات بين الانكليز وشير على سائرة على هذه الوتيرة ، الى أن دخل الروس خيوه سنة ١٨٧٢ فراع ذلك شير على خان ، وأوفد من قبله من يسبر غور الحكومة الهندية فيما لو وصل الروس في الاعتداء الى بلاده ، فورده الجواب بقبول رأى انجاده ان جرى عليه اعتداء بدون حق من جهة الروس ولكن الشروط التي وضعت لأجل القيام بتلك النجدة لم تكن لترضيه . »

قلنا : ان صاحب حرب تاريخ الانكليز والأفغان أغفل ذكر هذه الشروط عمدا لأنه من أول هذا التاريخ الى آخره مؤيد لسيرة انكلترة ، الا أنه بالبداهة يدرك القارئ أن الشروط التي وضعها الانكليز ولم تعجب شير على في حال احتياجه اليهم لا بد أن تكون مرة المذاق على أمير يهيمه أن تبقى مملكته بكرة لا تطمشها قدم أجنبي ، ولا شك ان أول شرط منها كان اقامة مسيطرين انكليز في افغانستان ، ووضع حاميات انكليزية في بعض المواقع الافغانية وربما يكونون اقترحوا عليه قبول الحماية البريطانية ، ليصبح كأحد نوابي الهند أو نظام حيدر آباد ، ظانين أنهم يستفيدون من فرصة أزمته هذه لبسط حاية لا تزال تحمهم أنفسهم بها . ولكن لننظر الآن ماذا فعل شير على خان . يقول لومارشان

« انه لما ورد جواب الانكليز نفر وامتعص وصارت علاقاته مع الانكليز في فتور مستمر ، وأبى السماح بالمرور لضباط انكليزي أرادوا انفاذه الى حدود شمال افغانستان للفحص عن حالة الحدود ، وكذلك لم يأذن للسير دوغلاس فورسيت Douglas Forsyth العائد من كاشغر الى الهند . ورفض قبول مبلغ من النقود كان الانكليز بعثوا اليه به وبعكس ذلك كانت علاقته ودية مع الحاكم الروسى في تركستان . ووقع هذا الجفاء في أواخر أيام اللورد نور ثبروك ، فلما جاء اللورد ليتون خلفا لنور ثبروك بذل الجهد المستطاع لتأليف ذات البين مع شير على ، واقترح عليه ارسال جرى من قبل انكلترة هو البير بلى Pelly ليفاوضه في كابول في رغائبه ومراضيه ، فأبى شير على قبول هذا المعتمد ، واقترح هو ارسال معتمد الى بشاور للمفاوضة في النقاط

الواقع الخلاف عليها ، وهي تدخل انكلترة بينه و بين ابنه يعقوب خان ^(١) وخطتها في مسألة حدود سبستان ، بين افغانستان والعجم ، وارسال حاكم الهند هدايا رأساً الى أحد أمراء الافغان ، مع أنه تابع لمملكة شير على ، ورفض انكلترة رأى التحالف معه والاعتراف بتولية عهده ابنه عبد الله خان الى غير ذلك . فرضيت انكلترة بهذه المفاوضة في بشاور ، لكنها لم تجب شير على الى مطالبه واعتلت عن كل منها بسبب ، فلم يسفر ذلك المؤتمر عن أدنى طائل . ثم ان هناك مسألة القبائل الافغانية العاتية المحادة للهند فان هذه القبائل بأجمعها تعترف برئاسة الامير ، وليس منها واحدة خلا قبائل البلوج التي الى الجنوب تقر بسلطان انكلترة عليها أو ترضى باختيارها وطأة قدم انكليزي لأرضها . وان جميع ما عند الانكليز من المعلومات عن هذه القبائل أو عن منازلها لم يتيسر لهم الا بواسطة الجغرافيين والمخططين الذين كانوا تابعين للجيش أثناء الحملات العديدة التي حملها الانكليز على تلك الديار ، ومن الغريب أنه مع شدة غيرة هذه الأقوام على بكاره بلادهم ، وحرصهم على أن لا تطأها قدم انكليزي تجدهم يجولون من بلدة الى بلدة في الهند ويتجرون بما يريدون في أسواقها ، ويخدمون جنوداً في الجيش البريطاني ، وتجد منهم عند الانكليز عمالاً ومأمورين ينتقدون الرواتب الجزيلة . فلا يبالغ الانسان اذا قال انه لا يكاد يخلو الاى في البنجاب من ضابط أو من ضباط متعددين من أبناء هذه القبائل ، وترى منهم ضباطاً في مدارس ومبای وحيدر آباد . وبالرغم من كل هذه الأسباب التي كان ينبغي أن تجعل اللحمة بينهم وبين الانكليز شديدة ، فلا بد من الاعتراف بأن هذه الحالة منذ استولى الانكليز على البنجاب وجاوروا تلك القبائل لم تتغير تقريباً .

قلنا ان الوطنيين في أكثر البلدان ، الا من رحم ربك ، عودوا المستعمرين أنهم متى قبلوا وظائفهم وانتقدوا رواتبهم جاروهم في جميع مقاصدهم وتبعوهم في كل مراميهم ، حتى فيما هو على الضد من مصلحة قومهم ، وفيما يمس استقلال وطنهم ، وأكثر ما سقطت البلدان المستعمرة تحت السلطة الاوربية انما كان على أيدي مأجورين من أنفس الأهالي ، يبيعون أوطانهم بخسيس الحطام وقليل المتاع ، ولهذا تجد المؤرخين الأوربيين نظير لومارشان هذا يقضون العجب من صنيع هذه القبائل الأفغانية المحادة للهند كيف أنها مع شدة اختلاطها

(١) كان ثار عليه وأخذت انكلترة تحببه

بالانكليز وارتفاقها بأموالهم ووظائفهم لم توافى الانكليز على بلادها ، ولم تمكن لها في أرضها كما صنع كثير من غيرها ، فهؤلاء قد خالفوا العادة الجارية من غيرهم ، وهذا الأمر يدهش الاوربيين كثيراً .

ويقول هذا المؤرخ « ان القبائل البلوجية هي على خلاف ذلك فلهذا ادارة السند كانت دائماً أرفق وأهنأ من ادارة البنجاب . أما القبائل التي بين جبال ماهايون وجبال بوزدار فانها نحو خمس عشرة قبيلة ، منها ثلاث عشرة سالت الدماء غزراً بينها وبين الانكليز ، وساق عليها هؤلاء لا أقل من ٣٠ حلة ^(١) فن هذه القبائل قبيلة الجادون يسكنون المنحدر الجنوبي من جبل ماهايون وقوتها تقوم بنحو ٥٠٠٠ مقاتل ، وكانوا اذا شنوا الغارات على الأراضي الهندية اكتفى الانكليز بحصرهم ، وسنة ١٨٦٣ جردت عليهم حلة بقيادة السير فايلد فاعادت العساكر ادراجها الا عادوا هم الى الثورة . ثم قبيلة البونارفال وهم من أشجع أعداء الانكليز وقعت الحرب بينهم وبين الانكليز سنة ١٨٦٣ فخرس الانكليز في مصارعهم ٩٠٠ رجل بما بلوه من مركفاحهم . وبعدهم قبيلة السواتي الذين ساق عليهم الانكليز حلة سنة ١٨٤٩ ويقدر مجموع هاتين القبيلتين بنحو ٢٥ ألف مقاتل . ثم قبيلة الراينزاي وقد غزاهم الانكليز مرتين سنة ١٨٥٢ وعددهم ٣٠٠٠ مقاتل . ثم قبيلة عثمان كيل ^(٢) وعددها ١٠ آلاف رجل اشتدت وطأتهم على الانكليز ، حتى جردوا عليهم ثلاث حملات الواحدة عام ١٨٤٩ بقيادة الكولونل برادفورد ، والثانية عام ١٨٥٢ بقيادة السير كولين كامبل ، والثالثة سنة ١٨٦٦ بقيادة الجنرال دونسفورد . ثم الى الجنوب من هؤلاء قبيلة الماهموند الكبيرة وهي تقدر أن تحشد ٢٠ ألف مقاتل ، وقد ناجزها الانكليز سنة ١٨٥٠ و ١٨٥٢ ثم بعد ذلك بستين تجددت الفتنة بينهم وبين أحد أنفادها سنة ١٨٦٤ نشبت بين الفريقين معركة في سهل شو بكدور

« وجميع هذه القبائل تنزل شمالي مضيق خيرالشهير بالجبال التي تتاخم الهند الانكليزية ويوجد الى الجهة الغربية ، قبائل أخرى لا تقل عن هذه شدة بأس ، وصعوبة مراس ، مثل الباجوري والشنيفاري وغيرها ، ولكن مرادنا الكلام على القبائل التي بجوارها لتخوم الهند كانت الحروب متواصلة بينها وبين الانكليز . فبين مضيق خير وكوروم منازل

(١) هذا الى عام ١٨٧٩ فما ظنك بما جرى من الحملات منذ ٤٥ سنة الى اليوم

(٢) معنى كيل فصيلة أو رهط

قبيلة الافريدى التى تعد ٢٥ ألف محارب ، وهى على ما يظن أهم قبائل التخوم وقد تبارزت مع الانكليز مراراً عديدة ، وساقوا عليها زحواً سنة ١٨٥٠ و ١٨٥٣ و ١٨٥٥ وأخيراً سنة ١٨٧٧ بقيادة الجنرال كايس والجنرال روس

«وكذلك قبيلة الميرانزاي التى تجهز نحو ٥٠٠٠ محارب تبارزت مع الانكليز سنة ١٨٥١ و ١٨٥٥ و ١٨٦٩ وقبيلة التورى وهى تعادل الأولى فى العدد ، غزاها الانكليز عام

١٨٥٦

» ثم الى الجنوب من هذه تجد قبيلة الاورا كزاي من ١٥ الى ٢٠ ألف مقاتل حل عليها الانكليز سنة ١٨٥٥ و ١٨٦٨ و ١٨٦٩ بقيادة شامبرلين وجونس وكايس . وبين مضيق كوروم وغومول ، تسكن قبيلة الدافارى قاتلها الجنرال كايس عام ١٨٧٢ ، ثم قبيلة الوزيرى الشهيرة التى زحف عليها الانكليز سنة ١٨٥٢ بقيادة نيكولسون وسنة ١٨٥٩ بقيادة السير نفيل شامبرلين ، وسنة ١٨٦٩ بقيادة كايس لردعها عن الغارات والعاديات على حدود الهند . « وعلى جانبي غومول تسكن قبيلة المحسود وزيرى التى طالما أقلقّت راحة التخوم الهندية ثم قبائل البوزدار ، والكازراني ، والشهوراني ، التى هى دائماً فى جدال مع الجنود الانكليزية

» ولكن الى الجنوب من هذه قبائل أخرى كانت دائماً فى وئام تام مع الانكليز مثل الكتران ، والكوزاه ، والاغارى ، والغورشاني ، والمارى ، والبوغتي ، ويقول لومارشان ان سبب هذه المسألة هو حب هذه القبائل للمال وايشاره على ماسواه ، فالانكليز عاجوهم بالدواء الذى رأوه الانجح فيهم » انتهى

ومما لا يجوز أن ننساه أن الاحصاءات التى أوردها هذا المؤرخ عن عدد هذه القبائل انما هى عن الوقت الذى كان فيه عدد سكان الهند ١٩٠ مليوناً بدلاً من ٣٢٠ مليوناً عند كتابة هذه السطور فلاجل صحة الحساب ينبغى اضافة ٣٥ فى المائة على الأقل الى الأعداد التى أوردها ، كما أنه قد وقعت منذ ٤٠ سنة معارك كثيرة بين البريطانيين وهذه القبائل من بعد الوقائع التى ذكرها ، واليك شاهداً ما جرى مع الافريدى :

ورد فى دائرة المعارف الاسلامية الآنفة الذكر «أن الافريدى هم عدة أخفاذ وهم الآدم كيل ، الذين منهم الجافا كى المجاورون لمضيق كوهات ولقبيلة خاتاق ثم الآكا كل

الممتدة منازلهم من آكور الى باراه . ثم الكوكى كيل والكمبر كيل والزكا كيل ، والمالكدين كيل ، والكامركيل ، والسيباه ويقال هؤلاء الافريدى الخيريون ، ينتجعون فى الصيف الميدان فى ناحية تيراه ، وينزلون فى الشتاء الى السهول ، وهؤلاء الخيريون معدودون فى أشد القبائل عتواً وتوحشاً ، وأصعبهم مقادة ، ولا يزالون يشنون الغارات على السهول ولا سيما الزاكا كيل الذين هم أقبحهم سيرة . وكانوا الى تاريخ سنة ١٨٩٧ يتباهون دائماً بأن أرضهم لم تطأها قدم فاتح ، ولكنهم فى تلك السنة نفسها رأوا العساكر الانكليزية الهندية تجوس خلال ديارهم كلها^(١) »

ثم يقول « انهم كانوا ينتقدون مبالغ من المال لأجل أن يتركوا المضايق مفتوحة للسابلة ، وبعد أن استلحقت انكلترة بلاد بشاور لم تتعرض لاستقلالهم ، وبقيت تؤدى اليهم هذه الأعطيات لأجل حرية المرور ، ولكن مضيق ككوهات كان أكثر الاحيان مسدوداً بسبب المنازعات التى بينهم بحيث ان الانكليز غزوا الجافاكي منهم فى شرقى ممر كوهات سنة ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ولكن لم تطل مدة الاحتلال^(٢) ثم انه فى سنة ١٨٩٧ أعلن أحد المشايخ الجهاد فى بلاد الشينفارى ، فأتصل الصريح بالافريدى والماهموند ، وهاجم الثائرون قلعة لاندى كوثال وافتتحوها ، وكذلك دخلوا عنوة المواقع العسكرية التى فى جنوبى بلاد الاورا كزاي ، فخرد الانكليز جيشاً بقيادة السير لوكارت ، فاصطلت معارك حامية دامية ، وأصيب الجيش بخسائر ثقيلة ، ولكن جميع زوايا الديار قد جيست ، وجميع الفصائل العاصية قد اقتص منها . وبعد موقف طويل فى ناحية الميدان ، عاد الجيش الى سهول بارا . ثم جردت حملة ثانية الى أودية خير وبازار ، وبعد ذلك أطاع الافريدى كافة وصاروا ينتظمون فى جيش الحدود ، ولكن سنة ١٩٠٨ عاد الزاكا كيل الى عيشتهم المعتاد فسبق عليهم جيش الى أودية بازار وبارا ونكل بهم »

ثم ورد فى دائرة المعارف « أنه بموجب المعاهدة المنعقدة سنة ١٨٩٣ بين انكلترة والامير عبد الرحمن خان ، تخلى الامير عن بلاد الافريدى وسنة ١٨٩٧ أرسل هؤلاء وفوداً الى

(١) بهي أن يعرف أن محرر هذا الفصل من دائرة المعارف هو انكليزى .

(٢) لا بد أن يكونوا لقوا منهم عذاباً واصباً ؛ لأن عدم اطالة الاحتلال لاسيما فى نقطة كهذه لا تنطبق

كابول يستنصرونه على الانكليز فلم يلب نداءهم « انتهى
 فيظهر أن حالة هذه القبائل ومرودها على العيث والاخلال براحة الحدود الانكليزية
 منذ استولى الانكليز على الهند ، ولا سيما على البنجاب وديار بشاور كانت تدعو الحكومة
 البريطانية الى التحرش بأمر الأفغان لتناجزه حرباً تكون عاقبتها اعترافه لها بالسلطة على
 منازل هذه القبائل لتمكن بذلك من الاخذ بنواصيها . وهكذا حصل فان الانكليز
 حشدوا جيشاً عظيماً عام ١٨٧٨ وقاموا بتجهيزات لا يقدر عليها غيرهم ، وتطوَّع معهم
 كثير من أمراء الهند ومن المرتزقة من القبائل التي في شمالي البنجاب ، ومن أمة السيك
 الهندية المشهورة بالبسالة والتي لا تقبل في شدة البأس عن قبائل الباتان السابقة الذكر وزحفوا
 بعدد وعدد تضمن لهم نجاح الحركة ، فبعد وقائع عديدة دخلوا كابول بقيادة اللورد
 دوبرنس ، وفرّ شير علي خان الى مزار شريف في القسم التركي من مملكته حيث مات
 سنة ١٨٧٩ وكان شير علي قد غضب على ولده يعقوب خان لمقاومته له ، وحاربه في هراة ،
 فلم يقدر عليه ، فأمهله ريثما صرف جنوده ، وأظهر له العفو عما سلف ، فاستدعاه الى
 حضرته وأمنه ، فلما قدم اليه ألقاه في السجن وبقى مسجوناً الى أن دخل الجيش البريطاني
 الهندي كابول فأخرجوه من سجنه ، ونصبوه أميراً وعقدوا معه معاهدة غاندامق التي تخلى
 لهم فيها عن بعض الأراضي بجوار مضيق بولان ووادي كورام ، وتعهد بقبول بعثة
 بريطانية تقيم بعاصمة الأفغان فلم تمض على هذه المعاهدة أشهر قلائل حتى جرت ثورة في
 هذه العاصمة ، وذبح الأهالي أعضاء هذه البعثة بأجمعهم ، فعاد اللورد روبرنس بجيشه
 ودخل كابول ثانية ، الا أن الأفغان جهرروا من خلفه وجاءوا فحصروه في كابول ، فخلع
 الانكليز يعقوب خان وأشخصوه الى الهند وداخلوا الامير عبد الرحمن خان بن أفضل خان بن
 دوست محمد خان في قبول الامارة ، وكان جيش انكليزي في قندهار ، فرخف الى كابول
 على أن يكون من هناك جلاء جميع الجيوش الانكليزية عن افغانستان ، فلقاه في الطريق
 قبيلة أجدكيل وأذاقوه علقم القتال فلم يخلص منها الا بشق الانفس ، ثم حشد أيوب خان
 ابن شير علي جيشاً في هراة وزحف به الى قندهار فالتقى بعسكر انكليزي فكسره ،
 فأسرع اللورد روبرنس الى قندهار واصطلت الحرب مع أيوب خان ، وأدرك الانكليز بهذه
 التجربة الثانية انه ما كل حمراء تمره وان الاولى اخلاء افغانستان بأسرها فاتفقوا مع الامير

عبد الرحمن على أن يكون هو الامير وجلاوا سريعاً عن البلاد . فأدار الامير عبد الرحمن الامور بحكمة سلم له بها أهالى الشرق والغرب ، ورم فتوق بلاده وأقام العدل وأرهف الخلد فى المفسدين ، ووطد نفوذ الحكومة وأسس معملاً للسلاح ، وأصلح بقدر امكانه تدريب الجيش ، ووسع حدود البلاد من جهة الشرق ، واستولى على ولاية كافرستان التى هدى الله أهلها على يده الى الاسلام فسماها نورستان ، وبالأجل فقد ذقت مملكة الافغان فى زمانه طعم الراحة ، وعرفت معنى الوحدة . ومازال يسدد أمورها الى أن قبضه الله اليه سنة ١٣١٩ هجرية وفق ١٩٠١ ميلادية . وهو معدود من أفضل ملوك هذا العصر فى سداده وحكمه ومضاء عزيمته وبلغنى أن له تاريخاً مطولاً بالفارسي ذكر فيه ماجريات حياته . وخلفه ولده الأمير حبيب الله خان الذى خاطبته الحكومة البريطانية بلقب ملك ، وان كان لم يتمكن من تأسيس علاقات خارجية مع غيرها مما بقى معه استقلال افغانستان مشوباً بشئ من القصر لم ينفك قيده الابهمة ولده من بعده .

ولما نشبت الحرب العامة أحب الأتراك والألمان أن يجتذبوا الأمير حبيب الله خان الى جهتهم وسارت بعثة ألمانية الى كابول وخاطبته فى ذلك فكان يعتقد أنه لوخاض غمرات هذه الحرب لجنى على نفسه وعلى وطنه فلم يأت بأدنى حركة تغيظ الانكليز ، وقد يعد عمله هذا مستحسنأ لأن حفظ العهد أمر محمود ، والنظر فى العواقب من أجل المناقب . الا أنه عفا الله عنه ، كان يقدر أن ينتهز تلك الفرصة لمطالبة انكلترا بكثير من حقوق الافغان التى التهمت أثناء ما كانت أفغانستان فى الضيق وذلك نظير أخذ البلاد التى ابتزتها اياها بدون حق والحجر الذى وضعته عليها فى الامور السياسية الخارجية وكنعها من الحصول على ثغر بحرى تكون حرة فيه بوارداتها وصادراتها . فأهمل الأمير حبيب الله ذلك ، ومشى فى سياسته على مقتضى مكارم الأخلاق الشرقية التى تأبى مهاجة العدو فى حالة ضيقه ، لا على مقتضى السياسة العملية الأوربية التى لاتعرف هذه المكارم بل تعدها من قبيل الخيالات الشعرية ، أو مبادئ الفطرة الأولى التى ليست فى شئ من مبادئ المدنية الحاضرة المبنية على الحقائق الراهنة ، وذلك بخلاف مايدعى الأوربيون من كون الشرقيين لايحترمون سوى القوة ولا يتأخرون عن نقض العهد اذا آنسوا من عدوهم الضعف . فيرمون الشرقيين بما هو فى الحقيقة دأب الغربيين . ولقد ذهبت أمانة حبيب الله خان مع انكلترا سدى اذ

بعد أن وضعت الحرب العامة أوزارها لم ينل من الانكليز أدنى مكافأة على وفائه وكيف ينال وجيع الحلفاء صاروا بعد الحرب غير ما كانوا أثناء الحرب ونسوا عهودهم مع كثير من الأمم التي نصرتهم في الحرب نصراً عزيزاً . وفي سنة ١٩١٩ وجد حبيب الله خان في مشناه بجلال آباد مقتولا ولم يعرف قاتله ، ولا سبب قتله ، وتنوعت الأقوال ولم يزل سر هذه الغيلة مجهولا ، وسمعت أن مصطفى الصغير الجاسوس الهندي الانكليزي الذي افترض أمره أخيراً في انقره بعد أن قدمها جاسوساً في ثياب صديق ، قد زعم أثناء محاكمته التي آلت الى قتله أنه هو الذي دبر مؤامرة اغتيال حبيب الله خان بإشارة من الانكليز ، ولا أعتقد بصحة ذلك اذلا يمكن أن دولة عظيمة كدولة انكلترة تقدم على أفعال كهذه ليس فيها شيء لامن حفظ الكرامة ولا من الحكمة ، والانكليز موصوفون بهذين الأمرين . وفضلا عن هذا فالمرحوم حبيب الله خان كان للانكليز صديقاً وفياً . واثبت بهم طول مدة ملكه برأ حفياء ، فلا يعقل أن تكون هذه الضربة منهم بل الأليق بالعقل أن يكون قتله وقع بمؤامرة أناس متحمسين نقموا عليه شدة محافظته على ولاء الانكليز ، واضاعته فرصة الحرب العامة التي كان يمكنه في أثناءها أن يسترد كثيراً من حقوق الافغان المغتصبة . وان الذين عرفناهم من رجال الدولة الافغانية يكذبون زعم مصطفى الصغير ، ويقولون ان هذا لم يكن يومئذ هناك ولا الأمير قتل في المكان الذي عينه من جوار كابول ، بل استشهد رحمه الله في جلال آباد . وقد ثبت أن مصطفى الصغير هذا افترى روايات كثيرة في تضاعيف استنطاقه في انقرة ، لا يعلم الانسان مقصده منها ، ومن جللتها اقحام نفسه في حديث هذه المؤامرة . ثم ان الأمة الافغانية بعد استشهاد الأمير عولت على مبايعة جلالة ولده أمان الله خان ، مع كون ولي العهد هو نصر الله خان أخاه الأكبر ، فن حسن الحظ أن عدول الأمة عن ولي العهد الى أخيه لم يحدث شيئاً من القلق ، ولا صحبه شيء من الكوارث مما يدل على تعقل كل من الأميرين الأخوين اللذين أحدهما لم ينهض الى الحسام ، ولا أسرع الى الفتنة لأجل الملك ، والثاني لم يعامل أخاه الابالحسنى ، ولا حمله الحذر منه على التضييق عليه ، كما كان يفعل الملوك السابقون . فاستتب أمر الدولة الافغانية على أحسن ما يرام ، وانفتحت الكلمة ، ولكن الأمير الجديد لم يستو على عرش كابول حتى أرسل الى الانكليز بمطالب أمته التي منها إعادة الأراضي التي اغتصبوها من ضمن حدود أفغانستان الجنوبية ، والتفرغ عن مرفأ بحري

تكون الدولة الافغانية فيه حرة ، وحق تأسيس العلاقات الخارجية رأساً مع سائر الدول بما كان الأفغان لا يفتأون يطالبون به ، فأبى الانكليز التسليم بهذه الشروط وجرّ ذلك الى زحف الجيش الافغانى ومن ضافره من قبائل البوتان السابقة الذكر ، واختراقهم حدود الهند ، ودارت رحى الحرب فكانت سجالاً ، وصادفت خروج بريطانيا العظمى من الحرب الكبرى وملل الشعب الانكليزى من سفك الدماء وبذل القناطير المقتطعة ، وعلم الانكليز ما أمامهم من العقبات فى حرب الافغان وانها ستكون أشد عليهم من الحروب السابقة فجنحوا الى السلم ، وعرضوا على الافغان الهدنة ، وذهب محمود ترزى خان ناظر الأمور الخارجية فى كابول الى الهند واتفق مع الانكليز على متاركة السلاح ، وأوفدت انكلترة وفداً الى عاصمة الافغان للتفاوض على شروط الصلح أثناء كون الجيوش من الطرفين مرابطة على العهود ، فانعقد الصلح فى سنة ١٩٢١ على شروط . أولها استقلال الافغان فى الأمور الخارجية كما كانت مستقلة فى الأمور الداخلية والثانى حق امرار السلاح من طريق الهند والثالث تحديد منطقة متحايدة من بلاد قبائل البوتان لاتكون ملكاً لا للانكليز ولا للافغان . ولم ينتظر شاه افغانستان عقد المعاهدة لتأسيس سفاراته لدى الممالك الاسيوية والأوربية بل قبل الصلح أرسل سفيراً الى طهران ثم سفيراً الى أنقرة ، وعقد مع الأتراك معاهدة متينة للسلم والحرب ، ثم معاهدة مع حكومة موسكو ، وأرسل اليها سفيراً هو أول سفرائه فى أوروبا ، وهو الفاضل النبيل محمد خان . ثم أوفد الوزير الجليل الجنرال محمد ولى خان ببعثة فوق العادة الى أوروبا لتأسيس سفاراته فى عواصمها فبدأ بفارسوفيا عاصمة بولونيا ثم قدم برلين ، ثم ذهب الى رومة ، ثم الى باريز ، ثم الى أميركا ، وأثناء مقامه بواشنطن دعاه سفير انكلترة فيها باسم حكومة بريطانيا العظمى أن يزور لندن فلبى الدعوة ، ولما جاء الى العاصمة استقبله رجال حكومتها برأ وترحيباً ، الا أنه رأى وزير المستعمرات يفاوضه فى بعض المسائل ، فأبى محمد ولى خان الدخول فى أدنى مفاوضة مع وزير المستعمرات ، كما سمعت ذلك من فمه ، وقال : لاشغل لنا الامع نظارة الخارجية . فاعتذروا له عن هذا الخطأ غير المقصود ، وشرعت الخارجية تفاوضه فى عقد معاهدة الصلح فأجاب : انما ذلك هو عائد الى الحكومة الافغانية فى كابول ، وهى فى مذاكرة مستمرة مع الوفد البريطانى الذى هناك . ولما تم عقد الصلح أرسلت الحكومة الافغانية عبد الهادى

خان من أنه نبه شبانها سفيراً الى لندن ، كما انها جعلت غلام صديق خان من أنجب نجباؤها أيضاً سفيراً ببرلين ، والامير شير أحمد خان سفيراً في رومة ، ثم عند ما استقال الوزير الجليل الفاضل محمود ترزي خان من نظارة الخارجية التماساً لترويج النفس في أوروبا ، بعد ان التأت مزاجه لكثرة الاشغال التي عاناها عينه الامير سفيراً له في باريز ، وهو ممن قاموا بمخدمات جلالت لا ينساها له تاريخ الافغان . فانتدب الامير لنظارة الخارجية محمد ولي خان السابق الذكر . ثم ان ممن قام بمخدمة الحكومة الافغانية في أوروبا محمد أديب خان من أجل أدباء دمشق اذ كان هو الممثل للدولة الافغانية في برلين لاول تأسيس السفارة الى أن تعين مؤخراً معتمداً لها في وطنه الاصلى دمشق . وقد كان محرر هذه السطور حظ معرفة هؤلاء الامائل باجمعهم ، وعند ما قدم الوفد الافغانى برلين ، احتفلنا بهم في النادى الشرقى الذى برئاسة هذا العاجز ورأينا من ذكائهم وشهامتهم وحجيتهم ما صدق لنا التواريخ المأثورة عن جنسهم ، أما الوزير محمود ترزي خان فقد سبقت لنا معرفته منذ مدة مديدة اذ كان وقع بين والده المرحوم غلام خان وبين المرحوم الامير عبد الرحمن خان نفور أدى الى هجرة غلام خان وطنه واقامته بالشام وهناك أسعد الحظ بمعرفته عرضاً فكان له نحوى عاطفة أبوية ، وأهدانى مرة تذكاراً نفيساً وهو مديح نظمته بالفارسى في شمائل الحضرة النبوية ، عليها أفضل الصلاة وأزكى التحية ، وكتبه مذهباً بخطه الانيق . وكان رحمه الله من صناديد الكتائب والكتاب ، وابطل الحرب والمحراب ، وذرف على التسعين ، وهو يقوم الفجر ويصلى فى الجامع الاموى ، لا يتخلف يوماً واحداً ، وكان معه ولده محمود ترزي خان الذى هو اليوم سفير افغانستان فى باريز ، وهو الوطنى الذى حرر مدة طويلة جريدة « سراج الاخبار » وجاهد فى ترقية ادارة بلاده وتنقيف قومه بالفنون العصرية ، بقلمه البليغ ورأيه الاصيل ، ما لم يوفق الى مثله غيره .

ولقد باشر شاه الافغان الحالى تنظيم ادارة البلاد الملكية ، وتعليم الجيش وتسليحه على الطرق الحديثة وتوسيع معمل السلاح الذى فى كابول ، وأرسل عدداً وافراً من الطلاب للتحصيل فى أوروبا ، من جتلهم أولاده واخوته الصغار ، فجعل قسماً منهم فى برلين والقسم الآخرى فى باريز ، وانتدب عدداً من ضباط الاتراك لتدريب الجيش ، وعدداً من الاسانذة والمتخصصين الاويين لترقية التعليم والادارة ، واستدعى طائفة من المهندسين

لتخطيط الطرق الحديدية ، واستخرج المعادن واستثمار خيرات البلاد فلمملكة الافغانية سائرة في أيام الامير امان الله خان الشاه الخالى سيراً حثيثاً الى الامام بحيث يحكم العارفون أنه لا تمضى ٢٠ سنة على أفغانستان ، حتى تصير أعز دولة في آسية الوسطى ، وتعود ركنا للشرق والشرقيين . وهي الآن تحتوى على نيف وتسعة ملايين من السكان ، ولما انعقدت المعاهدة بين كابول وموسكو سنة ١٩٢١ كان من جملة شروطها تخيير ولاية كوشكه في الرجوع الى الأفغان ، وهي ولاية على حدود تركستان كان الروس اغتصبوها منذ نحو أربعين سنة ، وصبر عبد الرحمن خان على ذلك خشية أن يتهور في حرب مع دولة عظيمة كالروسية لا طاقة له بها . فبعد استرداد أفغانستان لهذه الولاية يناهز عددها ١٠ ملايين نسمة وعلاقات الدولة الأفغانية جيدة مع جميع الدول ، الا أنها متضامنة مع تركيا تضامناً تاماً ، حل الأمير أن يصرح لسفير انكلترة عندما عقد الصلح معه في كابول وأن يخاطب نفس ملك الانكليز ، بأن أفغانستان لا يمكنها أن تخلص الود لانكلترة ما دامت هذه تنصب العدوان لتركيا ملجأ الخلافة الاسلامية . ولعمري انه لا يوجد في العالم الاسلامي فرد فيه ذرة من العقل الا وهو يمتنى الوئام بين انكلترة وبين تركيا ، وأفغانستان ، ومصر ، وبلاد العرب ، وسائر بلاد الاسلام ، لما لانكلترة من المصالح الشائكة والعلاقات الكثيرة في الشرق ، وما في الائتلاف بين هذين العنصرين من المنافع الجزيلة لهما معاً . ولكن مادامت انكلترة سائرة على الطريقة التي اتبعتها منذ ٤٠ سنة ، وهي السعى في تفكيك أوصال الاسلام ، واباحة جاه من كل جهة ، استئصالاً لشأفة قوته السياسية ، وتقليماً لجميع أطفاله أن تحدنه نفسه بأذى وقوف في وجه قوة استعمارية ، وما دامت هي آخذة على نفسها القيام بمعظم هذه العداوة ، فان أمد الصراع بين هاتين القوتين لا يزال طويلاً ، وليس من المرجح أن الانكليز هم الذين سيربحون في هذه التجارة .

أما القبائل المار ذكرها فقد ازدادت الوقائع بينها وبين الانكليز بعد الحرب العامة ولا يمضى شهر واحد حتى تأتى جوائب الأخبار بمعركة أو واقعة ، وقد عول الانكليز على قتال هذه القبائل بالطيارات القاذفة من عل بالكران المحشوة ديناميتاً ، وهي طريقة عمدت اليها أوربا بعد الحرب الكبرى التي ترقى فيها فن الطيران الى هذا الحد ، فصار لكل دولة مستعمرة أسراب من هذه الطيارات مرصد أكرها للتسكيل بالأقوام التي تثور على

السلطة الاستعمارية أو تطالب بحق استقلالها ، أو لا تريد أن تطيع الأحكام الجائرة الجارية عليها . ولا ينحصر عمل هذه الطائرات بالفريق الثائر أو العصاة الخارجة ، بل الطريقة المتبعة هي أنه عند ما تبدو من ناحية علامة عصيان أو مقاومة ، ترسل الطائرات فوق القرى أو المدن فتقذف عليها أجالا من الديناميت تنسف الديار ، وتقتل النساء ، والأطفال ، ولولم يكن لأحد من أهالي تلك المدن أو القرى أدنى صلة مع الثائرين إنما هو الارهاب ، والقاء الرعب في القلوب ، واجراء المثلث بهؤلاء ليخشى أولئك . وقد وجدت دول الاستعمار هذه الطريقة أقرب منالا وأقل نفقة من تجريد العساكر وتعقب الثوار الى مكائهم . ولا تكترة وزارة خاصة بالطيران تنفق سنوياً خمسة ملايين جنيه انكليزي على طيارات الشرق التي هي مرصدة لقبائل البوتان وأهل الهند وأهل جزيرة العرب والعراق ومصر الخ . كما ان عند فرنسا ألوفاً مؤلفة من هذه الطائرات تستخدمها في المغرب وسورية . ومع هذا فكل من هاتين الدولتين تدعى أن استخدام هذه الوسائل الجهنمية وقتل النساء والأطفال إنما هما لأجل المدنية

* * *

من بعد صدور هذا الكتاب طبعته الأولى جدت في بلاد الافغان حوادث ذات بال خلاصتها ان الشعب انتقض على أمان الله الملك الذي تولى المملكة بعد والده حبيب الله خان وهزم الثوار جنده فالتجأ أمان الله الى الفرار من كابول الى قندهار ومنها الى الهند حيث ركب البحر من بمباي وجاء الى أوربة واختار الإقامة برومة . وتولى عرش الأفغان من بعده نادر خان الذي كان ناظر الحربية لأوائل عهد أمان الله ثم صار سفيراً لأفغانستان في باريس ثم استعفى واعتزل وأقام مدة سنوات بمدينة طولون

وتحرير القصة ان أمان الله توله فيه الميل الى التفرنج والاقتماد بالاوربيين في كل شيء وأعجبه في هذا الباب مسلك مصطفى كمال المستأثر بأموار تركيا ووجد في مصطفى كمال حجة على من خالفه في هذا الرأي وكثر كلامه في القضاء على العادات الاسلامية القديمة ولا سيما حجاب النساء . وكان يزعم ما يزعمه رجال انقرة اليوم من أن التمسك بهذه العادات هو الذي أفضى بالاسلام الى هذا الضعف وأن طريق النجاة الوحيد للمسلمين هو الاقتداء بالاوربيين في ما أخذهم وبنار كهم ولباسهم وطعامهم وجميع ما عولوا عليه . وبالاختصار فكل ما رآه الافرنج حسناً فهو حسن ولولا أن يكون الافرنج أقدر على معرفة

الحسن من غيره ما كانوا نجحوا هذا النجاح الباهر الى غير ذلك من التعليقات الانقرية الواهية المردودة بالبداهة وبحجة ان علماء الافرنج أنفسهم معترفون بأن رقى الامم المادى لا يتم لا ضمن مقوماتها الروحية ومشخصاتها الاجتماعية وبديل أن الافرنج تقدموا هذا التقدم فى العلوم والمعارف والفنون والصناعات ولبشوا عاصيين بالنواجذ على تقاليدهم المسيحية لا يخرجون عنها وقد يكونون أشد اعتصاماً بها من المسلمين بتقاليدهم

فأمان الله خان أعجبه خطة مصطفى كمال فى هذا الموضوع ويقال ان محمود ترزى خان الذى هو أبوزوجته وناظر الخارجية عنده كان يزين له هذا المسلك وان العلاقة الوثيقة التى كانت بينه وبين الحكومة التركية السكالية هى التى كانت أكثر السبب فى جنوحه الى هذه الخطة

وسنة ١٩٢٨ أراد أمان الله أن يقوم بسياحة فى أوربة والبلاد الشرقية فجاء الى مصر ومعه زوجته الملكة ثريا ووافاه اليها محمود ترزى خان حموه قادماً اذ ذاك من أنقرة . ويظهر ان مصطفى كمال كان أرسل الى أمان الله بوجوب الظهور فى مصر بمظهر التفرنج الذى كان الغازى قد حل عليه أهل تركيا وجاء ثقيلًا على الشعب التركى ورأوا أنفسهم منفردين عن العالم الاسلامى فكان من جملة سياسة مصطفى كمال أن ينشر عادة سفور النساء ولبس القبعة وعادة الرقص المختلط وغير ذلك من الأمور التى أوجبها على الأتراك وأن يحمل عليها المسلمين من غيرهم كما جرى منه مؤخراً فى تقاضيه من سفير مصر بانقرة عبد الملك بك حجة أن يخلع طربوشه فى حفلة رسمية مما أدى الى منازعة بين مصر وتركيا وصارت مسألة دولية بينهما . فلا شك فى أن محمود ترزى وصل الى مصر متزوداً تعليمات مصطفى كمال باشا الى أمان الله خان بأن يبدأ بنقد التقاليد الاسلامية من مصر لأن الناس لحظوا ان الملكة ثريا دخلت الى مصر متحجبة على عادة نساء المسلمين وانها بدأت بالسفور فى مصر . وكذلك بدأ أمان الله بلبس القبعة فى مصر وأفضى الى الصحفيين بحديث معناه وجوب عدول الشعوب الاسلامية عن أزيائها الحاضرة . وذهب أمان الله خان الى الجامع الأزهر بالقبعة فبعد ان كان العلماء قد اجتمعوا هناك اعظاماً لقدومه عندما شاهدوه آتيا بالقبعة انصرفوا مشمئزئين ولكن ملك الأفغان لم يكن عنده يومئذ الا الرغبة فى تقليد مصطفى كمال وهذا الذى هوى به عن عرشه

ثم جاء أمان الله الى أوربة مع الملكة ثريا وزار عاصمة ايطاليا ثم عاصمة فرنسا ثم عاصمة سويسرة ثم عاصمة ألمانيا ثم موسكو ثم انقرة وغيرها ولقي في كل مكان اكراماً وحفاوةً الا انه كانت أخبار تفرنجيه وسفور زوجته قد وصلت الى افغانستان وهاجت عليه رجال الدين والشعب الأفغاني

ولقد كان أمان الله يكره علماء الشرع الاسلامي في مملكته ويجب خضد شوكتهم اقتداءً بجده عبد الرحمن خان لكن جده كان يقهر رجال الدين ويحطّ من مكانتهم وفي الوقت نفسه يحافظ على الدين من حيث هو وعلى العوائد الاسلامية فلماذا أمكن عبد الرحمن خان ان يقهر علماء زمانه بدون أن يتعرض لخطر الثورة في بلاده بخلاف حفيده الذي باقدامه على ما أقدم عليه من نبذ العوائد الاسلامية والتشبّه بالافرنج في السكلى والجزئى قد هاج عليه حنق العلماء وأوجد لهم عليه طريقاً فهاجوا عليه القبائل وأشاعوا أن الملك استخف بالدين واستهتر واقتدى بالافرنج في ماآخذه ومتاركة وبدأ الهيجان على أمان الله في غيابه الا أن الثورة لم تشتعل عليه الا بعد أو بته الى كابول ولم تنحصر أسبابها في التفرنج وحل النسوة على السفور بل اتهم الملك أعداؤه بأنه غلّ من مال الدولة وذهب الى اوربة يتنزه وينفق على لذاته بينما قد مضى أشهر على الجند وهم لا يقبضون أرزاقهم ولا رواتبهم فتغيرت عليه قلوب عسكره . وعند ما أثار العلماء قبائل الافغان على الملك كان أكثر الناس قد انفضوا من حوله ونشبت الحرب فانكسر الجند الذى كان بقى معه وثار رجل اسمه ابن السقا أصل أبيه سقاء من رعاى الناس وهو نفسه كان من قطاع الطرق فاعصو صب حوله كثير من الدعار ومن كانوا يتر بصون بالملك الدوائر وهاجوا كابول وكادوا يدخلونها ففر الملك الى قندهار التى هى مركز عشيرة الدراڤية التى ينتسب اليها بيت الملك وترك الملك لأخيه الأكبر عناية الله خان ظاناً أن المشكل ينحلّ بنزوله هو عن العرش . وبايع رجال الحكومة أخاه وبقي ملكاً نجواً من ثلاثة أيام اذ دخل ابن السقا هذا بأعوانه خلعوه ايضاً ولحق بأخيه وتسلم ابن السقا زمام الأمر وقتل وقتك وحرّض القبائل على قتال أمان الله والزحف اليه فى قندهار فأحس هذا بثقل الحالة وفرّ بالطيارة الى الهند ومنها أبحر الى اوربة وأول مدينة صعد اليها رومة واستقر بها لسبب لا نعلمه

أما ابن السقا فقد عضده رجال الدين واستوسق له الأمر وبقيت الامرة بيده عدة أشهر وربما كان قد طال حكمه لولا ماحدثته به نفسه من مبايعة الناس له أميراً غير مكتفٍ

بالوزارة . ولم يكن الافغان ليقبلوا السقا اميراً فخى بذلك على نفسه . وذهب نادر خان من طولون ومعه اخوته وزحف الى كابول بالقبائل الموالية لبيت الملك وعضده رجال الدين الذين كانوا لا يرضون بالسقا اميراً ولكنهم يخشون رجوع امان الله فهزم جنود السقا وقبض عليه وقتله ومزق شمل اتباعه واستوسق له الامر وسار بالرعية سيرة الامير العادل الحازم في غير عنف ، الشفيق في غير ضعف واقتنى سنتى امان الله في الاعتناء بالعلم والتعليم وتنظيم الجيش وترقية وسائل العمران الحقيقي لكن بدون تعرض للمسائل الاجتماعية ولا تشبث باحداث انقلابات في الازياء والعوائد والتقاليد كما أراد أن يفعل ابن عمه امان الله . ولقد خرجت بلاد الافغان من هذه الثورة منهوكة القوى فشرع نادر خان يرأب الصدوع ويضمد الجروح ونرى جميع الناس يتمنون له النجاح ويرجون الخير والفلاح لهذا الشعب الباسل المجيد الذى هو في طليعة الشعوب الاسلامية في الذكاء والحمية وكرم المهزة وشدة البأس اما امان الله فبقى مدة يتربص ان يدعوه نادر شاه الى الاستواء ثانية الى العرش ولكن نادر شاه احتفظ بالعرش لنفسه لا لمجرد حبه الامارة ولا مطاوعة للنفس الامارة بل نزولا عند ارادة الاهالى وعلماء الشرع . فكان ذلك مما أحفظ امان الله خان وأحدث بين المالكين السابق واللاحق من الجفاء ما كل انسان يود زواله

ولما كانت الحوادث التاريخية التى تهتم التاريخ العام أقرب الى الثقة فيما اذا استقاها الراوى من منابعها الاصلية وحدث فيها عن اصحاب الشأن رأساً رأيت ان اختتم هذا المبحث عن افغانستان برواية ما جرى من الحديث بينى وبين جلالة امان الله بعد نزوله عن العرش الافغانى

كنت جدد معجب بامان الله فى الدور الاول من امارته كما يتضح من الفصل الذى كتبه عنه فى الطبعة الاولى من هذا الكتاب وذلك لكونه تمّ استقلال الافغان واجتهد فى ترقية شؤون تلك الامة وكانت لى علاقة بسفرائه ورجاله يوم كنت رئيساً للنادى الشرقى فى برلين سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٢٣ ولما تألفت جمعية المانية افغانية فى تلك العاصمة وانتخب لها رئيس أول من الالمان انتخبت أنا لها رئيساً ثانياً . وكانت ترد لى الكتب من كابول متضمنة الشكر من جانب امان الله خان عما كنت ابذله من الجهد فى خدمة الدولة الافغانية . ولهذا لما سمعت بخبر قدومه الى الغرب كنت متحفزاً لاستقباله وتقديم الواجب لجلالته كرجل سبقت له معه علاقة الا انى لما علمت بما ظهر منه من مصر ثم فى اوربة من مشايعة

السياسة الانقرية التي لم أوافق ولن أوافق عليها وعلمت ان الملك فؤاداً نصحه بالمحافظة على أوابد قومه وعوائدهم ولم يسمع نصح جلالة الملك فؤاد أمسكت عن السلام عليه حتى بعد مجيئه الى لوزان حيث كنت مقيماً وتسرر عتاب حاشيته الى على ذلك ولم أفعل . وكنت متوقفاً ان لا تطول اماره امان الله بعد هذه المظاهر التي ظهر بها في بلاد كافغانستان أهلها شديدو الاستمساك باوضاعهم الدينية والقومية .

ففي شهر رمضان سنة ١٣٤٩ جاء الملك امان الله الى سويسرة ومعه أديب خان الاديب الدمشقي الذي لي معه صحبة من ايام برلين وهو خال الملكة ثرياً ونزلاً في مونترو وكالني أديب خان بالهاتف لاجل السلام على الملك فذهبت من لوزان الى مونترو وسلمت عليه وتلطف هو فاعاد لي الزيارة بمنزلي بلوزان . وجرت بيني وبينه عدة مجالس نخلنا فيها جميع المسائل التي أوجبت الانقلاب الذي جرى في افغانستان ولم اكنم عنه شيئاً من الاتقادات التي وجهتها على سياسته وحررت بها بعض مقالات في الجرائد العربية فكان جوابه عن ذلك انه قسم ما عزى اليه من الامور الى ثلاثة أقسام قسم أقر فيه بالخطأ والتسرّع وقال ان مجلس وزرائه لم ينهه له . وقسم قال انه جرت فيه مبالغة كثيرة بحسب عادة الرواة في المبالغة . وقسم أنكر وقوعه منه بتاتاً وقال انه من باب الافتراء عليه . واخذ يذكّر لي متعدد خدماته للامة الافغانية . وأجبت بان هذه الخدمات لم ينكرها أحد ولكن الناس يتمنون لو اتفق مع ابن عمه نادر خان حباً براحة هذه الامة التي أععبتها الفتنة التي وقعت فيها واستمرت اكثر من سنة .

ثم ذكر لي رغبته في اداء فريضة الحج الشريف وقال ان الوقت لم يسمح له بادائها يوم جاء الى اوروبا ماراً بالشرق الادنى مع انها كانت في نيته فينت له ان ذلك كان أيضاً من جملة ما أخذ الناس عليه ولكن من الممكن تلافي هذا الأمر . فابدى لي رغبته في الكتابة لجلالة ابن سعود في عزمه على الحج ذلك العام . فقلت له ان مثل جلالته يلقي في الحرمين الشريفين كل الاجلال اللائق بامثاله وان الملك ابن سعود من أحسن خلق الله وفادةً ومعاملة لكل قادم فكيف اذا كان القادم ملكاً من ملوك الاسلام . ومع هذا فقد كتبت الى جلالة ملك الحجاز ونجد بنية الملك امان الله الحج تلك السنة . ولما توجه الى الحجاز لاداء الفريضة عامله الملك ابن سعود معاملة الأخ لاخته وعاد الملك امان الله من مكة الى رومة حيث هو مقيم الآن وحيث لا يرى الناس لاقامته بها وجها .

المسلمون فى الصين

المؤلف

مسلمو الصين^(١) كأنهم ليسوا من هذه الدنيا فالمعلومات عنهم قليلة والروايات بشأنهم متناقضة والى هذه الساعة لم يعرف المؤرخون كيف كان وصول الاسلام الى الصين. أوصل اليها بحراً من طريق الهند أم وصل برأً بطريق تركستان وما وراء النهر كما أن الجغرافيين وعلماء الاحصاء الى اليوم لم يتفقوا على عدد المسلمين الصينيين فمنهم من يجعله عشرين مليوناً ومنهم من يجعله خمسة وعشرين مليوناً ومنهم من يقول ثلاثون ومنهم من يقول أربعون وكثيرون أكدوا القول بأن فى الصين ٦٠ مليون مسلم ومن هؤلاء بعض علماء من مسلمي الصين جاءوا الى الاستانة ومصر وأكدوا أن المسلمين هناك لا يقلون عن ستين مليوناً وكذلك روى لى مستشار سفارة الصين فى برن قاعدة سويسرة وبخلافه قال غيرهم فأكدوا أن مسلمي الصين لا يزيدون على عشرة ملايين وان بعثة أولون Mission d'Ollone التى أرسلت بمساعدة نظارة المعارف الفرنسية وجابت بعض أقطار الصين لا تجد المسلمين يزيدون على خمسة ملايين فى جميع بلاد الصين وان كانت تقول انها لا تقدر أن تجزم بشئ .

وأما دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، فتقول انه لا يمكن الاعتماد على قول وثيق من جهة العدد ولكن برو ومهال Broumhall أرسل سؤالاً الى نحو ثمانمائة شخص من أهل الصين فجاءه نحو ٢٠٠ جواب من أما كن مختلفة فأستخلص ما يأتى :

ولاية كانسو أقل ما يقدر فيها مليونان من المسلمين ومعظمه ثلاثة ملايين ونصف مليون . والمسلمون فى كانسو كثيرون فى غربى هذه الولاية وموالدهم تزيد بالنسبة على مواليد الصينيين ويوجد نواح خلت من الاسلام بعد الثورات التى جرت فى « لياىغ تشوفو » لم يبق سوى ٧٠ مساماً . وفى « هسى نينغ فو » يوجد ٢٥٠ ألفاً وفى « لان تشوفو » قاعدة الولاية ٢٥ ألفاً ولهم جوامع عظيمة وربما منعوهم بسبب الثورات الأخيرة من السكنى فى داخل المدن فسكنوا فى الضواحي وكانت لهم جوامع فيها كما هو الحال فى

« نينغ هسيا » و « نينغ ليانغ » .

ولاية « شنسي » كان فيها قبل الثورات مليون مسلم ولا يظن أنه باق فيها اليوم . أكثر من خمسمائة ألف . ويوجد في « سנגان فو » سبعة جوامع وفي (تشونغ فو) ثلاثة ولاية شانسي يقال ان فيها ٢٥ ألف مسلم

ولاية (تشيهلي) الاحصاءات تختلف كثيراً فيها ما يجعل مسلمي هذه الولاية ٢٥٠ ألفاً ومنها ما يجعلهم مليوناً وفي باكين من ٣٠ الى ٤٠ جامعا ومنها المسجد الأعظم (نين شيه) الذي يدرس فيه على رضا التركي . ويقدر عدد المسلمين فيها بعشرة آلاف . وفي أرباضها مسلمون كثيرون . كذلك في الشمال من جدار الصين الكبير عدد وافر من المسلمين .

ولاية « شانتونغ » هم فيها من ١٠٠ الى ٢٠٠ ألف نسمة .

ولاية (هونان) هم فيها أكثر من ٢٠٠ ألف نسمة في مدينة (هوى شينغ فو » أربعون ألفاً والقرى المجاورة كلها مسلمة وفي (شونغ شو) عشرة آلاف وأهالي « هوى نين شى » كلهم مسلمون ومساجدهم كثيرة .

ولاية (كيانغ سو) مظنون أن فيها ٢٥٠ ألف مسلم . وفي « نانغ كينغ عشرة آلاف لهم ٢٥ جامعاً

ولاية « ستشوان » ليس عندنا معلومات راهنة الا عن قسم منها فيه ٥٠ ألف مسلم والمظنون أن الولاية كلها تحوى ٢٥٠ ألفاً . ومركز الاسلام هو في الشمال الغربى من البلاد مثل (سونغ بان تينغ) وينمو الاسلام كثيراً على حدود التبت . وبلدة (كيوشياو) فيها ١٢ اماماً و ١٠٠ اهونغ (أى عالم)

ولاية (كوى تشوا) لا يوجد فيها أكثر من عشر آلاف مسلم ولهم أربعة مساجد .

ولاية (نينان) يختلف الاحصاء فيها من ١٦٠ ألفا الى مليون . وقد نسفت الثورات من بلاد الاسلام فيها جانبا كبيراً وان مدنا كثيرة صارت قاعاً صفصفا . ويقال ان مسلمي نينان يخفون عددهم الحقيقي اجتناباً لمخاوف الحكومة الصينية . ولا يختلف مسلمو نينان عن الصينيين لا في الزي ولا في الفكر ويظن دافيز Davies أن المسلمين في السهول هم أضعاف

مضاعفة عما هم في الجبال وانهم ثلاثة في المائة أى ثلاثمائة ألف نسمة لا غير . وأما سوليه Soulié ففي مجلة العالم الاسلامى سنة ١٩٠٩ حزرهم من ٨٠٠ ألف الى مليون وكذلك المبشر رود يقول ان في نينان مليوناً من المسلمين وعلى كل حال لحساب تيرسان Thiersant صاحب كتاب (المحمدية في الصين Le Mahamétisme en Chine) بأن مسلمى نينان هم أربعة ملايين هو بعيد .

ولاية « هوبه » ليس فيها أكثر من عشرة آلاف وفي (فوشانغ) ثلاثة مساجد وفي (هانكو) مسجدان

ولاية (كيانغ سى) هم أكثر قليلا من ٢٥٠٠

ولاية (آن هوى) فيها أربعون ألفا ويكثرون في شماليها وفي العاصمة (انكينغ) ستة آلاف ومسجدان

ولاية « تشيكيانغ » فيها ٧٥٠٠ فقط . ومدينة (هانغ تشوفو) التى يذكرها جغرافيو العرب وشاهد فيها ابن بطوطة محلة اسلامية عظيمة غنية لم يبق فيها اليوم الا مئات من العائلات ونحو أربعة مساجد .

ولاية (كوانغ تونغ) فيها ٢٥ ألفا وأما خانسو التى يسميها جغرافيو العرب الخنساء وابن بطوطة يقول لها (سيني كالان) فلم يبق فيها سوى ١٠ آلاف مسلم وخمسة جوامع .

ولاية (كوانغ سى) فيها من ١٥ الى عشرين ألفا منهم ثمانية آلاف في العاصمة (كوى لين) وفي هذه المدينة وفي (فوتشو) ستة جوامع .

ولاية (فوكيين) فيها ألف مسلم فقط ولهم مساجد في (آموى) وفي (فوتشو) وفي (تشانغ تشوفو) ولا يوجد في آموى أكثر من أربعين الى خمسين مسلما هم من طبقة مأمورى الحكومة .

ولاية منشوريا فيها ٢٠٠ ألف مسلم منهم في مدينة موكدن ١٧ ألفا .

ولاية مونغوليا : المسلمون فيها هم في الجنوب واحصاؤهم متعذر .

أما التركستان الصينى وان لم يدخل هنا فالاحصائيون يجعلون فيه من مليون الى مليونين وأربعة آلاف مسلم .

ونتيجة هذه الاحصاءات ان حدها الأصغر هو ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف وان حدها الأعظم هو سبعة ملايين واربعمائة ألف . ومن أغرب الغرائب ان المبشرين الاوربيين يناقض بعضهم بعضا في الشهادات في مثل ان بعضهم يذكر وسطا اسلامياً عظيماً فيه المدارس والمساجد والآخريين يقولون اننا لم نشاهد من ذلك شيئاً . « انتهى بتصرف عن الانسيكاو بيديّة الاسلاميّة » .

على أن تيرسان صاحب كتاب (الحمدية في الصين) الواقع في مجلدين يخصى المسلمين ٢٥ مليوناً في الصين وكذلك الجغرافي الفرنسي الشهير اليزه ركلوس يقول في جغرافيته العامة ما يأتي :

« ان المسلمين لهم بال كبير في المملكة الصينية وقد حزرهم سكاتشكوف بعشرين مليوناً ولكن هذا العدد يظهر ضئيلاً بالقياس الى أقوال مؤرخين آخرين من الصين ففي ولاية كانسو كان المسلمون هم الأكثرية كما أنهم كانوا في كثير من نواحي شمال الصين نحو ثلث السكان ويجب أى نحسب معهم الدونغان وسائر مسلمي دونغارية وكولجه وتركستان الشرقى لأجل أن نعلم أهميتهم ويراهم الانسان أعلى درجة من سائر أبناء وطنهم وأعز نفوساً وأصرح نظراً وفي ولايات غربي الصين يتقلدون السلاح وهم لا يشربون المسكرات ولا التبغ ولا الافيون فتجدهم أصح اجساماً من أبناء الملل الأخرى ويوجد بينهم تضامن يجعلهم أسعد حالاً وأعظم ثروة من غيرهم ويفرضون على جاعاتهم ضريبة معلومة نظير العشر من الدخل لأجل انفاقه في مصالح الجماعة وهذا في ولايات كانسو وشنسي وفي بلاد ينان عندهم مدارس يتعلمون فيها العربية ويفهمون معاني القرآن كما ان الصلاة هي في كل مكان بالعربية وفي كانسو يوجد مئات من الجوامع ثم ان التجارة في الشمال تكاد تكون منحصرة في أيديهم لاسيما تجارة المواشي فتجدهم هم الذين يعبرون باكين وسائر المدن الشمالية الساحلية الخ » .

وقد همت مسألة إسلام الصين دول أوربا كثيراً لأنها توجست ولا تزال تتوجس خيفة من انتشار الاسلام في الصين الى حد أن يصير هو الغالب على تلك المملكة التي عددها يزيد على اربعمائة مليون فاذا قدر الله دخول هذه المئات من الملايين في الاسلام حصل انقلاب في وجه العالم .

الاسلام في الصين

والاسلام قديم بالهجرة في بلاد الصين يذكر الصينيون أن أول ظهوره بين ظهرانيهم كان لعهد السلطان (تايتسونغ) وذلك في القرن السابع للمسيح وان أول داخل من المسلمين الى تلك الديار رجل من عصبة النبي يقال له ابن حزة جلا الى الصين بثلاثة آلاف مهاجر ونزلوا في (سنگان فو) وانه جاء على أثرهم مسلمون آخرون من طريق البحر وأقاموا بجهات يونان. ويذكر مؤرخو الصين انه في نواحي سنة ٧٥٨ اقبل على بحر الصين متلصصة من العرب يأخذون كل سفينة غصباً فعاثوا في تلك البحار وجاسوا خلال الديار واكتسحوا ضواحي كنتون واحتوا على مافي الاهراء السلطانية التي هناك. وهذه تبشير دخول العرب لتلك البلاد بحسب ماورد في تواريخ الصين.

ولم أجد الى الآن في الكتب التي طالعته من كتب العرب أثراً لقصة ابن حزة هذا ولا ما يوافقها وانما روى المسعودي في تاريخه قصة تحكيها من بعض الوجوه تؤثرها بالاختصار. وهي أن رجلاً من قریش من ولد هبار بن الأسود، خرج الى مدينة سیراف، وكان من أرباب البصيرة وذوى الأحوال الحسنة. ثم ركب منها في بعض مراكب بلاد الهند، ولم يزل من مركب الى مركب، ومن بلد الى بلد، الى أن انتهى الى بلاد الصين الى مدينة (خانقو) ثم دعتهم همتهم الى أن سار الى ديار ملك الصين، وكان الملك يومئذ بمدينة جمدان وهي من كبار مدنها فأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر انه من أهل بيت نبوة العرب، فأمر بعد هذه المدة الطويلة بانزاله في بعض المساكن وازاحة العلة بما يحتاج اليه. وكتب الى الملك المقيم بخانقو يأمره بالبحث عنه، ومسألة التجار وعمائده من قرابة نبي العرب صلى الله عليه وسلم. فكتب صاحب خانقو بصحة نسبته، فأذن له بالوصول اليه ووصله بمال واسع وأعادته الى العراق.

ويظهر من كتب العرب، ان أول صقع عرفوه من بلاد الصين هو كاشغر. وذلك منذ سنة ست وتسعين للهجرة اذ غزاها قتيبة بن مسلم الباهلي في خلافة الوليد بن عبد الملك الأموي. قال ابن الأثير الجزري في تاريخه انه سار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بسمرقند فلما عبر النهر استعمل رجلاً على معبر النهر ليمنع من يرجع الابلجواز منه،

ومضى الى فرغانة وأرسل الى شعب عصام من يسهل الطريق الى كاشغر ، وهى ادنى مدائن الصين ، فغنم وسبي وأوغل حتى بلغ قريب الصين ، فكتب اليه ملك الصين أن ابعث الى رجلا شريفاً يخبرنى عنكم وعن دينكم . فانتخب قتيبة عشرة رجال لهم جال وألسن وباس وعقل وصلاح فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشى وكان منهم هيرة ابن مشمرج السكلابى فقال لهم اذا دخلتم عليه فأعلموه انى قد حلفت أنى لا أنصرف حتى أظأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم . فساروا وعليهم هيرة فقال لهم ملك الصين قولوا لصاحبكم ينصرف فانى قد عرفت قلة أصحابه والا بعثت اليكم من يهلككم . قالوا : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون . وأما تخوفك ايانا بالقتل فان لنا أجالا اذا حضرت فآكرمها القتل لسننا نكرهه ولا نخافه . وقد حلف أن لا ينصرف حتى يظأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية . فقال فانا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطأه ونبعث اليه بعض ابنائنا فيختمهم ونبعث اليه بحرية يرضاه . ثم أجازهم وبعث بما ذكر الى قتيبة فقبل الجزية وختم الغامان وردهم ووطىء التراب . فقال سواد ابن عبد الملك السلولى :

لا عيب فى الوفد الذين بعثتهم للصين ان سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف الردى حاشى الكريم هيرة بن مشمرج
ادى رسالتك التى استدعيتها فأناك من حنث اليمين بمخرج

ووصل الخبر الى قتيبة فى هذه الغزاة بموت الوليد ثم قتل قتيبة فى السنة نفسها ولا يبعد انه لو بقى حيا لاستأنف الكرة على الصين لما هو معهود من بعد همته فى الجهاد . ولا شك أن الاسلام كان قد دخل فى البلاد منذ ذلك الوقت وكثرت أتباعه ومازالوا على نحو وازدياد يلحظ ذلك من تضايف الحوادث المذكورة فى تواريخ العرب فقد ذكر ابن الأثير انه فى سنة أربع وستين ومائتين ظهر ببلاد الصين انسان لا يعرف جمع غماراً من العامة وأهل الشر وقصد بهم مدينة خانقو وحصرها . قال وهى حصينة ولها نهر عظيم وبها عالم كثير من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس وغيرهم من أهل الصين . هذا فى القرن الثالث للهجرة . وأما بعد ذلك فترى الأخبار عن مسلمى الصين كثيرة : نقل الامام أحمد القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ عن الشريف حسن بن الجلال السمرقندى وكان من السفار ومن جال الآفاق

ودخل الصين وجاب آفاقه وجاس خلاله انه قال ان من عجائب ما رأى فى مملكة القان (أى الخان) انه مع كفره فى رعاياه من المسلمين أمم كثيرة وهم عنده مكرمون محترمون ومتى قتل أحد الكفار مسلماً قتل القاتل الكافر وأهل بيته ونهبت أموالهم وان قتل مسلم كافراً لا يقتل به بل يطلب بديته ودية الكافر عندهم جاز لا يطلب بغيره .

ولم يدخل الاسلام بيت الملك فى تلك البلاد الا ما كان ببلاد المغول فى ذرية جنكيزخان وفى كاشغر . قال ابن خلدون فى الجزء الخامس من تاريخه عند ذكر الترك انه كانت لهم دولة ببلاد تركستان وكاشغر وان ملوكهم أسلموا بعد صدر من الملة على بلادهم وملكهم وكان بينهم وبين بنى سامان القائمين فيما وراء النهر بدولة بنى العباس حرب وسلم .

قال يحيى بن أحمد بن على النسابة كاتب جلال الدين خوارزم شاه فى تاريخ دولته ان مملكة الصين منقسمة من قديم الزمان على تسعة أجزاء كل جزء منها مسيرة شهر ويتولى كل جزء منها ملك يسمى بلغتهم خان ويكون نائباً عن الخان الأعظم وكان جنكيز أحد الخانات المذكورين فتغلب عليهم جميعاً وصار الملك الأعظم . وفى كتاب ابن فضل الله محكياً عن صاحب علاء الدين عطاء ان دينه ودين قومه كان المجوسية حتى ملكوا الأرض واستفحلت دولتهم بالعراق والشمال وما وراء الهند فأسلم من ملوكهم من هداه الله للاسلام .

وذكر ابن خلدون فى الكلام على ملوك بنى جغتاي بتركستان وكاشغر وما وراء النهر انهم كانوا أولاً كلهم على دين المجوسية يعضون عليها بالنواجذ فلما صار الملك الى ترماشين منهم أسلم سنة خمس وعشرين وسبعمائة وجاهد وأكرم التجار المترددين .

وذكر الملك المؤيد صاحب جاه فى تاريخه فى خبر الملوك بنى دمرش خان وهو من أولاد جنكيزخان انه لما مات دوشى خان ولى مكانه ابنه ناظو خان ثم مات وولى بعده طرطو خان ثم مات فولى بعده ابن أخيه واسمه بركة فأسلم على يد شمس الدين الباخورى وكان مقبلاً ببخارى كتب اليه يدعو الى الاسلام فأسلم وان بركة هذا أعمل الرحلة الى لقاء شمس الدين فلم يأذن له فى الدخول حتى تطارح عليه أصحابه وسهلوا الاذن لبركة فدخل وجدد اسلامه وعاهد الشيخ على اظهار الاسلام وأن يحمل عليه سائر قومه فحملهم واتخذ المساجد والمدارس فى بلاده وقرب العلماء والفقهاء ثم ذكر المؤرخون اسلام أربك بن طغرلجاي من سلالتهم واسلام تكدار بن هولاكو وخرنندا بن ارغو ثم أحمد بن هولاكو .

وفي مختصر الدول لأبى الفرج الملطى صورة كتاب كتبه الى سلطان مصر فى ذلك الوقت جاء فيه « بقوة الله باقبال قالن فرمان أجد . أما بعد فان الله تعالى بسابق عنايته وبنور هدايته قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة الى الاقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته (الى أن قال) وأنفذنا أقضى القضاة قطب الدين والاتابك بهاء الدين وهما من ثقات هذه الدولة القاهرة ليعرفاهم طريقتنا ويتحقق عندهم ماينطوى عليه لعموم المسلمين جيل سنتنا وبيننا لهم أنا من الله على بصيرة وأن الاسلام يجب ما قبله الخ » .

وقال القلقشندى (فى صبح الأعشى) ان أول من أسلم من ملوك هذه المملكة ترماشيرين فأسلم وأحسن اسلامه وأخلص وأيد الاسلام وقام به حق القيام وأمر به أمراءه وعساكره وذكر أيضاً عن بكدار أنه أسلم .

وقد بقى الاسلام فى أعقاب الاويغور طائفة جنكيزخان الى يومنا هذا . وفى جغرافية اليزه ركوس أن الاويغور والطانغون سكان بلاد كانسو كانوا قديماً من عبدة اللاما ومن النساطرة فأساموا وأسلم بهم جميع سكان الشمال والغرب من مملكة جغطاى ثم ازداد عددهم بمهاجرة المهاجرين من أهالى التركستان الشرقى ومسلمى المغول الذين بقوا من عهد تمرلنك وبهذا صارت الأغلبية للاسلام فى هذا القسم من مملكة الصين .

ولما دخل ابن بطوطة الصين على ما ذكر فى رحلته كان الاسلام فيها غنياً وافراً حسب ما يفهم من كتابه فهو يقول فى الجزء الرابع من رحلته : وفى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون .

ولما ذكر مدينة زيتون قال : وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والأرض وداره فى وسطها كمثل ما فى بلدة سجاماسة فى بلادنا وبهذا عظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة . ثم قال عمن تعرفه من صدور تلك البلاد وجاء الى قاضى المسلمين تاج الدين الأردوبلى وهو من الأفاضل الكرماء وشيخ الاسلام كمال الدين عبدالله الأصفهاني وهو من الصلحاء وجاء الى من كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزي أحد التجار الذين استندت منهم حين قدومى على الهند وهؤلاء التجار لسكناهم فى بلاد

الكفار اذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الاسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا كواحد منهم .

وقال عند ذكره مدينة صين كلان ان بيعض جهاتها بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاض وشيخ ولابد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه وقاض يقضى بينهم وكان نزولى عند أوجد الدين السنجارى وهو أحد الفضلاء الأكابر وذوى الأموال الطائلة .

وذكر عند وصوله الى مدينة قنجنفو ان المسلمين فيها يسكنون داخل السور الثالث وانه نزل عند شيخهم ظهير الدين القرلانى وقال عن الخدساء انها ست مدن كبار وان بالمدينة الثانية منها مسكن اليهود والنصارى والترك وبالثالثة مسكن المسلمين وبها المساجد ولأولاد عثمان بن عفان المصرى وهم كبراء المسلمين فيها زاوية تعرف بالعثمانية وبها طائفة من الصوفية والمسلمون كثيرون في هذه البلدة .

والظاهر أن الاسلام ما برح ينتشر في آفاق الصين حتى بلغ عدد أهله عشرات الملايين . زعم سكاتشوف أنهم عشرون مليوناً فقط وذهب الأكترون الى أن عددهم فوق هذا بكثير وأحصاهم صاحب كتاب (Le Mhaométisme en Chine) المحمدية في الصين) خمسة وعشرين مليوناً وزعم بعضهم انهم أربعون مليوناً وقال آخرون انهم يربون أيضاً على ذلك وان السواد الأعظم في ولاية كانسو هو منهم وهناك مدينتا سالار وكنشياو محط رحال الطلاب والمتفقيين من جميع أقطار الاسلام الصينية . وقد أحصى عدد المساجد في بعض مدن كانسو فبلغ مئات وهو ما لم يعهد الا لعواصم الاسلام الكبرى مثل الاستانة العلية ودمشق والقاهرة وان كثيراً من ولايات الصين الشمالية ثلثها من المسلمين وهم أهل التجارة والكسب والعمل ولذلك تجد حالتهم أجمل وأزین من حالة بقية الصينيين وكثيراً ما يأخذون أولاد الفقراء من الوثنيين ويربونهم في حجر الاسلام خصوصاً عند حصول المجاعات الشديدة . وقد شدد فقهاؤهم عليهم في أداء الزكوات فيجمعونها في صناديق لكل بلد ينفقون منها في شدائهم ويسدون بها عوز محايجهم فتجد المعدمين منهم قليلين ولهم بعضهم على بعض حنان ورأفة وحفيظة فيما بينهم وعلى عدوهم لا توجد في الأمم التي نسا كنهم كذلك بسبب تجافيهم الأفيون وأنواع المسكرات تجد أجسامهم أحسن

من اجسام غيرهم فهم يفوقون جيرانهم الصينيين صورة ومعنى ويسميهم الصينيون «هواى هواى» وهذا لقب طائفة الاويغور في الماضي وأما هم فيؤثرون أن يسموا «كيا ومن» أى أهل الدين عطفاً على «ان الدين عند الله الاسلام». ومسلمو بلاد يونان الجنوبية يعرفون باسم «بانطى» وجميع المسلمين هناك يتميزون عن سائر الأهالى بملاحمهم وشاراتهم ووحدة ملابسهم ويلوح عليهم من النعرة والأنفة مالا يلوح على سواهم وكلهم من أهل السنة والجماعة ولكنهم فى الفقه فئتان الحنفية والشافعية وهم يكرهون جداً الاختلاط بالوثنيين ولا يزوجونهم وانما يأخذون من بناتهم فى الأحياء شراء بالدرهم .

وقد وقعت لمسلمى الصين فى هذا القرن مع أهل تلك المملكة حروب تشيب لها الأطفال اذا استقصى خبرها المؤرخ لم تكفه فيها المجلدات وملخصها أن اول ثورة حصلت هناك هى فى بلاد يونان بسبب عمالة من الفريقين كانوا يعملون فى أحد المعادن فأسفر القتال عن الغلب للمسلمين وتكررت الحوادث والظهور لهم حتى بلغ الخلق من ولاة الصين مبلغه فاستنفروا اليهم الوثنيين قاطبة ونادوا باستئصال شأفتهم وتعفية آثارهم وذلك فى يوم معين من شهر ايار (مايو) أحد شهور سنة ١٨٥٦ فاستشعر المسلمون ذلك قبل وقوعه وأخذوا له أهبتهم وجروا واستلأموا فلما وقعت الواقعة توفرت الطائفة لجهتهم ولم تنل الحكومة منهم مأرباً الا فى القرى التى مسلموها قليلون . وتكررت الوقائع وصمد الفريقان بعضهم لبعض من أكثر جهات البلاد والمسلمون فى غلبة وظهور حتى افتتحوا عنوة مدينة «طالى فو» وهى منيعة حصينة من الطراز الأول فى حصون الصين وفتحوا منها طريقاً الى برمانيا يسربون منه اليها الميرة والسلاح ثم استولوا على مدينة «يونان فو» حاضرة البلاد ومضى على دولتهم هذه وهبوب ريحهم بتلك الأرض ثلاث عشرة سنة والصين لا تزدد أمامهم الا اتخذوا حتى أيقنت أن لا قبل لها بقهرهم بذباب السيف فالت الى اعمال الخيلة والدسائس وجاذبت زعماءهم حبال الرشوة ومنتهم الأمانى وأدرت عليهم العطايا الوافرة سرّاً وولتهم الأعمال الخطيرة حتى فصمت عرى اتحادهم وحلت بنفثات سحرها عقدة جامعته بل استمالت بعض رؤسائهم الى أن وقفوا فى صفها يقابلون بنى ملتهم فبدى لهم أن تنحل بعد ذلك عصبتهم وتفشل ريحهم وأن يزرع الصينيون فيهى الانتقام حتى يهلك منهم ثلاثون ألفاً بحد السيف ويلحق اقوام منهم بمملكة برمانيا .

أما في شمالى الصين فاستطاع شرر الفتنة سنة ١٨٦٠ وذلك في « هوانشيو » شرقى « سينغان فو » وكانت الدائرة على الصينيين وتأثرهم المسلمون في كل سهل وجبل يقتلون ويسبون ولكنهم عجزوا عن دخول « سينغان فو » لمناعة أسوارها ثم امتد لهيب الثورة في تلك البلاد ونادى منادى الاسلام بيا للثارات فقاموا قيامة الرجل الواحد وفر الصينيون والمغول من أمامهم وانهال المسلمون في أثرهم يشلونهم شلا ويستقصونهم أسراً وقتلا وامتلات ولايات شانسى وآنسو عيشاً ودماراً والتجأ الوثنيون الى الكهوف والمغاور وظنوا أنها ما نعتهم فلم تكن بما نعتهم واشتمل الخراب على تلك البلاد حتى لم يبق قرية الا خوت على عروشها ولم يذر المسلمون الا على المسيحيين ولم يبق عامراً من تلك الجهات الا الأمصار الكبيرة بما أدير عليها من سياج الأسوار . وقدّر عدد الذين هلكوا في هذه المعركة بالملايين . وحدث بعض مؤرخى الافرنج أن من المسلمين من بلغ منه الحق أن قتل أولاده وامراته ليتوفر على الجهاد . والحاصل أن هذه الفتنة كانت من أكبر الفتن واستمرت خمسة عشر عاماً كاد ينقطع أمل الصين في خلاها من استرداد البلاد ولكن لم يلبث الشقاق ان دخل بين المسلمين فأدخل عليهم الوهن وتشظت عصاهم قطعاً فنالت منهم عساكر الامبراطور واسترجعت الشانسى ثم الكانسو ثم معاقل تيان شان وبددت شمل الباقين من الثوار في دزونغاريا ولكنهم لا يزالون الى الآن أهل صولة وشوكة وشأنهم على ازدياد وجدهم في صعود ومنهم كثير من الحكام وقواد الجيش . وكثير من المؤرخين الأوربيين يظنون أن لهم وحدهم مستقبل السلطان في الصين . وقد بعثت الدولة الروسية مرة بعثاً علمياً جال في الصين وجاب آفاقها واطلع على دخائل أمورها فكان من جملة ما قرره تحذير الروسية من مستقبل الاسلام في تلك المملكة لأنه ينمو ويتقدم واذا أخذ يوماً بزمام الدولة انقلبت هيئة الشرق الأقصى انقلاباً عظيماً لأن الصين اسلامية ليست كالصين وثنية (وأتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) (١)

(١) كان محرر هذه السطور قد نشر مقالات متتابعة في مجلة المقتطف عن الصين وأحوالها في سنة ١٩٠١ وعقد فصلاً خاصاً بالاسلام في الصين يغني إعادة نشره عن البحث والتقيب في كتب ورحلات كثيرة لأنه تمحص تمحصاً جيداً (وهو هذا الفصل المتقدم) فلذلك نقلناه بعينه عن مجلة المقتطف جزء تموز (يوليو) سنة ١٩٠١ . وانضيف اليه التحقيقات التي جرت بعد هذا العهد مثل أقوال بعثة اولون وكلام الانيسكويبيدية الاسلامية مع ملاحظتنا عليها .

ولقد ذهبت بعثة أولون الفرنسية لجالت في كثير من بلاد الصين من سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩٠٩ ونشرت عن مشهوداتها وما اتصلت اليه من المعلومات كتاباً ذكرت في مقدمته أن أصل ارسالها كان من نظارة المعارف لأجل خص عام عن أحوال الصين . ولكن بعض العلماء استجلبوا نظر النظارة المشار اليها الى موضوع اسلام الصين بنوع خاص . فلذلك وجهت همها الى التحقيق عن أحوال المسلمين في الصين ونشرت ذلك الكتاب الذي تضمن خلاصة تدقيقاتها .

وهي ان المسلمين لم يكونوا يؤلفون في كل ولاية وحدة مستقلة قائمة بذاتها وان بين مسلمي الصين مذاهب مختلفة خلافا لما كان يظنه السياح من قبل وان الطرق الصوفية معروفة لديهم . وظهر لبعثة أولون هذه في آخر أيام سياحتها وجود علاقات سرية بين مسلمي الصين ومسلمي الشرق الادنى .

وبعد تحرير بعثة أولون ما حررته عن مسلمي الصين ظهر كتاب انكليزي اسمه (الاسلام في الصين) لسائح اسمه برومهال وذلك في ٢٥ يناير سنة ١٩١١ وهو كتاب قضى صاحبه ١٩ سنة في السياحة في الصين والبحث والتنقيب وأخذ عن نحو ٢٠٠ رجل أمدوه بمعلوماتهم . فتهافت على قراءته رجال بعثة أولون لعلمهم يجدون شيئاً لم يحصوه في كتابهم فاذا به زعمهم لم يكشف شيئاً جديداً فانهم واذا هو لا يخرج عن كتاب تيرسان Thiersant الفرنسي .

وبحسب تحقيقات بعثة أولون كان ظهور الاسلام في ولاية ينان وربما في كل الصين على يد الرجل الملقب « بالسيد الاجل » وهو سيد شريف من آل البيت اسمه شمس الدين عمر دخل في خدمة دولة الصين ونصح لها وكان من أفراد الرجال في جميع المزايا فتقدم في الدولة وتولى المناصب العالية وانتهى الامر بأن السلطنة عهدت اليه بولاية ينان فأفاض الخير ونشر الامان ووزع العدل وآتى من المآثر ما لا يزال الصينيون يلهجون به الى هذا اليوم وكان دخول الاسلام الى ينان في عهده .

وجاء في تاريخ « كيوسين تانغ شو » انه في صدر الاسلام ورد الصين عسكر عربي عدته ثلاثة آلاف ومن ذلك الوقت دخل الاسلام في الصين ويظن ان هذا الحادث وقع سنة ٧٥٦ مسيحية .

ويقال ان أصل مجيء المسلمين الى الصين هو لأجل معاضدة سلطان مخلوع من سلاطين الصين . ومن ذلك الوقت صاروا يخدمون قواداً وأجناداً في بلاط السلاطين وبقيت هذه العادة الى عصرنا الحاضر فيجد الانسان تواير تامة من المسلمين يقودها أمراء من المسلمين في دولة الصين .

وأما السيد الاجل فقد اطلعوا في ينان على تاريخ محرر في سنة ١٦٨٤ يقال فيه انه لما زحف جنكيز خان الى الغرب جاء السيد الاجل عمر بألف فارس وقدم له الطاعة فأكرمه وجعله من بطاقته (١٢٠٦ — ١٢٢٩) ولما آل الأمر الى السلطان أوغوناي (١٢٣٠ — ١٢٤٢) ولده ثلاث ولايات وهي « فونغ » و « تسينغ » و « يون ناي » ثم استدعاه الى باكين وعهد اليه بمنصب عال . ثم لما تولى السلطان نانغو (١٢٥١ — ١٢٥٩) عهد اليه بادارة ست نظارات بالاشتراك مع (تا اول هوان) ثم جعله مديراً عاماً لمقاطعة (يان كينغ) فأحسن الادارة جداً فعهد اليه بنظارة الاستخبارات . ثم لما زحف السلطان الى بلاد (تسو تشوان) جعله ناظراً لليرة العسكرية فقام بها أحسن قيام فلما تولى السلطان قوبلاي أعطاه رتبة الوزارة وجعله عضواً في مجلس أمانة السر الاعلى . وكان كلما تقلد عملاً ظهرت فيه فضائله وحاز رضى السلطنة . وسنة ١٢٧٤ تقدم اليه السلطان في ان يقبل ولاية ينان وكانت أحوالها مختلفة وكان أهل ينان شديدي الغباوة والجهل فلما ذهب الى هناك وجد القيادة في يد أمير من بيت السلطنة خاف هذا منه واراد أن يجاذبه الحبل الا ان السيد الاجل بحكمته وحسن سياسته استماله اليه وصيره صديقا . وكانت تلك الولاية في غاية الانحطاط والبلاد خرابا فنشر السيد الاجل العلم وبنى المدارس واعتنى بتهديب الاخلاق وكذلك وجه همه الى عمارة الارضين فهد الطرق وبنى المعابر والجسور والسدود لاجل المياه مما تلافى به خطر القحط فكانت بعض الانهار تطفئ على الاراضى فتذهب بها زروع الفلاحين فجعل لها حواجز تقي من ضرر الطغيان . وكانت أراضى أخرى تعطش في الصيف من قلة المياه فبنى خزانات وحياضا احتياطا من وراء العطش . وأزال المغارم والمظالم وأبطل السخرة وشيد ملاجئ للايتام والعجزة وخفف المكوس وأحدث انموذجات زراعية يحتذى على مناهل وحفر الآبار وأقام الأسواق وأدخل في طاعة الدولة مالا يعد ولا يحصى من الأقوام وأثناء وجوده في تلك الولاية عمر مساجد للاسلام ولكنه شيد أيضاً هيكل لكونفوشيوس

ولبوزا . وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة فيحدها من الشرق سونغ ومن الغرب
يرمانيه ومن الشمال التبت ومن الجنوب آنام . وبحسن سياسة السيد الاجل خضع ملوك
التونكين وآنام لسلطان الصين .

ومن نوادر حكمته أن ملك لوبان ثار على السلطنة ، فصدر الأمر الى السيد الاجل
بالزحف اليه فلما سار بالجيش رآه الناس حزيناً كثيراً فسألوه عن سبب كآبته فأجاب :
لست كثيراً لسموني ذاهباً الى الحرب بل لكوني أتصور منكم كثيراً سيهلكون في هذه
الملحمة بدون ذنب اقترفوه وأنهم سيقتلون وينهبون أناساً كثيرين موادعين لا ذنب
لهم أيضاً . ولما وصل الى مكان الثورة أرسل الى الثوار يعرض عليهم التسليم فلبثوا ثلاثة
أيام لا يجابون فهاج العسكر وطلب القواد الاذن بالهجوم فلم يأذن لهم بل راجع رئيس
الثوار في أمر التسليم فأظهر هذا الطاعة لكنه لم يسلم البلدة فوثب رؤساء الجند على البلدة
فغضب السيد الاجل واستدعاهم وقال لهم : ان ابن السماء أمرني أن أتولى بلاد نينان وأحكم
فيها بالعدل والأمان لا بالقتل والعدوان فلا أرضى أن تهاجوا البلد ما دام الثأرون وعدوا
بالطاعة فان أيتم الاسفك الدماء جزاؤكم القتل . ثم أوثق الضباط الذين أرادوا الهجوم
خلاقاً لأمره . فلما سمع الثوار بما حصل جاءوا وساموا وسكنت البلاد وأطاعت على
بكرة أبيها .

وكان سائر العمال يقتدون بسيرة السيد الاجل ويتباهون بأعماله فأمنت السدوابل
واستراحت الرعية وساد العدل وفاضت الخيرات وعمرت البلاد وصار يقال هنيئاً لبلاد نينان .
أما آثاره في الزراعة فلا تزال بقاياها الى الآن وان كثيراً مما بناه من الجسور لا يزال قائماً
الى يومنا هذا .

وكانت بلاد « تشاوتيان » تطنى عليها الأنهر فتتحول الى بحيرة ، فحفر السيد الاجل
نهرأ حدر اليه تلك المياه كلها فصرفها عن الأراضي التي كان الماء يغمرها من قبل . وحفر
ترعا كثيرة وخلصا لسقى البقاع المحتاجة الى الري . وجعل يريداً مؤلفاً من ٣٦٠ فارساً
وحراساً بقدرهم يسهرون على السود بحيث اذا حصل فتق في أحدها أسرع البرد
باخبار الحكومة فجمعت الحكومة الاهالى ونهضوا الرق الفتق .

ومات السيد الاجل رحمه الله سنة ١٢٧٩ (مسيحية) فكان له ماتم عم الصين

بأسرها وبكاه أهل ينان كما يبكي الاولاد أباهم . وعم الحداد البلاد المجاورة الى بلاد سونغ وتبت وغيرها وذبحت القرابين في البلاط السلطاني .

وخلف خمسة أولاد و ١٩ حفيدا فكان خلفه في الامارة ابنه ثم ابن ابنه وتداول أحفاده الامارة وكانوا جميعا أعضاءا للسلطنة .

وفي أيام دولة « مينغ » راجع السلطان « ناي تسوكاو هوانغ تي » (١٣٦٨) — (١٣٩٩) تراجم وزراء الدولة السابقة فلم يجد بينهم في الحكمة والعدل والرفق بالريعية ووفرة آثار العمران مثل السيد الاجل فأمر بتسجيل سيرته في كتاب خاص بقيد المآثر اسمه « ين تشو » وأن يدرس هذا الكتاب للطلبة وينشر في المملكة وقد ثبت هذا السلطان لقب السيد الاجل وهو « الأمير الأمين المحسن » وأمر ببناء هياكل تدبج فيها القرابين عن روحه .

وسنة ١٤٠٥ صدر أمر الحكومه الصينية بتأليف سيرة للسيد الاجل بقلم « تسينغ هو » ويوجد في بلاد ينان هيكل باسم الامير « هيان يانغ » وهو لقب السيد الاجل عند الصينيين . ولا تزال أعقاب السيد الاجل الى اليوم وأسرته معروفة منذ ٨٥٠ سنة . وأما أولاده الخمسة فأولهم نصير الدين والصينيون يقولون له « ناسولا تينغ » صار وزيرا للدولة ثم واليا على شنسي ثم على ينان ومات سنة ١٢٩٢ والثاني حسن صار قائدا عاما لجيوش « كوانغ تونغ » والثالث حسين صار وزيراً للدولة ثم والياً على ولاية « كيانغ سي » ثم والياً وقائداً عاماً لولاية ينان بعد أخيه نصير الدين والرابع شمس الدين عمر كان مديراً عاماً لمقاطعة « كين تشانغ » من ولاية كيانغ سي والخامس مسعود والصينيون يقولون له « ماسوهو » وصار وزيراً ثم والياً على ينان .

أما أحفاده فأشهرهم « بايان فنتشان » من أولاد نصير الدين صار وزيراً للعديلية ثم والياً عاماً على ينان بعد عمه الحسين وقد نال ألقاب جده كلها وأسرع لنجدة الامبراطور في باكين فنال لقب الأمير الأمين المجتهد . وهو الذي رمم المسجد الأعظم في سينغان فو ونال للدين الاسلامي من الدولة الصينية اسم « الدين الطاهر الحق » . ومن أولئك الاحفاد عمر والصينيون يقولون له « قوما أول » وكان من وزراء الدولة وصار واليا على « كيانغ تشو »

ومنهم جعفر كان قائداً عاماً لـ « كينغ هو » ومنهم حسين صار وزيراً للدولة وخلف أخاه بايان تشيان على ولاية ينان . وشادى صار حاكماً فى إحدى مقاطعات ينان . وأيوب والصينيون يقولون له « ايونغ » وكان مدير قلم التشريعات فى دار القرايين . وبيانتشار صار وزيراً للقلم الأعلى ولقبه الامبراطور بالجانبى الأكبر . وبرهان وصار حاكماً فى « يونان سين » و « كولى » وكان قائداً عاماً لـ « كرو هونان »

ومن أحفاد أحقاد السيد بعده بسبعة بطون رجل يقال له حاجى والصينيون يقولون له « سى هاتشى » أدى اليه سلطان الصين مبالغ من النقود بنى بها مساجد فى نانكين وسينغان فو . ومن أعيان هذه الاسرة رجل اسمه يوسف بينه وبين السيد الأجل ١٤ بطناً ولد فى نحو سنة ١٦٠٠ والصينيون يسمونه ماشيكونغ وكان عالماً فاضلاً ذهب الى باكين سنة ١٦٦٥ واستشاره الامبراطور فى الأمور الدينية والعسكرية وصار مدرساً فى مدرسة « كروتسوكين » وسنة ١٦٨٥ نشر كتاباً اسمه « بوصلة الاسلام »^(١) ومنهم فى عصرنا هذا أمير ألاى كان فى الجيش الصينى سنة ١٩٠٧ . ومنهم رئيس جماعة مسلمى « ينان فو » وناظر أوقافهم . ورأس هذه الأسرة اليوم هو « نافاتسينغ » امام جامع ماشوكيا .

ويوجد أسر أخرى هاشمية فى الصين فان كتاباً اسمه « حياة محمد » ألفه صينى اسمه « ليوتشي » فيه مقدمة من قلم رجل يقال له ساىو من ذرية الرسول ﷺ وناريخ هذا الكتاب سنة ١٧٧٥ .

وسنة ١٤٤٥ كان فى مدينة سينغان فو أسرة شريفة نبوية منها حافظ بن كولى محمد ابن الشريف بدر الدين بن شمس الدين . والذي يظهر أن الثورات التى قام بها المسلمون فى القرن الماضى قد أضرت بهم وأوقفت تقدمهم ولولاها كانت لهم الكلمة العليا فى حكومة الصين . وقد ظهرت لبعثة أولون آثار الفتنة الأخيرة ورأت بعينها الخراب الذى أصاب الديار ولحظت النقص الذى لحق بالنفوس والثمرات وعرفت أن كثيرين من المسلمين لا يزالون تحت المراقبة . وقد سألت بعثة أولون أحد أدباء « لان تشيو » واسمه « قوق بين » قيل لها انه أعلم من يوجد بأخبار هذه الثورة فقص لها ما يأتى : —

(١) البوصلة ابرة المغنطيس التى يعتمد عليها البحارة

« سنة ١٨٦٤ ثارت فتنة في الشرق والغرب من الصين أصلها اثنان « مياو باي لين » و « ماهو الوونغ » فأخذا يعيشان فساداً في كانسو واتصل الثاني منهما بثوار كانوا عصوا في جنوبي شنسي وشمالها فأنار أهالي « تينغ هيا » وأهالي « شان هوا » وأهالي « مينغ تياولينغ » وهذه هي مدينة في شمالي سور الصين فسافت الحكومة جيوشاً على نينغ هيا وحاصرتها وقتلت خلقاً كثيراً ثم افتتحتها عام ١٨٦٥ بعد حروب طويلة . إلا أنه سنة ١٨٦٨ عادت الثورة فاشتعلت فسافت الحكومة جيوشاً وسفكت دماء كثيرة واستردت كثيراً من المدن العاصية . وسنة ١٨٧١ أسرت ماهو الوونغ وزعيماً آخر اسمه ماباتسياو وصلبتهما وهاجت مدن هوتشيوسينينغ وسوتشيو وأخذت الثورة في جميع بلاد شنسي و كانسو . وسنة ١٨٧٤ زحف جيش « ليوكين تانغ » وجيش « كين شوان » قاصدين الزعيم الديني « باي ين هو » وهاجما « نغان تسي ين » أو كاشغر فانهزم الزعيم الى أرض الروس وقتل ملك كاشغر وتحددت حدود « سين كيانغ » أي التركستان الصيني من الشمال والجنوب . ونصبت الصين ليوكين تانغ والياً عاماً على كاشغر » انتهى

فظهر من هنا أن ماهو الوونغ الثائر المسلم حمل كير الثورة مدة ست سنوات ولولاه لم يتمن يعقوب بك سلطان كاشغر أن يعمل شيئاً وأن سلطنة كاشغر لم تستمر ١٣ سنة الا بفضل ثورة ماهو الوونغ المذكور وقد لعب الدور الأعظم في قتال المسلمين الجنرال « تونغ فوسيانغ » وهو هو الذي ترأس ثورة البوكسر الشهيرة على الأوربيين سنة ١٩٠٠ ولما طلبت دول أوروبا من الصين تسليمه فر الى كانسو وتخبأ بها . وكانت له قصور شاهقة وأراض واسعة ومات سنة ١٩٠٧ وأعيدت اليه بعد الموت الألقاب التشريفية التي كانت دولة الصين نزعتها منه اجابة لطلب الدول وكانوا يظنون في أوروبا هذا الجنرال مسلماً وذلك لوجود عساكر كثيرة من المسلمين يلبسون العمام في جيشه فالتبس عليهم الأمر والحقيقة أن هذا الجنرال كان أعدى أعداء الاسلام وأنه من شدة خبثه ومكره ضرب بعضهم ببعض وأوقع بأسهم بينهم لا سيما بواسطة القائد المسلم « مغان لينغ » الذي فتك كثيراً بأبناء ملته .

وأما ثورة ينان فاستمرت من سنة ١٨٥٥ الى ١٨٧٣ وانتهت بالويل على المسلمين . وسبب انكسارهم اختلاف رؤسائهم وعدم تذكرهم قوله تعالى « وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » فان الثائر « توفنسيو » نودى به سلطانا في « تالي » ولكن الزعيمين

« ماتوسين » و « ماجولونغ » قاتلاه وانتصرا لحكومة الصين . وكان للنائر ماهوا لونغ شيعة يقولون انه قطب الوقت وان القطبانية انتقلت بعد وفاته الى خلفائه . وقد خلفه صهره « ماتاهي » وفي سنة ١٩٠٨ كان عمره ٥٥ سنة وحفيده « مااول هي » وكان عمره ثلاثين سنة تبع كلا منهما حزب الا أن حزب الصهر أعظم . ومركز الصهر « شاكيو » ومركز الحفيد « تانغ كياوتشوان » وهذه هي ناحية عظيمة الشأن في اسلام الصين فيها مدرسة كلية لهم في « بينغ لينغ » وهذه الفرقة تلقب سائر المسلمين بالظاهرية . ويقولون في كانسو ان الخلفاء الراشدين الأربعة أسسوا كل منهم طريقة فأبو بكر طريقته الخفية يذكرون بصوت منخفض والثانية الجمهورية يذكرون بصوت عال وهي طريقة عمر والثالثة الكبارية أو الكبرى وهي طريقة عثمان لأنه كان كبيراً مسناً والرابعة القادرية وهي طريقة على . والحاصل أن الانقسام الذي يراه السياح الأوربيون ورواد حكوماتهم بين مسلمي الصين ويؤولون له التأويلات بحسب عاداتهم هو عبارة عن فرقة القائلين بالشرعية المحضة بدون نظر الى التوصل وفرقة القائلين بالتصوف والآخذين بالطرق على أنها لاتنافي الشرعية . فالأوربيون مثل بعثة اولون يرون في ذلك دياتين .

ومن عادة مسلمي الصين أن يشتروا أولاد الوثنيين ويربوهم في الاسلام روى ذلك تيزسان صاحب « الحمدي في الصين » وغرونارد Grenard وقالت بعثة اولون انها لما مرت من هناك كانت في الصين مخمة شديدة فكان الصينيون يبيعون أولادهم والمسلمون يشترونهم لأن المسلمين بتاسكهم أيسر حالا من الصينيين . وفي ثورة البوكسر قتل ألوف من المسيحيين ونهبت أموالهم وبيعت نساؤهم وأولادهم فاشترى مسلمو « نينغ هيا » عدداً منهم وهذا محقق لأن مطران مغولية كان يسعى في استردادهم .

وفي شمال نينغ هيا عاد الاسلام ينمو ويزداد وجميع المسلمين يتجرون بالجلد والصوف وكل نواتية الأنهر لاسيما النهر الأصغر هم منهم . والمدينة التي على هذا النهر المسماة « باوتار » شغلها كله في أيديهم . والمدينة المسماة « كوكوكوتا » أي الزرقاء التي فيها من كل الأجناس يسكنها ٢٠٠٠ أسرة مسلمة . ويقول اولون انه صادف فيها رجلاً مسلماً يعرف وجود الخليفة في الاستانة لأنه كان ذهب الى باكين وتلاقى مع علي رضا وحسن حافظ ورجع ومعه صنورهما وصورة راية الخليفة . قال اولون : على أنه اذا اننت هذه الدعوة هناك

دخل الاسلام الصينى فى طور جديد . ولكن أولون لو انتظر الى هذه الأيام لعرف أن كثيراً من حزب التجدد فى الأتراك يرون الخلافة ضرراً عليهم ولذلك قد ألقوها وأخرجوها من الاستانة .

وكان السلطان عبد الجيد أرسل من الاستانة حسن حافظا وعلى رضا فأسس مدرسة فى مسجد نيوكياى كان فيها ١٢٠ طالبا وأقبل المسلمون عليهما لالكونهما قادمين من قبل خليفة المسلمين لأن هؤلاء فى الصين لم يكونوا يعرفون هذا الأمر وإنما احتفلوا بهما لأنها آتيان من الآفاق التى ظهر فيها النبى صلى الله عليه وسلم ولقد بث هذان الداعيان روح الانضمام الى الخلافة ورفع العلم العثمانى وزارا بلاد هونان ونغان هواى وكوانغ تونغ أعظم الحواضر الاسلامية ونشرا فى الصين الجرائد الاسلامية منها عثمانية أو تركية ومصرية وروسية وبلغارية ويوجد اليوم جريدة اسلامية فى باكين اسمها « تشنغ تسونغ نغاي كوباو » أى الجريدة الوطنية .

وفى باكين ٢٩ جامعا أكبرها « نيوكياى » ومنها جامع « سيتان باى ليو » كان هيكلا وثنياً الى سنة ١٩٠٠ فلما ثارت ثورة البوكسر جعلوه مركزا لهم فلما زحفت جيوش الدول الى باكين خاف الصينيون أن يحرقوه فعرض أحد علماء المسلمين أن يحوله جامعا ويرفع منه الأصنام حتى يظنه الأوربيون مسجدا للاسلام فلا يتعرضوا له فرضى الصينيون بذلك ولما انتهت الحرب أبقوه جامعا وهو من أعظم جوامع باكين .

أما بلاد كاشغر فبعد أن خمدت فيها الثورة أخذت الدولة الصينية ادارتها بيدها وجعلت فى كل من مدنها الكبار مفوضاً امبرطورياً وقائداً عسكرياً . فدن غربى كاشغر هى كاشغر وباركند ويانغى حصار وقوطان . وأما مدن شرقى هذا القطر فهى أوش واكسو وكوتشار وييدجان وهالى وطورقان وهار اشار . والجميع احدى عشر مدينة كل منها يتبعها مدن عديدة فعين لكل منها قاض لفصل قضايا المسلمين ولا بد لكل هؤلاء أن يذهبوا كل سنة مرة الى العاصمة كما أنه يأتى كل سنة مفتشون من العاصمة للتفتيش عن أحوال المسلمين .

أما الانسيكو بىدية الاسلامية فتذكر ما ملخصه : أن أصل دخول الاسلام فى الصين هو لأجل التجارة لأن المسلمين بعد أن تالت دولتهم فى بغداد سارت سفنهم من خليج

فارس الى الهند والصين وعرفوا تغور الصين من صدر الاسلام كما أنهم من الجهة الأخرى دخلوا الى شمالى الصين بواسطة الترك من زمان جنكيز خان وأعقابهم فان جنكيز لم يكن يعبأ بالدين وكان يجمع حوالبه من جميع الملل ودخل في جنده كثير من الترك والأفغان والباكتان وأناس من الفرس وفي زمان قوبلاي خان دخل جماعة من الفرس في خدمة دولة الصين وذكر منهم ابن بطوطة أناساً في رحلته وأشار اليهم السائح الايطالى ماركو بولو وكان كل هؤلاء مسلمين فنشروا الاسلام في الصين . وكان في زمن جنكيز اتصل بخدمة بلاطه رجل من بخارى يدعى أنه من آل البيت اسمه السيد الأجل ولهذا الرجل تراجع عديدة ذكرتها الأنيسكو بيديه ونقلت منها تنقاً وقالت ان ماركو بولو تكلم على ابنه نصير الدين وروت كثيراً من أخباره عن رحلة أولون واليه والى ابنه هذا تعزو ظهور الاسلام في ينان .

أما حالة المسلمين الاجتماعية فهي كما هي في سائر بلاد الاسلام والعمل انما هو بالشرع الشريف . على أن تيرسان يروى أن مسلمي الصين مضطرون في أمر الزواج أن يتقيدوا بقانون المملكة الصينية ولو خالف الشرع ولا نعلم مبلغ ذلك من الصحة . ويقول أولون ان الحجاب غير مفعود عند نساء المسلمين في الصين بل النساء يخرجن سافرات وهكذا يقول غره نار الا أنه يستثنى من ذلك نساء الأغنياء ، وفي هوتشو يتنقب النساء المسلمات بنقاب أسود تحت الاعين . وعادة وضع القدم في القالب لتصغيره معروفة عند المسلمين كما عند سائر الصينيين وفي كانسو يتنافس بها المسلمون اكثر من سواهم . ويتزوج المسلم بالصينية بل يستحب أن يأخذ غير مسلمة لعل الله يشرح صدرها للإسلام ولكن لا يحل لمسلمة أن تتزوج بغير مسلم . ومع التشديد في منع ذلك يوجد حوادث مستثناة فان الامبراطور « شيسين لونغ » كان متزوجاً بأمية تركية مسلمة . أما العفة وطهارة العرض فهما محفوظتان عند المسلمين اكثر مما هما عند سائر الصينيين .

واحترام الآباء والاجداد معروف عند مسلمي الصين ، وترأهم يحفظون شجرات الانساب كسائر أهل الصين . ولا يوجد عندهم تفاوت في الطبقات الاجتماعية الا ما كان من تعظيم آل البيت وتمييزهم ولكن مسألة ادعاء النسب النبوى غير فاشية هناك كما في سائر بلاد الاسلام لذلك عدد أصحاب هذه الدعوى قليل وكان منهم الزعيم الثائر ما هو الوونغ . أما

سحنة مسلمي الصين فهي في الغالب كسائر أهل الصين وانما يجد فيهم الرأي كثيراً من السحنات العربية والتركية بسبب المهاجرة ومجى الطرء . وعلى كل الأحوال فالسواد الأعظم من مسلمي الصين هم من السلالة الصينية ولغتهم هي لغة الصين وكتابتهم هي كتابة أهل الصين وان كان يوجد في لهجة نطقهم مالا يخلو منه مكان من الاختلاف بحيث يعرف الصيني المسلم من الصيني الوثني من لهجته . ولا شك أن اختلاف الدين أوجد بين الصيني المسلم والصيني الوثني تبايناً كبيراً فالمسلمون يرون أنفسهم أعلى جداً من الصينيين وهؤلاء يلقبون المسلمين باسم « هوى هوى » والمسلمون يكرهون هذا اللقب ويحبون أن يقال لهم « باي شان » أى أصحاب العمام البيض . ويوجد في الصين جنس من الاسلام هم مباينون لسائر مسلمي الصين والصينيين في اللغة والسحنة وهم قوم يقال لهم « السالار » يسكنون على الضفة اليمنى من « هوانغ هو » وما جاوره فهؤلاء يشبهون أتراك كاشغر في الخلقة ولغتهم من التركي المحرف ومذهبهم حنفي ويعرفون الحروف العربية ولا يوقدون البخور ولا يضعون أسماء سلاطين الصين في جوامعهم وهم يجهرون في الصلاة وقد ظهر بينهم مرشد في نحو سنة ١٧٥٠ اسمه « مامينغ هسين » أو محمد أمين وهو الذي يقلدونه الى الآن .

ويمتاز مسلمو الصين على سائر الصينيين بعلا الهمة وقوة الجسم فجددهم من أجل ذلك مشغوفين بالخدمة العسكرية وتجد عدداً كبيراً من ضباط الجيش الصيني مسلمين ومنهم كثير في المناصب المدنية الا أنهم في المناصب العسكرية أرغب . وأما المهن فان بعضها يكاد ينحصر فيهم وذلك نظير المكاراة وقيادة المواشى ويقال لصاحبها « مافو » فان هذه المهنة هي فيهم خاصة وكذلك حرفة الخانات والاماكن المعدة للمسافرين فهي مما يختص بهم . وبالإجمال تجد الصينيين أقوم من المسلمين على الزراعة وتجد المسلمين أقوم من الصينيين على تربية المواشى

وأهل الصين ينظرون الى المسلمين بعين الحذر ويعتقدون أنهم يريدون تأسيس سلطنة ضمن السلطنة ولذلك تجد المسلمين يميلون الى الاوربيين بعض الميل ويحسبونهم اخوياً باناء الصينيين . وان كنت تجد في قواد الجيش الصيني من المسلمين من اشتهروا بغضب الاجانب فالعامل فيه هو غطرسة الاجانب الاوربيين لا التعصب الدينى . وبما لا يتكر أن مسلمي الصين يلجأون الى جميع الوسائل لاجل زيادة عددهم فيتمشرون في الخماص مئات

أولف من أولاد الوثنيين ويربونهم في الاسلام ويجذبون الى دينهم كثيراً من الصينيات بواسطة الزواج . وضباط الجيش من المسلمين يهدون الى الاسلام كثيراً من جنودهم . وقد أخبر أولون أنه صادف جمعاً من الذين أسلموا حديثاً . نعم ان ثورات المسلمين الاخيرة وقفت سير الاسلام بعض الشيء ولكن مما لا نزاع فيه وما اتفق عليه جميع سياح الاوربيين الذين سبروا غور الصين أنه لا يعد مستحيلاً دخول الصين في الاسلام لا سيما بعد أن أعلن الصينيون المجددون سنة ١٩١٢ كون الماندشو والمغول والمسلمين والتبتيين والصينيين كلهم متساويين ويذهب بعض الاوربيين الى امكان حصول ديانة جديدة يمتزج فيها الاسلام بعقيدة كنفوشيوس لا سيما أن في العالم الاسلامي حركة دينية ظاهرة نحو التجدد .

أما الحركة الدينية الحاضرة في اسلام الصين فهي عبارة عن أن « ماهو الوونغ » الذي تقدم ذكره قام بطريقة خاصة من قواعد الجهر في الصلاة وارتداء الأيدي بدل القبض والاعتقاد بالأولياء وزيارة القبور وتزعم بعثة أولون أن المسلمين الصينيين انقسموا بذلك الى قسمين : أصحاب الديانة القديمة ويقال لها « لاوشياو » وأصحاب الديانة الجديدة وتسمى « سين شياو » وعقبت على ذلك الانسيكلوبيديا الاسلامية بقولها ان هذه الحالة هي في سائر بلاد الاسلام فان هناك من يتمسك بالأولياء والأقطاب ويعتقد بتصرفهم في الكون باذن الله ، ومنهم من لا يعتقد بذلك ولا يخرج عن ظاهر الشرع

ثم ذكرت الانسيكلوبيديا أن السلطان عبدالحيد فكر في الاستفادة من مسلمي الصين بايجاد علاقات معهم باسم الخلافة فأرسل الى الصين سنة ١٩٠٠ أحد القواد وهو أنور باشا^(١) لهذه الغاية فأحقق اخفاقاً تاماً . ثم ان الاهونغ^(٢) وانغ هاو زان الياس عبد الرحمن مفتي باكين قدم الى الاستانة فالتمس من السلطان ارسال بعثة اسلامية الى الصين فأرسل اثنين هما علي رضا وحافظاً فأسسا مدرسة سنة ١٩٠٧ وجالا في بعض بلاد الاسلام « ولكن الحكومة الصينية قضت على الدسياسة التركية » فالتجأ ذاك التركيان الى سفارة المانية في باكين ووعلت سفارة المانية في الاستانة بأن تحمل سفارة المانية في الصين على حمايتهما ولكن الحكومة الصينية لم ترد أن تسمع كلاماً فلما رأى المرسلان المذكوران أن السلطان

(١) غير أنور باشا الشهيد ناظر الحرية

(٢) الاهونغ عند أهل الصين العالم المسلم

تركهما التجأ الى سفارة فرنسا فخمتها ثم عادا الى الاستانة ولا يزال في تركية الدستورية نية تأسيس سفارة في باكين وهي جنة ليست على ما يظهر قريبة التحقيق (كذا) .
ثم أردفت ذلك بقولها : انه وان كان المستقبل لا يأذن بالتكهنات . فيمكن مع ذلك أن يقال ان استيلاء الاسلام على الصين وظهوره على سائر أديانها هما شبح لا يفيد المسلمين سوى الخراب والخسار . ولكن اذا كان بتسلسل حوادث غير منتظرة تحققت آمالهم في هذا الأمر ولو لمدة موقته فتكون مصيبة على الصين لأن الاسلام ليس بدين مدنية والاسلام هو قبل كل شيء عدو للمدنية الافرنجية حال كون استعداد الصين انما هو لاقتباس هذه . فان كان المسلمون يريدون الاشتراك في حركة التجديد الصيني فلا بد من أحد أمرين : اما أن ينقادوا الى الأفكار الجديدة ويسيروا مع دعاة الاصلاح الصينيين الى تجديد مملكة صينية على قاعدة القومية الصينية وبذلك يكونون غير مجرمين . واما أن تبقى في قلوبهم نيات التسلط على سائر الصينيين فبمجرد ظهور هذه النيات يسحقهم الصينيون سحقاً لأن المسلمين عددهم قليل جداً في وسط رؤساء الحركة الاصلاحية وان الأمة الصينية تحسن عملاً في الحذر من العناصر الاسلامية التي في داخلها وفي منع نمو الاسلام في الصين بشراء أولاد الصينيين . انتهى بالحرف .

وقد يأخذ القارئ العجب كيف ان دائرة المعارف الاسلامية تصرح بمثل هذه الأقوال التي فيها من التحامل والبغضاء وسوء النية بحق المسلمين مالا يمكن المراء فيه . ولماذا ارسل السلطان عبدالجيد بعثة تهذيبية الى باكين يعد « دسيه » وبعثات الدول الأوروبية التي هي مائة الصين والشرق والغرب لاتعد « دسائس » ؟ ولماذا وجود سفارة تركية في باكين يعد جنة حال كون أولى الأمم بأن تكون لهم سفارة عند الصين هم الترك نظراً لتجاور الترك مع الصينيين ولوحدة الأصل ثم لماذا يجب على الصين هذا الحذر كله من الاسلام والاسلام دين قسم وافر من أهلها ولا يجب عليها الحذر من الافرنج الذين مانسبوا أصابعهم في مكان الا انتهى الأمر باستيلائهم عليه واستعبادهم لأهله ولماذا الدين الاسلامي عدو للمدنية وقد شهد كثير من أعظم أوربا ونخبة المستشرقين انه خدم المدنية ؟ وأخيراً لماذا يغار هذا الكاتب على الصينيين أكثر من غيرتهم على أنفسهم فانهم تسامحوا مع المسلمين في تركهم يأخذون أولادهم في المساغب ويربونهم في حجر الاسلام وهذا الكاتب

لايسامح في ذلك .

ولكن من علم أن محرر هذا الفصل من الانسيكلوبيديّة الاسلاميّة الفرنسيّة هو الاستاذ المستشرق مرتين هارتمان الألمانيّ بطل عجبه . فان هذا الأستاذ قضى حياته في محاربة الاسلام والاجتهاد في اظهار معايبه والتحاميل عليه في كل فرصة وهو أشبه بلامنس اليسوعي يكون كل منهما استشرق في مدينة يروت ووقف عمره على مجادلة الاسلام وأسلس في هذه السبيل العنان لهواه واحنة صدره . عرفت هارتمان هذا وأنا طالب في مدرسة الحكمة في يروت لم أتجاوز الخامسة عشرة سنة من عمرى ثم لقيت بعد ذلك باثنين وثلاثين سنة في برلين وهو محرر في مجلة « الشرق الجديد » أثناء الحرب . وكان يتردد الىّ ولم أكن أعرف حقيقة مشربه ولا اطلعت على كتاباته اذ ذاك الا أنه قيل لى مرة ان الأستاذ هارتمان كان من ألد أعداء الأتراك لايفتر عن الطعن فيهم فما باله عاد الآن يحمّد طريقهم أترى ذلك من أجل كون الترك حالفوا الألمان ؟ فبحثت عن السبب فعلمت أنه رضى عن الأتراك بمجرد ما علم أن فئة منهم تسير في خطة غير اسلامية ولهذا كان معجبا بمبادئ ضيا كوك ألب وأمثاله . وحدثني المرحوم الشيخ صالح التونسي أنه جرى اجتماع في برلين أثناء الحرب حضره كثير من المسلمين فقام هارتمان وعرف الجهاد عند الاسلام بكيفية تقشعر منها الأبدان فانبرى له الشيخ صالح وتكلم في حقيقة معنى الجهاد وفند دعوى هارتمان في الأمور التي زعم أن الشرع يجيزها للجهاد فأجاب هارتمان أن مايقوله الشيخ صالح هو شئ جديد غير ما في الشريعة . فرد عليه الشيخ صالح بقوله بل هذه هي أحكام الشريعة وان هارتمان يحجل الشريعة وطالت المشاحة بينهما وفصل بينهما الاستاذ المستشرق ميتفوخ وقال ان حد الجهاد هو ما قاله الشيخ صالح لا ما قاله الشيخ هارتمان .

ومن أغرب شواهد التهور الذي كان عليه هارتمان هذا في احتقار الاسلام أنه في مقالته عن الصين هذه أشار الى الحديث النبوى الذي نقله المستشرق المجرى غولد سيهر وهو : « اتركوا الترك ما تركوكم » فهزأ به وزعم أنه حديث موضوع يقصد به اضافة العلم الى النبي ﷺ وتعظيم قدره والحال أنه قديكون محمد لم يسمع بذكر الترك في حياته . ولولا كون هارتمان قد مات بعد الحرب بقليل وقبل أن اطلعت على جلته هذه لكنت أظهرت له ما فيها من قلة المعرفة وعدم التمييز وفساد الاستشراق واثبت له أنه لا يضح أن يعد مستشرقاً

من يعتقد أن سيداً من سادات العرب — بصرف النظر عن النبوة — لا يعرف وجود الترك في الدنيا مع أن العرب في الجاهلية كانوا يعرفون الترك والروم كما يعرفون العجم. وكان اسم الترك معروفاً لديهم واردة في أشعارهم ولم يكن جهل العرب واصلاً إلى حد أنهم يجهلون وجود الترك. وإنما القول بأنهم كانوا بهذه الجهالة هو عين الجهالة وقلة العقل والظن بأن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب ربما لم يسمع في حياته بوجود أمة اسمها الترك هو منتهى الصغارة والضعف ولا يشابهه إلا أقوال لامنس اليسوعي التي يأسف من يقرأها على تصدر أناس أعماهم الغرض إلى هذا الحد لدعوى الاستشراق وتصديهم للكتابة عن الشرق والاسلام. وقد صنف المسيو دينه Dinot وسليمان بن ابراهيم كتاباً بالفرنسية اسمه « انك في واد وأنا في واد » أظهر فيه ما في تأليف لامنس من السخافات والآراء الخيالية التي لاتشين الا صاحبها ولا تنقص الا كاتبها.

هذا ونعود الى موضوع الاسلام في الصين فنقول ان أحد أدباء الصين ورد مصرأ في العام الماضي فنقلت جرائد مصر عنه أحاديث عن بلاده من جللتها أن في الحكومة الصينية الحاضرة أربعة وزراء مسلمين وهم الجنرال محمد كاشونغ ناظر الحربية ثم الجنرال محمد شيسانغ ناظر الطرق وناظرين آخرين أحدهما وزير الزراعة والثاني وزير الأمور الدينية الاسلامية الذي هو بمثابة شيخ الاسلام. وقال هذا السائح ان مسلمي الصين متفوقون مع حكومة الصين في مبدأ تعزيز الرابطة الشرقية. وذكر أن عدد المسلمين في الجيش الصيني هو نحو نصف مليون منهم ٥٠٠ ضابط وأخبر عن وجود جريدة اسلامية في الصين اسمها « راية الاسلام » والله أعلم.

ولقد اطلعنا على كتاب اسمه « مسلمو يunnan » Les musulmans du Yunnan لكاتب افرنسي أقام بجنوبي الصين عدة سنوات اسمه المسيو « كورديه » Cordier من أعضاء ا كاديمية علوم المستعمرات قال فيه ان مسلمي الصين يبلغون عشرين مليوناً أي واحداً من عشرين من الأمة الصينية لكن لهذه الاقلية الاسلامية هناك شأن لا يستهان به

ولما كان صاحب هذا التأليف عالماً مؤرخاً فيما يظهر من كلامه أحياناً ان نأثر عنه بعض معلومات تم بها فائدة هذا البحث

فهو يرى أن دخول الاسلام في الصين بدأ من القرن الاول للهجرة وذلك ان الفاتح العربي قتيبة كان بين سنة ٧١١ و ٧١٤ قد وصل بفتوحاته من سمرقند الى كاشغر وانه قد وجد في المجموعة الكبرى الصينية صور الكتب التي وردت من ملوك بخارى وسمرقند وتركستان الى اهل الصين لذلك العهد يستصرخونه لانقاذهم من العرب . ومنها يستدل على الرعب الشديد الذي حل بالترك أو انثذ من سطوة العرب ^(١) وان قتيبة بعد أن حمل تلك الشعوب التي أطاعته على الاسلام أرسل الى ابن السماء برسالة يدعو به الى الاسلام و يشرح له عقيدة القرآن وبحسب قول مارغوليوث قد راع اهل الصين الاخبار التي جاءت عن قوة العرب فارتضى بأن يرسل الى قتيبة بالجزية

والمسيو كورديه يشك في تأدية اهل الصين للجزية نظراً للعهد من كبرياء ملوك الصين ولكنه يرى محققاً أن اهل الصين أعجب جداً بشجاعة العرب واقدام قائدهم قتيبة لانه سنة ٧٥٦ كان ثار أحد العصاة المسمى « آنلوشان » على العاهل « سوتسونغ » واستفحل أمر الثائر هذا فأرسل العاهل الى الخليفة أبي جعفر المنصور يستنجده على الثوار فأمدّه بجيش أربعة آلاف مقاتل من العرب فذهبوا الى الصين وأخذوا الثورة وأعادوا الى الامبراطور ملكه بعد ان كاد يذهب من يده . ولما سكنت الحال استقر هؤلاء الجنود العرب في بلاد الصين وتزوجوا وتولدت منهم طبقة خاصة وهذه بلا نزاع النواة الأولى للاسلام في الصين

وهل كان مجيء هذه النجدة العربية للامبراطور « سوتسونغ » بجرأ أم برأ ؟ الجواب هذا غير معلوم الا أنه مما لا شك فيه ان مدينة كانتون كان فيها مسلمون من القرن الأول للاسلام مؤلفون من بحارة العرب والعجم الذين كانوا في تردد دائم على سواحل الصين وقد كثر عددهم الى حد انهم سنة ٧٥٨ ثاروا على الحكومة بسبب ضريبة أرهقتهم فنهبوا البادية وأحرقوها وخرجوا . ثم لم يطل الأمر ان رجعوا الى هناك لأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين سيراف و كنتون وكانت المحطة بينهما جزيرة سيلان

وسنة ٨٧٢ وصل الى كنتون السائح العربي ابن وهب وقصد بلاط العاهل وأراه هذا صور الأنبياء نوح وموسى وعيسى ومحمد وصور حكماء الصين . وبعد هذا التاريخ بسبع

(١) راجع الصفحة ٨ من كتاب كورديه

سنوات نار ثائر اسمه « هوانغ تشاو » ونهب كنتون وقتل فيها مائة ألف مسلم
وبعد ذلك تسكت التواريخ الصينية عن ذكر المسلمين في الصين الى زمن ثوراتهم
الآخيرة اه

قلت : اما ارسال قتيبة بن مسلم الباهلي فاتح بلاد الترك رسالة مع وفد انتخبه الى ملك
الصين فقد ذكره ابن الأثير تفصيلاً كما سبق لنا نقل ذلك في الطبعة الأولى من هذا الكتاب
والذى يظهر هو أن ملك الصين راعه الامر ووجد العرب قد كادوا يطأون بلاده فأرسل
الجزية الى قتيبة خلافا لما ذهب اليه كورديه من أن كبر ملوك الصين أعلى من ذلك . ولو
كان الكبير يمنع مثل هذا الامر لما استنجد اهل الصين أبا جعفر المنصور وبينهما مسافة
بضعة أشهر

وأما ذهاب ابن وهب من البصرة الى كنتون ثم الى بلاط ملك الصين وكون هذا أراه
صور الأنبياء والحكام فهذه القصة واردة في كتب العرب
والذى يظهر أن العرب كثروا جدا في كنتون صدر الاسلام وكانت السفن لاتنقطع
بين مرافئ الاسلام ومرافئ الصين

جاء في كتاب « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » قال .

« حدثني القاضي احمد بن سيار قال حدثني شيخ من التجار بعمان قال : كنت بالابلة أريد
الخروج الى البحر فرأيت سائلا بباب الجامع فصيح اللسان مليح المسألة فرقت له وأعطيته
دراهم صالحة وخطفت في الوقت الى عمان فقضيت بها شهورا ثم قضى لي ان مضيت الى
الصين فدخلتها سالماً فاذا أنا يوما أطوف فاذا الرجل بعينه قائماً في السوق يتصدق فتأملته
فعرفته فقلت له : ويحك سائلا بالابلة وسائلا بالصين . فقال : قد دخلت الى هذا البلد ثلاث
دفعات وهذه الرابعة اطلب المعيشة فلا أجدها الا من الكدية فأرجع الى الابلة ثم أرجع الى
ههنا . قال فعجبت من شدة حرمانه » اه

والذى أريد استخلاصه من هذه النكتة أن كنتون كانت لعهد دولة العرب أشبه
ببمباي الهند اليوم بالنسبة الى البصرة أو الى الكويت أو الى البحرين الخ
وكورديه يرى أن الاسلام دخل الصين من الطريقين البحري والبري . اما مقاطعة
« ينان » فيذهب هذا الرجل الى ان الاسلام جاءها من الشمال عن طريق مقاطعة

« شانسى » كما أنه يجوز أن يكون جاء المسلمون من الهند الى بيرمانيا الى ينان . ولكن هذا الاحتمال ضعيف . وبحسب الروايات الماثورة فى الصين دخل الاسلام فى ينان فى أيام دولة « تانغ » ثم ازداد فى أيام جنكيزخان الذى غزا جنوبى الصين وكان فى جيشه مسلمون فاستوطنوا تلك البلاد . وكان السيد الاجل مغولياً مسلماً من هؤلاء فاعتنى بتمكين المسلمين هناك ولهذا لما وصل السائح الايطالى الشهير الى « يوان فو » ذكر أن أهلها مزيج من وثنيين ونصارى نساطرة ومسلمين . وزعم الجنرال « فيتش » Fytche فى مجلة « ادنبورغ رڤيو » ان الامبراطور « هويو تسونغ » من عائلة « تانغ » عند ما حصلت عليه ثورة « نغالوشان » استنجد العرب فى قمع الثورة فأرسلوا اليه عشرة آلاف مقاتل أخدموا له الثورة ولكنهم لم يرجعوا الى بلادهم فأسكنهم الامبراطور فى ينان . ولم يذكر الجنرال مصدر هذه الرواية . وذهب « جون آندرسون » John Anderson الى أن مسلمى ينان هم من سلالة العرب ومعهم عنصر تركىانى هبط اليهم من شانسى وكانسو

وذهب « بورن » Bourne الى أن مسلمى ينان هم قسبان : جماعة « تاليفو » وجماعة « ليننغان » فالأوائل هم سلالة عسكر جنكيزخان . والأواخر هم من مهاجرى شانسى . قال وقد أسكن الأوائل فى غربى ينان الأمير « هيان يانغ فانغ » المعروف بالسيد الاجل وذهبت مادام فاسال Madame Vassal فى كتابها على « ينانفو » الى أن أصل مسلمى ينان هو من الملاحه العرب الذين جاءوا الى كنتون فى القرن السابع المسيحى ونهبوا هذه البلدة ثم تفرقوا فى جبال ينان . ولكن كورديه يقول : كيف لم يترك هؤلاء آثاراً اسلامية فى طريقهم بين كنتون وينان

قال كورديه : وكيف كان أصل وجود الاسلام فى ينان فالمسلمون لم يزالوا ثمة فى ازدياد بصورة منتظمة ولولا الذين ذهبوا منهم فى الثورة الأخيرة من سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٧٣ لكان عددهم عظيماً جداً . أما عدد الذين ذهبوا منهم فى المذابح التى وقعت فى المدن الكبار مثل « كين تسينغ » و « تشنغ كيانغ » و « سين هينغ » و « كوانغ يى » ولا سيما « تالى » فيظن أنه ثلاثمائة ألف نسمة . وقد قتل فى تالى وحدها ٣٠ ألفاً . وهذا هو تعديل الأب بورياس Pourias الذى كان معاصراً للثورة .

أما عدد مسلمي نينان في الوقت الحاضر فغير معروف بالتمام فبعثة «اولون»^(١) D'ollon لا تزيدهم على مائتين وخسين ألفاً . وقال « دافيس » Davies انهم ثلاثمائة ألف . وقال « كاراي » Carey انهم ثلاثمائة وخسون ألفاً وقال « سوليه » Soulié انهم من ثمانمائة الى تسعمائة ألف . وجعلهم « تيرسان » Thersan من ثلاثة الى أربعة ملايين . قال كورديه :
أما أنا فقد سألت المسامين أنفسهم محلة محلة وبلداً بلداً وقابلتها مع المعلومات التي عندي من المبشرين المسيحيين فوصلت الى عدد يتراوح بين ٣٠٠ ألف و ٤٥٠ ألفاً

وأهم المراكز الاسلامية هي « ينانسن » و « شاتين » و « تشاوتونغ » و « تونغ تشوان » و « سين هينغ » و « تالي » و « يونغ تشانغ » و « بو ويل » و « بووهي » و « سماو » و « يون تشيو » . ثم حرر كورديه جدولاً تقريبياً عن عددهم في كل بلد ثم قال : ولا أضمن مع هذا ان هذا العدد هو الصحيح اذ لابد لمن أراد أن يعرف ذلك أن يقيم في نينان مدة سنتين بالأقل وهو يفحص في كل ناحية وفي كل كورة

ثم ذكر كورديه انه قد اختلف السياح كثيراً في هذا الأمر وان « موير » Muir ذهب الى أنه يوجد مسلمون منتشرون الى حدود التبت . والحال أن مسلمي نينان اكثروا لكورديه انه لا يوجد مسلمون وراء « لي كيانغ » وقال « موريسون » Morrison انه يوجد قرى اسلامية متعددة في الجبال . ويقول ان في « تشاوتونغ » ثلاثة آلاف عائلة مسلمة وان فيها شارعاً ملائناً بالمساجد وكلها نظيفة وان تجارة الجلود في تلك الناحية كلها بأيدي المسلمين

وقد ذكر موريسون أنه صادف في أحد الجوامع « ملاً » أي شيخاً يقرأ بعض الاحداث فأخذ يحادثه فوجد أنه لا يعلم شيئاً عن الخارج . وسأله عما اذا كان جامع قرطبة وجامع القرويين بفاس أجمل أو أكبر من جوامع تشاوتونغ ؟

ثم قال كورديه : ان الاسلام انتشر في وقت واحد في « كوانغ تونغ » و « ستشوان » و « شانسي » و « شنسي » و « كانسو » و « نينان » ولكن ثورات المسامين لم تقع الا في المقاطعات الثلاث الأخيرة . وليس ذلك للأسباب طبيعية . فولاية « كانسو » هي قطعة مستطيلة بين « الغوبي » و « التبت » يحدها الجبل من جهة والمفازة من أخرى . فالصينيون يهيمون

(١) التي تقدم الكلام عليها في حواشي الطبعة الأولى

أن تبقى هذه الولاية بأيديهم لأنها نقطة الاتصال بين الشرق والغرب ومنها يتمكنون من رد قبائل التركمان عن التجاوز . والمسلمون أيضاً تهمهم هذه الولاية لأنهم بها يتصلون باخوانهم مسلمي التركستان وفي الوقت نفسه بمسلمي ستشوان ويثآن . ويأملون أن يركبوا سلطنة من هذه الولايات الثلاث . فمن هنا كثرت الثورات فيها

وينآن نفسها معدودة كأنها قطر منفصل عن الصين تحدها أعالي التبت وحراج ييرمانيا والتونكين العليا والمسلمون فيها يقدرون أن يكونوا على اتصال بمسلمي الهند

ولكن هذه التعليلات لايقبلها الجميع ومن الناس من يقول ان ثورات مسلمي الصين لم يكن لها منشأ الا الظلم . فالأب داود يقول ان مسلمي شانسي لايفكرون أبداً في انشاء حكومة ولا يريدون الاالذب عن حياتهم ومالم وأن يعيشوا بسلام وأمان وان كانت الثورة امتدت واشتدت فما ذاك الا من عسف العسكرية ونهبهم للأهالي . ثم قال : « وليس مسلمو الصين متعصبين كمسلمي الغرب وجيع اسلامهم الاعتقاد ببعض مبادئ اسلامية والختان والامتناع عن أكل الخنزير . وقليل من شيوخهم حجوا الى مكة واذا قرأوا القرآن لم يفهموه » وذهب جون أندرسون الى أن ثورة ينان كان سببها ظلم ولاية الصين . وهكذا قال « برومهال » Broomhal قال ومن سنة ١٨٣٤ الى سنة ١٨٤٠ نشبت ثورة أساسها قتل حاكم « شوانغ نينغ فو » لألف وستمائة مسلم في « مونغ ميان تينغ »

وذهب « كارنيه » Carnè الى عكس ذلك ووصف مسلمي ينان بالشدة والقسوة والافراط في العصبية ومزيد الجرأة وقال انهم هم البادئون بالشر . وهكذا زعم الاب بورياس الذي كان سنة ١٨٦١ في ينان فأكد ان المسلمين هم الذين أشعلوا الحرب وطمحوا الى الاستقلال وان بلاد ينان كانت تقريباً في أيديهم وكانت طاعتهم للحكومة اسمية وكان الصينيون يتقون شرهم فأنت ترى اختلاف الآراء وتناقض الروايات في هذه المسئلة . وقال فرنسيس غارنيه Francis Garnier ان المبشرين الكاثوليك أعطونا عن أسباب الثورة معلومات يعارض بعضها بعضاً بحسب الاماكن التي كانوا فيها

وقال « كولبورن بابر » الانكليزي : ان مسلمي ينان هم من أصل واحد مع البوذيين وغيرهم من الصينيين الاصليين . وقال الكاتب جونستون وغيره من السياح ان التعصب الديني لم يكن السبب في الثورة

ولقد كانت ذكرت بعثة « أولون » أنها لم تحب في ينان كثرة الاختلاط بالمسلمين والاحفاء في الاسئلة خشية إيجاد الوسواس عند حكومة الصين التي لا تطمئن اليهم وقد أدهش كورديه هذا الكلام . وقال انه بعد سفر بعثة أولون بقليل جاء الى ينانغو وخالط المسلمين وذهب الى الجوامع وأخذ صوراً فوتوغرافية وأحفى ما شاء في أسئلة شيوخ الدين وطلبتهم ولم يثر ذلك أدنى شبهة عند مأموري حكومة الصين . وربما أثار الشبهة بحق بعثة أولون أن رجالها كانوا كلهم عسكريين . ومرة أراد أحدهم وهو بزي مدني أن يزور دار السلاح في ينانغو ووجد من ساربه اليها أشبه بمتفرج . وكان مدير دار السلاح أراد أن يطلعه على كل ما فيها الا أن هذا الضابط لم يلبث ان عرف بنفسه وصرح بكونه ضابطاً وان رتبته كذا . فعندها اشتبه مدير دار السلاح بالامر وبعد ان قدموا الى المتفرج الا فرنسي الشاي والخلوة بحسب العادة اعتذروا له عن اطلاعه على العمل بحجة ان العملة كانوا في العطلة وما أشبه ذلك

ثم قال كورديه — ويظهر انه هو كان هناك مدير مدرسة — انه لم يجد أدنى فرق في السخناء بين الصينيين المسلمين والصينيين البوذيين وانه كان عنده في المدرسة ٢٥٠ طالباً منهم ٥٠ كانوا مسلمين ومع شدة تحديقه وتدقيقه لم يجد في خلقهم فرقا . فهو يرى انهم باجمعهم من سلالة واحدة . وأما الاب داود الذي ساح كثيراً في ينان فيقول انه برغم وجود دم عربي ودم تترى في مسلمي ينان فالغالب عليهم السحنة الصينية

ثم ذكر كورديه ان مسلمي ينان يدخنون ومنهم من يشرب الأفيون ومنهم من يشرب المسكرات لكن سراً . وهم في هذا كسائر الصينيين لكن الاجاع عندهم واقع على اجتناب لحم الخنزير

قال : وليس للمسلمين هناك مهنة خاصة بهم بل هم أرباب أشغال وحرف مختلفة كغيرهم . وقد كانوا في القديم يحبون الجندية وكان القواد المسلمون يستكثرون منهم . فلما تحول الجيش إلى النسق الجديد قل عددهم فيه لأنه في الجيش لا يقدر الجندى المسلم ممارسة شعائر دينه في الوقت الذي يريد اذ كانت الخدمة المنظمة تقيده بواجبات أخرى

وقال كورديه : كل من يعرف الجزائر يحار من شدة المشابهة التي يجدها بين هيئة بيوت مسلمي الجزائر وهيئة بيوت مسلمي ينان . فجميعها مساكن تحيط بدار في الوسط

وأمام المساكين أروقة يمر بها الانسان من محل الى محل بدون أن تصيبه الشمس أو المطر وليس للجوامع طرز بناء خاص يميزها عن غيرها الا ماندركا على باب جامع ينانغو الذي فيه شيء من الزينة مع كتابة عربية . وليس للجوامع ما ذن كما في سائر البلدان . قال كورديه : وفي ينانغوستة جوامع . ويقال ان في تالي ١٥ جامعاً وان في شرقي ينان ووسطها ٣٥ جامعاً . ثم قال : ان بين جوامع المسلمين وهياكل البوذيين بوناً عظيماً من جهة النظافة فان هياكل الصينيين ليس فيها شيء من النظافة التي تجدها في مساجد الاسلام سواء في ذلك داخل المسجد أو صحنه . ولعل السبب في هذا ان المساجد هي دائماً مشغولة بالمصلين على حين أن الهياكل لا يأتيها أهلها الا في الأعياد . قال : واذا دخل الانسان جامعاً لم يقدر الا أن يشعر بخشوع اكيد لا سيما إذا قايسها بمعابد الوثنيين بما فيها من أدوات ومواعين وأصنام بشعة المنظر وآلهة سمجة المبسم . وأشد ما يكون الخشوع اذا اجتمعت جماعة المؤمنين للصلاة يدخلون بثيابهم البيضاء فيتركون نعالهم عند الأبواب ويتوضأون وهم يقرأون شيئاً بصوت منخفض ثم يتقدمون رويداً الى الصلاة صفوفاً وراء « الاهونغ » (الامام) الذي يؤم بهم

والاهونغ لا يمارس الامامة عندهم الا ثلاث سنوات فقط . ولكن ان شئت الجماعة تمدد له هذه المدة . وامام الجامع الأكبر في ينانغو مضى عليه ٢٥ سنة وهو في هذه الخدمة . ومعاشات الأئمة هي من جماعة المؤمنين لا يستثنى منهم الا الفقراء . وعلى الاهونغ خدمة ثانية وهي تعليم الاحداث العقيدة الدينية واللغة العربية في جانب كل جامع مكتب للاولاد . وفي بعض المساجد يوجد مدارس تعلم فيها الآداب الصينية وغيرها من مواد برامج المدارس الابتدائية .

وليس لهذه المدارس امتحانات رسمية لكن متى رأى الاهونغ تلميذه قد أتم دروسه يامره في أحد الأعياد أن يفسر آية من القرآن أمام جماعة المؤمنين . ومن ثمة يحق لهذا الدارس الذي أتم تحصيله أن يلبس الثوب الأخضر ويتعل نعال الخمير الاسود ويتعمم بعامة بيضاء تدور بطربوش ذي قنزعة . وهذه الحوائج يشتريها له جماعة المؤمنين أو الذين انفقوا على تحصيل هذا الطالب الى أن صار منتها . ثم ان هذا يعود فيقرئ غيره العقيدة والعربية

وليس للأئمة معاش محدد بل معاشاتهم تابعة لدرجة غلة أوقاف المساجد التي يقومون عليها . وقد يخصص للامام مقدار من الارز من غلة اراضى المسجد . ثم ان المؤمنين يؤدون اليهم شيئاً عند عقد الأنسكة وفي الجنائز

وتسعة أعشار المسلمين هناك لا يعرفون من العربية الا « سلام عليكم » و « بسم الله » و « الله أكبر » وبعض كلمات . وأما الأئمة فليسوا بعلماء في العربية قال كورديه : حدثني أحد الاهونغات ان ٢٠ في المائة من المسلمين يقرأون العربى بدون أن يفهموه . وخسة أو ستة يقرأون العربى ويفهمون بعض الصلوات . وواحد في المائة يقرأ العربى ويكتبه ويفهمه كما يلزم . لكن ليس في الالف واحد يقدر أن يتحدث كما يريد باللغة العربية . ويقول كورديه انه لم يلحظ عند الأئمة اجتهاداً في نشر العربية كأنهم يخشون بنشرها المزاجحة على وظائفهم

قال كورديه : وكل مرة كان الاهونغات يشهدون لى بآية من القرآن كانوا يتلوها باللغة الصينية . ويقال للاستاذ منهم في علم التوحيد « هوليفو » ثم اذا ارتقى قيل له « اهونغ » وهو من « اخوند » بالفارسية . واذا ذهب الى الحج قيل له « اولتش » والشيخ الكبار من هؤلاء يقال لهم « سوفو » ويوجد من يقال لهم « أوسوتو » أى الاستاذ . وهؤلاء هم الذين حصلوا العلم في « تاوتشيو » أو « بين لينغ » من مدن كانسو وهناك مدارس أساتذتها من خريجي الأزهر بمصر . وليس في نينان الأستاذان من هذه الدرجة أحدهما درس العربية مدة ١٨ سنة منها ١٠ سنوات في كانسو . وهو الآن مدرس في « شاتين » . وقال كورديه انه يعرفه

ثم قال ان مسامى الصين هم سنيون على المذهب الحنفى . وبلاد « هينكيانغ » و « كانسو » و « نينان » أهلها هم أشد المسلمين تمسكاً بالسنة

قال كورديه : ولم أرهم يتوضأون بالتدقيق الذى يتوضأ به مسلمو المغرب والجزائر لأن الصينى بفطرته يكره الغسل والاغتسال . وهذه الامة الصينية بأجمعها هى كما قال الدكتور « سفيث » Swift الإنكليزى أمة قذرة (كذا)

قال : والصدقة والزكاة جاريتان . وجميع الشرقيين بفطرتهم يحبون الصدقات الا أنهم لا تجدهم يحرون أحكام الزكاة الشرعية بحروفها . فالحكم الشرعى هو أن على المسلم أن

يؤدي للزكاة واحداً من ٤٠ من نقوده ورأس بقر من كل ٣٠ رأساً وخروفاً من كل ٤٥ من الخراف والخمس من المعادن الخ إلا أن مسلمي ينان أفقر من أن يقوموا بكل هذا وإن كانت هذه الأمور جارية في سائر بلاد الاسلام . والضيافة أيضاً أمر مقدس عند المسلمين وكل غريب أو ابن سبيل يقدم الى محل يقال له ضيف الله ويطعم ولا يسأل . وكان محمد ﷺ بوصى بالصدقات الخفية ولكن غلب على المتصدقين حب الظهور

قال : وأقل أركان الاسلام نفوذاً في الصين الحج نظراً لبعده المسافة الى مكة فلا يستطيع الحج الا الأغنياء المترفون . ومن كل ينان لا يحج في السنة الا خمسة أو ستة . ومن كانسو عشرة . ومن « ستشوان » عشرة

نعم ذهب سنة ١٩٢٣ من ينان ١٠ حجاج الى مكة وفي السنة التي بعدها بلغ عددهم ٢٣ حاجاً

ثم ذكر كورديه شيئاً غريباً وهو أنه قد بلغ مسلمي ينان أن فرنسة أحسنت معاملتهم اخوانهم مسلمي تركيا أكثر من انكلترة فآلوا الى فرنسة وسنة ١٩٢١ جاء منهم ٢٢ شخصاً فأخذوا تواصي من قنصلية فرنسة ولم يذهب الى قنصلية انكلترة الا واحد فقط

وطريق الحج من ينان الى التونكين حيث يبحرون من « هونغ كونغ » الى سنغافوره الى جدة

ثم ذكر كورديه بعض عادات المسلمين هناك فقال : اذا ولد المولود استدعوا الاهونغ فقرأ له بعض الأدعية وأعطاه اسماً عربياً ولأجل أن ينتخب الاسم يفتح كتاب الله ويقلب الصفحات سبعة بسبع ثم ينتخب الكلمة السابعة من السطر السابع . ويعد ثلاثة أيام من الولادة يكون ما يسمونه بالحام الثالث . ويومئذ يقدم الأصحاب هدايا من ثياب وعقود للمولود ويعمل أهله خبزاً خاصاً من دقيق وسكر معجوناً بالزيت . وأما سنة الختان فيجرونها اذا كان الولد في السابعة أو الثامنة . وأما في الزواج فلا فرق في الأعراس عن البوذيين غير أنه في ليلة الزفاف يأتي خمسة من الاهونغات ويجمعون الى العروسين ويلقون عليهما نوايح ويدعون لهما

وأما الجنائز فعند ما يحتضر الانسان يستدعى الاهونغ ليقرأ له ما تيسر وبعد الموت يوضع في نعش هو النعش العام لجميع الموتى من المسلمين . وعند الخروج بالميت يكون

محولاً على الألف الرأس الى الامام والأرجل الى الوراء لكنهم في الطريق يعكسون الأمر ويجعلون الأرجل الى الامام . وعند الدفن يكشف الاهونغ عن وجه الميت ويوضع في الحفرة والوجه متجه الى مكة . وبعد الموت بثلاثة أيام يوزعون في بيت الميت خبزاً معجوناً بالزيت

وعلى وجه الاجال لا تجد حد مسامى ينان شدة التمسك التى عند مسلمى تركيا أو افريقيه باسلامهم ولا ترى ما تراه فى الجزائر مثلاً وهو أنه متى جاء وقت الصلاة أينما وجد المسلم خر ساجداً

وفى ينان طائفتان من المسلمين « كوكياو » و « سين كياو » واختلافهما انما فى بعض الآراء الدينية لافى الشعائر . والفئة الثانية هى الضعيفة والفئة الاولى هى الجماعة والحرية الدينية تامة فى الصين وقد أعلنت رسمياً فى القانون الأساسى الذى أعلن سنة ١٩١٣ وبعد ذلك نشرت الحكومة وصايا أدبية فى كتب خاصة فيها : « إن الصينيين والمغول والمندشو والتبتيين والمسلمين كلهم أبناء جمهوريتنا الصينية بدون تفريق بين أجناس ولا أديان . ولكل أن يعتقد ببوذا أو عيسى أو محمد فليس للدولة ديانة رسمية بل الديانة حرة والحرية هى عبارة عن مجموع الحقوق المدنية لكل إنسان فى شخصه وأمواله وشرفه وعقيدته فكل ذلك يحميه القانون »

وبرغم هذا فقد أحدث الانقلاب الجمهورى فى الصين ثورة فى الافكار والمبادئ نشأ عنها اعتداء على الاديان والعقائد . وأراد بعض دعاة التجدد جعل مذهب كنفوشيوس هو دين الدولة الرسمى وهدموا هياكل للديانة البوذية والديانة الطاوية وأقفلوا هياكل ومنعوا شعائر . ولم يسلم المسلمون من بعض الاذى وجملت بعض الجرائد عليهم . ولكن هذه الثورة عادت فسكنت ^(١) ورجع البوذيون يبنون هياكل و يقيمون شعائرهم وكذلك المسلمون تمتعوا بتمام حريتهم فى اقامة شعائرهم الدينية ورجع الولاة فى الصين ورجال الدولة يعززون مذهب بوذا

ولقد استفاد المسلمون من هذه الحرية الدينية وصاروا يجاهرون بشعائرهم أكثر من ذى قبل وصاروا ينقشون على أبواب المساجد الآيات بالحروف العربية والاعلانات بأن

(١) هذا شئ شبيه بما جرى فى فرنسا يوم الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩

هنا مدرسة لحفظ القرآن وهنا جمعية خيرية وهلم جرا
يقول كورديه : لو أن الحكومة الصينية أظهرت من التسامح الديني منذ مائة سنة
ما أظهرته منذ سنة ١٩١٣ لما كان جرى شيء من هذه الثورات التي ثارها المسلمون في
كانسو وتركتان وينآن

وبما لا شك فيه أن المسلمين تساهلوا في كثير من شعائرهم في الماضي مراعاةً للحكومة
الصينية ولدين الأكرية . ومن الجلة اصطلاحهم على عدم بناء المآذن في جوامعهم . لم
يكن لهذا سبب سوى ضعفهم . ولهذا يمكن القول بأن الانقلاب الذي حصل في الصين قد
أفادهم

وفي أوربة كانوا يحبون أن يعرفوا كيف كانت حركة المسلمين بازاء هذا الانقلاب
في الصين ؟ والحقيقة أن هذا الانقلاب لم يدخل فيه غير رجال العسكرية وأن الشعب سواء
كان بوذيًا أو مسلمًا لزم الصمت وكان الناس قابعين في بيوتهم من الخوف أربعة أيام الثورة
ولما استوسق الأمر للجمهورية واستقر الحكم الجديد زين الناس منازلهم وقدموا التهانئ
للحاكم . وكان المسلمون من الجلة فقد زينوا البيوت والجوامع واشتركوا بالافراح

ويعيل كورديه الى القول بأن سكون مسلمي نينان الزائد ولزومهم العزلة التامة أصلهما
الحول الذي كان عكس فعل الثورة التي أبادت خضراءهم منذ خمسين سنة . ومن ذلك
الحين صاروا لا يتعرضون لشيء من الأمور العامة . نعم لهم بعض رؤساء من الاهونغات
أو من التجار نالوا هذه الرئاسة اما بصفتهم الدينية أو بخدمتهم لجماعتهم أو بدونهم من
حجاج البيت الحرام . وقد عرفت من هؤلاء الزعماء رجلاً موسراً اسمه « ماسين كيي »
عمره ٣٨ سنة ليس لزعامته سبب غير ثروته . أما سرواتهم القدماء الذين كان لهم الحول
والطول في الماضي فلم يبق منهم أحد

ثم ذكر لجود مسلمي نينان وخولهم اسباباً أخرى هي قلة اتصال بعضهم ببعض
وبسائر مسلمي الصين ثم استيلاء الفقر عليهم مما يعرف من الأرزاق التي يقدمونها للائمة
وخدمة المساجد فاتها كلها ضئيلة وأكثرها من الحبوب والارز والزيت والنقد نادر . وكثير
من المساجد في حال الخراب وقبر السيد الأجل الشهير هو بحال الخراب أيضا وليس من يرممه
وبالجلة نغمول مسلمي نينان ناشئ عن خوفهم من السلطة الصينية لقرب عهدهم

بالثورة الكبرى التي جرفت منهم نحواً من ثلاثمائة ألف نسمة

ثم ان نظام الحرية في الصين أفاد المسلمين من جهة أخرى وهو أنه نشأ عندهم كما نشأ في تركيا وغيرها من بلاد الاسلام فكرة التأليف بين العلم والدين وبين العقائد القرآنية والمنازع العصرية وان القائمين بهذه الفكرة وان كانوا لا يزالون فئة ضعيفة فانهم ماضون في عملهم يرون أن بقاء المسلمين على هذا الجود الذي هم فيه يؤدي الى تلاشي الاسلام ورأس القائمين بهذا العمل هم المسمى « شا » امام جامع باب الجنوب في « ينانغو » والمسمى « ما » مدير المجلة الاسلامية المنشورة في ينان

وهذه المجلة هي لسان هذه الفئة الناطق بالاصلاحات التي يريدونها

وبرناجمهم هو ما يلي :

(١) تأليف جمعيات اسمها « جمعيات الترقى » وقد تألف منها في ينان ستون جمعية لكنها في غير ينان لا تزال قليلة

(٢) ايجاد علاقات بين هذه الجمعيات كلها لتوحيد المساعي

(٣) نشر جرائد اسلامية بقدر الامكان . وكان في الصين ثلاث جرائد اسلامية الاولى في بكين والثانية في شنغاي والثالثة في ينان . والاوليان احتجبتا وبقيت الثالثة (١)

(٤) تأسيس مدارس منظمة يقوم عليها مديرون مسلمون

(٥) ايجاد وحدة تامة في العمل واشتراك في السعي والوصول الى تأسيس شئ أشبه بجمعية الشبان المسيحيين

ويقول السيد « ما » ان الذي أبقانا بحال التأخر ولم يساعدنا على تبوء المقام اللائق بنا هو أن المثقفين في حزبنا قليلون واننا أشبه بمبشرى الكاثوليك لم نقدر أن نستجلب اليانا الا الطبقة الدنيا من الشعب . فيجب علينا العمل لبث المعارف بكل جهدنا حتى يتسنى للمسلمين أن يرشحوا للمناصب الحكومة رجالاً أكفاء فانه في ينان اذا استثنينا الجنرال « ما تسونغ » وثلاثة من معاوني الحكام يبقى جميع المأمورين المسلمين شاغلين وظائف صغيرة .

(١) السبع أن قد صدرت الآن مجلات وجرائد اسلامية جديدة

ثم قال كورديه : ان كلام السيد « ما » هو الصحيح فالمة التي لا تتألف الا الجهاد تبقى في حال الانحطاط . ثم قال كورديه :

ان الاسلام انتشر في أوربة بالقوة القاهرة باديء ذي بدء ^(١) لكنه ما لبث أن نبغ من أبنائه علماء وفلاسفة كانوا هم الوصلة بين العالم اليوناني اللاتيني القديم والعالم المسيحي الجديد وكان لجامعات العرب العلمية في قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة تأثير عميق في المدنية الاوربية . ثم قال : أما جيوش جنكيز خان فانتشرت في ممالك آسية بدون أن تعني بشيء من الفتوحات العلمية أو الأدبية أو الصناعية

ثم ذكر أن انتشار الاسلام في الصين كان بواسطة طبقة الجند فأنحصر في أوساط غير راقية وأبى به الجود على منازعه وعوائده القديمة الانتشار في جميع الأوساط ولا ينكر أنه وجد قواد مسلمون كثيرون في الجيش الصيني ولكنه لم يوجد ولاية وحكام كثيرون

ونقل كورديه عن مجلة العالم الاسلامي الافرنسية أن الجود هو الذي أوقف سير الاسلام في الهند أيضاً وهذا الجود كان مصدره الآداب الاسلامية (؟)

ثم قال ان تأخر الصين كلها كان منشؤه الآداب الصينية أيضاً لأنه كما قال « ركلوس » Reclus (الجغرافي الافرنسي) أخذ أدباء الصين بقواعد كنفشيوس فلا يقدرّون أن يتصوروا وجود أحسن منها ولا أن يعدلوا عن البحر الى السواقي بزعمهم . وما زالوا على هذه الأفكار الى أن بدأت تذهب بالتعليم الجديد

ثم قال ان لجنة « شا » و « ما » هذه وان لم يكن عملها عظيماً الى الآن فليس مما يستخف به . وهى ماضية في توحيد الحركة الاسلامية الصينية . ومنذ الثورة الجمهورية الصينية تحمّس مسلمو الصين كما تحمّس غيرهم من أبناء وطنهم وأنفوا لجاناً كل منها مستقلة بذاتها لكنها في صلة دائمة مع أخواتها . وقد كان رئيس الجمعية الاسلامية في ينانغو الجنرال « فانغ » ثم صار مكانه الجنرال « ماتسونغ » وهذه الجمعية فروع في النواحي . وللرئيس اثنان معاونان ثم للجمعية مدير ادارة وهو اميرالاي الآن ويده ادارة دار السلاح . ولهذا معاون أيضاً وهو اليوم أحد تجار الملح واسمه « ما »

ولهذه الجمعية نفاذ عظيم في جماعة الاسلام هناك فهى التى تزيد أو تنقص عدد الأئمة

(١) هذا من كورديه ومم وعدم تحقيق

وتؤسس المدارس وتفصل الخصومات الشرعية

وكان السيد « ما » القائم بحركة التجديد قد أصدر مجلة اسمها « مجلة الجوامع » وتوقفت مرتين بسبب قلة المشتركين وهي الآن تظهر للمرة الثالثة (سنة ١٩٢١)

ثم قال ان هذه المجلة ملحقاً اسمه « السراج المتلألئ » وذكر أن الجريدة تقبل جميع ما يكتب اليها العلماء والمفكرون والفقهاء ولا تؤدي اليهم بمقابلة مقالاتهم شيئاً سوى أن الجريدة ترسل اليهم مجاناً وان الجريدة تنشر رسوماً وتصاوير وتكافئ من ينقشها وانه ان أعان الجريدة أحد بشيء تكتب اسمه وتشكره على مبرته وان كان مبلغ الاعانة طائلاً تنشر صورته

ثم نقل كورديه بعض أنموذجات من منشورات هذه المجلة . مثلاً : أن نفوذ الوعظ في الجمهور هو على نسبة تبهر الواعظ في المعارف فعلى المسلمين أن يتعلموا

واليك مثلاً آخر : ان المعارف في أوربة ما نمت وترقت الا بعد ظهور البروتستانتية . ولولا الاسلام كانت أوربة قبلاً في جهل وكانوا يقصدون بلاد العرب للتعلم

واليك مثلاً آخر : بينا المسلمون في الغرب مظلومون مقهورون نحن معاصر الاسلام في الصين أحرار تتمتع بالحقوق التي يتمتع بها سائر أبناء وطننا . فلنعكف على التعلم والتهذب وبذلك نكون جاهدين لأجل عظمة الصين

واليك مثلاً آخر : اذا كنا لا نتعلم الا العربية أصبحنا كالصم البكم في بلادنا . وان كنا لا نتعلم غير الصيني لم يتيسر لنا أن نتفاهم مع الخارج . فيجب علينا اذاً تعلم اللغتين . ان مدرسينا لا يعرفون الصيني كما يجب فلذلك ان خسروا وظائفهم صعب عليهم تحصيل معيشتهم

وفي أحد الأعداد يدعو الى ارسال مرشدين لوعظ النساء ولارشاد الأحداث الذين يجهلون القراءة

وفي عدد آخر يعلن أن الجريدة فقيرة تعيش من الاعانات وان من النفقات ما لا بد منه فيجب على المشتركين أن يؤدوا ما عليهم

وفي عدد آخر يقول : تفتأون تذكرون « توفنسيو » زعيم الثورة الينانية (١)

(١) من سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٧٣

وتنسبون أنه ما قام الا ليخلع سلطنة المانشو وأنه كان في جميع أحواله يحذو حذو الملوك
القدماء الخ

وفي أحد الأعداد يتساءل : هل يلزم تعليم البنات ؟ فيجيب بالإيجاب قائلاً ان قوة
الأمم الاوربية ناشئة عن كون الجميع متعلمين نساءً ورجالاً
وفي أحد الأعداد يقول انه ليس للاديان أن تعنى بالمظاهر الجذابة بل يجب أن تعنى
بتعليم الحقائق .

قال : ولهذا فأقوى الأديان البوذية والبروتستانتية والاسلامية

قال كورديه : وأن لجنة ادارة المجلة كانت مؤلفة من الجمعية الاسلامية ومن مجالس
الأوقاف ومن جمعية طلبة المسلمين القدماء ومن جاعة المدرسة العربية في عاصمة ينان ومن
أئمة المساجد ومن ذوى الحية

لقد أحيينا أن نلخص هذا الكتاب الذى ألفه المسيو كورديه في التعريف بمسلمي
ينان لأنه أشبه بصورة مصغرة عن مسلمي الصين بأجمعهم ولأن ينان ولاية من ولايات الصين
والبلاد هناك متشابهة والمسلمون بنحاسة يشبه بعضهم بعضاً أكثر من جميع الأمم ولو تباينت
أصولهم . ثم اتنا نقلنا أمائيل من كتابات جريدة المسلمين في «ينان» لأن الجرائد من أدل
الأمور على عقليات الشعوب وطرز تفكيرها وعلى اختلاجاتها الروحية

ورأينا فيما أثرنه عن هذا الكتاب مافيه كفاية عن تلك البلاد بالنسبة الى مايلزم
القرءاء معرفته عنها . وبقى من هذا الكتاب القسم المتعلق بثورة ينان العظيمة الشهيرة
فهذه قد اكتفينا منها بالخلاصة التي أسلفناها^(١) وبالاختصار كان المسلمون قد غلبوا على ولاية
ينان واستبدوا بأمرها وأصبح زعيم الثوار سلطاناً بالفعل واستمر استقلالهم ثلاث عشرة
سنة الى أن تمكن الصينيون من ضرب بعضهم ببعض وايقاد الفتنة فيما بينهم فتنازعوا
وفشلوا وذهبت ريحهم كما حصل في كثير من مواطنهم وانتهى الأمر بمجزرة قلماً سمع
التاريخ بمثلها . والى اليوم لم يقم مسلمو ينان من هذه المجزرة التي أبادت منهم مئات ألوف
ولقد ختم كورديه كتابه هذا بلمحة دالة على الاسلام في الصين بازاء البانيسلاميسم
أى الجامعة الاسلامية ولم يقتصر فيها على مسلمي الصين فحسب بل تناول مسلمي الهند ومسلمي

الجاوى وتوابعها ومسلمى الفيليين. ونحن ملخصون رأيه فى حالة الاسلام بهذه الأقطار الأربعة

رأى كوردية فى حالة الاسلام

فى الصين والهند وجاوى والفيليين

قال: ان حركة ابن عبد الوهاب فى قلب الجزيرة العربية خيلت لأوروبا ان هناك نهضة عربية واسعة النطاق لاستئناف عظمة السلطنة العربية الا أن جيوش محمد على قضت عليها ثم قال: ان كثيرين من المؤرخين الأوربيين وفى مقدمتهم «لوتروب ستودارد» يذهبون الى أن «العالم الاسلامى فى مخاض شديد وان المائتين والخمسين مليون مسلم المنتشرين من مرا كش الى الصين ومن تركستان الى الكونغو يختلجون تحت تأثير أفكار جديدة وانهم سيدخلون فى طور جديد قد يحدث انقلاباً فى العالم كله» يقول كوردية: ان فرنسا لا ينبغي لها أن تراقب حركات مسلمى الجزائر وتونس ومرا كش فقط بل حركات مسلمى آسية أيضاً. نعم ان المسلمين الذين فى مستعمرة فرنسا فى الهند الصينية هم عدد قليل الا أن مركز هذه المستعمرة الكبيرة هو واقع بين الصين والهند وماليزيا والفيليين والاسلام فى جميع هذه الأقطار راسخ القدم كما لا يخفى فيجب على فرنسا أن تراقب سير الأفكار الاسلامية فى آسية لتعرف ماينها من اتصال لأن أكثر الثورات انما تنشأ عن اتجاهات فكرية جديدة

ثم ذكر كوردية حركة الاسلام فى الهند وقال: ان المسلمين فى الهند كانوا وقفوا بازاء الهندو الذين يتطلبون الاستقلال التام وينادون «بانديماتاران» أى سلام على الوطن الأم. وذلك لأن معنى هذه الجملة عند الهندو هو اخراج كل غريب من الهند والاسلام من الجملة. ولذلك كان المسلمون فى البداية عضداً للانكليز. فلما حصلت الحرب الكبرى وانتهت بتقسيم الانكليز لتركيا ورأى المسلمون ان انكلترة أرادت القضاء على الخلافة وابادة تركيا غضبوا وانضموا الى الهندو. وهى أول مرة اتحد فيها هذان الفريقان بسوء سياسة انكلترة

فأما فى بلاد اندونيسيا أى المستعمرات الهولندية جاوى وسومطرة وتوابعهما فبعد أن ذكر كوردية تاريخ دخول الاسلام فيها وصل الى الحالة الحاضرة التى عليها مسلمو هذه الجزائر فقال: ان اسلامهم ليس بشديد الصبغة وان العالم الاسلامى لم يزد بهم الا زيادة عدد

فقط . وان ادارة هولاندة هى من التسامح بحيث لاتجعل لاتتقاضهم سييلا . قصارى الأمر ان مسلمى اندونيسيا ينشدون العلم والتعلم ويجتهدون بواسطة العلم أن يحصلوا على حق ادارة أنفسهم بأنفسهم . ولم يخل الأمر من وقوع ثورات هناك كما جرى فى بلاد « اتشين » وهذا فيها قديم يقال ان أصله من أغلاط الهولانديين وأخذهم البرئ بذنوب المجرم وارتكابهم فى تلك البلاد الظلم وسفك الدماء

ثم ذكر اسلام الفيليين فقال : ان ظهور الاسلام فى تلك الجزائر التى يقال لها « مينداناو » وفى أرخبيل سولو كان فى وقت ظهور الاسلام فى بورنيو . يقال ان تجار العرب نشروا الاسلام هناك فقبل لهم « المورو » كما كان يقال لمسلمى الأندلس . وعم من بعدها مسلمى الفيليين . وقد بدأ وجود الاسلام فى هذه الأماكن من قبل سنة ١٥٠٠ وكان سلطان بورنيو تزوج بابنة سلطان مينداناو فأسس سلطنة سولو التى استفحل أمرها . ولما كان بين الاسبانيول وبين المورو عداوة من عهد الأندلس فقد غلظوا على المسلمين وأخرجوهم فبدأت الثورة فى « لوسون » من سنة ١٥٧٦ وصارت الحرب متصلة بين الفريقين فمن جهة المسيحيين الحرب الصليبية ومن جهة المسلمين الجهاد فى سبيل الله

وكان سلطان سولو أشد أمراء المورو مقاومة فاعترف الاسبانيول باستقلاله سنة ١٨٣٦ لكنهم عادوا فقاتلوه سنة ١٨٤٤ و ١٨٥٠ ثم تصالحوا سنة ١٨٦٠ ولم يكن لهم فى سلطنة سولو الى حد سنة ١٨٧٦ الاسيادة اسمية

أما اميريكيو الولايات المتحدة فلما انتزعوا الفيليين من أيدي الاسبانيول استخفوا بأمر سلاطين المورو فعرفوا عاقبة خطئهم لأن هؤلاء كانوا لايتناهون عن العيث والقتل والفساد فى الأرض حتى ملئت الحكومة الاميريكية منهم . وكان الاميريكيون يرجون بواسطة التعليم وفتح المدارس أن يصلوا الى السلام ولكنهم أسرعوا فى التفاؤل وكانوا وعدوا الفيليين بالاستقلال الداخلى لكنهم استعجلوا فى الوعد^(١)

قال كورديه : ان جميع هذه الثورات لم تنشأ عن بائيسلامسيم ولاعن ارتباط عام بين المسلمين ولاعن مجرد بغض وشناآن للأجانب . بل هذه ثورات منشؤها نهوض الأهالى بطلب حقوقهم من الأمم التى تسطت عليهم . ولايوجد مسلم واحد لاعالم ولاجاهل يحلم بجمع

(١) قلنا انه فى أواخر هذه السنة المنصرمة سنة ١٩٣٢ قرر مجلس النواب الأمريكى استقلال الفيليين

بلاد الاسلام تحت سلطة أمير واحد واستئناف دولة الخلفاء . نعم لما كان أكثر المسلمين وقع تحت عبودية الأجانب فتجدهم يحنون بعضهم الى بعض بسبب اتحاد العقيدة والتشابه في المصيبة الأجنبية الواقعة عليهم . ولا نرى أدنى عجب في هذا الأمر

ثم عاد كورديه الى ذكر منشأ الاسلام فقال : انه لم توجد ديانة من الديانات الكبرى لا الزرداشتية ولا البوذية ولا النصرانية انتشرت بسرعة انتشار ملة محمد . فانها بدون عضد امتدت في ثلاثة قرون من اليرانه الى حلايا ومن قلب آسية الى قلب افريقية . ولم تكن أسباب سرعة هذا الانتشار سوى ضعف مملكتي يزنطية وفارس وحجاسة العرب الفاتكة وفروسيتهن الباهرة وسذاجة العقيدة التي نشروها . ثم باختلاط الغالبين بالمغلوبين تولدت هذه الحضارة الاسلامية التي لمعت لمعانا شديداً بينما كان الغرب هائماً في الظلمات (١) الا أن لمعان الاسلام لم يكن طويل الأمد . بل بدأ بالانحطاط من القرن العاشر (المسيحي) الى أن قال : انه من سنة ١٠٧١ تغلب الترك على القدس وانهت دولة العرب ومع أن الترك كانوا محاربين أشداء فلم يكونوا أهل ملكة عمرانية . وفي سنة ١٢١٣ سقطت خلافة قرطبة بتغلب النصارى . ثم في سنة ١٢٥٨ سقطت بغداد في أيدي المغول فاضمحلت القوة الاسلامية . ثم استأنف الترك السلطنة وأخذوا يزنطية وبلاد البلقان والمجر وشمال افريقية والشرق الأدنى فصار لهم من فارس الى مرا كش . الا انهم من بعد فشلهم أمام اسوار فينا (سنة ١٦٨٣) تراجعوا القهقري

وكان جاء عصر التجدد في أوربة « رنيسانس » واهتدى الأوروبيون الى كشف أمريكا فانتست موارد ثروتهم وامتد ظل سلطانهم . ومن ثمة لم يكتفوا بدفع المسلمين عن بلدانهم بل تجاوزوا عليهم وأخذوا يفتحون بلاد الاسلام قطراً قطراً فانفصلت بلاد اليونان ثم رومانيا ثم بلغاريا عن تركيا . واستولت انكلترة على مصر والهند . واستولت الروسية على القوقاس وآسية الوسطى . وبسطت فرنسا يدها على شمال افريقية . وهلم جرا وعند نهاية الحرب العامة لم يكن بقي مستقلاً من ممالك الاسلام غير تركيا . وهذه أيضاً كانت معاهدة فرساي أخنت على استقلالها

لكن ان كانت قوة الاسلام العسكرية والسياسية قد سقطت فان قوته الأدبية لم

(١) قال هذا كورديه بالحرف

تسقط ومن القرن السابع عشر الى الآن نراها على ازدياد

ثم مثل كورديه نمو قوة الاسلام المعنوية بالوهابية ثم بالسنوسية التي هي أقوى الفرق الاسلامية بعد الوهابية . وذكر ان امامها الحالي هو السيد أحمد الشريف ابن شقيق سيدى المهدي

وعاد نختم كلامه بذكر اسلام الصين قائلاً ان ثورات شانسي ونيان هي كما قال غارنيه والأب داود واندرسون وغيرهم لم تحصل عن تعصب ديني بل عن حسّ المحافظة على النفس . وكذلك ثورات كانسو سنة ١٨٦٤ و ١٨٩٥ كانت للأسباب نفسها وانتهت صلحاً . وبقيت مقاطعة ستشوان التي هي بين شانسي وكانسو ساكتة ساكنة مع اشتعال أربع ثورات من عن جوانبها

قال : ولقد كثرت تكهن العلماء والمؤرخين على مستقبل اسلام الصين وكل منهم أدلى بدلوه وقال « فاسيليف » سنة ١٨٦٧ : اذا انتشر الاسلام في الصين كما انتشر مذهب بوذا ينقلب وجه العالم

وقال « دوترسان » صاحب كتاب « المحمدية في الصين » انه ان تقسّمت الصين وفقدت وحدتها السياسية استفاد المسلمون في المقاطعات التي أكثرها منهم واستقلوا . وتكون مدة استقلالهم بحسب حسن ادارتهم ومشئئة الله . وان ترقّت الصين في العلوم والمعارف وصارت دولة من أعظم دول الكرة الأرضية كان لا مناص لها من أن تترك أضاليلها وعقائدها الوثنية وأن تأخذ بديانة تعبد بها الواحد الأحد ولن تجد لها حينئذٍ أقرب من الاسلام الذي يدين به عشرون مليوناً من أبنائها . ولكن لتكن أوربة من حادث كهذا على ثقة انه لن يحدث انقلاباً لأن اسلام الصين سيكون مصطبغاً بصبغة مسيحية (؟) لا يهيمه الا السلام ونشر المدنية الحق (؟) . وقد انتقد كورديه هذا الكلام وقال : هذا حلم من الأحلام . فمن يقول ان اسلام الصين سيصطبغ بصبغة مسيحية ؟

ومن تخوفوا من مصير الصين الى الاسلام الكاتب الانكليزي آرنولد قال كورديه . وقد مضى خمسون سنة على هذه الآراء ولم يتقدم الاسلام في الصين شبراً وذلك لأن الأمة الصينية ليست بأمة ذات اشتغال بالعقائد وانما هي أمة مادية لا يهيمها الا الحياة الدنيا

وقال « أولون » ان الثورات كثيرة في الصين والاتقلابات مستمرة فان وصلت النوبة الى قائد مسلم وتمكن من الاستواء على العرش لا يبعد أن يتحول قسم كبير من أهل الصين الى الاسلام

وهذا أيضاً خطأ بحسب رأى كورديه لأن الجنرال « ماتسونغ » فى ينان هو مسلم وهو القائد الأول فيها وما أسلم على يده واحد . وكذلك الجنرال « ما » المشهور والنهاية بحسب رأى كورديه ان مسلمى الصين يقبلون على تيار التجدد نظير أبناء وطنهم الصينيين وان جميعهم مع ذلك يغلب عليهم السكون بمقتضى فطرتهم . انتهى

تعليقات على مبحث مسلمى الصين

مقالات وأحاديث للصينيين أنفسهم

أحبينا لأجل زيادة شفاء الغليل من مبحث اسلام الصين أن ننشر خمس مقالات احداها ظهرت فى جريدة الأهرام تاريخ ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣١ والثانية ظهرت فى الأهرام أيضاً سنة ١٩٣٣ والثالثة والرابعة فى جريدة الفتح تاريخ غرة رمضان و ٦ ذى القعدة سنة ١٣٥١ والخامسة فى الجامعة العربية بتاريخ ٢٤ شوال سنة ١٣٥١

فالأولى تتضمن حديثاً لرئيس البعثة الصينية فى الجامعة الأزهرية والثانية تتضمن حديثاً لعالم صينى نزيل تكية الكلشنى بمصر والثالثة هى محررة بقلم السيد محمد مكين الصينى من المجاورين بالأزهر

حديث لرئيس البعثة الصينية الازهرية

الاسلام والمسلمون في الصين

قصت في صبيحة أمس الى الدار التي اعدها وزارة الاوقاف ليسكن فيها اعضاء البعثة الصينية التي اوفدها حكومة الصين لدراسة العلوم الدينية والمدنية في الجامعة الازهرية وسألت عن أعضائها وعن رئيسهم فأخبرت بان ادارة المعاهد الدينية قد أعدت هذا اليوم لاختبارهم في اللغة العربية وفي القرآن الكريم وفي الخط العربي والاملاء والانشاء ، فذهبت الى مقر لجنة الامتحان في الجامع الازهر وظللت أنتظر حتى انتهوا ، ثم تقدمت الى مدير البعثة وطلبت منه أن يحدثني عن الحالة الاجتماعية في الصين وعن الاسلام والمسلمين في تلك الديار النائية القاصيه فابتسم وقال لك عندي كل شيء واني على استعداد لان أتحدث معك في كل شيء إلا السياسة فاني لا أعرفها ولا أكف نفسي عناء الغوص في اسرارها وبواطنها واكنهاها ، فقلت له وهل محظور عليك ان تتكلم في السياسة . وهل السياسة عندكم شيء نانوى أو كمالى لا يعنى بها لا بمقدار ، وهل بلغت الصين في السياسة شأوا بعيدا ونالت كل ما تصبو اليه الامم من الحضارة والمدنية فأضحت لا تنظر الى السياسة الا كما تكون اللحية عند الرجل الدينى المتعمق في معانى الايمان ؟ فنظر الى رئيس البعثة نظرة ذات طابع صينى وقطع على حديثي وقال : انى يا سيدى رجل دينى فقط : وأرأس بعثة دينية فقط ، وهناك فوارق متعددة بين الدين والسياسة ، ولقد درسنا الدين في بلادنا الى درجة محدودة وجئنا نطلب المزيد هنا ، وما اتصلت ولا اتصل أحد من أعضاء البعثة بالسياسة ولا جالسنا أحد الرجال السياسيين لاتنا نرعى في مزرعة وهم يرعون في مزرعة أخرى . وما أبعد الفارق بين المزرعتين . وسكت . فقلت وهل لنا أن نتحدث عن الناحية الاجتماعية والدينية في الصين ، فقال لك هذا ، وجلس ، وجلس حوالينا أعضاء البعثة وجرى بيننا هذا الحديث :

قلنا — ما هو عدد المسلمين في الصين وما هو عدد غيرهم من الطوائف الاخرى ،

وهل هناك تنافس دينى بين المسلمين وغيرهم من تلك الطوائف ، ولاى سبب يرجع ذلك التنافس ، اذا كان موجودا ؟

قال — أما عدد المسلمين فى الصين فخمسون مليوناً ، وعدد السكان أربعائة مليون ، والمذاهب الدينية فى الصين متعددة كالكونفوشيسية فالبودية فالمسيحية ومع ذلك فان أكثر أهل الصين لا دين لهم ، وهم يعبدون أشياء متعددة ؛ كالجمال والنور والنار ، وبعضهم يعبد الماشية والدواب ، وهناك مذهب دينى قليل الانتشار يسمى « التوصينية » نسبة الى رجل يقال له « لوتزا » وأصحابه هم المتصوفة المتقشفون الزاهدون الذين لا يتزوجون طوال أيام حياتهم ، ولا ينظرون الى المرأة ولا يتصلون بها أى اتصال وانى أقرر لك ان بين المسلمين وبين أفراد الطوائف الأخرى تنافساً دينياً بعيد المدى شديد الأثر ، وذلك لان الطوائف غير المسلمين تمقتنا وترميننا فى اعتقادنا الدينى ، وهم متعصبون ضدنا كثيراً ويرجع السبب فى أغلب المعارك الدموية الداخلية الى ذلك التعصب الدينى ولكن الأديان فى الصين أمام القانون سواء وحرية المعتقدات مكفولة والحكومة لا تناصر طائفة على طائفة ولا تؤازر مذهباً دون مذهب فهى لا دينية ولا تتبع خطط دين معين

قلنا — وهل يوجد بين الموظفين فى الحكومة أفراد مسلمون ؟ وما هو عددهم ؟؟
قال — نعم يوجد بين الموظفين فى الحكومة أفراد مسلمون . منهم خمسة قواد فى الجيش ومحافظ لحدى عواصم المقاطعات ، وبعضهم يشغل وظائف فى المجالس البلدية والمحلية وبعضهم فى وظائف التدريس ؛ وهناك مسلمون كثيرون فى الجيش كجنود لانهم مشهورون بالشجاعة والاقدام . واما فى الوظائف الملكية المدنية فعددهم قليل جداً .
قلنا — أليس هناك قانون عام للتجنيد ؛ وكيف تكون أكثرية الجنود من المسلمين مع أن القانون عام ينفذ على الجميع ؟؟

قال — المسألة نسبية . والقانون حقيقة عام ولكن عدد المسلمين فى بعض المقاطعات الصينية أكثر من عدد أية طائفة من الطوائف الأخرى لانى اذا قلت لك ان عدد المسلمين فى الصين خمسون مليوناً لوجب أن يكون عدد كل طائفة من بقية الطوائف الأخرى أقل من ذلك بكثير وفى الصين أكثر من خمسين ديناً ومذهباً

قلنا — هل لك ان تحدثنى عن نظام الزواج والطلاق عندكم ؟؟

قال — ان جميع المسلمين يتزوجون ويطلقون وفق ما جاء به القرآن الكريم والزواج عندنا لا يتم الا بعد موافقة الزوج والزوجة ورضائهما عن بعضهما رضاء تاماً موثقاً به . ووثيقة الزواج واشهاد الطلاق عندنا تسجل أمام المجالس البلدية والمحلية . ومن يتزوج أو يطلق من غير أن يثبت زواجه أو طلاقه أمام تلك المجالس يعاقب بالسجن

قلنا — يؤخذ من هذا أن ليس هناك محاكم شرعية لكي تفصل في المنازعات الزوجية التي تحدث بين الزوجين المسلمين بمقتضى أحكام الشريعة الاسلامية ؟ ؟

قال — لا ، لا ، ليس عندنا محاكم شرعية لمثل هذا النوع من القضايا ؛ بل ان المنازعات الزوجية عندنا وما اليها من المشاكل الشخصية تدخل ضمن المسائل المدنية . ويفصل فيها مجلس قضائي مؤلف من أعضاء متعلمين ومنتخبين انتخاباً حراً عن طريق التصويت المباشر وهو يصدر احكامه في المسائل المدنية التي تدخل ضمنها مسائل الزواج ، والحكومة ملزمة بتنفيذ احكامه

قلنا — أليس للمسلمين في الصين رئاسة دينية ؟ ؟

قال — نعم ليس للمسلمين عندنا رئاسة دينية وليس لنا رئيس ديني ، وليس هناك من يشرف على التقاليد والأصول الاسلامية غير الجمعيات الأهلية المحلية واني لأذكر لك هنا أن لمسلمي كل مقاطعة نوعاً من التقاليد مصطلحاً عليه ، ومقاطعة يونان فو ، هي أشد المقاطعات حرصاً على الاسلام ، وغيره على آدابها وتقاليدها

قلنا — هل المسلمون في الصين مثقفون ثقيفاً علمياً عصرياً يسمح لهم بان يزاولوا أو يتقلدوا الوظائف المدنية الراقية ، وما هي نسبة المتعلمين منهم ؟ ؟ وهل أحوالهم المالية تسر على وجه العموم ؟ ؟

قال — إني آسف لان اقرر هنا ان عدد المسلمين المتعلمين تعليماً عصرياً قليلون جداً ، والاغلبية منهم أمية ، واما نسبة المتعلمين فهي اثنان في المائة أو أقل من ذلك في بعض المقاطعات ، والمسلمون في الصين فقراء كثيراً وحالتهم المالية لا تسر على وجه العموم قلنا — هل الذي يرتكب جريمة هتك العرض مثلاً ، يعاقب عقاباً دينياً ام

مدنياً ؟ ؟

قال — ان الذي يرتكب أية جريمة جنائية يحاكم أمام المحاكم الجنائية التي لها قانون

مدني أهلي

قلنا — وهل المسلمون متمسكون بدينهم ، وهل هناك مساجد للصلاة
قال — أعود فأكرر الاسف إذ أقول ان مسلمى الصين لا يفهمون الاسلام على
الوجه الصحيح ، وذلك يرجع الى جهلهم وعدم تعليمهم ، وعندنا مساجد كثيرة بنى بعضها
منذ دخل الاسلام فى الصين ، وأول من بنى مسجدا هو الملك « طان » الذى أسس مسجد
كواتونج ، ومع أن المساجد كثيرة إلا انها خربة لا يؤمها إلا القليلون
قلنا — ما هو مركز مصر الدينى عند مسلمى الصين ، وما هو مقام الازهر
عندهم ؟؟

قال — ان مركز مصر الدينى عندنا هو مركز كبير لا يسمو عليه أى مركز فى
الوجود ، وانا نحب مصر من قلوبنا ونعدها قبة الاسلام ، وبخاصة لانها بلد الجامع الازهر
الذى نعتقد فيه أنه منبع الاسلام الصحيح
قلنا — وهل المرأة الصينية متحجبة أم سافرة ، وهل لها حقوق مدنية مقررة فى
دستور البلاد ؟

قال — ان المرأة الصينية سافرة وحالتها الآن أحسن بكثير من ذى قبل وهى تتمتع
بالحقوق المدنية التى يتمتع بها الرجل . اذ ان لها حق الانتخاب والتوظيف فى القضاء
والادارة وفى المجالس البلدية والمحلية

وانتهى الحديث بنا الى هذا القدر وشعرت انه متعب فاستأذنت فى الانصراف
وشكرته وودعنى بما يبدو عليه من الحياء والتواضع
أحمد عبد الحليم العسكرى

حديث عالم مسلم صيى

نزىل تكىة الككشنى فى مصر

فى صباى الخمىس أول يوم من عىد الفطر المبارك قصدنا نحن الثلاثة زىارة هذا العالم الذى قرأنا بعض أخباره وآثاره فى الجرائد والمجلات المصرية . فلما بلغنا شارع تحت الرىع سعدنا الى باب التكىة واستقبلنا مقام الككشنى وبه وجهة مصنوعة من الفسىفساء الجمىلة . الألوان المتقنة الصنع ثم اتجهنا ذات اليمىن وصعدنا درجاً فسىحاً وبالذور الأعلى وجدنا غرفة عليها منظر البساطة والزهد وبها سرىران وصندوق مملوء بالكتب والأوراق وفى وسطها رىجل فى نحو الستىن من عمره قصىر القامة نحىف البنىة أصفر الوجه على الجبىن بارز الفك الأعلى لا نبات بعارضىه وىكاد يكون شعر شاربه عذارا وبجواره فتى فى نحو العشرىن من عمره فحىناهما باللغة العربىة فرد العالم تحىتنا بعربىة فصحى وأظهر سروراً عظىما بزىارتنا فى هذا اليوم المبارك ثم أجلسنا وقدم لنا الشاى الصىنى الحقيقى فى آنىة صىنىة ثم قدمنا الىه أسمائنا ودار ىبنا الحديث الآتى . قال العالم : —

« اسمى « واى ون كىن » وترجته بالعربىة سعىد إلىاس وصناعتى عالم اسلامى وامام بلدى تنسىن ومحرر جرىدة تنسىن وقد سافرت من بلدى منذ عام وغازتى من هذه السىاحة الاطلاع على أحوال الأقطار الاسلامىة والاستنارة بالأفكار الجدىدة الموىودة فى الشرق الأوسط والشرق الأدنى فزرت بلاد الهند وها أنا فى مصر وسأزور سورىا والأناضول والاستانة ثم أعود الى وطنى »

قلنا — كم عدد المسامىن فى بلادكم وما هى حالة تعلىمهم وشئونهم الاجتماعىة
أجاب — ىبلغ عدد المسامىن فى الصىن نحو سبعىن ملىونا وكلهم ىقومون بواجباتهم الدىنىة وفى بلدى نحو أربعىن مسجداً ومعظمهم ىقرأون الكتب العربىة بنطق صىنى ما عدا العلماء الذىن ىتعلمون العربىة منذ الصغر . وىؤدون الصلاة باللغة العربىة . وتعدد الزوىجات وان ىكن مباحاً بالشريع فى الدىن الاسلامى الا أنه مفقود من عاداتنا فلكل رىجل امراة واحدة بحكم عاداتنا والطلاق نادر جداً وىكاد ىكون معدوماً . وقد درست فى صغرى

وشبابى الفقه والحديث والسنة وعلوم الكلام والتصوف والتوحيد وآداب اللغة العربية

سألناه — هل يوجد لبوذا وكونفوشيوس أتباع كثيرون فى الصين

أجاب — ان بوذا متبع فى بلاد الهند فقط وذكره عندنا قليل أما كونفوشيوس فله أتباع كثيرون فى الصين ويطلق عليهم اسم « أصحاب كونفوشيوس » ولم يكن هذا الزعيم المصلح نبياً مرسلًا ولم يقل بذلك هو نفسه أو أحد من أصحابه بل كان حكماً وكل تعاليمه خاصة بشؤون هذه الدنيا وتدير الأمور المادية والسياسية والإدارية وأصحابه ليسوا مقدين بعبادة إله معين فهم يعبدون ما يشاءون كأجدادهم فيعبدون الأشجار والأنهار وبالجملة فانهم مشركون .

سألناه — وما حالة الصين منذ دخول الحكم الجمهورى فى البلاد ؟

أجاب — ان الشرق عامة محتاج الى حكم قوى يكون مصدره العدل والحكمة وحب الخير ولكن الحكام الذين من هذا القبيل لا وجود لهم فى هذا الزمان وأفضل مثال لهم الخلفاء الراشدون فى صدر الاسلام ونحن المسلمين فى الصين نعتقد فى أن الاسلام دين شورى وديموقراطية وقد جاء فيه « وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ »

سألناه — هل حصل تقدم فى البلاد فى الأعوام الاخيرة ؟

أجاب — نعم فقد أبطلت عادات كثيرة من العادات الرديئة مثل تقييد أقدام الفتيات ومنعها من النمو ظناً بأن هذا أثر من آثار الجلال وأصبح هذا الفعل معاقباً عليه وبدأت بلاد الصين تشعر بوجودها القومى وتسترد المقاطعات التى كانت اغتصبتها منها بعض الدول الاجنبية وهى سائرة ببطء لانها أمة عظيمة وملكها مترامى الأطراف .

سألناه — وما هو شعوركم نحو الدول الاجنبية

أجاب — ان اليابان وان كانت من جنسنا الا أنها دولة قوية وميالة لالتهامنا فهى كما وجدت فرصة للانقراض علينا فلا تتأخر وهذا دليل على أن اتحاد الجنس والدين لا يقف فى سبيل المصلحة السياسية فنحن نبغضها . أما الدولة المحبوبة لدينا فعلاً فهى الولايات المتحدة وهى التى ننسج على منوالها كل شئ وهى تظهر لنا المحبة وكل معاملتها معنا كانت بالاقوال والكتابات لا بالافعال الهمجية كغيرها مثل الحرب أو الاستيلاء

على بلادنا

سألناه — ما رأيك في علماء مصر من زرتهم وزاروك

قال — لم يزرنى أحد منهم ولا أعرف الا اسماعيل بك رأفت والشيخ طنطاوى جوهرى. وقد عرفت كثيراً من العلماء بالكتب مثل الشيخ محمد عبده وأظنه كان من أعظم رجال العالم قاطبة ولا ينتظر أن يجود الزمان بمثله في الوقت الحاضر فقد كان عالماً دينياً وسياسياً واجتماعياً وليس في مصر من يخلفه . واسم مصطفى كامل باشا معروف جداً لدينا في الصين لأنه أسس الحركة الوطنية في مصر كذلك اسم مصطفى كمال غير أننى غير مشتغل بالسياسة ولا يهمنى أمورها الا من حيث تهتم ترقية شؤون قومى وقد ترجمت كتباً كثيرة من اللغة العربية الى اللغة الصينية مثل تاريخ مصر القديم أما التاريخ الحديث فليس معلوماً لدينا ولم تصلنا كتب عنه ونحب أن تكون علاقة مصر بمسلمى الصين قوية

سألناه — هل تستطيعون وتودون أن تلقوا محاضرة باللغة العربية عن حالة المسلمين

بالصين من الوجهة الدينية والاجتماعية في جمهور من المتعلمين المصريين

أجاب — أستطيع ذلك على شرط أن أولفها بالكتابة أولاً ثم أقرأها لأننى لا أستطيع أن أرتجل خطبة . فشكرناه واستأذناه في الانصراف ونرجو من وزارتى الأوقاف والمعارف وعلماء مصر وأدبائها أن يعتنوا بزيارة هذا العالم واكرام وفادته فقد قال لنا عند ذكر مصطفى كامل انه يعلم أن شعار المصريين هو — « أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا »
(الأهرام)
١ . رؤوف - ح . رمزى - لطفى

الاسلام في الصين - غابرة وحاضرة

— ١ —

يسألنى دائماً اخواننا المسلمون عن أحوال الاسلام فى الصين ، ويسرنى غاية السرور عنايتهم بالدين ورغبتهم فى العلم ولوفى الصين . فأكتب بحول الله هذا الكلام الوجيز لقضاء حاجتهم الشديدة وتوطيد التعارف والتفاهم بين شعوب الاسلام وأسأل الله تعالى أن يوفقنا لما فيه الخير وهو القريب المجيب

تاريخ دخول الاسلام فى الصين

متى دخل الاسلام فى بلاد الصين ؟ هذه مسألة غامضة فيها روايات متعددة مختلفة وعلى الرواية المشهورة عند المسلمين الصينيين أنه فى سنة ٦٣٧ م (قبل وفاته عليه السلام) وعلى رواية أخرى كان ذلك فى سنة ٥٩٩ م (قبل الهجرة النبوية) وعلى تحقيق حجة التاريخ الاسلامى الصينى البروفسور جنيون أن أول وافد من الدولة الاسلامية الى الدولة الصينية أوفد سنة ٦٥١ م (فى عهد سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه) وقال البروفسور : ان مناط الاختلاف فى ذلك تبين التقويم الصينى مع التقويم العربى لأن السنة الصينية سنة قمرية شبيهة بالسنة الشمسية فى كل سنة بسيطة ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً كالسنة القمرية تماماً ، وأما السنة الكبيسة فيزداد فيها شهر واحد وتكسب السنة مرة فى كل ثلاث سنوات ومرتين فى كل خمس سنوات وسبع مرات فى كل تسع عشرة سنة لتتفق مع السنة الشمسية ، واستعملت الحكومة الصينية التقويم العربى سنة ١٣٨٤ م وهى توافق سنة ٧٨٦ هـ فطرح ٧٨٦ سنة من التقويم الصينى ليعرف مبدأ التقويم العربى بالنسبة الى التقويم الصينى ، فوقع الخلاف ، وهذا كلام معقول مرجح عندنا . والله أعلم

العلاقة بين الدولتين الاسلامية والصينية

دعنا فى عهد الخلفاء الراشدين الى الصين الوفود الاسلامية والتجار المسلمون من العرب والفرس متعاقبين ، وكانت الجالية الاسلامية فى عاصمة الصين وحدها عددها أربعة

آلاف شخص وهي أكثر من الجالية الافرنجية الموجودة الآن في بكين ، وعلى احصاء البروفسور جنيون بعثت الى الصين في عهد اسرة «تان» وأسرة «سون» من سنة ٦٥١ الى سنة ١٢٠٧ م الوفود الاسلامية ٧٦ مرة واستنجد سنة ٧٦٢ م عاهل الصين بالمسلمين على التأثير الفاتك شيچوي

العظماء المسلمون المتقدمون

كان عواهل الصين يجاملون المسلمين . وفي عهد أسرة «يون» وهي أسرة چنكيزخان (سنة ١٢٧٧ - ١٣٦٧ م) كان للمسلمين منزلة عالية سياسية واجتماعية ، والأعيان المسلمون المسجلة أسماؤهم في سجل طبقة الأعيان الملكي كانوا أكثر من مائة نفر . وكان السيد جاسر الدين والياً عادلاً على ولاية يونان ، وحفر في نواحي عاصمتها قنوات كثيرة مازالت باقية مفيدة ، وبنى فيها لأهلها الكافرين هيكلًا للفيلسوف الأكبر كونفوشيوس ، وهو أول هيكل بني له في ولاية يونان . وللسيد جاسر الدين ذكر خالد عند سكانها فأقاموا تمثالاً له في هيكل الحكماء (الباتيون) في عاصمتها وقد تولى ابنه السيد باين رئاسة الوزراء سنة (١٣٣٣ - ١٣٤٠ م) . وألف الأديب المسلم جنس بضعة عشر مؤلفاً ، ومازال ديوان البار المسلم دنهاتني منتشرًا حتى الآن . وكان يَخدِر مهندساً في بناء سور القصور في بكين ونال سنة ١٣٣٣ م عشرة من الأدباء المسلمين الشهادة العالمية الملكية العليا وفي أسرة «مين» (سنة ١٣٦٥ - ١٦٤٣ م) استعمل التقويم العربي فقام الشيخ محمود بترجة الكتب التقويمية العربية وأرسل العاهل سنة ١٤٠٦ م الطواشي المسلم جنبها قائداً الاساطيل الصينية المؤلفة من ٣٧٠٠٠ بحري إلى جزائر الهند الشرقية وسيلان وسواحل الهند الجنوبية والعراق وسواحل جزيرة العرب وساحل أفريقية الشرقية ليدعو سكانها لأداء الخراج لعاهل الصين واهداء التقادم ، ومن رفض دعوته هددته بالقوة والسلطنة . وجده وأبوه كانا حاجين ، ومسقط رأسه في ولاية يونان . وصنف العلامة صالح ليوجلين (رحمه الله) في آخر القرن الثامن عشر باللغة الصينية كتاب (سيرة سيد المرسلين) وكتاب (شريعة الاسلام) وكتاب (أسرار الاسلام) وهذه المؤلفات هي التي تيقن بها الصينيون أن الاسلام دين حنيف لا يخالف مبادئ الفيلسوف كونفوشيوس بل يؤازرها ، فأدخلت في دار الكتب الملكية فأنكشفت ستور الاسلام في الشرق الأقصى . ومسقط رأس العلامة صالح ليوجلين

ومدّفنه في نانكين عاصمة الصين الجديدة وقد زرت روضته الطاهرة سنة ١٣٤٧ هـ وألف العلامة يوسف مافوسو (رحمه الله) باللغتين العربية والصينية مؤلفات مفيدة في العربية والعلوم الاسلامية وطبع مؤلفات العلامة صالح ليوجلين (رحمه الله) بعد التصحيح فازدهر الاسلام مرة أخرى . وطلع عقبه المعلم العظيم الحاج نورالحق ماجبان (رحمه الله) فتخرج في مدرسته العلماء العاملون أفواجا ، ومسقط رأسهما في ولاية يونان

ثورة المسلمين

كان طغاة الأسرة المنشورية (سنة ١٦٤٤ — ١٩١١ م) قد اضطهدوا المسلمين وساموهم خسفاً وزاد عليهم في اضطهاد المسلمين الأمراء المنشوريون الظالمون في ولاية سنكيانج (التركستان الصينية) فأخذوا أموالهم وفضحوا عيالهم ، فقام المسلمون يدافعون عن أنفسهم وأعراضهم ، ف وقعت الثورة الهائلة في مائة سنة تقريباً (سنة ١٧٥٨ — ١٨٧٣ م) خمس مرات وناهيك بالكتب التاريخية الأثرية في هذه الثورات وعدد أجزائها كالاتي :

- (١) تاريخ ثورة سويسسان في ولاية كنسيو (سنة ١٧٥٨ م) ٢٠ جزءاً
- (٢) تاريخ ثورة مامنين في ولاية كنسيو (سنة ١٧٦٨ م) ٢٠ جزءاً
- (٣) تاريخ ثورة جنقغ في ولاية سنكيانج (سنة ١٨٢٥ — ١٨٢٧ م) ٨٠ جزءاً
- (٤) تاريخ ثورة سليمان دونسيو في ولاية يونان (١٨٥٥ — ١٨٧٣) ٥٠ جزءاً
- (٥) تاريخ ثورة يعقوب في ولايات شانسي وكنسيو وسنكيانج (سنة ١٨٥٥ — ١٨٧٥ م) ٣٣٠ جزءاً

آثار الاسلام

هي كثيرة ، وأهمها ما زرته سنة ١٣٤٦ هـ وهي كالاتي :

- (١) ضريح سعد بن أبي وقاص في خارج ربض مدينة كنتون بني هذا الضريح وسط القرن السابع تقريباً
- (٢) مسجد مدينة كنتون ، وهو أول مسجد في الصين أسس وسط القرن السابع تقريباً أيضاً وفيه منار شامخ عليه مسحة من جبال الفن العربي
- (٣) المسجد الأعظم في عاصمة ولاية شانسي بني بنفقات الخزانة الملكية سنة ١٤٤٣ م

على نحو ما وصفه النصب التذكاري الحجري الموجود الآن فيه
(٤) مسجد نانكين بنى سنة ١٣٨٨ م بنفقات الخزانة الملكية أيضا

أسباب انتشار الاسلام في الصين

انتشر الاسلام في الصين انتشاراً سريعاً مدهشاً والأسباب في ذلك أربعة وهي :

(١) تجارة المسلمين : هي سبب دخول الاسلام في الصين الأصلية في عهد أسرة « تان » (سنة ٦١٨ - ٩٠٥ م) وازدهار الاسلام في عهد أسرة « سون » (سنة ٩٦٠ - ١٢٧٦ م) وأسرة « مين » (سنة ١٣٦٨ - ١٦٤٣ م)

(٢) الفتوح الاسلامية : هي سبب اسلام سكان ولاية سنكيانج (التركستان الصينية) في عهد أسرتي « سون » و « مين » فضلا عن أنها كانت سبباً في اسلام التركستان الروسية في عهد أسرة « تان »

(٣) تناسل المسلمين : هو سبب ازدهار الاسلام وازدياد المسلمين في الصين الأصلية بعد أسرة « يون » (سنة ١٢٧٧ - ١٣٦٧ م) وأسرة « مين »

(٤) اختلاط الكافرين بالمسلمين وتأثرهم بأدبهم : هو سبب اسلام أبناء التتار في التركستان الصينية والروسية

لا عجب في السببين الأول والثاني وأما السبب الثالث فهو من خواص الاسلام اذ يحرم المسلمون النكاح بينهم وبين الكافرين ليحفظوا اعتقاداتهم التوحيدية وعاداتهم الاسلامية فتوارثوا دينهم جيلا بعد جيل ، بخلاف الكافرين اذ يمكن أن تعتنق أفراد أسرة من أسرهم أدياناً مختلفة فإذا مات المعتنق انقطع دينه عن أهله . وجواز تعدد الزوجات عند المسلمين من أهم أسباب زيادة أنسألم أيضا . وأما السبب الرابع فلا يوجد الا في الاسلام مثلا تغلب في القرون المتوسطة الميلادية التتار بسيوفهم على المسلمين وأسلم أبناؤهم من بعد بتهديب وتأثير المسلمين ، وما أعجب قوة تأثير الاسلام

ويوجد في ذلك سوى الأسباب السابقة السببان الآتيان :

(١) عدم اذاعة الدعوة الى الاسلام . لأجل هذا مامنى الاسلام بحسد الكافرين ، فلم يوجد قط في تاريخ الاسلام في الصين ما حصل بين التروية والبوذية زمن الأسر الستة (سنة ٤٢٠ - ٥٨٨ م) وأسرتي « تان » و « يون » من النزاع الشديد ، ولم يصب الاسلام

ما أصاب الأديان الأخرى من اضطهاد كما حصل (سنة ٨٤١ - ٨٤٦ م) اذ حتم أتباع كنفوشيوس هدم الأوثان . وليس فى الاسلام أوثان يلزم هدمها . وزد على ذلك أن الكافرين لم يقاوموا المسلمين كما قاوموا أصحاب الأوثان لأن المسلمين ما كانوا يدعون الناس الى الدخول فى دينهم كما كان يفعل أصحاب الأوثان فظهرت عند أتباع الفيلسوف كنفوشيوس فكرة هدم الأوثان خشية أن يكثر معتنقوها

(٢) عدم نقد مبادئ الفيلسوف كنفوشيوس : المسلمون لم ينقدوا مبادئه التى تثبت وجود الملك الحق وتعلم الناس بمكارم الأخلاق ، بل أسس السيد جاسر الدين هيكله لمن لم يتأدبوا بأداب هذا المعلم المعظم واستدل العلامة صالح ليوجلين (رحمه الله) بمبادئه على بعض أسرار الاسلام ، ولذلك تعيش المسلمون مع أتباع كنفوشيوس بالآلفة والمودة فلم يسمع أحد ينقد الاسلام كما نقدت البوذية فى عهد أسرة « تان » والمسيحية فى عهد أسرة « مين » والحمد لله الحكيم العليم

— ٢ —

عدد مسلمى الصين ومساكنهم

المسلمون فى الصين يزداد عددهم عاما بعد عام حتى بلغوا خمسين مليوناً يتفرقون فى الولايات كلها وأكثرتهم فى ولاية كنسيو ثم ولاية يونان ثم ولاية هانان ثم ولاية شانتونغ ثم ولاية هاى . وعدد سكان الصين أربعمائة مليون فالمسلمون ثمنهم

لغة مسلمى الصين ومذهبهم

المسلمون فى ولاية سينكيان يتكلمون باللغة التركية لأنها منشأ الأتراك ، والمسلمون فى الصين الأصلية يتكلمون باللغة الصينية . وأما الكتب الدينية فأكثرها العربية وتليها الفارسية ولذلك يعرف رجال الدين هاتين اللغتين ولكنهم فى المطالعة أقوى منهم فى المخاطبة وبعبارة أخرى أنهم يفهمون كثيراً ويعبرون قليلاً . والسبب فى ذلك أنهم يتوارثونها من أساتذتهم الصينيين الذين يعملونهم الترجمة ولا يعملونهم الانشاء ، وانهم ينقطعون عن المتكلمين بهما فلا يجدون فرص الممارسة . وزد على ذلك أنهم يقرأون الكتب الدينية

ولا يقرأون الكتب الأدبية، فضعت الثقافة العربية يوماً فيوماً بطبيعة الحال. وأما مذهبهم فكلهم أحناف.

مهنة المسلمين

المسلمون في المدن يعالجون التجارة وأهم تجارتهم في شنغهاي وبكين وتينجين جواهر وحجارة كريمة وتحف قديمة. وفي الولايات المجاورة لسور الصين الكبير فراء وأصواف وأوبار وخيل ومواش. وفي ولاية يونان جلود وأرز وخوم شجرية. والمسلمون في القرى والارياف يشتغلون بالزراعة وتجارهم وزراعتهم مشهورون بالاجتهاد والاقتصاد.

مكانة مسلمي الصين

الأدبية والاجتماعية والسياسية

المسلمون هناك أكثرهم لا يملكون من الرزق إلا كفاف حاجتهم. والسبب في هذا ان في مشاركتهم مع الكافرين عسراً في الأكل والشرب، مع أن رؤساء دينهم ينصحونهم دائماً بالزهد والقناعة، فيكفون عن التكاثر والتسابق. ويعيرون درس اللغة الصينية لاعتقادهم أن اللغة العربية لغة الكتاب والسنة فيجب على كل مسلم أن يدرسها ويقدها. وأما اللغة الصينية فهي لغة الكفرة لا تسلم من العناصر المخالفة لديننا حتى قال بعضهم من قرأ الكتب الصينية فقد كفر والنتيجة من ذلك ان صار رجال الدين في الصين أميين في اللغة الرسمية إلا نادراً ومن يعرف القراءة والكتابة من المسلمين واحد في المائة أو أقل ومن الكافرين تسعة في المائة أو أكثر فكيف يمكن المسلمين أن ينافسوا غيرهم في معركة الحياة وان قررت في الدستور الصيني حرية الدين ومساواة الشعوب في الحقوق.

الجمعيات الاسلامية الصينية

أنشئت (جمعية التقدم الاسلامية الصينية العمومية) سنة ١٣٢٩ هـ في بكين عاصمة الصين والجمعيات الفرعية لها في عواصم بعض الولايات، وازدهرت هذه الجمعيات الفرعية سنة ١٣٣٢ هـ لسبب من الأسباب السياسية فبقي منها الا ما في ولاية يونان، فبطلت جمعية التقدم الاسلامية الصينية كمثل شجرة ذابلة فروعها الا فرع واحد لولاه لحكم على الشجرة

باليس وهذا الفرع الناضر هو (جمعية التقدم الاسلامية الصينية) فى عاصمة ولاية يونان وقد أنشأت فيما يسكنه المسلمون من المدن والقرى فى ولاية يونان جمعيات فرعية كثيرة ، وأنشأت أيضاً واحدة فى حدود ولاية كوينجو وواحدة فى حدود ولاية سيجيوان وواحدة فى رنجون (ميناء بروم) وفيها ادارات للمعارف والهداية والصلح والافتاء ، ولها نفوذ ماض على جمعياتها الفرعية بأسرها وثقة كاملة عند الحكومة المحلية حتى انها تستشيرها فيما يتعلق بالمسلمين ووكلت اليها تسوية الخلاف بين المسلمين وهى الصلة الوحيدة بين الحكومة والمسلمين فهى ترفع شكاية المسلمين وعرائضهم الى الحاكم وتبلغ قوانين الحكومة وأوامرها إلى المسلمين وتصدر منها (مجلة المنبه الاسلامى) باللغة الصينية بنفقات جمعياتها الفرعية الشهرية وهى أول جمعية اسلامية صينية استأذنت صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشريف فى ارسال أعضاء البعثة الصينية الأولى الى الجامعة الأزهرية ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم فارجع الفضل فى محبى البعثات الصينية الأزهرية متعاقبات الا الى رحابة صدر الأزهر الشريف وجهد هذه الجمعية العظيمة ولما رجع فضيلة الأستاذ الجليل الحاج هلال الدين هاديچين من مصر الى الصين أنشأ مع زملائه فى شنغهاى سنة ١٣٤١ هـ (الجمعية العلمية الاسلامية الصينية) لاداعة دعوة الاسلام وإحياء العلوم الدينية وتنشيط التعليم الاسلامى وتوطيد كتلة المسلمين بوساطة مجلته وأنشأ المرحوم الجنرال مافوسيان وبعض كبار المسلمين فى نانكين عاصمة الصين المحروسة سنة ١٣٤٥ هـ (نقابة المسلمين) باذن الحكومة المركزية

المدارس الاسلامية الصينية

لمسجد كل ريف يسكنه المسلمون مدرسة دينية أولية يدرس فيها الأولاد بالحروف الهجائية العربية ، ثم بعض السور القصيرة ثم كتاب يشتمل على الدعوات الكثيرة الاستعمال فى العبادات ، ثم بضعة أجزاء من القرآن الكريم ، ثم كتاب فى أسئلة الايمان وأجوبتها يسمى (أربعة فصول) وكتابان فى الفقه الحنفى يسمى أحدهما (المهمات) والآخر (عمدة الاسلام) . وهذه الكتب الثلاثة كلها باللغة الفارسية ، وكذلك دروس مدرسة البنات التى تدرسها المعلمات ، الا أنه يدرس فيها بعض الحكايات والقصص الاسلامية مثل قصة موسى عليه السلام وقصة عيسى عليه السلام وقصة زواج نبينا محمد عليه السلام

بخدمته رضى الله عنها ، وقصة زواج ثابت والد الامام الأعظم أبى حنيفة وما شا كل ذلك ولمسجد كل قرية أو مدينة يسكنها المسلمون مدرستان ثانوية وعالية يؤمهما الطلبة من الأرياف والقرى ويدرس فى الثانوية الصرف والنحو وكتب الدراسة فى الصرف (قسم الصرف) للعلامة يوسف مافوسوا ، و (مفتاح المراح) للحاج نور الحق ماجيبان ، و (مراح الأرواح) لأجد بن على . وفى النحو (قسم النحو) للعلامة يوسف مافوسوا ، و (حواصل النحو) للحاج نور الحق ماجيبان و (الكافية) لابن الحاجب . ويدرس فى العالية النحو والمنطق والبلاغة والتفسير والفقه والكلام ، وكتب الدراسة (شرح الكافية) و (قسم المنطق) و (قسم البيان) و (شرح التلخيص) و (تفسير الجلالين) و (شرح الوقاية) و (شرح العقائد النسفية) والمدرس هو إمام المسجد غالباً ويسكن هو والطلبة فى أروقة المسجد ينفق عليهم الأغنياء من المسلمين الغيارى . وإذا أتم الطالب دروس الأقسام بعد بضعة عشر سنة خلع عليه أستاذه خلعة ، وهى جبة خضراء من الجوخ ، وأهدى اليه الموسرون نفقات السفر فرجع الى وطنه ظافراً مفتخراً ، فأقام له أهل بلده حفلة التكريم بعد أن استقبلوه خارج البلد ووكلوا اليه منصب الامام أو الخطيب أو المؤذن أو المدرس . وأما الذين لم يحظوا بمنصب من المناصب الدينية فمنهم من يشتغل بالزراعة ومنهم من يعيش بالصدقات من تلاوة القرآن الكريم فى المآتم . هذا هو نظام المدارس الاسلامية القديمة فى وطنى ولاية يونان ، ويقرب من ذلك ما فى سائر الولايات ، بيد أنه يدرس فى مدارس ولاية كنسيو (تفسير البيضاوى) و (تفسير حسين) باللغة الفارسية و (الدر المختار) وكتاب فى أصول الدين يسمى (المكتوبات)

ولما شعر حضرات رؤساء جمعية التقدم الاسلامية الصينية فى ولاية يونان بنقصان النظام القديم أنشأوا فى عاصمتها سنة ١٣٢٦ هـ القسم الأرى والقسم الابتدائى للمدرسة الاسلامية وقسمها الثانوى سنة ١٣٣٩ هـ وتدرس فى هذه المدرسة اللغة الصينية واللغة العربية والعلوم الدينية والعصرية اللازمة وقد قرروا منهاج الدراسة ونظام الامتحان ومدة الدراسة ، وسجلت وزارة المعارف العمومية الصينية اسمها فى سجل أسماء المدارس القانونية سنة ١٣٢٩ هـ . وأنشأ المرحوم الجنرال مافوسيان على هذا النظام (مدرسة المعلمين الاسلامية الثانوية) فى عاصمة ولاية شاتونغ سنة ١٣٤٣ هـ ثم نقلت فى السنة التالية لسبب من الاسباب

الى بكين عاصمة الصين المنسوخة سنة ١٣٥٠ هـ وكذلك أنشأت الجمعية الكلية الاسلامية الصينية فى شنغهاى سنة ١٣٤٥ هـ (الأكاديمية الاسلامية) التى تخرجت فيها سنة ١٣٥٠ هـ بعد ما أخذت شهادة المدرسة الحكومية الثانوية فى عاصمة يونان سنة ١٣٤٣ هـ . وأنشأت فى ولاية سيجوان سنة ١٣٤٥ (مدرسة المعلمين الاسلامية الثانوية) وهذه المدارس الأربع هى المدارس الجديدة لتدريس اللغة العربية والدين الاسلامى ، وتقوم كلها على الصدقات والهبات الشخصية ، وأما المدارس القديمة فما زالت باقية فى القرى والمدن . وأما المدارس الازلامية فكلها على قانون وزارة المعارف العمومية وقد يعلم فيها شىء قليل من المعلومات الاسلامية وتكاد تعم القرى والمدن التى يسكنها المسلمون

المجلات الاسلامية الصينية

لما سمع اخواننا الصينيون أبناء النهضة الاصلاحية فى الماء ، الاسلامية قاموا يتسابقون ويتفاخرون باصدار المجلات لاشاعة هذه النهضة ، فتظاهرت متابعة كما تورق الأشجار بعد مطر الربيع ، ولكن قلة المال وأدت بعضها قبل البلوغ وأشهر باقيتها (نضارة الهلال) فى بكين و (المنبه الاسلامى) فى يونان و (نور الاسلام) فى تينججين و (مجلة العلوم الاسلامية) فى كاتون وهذه المجلات ما زالت ضعيفة بسيطة بالنسبة الى سائر المجلات الصينية لقلة التغذية المالية والعامة ولو صاغتها اليد البيضاء لكأنت الصلة الوثيقة لاتحاد المسلمين فى الصين مع إخوانهم فى الدنيا مشارقها ومغاربها

النهضة الجديدة والخلاف بين المسلمين

كان العلماء فى الصين يبالغون فى ثواب النوافل ، فاشتغل المسلمون بها عن الواجبات وأكثروا لا يصلون ولا يصومون ولا يزكون ولا يحجون ، بل يهتمون باقامة المآتم ويدعون اليها رؤساء الدين والمتعلمين ليقروا كل واحد منهم سوراً من سور جزء عم أو جزءاً من أجزاء القرآن الكريم ، ويصلوا على النبي عليه السلام بالترجيع والتفريد ، ثم تقدم اليهم الوليمة الفاخرة والصدقات الجزيلة ، واذا جاء مولد النبي عليه السلام أو مولد السيدة فاطمة رضى الله عنها أقاموا حفلة الذكرى بصدقات المسلمين وعمالوا الولائم فى أروقة المسجد فحضرها المسلمون والمسلمات جميعاً يسمعون القرآن والصلوات والوعظ واذا حان

وقت الصلاة صلى بعضهم وبعضهم يأكلون ويشربون . فلما وجد بعض علماء الدين الخطر في هذه العادات المستبشرة نصحوا المسلمين بأداء الواجبات بدلا عن النوافل ، وأخذوا يحرمون الطعام والصدقة لأجل تلاوة القرآن ، فعارضهم المتعصبون والمتنفعون بهذه الحال ، وانشقت عصاهم ووقعت الفتنة بينهم غير مرة ، وهذه الخصومة تميل الآن الى الضعف والنقصان بحول الله ، وأسأله تبارك وتعالى أن يوفقنا للاتحاد ويعصمنا من كل خصام وشقاق انه جواد كريم

كتب أحد سفلة الكتاب الكفار في (مجلة الآداب الصينية) حكاية فكاكية بهيمية خلاصتها أن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير لأنهم أبناء الخنزير وطبعت المطبعة الحديثة شنغهاي هذه الحكاية كتاباً مستقلاً ، فقام المسلمون في شنغهاي يتشاورون في الجمعية العلمية الاسلامية الصينية في هذا الأمر الخطير فاتفقوا على أن يقدموا احتجاجاً على ادارة المجلة ، فوعد رئيس تحريرها أن ينشر في الجرائد اليومية المشهورة اعتذاره الى المسلمين ويصحح الغلط في الحكاية في العدد الأخير من نفس المجلة ويضمن أن لا يقع فيها مثل هذه الحادثة مرة أخرى ويحرق بحضرة المسلمين الباقي من العدد الذي فيه الحكاية . ولكن المسلمين في بكين لم يقنعوا بهذه التسوية ، فاجتمعوا وتشاوروا في لجنة الدفاع عن الاسلام وفي أثناء الاجتماع قطع السيد الغيور « ليهيتين » سباً بته فسال الدم منها فكتب بدمه هذه الكلمة : « دافعوا عن دينكم ! » فبلغت حاسة المسلمين الحاضرين ذروتها ، وغطت الغيوم سماء المجلس ، فتحالف الحاضرون أن يدافعوا عن دينهم الى النهاية مهما كلفهم الأمر ، وأجمعوا على أن يرفقوا الى المسلمين في البلاد كلها ويوفدوا أربعة مندوبين الى نانكين ليشتكوا الى الحكومة الصينية المركزية ما في هذه الحكاية الخبيثة ، وقد شاركهم في ذلك المندوبيون من قبل المسلمين في شنغهاي ، والرسائل البرقية طارت الى الحكومة الصينية المركزية بشكاية المسلمين من أقطار الصين فأمرت (١) الحكومة الجمهورية الصينية بمعاقة الكاتب الملعون وتعطيل مجلة (الآداب الصينية) وإغلاق (المطبعة الحديثة) وسنّت قانوناً خاصاً لحماية الأديان توطيداً لما في الدستور من حرية الدين ومساواة الشعوب في الحقوق ، وأعلنت أن المسلمين من العناصر المهمة للامة الصينية ولهم تاريخ مجيد في خدمة

الوطن ويحترمهم أبناء الأمة كل الاحترام ، فاتتهى الأمر بذلك واستقبل المسلمون فى محطة سكة الحديد بشنغهاى المندوبين وأقاموا لهم فى الجمعية العلمية الاسلامية الصينية حفلة التكريم شكرأ لهم على جهدهم وإخلاصهم للدين الحنيف والكرامة الاسلامية جزاهم الله عنا وعن دينه خير الجزاء

هذا ولأجل أن يقف قراء الفتح على مبلغ ما كان لهذا الحادث من الأثر فى الصين. ننقل لهم من تعليقات جريدة « شينبو » أكبر جرائد الصين اليومية العبارة الآتية :

قد ورد فى أمر مجلس التنفيذ للحكومة الجمهورية الصينية « المسلمون عناصر خطيرة للإمة الصينية وقد اشتهروا بخدمة الوطن واحترمهم أبناء الأمة جميعاً »، وإنى لمعجب باتحاد كلمة المسلمين وحماستهم الفائقة فى الدفاع عن دينهم ، وإنى لمعتقد أن أبناء وطننا لو كان لكل واحد منهم فى الدفاع عن الوطن مثل هذه الروح لكانت مكانة وطننا السياسية أحسن مما هى عليه الآن ، ولما سقطت منشوريا فى أيدي اليابانيين ، وإن اخواننا المسلمين ما صاروا عناصر خطيرة للإمة الصينية الا بتأديب القرآن، وقد قال الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة « **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ** » ، لم يكن اعتداء اليابانيين فى منشويا أشد من القتل ! لو قام ولاية الأمور منا يدافعون أعداءهم كما أوصانا القرآن لما شقق اليوم ثلاثون مليوناً من اخواننا تحت حوافر خيول اليابانيين . فأرجو من اخواننا المسلمين أن يعملوا بأمر الله تعالى فى الدفاع عن الوطن كما يدافعون عن الدين ، لترسم مآثرهم ومفاخرهم فى تاريخ الأمة ولتحترمهم أمم العالم جميعاً . انتهى كلام الجريدة الصينية

يأيتها القراء الكرام جاهدوا فى سبيل الله على حسب الامكان بعد ما تعرفون قدر الجهاد مما تقدم !

حمد مكيين الصينى

المسلمون في الصين

وأحوالهم الاجتماعية والسياسية

حديث طريف للوفد الصيني المسلم مع مندوب « الجامعة العربية » بالقدس

« وبينما كنا نحرر هذا الكتاب قدم وفد من علماء مسلمي الصين الى مصر ومعهم عدة من الطلبة الجدد يريدون ادخالهم في الجامع الأزهر وأقبل على هذا الوفد مندوبو الجرائد يستعلمون منه عن أحوال مسلمي الصين . وقد جاء رجال الوفد المذكور الى القدس الشريف وأخذت منهم جريدة الجامعة العربية المعلومات الآتية نأثرها هنا لأنها أحدث حديث في الشرق الأقرب عن مسلمي الشرق الأقصى » . أما المذابح التي أجراها الجنرال الصيني المسيحي فونغسيانغ واستأصل بها ألوفاً وألوفاً من المسلمين فقد كنا أول من نبه الناس لها يوم وقوعها وذلك بمقالات في جريدة الشورى بمصر واقترحنا حينئذ على المسلمين أن يرفعوا احتجاجاتهم الى دولة الصين وإلى الدول وعلى جمعية الرابطة الشرقية أن تفحص عن هذه الفادحة وتتوسط لدى الصين والدول وكل هذا لم يحرك من أحد ساكناً وباللأسف واننا لا نقدر أن ننكر هذه الحقيقة المؤلمة »

أما حديث الوفد الصيني للجامعة العربية فهو هذا :

اغتنت فرصة وصول الوفد الصيني المسلم الى القدس المؤلف من السيدين الحاج عبد الله الصديق جاو بين سكرتير مدرسة المعلمين الاسلامية في بكين ومدير مطبعتها ومكتبتها ومحرر مجلة نضارة الهلال في بكين ، والحاج عبد الرحيم ماسون تين إمام جامع تونسيبا لو في بكين ووكيل مدرسة المعلمين الاسلامية فيها . فتقدمت اليهما باسم جريدة « الجامعة العربية » حيث يقمان بالزاوية النقشبندية ملتصقا بهما ان يتفضلا على قرائها بحديث عن رحلتهم وعن حالة اخواننا مسلمي الصين ، فاجابا ملتصقا بكل بشاشة وسرور . وقد ازداد ابتهاجهما عندما أطنعتهما على العدد الاخير من الجامعة العربية المشتمل على مقال عن مسلمي الصين وبعض معلومات عنهم . وإلى القراء موجز الحديث الذي اشترك فيه السيدان المذكوران :

غادر السيدان الحاج عبد الله الصديق جاو بين والحاج عبد الرحيم ماسون تين مدينة

بكين عاصمة الصين السالفة في أول شهر شعبان الماضى على رأس بعثة صينية مؤلفة من خمسة طلاب من مدرسة المعلمين الاسلامية في بكين فوصلوا الى القاهرة في الثالث من شهر رمضان المبارك. ليدخلوا البعثة المذكورة في الازهر الشريف لتعلم العلوم الدينية الاسلامية والقرآن الكريم واللغة العربية .

أما أعضاء هذه البعثة العلمية فهم : سعيد ونجش مين ، على خان خون كوى ، شعيب جندان كوى، اسماعيل ماجن بوم ، سليمان جنبنتو . وقد دخلوا في الازهر الشريف ولقوا كل مساعدة من الحكومة المصرية والشعب المصرى

والسيدان المذكوران ينويان زيارة بلاد الحجاز لقضاء فريضة الحج ، وذلك من أسباب رحلتهم الرئيسية كما ان من أسبابها أيضا زيارة بيت المقدس والمدينة المنورة والتعرف على اخوانهم المسلمين في هذه الاقطار والوقوف على أحوالهم

ويبلغ عدد المسلمين في الصين نحو خمسين مليوناً وهم آخذون في الازدياد بالتدريج وأكثرتهم يقطنون في الولايات الغربية والشمالية وفي ولاية « يوتنان » في الجنوب . أما حالتهم فحسنة وتقدمهم مطرد . وحالتهم المادية متوسطة وحالتهم العلمية بالنسبة الى أهل الصين عامة في المقام الاول . واكثر أهل الصين بوذيون وكونفوشيوسيون وقليل منهم اعتنقوا الديانة المسيحية ولكن عدد النصارى آخذ في الازدياد بسبب كثرة الارسايات الدينية الاجنبية والوسائل المادية التي تلجأ اليها هذه الارسايات . والمسلمون والنصارى في الصين في درجة علمية واحدة وهم أرقى على وجه العموم من البوذيين . أما الكونفوشيوسيون فهم متعلمون اكثر من الجميع .

ومن الغريب في المذاهب الصينية ان البوذى أو الكونفوشيوسى الذى يعتنق النصرانية ، يقوم بالطقوس الدينية المسيحية في الكنائس ثم يقوم أيضا بالطقوس البوذية والكونفوشيوسية في المعابد الوثنية ، فهم يخلطون بينهما خلطاً عجيباً . والكتب الدينية النصرانية كالنوراة والانجيل مترجمة الى اللغة الصينية . أما المسلمون فهم مستقلون في شؤونهم الدينية معتصمون باسلامهم وبصلاتهم وبصيامهم وبزواجهم وعباداتهم ومعاملاتهم وتقاليدهم الاسلامية . ولا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ، والنكاح فيهم محصور بالمسلمين والمسلمات ونادر من المسلمين الذين يتزوجون من غير المسلمات ، واذا حدث

حادث مثل هذا فلنكى يحمل المسلم زوجته غير المسلمة على اعتناق الاسلام وهي بعد زواجها منه لا بد أن تصير مسلمة كما أن المسلمين لا يستعملون الآنية التي يستعملها غير المسلمين والمسلمون في الصين غير مكروهين من قبل بقية الطوائف الصينية وهم وطنيون بكل معنى الكلمة ويعيشون مع مواطنيهم بكل وفاق ويتعاملون معهم أحسن التعامل

وعلماء المسلمين في الصين يقرأون القرآن وكتب الفقه والحديث والتفسير والتوحيد وبقية العلوم الدينية والاسلامية باللغة العربية ويفهمونها ولكنهم لا يحسنون التكلم بها ، وكذلك يدرسون علوم الصرف والنحو والبلاغة بالعريسة ويدرسونها في المدارس ويستعملون الحروف العربية ، كما أنهم يقرأون اللغة الفارسية .

ولهم مساجد كثيرة . وفي كل مسجد مدرسة ابتدائية . أما المدارس الثانوية والعالية فقليلة عندهم . ومدرسة المعلمين الاسلامية في بكين تتألف من ٦ صفوف ابتدائية و ٦ ثانوية . على أن هذه المدارس خاصة بالمسلمين يجمعون أموالها من أنفسهم . وهم في الوقت نفسه يتعلمون في مدارس الحكومة العمومية .

وهم يقيمون الصلاة بواسطة الاذان ولكن ماآذنههم غير مرتفعة والوضوء عندهم يكون بالماء الساخن والمساجد تحتوى على ماء ساخن للوضوء . وهم يعنون بالنظافة . وأكثرتهم يشتغلون بالتجارة والزراعة

وقبل نحو سنتين عند ما اشتد ساعد الجنرال فونغسيانغ الصينى الملقب بالمسيحى الذى قام ضد حكومة الصين وشق عصا الطاعة وقاد الجيوش للزحف عليها ، ظل مسلمو الصين على ولائهم لحكومتهم وصمدوا في وجه الجنرال فونغسيانغ السفاح الذى حاول اجتياح ولاية كانسو الاسلامية وذبح كثيراً من أهالى المسلمين وارتكب فيهم شتى الفظائع وكان هذا هو السبب الظاهرى لتلك المذابح . أما السبب الحقيقى فهو تعصب الجنرال المذكور ومقتته للمسلمين ليس الا .

ومسلمو الصين أهل نجدة وشجاعة ، وهم رجال حرب وقتال وكثير منهم جنود في الجيش وفيهم قواد وجنرالات كبار مثل الجنرال عماد الدين ماخون كوى حاكم ولاية كانسو الذى تحت امرته جيش مؤلف من خمسين ألف مسلم صينى . ومثل الجنرال ماشن جن حاكم ولاية شنغاي — كوكونور — فان جيشه مؤلف من ثلاثين ألف جندى مسلم ، ومثل

الجنرال ماخو بين حاكم ولاية تنغشاي فان جيشه مؤلف من عشرة آلاف جندى مسلم ، وغيرهم . ومسلمو الصين يشاركون مواطنيهم غير المسلمين في مقتهم لليابان التي اتخذت ظلم الصين والاعتداء عليها ديدنا لهم . وهم لا يوافقون على استقلال منشوريا الذي تم بمساعدة اليابان وفصلها عن جسم الصين

والمرأة المسلمة في الصين لا تحتجب وهي تتمتع بالحقوق التي يتمتع بها الرجل وحالتها آخذة بالنقدم

ورئيس الجمهورية الحاضر غير مسلم ولكن ليس في دستور الحكومة الحاضرة ما يمنع من أن يكون الرئيس مسلما . وفي الوزارة وزيران مسلمان أحدهما محمد ماتوشيان وزير منغوليا والتيت وقد توفي الى رحمة الله وهو والد الجنرال عماد الدين ماخون كوى حاكم ولاية كانسو . والثاني وزير المعارف واسمه ما جنغ وو .

وليست للمسلمين في الصين رئاسة دينية وانما تقوم الجمعيات المحلية بالاشراف على التقاليد الاسلامية .

وقد ختم السيدان الفضلان حديثهما باظهار شديد رغبتهما باتخاذ الاسباب والوسائل الكاملة لحفظ الصلات وتوثيق الروابط بين مسلمي الصين الذين هم اكبر كتلة اسلامية بعد مسلمي الهند ، وبين بقية اخوانهم المسلمين في العالم الاسلامي .

ثم أثنيا الثناء المستطاب على سماحة المفتي الاكبر السيد محمد أمين أفندي الحسيني وقالوا إن أعماله الباهرة وخدمته للمسلمين قد تطايرت أنباؤها الى الصين وانهم هناك معجبون بسماحته كل الاعجاب ، ثم تمنيا أن تقترن مشروعاته الجليلة بالخير والفلاح

مسلمو الروسىة

فى عهد البلاشفة

للشيخ

عند ما ذهبت الى موسكو فى حزيران أو يونيو عام ١٩٢١ ، لتفحص الأحوال ، عن قرب ومعرفة ما اذا كان ممكناً فعلاً انتفاع الشرق من الروسية الحاضرة ، وما هى درجة هذا الانتفاع ، سألت عن أحوال المسلمين فى الروسية ، وتلاقيت مع بعض أدياء الطاغستانيين والقازانيين ، فاستقصيت منهم عما أريده وقيل لى : ان بموسكو بضعة عشر ألف ترى لهم مسجدان جامعان ، وكذلك فى بتروغراد كان نحو عشرة آلاف منهم ، ولهم جامع بديع البناء . وكنت فى احدى الجمع أدت الصلاة فى أحد جامعى موسكو ، حيث يؤمّ فى الجماعة الشيخ عبد الودود فتاح الدين قاضى المسلمين فى موسكو و بتروغراد ، ويتبعه فى القضاء المسلمون الذين فى ولايات « باراسلوه » و « توير » و « يقالومنه » و بلدتى « ايفانو » و « جنيسنسكى » والأخيرة بلدة معامل ، فيها عملة مسلمون كثيرون . ويقولون له هناك « حضرة عبد الودود » ويسمونه المحتسب . ومعنى المحتسب عندهم ، هو الذى ينظر فى الأمور الدينية ، ويرجع اليه أئمة المساجد . فالاستاذ عبد الودود فتاح الدين هو المحتسب فى جميع البلدان المار ذكرها . ومرجعه المجلس الاسلامى الأعلى الذى بمدينة أوقا . وقد رأيت منه علماً فاضلاً ، مطلعاً على الأمور ، بصيراً بأمر قوم ، وقبل أن تحدثت معه سمعت خطبته فى صلاة الجامع ، فالعادة عندهم هى أن يبدأ الخطيب بخطبة بالتركية القازانية فيها ويتكلم فى أهم الأمور التى تناسب الحال ، فإذا انتهى من هذه خطب الخطبة الرسمية بالعربية . فحضرة عبد الودود وقف بحذاء المنبر ، وبقي يتكلم أكثر من نصف ساعة ، ومع كون تركية التتر تختلف لفاظ وتصريف الأفعال عن تركية العثمانيين فقد كنت أفهم كل ما فى جداً وعظه ونسق خطابه ، وعلمت أنهم مدركون الاحتياجات

العصرية ، متنبهون لما يجب أن يننبهوا اليه . ولما انتهى من خطبته بالتركي صعد المنبر أخوه ، وهو مثله من العلماء نخطب بالعربية بالتسجيع على نمط خطباء بلادنا ، ولكن باعراب صحيح ولفظ فصيح لا تفرقه عن لفظ خطباء العرب في شيء ، مما جلنى على الظن أن هذا الخطيب كان مجاوراً في مكة أو في المدينة مدة طويلة ، حتى أمكنه أن يخرج الحروف العربية مخارجها كأحسن المجودين من العرب ، اذ لم أعرف في أمة الترك من يقدر على ذلك الا من نشأ منذ صغره في بلاد العرب ، فانه قد يتقن القارئ التركى علم التجويد ، ولا يزال معروفاً من لفظه أنه تركى ، ولا يبرح عاجزاً عن اخراج الحاء والعين والواو ، مثلاً ، مخارجها الصحيحة الا اذا ربي بين العرب . فأما خطيب جامع موسكو ، فسمعت منه لفظ خطيب عربى ، فدهشت عندما عرفت أنه لا يعرف بلاد العرب ، وانه انما تعلم التجويد في قازان ، وقد ازدادت دهشاً لما سمعت بعض القراء يقرأون كقراء العرب نغمة وترتيلاً ، بدون أن يكون أحد منهم جاور في الحرمين ، ولا عرف البلاد العربية . مع أن اخواننا الترك العثمانيين يتعلمون التجويد ويحفظون القرآن ، ويتقنون كل ذلك ، وتبقى نغمتهم على ما هي عليه .

سألت حضرة عبد الودود بعد الصلاة وقد دعانى الى الشاى فى منزله المناوح للمسجد ، بما هم عليه فى عهد البولشفيك ، وما هو الفرق بين الادارة القيصريّة السابقة والادارة الشيوعية الحاضرة ، فأخذ يقص لى المحاسن والمساوى الا أنه قال : « أما من جهة الحرية الدينية فقد صرنا فى بحبوحة عظيمة ، اذ أن البولشفيين لا يسألون الانسان عن عقيدته ، ولا يعرفون الا كلمة « روسى » أياً كان دينه ، وكان الدخول فى الاسلام ممنوعاً لعهد الحكومة السابقة أما الآن ، فالحكومة لا تعترض أحداً ، وان كثيرين فى هاتين السنتين أسلموا على يدى . بل كان أهالى مائة قرية من جوار قازان قد حملتهم الحكومة القيصريّة على النصرانية قسراً منذ مائتى سنة وحولت مساجدهم كنائس وأرسلت اليهم القسوس ، وكانوا لا يزالون فى الباطن مسلمين ، لكن لم يقدرُوا أن يظهروا اسلامهم الا بعد أن سقطت القيصريّة وجاء البولشفيك ، فعادوا الى الاسلام وأعادوا مساجدهم الى أصلها » .

ثم سألته عن تشكيلاتهم الشرعية فقال : ان قازان وسيبيريا وبلاد الباشقرد والغريز والمدن التى فيها مسلمون من جوار موسكو ، هذه لها مجلس اسلامى أعلى مركزه بمدينة أوبا . وهذا المجلس مؤلف من أربعة قضاة ، يرأسهم المفتى لأعظم . والمفتى الأعظم اليوم هو

العلامة جان بارودى بن محمد بارودى ، وهذا الرجل هو من خول العلماء وله تصانيف ، وكان أصلح أصول التدريس الاسلامى فى الروسية ، وأيقظ المسلمين ، فلهذا نفاه القيصر الى سيبيريا ، ولم يعد من منفاه الا بعد سقوط القيصرية ، فانتخب مفتياً أعظم فى أيام البولشفيك أما القضاة الأربعة اليوم فهم ، العلامة رضاء الدين بن نحر الدين من المشهورين فى البلاغة والتاريخ ، وكشاف الدين ترجانى امام قازان سابقاً ، وصابر جان الحسنى امام أوفا والسيدة مخرصة بويبا ، وهى سيدة عالمة فاضلة قد اقترحت الحكومة البولشفية ادخالها فى المجلس الأعلى بقولها : ان النساء هن نصف البشر ، وانه من العدل وجود امرأة فيه للمحافظة على حقوق المسامات ^(١) . فهذا هو المجلس الاسلامى الأعلى ، وفيه تنحل جميع المسائل الشرعية . ويتبع هذا المجلس تسعون ناحية ، كل ناحية منها فيها محتسب مثل الاستاذ عبد الودود ، فالمحتسبون مرجعهم المجلس الأعلى ، والأئمة فى المساجد مراجعهم المحتسبون . وأما تركستان فلها تشكيلات دينية ، ومفت أعظم مركزه طاشقند . وكذلك يوجد مفت أعظم لمسلمى القوقاس ، ومفت لمسلمى القريم .

سألت حضرة عبد الودود عما يقال من عدد مسلمى الروسية كلها فقال لى : « فى ولايات قازان ، واورنبورغ ، وأوفا وتوابعها ، مع الباشقرد ٥ ملايين . والغريغز ٥ ملايين . وتتر سيبيريا نصف مليون . وولايات تركستان ، طاشقند ، وسمرقند ، وخوقند الخ ١٢ مليوناً . وبخارى مليونان وخيوه مليون واحد . فهذه ٢٥ مليوناً ونصف مليون . » فقلت له ، وفى القوقاس ثلاثة ملايين الى أربعة طاغستانيون ، وجركس . وثلاثة ملايين فى اذربيجان وكرجستان . ونصف مليون أو أكثر فى القريم . فهذه نحو ٣٣ مليوناً . فوافقتنى على هذا القول ، وسألت غيره حتى ممن كانوا من أعضاء مجلس الدوما الروسى ، فقالوا ان عدد مسلمى الروسية نحو ٣٥ مليون نسمة .

وفى بولونيه نحو ١٥ ألب نسمة مسلمون ، يقطنون عدة قرى . وفى مملكة ليتوانيه من ممالك الباليك المستقلة بعد الحرب نحو ١٠ آلاف نسمة ، لهم بعض قرى ، وعندهم مساجد ، ولكنهم لا يعرفون لا العربية ، ولا التركية ، وانما يتكلمون بالليتوانية والروسية وكان يحسن أن يؤخذ منهم بعض طلبة الى الاستتانة وآخرون الى مصر لأجل تعليمهم العربى والتركى . وكان منهم طالب أديب فى برلين ، جعلناه عضواً فى النادى الشرقى .

(١) روى الطبرى أن كثيراً من الفقهاء أجازوا قضاء المرأة

السيد جمال الدين الافغانى

حكيم الشرق

للأمير شكيب

فيلسوف الاسلام ، وعلم الاعلام ، وكوكب الاصلاح ، الذى أطلعه الله فى افق المشرق بعد أن اشتد به الظلام ، حجة الشرق الناهضة ، وآية الحق الباهرة ، الذى قال عنه ارنست رنان ، الفيلسوف الفرنسى المشهور بعد أن عرفه : « كنت أتمثل أمامى عند ما كنت اخاطبه ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين » . قد بلغ من شهرته ، واللهجة بذكره ، والضاوأة بعقريته ولاسيما بمصر والشام ، وسائر البلاد العربية ، ان ترجمة حاله تكاد تكون احدثوثة الجميع ، فلا حاجة الى الاطالة بجميع تفاصيلها ، ولا الى الاحاطة بغيرها وحجوها ، قصارى ما فى الأمر ان هناك حوادث لم تكتب الى اليوم ، وان الروايات تضاربت فى أمرين أحدهما ، هل هو أفغانى مولود فى افغانستان ، أم فارسى مولود فى همدان كما زعم بعضهم ، والثانى ، هل هو فيلسوف الهى أم مسلم ، أم فيلسوف مادى معطل . وعلى الأمر الأول نقول : ان كل من عرفوا السيد جمال الدين علموا منه انه من افغانستان ، وانه من سادات كثر الحسينية المشهورين فى تلك الديار ، ووالده السيد صفتر وكان مولده فى اسد آباد بقرب كثر سنة ١٢٥٤ هجرية وفق ١٨٣٨ ميلادية وكذلك عرّف به كبير تلاميذه ، الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، مفتى الديار المصرية ، فى صدر رسالة الدهريين تأليف السيد جمال الدين . ولقد لفت فى المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر السيد حسيناً أحد ولاة افغانستان ، ومن سادات كثر المشار اليهم ، ومن أفاضلهم ، وعلمت منه ان السيد جمال الدين رحمه الله هو منهم ، كما انى سمعت ذلك من جميع رجال الدولة الافغانية وسفرائها ، الذين جعتنا بهم التقادير فى اوربا بعد تأسيس سفاراتهم بها ، فلا أعلم كيف تتفق كل هذه الروايات من أهل تلك الديار ، على كون المترجم

أفغاني الدار علويًا حسيديًا ، من أسرة نسبتهم كالشمس ، ومقامهم في بلاد الأفغان أشهر من أن ينوه به ، ويكون في الحقيقة من همدان ومولوداً بها ؟ ونقول على الثاني : ان الاستاذ الشيخ محمد عبده تعرض الى ادحاض هذه التهمة أكثر من مرة وعرب من الفارسية بمساعدة عارف افندي أبي تراب الأفغاني رسالة « النيتشرين » أي الطبيعيين التي يرد فيها السيد جمال الدين على الملحدة والمعتلة ، ويقيم العقيدة الالهية على أساطين المنطق ، والحكمة العقلية ، ويثبت صحة الوحي ، وينتهي الى ايضاح البراهين المحمدية ، كل ذلك بملكة قل أن تتاح قوتها لفيلسوف غيره ، ولكن بعض الناس — ولا سيما العلماء الحشوية — أبوا أن يروا في الفلاسفة الملاحدين ومعتلين ، ومن هذا جاء قولهم العامي : من تمنطق تزندق . وبمثل هذه المبادئ السخيفة والكلمات المحزنة ، أضلوا العوام ، ووضعوا عقائدهم في خصومة دائمة مع الحقائق العلمية ، وجنوا على الاسلام جنابة كبرى ظهر أثرها في الانحطاط السياسي والاجتماعي ، الذي نراه عليه الآن . واذا قام مصلح أو مجدد يتكلم باسم الحكمة والعلوم العالية ، ويبحث على النظر ، وينهى عن التقليد ، ويبين مضار الجود ، كان أول ما يتسرعون اليه رمية بالزندقة ، واتهامه بوهن العقيدة . وقد يصادف ذلك هوى في افئدة من يميلون الى التعطيل فعلا ، فيلقفون ما يسمعون من هذا القبيل بدون تشبث ، ويسارعون الى اذاعته بين الناس ، لأن من أحب شيئاً أحب أن يرى كبار الرجال شركاء له فيه ، ولهذا صدر الاستاذ الشيخ محمد عبده رسالة الدهريين ، التي أسلفنا ذكرها ، بمقدمة في ترجمة حال استاذ السيد جمال الدين قال فيها تقريباً ما يأتي : « يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل ما نراد من اختلاف آراء الناس في أمره ، وتضارب أقوالهم في حقيقة حاله ، حتى كأنه قوة روحية قامت في كل ذهن بما يلائمه ، أو حقيقة كلية نزلت في كل عقل بشكل يشاكله ، والرجل على صفاء جوهره ، وزكاء مخبره لم يتناوله وضع الأوضاع ، ولا حزر الخراسين الخ » . ثم شرع بترجمته على الوجه الصحيح ، الذي هو أدري به من كل مترجم غيره ، بمكانه من خلطة السيد الاستاذ ، وماله به من تمام الخبرة ، ومعه من إطول العشرة . فذكر نسبه ، وحسبه ، ومولده ، ونشأه ، ورحلته ، ومذهبه في السياسة ، ومذهبه في الفقه ، وقال في هذا : « انه حنبلي حنفي مع ميل الى مشرب السادة الصوفية ، رضي الله عنهم » . وذكر عن مذهبه السياسي انه كان جل اجتهاده ، في أن

يرى احدى الدول الاسلامية ، فى صف كبيريات الدول الاوربية . وأطال فى وصف مواهبه العقلية ، وقدرته العالمية ، الى أن قال : « وبالجملة فلو قلنا ان ما أوتيته من الذكاء ، هو أقصى ماقدّر لغير الأنبياء ، لكننا غير مباغين » . ووصف شمائله الباهرة ، وأخلاقه العظيمة ، وهممه العالية ، وشجاعته التى لاتعرف للموت معنى ، وعدم مبالاته بالدنيا ، وانتهى الى قوله فيما أتذكر : « وهو حليم يسع حلمه ماشاء الله أن يسع ، الى أن يدنو أحد ليمس دينه ، أو شرفه ، فينقلب الى غضب ، تنقض منه الشهب ، فيبنا هو حليم أواب ، اذا هو أسد وثاب » . قلت وسترى عاقبة غضبه عندما أهانه الشاه ناصر الدين ملك العجم ، والصورة الفجيعة التى انتهت بها ذلك الخلاف ، مما سنرويه لك فى آخر هذه الترجمة . وقد اتفق أرباب النظر فى هذا العصر ، على أن قدوم السيد جلال الدين الافغانى الى مصر كان مبدأ الحركة الفكرية ، التى بدأت فى البلاد العربية وسائر الشرق الأدنى ، ولم تزل تنمو الى الآن ، رامية الى تحقيق الشرق بالمعارف التى ساد بها الغرب ، ورفع سيطرة هذا عن ذاك ، واعادة الشرق سيرته الأولى من الرقي . ولم يقرأ السيد جلال الدين على أحد بالأزهر ، ولكنه كانت له حلقة خاصة فى منزله انتظم فيها عدد من أدباء القطر ، يستفيضون بحر حكمته ويستمطرون صوب صوابه ، اشتهر منهم الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وابراهيم افندى اللقانى ، والسيد وفا القونى ، وسعد باشا زغلول ، الذى قيل لى انه أدرك أخريات أيام السيد بمصر ، ولازمه ثلة من أدباء الشام ، النازلين بمصر مثل أديب اسحاق ، وسليم النقاش ، وسعيد البستانى ، وغيرهم واندفع مريدوه وحلة علمه ، يكتبون ويخطبون وينثون الى الملاء ماالتقطوه من فوائده ، وانتظموه من فرائده ، وكان ذلك لسانا عاليا لاعهد للناس بأمثاله ، وأسلوباً راقياً انقطعت منذ قرون عديدة نسبة رجاله ، فأحدث فى الأمة حركة أفكار لم تكن من قبله ، ونفخ فيها روحا سرية ظهر عليها طابع عرفانه وفضله ، فنشطت همم واستجبت عزائم ، وهبت قوى وفاضت قرائح .

وقال الشيخ محمد عبده فى وصف تلك الحركة ما يأتى تقريرا : — لأن نص كلامه ليس بيدى الآن — فاستنارت الأبواب ، واستضاءت البصائر ، وانحلت عقل الأوهام عن قوائم العقول . الى أن قال انه لم يكن بمصر للكتابة قبل جلال الدين شأن يذكر ، ولم يكن يعرف من الكتاب سوى عبد الله باشا فكرى ، وخيرى باشا ، وفلان على ضعف

فيه ، وفلان على اختصاص فيه ، وبقية من بقى فاما ساجعون فى المراسلات الخاصة ، واما مؤمنون فى بعض الكتب الأدبية الخ ، ولم تكن الثورة التى أحدثها السيد جال الدين فى السياسة بأقل منها فى المعارف ، ولعمرى هانان توأمان ، فقلما انتشر العلم فى مكان الا هتف بالحرية . وأول أثر ظهر لجال الدين فى ميدان السياسة ، هو الحركة التى هبت فى أواخر أيام الخديوى اسماعيل باشا وآلت الى خلعه من الخديوية ، وكان للسيد اليد الطولى فيها ولما جلس توفيق باشا على كرسى مصر شكر لجال الدين مساعيه ، لكن لم يطل الأمر حتى دبت عقارب السعاية فى حقه ، وجاء من دس الى الخديوى الجديد أن السيد ان يقف عند هذا الحد ، وقد تحدته نفسه بثورة ثانية ، وباقامة حكم جمهورى وما أشبه ذلك ، مما لا يعنى تنميقة السعاة والمتملقين ، فصدر الأمر لجأة بنفى جال الدين وأخرج الى السويس ، ومنها ذهب الى الهند ، ولم يدخل بعدها مصر . وجرت الحركة العرابية فى غيابه ، واحتل الانكليز مصر . ومما لا مرأى فيه أن المبدأ الوطنى ، الذى رأس تلك الحركة كان من زرعه هو ، وان كان هب على ذلك الزرع ، من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية ، ولفحه من الدسائس الأجنبية ماصوح نضرته ، وأذهب ثمرته ، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث فى الشرق أو حركة اصلاح تشفق من ورأها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التى هى أصدق عوامل الاستعمار الا أن ذلك الزرع لم تذهب بزرتة من الأرض ، وعاد فأخرج شطأه ، وما زال ينمو حتى استوى على سوقه ، يعجب جال الدين لو عاش الى اليوم ، ويغتاظ به الذين لا يبرحون مماطلين فى الجلاء عن مصر ..

وفى سنة ١٨٨٥ ذهب جال الدين الى أوروبا ، وأول مدينة صعد اليها لندرة ثم تحول منها الى باريز حيث وافاه الشيخ محمد عبده أ كبر تلاميذه ، وأكمل وعاء علومه ، فأصدر فيها « العروة الوثقى » التى بلغت من ايقاظ الشرق وهز أعصاب العالم الاسلامى ، مالم تبلغه صحيفة سيارة قبلها ، ولا بعدها ، ولكن لم يسعهما الوقت أن يصدرا منها الا بضعة عشر عدداً ، فعاد الشيخ محمد عبده الى بيروت حيث كان منفاة على أثر الحادثة العرابية ، وبقى جال الدين فى أوروبا يحول فى مدنها ويشافن أهل العلم فيها الى أن تلاقى بالشاه ناصر الدين صاحب فارس بلغنى أنهما تصادقا فى منيخ عاصمة بافارياه ، فدعاه الشاه أن يكون بمعيته لما شاهده من وفرة علمه وفضله ، وتقدم اليه فى الذهاب معه الى طهران ، فابى السيد دعوته ،

وأكرم الشاه نزله في عاصمة فارس ، وما زال في علياء عنده ، حتى نفس عليه الحساد منزلته هذه لدى الشاه ، ولما كان السيد جال الدين لا يكتفم فكره ، ولا يحتاط من قوة نفسه ، أن يجهر بكل ما يجيش به صدره . وكان بعد ذا وذا يجد في ادارة أحكام العجم ، مالا يطبق عليه صبراً أقل منه بكثير ، في الهمة ، وابعاء الضيم ، وصحة الوجدان لما ظنك برجل نظيره . لم يصعب على أولئك المفسدين ، أن يحكموا الوشاية ، ويوقعوا العداوة بينه وبين الشاه حتى انتهى الأمر باعتقاله وحبسه ، ثم باخراجه مهاناً من فارس الى بغداد ، حيث خاطب المجتهد الكبير ، ميرزا محمد حسن الشيرازي رأس الشيعة في وقته بكتاب شهير ، عدد فيه مساوئ الشاه ، واستيلاء العنه على عقله ، وشرح فيه مضرة امتياز شركة التبناك ، الذي يقضى باستئثار الأجانب بأهم محصول بلاد العجم ، فكان هذا النداء ، من أعظم أسباب الفتوى التي أفتاها ذلك الامام ببطلان هذا الامتياز ، واضطرت الحكومة الفارسية خوف انتقاض العامة الى الغائه . ولكن السيد جال الدين لم يشف غليله بهذه الحركة وحدها ، وأخذ يعاكس الشاه وحكومته بكل وسيلة ، وكان كلما تذكر اهانة الشاه له ، وبين جنبه تلك النفس العظيمة ، التي لو قلنا ان أنفس الملوك في جنبها تعد أنفس سوقة ، لكننا غير مغالين حاج به هائج الانتقام ، وتقصد الأخذ بالثار ، لا سيما أنه كان رأى بعينه في ايران ، من آثار الاستبداد والظلم وجفاف العسف والغشم وذهاب مصالح الأمة العامة في سبيل اهواء افراد ، وشهوات آحاد ، ما مكن في خلدته فكرة العمل لقلع الشاه من مركزه . وصادف بعد ذلك أنه ذهب الى لندرة مرة ثانية ، فخر في مجلة سماها « ضياء الخافقين » مقالات على أحوال فارس تقيم وتقعد ، وكان السلطان عبد الحميد قد دعا السيد جال الدين الى الاستانة وذلك في سنة ١٨٩٢ فجاءها وكانت هذه المرة الثانية لدخوله هذه العاصمة . اذ كان قد عرف الاستانة مرة قبلها في زمن السلطان عبد العزيز . هذا ولما كانت سبقت لمحرر هذه السطور معه مراسلات بواسطة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده كان أول من سألت عنهم عند سفرى الأول الى أوربا سنة ١٨٩٢ المذكورة ، هو المرحوم السيد جال الدين فقيل لي انه قصد الاستانة وأظهر لي التخوف على مصيره في الاستانة هنرى روشفور ، الكاتب الفرنسى الشهير ، الذي عرفته وهو منى بلندرة . وكان روشفور يحب السيد جال الدين ويحترمه ، وقد وصفه في كتابه « ما جريات حياتي » بقوله هكذا على أسلوبه الخاص به في الكتابة :

« السيد جال الدين الأفغاني من سلالة النبي ، والمعدود هو أيضاً أنه أشبه بنبي » ثم قال :
« انني شعرت نحو هذا الرجل بعاطفة الحب التي أجدها تربطني بكل داع الى ثورة أو
مقاوم لسلطة . »

ولما ورد السيد جال الدين الاستانة أنزله السلطان منزلاً كريماً ، في دار ضيافة خصه
بها في نشان طاش ، وأجرى عليه الأرزاك الوافرة ، وكان يدخل على السلطان ويصلي صلاة
الجمعة معه . ومضت مدة وجال الدين حظي عند أمير المؤمنين ، لا خوف عليه ولا هو يحزن
وكان الجولم يسفر بينه وبين السيد أبي الهدى الصيادي ففسأ ذلك أجل القصص بحقه الى
السلطان ، وانما كانت تلك فترة لا يعبأ بها ، اذ ماعثم الأستاذ الصيادي أن وجه عليه جلالاته
عند مولاه ، وان دفع يتهم جال الدين بالكفر والزندقة ، كما هو ديدن هؤلاء في شأن كل
من أرادوا تنقصه من الحكماء . وقد اطلعت على نشرة من جانب السيد أبي الهدى تناول
ثلاثة من أعبدائه وهم السيد فضل العلوي الحضرمي أمير ظفار ، والشيخ ظافر المدني
الطرابلسي شيخ الطريقة الشاذلية ، والسيد جال الدين الأفغاني ، وثلاثتهم كانوا من
المقربين الى السلطان ، وكان لكل منهم نصيب وافر من الشتم والوقعة في هذه النشرة ،
وحصة السيد جال الدين كانت تهمة الإلحاد وفساد الاعتقاد . ومن جملة الشواهد على ذلك
كونه قال مرة : « أنا أطوف بأشجار البندل طواف الحجيج بالكعبة » . والبندل هي
السود بالتركية وذلك أنه يوجد محل نزهة بظاهر الاستانة قد سد السلاطين العظام فيه
أودية بحيث تكونت منها بحيرات لسقيا العاصمة ، وقد أحاطت بتلك البرك غابات ملتفة
بديعة ، فغاية ما يقال ان جال الدين عبر عن نزاهة ذلك المكان بعبارة شعرية ، فاستخرج
منها أبو الهدى الحاداً وكفراً . وكان جواسيس السلطان يحصون عليه جميع حركاته
وسكناته ، ليقدموا ذلك الى السلطان . فما يروى أنه كان هو وعبد الله نديم الكاتب المصري
المشهور في منزله « الكاغد خانة » ، فصادقا الجناب الخديوي عباس حلمي ، وسلم بعضهم
على بعض ، وتحادثوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك . فيقال ان السيد أبا الهدى قدم
تقريراً للسلطان بأن جال الدين وعبد الله نديم تواعدا مع الخديوي على الاجتماع في
الكاغد خانة . وهناك عند الاجتماع بايعاه تحت الشجرة . لكن السلطان بحسب قول جال
الدين لم يحفل بهذه الوشاية . ولكن هذا الخلاف مع أبي الهدى لم يزعزع مكانة جال الدين

من السلطان ور بما زاده لديه زلني ، وانما أدى الى وحشة الخليفة منه ، استمراره في مجالسه التي كانت تنتابها الناس دائماً على القدح في شاه العجم مما جعل سفير ايران على رفع الشكوى الى السلطان ، فاستدعى السلطان اليه السيد جمال الدين وقال له : « ان سفير العجم ترجاني أن أنسلكم معك في الكف عن الوقعة في الشاه وأنا بناء على أملى فيك وعدته بأنك تكف عنه » وقد روى لي السيد رحمه الله هذه القصة عند ما رجعت من أوروبا الى الاستانة في أواخر سنة ١٨٩٢ . فقال لي هكذا بالحرف : « فقلت للسلطان ما كنت ناويا أن أترك شاه العجم حتى أنزله في قبره ، ولكن بعد أن أمر أمير المؤمنين بالكف عنه ، فلا بد من طاعته . » بمثل هذا كان المترجم يخاطب الملوك ولا يبالي عن موقع مثل هذا الكلام منهم ، مع أن أشدهم حذراً ووسواساً كان السلطان عبد الجيد ، فلا عجب ان وقع في نفسه شيء منه . ولكن إيت السيد كف بالفعل عن أذى الشاه ، اذ لم يلبث أن أعوده الغضب الذي هو العيب الذي عوذ الله به حسناته العديدة ، والذي جرّ عليه كثيراً من المصائب ، حتى قال الشيخ محمد عبده في وصفه : « وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعت الفطنة » . ففي أحد الايام قدم على جمال الدين رجل من العجم ، باني المذهب ، اسمه رضا آقا خان ، صادف أنه وجد مع جمال الدين في حبس واحد في قزوين عندما اعتقله الشاه ، فخلت بينهما صحبة أكيدة ثم تفارقا عند ما أخرج جمال الدين من الحبس ونفي الى بغداد ثم أخلى سبيل رضا آقا هذا ، ولما بلغه مجيء السيد الى الاستانة جاء يزوره فيها ، فسر به السيد كثيراً ، وكان دائماً يحادثه ويتكلمان على شقاء الأمة الايرانية بسوء ارادة سلطانها ناصر الدين . فقال رضا آقا خان يوماً انه هو حاضر أن يفدى نفسه لنخليص أمته فقال له جمال الدين : « ان كان كذلك فاذهب وافعل » فذهب رضا آقا خان ، وبعد أشهرينما ناصر الدين شاه في جامع عبد العظيم في طهران اذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة وقال له : « بدى از جمال الدين » أي خذها من يد جمال الدين ووردت الأخبار الى الاستانة وتحدث بها الناس كما لا يخفى ، فأبدى السيد جمال الدين مزيد سروره بهذا الخبر وشرع يقول : « قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت وانها أمة لم تنقطع منها الآمال ، لأن الأمة التي يقوم من أبنائها من يأخذ بثارها ويفتك بالمعاني الذي على رأسها ، لا تكون قد فقت جرائم الحياة » . وكلاماً من هذا القبيل كان يردده . ثم لما ورد عدد من مجلة « الايولستراسيون »

التصويرية الفرنسية ، وفيها صورة القاتل، رضا آقاخان مصلوباً معلقاً ، والناس ينظرون من حوله هتف : « علو في الحياة وفي المات . وقال : انظروا كيف علقوه عالياً عليهم حتى يكون ذلك رمزاً الى أنهم كلهم كانوا من دونه » . وكان الجواسيس ينقلون الى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد ، فلم يشك عبد الحميد في كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين ، وانه مازال وراء الشاه حتى « أنزله في قبره » كما قال . ومن الغريب أن الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين ، وذهب هذا الى أوروبا بلغ الشاه أن المترجم كان يسعى في تدبير مكيدة مع بعض الايرانيين ، خلّع الشاه أو لقتله ، فندم جداً على افلاته ، ويقال انه هو الذي بعث الى السلطان عبد الحميد يرجو منه استقدام جمال الدين اليه ، ووضعه تحت المراقبة أماناً من شر غوائله ، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبي الهدى . ولما ورد الاستانة أمر بالمبالغة في برّه واكرامه ، ليلهي عن عداوة شاه العجم ، فكان مع ذلك ما كان ، ولا يمنع حذر من قدر . فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضباً شديداً . وأمر بتشديد المراقبة على المترجم ومنع أي أحد من الاختلاط به الا بارادة سلطانية ، فأصبح السيد في قصره محبوساً . وكانت الحكومة الايرانية شرعت في تحقيق حادثة القتل فثبت لديها اغراء جمال الدين لرضا آقاخان بالاشتراك مع شخص فارسي آخر اسمه رضا آقاخان أيضاً ، وشخص بغدادى [اسمه الشيخ ابراهيم . فطلبت الدولة الايرانية من الباب العالي تسليمها هؤلاء الثلاثة ، فالسلطان عبد الحميد أبى تسليم جمال الدين ، ولكن الشخصين الآخرين بلغنى أنه جرى تسليمهما وقتلا في ايران بحجة اشتراكهما بالمؤامرة . ثم ان التضييق بلغ حده على المترجم حتى أرسل الى فيس مورييس مستشار سفارة انكلترة يلتمس منه ايصاله الى باخرة يخرج بها من الاستانة ، فحضر فيس مورييس اليه وتعهده له بما طلب ، واذا ذاك بلغ السلطان الخبر ، فأرسل اليه أحد حجابه يستعطف خاطره باسم الاسلام أن لا يرضى بمس كرامة الخليفة الى هذا الحد ، ولا يلتمس حماية أجنبية . فثارت في أنفه حية الاسلام ، وبعد أن كان زماً حقائبه للسفر قال لفيس مورييس انه عدل عن السفر ، ومهما كان فليكن . ولكن المراقبة عليه كانت لم تزل باقية ، وكل من أراد أن يشاهده فلا بد له من اذن خاص . وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر في حنكه مرض السرطان واشتد عليه ، فصدرت الارادة السنية باجراء عملية جراحية يتولاها قبور زاده

اسكندر باشا ، كبير جراحي القصر السلطاني ، وكان هذا مقرباً جداً الى الحضرة السلطانية ، فأجرى له العملية فلم تنجح ، ومالبت الا أياماً قلائل حتى فاضت روحه رحمه الله وعفا عنه . وهنا تقول الناس أشكالا وألواناً في قضية هذا السرطان وهذه العملية الجراحية ، لقرب عهد المرض بحادثة قتل الشاه ، وما كان معروفاً من وسواس عبد الحميد . فقيل ان العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمداً ، وقيل لم تلحق بالتطهيرات الواجبة فنا : بحيث انتهت بموت المريض . وحدثني صديق الكونت لاون أوستروورغ ، المستشرق العلامة ، مترجم كتاب الأحكام السلطانية للماوردي ، وحديثه هذا كان لي في هذه الأيام الأخيرة في لوزان (شهر يناير سنة ١٩٢٣) . أن المترجم كان صديقه فدعاه اليه بعد اجراء العملية الجراحية وقال له ، ان السلطان أبي أن يتولى العملية الا جراحه الخاص ، وانه هو رأى حاله ازدادت شدة بعد العملية ، فيرجو منه أن يرسل اليه جراحاً فرنسويًا ، مستقل الفكر ، طاهر الذمة ، لينظر في عقب العملية . فأرسل اليه الدكتور لاردى ، وهو رجل لايزال حياً واقامته بحيف من سويسرة ، فوجد ان العملية لم تجر على وجهها ، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة ، وان المريض قد أشفى بسبب ذلك ، وعاد الى أستروورغ ، وأنبأ بهذا الأمر المحزن ، وماضت أيام حتى فارق جمال الدين الحياة . وقال لي واحد من كانوا في خدمة عبد الحميد وقد رويت له هذه القصة : أن قبور زاده اسكندر باشا كان أطهر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الدناءة ، ولكن كان رجل عراقي اسمه جراح طيب أسنان يتردد كثيراً على جمال الدين ويعاين له أسنانه ، وكانت نظارة الضابطة قد استمالت جراح هذا بالدراهم وجعلته جاسوساً على المترجم ، فصار له عدواً في ثياب صديق . قال لي صاحب هذه الرواية : فأردت مرة أن أمنع جراحاً من الاختلاط بجمال الدين فأشار الى ناظر الضابطة اشارة خفية بأن أتركه ، وفهمت من الاشارة انه يذهب الى هناك ويطبب أسنان السيد بعلم من النظارة والسيد لا يعلم بشئ من ذلك ، ويستخلص جراحاً ويشق به . قال فلا أعلم ماذا فعل جراح بواسطة طبه وثقة جمال الدين به ، قصارى ما أعلم انه لم تمض عدة أشهر على حادثة الشاه ، حتى ظهر السرطان في فك السيد من الداخل ، وأجريت له عملية جراحية فلم تنجح ، وجراح هذا ملازم للمريض . وبعد موته كنا نراه دائماً حزينا ، كئيبيًا ، كاسف البال ، واجم الوجه ، خزيان ، مما جعلنا نشبهه أن يكون ذا يد في افساد الجرح بعد العملية ، أوفى

توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل ، فلما مات السيد أخذ يعذبه وجدانه على حياته هذا الرجل العظيم ، الذي كان وثق به . قال ولا أجزم بكونه هكذا فعل ، ولكنني أجزم بأنه كان جاسوساً على السيد والله من وراء العلم . وكانت وفاته رحمه الله في ٩ آذار سنة ١٨٩٧ وصلى عليه في جامع التشويقية في نشان طاش ، ودفن في مقبرة على مقربة منه .

ولى في جريدة الاهرام يومئذ مقالة بين يدي فقدته ليست في يدي الآن لمراجعة تاريخها . وكنت لماعدت من أوروبا الى الاستانة سنة ١٨٩٢ ، ذهبت اليه في نهار وصولي ، فاستقبلني برأ وترحيباً ولزمته تلك المدة الى أن اضطرت الى السفر الى وطني سورية ، ففارقتة أسفا وأنا أمني نفسي بالعودة الى الاستانة ، لمشاهدته والاستفادة منه . وسألتني مرة عما شاهدته في أوروبا وأنى؟ نتيجة استخلصتها من حال أولئك القوم ، لأنه كان فيلسوفاً تاماً لا يرى الجزئيات الامن خلال الكلّيات ، فلما أردت أن أبدى له مايعن لي في هذا الباب ، وكنت يومئذ في أول شبابي لم أجاوز الثانية والعشرين من العمر ، غلبتني مهابة حكمته وخشيت أن لا أصيب المحز ، فتحوطت لسكلامي بشيء من انكار النفس واستكبار أن يكون مثلي ممن يجوز أن يتكلم بحضرة مثله ، فأرأيتة الانهض وأمسك يدي وهتف قائلاً : « أنا أهني أرض الاسلام التي أنبتك » . فسمع الناس هذه الجملة وما زالوا يتناقلون ، وماخاله قصدتها الا الجنب بضبي الى الأمام ، وجبر مانقص من فوق المعنوية . وحكى له مرة أن احدي جرائد اميركا بحثت في موضوع اكتشاف تلك القارة ، فقالت يروي أن العرب خاضوا الاوقيانوس الاطلانتيكي ناشدين البر الذي وراءه ، وسالت هل عند مؤلفي العرب شيء من هذا الخبر ، فعربت ذلك جريدة النشرة الاسبوعية في بيروت ، وألقت السؤال نفسه على علماء العرب وكنت في باريز ، فلما اطلعت على القضية لييت ذلك النداء وراجعت في المكتبة الوطنية كتب الشريف الادريسي الجغرافي العربي الشهير ، ونقلت من كتابه نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق ، خبر الاخوة المغرورين ، الذين ركبوا سفينة من أشبونة وجعلوا فيها كل مايلزمهم من الزاد والماء ، وخاضوا بها بحر الظلمات الى الغرب حتى وصلوا بعد مسيرة شهر الى جزيرة خالية لم يجدوا بها الا الوحوش ، فركبوا البحر متجهين الى الجنوب ، وبعد نحو شهر أيضاً نزلوا بجزيرة فيها أناسى وملك يحكم عليهم ، فقفلوا من عنده متجهين شرقاً ، حتى نفدوا بعد مدة الى مرسى اسفى بالمغرب الأقصى . فلما اكملت له الرواية

وانتى حررتها جوابا على النشرة الأسبوعية ، وقد أثرتها عنها جميع الجرائد العربية ، التفت الى قائلا : « لا أريد أن أسرّ المسلمين بكلمة . هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان : كونوا بنى آدم . أجابوه : ان آباءنا قد كانوا كذا وكذا . وعاشوا فى خيال مافعل آباؤهم غير مفكرين بان ما كان عليه آباؤهم من الرفعة ، لاينفى ما هم عليه اليوم من الخول والضعفة . قال : ان الانسان اذا بنى قصرا مستوفيا جميع شروط البهاء والنيقة ، ولم يفته فيه شئ من الرفاهة والفرهة ، فهو يفكر حينئذ بأن يأتى الى قصره بالرياش الفلانى النادر من القطر الفلانى ، ويكمل زينة قصره بالآنية الفلانية التى لا يملكها الا القليلون ، وأن يجعل فى حديقة القصر هذه الزهرة البديعة وتلك الريحانة العجيبة . فأما وهو قصر متداع الى السقوط ، والجص نازل الى الأرض ، والسقوف قد هوت من كل جانب ، وهو لا يقدر على ترميمها ، فهل يخطر بباله أن يأتى لاكمال زينة قصره بهذه الآنية ، وتلك الزهرة ، وهاتيك الديباجة ، كلا ، لعمرى ان من أعوزته الضروريات ، لاجابة به الى الحكايات . قال لى : « وأنا أقول لك لماذا حققت عن قضية جد العرب لاكتشاف أميركا ، ولكننى أقول لك ان الشرقيين قد أصبحوا بهذه المثابة ، وهى كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخول الحاضر ، قالوا : أفلاترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أتم أولاء كما أتم . فلا يلى بكم أن تذكروا مفاخر آباؤكم الا أن تفعلوا فعلهم » . وكأنه ينظر بهذا الى قول القائل :
بنى كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثما فعلوا

وكان من شدة ما يجد من الام لحال الاسلام ، تخطر له خواطر نادرة فى هذا الموضوع ، فقال لى احدى المرات : « قد فسدت اخلاق المسلمين الى حد أن لا أمل بأن يصلحوا ، الا بأن ينشأوا خلقا جديداً ، وجيلا مستأنفاً ، فبذا لولم يبق منهم ، الا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم فى طريق السلامة » . وقال لى نوبة أخرى : « لم يبق فى الاسلام أخلاق ، فهذا محمود سامى (البارودى الشاعر الكبير ، رئيس النظر أثناء حرب عرابى) عاهدنى ثم نكث معى ، وهو أفضل من عرف من المسلمين » . وقال لى أيضا : « ان المسلمين قد سقطت همهم ، ونامت بحزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شئ واحد فيهم وهو شهواتهم » . وكان يندد هذا التنديد كله لما كان فيه من الوجد لاسترداد الاسلام مجده القديم ، ولما كان يراه من غفلة المسلمين عن الاخذ بأسباب

الرقى ومن السبب العميق الذى أمعنوا فيه ، على حين صاح صائح الجد بسائر الامم هيا على الفلاح . ومن قرأ مجموعة العروة الوثقى التى كانت ترجان أفكاره ، بقلم تلميذه الشيخ محمد عبده رأى انه أنبأ منذ أر بعين سنة بما سيؤول اليه حال الاسلام ، وما ستكون معه سياسة الدول المستعمرة ، مما تحقق كله فيما بعد ، حتى كأنه كان ينظر الى الحوادث المستقبلية فى مرآة . وكان فى أطوار حياته ، فيلسوفا كاملا ، عالما عاملا ، فلا يقول ما لا يفعل ولا يكتفى من الحكمة بالنظر دون العمل ، كما هو شأن كثير من العلماء الحفاظين الذين قلوبهم فى واد وألستهم فى واد . فكان يفظم نفسه عن الشهوات ، ولا يرى من اللذات الا اللذة العقلية العالية . وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه بالمال والبنين ، ويشغله بزيينة الدنيا وراوده على الزواج ، فأبى وأعرض ، وقال له : قضيت حياتى مثل الطير على الغصن ، فلا أريد فى آخر أيامى أن أتعلق بعائلة . وكنت سامراً مرة عنده وعن هذا الموضوع ، فقال له أحد الدمشقيين : يا مولاي لماذا لا تتأهلون ويكون لـكم الذرية الصالحة ؟ فلم يعجبه قوله ، ولما انصرف الرجل أقبل على السيد وقال « لم تدخل روح الفلسفة فى هذه الامة » . وليس مراده بذلك التزهيد فى الزواج ، وانما تقرير حقيقة وهى أن الفلسفة لا تبال بالنسل والذرية ، وان الفلاسفة قلوبهم فى شغل شاغل عن ذلك ، وكان ينظر الى المال نظره الى التراب فلا يدخره ، ولا يعرف معنى تسميره ، ولا يتناول منه الا ما هو ضرورى للحياة . ولما كان فى الاستانة ، كان عنده قهرمان هو الذى بيده الحساب والقبض والصرف ، أما هو فلا يدري من ذلك شيئاً ، وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية كرتبة قاضى عسكر مثلاً ، فأبى أن يقبل الرتبة ، وأن يلبس كسوتها المزركشة بالفص ، وكذلك رفض قبول الوسام مهما كان عالياً ، فسألته عن ذلك فقال : أكون كالبغل يحمل على صدره الجلاجل ؟ وبالجمل فلم يكن يؤخذ لا رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد كان راغباً عن الدنيا بخلافها عيوافاً عن زينتها معرضاً عن زخرفها كما مر بك . وأما الرهبة فلم يكن يعرف الخوف الى قلبه سبيلاً ، وفيما سردنا لك من قصصه ما فيه مقنع . وعرض حديث أجريت فيه ذكر الشيخ محمد عبده فقلت ، انه من الأفراد بمصر ، فاجابنى : « لا يوجد مثله بمصر » . وكان هذا قبل أن صار الاستاذ فى منصب افتاء الديار المصرية ، ونال تلك الشهرة العظمى .

تحرينا فى ترجمة حال هذا الحكيم الكبير ، هذه الدقائق لأنه مما لا مشاحة فيه ،

أنه هو الموقظ الأعظم للشرق ، وان طريقته ستزداد انتشاراً ، ومبادئه ستطبق في يوم من الأيام الشرق بأجمعه ، فيسأل الخلف عن أحوال حياته ، ويستقصون عن خواطره ، ويجدون في جمع آثاره ، كما نرى الاور بين اليوم يحرصون جد الحرص ، على اكتشاف أقل شيء يعزى الى عظيم من عظمائهم ، سواء من خبر أو أثر . ومن غريب ضرائب البشر أنهم لا يحرصون على آثار عظمائهم في حياتهم معشاهم ما يحرصون عليها بعد ذهابهم ، وكنت أسأل مرة مارسل كاشين ، وجان لونغه ، وجاعة من رؤساء الاشترائيين الفرنسيين ، عن جوريس نابغة السوسياليست في هذا العصر ، فبعد أن حدثوني عنه ساعة قالوا لي : « لم نكن نقدره قدره في حياته كما نقدره قدره اليوم » وأظن الحال كذلك مع رنان ، ومع فيكتور هوغو ، ومع سبنسر ، ومع بشارك وجميع الأعلام . فان أقدارهم تزداد بالوفاة ، والولع بآثارهم يتضاعف مع تقادم العهد . وهكذا شأننا مع جلال الدين ومحمد عبده ، وغيرهما من كبار المصلحين ، كلما تقادم عليهم العهد ، حرص الناس من آثارهم على اللفظة الشاردة ، والكلمة الفاردة ، ليكتبوها عنهم بماء الذهب . ولجلال الدين تاريخ للافغان ، ومقالات متفرقة كان عندي منها مجموعة ، سطا عليها لص علم ، وآخر ما نشر له ، رسالة الدهريين التي سبق ذكرها . وبالجملة فلم يكن يحفل بوفرة التصانيف ، وإنما كان مؤلف أمم ومصنف ممالك .

* * *

ومن ترجم السيد جلال الدين ، العلامة غولد سيهر المستشرق المجري المشهور ، شيخ المستشرقين في العلوم الشرعية ، وصاحب التصانيف العديدة . فقد رأينا له في دائرة المعارف الاسلامية ، المحررة باللغة الفرنسية ترجمة خاصة بالمرحوم السيد جلال الدين ، جاء فيها ما ترجمته :

« السيد محمد بن صفتر ، من أعظم رجال الاسلام في القرن التاسع عشر ، كان بحسب رأى براون فيلسوفاً ، كاتباً ، خطيباً ، صحفياً . وقبل كل شيء ، كان رجلاً سياسياً يرى فيه مريدوه وطنياً كبيراً ، وأعداؤه مهيجاً خطيراً . وقد كان له تأثير عظيم في حركات الحرية ، والمنازع الشوروية ، التي جددت في العشرات الأخيرة من هذه السنين ، في الحكومات الاسلامية وكانت حركته ترمي الى تحرير هذه الممالك من السيطرة الاوربية ، وانقاذها من الاستغلال الاجنبي ، والى ترقية شؤونها الداخلية بتأسيس ادارات حرة .

وكذلك كان يفكر في جمع هذه الحكومات بأجمعها ومن جلتها إيران الشيعية ، حول الخلافة الإسلامية . لتتمكن بذلك الاتحاد من منع التدخل الأوربي في أمورها . فجاء الدين بقلعه ولسانه ، كان أصدق ممثل لفكرة الجامعة الإسلامية . وأسرته الشريفة تنتمي الى الحسين بن علي بن أبي طالب بواسطة المحدث الشهير الترمذي ، فهو من أجل ذلك يلقب بالسيد . « ثم يقول انه بعد اكمال تحصيله بكابل ، ذهب الى الهند ، ثم حج البيت سنة ١٢٧٣ ، أو ١٨٥٧ و بعد اوبته من الحج ، دخل في خدمة دوست محمد خان أمير الأفغان ، ورافقه في حصار هرة ، ولما توفي دوست محمد خان ، دخل في خدمة محمد أعظم الذي استوزره الى أن كان سقوطه واستيلاء شير علي خان على المملكة . فرحل السيد جلال الدين الى الهند (١٨٦٩) ومنها قدم القاهرة حيث أقام أربعين يوماً ، ومنها قصد الاستانة ، فاقبل عليه وزراؤها وعلمائها ، وأجلوا قدره ، وعرفوا فضله ، وعينته الدولة عضواً بمجلس المعارف وصار يلقي بعض الدروس في أياصوفيا والسلطان أحمد ، ودعى مرة الىلقاء خطبة في دار الفنون على فوائد الصناعة ، فذكر النبوة من جملة الوظائف الاجتماعية (١) فأدى ذلك الى أن حسن افندي فهمي شيخ الاسلام رماه بالزندقة ، واضطر الى مغادرة الاستانة قاصداً مصر . فأجرت الحكومة المصرية عليه معاشاً شهرياً ١٢ ألف غرش بدون أن تكلفه إلقاء درس خاص ، وانما كان يقرأ على حلقة من الطلاب في منزله ، واجتمع حوله كثير من العطاش الى مناهل العلوم العالية الخ .

وذكر غولد سيهر سائر ما يعرف من أحواله مما حرره الشيخ محمد عبده ، في صدر رسالة الرد على الدهريين ، وما هو بمعنى ترجنتاله في هذا الكتاب ، الا أنه يقول انه لما نفي من مصر الى الهند جعلوا اقامته بحيدر آباد الدكان ، وهناك كتب رده على الدهريين ، وانه قد زعم ويلفريد سكافن بلونت وهو مما لم يذكره غيره من مترجيه ، أن جلال الدين ذهب

(١) حقيقة هذه القصة أن السيد يومئذ شبه الاجتماع الانساني بجسم أعضاءه الصناعات المختلفة ، فشبه الصنعة الفلانية باليد ، والفلانية بالرجل ، وهذه العين ، وتلك بالأذن ؛ ثم قال وأما الرأس المدبر لهذا الجسم ، فهو اما النبوة أو الحكمة ، والفرق بينهما أن النبوة وحى إلهي معصوم من الخطأ ، وان الحكمة وضع بشري قد يخطئ . وقد يصيب . وكان حسن فهمي افندي شيخ الاسلام يومئذ ، ناقداً علي الأفغاني قراراً سابقاً في مجلس المعارف ينال من رزقه ، فانتهاز فرصة هذا الخطاب ليقول ، ان الأفغاني جعل النبوة من جملة الصناعات

من الهند الى أمريكا ، وانه منها جاء الى لندن سنة ١٨٨٣ .
وذكر غولد سيهر مناقشة جال الدين مع رنان ، في أمر قابلية الاسلام للعلم ، فقال
ما يأتى بالحرف :

« وقد فتحت له أشهر الجرائد وأعظمها نفوذاً أبواب المراسلة ، فنشر فيها مقالات
ممتعة ، عظيمة القيمة على السياسة الشرقية ، التي كانت تتنازعها انكلترة والروسية ، وعلى
أحوال تركيا ومصر ، وعلى معنى حركة المهدي السوداني . وفي ذلك الوقت جرت بينه وبين
ارنست رنان ، المناظرة التي أساسها محاضرة ألقاها رنان في السوربون على الاسلام والعلم .
فجمال الدين أراد تفنيد مزاعم رنان بعدم قابلية الاسلام للتوليد العالمي ، وذلك في مقالة
بجريدة « الدبا » ترجمت أيضاً الى الألمانية . ثم بعد ذلك بقليل ، ترجمت محاضرة رنان ،
مصحوبة برد من قلم حسن افندي عاصم الخ » .

ثم ذكر غولد سيهر العروة الوثقى ، وكيف شددت الحكومة الانكليزية بمنعها من
أول عدد صدر منها من الدخول الى مصر والهند . وقال انه سنة ١٨٨٥ ، بالرغم مما اشتهر
به المترجم من عداوة انكلترة ، داخله الانكليز باشارة المستر بلونت في أمر ايجاد حل لمسألة
المهدي السوداني ، ولكن لم يقترن شيء من ذلك بالعمل . ثم زعم أن الشاه ناصر الدين
دعاه بالبرق سنة ١٨٨٦ الى حاضرة ملكه طهران ، وأكرم مشواه وبالغ في الاحتفاء به ،
ولكن خشية الرقباء جلت جال الدين على الاستئذان من الشاه والذهاب الى الروسية ،
حيث أقام مدة وصارت له علاقات كثيرة ، وان لقاءه للشاه في منيخ كان في المرة الثانية
ودعاه هذا الى الرجوع الى طهران ، وذلك سنة مجيء الشاه الى معرض باريس (١٨٨٩)
وذكر غولد سيهر أن سبب الفتنة بين جال الدين والشاه كان الصدر الأعظم ميرزا علي
أصغر خان الملقب بأمين السلطان ، نفاسة على جال الدين بالمسكانة التي أحرزها في ايران ،
وان جال الدين التجا الى مقام عبد العظيم الذي هو أشبه بحرم من دخله فهو آمن ، وأقام
به سبعة أشهر والناس تتردد عليه ، الى أن أرسل الشاه كتيبة ٥٠٠ فارس ، اخترقوا حرمة
الحرم وأخذوا السيد منه عنوة ، وساقوه مكبلاً بالحديد الى خانقين ^(١) .

ثم استولى بقية خبره ، وكيفية معاكساته لحكومة الشاه ، ثم بجيشه الى الاستانة ،
وموته فيها على الوجه الذي حررناه .

الاسلام والجنود السوداء

مقالة روجر لا بون والتعليق عليها

مكتبة

- ١ — الاسلام الاسود
- ٢ — الاسلام عند السنغاليين
- ٣ — الخلاصة
- ٤ — الجنس الاسود والاسلامية

انه مما يجدر بأن يطلع عليه الشرقيون عامة والمسلمون خاصة ، ما يصدر في أوروبا في
الأحواطم وشؤونهم بلون مخيلات الكتاب الذين حرروها ، الناطقة عن هوى الأحزاب التي
ينتمى هؤلاء الكتاب اليها ، بحيث يعرف منها الشرق أو المسلم أو المستضعف المغلوب على
أمره كائناً من كان ، ماذا يطبخ له في الخفاء ، وماذا يدس بحقه تحت الستار ، وماذا يدبر
عليه بدون علمه مما لا يطلع عليه الا في الندرى ، وما هو رام الى ادامة استغلاله ، والاحتياط
من وراء اساره ، وتأمين رسفانه الأبدى في سلاسل العبودية . فمن هذا القبيل وما نورد
مثالا ، مقالة مشبعة ظهرت مؤخراً في مجلة من أشهر المجلات الفرنسية هي مجلة باريز
Revue de Paris في عدد أول ابريل سنة ١٩٢٣ ، لكاتب فرنساوى اسمه روجر لا بون^(١)
Roger Labonne عنوانها « الاسلام والجنود السوداء » كشف فيها النقاب عن جميع
ما ينوى بعضهم في حق المسلمين الذين تحت نير الافرنجة عامة ونير الفرنسي خاصة ، وتوخى
عدم حصر ذلك في الميدان السياسى والادارى ، بل تجاوزه الى الميدان الدينى والاجتماعى ،
مما لا يجوز التهاون به ولا الاغضاء عنه ولولأجل العلم به على الأقل . وقد جرت عادة
المضللين والمحاكين ومخدرى الأعصاب من الاوربيين ، عندما يتحدثهم انسان بشأن مقالة

(١) راجع الصفحة ٣٠٦ من هذا الجزء .

كهذه أو مصنف من بابها ، أن يكون جوابهم أبداً بأن هذه هي آراء أفراد ، لا يؤبه لها ولا يلتفت إليها ، وليست الحكومات المستعمرة لتقيم لها وزناً ، وكلمات كلها من هذا النمط ، فليحذر الشرقيون وجميع المسلمين من قبول هذه الأقاويل ، والاسترسال الى هذه التمويهات ، لئلا يندبوا عاقبة سذاجتهم وحسن ظنهم . ان المبادئ والآراء التي في المقالة الآتية تعريبها ، وفي مئات بل في ألوف من أمثالها الصادرة تباعاً في العالم الأوربي هي عقيدة حزب كبير جداً في أوروبا ، بل يمكننا أن نقول هي عقيدة السواد الأعظم من أهالي الممالك الاستعمارية ، لا يخرج عن هذه العقيدة سوى الأحزاب الاشتراكية ، والشيوعية ، وغلاة الراديكال ، ومن ند لعله من العلل من جمهور الأحزاب الأخرى المتوسطة والتميامنة ومن يليها ، وذلك كعالم كبير طاهر الوجدان ، أو فيلسوف عامل واسع الفكر صادق الانسانية ، أو سياسى محنك راجح العقل يغلب ادراكه هواه ، ويعلم ما في هذه الأفكار من التهور وما يترتب عليها من الاخطار ، وما يكون لاجرائها بالفعل من سوء العاقبة . وما عدا من ذكرناهم ، فالغالب من القوم هو على هذه العقيدة فلا ينبغي أن نخادع أنفسنا ، وأن تتغابي عن الحقيقة لذة بالتغابي كمن يكتم مرضه ، فانه اذا كان قبيحاً بالمرء أن يغش غيره ، فأقبح منه أن يغش نفسه . فن الأمور التي لا يجوز أن تغش أنفسنا بها ، الذهاب الى كون هذه المبادئ الضارة بالشرق وبالعالم الاسلامي هي مبادئ الفئة القليلة ، وأن تلك الحكومات غير ماشية بموجبها . والحقيقة أن ليس هناك الا الفرق بين عدو عاقل يمنعه عقله ، وتر بأبه رويته ، عن المجاهرة بمكنون فكره ، واقلاق خواطر الأمم المستضعفة بصراحة نيته ، وعدو متهور غلبت عليه حرارة صدره وشدة طمعه ، حتى باح بكل ما ينويه لتأييد عبودية تلك الأمم المقهورة ، لا سيما المسلمين ، الذين يرونهم أشد خطراً من الجميع بما ينفث القرآن في روعهم ، من روح العزة وتهوين الموت ابتغاء الحياة الكريمة . وهذا القسم الثاني هو نظير روجر لابون هذا الذي نأتيك بمقاله معرباً بالحرف قال :

— ١ —

لمحة على حالة الاسلام الحاضرة

« نجد الناس في فرنسا ينظرون بدون قلق ، الى القلاقل وإلى حركات العصيان

البادية في العالم الاسلامي . بل ربما ينظرون اليها مع شيء من الشبهة أو السخرية ببعض جيراننا ، الذين لا يوصفون بخلاص النية ، ولا يكرهون أن تشتد وتمتد عندهم هذه الحركات ، ويعتقدون أن مجرد التزلف الى الشعوب الاسلامية ، وادعاء المحافظة على حقوقهم ، هما مما يزحزح عنا نحن هذا الخطر الذي يتهدد غيرنا . ثم انهم لا يريدون أن يسمعوا كلام المتشائمين ، الذين تهجس في صدورهم علاقات الاناضول مع التونسيين والجزائريين . والمراكشيين ، والدسائس الجارية على الحدود الشرقية من سلطنتنا الافريقية . بل يقابلون مخاوفهم هذه بتصريحات الاتراك ، الداعية الى الركون والطمأنينة . ويعتمدون على الفشل الذي لقيه اعلان تركيا الجهاد في الحرب العامة بمعاونة المانية . ثم يسليهم الفرح ، الذي يديده لنا المسامون من جراء خطتنا الحاضرة ، وينخدعون بكل سهولة بظاهر الشرقي ، الذي من شأنه كتمان سريره تحت ستار الادب الغض ، والكياسة الزائفة . وينسون أن الاسلام المبني على قاعدة الخضوع للقوة الغالبة ، تصلح له الصراحة وسياسة الحزم ، اكثر من سياسة التودد والمراعاة عن حقوقه .

نعم ان السكون الذي نرى رواقه الآن ممتداً على ممالكنا الاسلامية ، قد يصبو الخطة المتبعة عندنا ، لانه على ضد ما هي الحالة في الريف الاسبانيولي ، وبرقة الايطالية ، ومصر الانكليزية . ولكن النار توشك أن تصل الينا ان كنا لا نريد أن نلتفت جهة الشرق الذي منه انبعثت الحرب ، والذي حوادثه الحاضرة ليست الا مقدمات لما هو أعم وأطم .

سنة ١٨٩٧ أثبت كوپولاني ودپونت Coppelani et Depont في كتابهما على الطرق الدينية الاسلامية ما كان من التأثير لاتتصار الترك في تساليا ، فقالا ان الامم الاسلامية كلها مادت طربا لبشائر النصر الذي أحرزه أبناء ملتهم . ولكن هذا الغليان لم يكن يومئذ ذابال . لان اوربا كانت يومئذ قوية ثابتة متحدة ، وكان المارد الروسي ملقيا بكلكله الثقيل على جميع العالم الشرق والاسلامي ، فلم يكن ليجراً أحد من المسلمين على أقل حركة بالرغم من دسائس عبد الحميد ، ومن مظاهرات غليوم الثاني الولاية للاسلام في الارض المقدسة . أما الآن فقد تغير كل هذا ، فان أوربا قد ضعفت ، وجرأة المقلقين قد تضاعفت ، والحركة القومية تعمل عملها في الشعوب ، وموسكو بدلا من أن تكون هي ذات اليد الضاغطة على المسلمين اذا هي التي تعضد هذه الحركة وتظاهر أصحابها على التملص من النير الاجنبي .

ان الاهتمام الذى يراقب به العالم الاسلامى حركات الثائرين من مسلمى آسية ، لاجل التخلص من ربة الغرب ، هو ارهاص لا يجوز الاستخفاف به . فان فوز شعب اسلامى على حكومة اوربية لا يخلو أبداً من رد فعل يمتد الى أقصى البلدان عن مرزح المعركة ، فلو رأيت جرائد الاستانة أيام انكسار الاسبانيول فى الريف كيف كانت تهلل وتكبر ، وتشر فى صفحاتها الاولى بشائر نصر المراكشين المسلمين ، وخرائط ميادين الحرب ، لقضيت العجت ، وانك لترى أقل اضطراب يقع فى برقه أو تونس أو سورية أو الهند مبالغا فيه أشد المبالغة فى الصحف التركية .

مع ذلك سياسة محاسنة الاسلام لا تزال ماشية ، على ما فيها من تضليل الافهام . ونبذ النصائح المبنية على التجارب ، ولا يبرح بعضهم معتقدين أن لا خطر من هذه السياسة ، وان كان ثمة من خطر فيكون على جيراننا فقط . ولقد اشتدت مجارى الحب والبغض بعد الحرب ، الى حد أن أصبح الانسان يرى الصواب فى عدم اقتحام غمرتها ، وبدلاً من أن يبين الخطأ الفظيع الذى دلّ عليه الاختبار الطويل ، تجده يجترئ بالتعديل الخفيف ، منتظراً أن تأتى الحوادث بما يبرّد حرارة تلك الاهواء .

واننا فى هذه الدسائس التى يوشك أن يصل اليها أذاها ، نحس بتأثير برلين ، فهناك النادى الشرقى المؤسس سنة ١٩٢٠ ، تحت حاية مجلس برلين البلدى والجنرال لودندورف ، يصدر جريدة لواء الاسلام بالعربى والتركى والفارسى ، التى الغاية منها بث الدعوة ، وتفسير حوادث اوربا وآسية بالشكل المناسب . ويضاف الى هذه العوامل الناشئة عن حالة الحرب ، عوامل أخرى للهيجان ، هى غير واردة تواء ، بل هى من فطرة الاسلام نفسه . فقد تكرر مراراً ان ديانة النبى تحتم على أتباعها الاستسلام للقوة ، وأنها تجعل القوة خاصة الهية تجب طاعتها ولو كان صاحبها كافراً ، فالقوة من الله ومن ذا الذى يقدر أن يناهض قوة الله .

وان هذا المشرب المخالف لديدن الاوربيين ، الذين يندفعون بعامل العاطفة ، هو السبب الوحيد فيما نجده من انقياد أشد الأمم الاسلامية للفتح الاجنبى . واكثر ما يحدث من

الاغلاط في سياسة هذه الأمم ناشئ عن الجهل بهذه الحقيقة ،^(١) فالاسلام لا يخضع بفطرته
 الا لسلطة القاهرة . والسلطة والعلاء عنده توأمان . وعند ما كانت أوروبا متحدة وكان
 هناك ما يسمونه بالمجتمع الدولي ، كانت مكانة أوروبا فوق أن تنازع ، وكانت الشعوب
 الاسلامية واحداً بعد واحد تلقى السلاح ، ولم يكن ثمة منها الا بعض حركات عارضة ،
 وثورات منحصرة ، فكانت قوة التأثير ، من مهدى وزعيم لا تنبسط ولا على جميع
 القبائل المجاورة . ولما جاءت الحرب الكبرى ، كنت ترى بنجابي لاهور ، وهنود البنغال ،
 وكافنبور ، ومصري وادي النيل ، والاعراب ، والبرابر ، والمراكشيين ، والبابامبار^(٢)
 يتجندون تحت رايات دول الحلفاء ، وان مليوناً ونصف مليون مقاتل من المسلمين ، قاتلوا
 بمزيد السالة عساكر خليفة استانبول وقيصربرين . وهذا النفوذ التركي الذي يعدونه
 الآن عنصراً ضرورياً للنظام والسكون في العالم الاسلامي ، لم نجد له أدنى دور يذكر في
 الحرب العامة ، ولا استجلب للألمان أدنى حليف من المسلمين ، ولا أحدث أدنى مشاققة
 للحلفاء . بل تبارى المشايخ في مرا كس والمغرب ، على نشر الفتاوى المضادة لآبناء ملتهم
 من الأتراك . فلما أمضيت متاركة مودروس ، ووقف جيش الحلفاء الظافر عند الدانوب ،
 وجيش الانكليز عند الفرات . كانت ديار آل عثمان تموج بالعساكر الاسلامية المقاتلة
 تحت ألوية الحلفاء ، وفتوى شيخ الاسلام ودعوة الجون ترك لم يسمعهما أحد . وكان
 الشرق كله يتوقع أحكام أوروبا التي أبطأ صدورها ، وكان موطناً نفسه على الطاعة ، لكن
 لم يطل الأمر حتى انصرفت الجيوش ، وظهر الضعف والتردد في عزائم الحلفاء . فعادت
 الحركة الى الشرق وعاشت آمال أهله ، وعرفت ذلك احدى جرائد انقرة بقولها : « ان
 أوروبا حل بها الوهن بسبب التنازع ، ويد الله أخذت على أيدي الصليبيين الغالبين ، ينبا
 كانوا على وشك اغراق المؤمنين بسيلهم » فنشط الاسلام ، ونزعت تركيا ومصر والعراق
 وأفغانستان والهند الى الثورة ، وعجل في ذلك التحالف مع البولشفيك ، وشعرت الدول
 الغربية على أثر الخسائر التي أولدها الحرب بخور القوى ، وبالحاجة الى مداخلتها التأثيرين
 في أمر الصلح ، وجنح الجميع الى الهوادة . فانكثرت مالت الى الرفق بأفغانستان وفارس

(١) أي كون الاسلام عبداً للقوة

(٢) جبل من أوائل بلاد السودان ينزلون بين صحراء افريقية من الشمال وأعلى السنغال من الجنوب

والعراق . وفرنسا أبدت التساهل في كيليكي . وإيطالية سلكت مسلك التؤدة في طرابلس الغرب والبنية . فسكنت الأمور وهدأت الأحوال ، ولكن سقط جاه أوربا في نظر الاسلام وتشجع الثائرون . ورأيت هذه الثورات بأجمعها مطبوعة على غرار واحد ، فانه يوجد على رأسها دائماً بعض مفكرين ، ينحون بزعمهم المناحي الغربية ، آخذين ببعض معلومات قرأوها ، وأسأت هضمها عقولهم مع قلة الخبر وشدة الكبر ، ثم من تحتهم أمة جاهلة ليست على سوية واحدة ، ذات أخلاق حسنة ، لكنها لا تحسن شيئاً غير اظهار احتياجها الى النظام والسلام . على أن لها من يثير ثأر عصبيتها ، من المشايخ والمرابطين المستولين على العقول والافتدة .

وفي مصر ازداد عدد المتعلمين من أطباء ومحامين ومهندسين وصحفيين ، ممن يريد تحرير بلاده ، وينتظر أن يحل محل الانكليز الموظفين ، فتخرج بذلك مركز انكلترا . وبما لا شك فيه ، أن مبادئ الوطنيين جديدة بالاحترام ، لكننا نراهم لا يريدون أن يعترفوا بفضل الاحتلال الانكليزي ونجدهم متمسكين بكلمات فارغة غير متوقفين عن انتقاد الأحوال الضرورية التي هي بنات التجربة ، ولا متجنبيين أخطار التعصب وعداوة الاجانب ، بل مجتهدين في تلقين مبادئهم هذه ذلك الفلاح الذي أثرى ببيع قطنه ، ودائبين في اثارته ، على ادارة ذاق بها طعم الراحة والسعادة .

هذا هو تاريخ الحركة المصرية ، وهذا ما يمكن أن يكون غداً سير حركة الاستقلال في بلدان تهمنا أكثر من مصر . فان المسئلة الوطنية القومية قد بدأت تنمو وتتقوى عند جميع شعوب الشرق ، لا سيما العرب . ومن العيب أن تتجاهل ذلك ، ونحن الآن بعد مضي مائة سنة على فتحنا افريقية ، أخذنا ندرك الخطأ الذي ركبناه ، في طريقة ضمنت لنا الفتح الحربي والفوز السياسي ، لكنها أهملت الفتح المعنوي الذي كنا نراه من القسم المستحيل . ومن اهمال هذا الفتح المعنوي ، تأتى المتاعب كلما اشتد الهيجان في العالم الاسلامي . ففي الجزائر بالرغم من الصداقة والأمانة اللتين أظهرهما الجيش الوطني أثناء الحرب كانت نتيجة انتخابات ١٩١٩ مما يوجب قلق الفكر فان السمتاة ألف وطني ، الذين آتيناهم حق الانتخاب بموجب أمر ٤ شباط ، رشحوا بأجمعهم كل من عرف ببغض فرنسا ، وكان

من جماعة الأمير خالد^(١) وكذلك الشبان ، الذين حصلوا العلم في مدارسنا وتلقوا تربية أوربية ، كانوا أشد الناس مناهضة لقضية تجنيد الوطنيين . فاما العامة ، فهي باقية بعيدة عنا جداً من الجهة المعنوية ، ومنذ خفق العلم الفرنسي فوق مرسى الجزائر ، تكون بين هذه الأمة وثام لم تعرفه من قبل .

لقد عظمت الأغلاط التي ارتكبها ولاة الأمور الذين تساموا مقاليد الجزائر ، بالغائم العمل بعادات البربر وعرفهم القديم ، وحلهم طراً على شريعة القرآن . ومن المسموع ، أنه كان في ذلك الوقت ٨٠٠ ألف بربري غير مسلمين ولا مستعربين . فالولة من الفرنسيين مراعاة للشرط الذي وقع عند تسليم الجزائر ، من عدم مس الشعائر الاسلامية ، تجنبوا الى حد المبالغة ، الاخلال بكل ما يخالف هذا الشرط ، وظنوا أنه صار من واجباتهم حل البربر على أحكام مخالفة لعاداتهم وعرفهم . وبدلاً من أن يجعلوا هذه العادات القديمة الباقية للبربر من عهد الرومان قوانين مرعية نافذة ، عدلوا بهم عنها الى أحكام الشرع التي بأيدي القضاة والمرابطين ، وهكذا أوجدوا وحدة دينية قومية ، عجز فاتحوشمالى افريقية^(٢) منذ ١٢ قرناً عن ايجادها . ولقد دخلت الاهواء والعواطف في هذه المسئلة ، فلم يبدأ احتسكا كنا بالاسلام ، حتى جعل الاسلام يستفيد من أصحاب العقول الشاذة عندنا ، ومن دعاة البع والأمور الغريبة ، الذين أخذ بعقولهم ما في حياة اتباع محمد من الكرامة والرصانة ، وما في الصلاة فوق ردام الرمل ، من السذاجة المقرونة بزعمهم بالوقار والهيبة . وكانوا يستحلون تلك الحركات البسيطة الجلييلة ، التي تزيدها جلالاً وجلالاً في نظرهم ، هيئة برانس المسلمين أثناء صلاتهم . نعم اشتغل هؤلاء المفتونون بحب العرب بالأمور الصورية عن الأمور المعنوية ، وتناسوا حالة العربي النفسية ، وما عنده من الكراهة لكل مخلوق غير مسلم ، وما هناك من عقيدة القضاء والقدر التي هي عقيدة الجود ، والتي لا تمتاز مع الاحتياجات العصرية .

ان هؤلاء المفتونين بالاسلام ، الذين يمرون بأقطاره سراعاً ، يذكرون دين الرسول

(١) ابن الأمير الهاشمي ابن الامير عبد القادر

(٢) الفاتحون المسلمون

بمزید الاطراء^(١) وسنة ١٨٣٨ نهت جريدة « الدبا » عن تنصير المسلمين بحجة أن ذلك يفقدهم صبغتهم المحلية ، وأن ذلك مخالف للمصلحة . وفي أيامنا هذه كاتب شهر^(٢) يلوم على تنصير البنات المسلمات في سان لويس (في السنغال) ، بحجة أن الراهبات يغيرن لهن ملابسهن الوطنية التي هي أليق بهن . فأحكام كهذه مستعجلة ، لا تزال تقوى عاطفة الميل عند الأمة الفرنسية الى المسلمين ، الذين منهم عدد عظيم في تبعية فرنسا ، وتحول دون رؤية عيوب الدين الاسلامي ، المستورة بظواهره الشعرية ، فلفظة اسلام ومغرب وحجاز وما أشبه ذلك ، كادت تكون ألفاظاً صوفية تأخذ بلب بعض الناس .

على أننا لا نكون هجمناً على الاسلام ، ولا تعرضنا لهذه الشعوب الاسلامية في عقائدها المحترمة اذا كنا ننبه الناس الى أخطار ديانة ، من جملة برنامجها الحرب المقدسة ، وعداوة غير المسلم ، والتوحيد بين الشرع الديني والقانون المدني ، مما يجعل الامتزاج صعباً . وناهيك أن الشرع الاسلامي بمنع الزواج بين المستعمرين الأوربيين والنساء المسلمات ، قد وقف سداً دون كل اختلاط بين الفريقين ، مع أن الجنس اللاتيني هو غير الجنس الانكلوساكسوني ، فان الجنس الصاكسوني حينما حل بأمريكا وزيلانده الجديدة واسترالياه لاشئ العنصر الأصلي هناك ، أما اللاتيني فهو يهوى الامتزاج مع العناصر التي يجدها أمامه ، فجيوش تراجانوس اللاتيني امتزجت بأقوام الدانوب وتكونت منها أهالي رومانيا الحاضرة ، وأما بربر شمالى افريقية الذين هم ذوو قرابي مع اللاتين ، فلم يكن بينهم وبين هؤلاء امتزاج أصلاً ، بل تجد الفروق تتسع يوماً فيوماً بين الفريقين . كذلك ترى التقدم بطيئاً جداً ، في الأئمة الاسلامية التي في شرق أوروبا وآسية ، لأن فقد حرية البحث يقضى على روح الانتقاد ، ويعزز عقيدة الاستسلام والرضى بأى شئ كان . لانكون أهنا الدين الاسلامي اذا بينا حالة التأخر التي عليها الأئمة التي دانت به ، لاسيما اذا تركت وشأنها . فان الاسلام يعارض التقدم العصري بحواجز قوانينه المدنية والدينية ، وحصون شرائعه الاجتماعية ، وما هناك من الأوامر والنواهي . فلو كان بربر افريقية يتبعون غير

(١) وذكر الكاتب هنا اسم رجل من هذا النفر اسمه دوكاستري De Casteries له مؤلف

في الاسلام

(٢) ذكر اسمه وهو المسيو آدم P. Adam ؛ في كتاب اسمه قرطاجنة Cartage

دين الاسلام لكان مركزنا هناك أقوى مما هو اليوم ، واذا قررنا هذه الحقيقة فلا يكون مرادنا منها الاقتداء برومة في حملها الأمم المغلوبة على قبول ديانة الفاتحين .

ان تلك الآراء الفاسدة المتعلقة بالاسلام ، هي عبارة عن استنتاجات غير صحيحة ، من مقدمات واهية صارت عند البعض حقائق كلية . ومن جملة هذه النتائج الباطلة ، كون المسلم لا يصبأ عن دينه . فهذه الفكرة مع خشية دوران التعصب مما هو وهم بحث ، حل رجال الحكومة الفرنسية في الجزائر منذ بداية فتح فرنسا لهذا القطر ، على معارضة مساعي جمعيات التبشير الفرنسية ، الرامية الى تنصير المسلمين . حتى انهم كانوا يجعلون حراساً على أبواب الكنائس لمنع المسلمين من غشيانها . وكان قسيس عربي من سورية دخل الجزائر وصار له نفاذ عظيم بين أبناء جلده (١) فطرده السلطة الفرنسية من هناك . وبالجملة فقد جلاوا الأهالي على الخضوع لأحكام القضاة القرآنية ، وتوقف بذلك سير حركة التنصير ، التي كانت قد بدأت بين البربر غير المتدينين . ثم لقيت مجاهد الراعي جالابرت (Le Pasteur Galabert) في مدينتي القصور وبجاية ، ومساعي الكردينال لافيجري في افريقية لأجل التقريب بين الوطنيين والأمة الفاتحة حنراً شديداً وأصبحت تلك المشروعات على شفا السقوط ، ولم يفهم بعضهم فوائدها ولاغاياتها الانسانية ، بل كانوا من شدة خوفهم أن تكون حركة دينية ، يضعون العرافيل في وجه هؤلاء المبشرين ويطعنون في المتنصرين ، ويصمونهم بجميع عيوب قومهم ، مضافة اليها عيوب الأئمة التي دخلوا في دينها فرعموا أن الرجال من المتنصرين هم من طبقة السكيرين المدمنين ، وأن النساء المتنصرات هن من الغانيات المتهسكات ، وغاب عنهم ان الهيئة الاجتماعية الاسلامية مع ما هي عليه من شدة التستر ، فيها عيوبها ، وأن عيوب المتنصرين ، كان تحفّ جداً لوكثر سوادهم وصاروا جماعات . بعد أن مضى قرن على فتح فرنسا للجزائر ، تضاعف عدد الوطنيين فيها واضمحلت العداوة التي كانت بين العرب والبربر . وترانا لا نقدر أن نعتمد على أقلية غير مسالمة كما يعتمد الانكليز على القبط بمصر . ولهذا مثيل في مستعمرات هولانده ، التي صار فيها مركز هذه الدولة حرجاً ، فقد كان مسلمو الجاوى وبورنيو وسومطره لأول فتح هولانده تلك الجزائر ، خمسة ملايين ، فصاروا اليوم ٣٠ مليوناً ، ولم يكن للاسلام ثمة باديء ذي بدء الا

تبع قليل ، فصار الاسلام في هذا الزمان سيد تلك البلاد . وتجد المسلمين هناك تحت ادارة فئة قليلة مستنيرة من ذوى الاطماع ، متحفزين لرفس وصاية هولانده الأبوية . فأما أرخبيل الفيلبين الذى أهله تنصروا لعهد الاسبانيول ، فان مطالبهم الاستقلالية بادية بشكل معقول بخلاف بلاد الاسلام التى تلاقى حركة الرقى فيها ، روح الفوضى والاختلاط التى هى من خاصيات الجماعات الاسلامية اذا تركت وشأنها . ان شبان الاسلام فى آسية الغربية ، يريدون أن يشبهوا قابليتهم للترقى بقابلية اليابان ، ويدعون أنهم يقدرون على ما قدر عليه اليابان فى الأمور الاجتماعية والاقتصادية ، وينسون أن اليابان لم تكن لترقى هذا الرقى العجيب لو بقيت مقيدة بأثقال العقائد القدرية ، ويغفلون عن أن التجدد السياسى لابد أن يسبقه التجدد الاجتماعى .

ماعداء مدة قصيرة للأمويين فى اسبانية وللعباسيين فى بغداد ، لم يوفق الاسلام فى وقت من الأوقات الى تأسيس مدينة خاصة به ، بل جميع أجيال أمة محمد لم تلاحق بمجهودا يأذن لها بتوليد عقول كبيرة . بل ان الخصائص التى اشتهرت بها هى خصائص التدمير ، سواء للمدنات التى وجدت أمامها ، أو التى حصلت فى داخلها . ومادام السيف فى يد الاسلام كان الاسلام قادراً أن يجرى أحكامه ، فلما قضت الأيام بأن تصحب قوة السيف قوة أخرى هى قوة العلم ، سقط الاسلام . واليوم لأجل أن يزحزح نير الغرب عن عنقه ، نراه يدرك قيمة العلم ويقدر قدر الثقافة الأوربية ، ولكن أكثر ما يريد أن يأخذ من أوربا هو صناعة السلاح . ثم اذعلم أن صناعة الأدوات الحربية لاتكفى ، عاد يطلب الاسلحة المعنوية فصارت المطبوعات للمسلم سيفاً ذا طبع آخر يستله فوق رؤوس غير المؤمنين . وتجد الجرائد الاسلامية تتكاثر بمصر ، وتركيا ، والهند ، والجاوى ، والمستعمرات الانكليزية والفرنسوية وكذلك جرائد أخرى تصدر فى الولايات المتحدة ، والبرازيل ، والارجنتين ، عربية سورية وأرناؤوطية . وفى برلين يظهر لواء الاسلام ، وفى باريز ولندن ورومة تصدر جرائد اسلامية جديدة أيضاً ، تبحث فى الشؤون الاسلامية . ومنازع هذه الصحف تختلف باختلاف المراكز التى تصدر فيها ، جرائد الشرق وجرائد أميركا وبرلين تمتاز بشدة اللهجة وقرط العداء ، وأما جرائد العواصم الأخرى فزيتها ، لطف اللهجة وبراعة الطلب والكلام المعقول ، ولكن الهدف واحد ولو تنوعت الأساليب ، وهذا الهدف هو تقوية روح

التكافل بين الأمم الاسلامية ، ونشر الاسلام وتحرير أبنائه وزرع بذور الشقاق بين الدول الغربية لأجل تيسير فوز المشرق .»

— ٢ —

الاسلام الأسود

قال بينغر Binger : ان درجة حرارة المسلم الأسود هي على قدر ظاهر لونه ، فالعصبية الدينية العميقة التي تجدها عند المغاربة والأقوام السامية الأصل ، الساكنة في جهات نهر النيجر وبحيرة تشاد ، لا تجدها عند المسلمين من أبناء اللون الأسود ، مثل البامبارة Bambara والسيره Serès والبورو Boros ، الذين عندهم تساهل عجيب في ممارسة شعائر دينهم . وماعدا حركات محدودة من آثار دعوة المراتبين ، ومن اجتهادات الحاج عمر واجد وبين السنغاليين والفولبي Fulbés ، والسونينكة Soninké ، الذين فيهم شيء من الدم البربري ، لم تصادف في افريقية السوداء حرباً دينية ، ولا مقاومة أصلها عقيدة القضاء والقدر .

وان عقيدة السنة والجماعة في افريقية الغربية ، مختلطة عند الأهالي مع عاداتهم القديمة ، ومع الأوضاع الفتيشية كالطاسم والرقى . وقد أورد بينغر مثلاً على ضعف حرارة المسلم الأسود قضية ساموري ، الذي بالرغم من كونه مسلماً ديناً ، أكل بدون نحر من لحم ثور ذبحه العسكر السنغالي ، على شكل يخالف الأوامر القرآنية ، فمثل هذه المخالفة تعد أثماً كبيراً عند مسلمي الشمال . ثم ذكر بينغر مثلاً آخر وهو أنه كان أسود مسيحي يظهر الاسلام أحياناً ليستفيد من الرخص المعطاة للمسلمين في عيد المواد النبوي أو العيد الكبير .

فهذا الفتور في تمسك الزنجي بديانة يتمسك بها بأقصى الشدة ، الساميون والتورانيون ، يعنده بعضهم دليلاً على انحطاط عقل الزنجي وفقد قوة التمييز عنده ، والصحيح هو غير ذلك . بل الزنجي رجل حليم ، واسع المشرب ، سهل القياد ، قريب المأخذ ، مع حسن صادق ومنزع عملي ، وميل الى الخير يجدر بآبناء ملته من البيض والصفير أن يقتدوا فيه به . وهو يمتاز بعدم التشدد في اقامة شعائر دينه ، وبالتساهل مع أبناء الأديان

الأخرى . وفطرته السليمة تمنعه أن ينظر الى الأبيض نظره الى رجل ذاهب الى النار ، بل هو يرى الأوربي من الرقي والتفوق ، بحيث لا يصدق أبداً ان مثل هذا الأبيض يمكنه أن يخطئ . ولاشك في انه بحسب ميله للانقياد والانطباع لو صار به قليل عناء ، لكان يتقبل دين سيده الأبيض ، الفاتح لبلاده ، بشرط أن هذا الفاتح يدعو له ذلك (!) وان كنت تراه يدين بالاسلام فهذا لظنه أنه ينال بذلك رفعة ، مع أنه أولى به أن يتنصر اذ الأوربي عنده أعلى من المسلم ، ومهما كان يرى من عزة المسلم ، فهو يعلم أنها ليست شيئاً بالقياس الى عزة أوربا .

وعليه فينبغي أن نعلم أن اسلام السودان هو سطحى قائم بصور ظاهرة فقط ، ولأجل تعليل هذه القضية التي لا توجد الأثمة ، زعموا وجود علل أخرى غير ذهنية الزنجي نفسه ، فذكروا تأثير الاقليم والعادات والبيئات ، وقالوا ان البلاد الشمالية من الكرة هي غير مساعدة على انتشار الاسلام ، لأن طول النهار المفرط وقصر النهار المفرط يحدثان اختلاطاً عظيماً بعلم الميقات القرآني ، فصلاة الظهر وصلاة العصر تختلطان مع صلاة المغرب وصلاة العشاء هناك ، فيتطرق الشك الى قلب المؤمن . ففي أواسط افريقية الحالة أيضاً هي مشابهة لتلك الحالة ، فالأنهار والشجر الكبار التي يعد بها القرآن المؤمنين ، هي في هذه الأصقاع من الكثرة بحيث يصبح هذا الثواب لقيمة له . فالاسلام لأجل نجاح دعوته محتاج الى صحارى واسعة تتجلى بها عظمة الله تعالى كصحارى آسية الوسطى ، أما في خط الاستواء فالاسلام مركزه قلق ، لأنه ينحصر ثمة في الآفاق الضيقة بين الغابات الملتفة ، حيث يصعب على المؤمنين معرفة القبلة ، فيعدلون عن شعائر الدين . على أنه مهما فرضنا كون شعائر الاسلام سليمة في الظاهر نتساءل ، هل يوجد لنا مصلحة في تمكينه يمتد وينتشر بين هذه الأقوام ، لابل في أن نعترف به ديناً رسمياً لمن دان به منهم . سيحصل لعمري في غربى افريقية ما قد حصل في الجزائر ، ويمتد الاسلام وينتشر بسببنا (!) وتحت حماية أسلحتنا عند أقوام أشداء لم يزالوا منذ قرون يرفضون الاسلام ، الذي يأتيهم به تجار الرقيق من العرب ويحبطون فتوحاتهم الدينية والعسكرية . ونحن كلما أوغلنا في تلك الديار ازداد الاسلام بسطة .. وقد أرادوا تأويل ذلك بأسباب عديدة منها ، كون العربية لسان الرسول القرشي هي لسان التجار الجائلين بتلك الأقطار ، ومنها أن مبادئ الاسلام تطابق عقيدة

الاستسلام للقدر التي عليها الزنجي ، ومنها أن هذا يميل الى بساطة الاعتقاد وتجذبه سذاجة الشعائر ، وقالوا ان ممارسة هذه الشعائر ، سهلة طبيعية ، ثم هناك لذات النعيم التي يحبها هؤلاء الهمج عامل آخر ، ومعلوم انه لأجل أن يكتب المرء مع السعداء يكفيه لفظ كلمة لاله الا الله ، فانه بها يصير مسلماً بدون أن يشعر . وعززوا هذه الأقوال بأن عقائد الأوربيين تنافي البساطة ، وان شعائرها صعبة ، وان آدابهم كثيرة التجريد ، وفيها تحريج كثير على اللذات الحسية ومنع لتعدد الأزواج ، وبالجملة فقالوا ان الاسلام وجد ديناً موافقاً للزنجي كما وجد موافقاً للعربي ، ومن العبث الاجتهاد في وضع دين آخر محله في تلك الأصقاع . فهذه الظنون التي صارت قضايا مسلمة لم توضع موضع الحك والنقد ، ولو محصت لثبت أن ليس بصحيح كون الاسلام هو العقيدة التي تلائم الأسود الخالص أكثر من سواها ، فان أقلية مهمة من السنيغاليين قد أمكن تنصيرها . وبلاد الأوغانده صار أهلها كلهم نصارى . أما كون العرب والبربر يأبون كل دين غير الاسلام ، فلنا من القبط والحبشة مثال كاف لاثبات كون الاسلام ليس ذا تأثير عليهم الى ذلك الحد .

فثلاثة أرباع الحبشة وهم جنس أمهاره Amharas ومعهم أقلية بربرية وزنوج ، لبثوا متمسكين بالنصرانية بالرغم من تلاطم أمواج الاسلام في جوانبهم . وأحسن من ذلك أن بلاداً بأسرها مثل هرر كانت أسلمت بعد ثورة الدراويش ، فعادت الى النصرانية بعد ظفر النجاشي منليك بالأمير عبدالله سنة ١٨٨٤ . ولقد بقيت الديانة المسيحية والقومية الحبشية متحدتين كما هو الشأن في الشرق ، بأن الديانة والقومية تسيران معاً ، وحفظتا استقلالهما أكثر من ألف سنة . وبينما قبائل بربرنا في الجزائر وأمم البويل Peuls والفولبي Fulbés ، الذين هم من جنس بربر الحبشة مشتتون هباء منشورا بسبب عقيدتهم الدينية ، الداعية الى الكسل والخمول ، رأيت الحبشة بأمانتها لدينها ، واقفة في وجه الفتح العربي . وتمكنت المسيحية ان تعيش في وسط هذه الأمم الزنجية والبربرية ، وان كانت شعائرها هناك لاتزال معقدة ، لأنها ممتزجة بعقائد يهودية ، وعادات يزنطية ، فالأكليروس (طبقة القسيسين) له في الحبشة نظام صارم ، وهو تابع للكنيسة الأرثوذكسية في الزواج ، وعزوبة الكهنة ، ويخرج القسيس في المراسم الدينية بالألوان المزركشة بالقصب بين قرع الطبول ونقر الدفوف . فالحبشي بهذه العادات هو بعيد اذاً عن سهولة الشعائر الاسلامية

وهو يصوم صوم المسلمين الشاق ، واذا بلغ الكبر يترهب في دير . فمن هنا يظهر بطلان قول البعض « ان النصرانية شديدة التعقيد ، شاقة التكليف ، كثيرة المعاني المجردة بالنسبة الى مدارك الزنجي الساذج ، فهي تخالف ظروف حياته وتبطل نظام اجتماعه ، ولذلك فالأسود المنتصر هو أسود مقلوع من أصله ، حال كون الأسود المسلم هو مسلماً بطبعه . »

فانت ترى أن النصرانية قد رسخت عند الامهاره ، الذين هم من قبيل السنغاليين والبربر والبويل بدون أن يكونوا مقلوعين من أصلهم ، وتجدها تنمو هناك كما ينمو الاسلام ، وعقيدة أو توخيوس ^(١) تتلوى هناك مع الزمان والمكان كالاسلام الذي يناسب الامم الفطرية مثل الأمم السوداء : واذا كان عمل المبشرين شاقاً في البلاد السودانية والاسلامية ، فانما هو لكونهم يريدون وضع عقيدة امم راقية جداً محل عقائد أقوام هم في أدنى الدرجات (تأمل) ، أما النصرانية ، كما كانت في القرون الأولى ونصرانية الحبشة الحاضرة ، فنشرهما ممكن بسهولة نشر الاسلام ، الذي كان نجاحه بسبب المستوى العقلي الذي عند ناشره ، لا لسبب معالي عقائدهم (تأمل أيضاً) .

لا شك ان الزنجي عند ما يدين بالاسلام يتقدم تقدماً محسوساً ، فبعض أرباب الخيالات الذين لا يحبون أن يروا الا المحاسن ، يجدون في الاسلام الامتناع عن المسكرات ، وتهذيب الاخلاق ، وترقية سوى الحياة ، واعلاء حال المرأة في الاجتماع ، فيشيرون بالسعي في نشر الاسلام بين أمم الفتيش في مناطق خط الاستواء ، وكأن من طبيعة هذا العصر ، ان الناس يقدرون قدر المذهب بنسبة درجة نجاحه بدون تأمل فيما يجري اليه من العواقب ، فحمل الزنجي على الاسلام هو من باب الرفع الى أسفل ، وهو من قبيل المداواة بالطلاسم والرق ، مما هو وخيم العاقبة (تأمل) . ان اساس الدين الذي يدين به المسلم وتصطبغ به نفسه مهما كان حليماً ، والذي لا يعرفه الا ذوو الخلطة والخبرة الطويلة ، ان هو الا عامل ثورات مستقبلية ، من مصلحتنا ان لا نتركها تفعل مفعولها . حتى ان هؤلاء المتهوسين بالاسلام أنفسهم ، يقفون حيارى احياناً عند ما يرون من الجماعات الاسلامية ، تلك المطامح التي لا تقف عند

(١) عاش في القرن الخامس للمسيح وكان يقول ان ليس في المسيح سوى طبيعة الهية ، خلافاً لقول نسطور ، الذي كان يقول أن ليس فيه الا طبيعة بشرية وكما حرمت الجامع قول نسطور ، حرم المجمع الخلقيدوني قول اوتوخوس وقرر الطبعيتين ، ولكن القبط والحبشة تابعون لمذهبه

حد ، وهاتيك الاحقاد المتأصلة في نفوسهم .

أما البعض الآخر فقد هالهم هذا النزوع الاسلامى الى الثورة ، فاتفقوا طريقتنا في بناء المدارس والمؤسسات الاسلامية والترغيب في لغة القرآن ، وأوضحوا عظيم الخطر الناشئ من تضامن الشعوب الاسلامية ، ودهشوا من قضية ارسال معلمين جزائريين لتعليم العقائد الدينية في جنة وتمبكتو^(١) وهؤلاء النقر يقولون انه لا يكون من باب مس كرامة الاسلام ، ولا من السعى في نقض مبانيه ، ولا من حجز الحرية الدينية اذا اتخذنا التحولات اللازمة بازاء أخطار الحالة الحاضرة ، لا سيما ان هذه المساحات التي لا يجبرنا عليها أحد لا تقر بنا زلقي الى الأمم الاسلامية ، وانه ليس للحكومة أن تدخل في حياة رعاياها الخاصة ، بل عليها أن تأخذ حذرهما من ديانة ، هي فيما عدا بعض مبادئ نادرة فيها شيء من السباحة ، يمكنك أن تختصرها بهذه الجملة « قاتلوا الكفار واستعبدهم واطرحوهم في الارض »^(٢)

فبين آراء المقاومين المتشددين وآراء المتهاوسين الميالين الى الاسلام ، يوجد مكان لعمل معتدل حازم ، وهو انه لا ينبغي أن يسار على سياسة اسلامية واحدة ، بل على سياسة متعلقة بالظروف وبالبلدان وبدرجة حرارة الاهلين ، فيمكن تنكب طريق قهر الاسلام بدون السعى في تأييده . واذا أيدنا في مستعمراتنا سلطة ادارتنا الملكية ، وجعلناها فوق الشريعة الاسلامية ، كان ذلك خطوة أولى في منع انتشار الاسلام بين الاقوام ، التي لم ترسخ قدمه بينهم . ولكن مادام القاضى الاوربي يرسل القضايا المعضلة ، التي يعجز عن حلها الى القاضى المسلم ، وفي المسائل التي يتناكر فيها الخصمان ولا تمكن معرفة الصحيح بينهما ، يحيل القضية على اليمين كما في القرآن ، وهي طريقة بسيطة تكفي أولئك القضاة مؤونة التدقيق لتهيئة الحكم ، فكون قد جعلنا للقضاء الشرعى نفوذاً ليس من الحكمة في شيء ولا سيما في هذا الوقت . كذلك تتحتم المراقبة الخفية للشايخ والمرابطين ، الذين بين الزوج المستعدين لقبول الدعوة الى الثورة ، فانه كما قال سنة ١٩٠٥ الحاكم العام پونتي Ponty :

(١) تمبكتو في أول السودان الغربى مشهورة ، اما جنة فهى مدينة بالسودان على مسافة ٣٠٠ كيلومتر الى الجنوب الغربى من تمبكتو ، وعلى ١٦٠ كيلو متراً الى الشمال الشرقى من سيفو وسيكورو ، وأول أوربي دخل جنة هو رجل فرنساوي اسمه رينيه كاليه سنة ١٨٢٨

(٢) أين وجد هذا ؟

زيارات الغرباء القادمين من المشرق بحجة الصدقات مضرة ، اذ هؤلاء يجوبون بلاد
السنغال والبول والسونينكة ، دعاة كثيراً أو قليلاً الى الجامعة الاسلامية ، ويدعون
انهم شرفاء ، ويلبسون عمام خضراء ، وكلما حدث هيجان اسلامي كانوا هم المشحذين لغراره ،
والمذيعين للاراجيف . ولا ننس حج مكة فانه في الآونة الحاضرة ، يؤثر تأثيراً مضرراً بنا
بين رعايانا المسلمين ، ومع هذا ، فالبعض غافلون عن منع حج رعايانا الى مكة وعمما يحدثه
هذا السفر من أسباب تشويش اذهانهم ، لما يستمعون فيه من الأخبار الملفقة عن وقائع
البلاد الاسلامية ، فتى آبوا الى ديارهم عادوا أقل ميلاً إلينا . فان الحاج يسمع في الحجاز
أبناء عن جميع العالم لم تطبع في صحيفة والاوربي مصور فيها بشكل ظالم غاصب (استغفر
الله ...) لا تحصى سياسته والمسلم مصور بشكل غالب ظافر لا بد أن يأخذ بثاره . كما ان
الطوائف التي أحرزها بعض الشرقيين تروى هناك بالمبالغة والغلو ، ويتفائلون فيها بعودة
الايام ، التي كان فيها العلم الاخضر منصوراً خفاقاً فوق رؤوس الامم ، المغلوبة . وهناك
المشعوذون المترنمون بنصرات الغازي (أي مصطفى كمال) واهلاكه الكفار كما أهلك
المسلمون قريشاً يوم بدر . وكل هذه الوقائع تبرز فيها قوتها الخيالة الشرقية بشكل رائع
رائع ، فيذهب الحاج من مستعمراتنا أمينا لنا ويعود غير ما ذهب ، بل تتبدل نفسه ،
ويصير مبتهجا بنصرة أبناء ملته ، وتقوى فيه روح التضامن الاسلامي ، فيفرح بفوز
أتباع محمد ، ويتمنى لهم الظفر النهائي . وبعد اياه الى وطنه يستحيل أن لا يلقى الى بعض
أهل بلده ولو نجحاً ما سمعه في مكة ، وحيث يكون نال لقب حاج فلا بد له من الاجتهاد في
اثبات أهليته لهذا اللقب ، هذ عدا ما يحمله معه من القصائد والجرائد والحجاسيات التي
يوزعها على أبناء وطنه ، وان كان ممن يعرف الكتابة راسل من تعرف بهم من الحجاج
مكرراً لهم آيات الكتاب المقدس حول الحجر الاسود .

وينضم الى هذه التأثيرات السيئة نفوذ الطرق الصوفية فان دورها مهم . وربما كان لها
القول الفصل فيما لو هبت العاصفة المتهيشة دائماً للهبوب في جو الاسلام . فان أتباع عبد القادر
الجيلاني ولى بغداد ماثون افريقيتنا ، وهم هؤلاء التيجانية ، الذين كانت لهم اليد الطولى
في ثورة السينيغامبيا عندما قام بها الحاج عمر . ولهم زوايا في باماكو ، وبافولاب ،
وسيفو ، وجنة ، وتمبكتو ، ولهم وسيلة مع السنوسي في طرابلس ، فكل هؤلاء المتحمسين

دعاة ثورة وعداوة للاوربيين . لا ينكر أن بعض الطرق قد أفادتنا في الجزائر ومراكش وغربي افريقية ، وكان نفوذ رجالها السامي موافقاً لنا ، وهؤلاء مثل الشيخ سيديا ، والشيخ سعدبو ، والمختار الكنتي ، الذين هم في موريتانيا (غربي مراكش) وبلاد النيجر . فقد كانوا معنا في فتح تلك البلاد ، ولكن مساعداتهم هذه هي نوع من الأعمال التجارية ، التي يريد أصحابها دائماً بقاء التوازن لأجل استدرار فائده . وأما الخطر الأعظم ، فهو خطر الطرق الاسلامية التي مراكزها الأصلية في غير مستعمراتنا ، كبلاد العرب والعراق وطرابلس لأنها خارجة من يد نفوذنا .

هذه على وجه الاجال العوامل المضرة التي سلطتنا الافريقية معرضة لها . ولاتقاء ضررها وصف الناس أدوية كثيرة ، منها علاج جمع كل الآراء وهو نشر اللغة الفرنسية ، فهو أمر ضروري وهو رأى لوشاتليه Le Châtelier الذي يقول : « يوم لا يبقى اللسان العربي هو لغة التجارة في افريقية ، لا يبقى خطر من جهة الاسلام لأن مدارس تصير قفرة » . وهذا هو رأى بول برت Paul Bert الفسيولوجي المعروف القائل : « حل المسألة العربية هو في الكتاب ، وأتمنى أن أرى في كل قرية مغربية معاماً عربياً ومعاماً فرنسياً » وهو أيضاً رأى الرحالة قاتل أمور افريقية علماً يينغر . وهو كذلك مشرب الكرديال لافيجرى مؤسس جمعيات التبشير الذي قال : « لا حاجة بنا الى الدعوة لنفس الدين ، بل الحاجة هي الى التعليم والتمريض »

واذا نظرنا الى درجة انتشار لغتنا في الشرق بين أولئك الأقوام والأمم المختلفة ، نأسف كيف لم نقدر أن ننشرها في مستعمراتنا كما هي منتشرة في الشرق ، وأغرب منه أنه لو كان علمنا انتشر في مستعمراتنا بالسهولة التي انتشر بها في السلطنة العثمانية ، لربما كان أناس يحتاجون على ذلك قائلين ، يجب على حكومتنا أن تبقى متحايدة . مع أنهم يرون أن البعثات الفرنسية في البلاد الاسلامية ، التي كالأناضول وكردستان والعراق وفلسطين قد نجحت نجاحاً تاماً بدون ايراث أقل قلق في سلطنة آل عثمان الكريمة ، الرحبة الصدر ، وقد حصرت همها في تعليم لغتنا للروم والأرمن والكرج واليهود والمسلمين والكاثوليك ، وجميع هذه الأجناس التي جمعها في عالم ثقافتنا . ولم يثر ذلك في البلاد التركية ، ولا العربية ولا الفارسية شيئاً من العصبية التي خيف من اثارها في الجزائر . ثم هذه مصر التي هي

تحت الحكم البريطاني ، تعرف لغتنا كما تعرف لغتها العربية . أما الجزائر فانهما تجهل لغتنا تقريباً . ليس مقصدنا بهذا أن نوجد في مستعمراتنا نخبة علماء ومفكرين ، اذ يجوز أن ينبغ فيها أدياء راسخون ، وأرباب عقول سامية ، لكن يخشى أن يظهر من هم متعلمون نصف تعلم تكون لهم مطامع وماآرب (تأمل) انما المقصد هو وضع لغتنا التي هي عامل مدينتنا موضع لغة أخرى ، (أى العربية) هي قاعدة ثقافة أخرى وفكرة أخرى ، ان فرض معرفة العربي على عمالنا في المستعمرات هو حسن ، لكن اغناءهم عن العربي بتعميم اللغة الفرنسية كما في الشرق هو أحسن .

— ٣ —

الاسلام عند السنغاليين

تجد السنغالي في بيته كما هو في تابوره ، مرن الأفكار بعيداً عن الدين المشهود عند الجزائري والمراكنشي ، اعتقاده بالخرافات أكثر من اعتقاده بالدين ، مهتم الاماندر بأمور معيشته أكثر من اهتمامه بالمذهب الديني . وترى أنه في جميع مواطن الحرب لم تقلح لدى السنغاليين دعوة الجامعة الاسلامية ، وقد احتك هؤلاء بالاسلام في البلاد العربية (١) ولم يحدث بذلك عندهم أقل انحراف ، بل بقي السنغالي بسيطاً ، طيب السريرة أميناً لرؤسائه ، ولم تؤثر فيه تحريكات شيوخ الدين ، الذين طالما أثروا بعساكر الهند الانكليزية وفر هؤلاء على أثرها ، فالسنغاليون لم يفر منهم ولا واحد الى العدو ، لا في سورية ، ولا في كيكيا ، ولا في جميع الشرق الأدنى .

ان العرب والتورانيين يزددون بالاسود ، وهذا الاسود يقابلهم على ذلك بالانفصال عن دياتهم عند ما يختلط بهم ، وهذا أمر واقع سواء في الشرق أو في شمالي افريقية . وترى السنغاليين في الاستانة والأناضول لا يدخلون الجوامع ، ولا يخاطبون المشايخ ، ولا المفتين ولا يحملون في حقائبهم أوراقاً مضرة ، ولا بطائق من وارد بلاد الاسلام متضمنة مدائح الغازي غالب الكفار . وان العداوة بين الأهالي والسود في شمالي افريقية وان لم تاخذ

(١) أى في سورية والأناضول والاستانة

شكلاً حاداً ، هي السبب الكافل عدم امتداد دعوة سياسية بينهم . وفي نفس السنيغال لا في الجيش فقط ، لم يمكن التعصب الاسلامي احداث أقل عدوان لفرنسا ، بل بالعكس ، الاسلام في تلك البلاد الى الورا لا الى الأمام .

على أنه اذا كانت سداجة هذا الجنس وسلامة عقولهم ، لا تجعلان في جيشنا خوفا من دعوة الجامعة الاسلامية ، فلا يجوز أن نهمل التحوطات اللازمة لاتقاء روح سارية في أماكن أخرى . فالأطباء يعلمون أن أحسن واق من أمراض المستعمرات ، هو تعاطي الاسباب المانعة لظهورها ، فكما أن العمال في بلادنا الاسلامية يجب أن يعلموا منازع ديانة الأقوام الذين يولون عليهم ، كذلك القواد الذين دأبهم تعليم الجنود المسلمين يجب أن يعرفوا القواعد المبني عليها الاسلام ، وماذا يوجد في أدمغة أتباعه . وعلى القائد أو الضابط أن يميز جيداً بين الاسود الذي هو مسلم حقاً ، من الاسود الذي اسلامه سطحي . فينبغي أن نعرف عناصر الاسلام المختلفة في ممالكنا الافريقية ، للتمييز بين العناصر القابلة منها للثائرة ، والتي هي غير قابلة لها ، ثم أن نعمل في السنيغال احصاء نجدده كل مدة للأجناس والأديان ، لنعلم تطورات الاسلام هناك ، والميول الروحية التي عند عساكرنا السنيغالية . ومن المهم أن نعرف ما هو اعتقاد الجزائريين بالسنيغاليين ، لأن هؤلاء في نظر أولئك ، هم القوة التي وكل اليها توطيد السكينة في شتلى أفريقية ، ولا ترى ذلك محدثاً عندهم أدنى غضب لأن من طبيعة المسلم أن يطيع دائماً القوة القاهرة ولا يحق من التدابير المتخذة بحقه ، والجزائري ولو كان يحتقر الاسود ، ينظر بدون حقد ، بل بعين الرضى الى ترتيب توابير السنيغاليين وبالاجمال المسلم السنيغالي في سلك الجندي لايمارس فرائض دينه . وقد جرت العادة الى اليوم بان لا يعارض في أمر دينه كصوم رمضان ، والاحتفال بالأعياد ، واقامة الصلوات ، وأن يترك هذا كله لارادته . وكلما قل التعرض له في هذه الأمور كان خيراً . وكذلك لحظ أنه من العيب حمله على مراعاة فروض دينه ، أملا باستمالة المسلمين بهذه الوسطة ، فالمسلم أثناء الخدمة يفهم الضرورات التي تمنعه من أداء تلك الفرائض ، وهو يتعجب من اهتمام الأوربي بديانة المسلم أكثر من اهتمامه بديانة نفسه . انه من الواجب اذاً أن يراقب من العساكر السنيغالية من يفرطون في مراعاة شعائر

دينهم^(١) ولعمري ، أى فرصة أحسن من وجودهم فى الخدمة العسكرية لتعلم لغتنا ، إنها أحسن من كل المعلمين الذين يريد ينغرسوا فى غربى افريقية . والذى حصل الى اليوم من النجاح فى هذا الباب ليس بقليل فاذا كان الضباط فى الجزائر مضطرين أن يتعلموا لغة جنودهم ، فى السودان الضباط يجهدون لغة جنودهم ، فهؤلاء مضطرون أن يتعلموا لغة الضباط ثم هناك ضرورة أخرى لتعلم الفرنسيون ، وهى جهل الجنود أنفسهم بعضهم لغات بعض لأنهم من أصناف وألسن مختلفة ، فلا حيلة لهم أن يتفاهموا الا باللغة الفرنسية . وما جرت عليه القيادة ، اجتناب تكتيب الكتائب ، على صورة يكون فيها العنصر الاسلامى غالباً ، فتجد السنغاليين مشتتين بين الجماعات الفتيشية والمسيحية . وهاك على ذلك مثالا : فى مدينة فيلبفيل بالجزائر يربط الآلاى الخامس عشر السنغالى ، الذى عدده ١٧٠٩ جنود ، فتجد فيه ٥٤٢ مسالما و ١٣٢ مسيحيا و ١٠٣٣ فتيشيا أو غير تابع للمذهب خاص . والتابور ١٣٦ الذى بمدينة الجزائر ، الذى عدده ٤٨٩ جنديا فيه ١٤٥ مسالما و ١٨٢ مسيحيا و ١٦٤ فتيشيا ، فازدياد عدد المسيحيين من يوم الى آخر هو ثمرة مساعى المبشرين والمؤسسات الخيرية . وتجد فى ييسكرة (بالجزائر) راهبات مستشفى لافيجرى يرين صغار السنغاليين . انه الى يومنا هذا لم تدخل حكومتنا بصورة رسمية فى قضية تنصير السنغاليين ولا تزال مظاهرة الحياذ فى هذا الموضوع ، لكن مع ملاحظتنا الوجهة السياسية فقط ، يحق لنا أن نساءل هل من مصلحة مستقبلنا سوق الجماعات الفتيشية الى الاسلام أم الى النصرانية وعلى كل حال ، فقد دلت التجربة فى الجزائر ، على ان المجرى الدينى الاسلامى دخل فى حكم هذه القواعد البديهية التاريخية التى يتلقاها الخلف عن السلف بدون أدنى تحريف ولا تبديل ، فعسا كرنا السنغاليون ، مع كونهم غرقى فى بحر جاعات كلهم مسلمون ، لم يبدوا حتى اليوم أقل انجذاب الى المحمدية . ولقد شهدوا مواطن حرية عديدة كان الهياج الاسلامى فيها شديداً ولم تزعزع صداقتهم ، مما هو جدير بكل تقدير ، وهو ما يبعثنا على الاكثر من تجنيدهم ، وعلى تأمين طرق مكافآتهم المالية ، واعطائهم رواتبهم فى أوقاتها انه عندما انتصر الترك فى ازميز ، أشار الدكتور اسماعيل صدق بك أحد كبار الوطنيين المصريين الى الحفلات التى اجريت يومئذ بمصر . والاجتماعات التى تداعت اليها

الأهالى على صوت الطبل فقال : « هذا الطبل ، يؤذن بان أبناء مصر يقفرون أن يحرقوا مصرأ ، مثاما حرر اخوانهم الترك بلادهم » .
 فنحن لنا الثقة التامة فى شعوبنا العربية الكريمة ، ولا نعتقد انها تتحرك بما يسوله
 لها المهيجون فى يوم من الأيام ، ولكن لا شك بأن أماتهم تكون أمتن ، اذا صارت
 مبنية على قوة ، لا يمكن الدعوة ، ولا الديانة أن تززعها .

الخلاصة

ان أحد المؤلفين البلجيكيين المدعو المسيو كوليه Collet ، بعد أن أتيح له أن يدقق
 تدقيقاً عميقاً فى حالة تطور الاسلام ، فى الهند النيرلاندية ^(١) ألف كتاباً قال فيه : « ان
 التفاؤل الى حد التأمل بأنه يمكن احتكار قوة الاسلام الحيوية فى سبيل منفعة دولة
 أوربية هو حلم لذيذ ، لكنه غير مبنى الا على مطالعات كثيرة من ذوى العقول السطحية » .
 فهذه الكلمات هى ذات أهمية فى هذا الزمن ، الذى يظن فيه بعضهم ان التودد الى
 الاسلام هو العلاج الأفضل . ولقد سبقت ألمانيا الى هذه الفكرة ، لكن لا تصرىحات
 غليوم الثانى فى الأرض المقدسة بصداقته للثلاثمائة مليون مسلم ، ولا سياسية برلين التركية
 لم تحدثا أقل اضطراب فى مستعمرات الحلفاء الاسلامية ، ولا انضم شعب اسلامى واجد
 عدا تركيا الى ألمانيا ، بل جميع البلاد العربية انضمت الى الحلفاء ثم بعد المشاركة حاولت
 ايطاليا أن تعلن صداقتها للاسلام ، ووضع الدكتور انريكو انساباتو Enrico Insabato
 مصنفاً فى ذلك قائلا : « ان دولة غير مسلمة ، اذا عرفت أن تنهج خطة ولاء للمسلمين وتعطف
 عليهم ، أمكنها أن تصير صديقة لكل البلاد الاسلامية » فلم تلبث نتيجة هذا التأمل أن
 ظهرت بالعكس ، اذ بعد أشهر قلائل فسر زعماء طرابلس الغرب بحسب أهوائهم القانون
 السمح ، الذى جادت به عليهم ايطالية ، وطالبوا بالاستقلال التام ، فعدلت عندئذ ايطالية
 الى طرق أخرى عبر عنها المسيو اماندولا وزير المستعمرات الايطالية بقوله : « أرجو أن
 يعتمد العصاة الى المقاومة ليكون ذلك واسطة لتدوين القطر ، ولكن الحكومة لن تعاملهم
 كذى قبل » .

وقد سارت في البانية الحوادث سيراً مشابهاً لهذا . ولا تنكر أن مبادئ المسيو انساباتو ، يمكنها أن توجد بين أمة أوربية والاسلام ، علاقات حسنة مبنية على حرمة متبادلة ، وعاطفة متقابلة ، لكن هذا يجب أن يكون مبنياً على فكرة نظام ثابت ، وراحة موطدة . وهذا هو رأى المستشرقين الحقيقيين ، الذين سبروا غور أفكار المسلمين بأقامتهم سنين طوالاً في بلاد هؤلاء ، نابذين الأغراض الشخصية والخيالات المرسلة بدون تحقيق ، فقد قال أحد هؤلاء : « ان القوة هي وحدها علة بقائنا ، وإذا أتينا بأقل علامة على نقص قوتنا ، فتحنا على أنفسنا باب الثورات » . وقال آخر : « نحن المال ، والسلاح ، والعقل ، والعدل ، فإذا خسرننا هذه المستعمرات نكون خسرنناها برضانا » . فهؤلاء المحققون الذين استبطنوا ثنايا دخائل النفس المحمدية في غير الكتب والحكايات ، لا يستحسنون فرح الاسلام الفرنساوى بنصرات الأتراك الأخيرة . فان جداول التبرعات التي جرى الاكتتاب بها في الجزائر وفاس وداكار^(١) وتاماناف^(٢) لاعانة الترك الغالبين والأدعية في المساجد بفوزهم ، والتهاني التي وردت على أنفرة من ٣٠٠ مليون مسلم ، هذه كلها مقدمات لحوادث تالية . وكذلك حال هؤلاء المدققين ، ما شاهدوه من تأثير الوقائع التركية في تونس ، وصفاقس ، والقيروان ، وسوسة . فقد وردت برقية من المهديّة تفيد أن الشعور الذي كان يحصل من تلك المظاهر الخفيفة ، هو أن الشعب التونسي معجب جداً بشعب كالشعب التركي يأخذ حقه عنوة بقوة المدفع . أي أن التونسيين يطمعون ، بان يأخذوا هذا الحق قريباً بالواسطة نفسها . ليس عامة الوطنيين هؤلاء الساذجون طيبو السرائر . المقدرون قدر السعادة التي هم راتعون في بحبوحتها . والعارفون فضل الأمان والأطمئنان . هم الذين نحن منهم على حذر . بل ليس الاسلام نفسه ، الذي عرف أثناء الحرب العامة أن يعلى نفوس رعايانا هؤلاء ، الى أن تحملوا ما تحملوه من الرزايا القاذحة بصبر الأبطال ، هو موجب عدم ركوتنا . بل حزننا انما هو من تلك الفئة القليلة ، التي عليها مسحة التريبة الأوربية ، والتنشئة الغربية ، الذين قرأوا ما هضمته عقولهم هضمًا سيئاً ، غلبت عليهم المآرب ، واستغواهم التعصب ،

(١) أحد موانئ السنيغال

(٢) مدينة بحرية في ماداغسكار

وأحبوا وطنهم ، ولكن أحبوا أكثر منه منافعهم الشخصية . فهؤلاء الشبان المسلمون لا يقلعون عن غيهم مهما جرى ، ومهما أعطوا من الحقوق . ومهما أجرى معهم من التسامح ، فلا يكون ذلك الا طريقا لتوقيف الأوربي عند حده ، وأخذهم مكانه .
ففي وجه التضامن الاسلامي ، الذي يزداد كل يوم كلما ازداد نجاح اتباع الاسلام ، نجد الحصن الذي كان الغرب يتمتع به بدأ ينهار ، وعلاقات أوربا بعضها مع بعض تسوء . فإذا كنا لا نقدر على تلافى هذا النزاع الغربي ، فعلى الأقل يجب علينا في وسط مستعمراتنا أن نوحّد الجبهة بازاء المهيجين والمقلّين^(١) بتدابير عامة شاملة ، ويلزم أن نمنع سريان العدوى الى الجيش ، فان السكون الحاضر في مملكتنا الافريقية ، لا يجوز أن يصرف أنظارنا عن مشاهدة الغيوم المتلبدة في الشرق .

ان صور أبطال الاسلام مائة أسواق مصر وبيوت فلاحى الأرياف ، فهذه حالة روحية ، قد تسرى الى مستعمراتنا لا سيما تونس شمالا ، وممالك بحيرة تشاد جنوبا ، وإذا نالت مصر استقلالها صارت مركزاً لتحرير الاسلام .
لا أحد يمكنه أن يتسكّن على درجة هذه الحركة ، لكن من راقب الحوادث الجارية تهياً له الاستنتاج بأنه لا يجوز التفاؤل المفرط ، كما لا يجوز التشائم بدون سبب .
فالحالة تستدعى الاكثرات وان لم تسكن التهلكة محققة الوقوع ، فعلى أى الأحوال يتعين حفظ القوة العسكرية التي لا يعتبر المسلم شيئاً غيرها ، هذا مع الحزم والعدل ، وبسط الأمان وتيسير المنافع المادية . انتهى

إدحاض الأباطيل والمفتريات

اعتنينا بتعريب هذه المقالة بحرفها حتى لا نترك مجالاً للكابرة ، ولا محلاً للنكارة . وكنا نود لو تركناها كما هي تكفى بنفسها مؤونة الرد عليها ، لولا أن يكون في الشرق لسوء الحظ ، من يتلقى كلام كل أوربي تقريباً حقيقة رياضية ، أو قضية مسلمة ، ولولا أنه لا يزال عندنا من حسن الظن في هؤلاء القوم ، ما يجعل التنبيه فرضاً ، والتمحيص حتماً .
نعم ان افتتان الناشئة من الشرقيين بعدل أوربا ، وانصافها ، ومعالي نزعاتها ، قد خف كثيراً بعد الحرب العامة عند ما تجلت عرائس الحقائق على مناص المذابح ، وقشعت رياح الحوادث غيوم الأوهام ، التي كانت متلبدة في الشرق ، من جهة تلك الفضائل وهاتيك المعالي ،

(١) أى طلاب الحرية ...

ولكن مع الأسف نقول ، انه لم تبرح لهذا المرض عندنا عقايل كافية للضرر ، وبقايا جازية للارتكاس في الخطأ ، والارتكاس في المرض ، فلم نر مندوحة من ادحاض ما في هذه المقالة من الأباطيل ، و اظهار ما فيها من التناقضات ، لا اكرثانا بنفس محررها ، بل بكونها نظرية الأكثرين في قومه وأمثال قومه ، ولو كان بعضهم يكتمها والبعض الآخر يعلنها .

بدأ الكاتب بتخطيطه الاوربيين ، الذين يشمت بعضهم ببعض عندما تقوم على فئة منهم ثورة اسلامية ، قائلا ما معناه : ان كل ثورة اسلامية هي خطر على جميع دول اوربا ، فالتى لم تصل اليها النار حالا تصلها فيما بعد . فهو من أنصار توحيد الجبهة الاوربية في وجه الاسلام والشرق أجمع . والحال أن هذه المسئلة غير محتاجة في أوربا الى تنبيه من حضرته ، بل هي قاعدة أساسية ماثية عليها الدول الاستعمارية ، منذ وجد الاستعمار ، وانسبطت يد الغرب الى الشرق . فانها مهما اختلفت هذه الدول وتناذرت في أوربا ، تقف صفا كالبنين المرصوص في وجه الشرقيين ، لاسيما المسلمين منهم . ولو شئنا استقصاء الشواهد والأدلة على ذلك لم تكفنا المجلدات ، فلا نغنى أنفسنا بالاستشهاد بتواريخ لا تنتهى وانما نقول اذا طرأ بعض الأوقات عوارض بسيطة تخالف هذه القاعدة الاستعمارية الكلية ، فتكون عوارض جزئية محدودة لأسباب مجبرة لا مناص منها ، وضمن الدائرة التى لا تخل بالتضامن الأوربى العام في وجه الشرق ، وهو التضامن الذى لا يزال دستور الاستعمار الأعظم . مثلا : لما أسقطت فرنسا الحكومة العربية في الشام وطردت الملك فيصل خلافاً للمعاهدات التى كانت بين فرنسا وانكلترة ، وبين هاتين الدولتين والغرب ، ارتفع عويل العرب الى السماء ، واشتدت مشاحتهم لانكلترة ومطالبتهم لها بمنطوق المعاهدات ، وصادف أثناء ذلك ، أن مسئلة العراق أعضلت وعز حلها ، فأرسلت انكلترة فيصلا الى العراق قياما بجزء مما تعهدت به للعرب ، وتوفيراً للمال والرجال على نفسها ، لأنها بقيت تقاتل في العراق مدة سنتين بمائة وعشرين ألف جندي والنار لا تزداد الا اشتعالا . فكان نصبها لفصيل ملكا على العراق مخالفا لهوى فرنسا ، التى قابلت هذا العمل بعقد اتفاق مع الأتراك بشأن كيليكيا ، وأعادت تلك الولاية الى تركيا بدون أن تستشير في هذا الوفاق حليفها انكلترة . فبعد بعضهم هذه السياسة من الحليفتين مخالفة لقاعدة التضامن الأوربى الاستعماري ، وليس

الأمر كذلك ، فان انكثرة لم يكن ليتمكنها أن تستخف تماما باليهود التي قطعنها للامة العربية ، والى حد أنها لا تفكر أن ترضى هذه الأمة بشئ ، مع استمرار الحرب في العراق وامكان نشوبها في أماكن أخرى ، ومع ما كان يبدو لها من علامات تقرب العرب الى الترك لا سيما بعد أن خذلت العرب في الشام ، ولم تبد على اسقاط فرنسا للحكومة العربية بدمشق أدنى اعتراض ، فكان ارسالها فيصلا الى العراق نوعا من الكفارة لبعض تلك السيئات . وكذلك فرنسا أنفقت على كيليكييا نحو مليارين ، وخسرت فيها بضعة عشر ألف جندي ورأت نفسها مع حرج الحالة المالية وانصرافها الى تقاضى ألمانية ، التعويضات التي ليس استيفاؤها بالأمر السهل ، عاجزة عن متابعة الأعمال الحربية في كيليكييا . ولحظت من جهة أخرى ان انكثرة تستثمر لحساب نفوذها في الشرق مجاهد فرنسا في قتال الأتراك . فعدلت عن تلك الخطوة الأولى وجنحت الى مسألة الترك ، وتركت لهم ولاية هي في الواقع تركية ، وكان من أصعب الأمور على فرنسا أن تقدر على حفظها بدون جيش جرار . وبذل المليار بعد المليار . فلا الانكليز حاولوا ارضاء العرب في العراق حباً بالعرب . ولا الفرنسيين حاولوا ارضاء الترك حباً بالترك . بل التزاما من كل من الفريقين لمصلحته تحت ضغط الحوادث . ومع هذا . فلم يحدث انفراد كل منهما بسياسته هذه أدنى ثلثة في جدار التضامن العام بازاء الشرق . لأنه لا الانكليز عضدوا العرب على فرنسا مع كثرة ما ناداهم العرب للحفاظ على عهودهم المقطوعة للعرب . ولا الفرنسيين أعانوا الأتراك على الانكليز في شئ يذكر مما ظهر في مؤتمر لوزان ، المنعقد أثناء تحرير هذه السطور ، اذ جبهة الحلفاء كانت فيه واحدة من الأول الى الآخر في وجه الترك والعرب والمصريين الخ . وكل ما جرى في أثناء هذا المؤتمر من الاختلافات الأوربية وأوها مسألة الرور ، لم يززع في شئ بناء التضامن الغربي بازاء الشرق . وبالاختصار فكل ما يقع من اختلاف النظر بين الدول الغربية بشأن المسائل الشرقية ، يبقى محصوراً في دائرة ضيقة ، لا يمكن أن يكسب صفة عامة وتبقى القاعدة عندهم ، هي ، ان نجاح أي غربي في أي بقعة كانت من الشرق هو نجاح للجميع والعكس بالعكس .

أما الذين يشير اليهم روجر لايون من كونهم يشمتون بجيرانهم ، أي الفئة التي من الفرنسيين تفرح بمشكلات انكثرة في مستعمراتها الاسلامية ، فهؤلاء أكثرهم من

الشيوعيين والاشتراكيين وهؤلاء كما تقدم أضداد الاستعمار ، لأنهم يقولون ان الاستعمار قضية عائدة على الطبقة المتمولة ، وهم لا يريدون أن يسفكوا دماءهم في افريقية وآسية ، ويموتوا بحميات هاتيك الاصقاع النائية لأجل زيادة ثروة الممولين في بلادهم ، ناهيك أن طبقة العملة تشبه أهالى المستعمرات بكون الفريقين مستضعفين هؤلاء من الخارج ، وأولئك من الداخل ، فبين الفريقين جاذب التضامن الذى بين الضعفاء والمظلومين ، وما عدا هؤلاء ، فيوجد غلاة الحزب الشمالى الذين يحبون الحرية كما لا يخفى ، وجميع هؤلاء لا يدونون الا فئة قليلة بالقياس الى بقية الأحزاب ، وان وجد من غيرهم من الفرنسيين من يشمت بالانكليز في مشكلاتهم الاستعمارية اما حسداً أو نفاسة ، أو على أثر اختلاف دولى اشتد بين الامتين ، فلا يتعدى ذلك بعض كلمات فارغة ، ولا ينشأ عنه شئ بالفعل أبداً ولا يدخل أصلا في برنامج الحكومات السياسى .

فبعد أن تقرر وجود هذا التضامن المتين بين جميع الأوربيين في وجه الاسلام والشرق بأسره ، لا عجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصا لاسيما أن بين هؤلاء رابطة دينية ، لا يمكن زوالها غضب روجرلابون أم رضى . وقد كان يمكن أن تتراخى هذه الرابطة الاسلامية بالعدل والاحسان من قبل الدول المستعمرة ، اذ كان لا يوجد شئ تستصلح به قلوب الأعداء مثل العدل ، وكان الانسان كما يقولون أسير الاحسان من أى جهة أتى . فالدول المستعمرة بدل العدل والاحسان ، لم تعرف في مستعمراتها سوى الضغط والظلم ، وامتهان الوطنيين والكيل لهم بمكيال وللأوربيين بمكيال آخر ، والحجر على حريتهم ، والتصرف بحقوقهم ودمائهم ومرافقهم ، وابترازهم أراضيهم ، وهذا ماامتازت به فرنسا أكثر من غيرها بدليل نسق استعمارها بالجزائر وتونس مما لا يحتاج الى بيان ، ومن شاء زيادة الوقوف فليقرأ كتاب «تونس الشهيدة» ليعلم ماذايجرى هناك أو فليقرأ بعض كتابات الفرنسيين أنفسهم ومن جلتها ما كتبه الميسوفاليان كوتوريه Vaillant Couturier أحد أعضاء البرلمان الفرنسى من الحزب الشيوعى ، على أثر سياحة طويلة في الجزائر وتونس أجراها في العام الماضى ونشر خلاصة مشاهداته في جريدة الاومانيتيه ، بل فلينعم النظر في المبادئ التى يوصى بها لابلون نفسه والمرء مؤاخذ باقراره فيعلم درجة الضغط الواقع على أولئك المساكين ، وبأى نظر تنظر الأمة المستعمرة اليهم ، فليست اذاً الرابطة الاسلامية وحدها

هى التى تجمع قلوب الجزائريين والتوانسة والمراكشيين وغيرهم الى قلوب أهالى الأناضول بل هناك رابطة المستضعفين بعضهم مع بعض ، ورابطة الأخ الذى تحت نير العبودية مع خيه الذى تمكن من رفع ذلك النير عن عنقه . هذه لعمرى روابط طبيعية لا تزول ولا تخف ، لا بالسهر ولا بالمراقبة ولا بالحجر ولا بالحجز ، ولا بمنع القضاء بالأحكام القرآنية كما يشير به لابون ولا بالتعب فى تنصير المسلمين كما يريد اذ كل هذه التدابير لا يكون لها نتيجة سوى أن تزيد النار اضطرابا . بل الواسطة الوحيدة لا لازالة تلك الرابطة لأنها لا تزول أبداً ، بل لحصرها ضمن حدود لا تضر فيها بمصلحة فرنسا ، هى معرفة فرنسا حقوق الوطنيين المسلمين ، ومعاملتهم على سوى واحد مع الاوربيين وعدم التفرع بأى الوسائل لوضع اليد على أملاكهم ، وتجنب استغلالهم كما يستغل الانسان حرته ، وعدم القذف بهم فى الثغور والمهاالك ، ليكونوا فداء عن أبناء فرنسا وهم غير متمتعين بشئ من حقوق المساواة مع أبناء فرنسا الى غير ذلك من الشروط التى لو توفرت لعاش الوطنيون المسلمون فى دعة وراحة مع الفرنسيين ولم يضربوا لهم الحق ، ولكانوا ارتبطوا معهم برابطة محبة أكيدة بخلاف ما هى الحالة الآن ، اذ الرابطة الوحيدة التى تربط شمالى افريقية بفرنسا هى قوة السلاح ، وهذه كما لا يخفى مهما طال وجودها ، فقد يأتى يوم يخونها الدهر فيه ، فتذهب وتحل محلها قوة أخرى ، والدهر لا يدوم لأحد .

ثم يقول « يتسلون بالفرح الذى يبدية لنا المسلمون من جراء خطتنا الحاضرة » فلم نفهم ما هى خطتهم الحاضرة التى تستوجب كل هذا المن على المسلمين ؟ هل هى اعادتهم كإليكميا الى تركيا ؟ فهذا قد بينا أسبابه ، وان فرنسا لم يمكنها أن تعمل غير ذلك فى الآونة الحاضرة أم اعطاؤها حق الانتخابات لى لى الجزائر ، وهو أدنى ما يمكن أن يكافأ به قوم قدموا لها نحو ٣٠٠ ألف مقاتل فى الحرب العامة ، تلف منهم ٦٢ ألفا . فبدلاً من أن تسويهم باليهود أو المايطيين على الأقل ، كان أقصى ما منحتهم من الحقوق أن يكونوا ناخبين لاجتماع المجالس البلدية . أم سماحها بزيادة عدد الوطنيين فى الندوة التونسية ، لكن بشرط أن لا يكونوا الاغلبية وان لا يكون لهم الحق فى التعرض للامور السياسية أبداً ، وان لا يمسوا بشئ المبادئ الاستعمارية الماشية عليها حكومة تونس ؟ أم أخذها لسورية التى ثلاثة ارباعها مسلمون نقضوا الكل عهد وميثاق ، وتعديا على حقوق الامم وخلافاً

لنصريحاتها اثناء الحرب ، ثم معاملة سورية بصفة مستعمرة ، واستزاف أموالها ، والخلل بوحدتها ، واثارة الاحقاد الدينية التي كانت ساكنة فيها منذ زمن طويل ، وحبس مفكريها ونبيائها لمطالبتهم اياها باستقلال بلادهم ، واعتبار سورية أرضاً فرنسوية مع الهزؤ بأهلها بأنهم هم مستقلون ، وانها هي انما اتدبتها جمعية الأمم للوصاية عليهم لترشدهم وتعلمهم كيف يديرون فيما بعد أنفسهم بأنفسهم . . . أم الحرب القائمة بينها وبين أهالي مراكش والتي لولا حسن ادارة المارشال ليوتي بنفسه ، لكانت غير منحصرة في بعض جهات تلك السلطنة بل كانت عامة لجميعها ؟ ما هي خطتهم الحاضرة اذاً ، وماذا فيها من هذه الأيادي البيضاء على المسلمين ؟ لما انتصر الاتراك على اليونان لم ترد فرنسا أن تنتصر لليونان كما أراد لويد جورج ، لكونها من النزاع مع المانية في شغل يستغرق كل قوتها فالت الى الصلح ولم تكن في ذلك وحدها ، بل كان رأى الجميع والانكليز أنفسهم الذين أسقطوا لويد جورج وضع حد لهذه الحرب في المشرق ، ومع هذا فقد أجد الناس كلهم — ألا اليونان فقط — سياسة الدول السلمية وسياسة فرنسا من الجمل ، وأظهر لها مسامو المغرب الشكر على سداد هذه السياسة ، التي هي كلها في مصلحة نفسها في الواقع ولكن لم تلبث أن تقاضت بدل مسالمتها هذه التي لم تكن فيها بالمنفردة مطالب اقتصادية ثقيلة على الاتراك ودعاوى خارجة عن العدل والنصفة ، ومن جللتها التحريم على الترك في النزول لها عن حق سيادة الدولة العثمانية على سورية .

اذاً بماذا تمن فرنسا وتعتد على المسلمين ؟ حتى يقرع لابون بعض عقلاء قومه بانهم كانوا مسرورين من مظاهر الرضى التي أبداهوا مسامو المغرب .

ثم يحذر أبناء جنسه من الاغترار بظاهر الشرق الذي يخفى الحقد ويبدى الولاء . ولا تنكر أن هذا من الأمور التي يتجاوز بها الشرقيون الحد المعقول ، والتي كانت السبب في كثير من المضار ، لأن الافرنجى من شأنه أن لا يحمل الافراط في الكياسة الا محمل الضعف وانه كلما تواضع الانسان أمامه احتقره واستصغر شأنه ، هذا مجرب فيهم الاماندر . ولكن الشرقيين مفطورون على المجاملة ، فتراهم يظهرون التودد الى أقوام استولوا على بلدانهم واستعبدوهم ، فهؤلاء الذين عرفوا جيداً ماذا فعلوا بهم ويعرفون أن سياستهم معهم لا توجب أدنى مودة ، يعتقدون أن هذه الظواهر هي كلها كذب وملتق ورثاء ، وانه كامن

وراءها الحقد والبغضاء اذلا يعقل أن الانسان يحب من أساء اليه . فليحذر الشرقيون والمسلمون من أن يأتوا بتصادق كلام هذا الرجل ، وليجعلوا للمجاملة حداً لئلا يتهموا بالرثاء والخداع . فلقد كان من الافراط بهذه المجاملة من النتيجة السيئة في احتلال سورية ، وادعاء أن أهلها هم الذين طلبوا ذلك ما ليس هنا محل بيانه وما طالما نبهنا اليه . أمادعواه بأن الاسلام مبنى على الخضوع للقوة القاهرة فكذب محض ، واختلاق منه ، فان الاسلام أمر بأوامر ونهى عن نواه لا بد للمسلم أن يجرى عليها اذا أراد أن يبقى مسلماً ، مهما وقف في طريقه ولو ذهبت بذلك نفسه . وهذا مبسوط في كتب الشريعة التي يفترى عليها لابون بدون علم ولا حياء ، وليس للمسلم أن يتقى في دينه الا في بعض نقاط لا يكون فيها خطر على وجود الاسلام ، ولو كان المسلم مأموراً بالاستسلام للقوة الغالبة ، لما قاوم الرسول صلى الله عليه وسلم قريشا وهى أقوى منه ، ولا قاوم الخلفاء الراشدون تلك الأمم كلها ودوخوها وهم لم يكونوا شيئاً بالقياس الى ما كانت عليه تلك الأمم . كلا ، فالاسلام مبنى على العزة وعدم المبالاة بالحياة ولا بالمال في الذب عن شريعة الاسلام ، وان القرآن ملآن بذلك والحديث الشريف مستقيض به ، وما سقط الاسلام الا بعد أن فتر عمل أهله بتلك الآى ، وغلبت عليهم « كراهية الموت وحب الدنيا » وفقاً للحديث النبوى الذى أنبأهم بالحالة التى وصلوا اليها وبالأسباب الداعية الى حصولها ، وهو حديث « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل جانب تداعى الأكلة على القصاع الخ » .

ثم يقول ان ابتهاج الاسلام بعضه بفوز بعض لم يكن من قبل ذا بال ، نظراً لقوة أوربا واتحادها في وجهه بخلاف ما هى اليوم ، والروسية التى كانت أعظم ضاغط على الاسلام صارت فى هذه الآونة تناصره وتشد أزره . والجواب أن تضامن أوربا كلها على الاسلام ، كاف بدون الروسية ، ولا يشك أن الحرب العامة قد استنزفت قوى أوربا والروسية ، وكرهت الحرب الى السواد الاعظم من العالم فاستفاد الشرقيون كلهم من هذا الضعف بدون نزاع وهبوا للطالبة باستقلالهم ورفع الانيار عن أعناقهم ، ومن يلومهم على ذلك الا الذين لا وجدان لهم مثل هذا السكاتب والحزب الذى هو منه ، على أنه لو فرض أنها لم تحصل الحرب العامة لما كان الشرقيون راضين بأن يبقوا عبيداً الى الابد .

أما ابتهاج الأتراك بل المسلمين أجمع بنصرة المراكشيين على الاسبانيول فليس فيه

شيء من العجب ، فقد كان الاوريون كلهم مبتهجين باتتصار البلقانيين على الاتراك ابتهاجاً أنساهم كل مارتكبه البلغار واليونان والصرب من الفظائع في تلك الحرب ، وكان أحلى ما يروق للانكليز يومئذ وقائع الجبل الأسود التي تجلت فيها بسالة ذلك الشعب الصغير الأبي ، أفلا يحق للمسلمين أن يبتهجوا بنصر فئة قليلة من المغاربة ، كلهم قبائل متطوعة ، على دولة عظيمة ساقط عليهم ٢٠٠ ألف مقاتل ، فاستأصلوا منهم نحو ٣٠ ألفاً وغنموا ١٧٠ مدفعاً و ٧٠ ألف بندقية وانتهى الامر بان عاد الاسبانيون كما جاءوا لم يفوزوا بطائل . ان فرنسا وقتئذ مع بغضها لاسبانية والمنافسة بينهما على طنجة وغيرها ، لم يسرها فوز الريفيين ، بل أوجست منه خيفة وعاونت اسبانية بما أمكنها . وان الأمير محمد عبد الكريم أرسل وفداً الى لندن يلتمس وساطة انكلترة في الصلح ، فلم تقبل انكلترة هذه الوساطة ، مع شدة ادعائها محبة السلام . فلماذا لعمري ؟ الجواب بسيط ، وهو لأجل التكافل الأوربي في وجه الاسلام . وكذلك المسلمون يفرحون بظفر الريفيين ، أولاً ، لكونهم اخوانهم في الدين ، ثانياً ، لكونهم فئة قليلة مظلومة ، غلبت فئة كثيرة قوية ظالمة ، طامحة الى استعباد تلك الفئة القليلة العدد الأبية للضم .

أما ما ادعاه من كون النادي الشرقي بيرلين هو من مراكز دعوة الجامعة الاسلامية ، وانه يصدر جريدة لواء الاسلام لبث هذه الدعوة ، فلما كان محرر هذه السطور هو رئيس النادي الشرقي بيرلين قد نشرنا في بعض الجرائد تكديبا لدعواه هذه ، ولكون النادي هو تحت حماية مجلس برلين البلدي والجنرال لوندوروف ، كما افترى علينا كذبا وبهتاناً ، وبيننا أن النادي هو محفل اجتماعي ليس له شغل بالسياسة ، تأسس مجتمعاً للشرقيين من كل الأجناس والأديان ، ففيه أتراك ، وعرب ، وجركس ، وتتر ، وافغان وفرنس ، ومصريون وهنود ، ومغاربة ، وفيه مسلمون ، ونصارى ، ويهود ، وبراهمة الخ . وأن جريدة لواء الاسلام ليس لها أدنى علاقة بالنادي الشرقي . فاذا كانت كل معلومات لابون هي من قبيل هذا الخبر فيكون مقصده التهييج فقط ، لايهام أبناء جلدته وجود حركة اسلامية ألمانية ، يتوسل بها الى زيادة الضغط على المسلمين .

ثم زعم أن ليست نتائج الحرب العامة هي العاملة فقط في هياج المسلمين ، بل هناك عوامل من طبيعة الاسلام نفسه ، لأن الاسلام لا يخضع بزعمه الا للقوة . فكرر هذيانه

الأول الذى لم نعلم على أى شئ بناء ، اذسنة الأمم كلها انها تخضع للقوة وتنشز عند فقدها ، لم يختص الاسلام وحده بذلك . بل الاسلام والشرق فيهما بقايا من كرم الأخلاق ، والعفو عند المقدرة والسجاجة ، وترك الانسان حقه لمجرد علو الهمة ، والميل الى المساكين وهذه كلها مناقب يهزأ بها الغرب ولا يفهم لها معنى ، بل يسمعون ويقرأون نوادر كثيرة عن الشرقيين لا سيما العرب منهم ، وينقلونها فى كتبهم من باب الكرم العريض والايثار على النفس وعفو الموتور عن الواتر بمجرد دخوله بيته ولو كان قاتلاً ابنه فلذة كبده ، وكم من والد سامح بقتل ولده ووالدة سمحت بقتل ولدها لمجئ القتائل الى بيتهم مستصفحاً ، وكم من تجاوز عن القود وعن الدية معاً ، فهل سمعنا أو قرأنا أن فذاً أوريباً فعل مثل ذلك مما يقع عند العرب كل يوم تقريباً ؟ وكم فى التاريخ للاسلام من نوادر عفو عند القدرة ، قد عرف منها الافرنج شيئاً كثيراً باحتكاكهم مع عرب الأندلس ، وفى أثناء الحرب الصليبية مع صلاح الدين الأيوبي الذى كانت سيرته بهم بعد سيرتهم بالاسلام عند دخولهم القدس سبب عار لا يمحي للصليبيين ، ^(١) كما أقر بذلك المؤرخون المنصفون من الافرنجة ، لأنها أظهرت ما هناك من سعة الفرق فى علو النفس ، ورقة الاحساس ، بين الأمم الاسلامية والأمم الأوربية . أفيقال بعد هذا ان المسلمين لا يخضعون الا للقوة القاهرة ، وانهم لا يؤثر بهم حسن المعاملة ولا العدل ، بل العامل الوحيد الذى يؤثر بهم ويكفل طاعتهم هو ارهاق الحد ؟ كبرت كلمة تخرج من أفواه هذا الكاتب وأمثاله ، ان يقولون الا كذبا .

والحقيقة هى أن القوة المسلحة هى العامل الوحيد الذى يؤثر بالافرنج ، وأقرب شاهد على ذلك مثل الترك الذى لا حاجة لبيانه اذ كل أحد يعرفه ، فقد أصمت أوربا آذانها عن جميع ما نادوها به من العهود والمواثيق والمتركات والحقوق الدولية ، الى أن أثبتوا قوتهم بالغلبة على اليونان وغيرهم ، فعرفتهم حينئذ بشرراً ، ورضيت أن تجالسهم فى مؤتمر لوزان وأخذت تصانعهم وتداريهم . وهناك مثل اليابان التى لم تعتبر عندهم دولة متمدنة الا بعد أن قهرت الروس ، وأثبتت قوتها العسكرية . كان أحد كبار الوزراء اليابانيين يحدث على

(١) قتلوا ٧٠ ألفاً فى المسجد الأقصى ولم يعفوا عن النساء ولا الأطفال ، فلما استرد صلاح الدين القدس

لم يقتل منهم أحداً

نظامي باشا سفير تركيا في رومة مؤخراً فقال له : « ان شتمتم أتم الأتراك أن تكونوا متمدنين في نظر أوروبا ، فاجتهدوا أن تكونوا أقوياء لا غير . فانتا نحن اليابانيين كنا بلغنا مبلغهم ، وتجاوزنا أمدهم في العلم والصناعة ، وصرنا نصنع من الأمتعة ما يضاها الذي يصنعونه ، ونبيعه بأثمان أرخص من أثمانهم ، ولبثوا يعدوننا مع البرابرة . الى أن هجمنا في يوم من الأيام على الروسية ، ونسفنا لها بوارج بدون اعلان حرب منا مخالفين بذلك الحقوق الحرية الدولية ، ثم تابعا الحرب الى أن انتصرنا على الروس نهائياً ، وعرفوا أننا نعرف أن نقتل ونهلك وندمر مثلما يقتل الأوربيون ويدمرون ، صرنا عندهم دولة عظيمة وصاروا يعدوننا متمدنين » . هذا كلام وزير ياباني كان تولى الصدارة في اليابان ، وان شاء الشرق أن يفهم جيداً ما هي أوروبا فليستظهر دائماً هذه الامثولة . ويعلم الله أننا لم نكن لنوضح كل هذا من شأنهم في تقديس القوة المادية والتنمر على الضعيف والتبصبص للقوى ، لو لم يكونوا دائماً يقذفوننا بهذه التهمة عينها ، فقد تكررت منهم هذه الكلمات بحق الشرقيين الوفا من المرار . وعند كل مناسبة ، تجدهم يقولون : الشرقيون لا يعرفون الا القوة . الشرقيون لا يفهمون الا بلغة السيف . الشرق لا يأتي الا بالارهاب . لا تنس أنك تخاطب أمة شرقية . اعلم أنك في الشرق . وما أشبه ذلك ، والحق أن القوة المادية هي معبود الغربيين قبل الشرقيين . ثم ذكر أنه في الحرب العامة ، انتقدت أكثر الأمم الاسلامية الى الحلفاء ، وقاتل منها مليون ونصف مليون مقاتل تحت راياتهم ، ولم يعابوا باعلان الخليفة الجهاد ، وتبارى علماء المغرب في الفتيا بعدم وجوب الحرب في جانب الأتراك والألمان الى غير ذلك .

والجواب عليه ان كان يعنى بالأمم الاسلامية البامبارة والسنغاليين وأمثالهم فهؤلاء مساكين لا يقدر على شيء ، ولا يعرفون شيئاً ، بل تراهم كالأنعام يساقون الى المجزرة ولا يشعرون حتى يصل السككين الى أعناقهم ، ولم تترك فرنسا في سبيل ابقائهم في أدنى دركات الجبل والخيولة بينهم وبين الشريعة الاسلامية واللغة العربية واسطة الاستخدمتها لأجل أن تلعب بهم الكرة ، وتقتلع منهم كل شيء اسمه ارادة ، فهؤلاء لا كلام فيهم . أما الجزائريون والتونسيون والمراكشيون ، فمع كون الجبل أيضاً محجياً على عامتهم ان لم يكن في نسبة السنغاليين فقرياً منها ، ومع كونه لا يصعب على فرنسا شراء ضماير كثيرين منهم

فقد طاف عمال الفرنسيين عليهم يخطبون ويعظون ويعقدون المجمع ويحادثون العلماء والزعماء أثناء الحرب وفي كل أحاديثهم وخطبهم ، يصرحون بأن هذه الحرب هي حرب تحرير الأمم ، فكل من قاتل فيها وبذل دمه نال بعد الحرب استقلاله ، وكل من تخلف عنها لاحظ له من الحرية ، وان هذه النوبة هي نوبة الجزائر وتونس . انيل الحكم الذاتي بحيث لا يبقى بينهما وبين فرنسا الا صلة حلف فقط . وان الألمان الذين هم أشد أعداء الاسلام ، قد خدعوا تركيا ، بل استمالوا فرقة الجون ترك فقط . وهي الغالبة على الأمر والآخذة على يد السلطان الخليفة ، فأعلنت هذه الفرقة الحرب بدون علم الخليفة وبلا علم الأمة ، وكذلك الفتوى بالجهاد هي تزوير من فرقة جون ترك ، هذه التي هي مارقة من الاسلام تهين الدين وتجاهر بعدوانه ^(١) وسيكون نصيب تركيا فيما لو انتصرت ألمانية ، السقوط بين أيدي الألمان الذين سيقضون على الاسلام القضاء المبرم بعكس الحلفاء الذين هم أحباء الاسلام ، ولا يريدون بأهله الا خيراً (!) فبعد أن يتسق النصر للحلفاء ستمنح فرنسا الحكم الذاتي الى جميع مستعمراتها الاسلامية ، وستعطى انكلترا مصر استقلالها التام وسيساعد الحلفاء العرب على تأسيس سلطنة عربية ، تتألف من سورية وفلسطين والعراق وجزيرة العرب ، وعلى استئناف مجد الخلافة العباسية . وقالوا لأهل الهند انهم سينالون الحكم الذاتي بأجمعهم ، وأقسموا لهم جهد أيماهم انهم ولو انتصروا على تركيا ، فلا ينال تركيا من الحلفاء أدنى سوء ، بل كل ما يريدونه من تركيا هو الانفصال عن هذه الدولة الألمانية التي تنوى وضع اليد على تركيا . هذه التصريحات والتأكيدات كررها الحلفاء ألوفاً من المرات على أهالي مستعمراتهم الاسلامية ، لا سيما الجزائر وتونس ومراكش ومصر والهند ، وعلى الامة العربية ، ولبثوا يكررونها الى السنة الرابعة من الحرب العامة ، اذ قوى أملهم بالنصر النهائي فعند ذلك تغيرت نعمتهم ، وبدأت تلك الامم التي انقادت لوساوسهم تلحظ انها انما وقعت في شرك ، وانها كانت من تمويهاتهم في غرور مبين . ولقد أصابت احدى الجمعيات السورية في أمريكا بوصفها الحلفاء أثناء الحرب العامة وهم يشنون الدعوة لقضية تحرير الشعوب بزعمهم . فقالت في منشور أذاعته بعد الحرب : « فلورأيت الحلفاء ودموعهم

(١) واستشهدوا على ذلك بأشياء

تسبيل ، وهم يستنهضون الأمم لنصرتهم في هذه الحرب التي لم يتابعوها بزعمهم إلا لأجل تحرير الأمم كافة ، وقهر التسلط الألماني الخ » نعم بقي الحلفاء يشنون هذه الدعوة ودموعهم تسيل رقة وحناناً (!) الى أن قضوا وطبرهم ، فقلبوا ظهر المجن لسكل من عاونهم وقاتل في صفوفهم ، وجفت دموعهم اذ ذاك ، وعادوا ذئاباً بعد أن كانوا جلالاً ، وتناسوا كل ما تعهدوا به أثناء الحرب بدون أدنى خجل ولا وجل ، فلذلك هاجت أحقاد تلك الأمم التي خدعوها بزخرف القول وختلوها بمواعيد ، لم تعد مواعيد عرقوب عندها شيئاً ، وقاموا عليهم من كل جهة ، فنهضت مصر تطالب باستقلالها التام ولم تزل ناهضة ، وحنق أهل الجزائر من خلف المواعيد الفرنسية حنقاً دل عليه صنيعهم في انتخابات ١٩١٩ ، التي لم يربحوا فيها واحداً موالياً لفرنسا . ولا تزال الحركة الوطنية تقوى فيما بينهم بفضل سوء السياسة الاستعمارية لا بدسائس الأناضول ولا بتحريكات الجامعة الاسلامية ، وازدادت ثورة المراكشيين اشتعالاً ، وهي منذ خمس سنين مضت من بعد الحرب العامة لم تسكن يوماً واحداً ، وثارَت الهند ثورات مختلفة الأنواع ، منها بالسلاح كما في شمالي الهند وكثورة الموبلاه في المليبار وغيرها ، ومنها بالسياسة كاللؤتمر الوطني الذي انعقد ممثلاً من جميع شعوب الهند وأديانها ، وكاتحاد المسلمين والهندوس ، وقيام جمعية الخلافة ، ومقاطعة المتاجر البريطانية بحيث نقصت في الهند نحو ٣٠ في المائة . ثم قام أهل العراق في وجه الانكليز ، الذين كانوا أعلنوا لهم يوم دخولهم بغداد سنة ١٩١٧ ، أنهم لم يأتوا ليملكوا بلادهم ، بل ليعيدوا اليها الحكم العربي كما كان ، فلما استوسق الظفر لانكثرة حاولت الاستيلاء على العراق والحاقها بالهند ، فثار العراقيون بها مدة سنتين أذاقوها فيها عرق القربة ، ولم يضعوا السلاح حتى مكنتهم من تأسيس حكومة عربية ، اشترطوا أن تكون مستقلة استقلالاً تاماً ، ولن يبرحوا حتى يروا استقلالها تاماً ، وأما أهل تونس فترك القول لهم ، فقد ورد في كتاب « تونس الشهيدة » المطبوع في باريس سنة ١٩٢٠ في خلاصة الكتاب ما يأتي :

« كانت مفاداة الشعب التونسي بجانب فرنسا ، في الحرب التي اكبتهسحت العالم المتمدن ٦٥ ألف مقاتل و ٣٠ ألف قاعل من أمة لا تزيد على مليونين من النفوس ، وقد قتل وجرح من الخمسة والستين ألف مقاتل ٤٥ ألفاً ، وكانت لنا ثقة تامة في الحصول
« م ٢٢ - ثاني »

على أمانينا القومية على أثر ظفر الحق (١) والعدل بين الأمم ، وتنفيذ مبدأ تعيين الشعوب لمصيرها ، الذى كان أعظم رجال الدول نادوا به ووعدوا بهذه الشعوب أمام الله والناس . فهذه الثقة هي التى جعلتنا على القيام بواجب المشاطرة الوجيعة بدون قيد ولا شرط فى الحرب العظمى العائدة لخلاصنا فكان ديناً على فرنسا اعطاؤنا حريتنا من وجهين ، الأول الخسائر التى تحملناها من أجلها ، والثانى المواعيد الشهيرة التى قطعتها لنا ، فقد نالت الشعوب الصغيرة حتى من التى كانت فى صفوف الأعداء حريتها ، أما نحن فقد ادخرت لنا فرنسا لأجل المكافأة على خسارتنا طريقة من أغرب ما يتصوره العقل ، وذلك بتهيئة برنامج استثمار جديد زيادة على القديم ، تتمكن به من غصب أملاكنا وهضم حقوقنا ، فقد اعترمت ايطان فئة من صعاليك الفرنسيين ومعتريهم ومحاييهم فى بلادنا ، ونيسير أسباب معاشهم من مالنا وتقديم الأراضي اللازمة لهم من أرضنا . فها هي فائدة فرنسا لعمري من متابعة خطة هي من سنة ١٨٨١ ، وعلى الخصوص من سنة ١٨٩٢ حتى اليوم مصدر كل عمل تأتبه فى تونس وبدلاً من أن تعدل عنها ولو على وجه المكافأة لرزاينا من أجلها ، تكون النتيجة ، أنها بعد انتهاء حرب الحق والعدل (١) تزداد فيها توسعاً وتقناً الخ .

لا نطمح أن ننقل هنا كل ما ورد فى « تونس الشهيدة » من الحقائق الرسمية ، التى تثبت الى أى حد وصل الفرنسيين من استثمار تلك البلاد ، واستعباد أولئك العباد ، وكما تقدم كانت مكافأتهم على الخمسة والأربعين ألف رجل الذين فقدوهم فداءً لفرنسا ، أن قررت الحكومة الفرنسية ارسال كل المحاييج والسفلة والأفاقيين الذين فى بلادها الى تونس ، واعطاءهم أراضى فيها من أملاك الحكومة التونسية وأوقاف التونسيين ، والاتفاق عليهم لعمرارة تلك الأراضى بواسطة قرض يعقد باسم تونس ، ويدفع فائضه أهل تونس .

وبالجمله فإذا شاهد المسيور روجر لابون ومن على شاكلة هيجاناً فى العالم الاسلامى . فليبحث عن أسبابه فى مظالم الحكومات الاستعمارية ، ونكثها بمواعيدها ، وخبثها هذه الشعوب بعضا العلف ، واستنثارها بأراضيه ، وأموالهم ، ووضعهم تحت أقدام المستعمرين حقارة وإهانة فالتعويب الاسلاميه والشرقيه مهما بلغ بها الضعف فلن تقر فى يوم من الأيام على العبودية للأوربيين ، يلزم أن يرفع الأوربيون خيال تأييد هذه العبودية من رؤوسهم وأما زعمه أنه بعد معاهدة مودروس كان الاسلام بأسره قد استخذى ، وصار منتظراً أى

حكم يصدر من أوربا ليطيعه ، وإن السبب في كونه رفع رأسه فيما بعد ، واستأنف آماله ، وعاد الى المخاصمة ، هو ما رآه من انصراف الجيوش من الشرق ووقوع المنازعات بين الحلفاء فهذا كذب محض ، وبهتان بحت ، ينقضه التاريخ وتكذبه القیود الرسمية ، فقد وضعت الحرب أوزارها ، ومصر والاساتنة والعراق والأناضول والقوقاس وسورية ملائى بجيوش الحلفاء التى لبثت مرابطة فى هذه البلدان مدة طويلة . وعندما أهالى مصر نهضوا لطلب استقلالهم كانت مصر تموج بالجيوش الانكليزية . وإن أهل العراق هبوا لمقاومة انكسار غير هيايين المائة والعشرين ألف جندى ، التى ساقتها عليهم ، كما أنه لما نهض مصطفى كمال فى الأناضول كانت الجيوش الانكليزية فى الاساتنة والأناضول والقوقاس بعشرات الألوف ، وكان جيش فرنساوى نحو ٤٥ ألفاً فى كيليسيا ، وجيش آخر فى الاساتنة وجوارها ، وكان جيش للارمن فى حدود أرضروم ، وبعد ذلك زحف ١٥٠ ألف يونانى ، فأطبق الأعداء على الأناضول من كل جهة ، ومع هذا فلم يزد الترك ذلك الاثباتا . فكيف يقال انهم تشجعوا بانصراف الجيوش عنهم . وأما فى سورية فبلغ عدد الجيش الفرنساوى ٧٠ ألف مقاتل ولم يمنع ذلك أهلها من مقاتلة الفرنسيين ، ولا صرفهم الخوف من كثافة الجيوش عن طلب حقهم الذى لا يزالون يطالبون به ، وأما شبالى الهند فلما زحفت عليه القبائل الأفغانية وجيش كابول ، أرصد الانكليز لمقابلتهم ٣٠٠ ألف مقاتل ، فكيف يكون المسلمون قد طمعوا وتجروا بانصراف الجيوش عن بلدانهم . وكذلك فارس أجبرت الانكليز على الجلاء عن بلادها ، والجيش البريطانى منتشر فى أكثر البلاد .

ثم يقول كان أكثر الناس مناهضة لقضية تجنيد الوطنيين هم الذين حصلوا العلم فى مدارس فرنسا . إذا فالفریق الذى تلقى تربية اسلامية والفریق الذى تلقى تربية أوربية كلاهما واحد فى طلب الحرية ، وهذا أمر بدهى ، اذ لا الاسلام يرضى لأبنائه بهذا الاهتزام ، ولا أوربا تجيزه على أمة من أبنائها ، وكلا التعليمين ملتقيان فى نقطة الاستقلال وإن السفسطة التى معناها أن المسلم لا بد أن يكون تحت حكم أوربى لاجل انتظام سير المدينة التى ديارته تمنعه منها ، هذه لا يقبلها المسلم العتيق ولا الجديد ، بل لا يقبلها أوربى عنده وجدان سليم ، وماهى الا أكنوبة خلقت لتسويغ الاستعمار واقناع الأحرار من الاوربيين ، الذين يقولون : « ما لنا ول هؤلاء القوم نهضم حقوقهم ، ونتحكم فيهم ، ونذهب

فنهاتلهم في عقر دورهم « فيريد حزب الغزو والاستعمار أن يجاوبهم : « ان هذا ليس في شئ من الظلم ، لأن هؤلاء القوم لا يزالون عصاة على المدنية ما داموا مسلمين » . ثم يقول وهو من أغرب ما سمع في باب القحة انه « منذ خفق العلم الفرنسي فوق مرسى الجزائر تكون بين هذه الأمة وثام لم تعرفه من قبل » . وفي محل آخر يندب قصور عمال فرنسا في تأريث نار الشقاق بين العرب والبربر كما كان من قبل . وقلما سمعنا أن قوما يدعون أنهم في أرق طبقات المدنية يأسفون من كونهم لم يحسنوا التفرقة ، ولم يحكموا العداوة بين الأمم التي ساء بختها بسقوطها تحت أيديهم ، ويعلمون أسفهم وندمهم من جراء هذا الإهمال . على أن كلامه هذا هو كذب محض ، فإن عمال فرنسا في الجزائر لم يهملوا وسيلة لشحن العداوة بين العرب والبربر الا توسطوا بها ، ولكن الذي جمع بين العرب والبربر هو رابطة الاسلام ، ورابطة الظلم المحيط بالقربيين . واذا كان عمال فرنسا منذ أول احتلالهم لسورية أي منذ سنة ١٩١٨ الى ساعة تحرير هذه السطور ، لم يفتروا يوما واحدا عن تأريث الضغائن الدينية بين المسلمين والنصارى في سورية وبين النصارى والدروز في لبنان ، بعد أن كانت هذه الضغائن والاحول قد سكنت وتلاشت تقريبا ، فتجد سورية ولبنان اليوم في أسوء حال من هذه الجهة مما بذرتة يد الاحتلال ، التي ظنت انها لا تمتد الا على بساط شقاق ، ولا تتمكن الا من خلال فتنة ، فما ظنك بما كان يفعله عمال فرنسا في الجزائر من تحريك الاحن بين العرب والبربر الذين ليسوا في مستوى أهل سورية ، لكن فرنسا لاتكلم بيد الا وتأسو باخرى ، فكل ما زرعه عمالها من الشقاق بين ذينك الجيلين في المغرب ذهب بفضل الظلم والغصب والامتهان وسوء الادارة ، التي وحدتهما . وهذا شان كل من حاق بهم خطر عام . وليس بصحيح انه لما دخل الفرنسي الجزائر كان فيها ٨٠٠ الف بربري غير مسلمين ، فالاسلام دين البربر قاطبة منذ أكثر من الف سنة ، واللسان العربي هم يعرفونه جميعا الا ما ندر من جهلائهم . وقد اجتهد عمال فرنسا كثيرا في فتنتهم في دينهم ، ووقفوا الى بعض ما قصدوه وذلك بأن أدخلوا عليهم الشكوك في عقائدهم ، فاصبح بعضهم معطلين أو ملحدين ، ولكن لم يتمكنوا من نقلهم من الاسلام الى النصرانية ، ولا ينكر أن كثيرا من الفرنسيين ومن عمالهم أيضا ، هم من ذوي الوجدان والاستقامة وارباب العقل والحكمة فتنهم عن استقامة طبع وطهارة وجدان ، تابوا أن يزعموا مسلمي

الجزائر في دينهم وان ينسكثوا بعهد المحافظة على حرية الدين الاسلامي ، ومنهم عن حسن تدبير ، وبعد ادراك تجنبوا أن يتعرضوا للجزائريين في عقائدهم وشريعتهم خوفا من انتقاضهم ، وتفاديا من زيادة نفورهم ، فهؤلاء هم الذين روجرلابون لا يزال يندد بهم ، ويقبح عملهم ، ويزعم أنهم كانوا يعززون الاسلام ، ويعاونون على تأييده ، وليس الأمر كذلك فما من فرنسوى على وجه الأرض عزز الاسلام أوسعى في نشره ، وانما هناك فئتان احدهما ، ترى التعرض للمسلمين في كل شيء حتى في دينهم ، وأخرى ترى ذلك من قبيل اللعب بالنار وتتوجس من ورائه الثورات والفتن ، فلا تحب أن تتعرض للدعوة الدينية ، ولا أن تثير هذا الساكن ، وان رضى بشيء من ذلك تنسكت فيه الطرق الرسمية . على أن تميز غير المسلم على المسلم في شرق افريقية وسائر مستعمرات فرنسا ، ليس بمأتمنى فيه فرنسا الضراء ، وناهيك انه من نحو عامين فقط ، اقترح أحد نواب السوسيا ليست في البرلمان الفرنساوى الغاء قانون ، بمقتضاه لا تعطى مكافآت عقارية لذوى الخدمة النصح الاسلاميين واليهود ، ومن يتنصر من المسلمين . وهذا قانون ليس بقديم العهد ، بل وضعه مجلس نواب فرنسا منذ ثلاثين سنة ، وقد أجابت الحكومة على اقتراح النائب الاشتراكي بأنه يليق الغاء هذا القانون بعد الخسائر الجلية التي تحملها الجزائريون فداء لفرنسا . فأنت ترى كذب دعوى هؤلاء ، الذين يزعمون أن الحكومة الفرنسية قصرت في احتقار الاسلام واهتضامه في الجزائر . نعم هناك فئة قليلة من الفرنسيين ترى هذا الضغط بشئ التدبير ، ولعمري كل عاقل في الدنيا يحكم لهذه الفئة بالصواب في رأيها .

ثم يفترى على الاسلام بقوله انه مادان به شعب الا تأخرو وتقهر ، وانه مانع ، بقوانينه الدينية من الترقى الاجتماعى . والحال أن الاسلام ليس فيه شيء يمنع الترقى ، ولا توجد شريعة في الدنيا تقدر العلم وتعالى شأن العرفان وتجعل العلماء تلو الأنبياء كشرعية الاسلام ، واذا كانت الأمم الاسلامية قد انحط شأنها في القرون الأخيرة لأسباب عديدة من جللتها : تكالب أوربا على بلادها ، وتظاهرها على استئصال قوتها فلم يكن نفس الاسلام هو باعث القهقرى بل كانت لذلك بواعث أخرى لم تخل منها أمة ومثال ذلك أن أوربا بقيت منحطة جاهلة ، متغشمة ، ملفوفة في حنادس الهمجية ، من بعد ماتنصرت بألف سنة . وبلغ من جهلها وانحطاطها أن مائة عربى افتتحوا قسما من ايطالية وقسما من سويسرة

في أوائل القرن العاشر ، واستولوا على أكثر الجبال والمضايق ، وبنوا القلاع والأبراج ، وجاذبوا الحبل جميع ملوك تلك الأطراف ولبشوا مالكي هاتيك الحصون والقلاع ، ضاربين على أهالي تلك البلاد الذلة والمسكنة نحو قرن تام ، ولم يكن عددهم أنمي مانموا وأكثر ما كثروا يزيد على ألف رجل ، نجزى بهذا الفتح العجيب عن ذكر فتوحات العرب للاندلس ولجنوبي فرنسا وجنوبي ايطالية الخ وتهذيبهم أهالي جميع الممالك التي احتلوها وغلبوا عليها . فكما أن همجية أوربا لذلك العهد لم يكن السبب فيها الدين المسيحي ، فانحطاط الاسلام اليوم ليس السبب فيه الشرع المحمدي . وانما هي أدوار تتعاقب ، وتارات تتناوب ، وكل مملكة أوكل مدنة تطراً عليها أحوال من داخلها ومن خارجها ، فتشقى وتسعد ، ثم تعود فتشقى ثانية ، ثم تعود فتسعد ثانية وهلم جرا . ولقد سعدت قرطاجنة ثم شقيت وكان دينها واحدا ، ولقد علت رومة في أيام الوثنية ثم سقطت في أيام النصرانية ، فهل كان الدين المسيحي هو السبب في سقوطها ؟ كلا . ثم هذه اسبانية منذ أر بعمائة سنة ، كانت أقوى مملكة وأزهر مملكة ، وكانت اكتشفت أميركا وصارت في بسطة مستعمراتها نظير انكثرة الحاضرة ، ثم لم تزل ترجع الى الوراء حتى عادت كالعرجون القديم ، وصارت تعجز عن قبائل الريف ، ولما كانت في عنجبية عزها كانت نصرانية ولما وصلت الى حالتها بقيت نصرانية . وكان التتر غالبين على الروس وملوك الروس يؤدون الجزية الى أعقاب تمرلك احقابا متطاولة ، ثم أصبح التتر كلهم رعايا الروس ، وصارت الملوك الباقية لهم اتباعا وخولا لقيصر روسيا ، ولما علا التتر كانوا مسلمين ولما انحط الروس كانوا نصارى والآن تغيرت الأحوال ، وكل باق على دينه . والدولة العثمانية الاسلامية وصلت الى بولونيه ، واستولت على المجر ، وحاصرت فينا ، وصارت ملاذاً لفرنسا وناهضت أوروبا بأجمعها قروناً عديدة ، وكانت هي مسالمة ، وكانت أوربا نصرانية أكثر مما هي اليوم . فمن العبث أن نقول ان الدين المسيحي أو الدين الاسلامي ، هو سبب تأخر هذه المملكة أو تقدمها وانما التأخر أو التقدم تكون له مقدمات وأسباب تتراكم فتعمل عملها ، وناهيك أن اليابان أمة شرقية وثنية ، بلغت باجتهادها وصدق عزيمتها أن ضارعت أقوى دولة أوربية لابل ، قهرت أقوى سلطنة مسيحية وهي الروسية ، فلما كانت لم تزل في دور الانحطاط جاهلة بمجهود علولا ذلك في أوربا بكونها أمة غير أوربية ، وغير مسيحية ، كما يعللون اليوم أسباب تأخر

ممالك الاسلام فلما نهضت اليابان نهضتها هذه ، وكذبت فلسفتهم المبينة على الاهواء والمآرب ، لم يقدروا أن يدعوا أن اليابانيين تنصروا حتى أمكنهم أن يتقدموا ، ولولا تنصرهم لما بلغوا هذه الدرجة فزعموا أن اليابانيين وان لم ينصروا فقد تفرنجوا ، ولولم يتفرنجوا لم يصيروا الى هذه الرتبة . وبعضهم لم يجرؤ أن يقول ان اليابانيين تفرنجوا فقلوا : ان اليابانيين قاموا بانقلاب اجتماعي في داخل بلادهم حتى رقوا هذا الرقي . ان هذا لعمرى كلام فارغ ، فان كل أمة تعتمد على العلم والعرفان ، وتعمم المدارس في بلادها ، وتنشد الانوار من حيث أتت ، يحصل بها انقلاب اجتماعي بطبيعة الحال ، فاليابان نشدت العلم وأخذت ماعند الأوربيين من المعارف والفنون ولكنها بقيت شرقية في كل شيء ، بل بقيت على دينها مذهب سينتو مع مذهب بوذا ، لم تحد عنهما ، ويخطئ من يظن أن اليابان بعد أن تعلمت وترقت ، أصبحت بلادين أو استخفت بالدين . فان كان من أهلها دهيرون أو قائلون بالطبيعة ، أو بوجود قوة مبدعة خصب ، فهؤلاء يوجد منهم في كل أمة . وبالاختصار فيمكن الاسلام أن يرقى رقى اليابان ورقى أوربا ويبقى مسلماً ولكن الفئة المستعمرة من الافرنج يريدون أن يلبثوا متسلطين على بلاد الاسلام ، فلا يزالون ينتحلون لديمومة سلطتهم عليها أعالييل ومعاذير ، من جللتها أن الاسلام دين جود أو ميثار فوضى وخلل فلا يترك وشانه ، كما كرر ذلك هذا الرجل عدة مرار كذبا وميناً .

ومن غريب مارواه ان قسيسا عربيا من سورية جاء بلاد الجزائر وصارت له مكانة عند أبناء جلدته عرب الجزائر ، فأولو الأمر من الفرنسيين هناك حرصا على عدم تنصير المسلمين طردوه من الجزائر ، والذي يظهر لنا ان كانت هذه الحكاية صحيحة ان هذا القسيس بسبب كون لغته هي العربية ، أراد أن يدخل مع المسلمين في مباحثات ومناظرات دينية ، وربما يكون تجاوز الجدل الى النيل من الاسلام مما أدى الى هيجان الأفكار ، ورفع بعض المسلمين القضية الى أولى الأمر ، خافوا الفتنة وطرّدوا الكاهن المذكور وبرهنوا بطردهم اياه على عقل وحكمة . ولو أن داعيا مسلما دخل بين جماعة من النصارى الذين تحت حكم الاسلام ، وطقف يجادلهم في دينهم ويثير خواطرهم ، وكنت واليا في ذلك المكان لطرّدته ، وكان في ذلك عين المصلحة . أما قول هذا الفرنسي أن الكاهن السوري كان عند أبناء جلدته عرب الجزائر فهو غريب فان الفرنسيين بعد دخولهم سورية جعلوا العرب

غير السوريين والسوريين غير العرب ، واجتهدوا في اثبات كون السوريين هم من سلائل الآراميين والفينيقيين وانهم ليسوا من العرب ، حال كون السوريين هم في الأغلب من العرب الذين أوطنوا سورية قبل الاسلام وبعده ، والذين هم من أصل فينيقي هم عرب أيضا لثبوت هجرة الفينيقيين من جزيرة العرب والذين هم من سلائل الآراميين عدا كونهم ساميين أبناء عم العرب قد ذهب الأكثرون من محققى علم التاريخ في أوربا ، ان آباءهم الآراميين جاءوا أيضا من جزيرة العرب مهد الأمم السامية بأسرها .

ثم ادعى أنه لم تنسق للاسلام مدينة تذكر الامدة قصيرة أيام الأمويين بالأندلس والعباسيين في بغداد أى نحو ثمانمائة سنة في الأندلس ، ونحو خمسمائة سنة في بغداد فهذه الأدوار رآها قصيرة لتعزيز برهانه الساقط ، مع أنها أطول على كل حال من مدينة أوربا ، التي لم تبدأ الا منذ أربعمائة سنة وفي القرون الوسطى كانت كمدينة أوربا اليوم . وبعد أن اتهم الاسلام بالجوذ والخول ، وعدم القابلية للنباهة ، زعم أنه أخذ اليوم يتوسل الى العلم ، ويجتهد في صنعة السلاح ، ولم يقف عند السلاح المادى بل تجاوزه الى السلاح المعنوى ، الذى هو الطبع والنشر وصارت له جرائد كثيرة في الشرق والغرب قائمة بدعوة اتحاد الاسلام . اذن الاسلام لم يكن جامدا كما يدعى هؤلاء الناس . ثم يتكلم على اسلام السودان وانه مشوب بخرافات فتيشية ويتفاعل بذلك خيرا ، وأكثر هؤلاء على هذا النمط من التفاؤل بعدم تحقق السودان بالاسلام الحقيقي " ، فلا أكاد أقرأ لكاتب أو سائح أوربى كلاما على اسلام الزوج أو الجاوى أو الصينيين أو غيرهم ممن أسلموا حديثا الا رأيته يجتهد في اثبات كون اسلامهم ليس تاما ، وانه لا تزال عندهم عقائد وثنية أو عادات وثنية . وكأن هؤلاء الأوربيين يسلمون أنفسهم بذلك من قبيل ، اللهم اتنا لا نسألك دفع القضاء ولكن نسألك اللطف فيه . فعداوتهم لمذهب بوذا ومذهب سينتو ودين براهما ، بل لعبادة الضم نفسه ، ليست بدرجة عداوتهم للاسلام ، الذى كله توحيد وتنزيه . وأما قوله ان الزنجى لم يسلم الا لينال رفعة ، ولما كان يرى الأوربى أعلى من المسلم كان الأولى أن يتخذ دين الأوربى لنفسه . فنحن لا يسؤنا أن الاسود الفتيشى يصير نصرانيا كما يسؤ أكثر الأوربيين صيرورة الفتيشى مسلما ، لاتنا نعلم أن النصرانية ترق عقله وخلقه ، وترفع سويته الاجتماعية عما كان . ولكن الزوج الفتيشين بالرغم عن جميعات التبشير التي

لا تعد ولا تحصى وعن نفوذ أوروبا الذى يكتنفها سواء من الدول الكاثوليكية أو البروتستانتية ، وعن « كون الاوربى هو أعلى وأقوى من المسلم » فى نظر الزنوج ، فلا يزال هؤلاء يرجحون الاسلام ، ونحو ٤ مليوناً من هؤلاء دانوا به فى القرن الماضى ، وفى هذه المدة ، بدون بعثات ، ولا جمعيات ، ولا دول تعضد الجمعيات . ولا ننكر ان كثيرين من هؤلاء الزنوج الفتيشين تنصروا ، وقد أحسنوا بذلك صنعا ، لكن هؤلاء فئة قليلة فى جانب الذين أسلموا كما يعترف بذلك سياح الاوربيين ، الذين جالوا فى افريقية وكتبوا عنها ، وأنفس المبشرين والرهبان الملقبين بالرهبان البيض وغيرهم ، ممن كتبناهم ملأت الدنيا بهذه القضية .

ثم قال : ان البلاد الضاربة فى الشمال هى غير مساعدة على انتشار الاسلام فيها ، لائن طول النهار المفرط وقصره المفرط ، يحدثان خلافاً بمواقيت الصلاة ، فيتطرق الشك الى قلب المؤمن . الى غير ذلك من التهكم والرقاعة مما كنا نحب أن لا نجابه عليه لسخفه ، ولكن قلنا حيث اننا خضنا فى هذا الموضوع فلنتناوله بأطرافه فنقول :

ان أحكام الصلاة والصوم جعلت لاغلبية البلاد التى فيها النهار نهار والليل ليل ، فلا يضر تلك الأحكام بعض أقسام من الكرة هى من النادر الذى لا يعتد به . على ان الفقهاء قرروا انه فى مثل هذه الاصقاع النادرة ، التى يطول فيها النهار هذا الطول المفرط أو يقصر هذا القصر المفرط ، يكون العمل فى الصلاة والصوم مقبلاً عليه فى أقرب بلد من تلك الجهات ، وانحل بذلك الاشكال ، وليس فى الاسلام حرج بل هو أوسع وأسمح مما يتخيله هؤلاء القوم أو مما يريدون أن يخيلوه لأبناء جلدتهم . وان القرآن الكريم ليس بكتاب جغرافية ولا قوسموغرافية ، بل كتاب توحيد وتنزيه ، وتهذيب نفوس ، وتطهير أخلاق ومع هذا فلم يرد فيه شئ يخالف قواعد العلم بل وجدت فيه آيات بينات يحار غير المؤمن بالوحى من شدة مطابقتها للتحقيقات الحديثة سواء فى علم الفلك ، أو فى علم تكوين الأرض مما كان فى عهد نزول القرآن مجهولاً ، وذلك مثل آية « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا » ، تأمل ما فى هذه الآية من الانطباق على جميع النظريات العلمية الحديثة التى معناها ان الأرض والاجرام الفلكية كلها كانت كتلة واحدة فانفصل بعضها عن بعض ، وكذلك ان الحياة بدأت فى

المياه . ثم تأمل هذه الآية « وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » التي تثبت انه لا يوجد في الفلك جرم غير متحرك على الاطلاق مع أن الفلكيين في عصر القرآن كانوا يقولون بالسيارات والثوابت حتى التجأوا يومئذ عند تفسير هذه الآية الى التأويلات والاحتمالات البعيدة ، الى أن تقرر في علم الهيئة الجديد كون الاجرام الفلكية بأجمعها متحركة ، وصدقت الآية بدون أدنى تأويل . وانظر الى قوله تعالى « مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ » وكيف كرر ذلك مراراً حتى يفهم الانسان ان الخلق كله من حيوان ونبات وجاد ، مبنى على الازدواج حتى النبات فيه ذلك ، والجاد فيه القوتان السلبية والايجابية مما لم يكن شئ منه معلوماً في زمن البعثة ، فلم يفهم العلماء بعد مرماه الى أن تكفلت به التحقيقات العصرية . وأمعن النظر في قوله « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » مما هو المثل الملازم لكيفية دوران الأرض مع سكونها الظاهر وتدبر قوله « اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ » الآية التي يشير فيها الى القوة الكهربائية وغير ذلك من الآيات التي تدهش القارئ المتعلم ، بما فيها من الحقائق العلمية بشرط أن يكون ذا ملكة عربية ، يقدر بها أن يتدبر عمق غور تلك الآيات لا أن يكون أجنبياً عن أدب العربية . وقد ألف العلامة الفلكي العظيم ، المنقطع النظر في علم الفلك والطبيعة والتقويم المرحوم الغازي أحمد مختار باشا كتاباً في تطبيق الآي القرآنية على العلوم العصرية ، جمع فيه نحو تسعين آية كريمة ، وأوضح ما جمعت من القواعد العلمية بأوجز لفظ وأقصر تعبير يعجز عن مثله البشر ، كما أنه شرح هذه النظريات كلها حسبما اتفق عليه علماء العصر الحاضر ، وأخرج منها وجوه المطابقة طالعة كالشمس ، وبلغنى ان أحد الضباط الأتراك ممن نبغ في علم الفلك والهيئة ، نبوغاً باهراً قد ألّف كتاباً ممتعاً جليلاً أجاد فيه الى الدرجة القصوى تطبيق قواعد هذا العلم على القرآن ، فعلمت بكتابه هذا بعض جعيات التبشير المعهودة ، فأخذوا يراودونه في أن يبيعهم إياه بثمان جزيل لأجل أن يحرقوه ، ويخفوا من الارض كتاباً فنياً يستدل به على فضل القرآن المجيد ، وانطباقه على العلم . وليس هذا ببعيد عن هذه الجمعيات المنهوسة . ولولا كوننا تتجاف عن المناقشات الدينية ، ونكرها ونعتقد ضررها ، ونوجب حرمة الكتب السماوية التي تتمسك بها أديان محترمة كالدين المسيحي وشريعة موسى ، لآوردنا في مقابلة تهكم هذا الرجل بالقرآن أقوال العلماء المحققين من أبناء جلده الفرنسيين

في اطلال نظريات التوراة من جهة تكوين الارض وبدأ الخلق ولكننا نؤثر اجتناب كل قول يمس عواطف هذه الملل الكريمة التي نرى أعظم خدمة للانسانية ايجاد الوثام بينها وبين الاسلام ، ولكن ان أبي الالمراء نحيله على كلام أكبر فلكي فرنساوي المسيو فلاماريون الشهير ، في خاطراته من صفحة ١٧٠ الى صفحة ١٧٨ حيث يذكر أنه كان مؤمنا معتقداً ناشئاً نشأة دينية ، وبقي كذلك الى الثامنة عشرة من عمره ، اذ بدأت تخالجه الشكوك وذكر أسباب هذه الشكوك وأظهر أن أصلها هو عدم الانطباق بين الفن والدين ، وأتى هناك على قصة كوبرنيك ، ثم غاليله الفلكيين العظمين ، والحرم الذي صدر بحق الاول ثم الثاني . وان شاء التوسع في ذلك فليقرأ كتاب « اختلاف العلم والدين » للعلامة درابر الاميركاني وغيره مما لا شأن لنا فيه ، لاننا نحن هنا في مقام سياسي لا نحب أن نخرج عنه ولاننا نكره المناقضات الدينية ، ولنا على رأى التهافت على الكتب السماوية بالانتقاد والتخطئة كلما وردت فيها عبارة تخالف قاعدة علمية أو حقيقة فلكية فمنا نفندها ، فان هذه الكتب انما هي لغرض آخر آخرى ، ولا بد من أن ينظر فيها الى طاقة العوام . في الفهم والآفات الغرض المقصود منها ، فضلا عما في آيات هاتيك الكتب المقدسة من الكنايات والمجازات المألوفة في اللغات التي جادت بها ، فلا بد لقارئها من أن يلحظ هذا الامر .

ثم قال ان الاسلام لم يوجد ليمتد الا في صحارى آسية الواسعة التي تتجلى فيها عظمة الله ، ولا يصلح بين الأنهار والشجر الكبار التي تجدد الافق بينها ضيقا كما في بلاد خط الاستواء حيث تصعب معرفة القبلة . وأيم الله قد وصل هذا الكاتب من الرقاعة ، الى حد أن صار الانسان لا يتنزل الى الجواب على كلامه أصلا ولقد ثبت أن الاسلام منتشر في خط الاستواء أكثر من كل مذهب آخر ، ولكن قد ظهرت نيته من هذه المباحكات ، وهي أن يحمل الحكومة الفرنسية على عدم الاعتراف باسلام السود ، ومعاملتهم كزنوج فتيشين تنصرف الحكومة بهم كما تشاء في العقيدة كما أنه يوجد في جزيرة ماداغسكار قبائل كثيرة أسلمت بواسطة الطارئين على تلك الجزيرة من عرب زنجبار وجزر القمر ، فلم تشأ الحكومة الفرنسية المسيطرة على الجزيرة أن تعرفهم بصفة مسلمين ، بل بقيت تعدهم وثنيين ولا تعتبر مسلمين الا المسلمين الغرباء النازلين بالموانئ ، وما المقصود من انكارها اسلامهم الا التعرض لهم في عقائدهم وردهم عن الاسلام قسرا .

ثم لاجل ترغيب الحكومات الاوربية في تنصير الزوج ومنع انتشار الاسلام قال ، ان اقلية ذات بال من السينغال صارت مسيحية ، وان أهالى الاوغانده صاروا كلهم نصارى ، فليس الاسلام هو الدين الطبعى للسود كما يقال دائماً . ونحن نجابه انهم ان كانوا نصارى ، فهو أفضل جداً عند الاسلام من أن يبقوا فتيشين يعبدون الوثن أو النار أو مظهرها من مظاهر الطبيعة فان النصرانية تزلفهم من الانسانية وتبعث فيهم روح الفضيلة ، وتنشأهم من ذلك التوحش الذى كانوا فيه . وذلك بخلاف ما يمتنى كثير من الأوربيين ، الذين أعمى الغرض قلوبهم من أن يبقى الزوج على الفتيشية ولا يصيروا مسلمين ، مع أنهم في دخائل ضمائرهم يعلمون مزايا الاسلام العالية ورغبة أهالى افريقية فيه أكثر من غيره . أما قوله ان جميع أهالى الاوغانده صاروا نصارى ففيه مبالغة وهو مثل قوله ان بلاداً بأسرها مثل هرر صار أهلها نصارى . وهاك ما ورد عن الأوغانده فى انسيكلو بىديا المسيو موريس فال Maurice Wale التاريخية الجغرافية ومؤلفها من خول علماء فرنسا ، وهو مفتش المعارف العمومية فى المستعمرات أى خير بأحوالها فهو يقول عن الأوغانده : « انها قطر فى الشمال الغربى من بحيرة فيكتوريا نيازا ، مساحتها ١٥٠ ألف كيلومتر مربع وأهلها مليون نسمة ، قد حصلت فيها قلاقل على أثر موت الملك متيزا بسبب المناظرات الدينية بين المسلمين والكاثوليك والبروتستانت ، وقد تغلب البروتستانت على الآخرين بعض ضباط الانكليز لهم ، والاوغانده هى تحت حاية انكلترة » انتهى . قلنا ان الانكليز اقتطعوا الاوغانده من أصل السودان المصرى استبداداً من عند أنفسهم وضموها الى مستعمراتهم ، ولم يرضوا أن يبقوها من جلة السودان المصرى ، لأن السودان المصرى هو بزعمهم تحت حكم مشترك بين انكلترة ومصر فالانكليز مضطرون أن يقبلوا ولو بالاسم بقاء حصة لمصر فى حكم السودان المصرى ، لكنهم يريدون أن ينفردوا وحدهم بملك الأوغانده ، وقد عززوا البعثات البروتستانية هناك بكل قوتهم ، ولكنهم لم يقدروا أن يستأصلوا الاسلام من تلك الأرض . وأما عن هرر فيقول المسيو فال « انه قد افتتحها منليك نجاشى الحبشة سنة ١٨٨٧ ، وكانت من سنة ١٨٧٥ تابعة لمصر ، وان أهلها ٣٥ ألف نسمة مسلمون شيعة . أما فى دائرة المعارف الاسلامية فيقول ان أهلها ٥٠ ألف نسمة ، منهم الثلث من أهل البلاد الأصليين ، والباقيون بين سوماليين وأحباش وهنود وسوريين وأرمن وروم وأوربيين . الى أن يقول ان

الاسلام دخل هرر منذ سنة ١٠٠٠ للمسيح ، فهو فيها قديم جداً ولا يزال يطرأ عليها أناس من جزيرة العرب ومصر ويبتشون دعوة الاسلام من هرر في بلاد غالا Galla الوثنية ، وقد نقصت هذه الدعوة قليلا بعد مجيء الحبش المسيحيين ، لكن مسلمي هرر لا يزالون معدودين من المتشددين في دينهم » وقد ذكر المسيو موريه Morié الفرنسي في كتابه تاريخ الحبشة المطبوع سنة ١٩٠٤ . أن الامبراطور منليك بعد أن فتح هرر وبدد جمع الأمير عبد الله على عبد الشكور ، هدم الجامع الأعظم في هرر وأقام محله كنيسة . ولم يقل أن أهل هرر تركوا الاسلام ، ولا أحد قال انهم تركوه .

ثم قال انه كان عمل المبشرين شاقاً في البلاد الاسلامية ، فهذا من أجل كونهم يحاولون وضع عقيدة أمم راقية جداً محل عقائد أقوام هم في أدنى الدركات . فنحن نمسك القلم عن الرد على هذه الفقرة التي لا تدل على شيء سوى قحة كاتبها على حين أن الاسلام يهزأ بهذه المطاعن على أن لا يوبن يجعل نصرانية القرون الأولى ^(١) أيضاً من قبيل الاسلام في ملاءمته للمستوى العقلي المنخفض ، فليتأمل الانسان وايتدبر في قحة هؤلاء الناس حتى على الدين الذي ينتمون اليه ، ويريدون بث دعوته بزعمهم .

وبعد أن أشار بالتضييق على التعليم الاسلامي ، ومراقبة من يواظب على صلاته من مسلمي السنيغال ، وبين مضار الحج ، وحرص على جميع هذه التدابير ، التي يعلم منها مبلغ احترام هؤلاء القوم للحرية الدينية ، عاد فأشار بالطرق الآتية الى قلع اللغة العربية من شمالي افريقية ، وجعل الفرنسية لغة الأهالي .

ومن الغريب أنه استشهد على وجوب هذه الطريقة ، بكلام بول برت الذي يقول : ان حل المسألة العربية هو بالسكتاتيب ، وأتمنى أن أرى في كل قرية من قرى المغرب معلماً عربياً ومعلماً فرنسواً ، فكلام بول برت كلام رجل عاقل مجرب لا غبار عليه ، وليس منا من يكره أن يتعلم مسلمو المغرب وافريقية اللغة الفرنسية ، بل نود ذلك من صميم أفئدتنا . وانما الذي يعارضه المسلمون بكل قوتهم هو أن تحل اللغة الفرنسية محل اللغة العربية ، وتصور هي لغتهم القومية ، اذ لا يوجد في الدنيا قوم يرضون بسلب لغتهم مهما كانت ، فما ظنك بالناطقين بالعربية التي يفتخر بها كل منسوب اليها ، ويجل قدرها

(١) أي النصرانية التي هي قرية العهد من السيد المسيح والحواريين

حتى الغرباء عنها . وأما استشهاده بانتشار اللغة الفرنسية في الشرق وزعمه أنه قد تعلمها الأكراد والترك والعرب والأرمن والكرج الخ ، فمع كونه بالغ في دعواه هذه مبالغة عظيمة إذ ليس الامر كما يقول ، وان تعلم الفرنسية منحصر في الطبقة الراقية فقط ، فانه لا ينطبق على الغرض الذي يتوخاه ، لأن مقصود هذه الفئة المستعمرة أن تمحو اللغة العربية تدريجاً من المغرب ، وتحمل الناشئة الاسلامية منذ الصغر على اللغة الفرنسية توسلاً بذلك الى محو الاسلام ، القائم هناك باللغة العربية . مع ان الأمم الشرقية التي يذكر أنها كلها تعلمت اللغة الفرنسية لم تجعل هذه اللغة لسانها القومي ، بل جعلتها في مقدمة اللغات الأجنبية التي يناسب تعلمها لاغير ، فلذلك لم يحدث من تعلم الفرنسي أدنى محذور ما دام تعلماً اختيارياً لا يضر باللغات القومية ، بل يزيدها علماً . ولكن متى حاولت فرنسا عمداً وقصداً قلع اللغة العربية رأساً أو تدريجاً ، وقصر المغاربة على الفرنسية ، قامت عليها القيامة في جميع تلك الأقطار وفي غيرها ، وأظن أن العقلاء في فرنسا يدركون استحالة ذلك .

ولقد تقدم في هذه العجالة ما يكفيننا مؤونة الرد على سائر كلامه ، الذي تجده كثيراً ما ينقض بعضه بعضاً ، ومن جملة تناقضاته أنه بعد كل جلالاته الشديدة على الاسلام يقول انهم لا يحذرون في تونس من عامة الأهالي الراغبين في السعادة والامان^(١) ولا يحذرون من الاسلام نفسه ، الذي أعلى نفوس هذه الأقوام ، حتى تحملت ما تحملته من الخسائر الفادحة . فعرف هنا أن الاسلام يعلى النفوس ، وينهض بالهمم . قال ولكنهم يحذرون من تلك الطبقة المتعلمة الذين قرأوا أشياء فاسدت هضمها عقولهم . ولعمري ما من أمة في الارض قام بتحريرها الا نبهاؤها والطبقة المتعلمة منها فاماذا اذا قام الأروام أو البلغار أو الصرب أو الأرمن أو الكرج الخ ، بطلب استقلالهم كانت الطبقة الناهضة منهم محل اعجاب اوربا وثنائها ، وعطفت جميع تلك الدول المتمدنة عليها ، فاذا جاء الدور الى أمة مسلمة تطلب تحريرها ، قامت أوربا سداً في وجه مطالبها ولو كانت هي اليوم أرق من هاتيك الأمم عند ما نهضت للاستقلال ؟ لماذا كل ما هب قوم من الشرقيين والمسلمين لطرح نير

(١) كما هم راتعون أهل سورية الآن بل أهل سورية لا يزالون أسعد حالا لأن اليد لما تمتد الى غضب أراضيهم وأوقافهم

العبودية عن أعناقهم رموا بالتعصب والتعنت ، وكراهية الأوربيين ، وقيل ان ذلك هو من عمل القرآن في قلوبهم ، ومن تحريض رجال الدين . وان كان المطالبون منهم هم من الفئة التي طلبت العلم في اوربا ، واتصفت بعدم التدين ، قيل انهم طبقة قد قرأت أشياء لم تحسن هضمها ، هذه الجملة التي لا تزال نجدها في كلامهم بكرة وأصيلا ، كلما تكلموا عن أمة اسلامية أو شرقية يطالب نبهاؤها بتحريرها قالوا عنهم هذه الجملة : قرأوا أشياء أساءوا هضمها .

اجال الكلام أنهم غلبوا على هذه المستعمرات واستعبدوا هذه الأمم ، فيريدون أن يحتاطوا لأجل تأييد سلطانهم عليها بجميع الوسائل ، ولا يقفون عن شيء في سبيل احكام سلاسل هذه العبودية ، طائنين أنهم يحفظونها راسفة في هذه الأصفاذ الى الأبد ، فتراهم يفكرون في تهيئة الأسباب لاستئصال كل ما يخشون وقوفه في وجه ما ربههم السيئة ، من دين ، ولسان ، وقومية ووطنية وما هم بقادرين على شيء من هذه المكاييد الشيطانية ، التي لا يزيدهم استعمالها الا خبالا . وان كان ثمة أمل بحسن العلاقات وتمكن الألفة بينهم وبين تلك الأمم ، فلا يكون الا بسياسة العدل والمساواة ، واحترام ديانتهم ولغتهم ، والعدول عن تلك الأساليب الاستعمارية الخبيثة مما هو برنامج أحزاب الشمال منهم .

وان كان ظن هؤلاء الجماعة أن تنصير السودانيين أو المغاربة ، يؤمنهم أبديا على تلك المستعمرات ، ويكفيهم شر استغلالها مما صرح به بقوله : « لسنا في الجزائر كالانكليز بمصر اذ هم يعتمدون فيها على أقلية قبطية » . فهذا وهم عريق في البطلان ، لأن هؤلاء الأمم سواء كانت مسلمة أو نصرانية ستطلب استقلالها وتأخذ وأنت ترى أن أمما كثيرة ثارت على أمم كانت تسودها ، ولم يمنع من ذلك اشتراك السائد والمسود في الدين ، ولديك امبراطورية النمسا أعظم شاهد ، وان قيل ان ذلك يكون في أوربا المتمدة لاني أفريقية أتينا لك بمثل الحبشة مع انكلترا ، ثم مع ايطاليا ، أفتحملت الحبشة حكم الطليان لكونهم نصارى وكونها هي نصرانية ؟ كلا . ثم يقول لسنا كالانكليز الذين يتوكلون بمصر على أقلية قبطية . فهذه لعمرى مكابرة في المحسوس ، اذ يكاد أن يكون الأقباط بمصر أشد تمسكا باستقلال مصر وجلاء الانكليز عنها من أنفس المسلمين ، فأى توكؤ توكأته انكلترا عليهم ؟ وأعجب من هذا أن الزنوج الذين تنصروا في غربى افريقية يكرهون الأوربيين

كما يكرههم الزنوج المسلمون وتجد الفريقين متحابين يود بعضهم نجاح بعض ، وقد تلاقى بعض المسلمين مع بعض كبار السودانين النصارى فى لندن ممن هم حكام فى بلادهم تحت سيطرة الأوربيين ، فوجدهم يتمنون فوز المسلمين كما يتمنون فوز أنفسهم . وفى العام الماضى تقابلنا فى جنيف باثنين من رجال جمهورية ليبيريا فى غينية^(١) وكانا من الأوربيين يمثلان ليبيريا فى جمعية الأمم ، فأخبرانا ان هذه الجمهورية التى تأسست سنة ١٨٢٢ للعبيد الذين تحرروا فى أميركا ، واعترفت الدول باستقلالها سنة ١٨٤٧ ، يسكنها اليوم مليون ونصف مليون نسمة ، منهم مليون ومائتا ألف مسلم ، وثلاثمائة ألف مسيحي و بينهم ٥٠٠ أوربي فقط . والمسلمون والمسيحيون هناك يعيشون كالأخوة ، ويغارون جيعاً على وطنهم . فهذا سيكون مصير افريقية فى يوم من الأيام بازاء المستعمرين ، ولا ينفع الأهالى كون أهل افريقية من هذا الدين أو ذاك الدين .

ولنأت بشاهد آخر على نيات الفرنسيس بحق مسلمي مستعمراتهم ، وهو كتاب للمسيو بريفيه J. Brévié والى بلاد النيجر الفرنسيوى ، الذى عليه صفة رسمية ولا يمكن أحداً أن يمارى بقوله انه كاتب منفرد برأيه الخاص ولا انه خال من الضبغة الحكومية ، فانظر ماذا تقول جريدة الاوفر L'œuvre ، المعروفة انها من الجرائد الحرة ومن حزب الراديكال فى عددها المؤرخ فى ٢٢ يونيه سنة ١٩٢٣ . تحت عنوان :

الجنس الأسود والاسلامية

قد نشر المسيو بريفيه حاكم مقاطعة النيجر كتاباً ممتعاً ، يشرح فيه المقاومة الناجحة التى تبديها الأمم السوداء للإسلام فى السنين الأخيرة ، حال كونه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، غلب الاعتقاد بأن جميع الأجناس الزنجية صائرة الى الاسلام لاحالة ، فالآن مشهودة حركة بالعكس ، وبالرغم من الوعظ والارشاد اللذين يقوم بهما المبشرون المسلمون تجد الزنوج متمسكين بعقائد آبائهم وعادات أسلافهم .

فالمسيو بريفيه فى كتابه المسمى « الاسلامية ضد الطبيعية . فى السودان الفرنسي » Islamisme contre Neturalisme au Soudan Français يعترف أنه مهما كان من مدنى الفتيشيين فى درجات الحضارة فليس من المستحيل عليهم الترقى والتمدن ضمن دائرة

قوميتهم وخارجا عن الاسلام . ففي السنين الأوائل من استيلاء فرنسا على غربي افريقية كان عمالنا بسبب معرفتهم المدنية الاسلامية يميلون الى دعاة الاسلام الذين أمكنهم هكذا ان يشوا بكل أمان تعاليم هي في الظاهر أرقى من عقائد القنثيين (تأمل) أما الآن فتقهقر الدعوة الاسلامية ، أمر لم يبق فيه شك . وان احصاء عدد الناشئة المتعلمة من المسلمين يتناقص في بلاد النيجر ، كما انه لم يتقدم الى الأمام في سائر البلدان التي امتد اليها الاسلام من قبل . وقد عزا المسوور يفيه هذا التقهقر الاسلامي الى تناقص عدد الزعماء ، والى تزايد عدد مدارس التي زاجت مدارس المشايخ المرابطين ، والى الغاء تجارة الرقيق التي هي من الأركان الاقتصادية عند تجار المسلمين ، والى الأمر بعدم مراجعة قضاة الشرع .

فالآن سياستنا عاملة بهذه المبادئ ، وقد توزع بلاغ على مأموري الادارة مصرح فيه بما يأتي : « يجب التزام الحياد مع الانتباه التام بحيث ان كلا من فريق الاسلام والفقيشية يمكنه أن يترقى وينمو في وسطه بدون تسلط هذا على عقيدة هذا » .

وقد وجد الأنسب حفظ تلك الهيئة الاجتماعية ، التي كان لها في الماضي زعماء تمثل عاداتها ، والتي هي الصورة الحقيقية لمنزع ذلك العرق الأسود وابقاء تشكيلاتها البلدية المبنية على مبدأ المشيخة ، والعمل بأحكام قضائها ، الذين كان يضرب بعدهم المثل حتى يقال في الحكم الذي قد استوفى شروطه : « هذا حكم من أحكام البامبارة القدماء . »

والحقيقة أن الغرض هو احياء عادات الزنوج القديمة وتقاليدهم الموروثة التي نشأوا عليها ويقول المسوور يفيه : « انه يوجد من ذلك قواعد قضائية كافية لأجل حل المشكلات الاجتماعية وفصل الخصومات الفردية ، وهي من وجوه كثيرة لا تقل متانة عن الشرع الاسلامي . وانه يجب علينا أن نجتمع تلك الهيئة الاجتماعية ، التي توشك أن تنحل ، والتي هي متفرقة أشتاتا حول تلك الأصول القديمة . انتهى .

فليسمح لنا القارئ أن نأخذ من هذا الكلام النتائج الآتية :

أولا - ان كتاب حاكم مقاطعة النيجر الفرنسي ، والمنشور الرسمي الذي أشار بصدوره الى مأموري الادارة يدلان دلالة واضحة على كون فرنسا قد بدأت تقاوم انتشار الاسلام بنفوذ الحكومة ، وان عبارة وجوب الحياد مع الانتباه لمنع تسلط عقيدة أمة على أخرى ، هو من قبيل النموية ، فانه ولا في وقت من الأوقات تسلط الاسلام بالقوة في المستعمرات

الفرنسية على عقائد الفتيشين ، كما أنه ولا في وقت من الأوقات روج عمال الحكومة الفرنسية في المستعمرات الدعوة الإسلامية ، بل غاية ما هناك ان عمال الادارة الفرنسية لم يكونوا يصابون الدعوة الاسلامية العداء ظاهراً ولم يجتهدوا في منع انتشارها كما هم مجتهدون اليوم ، وذلك كان منهم عملاً بمبدأ الحرية الدينية المشهور ، فالآن لما هالهم تقدم الاسلام بين الزوج قررروا توقيف نموه فعلاً ، بحجة أنهم لا يسمحون بتسلطه على عقائد الفتيشين . وتحت هذه الجملة « منع تسلط عقيدة على أخرى » ، يعملون ما يشاءون لمنع المشايخ المرابطين من بث دعوة الاسلام بين السودانيين ، واقفال المدارس التي يمكن أن يفتحها المسلمون في قرى الوثنيين ، وغير ذلك من التدابير التي ليس على الفرنسيين فيها من رقيب ولا حسيب هناك ، ولا ينتظر القارئ أن يجدها مكتوبة على الورق وان كانت جارية بالعمل . ولا شك ان اغتباط حاكم النيجر بعدم تقدم الاسلام ، في هذه السنوات الأخيرة فيما بين الزوج ، وتفاؤله بحسن المستقبل ، هما من آثار التدابير الحكومية التي اتخذتها فرنسا لمنع انتشار الاسلام ، والتي يشير بها روجر لابون وأمثاله ، لوقف الدعوة الاسلامية في غربي افريقية وأواسطها . ولقد ظهر هنا اننا كنا على صواب في قولنا ان آراء روجر لابون لم تكن آراء فرد مستقل بفكره ، بل هي آراء الحزب الأغلب بفرنسا بدليل كتاب المسووريفيه هذا ، والأوامر الرسمية الصادرة في هذا المعنى .

ثانياً - يظهر جيداً من قول الحاكم المذكور ، وكلام جريدة الافور ، أن الفرنسيين عولوا على احياء عادات الفتيشين وعقائدهم ، واجراء الأحكام بموجبها ، ومعلوم انه لم يكن ذلك اعجاباً بها ولا اعتقاداً بأنها تشبه الشريعة الاسلامية في شيء ، بل من باب اختيار أهون الشرين عليهم ، فانهم لما رأوا دعوة التبشير الأوربي غير ناجحة بين الزوج كما يرومون ، وانه لانسبة بين ما يكتسبه الاسلام وما تكسبه النصرانية في افريقية ، بسبب كون الأسود يكره الأوربي فطرة وينفر من تقليده في دينه ، عادوا فأروا ان بقاء الفتيشين على عقائدهم الوثنية هو أوفق لمصلحة فرنسا من تدينهم بالاسلام ، فوجدوا الاحزم أن يعملوا لتأييد الفتيشية ، ويجعلوا عاداتها وعرفها قوانين جارية معمولاً بها ، ويعترفوا باقضية الفتيشين ، وبالجملة فكل شيء يهون عند الأوربي — الا النادر الاندر — بالنسبة الى فوز الاسلام ونجاح دعوته .

ثالثا - من كلام الميسور يفيه يتبين أنهم بدأوا بقصر القضاء الشرعى الاسلامى ، لقوله ان من جملة أسباب تناقص النشء الاسلامى ، هو « الأمر بعدم مراجعة قضاة الشرع » فانت ترى ما فى ذلك من الاخلال بمبدأ الحرية الدينية ، ومن معارضة المسلمين رأسا بأمور دينهم ، على حين ان الفرنسيس فى الوقت نفسه يريدون احياء أقضية الوثنيين ، ويجعلون اصطلاحاتهم القديمة قوانين وأصولا يرجع اليها فى الأحكام . ولا يبعد أن يكونوا قد اجبروا أنفس المسلمين على مراجعة قضاة الوثنيين توهينا لنفوذ الشريعة الاسلامية ، الذى هو هدفهم المرمى المتجلى وراء كل حركة من حركاتهم وتدير من تدايرهم . وان لم يكونوا اجبروا جميع المسلمين على ذلك ، فلا بد أن يكونوا ساقوا الى ذلك الزوج ، الذين أسلموا حديثا ، لأنه ظهر ان الحكومة الفرنسية عولت على ان لاتعترف باسلام من يريد أن يدخل فى الاسلام من الآن فصاعداً من الأمم السوداء ، وقد أسامت قبائل كثيرة فى ماداغسكر ، فلم ترض السلطة الفرنسية فى تلك الجزيرة أن تحصيلها فى المسلمين ، ولا أن تعتدها مسلمة بوجه من الوجوه ، واحتجت لعملها هذا المخالف لكل حرية دينية ، بأن اسلام تلك القبائل هو خليط بعقائد وثنية . وربما يكونون اجبروا على التقاضى عند قضاة القبائل الوثنية من كان قد أسلم من هاتيك القبائل بحجة أنهم كلهم من أصل واحد ، فامة « البامبارة » هذه المنتشرة فى السودان الفرنساوى ليست بأجمعها وثنية ، بل منها قسم كبير لاسيا أهل كارتا Kaarta مسلمون . والا فامعنى قول الميسور يفيه ان من جملة أسباب تناقص الناشئة الاسلامية ، الأمر بعدم مراجعة قضاة الشرع الاسلامى ؟

رابعا - قد نوه الميسور يفيه حاكم النيجر وتابعته جريدة الاوفر بمحاسن قضاء البامبارة ، ومثانة أصولهم وأوضاعهم ، وظهر أن الفرنسيس يريدون أن يجعلوها دساتير للاحكام وصرح الحاكم المذكور انها لاتقل عن الشرع الاسلامى مثانة ، وغير ذلك من المزاعم التى جملهم عليها مجرد رغبتهم فى منع العمل بالشريعة الاسلامية . والحقيقة انه ليس عند البامبارة شىء من هذا ، فالبامبارة جيل من السودان الفرنساوى يحد بلادهم شمالا السودان الذى يسكنه المغاربة من كولدوغو Kulodugu الى تامباكاره Tambakara وجنوبا السنغال الأعلى من مدين Medine الى بافولابه Bafoulabe أى بين ١٢ الى ١٤ من العرض الشمالى و ٦ الى ١٠ من الطول الغربى (من باريز) وهم أهم أجيال الجنس

الماندى . وقد وصفهم السياح الأوربيون بالعمل والحرص ، والاقتصاد ، أما عاداتهم وأوضاعهم ففطرية ، اذ الأب هو رئيس العترة والمتصرف بها كما يريد ، والاولاد الى سن الرشد ارقاء له ، وهو يزوج بنته بدون علمها كما أن البنت متى تزوجت صارت أمة لبعْلِها ، والطلاق عندهم مباح ، كذلك تعدد الزوجات ، والارث ينتقل من الاخ الى الاخ . وكانوا ينقسمون الى طبقات ثلاث ، الاشراف وهم المحاربون ويقال لهم تونينغى ومعنى تونينغى قوَّاس ، ثم الفلاحون ، ثم العبيد ، أما الآن فيرأسهم الاسر الملوكية القديمة مثل بنى « كاروبالى » و « دياره » و « ماساسى » ويأتى بعدهم طبقة يقال لها « نومو » أى الحدادون ، ثم طبقة يقال لها « غارانغوى » أى صنّاع الجلد ، ثم طبقة السحرة ، ثم الارقاء . وكل قرية من قراهم ، لها زعيم يفصل فيها الخصومات بموجب أصول يتوارثها الخلف عن السلف . وهذه القرى المرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً واهياً لاتشتد أواخيه فيما بين البامباره الا عند قتال عدو عام ، كما حصل فى حروبهم مع الاسلام . وللبامباره لغة اسمها « الباماناكا » هى من جملة لغات امة الماندى ، وهى فى منتهى الاختصار ، فليس من حالات للاسماء ولا للأفعال ، بل هى تلزم حالا واحدة فى المفرد والجمع والمذكر والمؤنث والحاضر والماضى والمستقبل . والكتابة عندهم قليلة وانما يستعملون لها الحروف العربية ، وليس للغتهم آداب ، وانما هى أخبار وقصص لاتنتهى الى أبعد من القرنين الاخيرين ، وبعض أغاني يرقصون عليها . وأما دياتهم فهى وثنية محضة ، وكل عائلة عندهم لها حيوان معبود اسمه تنة Tenné لايقدرّون ان يقتلوه ، ولا أن يأكلوه ، ولأن ينظروا اليه اجلالاً له . ويعتقدون ان الاسلاف ، هم حافظون للاخلاق ، لذلك يدفنون موتاهم فى دهاالز بيوتهم ، ويضعون اشارات على مدافنهم كصور وجوه أو أيد ، ويقدمون عليها القرابين ، ومن قبل كانوا يذبجون الاسرى . وكثيراً ما يعبدون أشجاراً يذبجون أمامها الحيوانات قربانا ، من غنم وكلاب وديكة ، وربما قدموا لها الفواكه والحبوب . وهم سيسجون مثل هذه الاشجار المقدسة بالعليق . وأما السحرة ، فهم عندهم بمثابة الكهنة يخرجون من طبقة الحدادين . ولهم جمعيات سرية ، ويتكهنون بالمغيبات ويفحصون احشاء الحيوانات التى تقرّب بذبحها ، ويطوفون فى الليالى بين القرى مرتدين البسة مخيفة يقصدون بها القاء الرعب . وليس للبامبارة تاريخ معروف سوى انهم كانوا من جملة الاجيال

التابعة لسلطنة مالى الاسلامية، فلما سقطت هذه السلطنة أصبحوا مستقلين بأنفسهم، وأسس أحد زعمائهم المسمى «كلاديان كور وبارى» على البلاد الواقعة على ضفتى النيجر مملكة واسعة، وقام من بعده أولاده فتنازعوا فيما بينهم حتى آل الملك الى أحد احفاده المسمى «يتو»، فجمع تحت حكمه جميع بلاد البامبارة وملك مدة ٣٠ سنة، وخلفه ابنه فوسع ملكه، ثم جاء ملك اسمه «نغولو» فبسط ملكه حتى حدود تمبكتو. وفى النصف الاول من القرن التاسع عشر كان منهم ملوك أعزة فى «سيغو» و «مانسونغ» و «دودياره» تغلبوا على بومبارية «كا آرتا» وضربوا الجزية على أهل «ماسينا» و «فوتا» (١٨٣٠) وكان لهم امارة أخرى فى «الكا آرتا» أسسها فى أواسط القرن السابع عشر «سا كابا» ابن كلاديان كار وبارى، ثم انتقل الملك من أعقابه الى امارة أخرى صاحبها «سيه ماسا» استمرت فى أعقابه الى أواسط القرن التاسع عشر فى «نيورو» هذا هو ملخص تاريخ البامبارة.

وفى أواسط القرن التاسع عشر، ظهر الحاج عمر الشهير ملك «التيكولور» فاستولى على الكا آرتا وأزال ملكها، وزحف الى مملكة سيغو، وكان ملكها قد تحالف مع ملك ماسينا لصد الاسلام، فسقط كلاهما ودخل الحاج عمر الى سيغو فى ١٠ مارس سنة ١٨٦١ وأقام بكر أولاده ملكا عليها. ولكن البومبارة انتقضوا عدة مرات على المسلمين، وفاز منهم قوم «البليديغو» بالاستقلال، وقطعوا ما بين سلطنة التيكولور ومملكة سيغو، ودام ذلك النزاع الى سنة ١٨٩١، اذا وصلت الجيوش الفرنسية واحتلت البلاد وأزالت سلطنة التيكولور الاسلامية. وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية، ان البومبارة يمثلون فى السودان الفرنسي، العنصر المحاصم للاسلام. وقد أيد هذا القول كلام حاكم النيجر فى كتابه السابق الذكر، وسياسة الحكومة الفرنسية التى يظهر انها تريد لتخفيف العداءة التى كانت عند هذه الأمة للاسلام. وتجعل البامبارة سداً فى وجه المسلمين. فأما الأصول والعادة التى أشار المسيو بريفيه الى متانتها من تقاليد البومبارة، فقد مر بك من مجملها ما تعلم به انحطاطها وانحطاط عقائد أولئك القوم، الذين يعبدون الحيوان والشجر وما أشبه ذلك، ولا يخجل المسيو بريفيه من أن يقول: «انها لا تقل عن الاسلام متانة وان تعاليم الاسلام هى - فى الظاهر - أرقى من تعاليم الفتيشين». ومتى كان الوالى من

ولاية الفرنسيس على تلك الديار ، يبلغ به التعصب وموت الضمير حد أن يقول مثل هذا القول ، فإذا تأمل من عدله وانصافه بين هاتيك الرعية ...

خامساً - تحقق هنا بالرغم من تمويه الأمر الرسمي الذي يوصى بالمساواة ، أن فرنسا تحاول هناك بنفوذها وقوتها ، وكل وسيلة لديها ، أن تمنع انتشار الدعوة الاسلامية ، وتفضل ، أن يبقى الزوج على عبادة الحجز والشجر والكب والهروغير ذلك ، على أن يدينوا بهذه الديانة السامية النقية ، التي هي الاسلام . وهذا لعمري منتهى الغلو في العدوان ، اذ لا يشك أحد في كون المسلمين يريدون ان كان هؤلاء الزوج لم يشرح الله صدرهم للاسلام ، أن يدين هؤلاء بالنصرانية ، ويردوا شرعة تهذيبها ، ولا يستمروا على تلك العقائد التي لا تليق بالانسانية . ولقد تذكرنا بهذه القضية قصة رواها المؤرخون ، ونقلها المستشرق الفرنسي العلامة البارون « كارادوفو » Kara de Vaux في كتابه « ابن سينا » وهو أن الخليفة المأمون العباسي بينما كان مرة غازيا بلاد الروم ، مر ببلدة حرّان ، فالتقاه أناس بزى غريب وأثواب ضيقة يرخون ذوائبهم فساء لهم : من أنتم ؟ فقالوا : حرانيون . فقال ، أأنتم نصارى ؟ قالوا ، لا . قال أفيهود أنتم ؟ قالوا لا . قال أفعندكم كتاب الهى أو لكم رسول ؟ قالوا لا . قال لهم ، ان كنتم لا ترغبون فى الاسلام ، فتنصروا ، أو تهودوا ، واتخذوا ديناً يعرفه الاسلام . فأنت ترى أن المسلمين لا يضيق صدرهم بنصرانية الوثنيين ، ولكن الأوربيين يفضلون كل انحطاط فتيشى على كل معالى الاسلام ، وهم مع هذا يدعون خدمة الانسانية والمدنية .

ونختم هذا المقال بكلام قاله الحاج عبد الله الجزائرى نزيل برلين ، فى مقالة نشرها فى مجلة العالم الاسلامى الألمانية^(١) وذلك على « الآباء البيض » الذين أسس رهبانيتهم الكردنيال لا فيجىرى ، وأرسلهم يطوفون فى بلاد الاسلام بأفريقية بزى المسلمين ، ويدخلون فى كل ناد ويتحككون بكل عائلة ، ويتوسلون بكل وسيلة لاجل بث دعوتهم بين الناشئة الاسلامية ، متسلحين لذلك بنفوذ الحكومة الفرنسية ، التي هى عضدهم أينما ذهبوا وكيفما انقلبوا . فبعد أن أفاض الحاج عبد الله الموما اليه ، وهو من خيرة رجال العلم والادب ، والمتمكنين من اللغة الفرنسية فى ذكر الفتن التي أحدثها هؤلاء الآباء البيض

(١) التي كان يصدرها أثناء الحرب الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويز والاستاذ عبد الملك بك حمزة

في وسط الأسر الاسلامية بالمغرب ، والعقائد التي تخلخلت على أيديهم ، والبشوق التي انفتفت بواسطتهم ، وكيف أن الحكومة الفرنسية - التي يقولون انها لا تقوم بدعوة دينية - كانت تميز المنتصرين على غيرهم ، وتعفيهم أحياناً من العقوبات ، وتستثنىهم مما لاستثنى منه غيرهم ترغيباً لهم ، في أن يصبأوا عن دينهم قال ما يأتي : « نحن لا نزيد أصلاً بهذا أن نوجه أدنى طعن على الدين الكاثوليكي ، ونحن نعلم أن جميع الاديان جيدة ، وأن كلامها يدعو المتمسكين الى الفضيلة وحسن الترتيب ، ولا نعترض فيما لو كان المسلم يصبأ عن دينه باقتناع وجدانه ، وانما دعوة الآباء البيض لها شكل آخر ، فانهم يهجمون على الاسلام في كل مكان ويحولون بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، ويخربون نظام العائلات فيضطرب الاب أن ينكر ولده ، والاعخ أن يهجر أخاه ، والعشيرة أن تبرا من بعض أبنائها . وغالباً يخرج مثل هؤلاء الذين اجتذبهم الآباء البيض مفسدين لا هم من الجياد لا في الاسلام ولا في النصرانية . »

ونحن نرى أن ارخاء العنان للآباء البيض في بث الدعوة الدينية بين مسلمي افريقية ، وتحرش فرنسا بهذه المسائل ولو من تحت ستار مما يضرها في سياستها ، ويجر عليها من المتاعب أضعاف ما تتوخى ربحه ، فانه لا يهيج الاحقاد ولا يورث الضغائن شيء ، مثل المنازعات الدينية ، التي لا يفلح قوم جعلوها قطب رحى سياستهم .

الاسلام في افريقية^(١)

بشكيب

من أعظم الكتب المؤلفة في هذا الموضع كتاب
« الاسلام والنصرانية في افريقية » تأليف المسيو بونه موري
L'Islamisme et le Christianisme en Afrique G. Bonet Maury

وقد نقل عنه المستر ستودارد بعض أشياء ، ونحن نلخص منه ما يأتي ، لأنه جمع
فاوئى في تاريخ مسابقة الاسلام والنصرانية في القارة الافريقية . قال :

« ان الاسلام انبسط على افريقية الشمالية الغربية ، فتحولت هذه الاقطار دار
اسلام رغبة أو كرهاً ، لكنه افتتح افريقية الشرقية سلباً . وكان مبدأ ذلك بواسطة تجار
العرب والهنود الذين كانوا يفدون على تلك الديار زرافات ، فوصلوا الى رأس Guardafui
والى جنوبى Capricorne . ولقد وجد منذ القرن الألف بعد المسيح مسلمون فى كيلوان ،
على أكثر من ٢٠ من العرض الجنوبي أدنى من زامبازة Zambéze » الى أن يقول :
« فى أواخر القرن الحادى عشر (للمسيح) طمست أكثر الكنائس الارثوذكسية التى
كانت ممتدة على ساحل افريقية الشرقية ، ومن مصر الى المغرب الا بعض جماعات لبثت
أ. شبه بجزر صغيرة مجهولة ، فى وسط الاقيانوس الاسلامى . ولكن هناك كنيسة بقيت قائمة
على صخرة المتانة معتمدة ببجهاها ، وهى الكنيسة الحبشية التى بمركزها وشجاعة أبنائها
الجبليين ، صدت جميع غارات الاسلام . وقد كان هؤلاء الأحباش من أتباع الكنيسة
المنشقة ، لا يعرفهم الكاثوليك الرومانيون ، ولا الارثوذكس البيزنطيون » .

ثم قال : « بعد أن وطد دعاة الاسلام دعائم هذا الدين فى جميع سواحل افريقية
الشمالية ، قصدوا داخل البلاد ضارين الى الصحراء التى يسكنها البربر ، وفاقوا فى ذلك
أساقفة افريقية اللاتينية الذين فى أوج عزهم وسلطانهم لم يفكروا فى نشر الدين المسيحى
فى تلك الجهات . فزوج السودان تلقوا القرآن من جهتين احدهما البربر المسلمون ،
والثانية قوافل العرب ، التى كانت تخترق فزان والواحات الى تمبكتو . فسلطين دولة المرابطين

(١) راجع صفحة ٣٠١ و ٣٠٢ من الجزء الاول

وكانوا متحمسين جداً في الاسلام ، خرجوا من مراکش قاصدين أواسط افريقية لجل أهالى بلاد غانة ومالى على الاسلام ، فظهر أبو بكر بن عمر من أعوان الملك سنى على ، وهو بربرى الأصل ، وشيد مملكة السونغاي في غانة سنة ١٠٨٧ ميلادية وهؤلاء السونغاي هم من الجنس النوبى ، رحلوا من مصر العليا عند الفتح العربى ، وكانت لهم دولة لم تبدأ بالانحطاط الا في زمن فتح المنصور (السعدى) سلطان مراکش للسودان .

فد رواق سلطانه الى أبعد من زاوية النيجر ، وجيع البلاد المعروفة الآن بساحل الذهب ، والداهومي ، وبلاد نيجريا ، الى بحيرة تشاد . وقد كانت هذه السلطنة تنقسم الى أربع ممالك ، وكانت قاعدتها جنة Djenné التى كنت ترى فيها التجار والعلماء من المغرب الأقصى والجزائر ومصر ، وكانت سفائن هذا السلطان تسرى في النيجر ، وقوافل الصحراء تحمل البضائع الى أطراف هذه السلطنة ، فتتنقل الذهب والعاج والنحاس والمسك ، ودين محمد . وانبث المرابطون في القرى ، يعلمون القرآن والكتابة بالعربية . وكان أبناء المشايخ يأتون الى تمبكتو لتحصيل العلم ، فلم تكن تمبكتو سوقا لتجارة أواسط افريقية فقط ، بل كانت دار علم انتشر ذكرها حتى سواحل البحر المتوسط . ولما مات أبو بكر بن عمر في سنة ١١٢٠ ، كانت بلاد النيجر أو نيجرينيا الى حدود الكونغو اسلامية .

هذا ما كان من جهة البربر وأما العرب ، فان احدى فصائل بنى هلال تقدمت من أنواحى طرابلس الى واحة « ودّان » ومن هناك الى « والانه » ثم تقدمت نحو السودان ، فتلاقت مع البربر الآتين من الشمال الغربى واختلطت بهم ، وصارت تمبكتو التى اختطها الطوارق في سنة ١٠٧٧ ، مركزاً للدعوة الاسلامية تنبث منها الى كل الجهات .

وفى الجنوب الغربى وصل الاسلام الى البامباره bambarras والمادينغ Madinges والبله Peulls ، الذين في القرن التاسع عشر صاروا أشد حثاه وأجهد دعائه ، في بلاد النيجر والسنيغال الأعلى . وكان في بلاد المادينغ المسماة بلاد الملّ Melle قد أسلم الزعماء والأشراف والتجار منذ القرن الثانى عشر ، وبقى العامة فتيشين . ووصل الاسلام في الجنوب الشرقى الى بحيرة تشاد ، في القرن الثالث عشر . وأما في الشمال الشرقى ، فكانت الغاله Gallas والنوبة ، قد دخلوا في الاسلام بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٣٥٠ .

ثم قال تحت عنوان « مساعدة الاسلام على تمدن افريقية » ما يأتى :

« لم ننظر الى الآن تتأجج الفتحة العربى الامن الوجهة الدينية ، مع انه يجب أن نعرف هل كانت للمسلمين فى هذه الصفحة الأولى من استيلائهم (٦٣٨ - ١٠٥٠) يد فى مدينة افريقية الشمالية أم لا ، وهل كان لهم سهم فى نشر العلوم والآداب والصناعات ، أم لا . ففى هذا المقام يلزم أن نفرق بين مصر والمغرب ، لأن الفرق بين مدينتى هذين القطرين الذى أولهما أخذ عن اليونان ، والثانى عن الرومان ، لم يخل من التأثير فى ثقافته الاسلامية .

فلننظر أولاً الى مصر وقبل كل شئ* يجب أن نصحح خطأ شاع طول القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا مكتبة الاسكندرية بأمر الخليفة عمر . والحال أن العرب فى ذلك العصر كانوا أشد إعجاباً بعلوم اليونان وفنونهم ، من أن يقدموا على عمل كهذا . كما انه معلوم أن قسماً من تلك المكتبة ، كان احترق فى أثناء ثورة الاسكندرانيين ، التى احترق فيها أسطول قيصر ، وأن قسماً آخر أحرقه المسيحيون فى القرن السادس . واختط العرب الفسطاط وتركوا للقبط عمفيس ، ولم يعترضوا القبط فى دينهم ولا عاداتهم ، وأطلقوا لهم الحرية فى انتخاب البطريك ، وبناء الكنائس . وغاية ما أبطل عمرو من العادات القديمة ، هو ما كانوا جارين عليه من زمان الوثنيين ، من رمى فتاة فى النيل كل سنة التماساً لفيضانه .

وبعد أن انفصلت مصر عن بغداد ازدهرت المعارف والفنون فى مصر ، وتأسست بمصر المدرسة الجامعة الباقية الى اليوم ، وهى الأزهر . وكان لها مكتبة فيها ٦٠٠٠ مجلد ، وكرتان تمثلان الأرض ، وبنى مرصد فلكى ، اشتغل فيه علماء من الطبقة الأولى مثل ابن يمين صاحب الزيج الحاكى . وصحح العرب بمعارفهم الفلكية وبتدقيقات سياحهم ، أكثر نظريات الجغرافيين اليونانيين ، وكيفيك ذكر المسعودى وابن حوقل وابن بطوطة وأبى الحسن لظاهر شأو العرب فى علم الجغرافية ، وان من الأسباب التى دعت الى احتفال العرب بهذا العلم ، ما فرضه القرآن من الحج ولو مرة واحدة الى مكة . أما فى صنعة البناء فمع كون العرب احتدوا شيئاً على مثال البيزنطيين ، لا ينكر أنهم تركوا فيها آثاراً خالدة مثل قصر الخلافة فى القاهرة ، ومثل القبة ، وزيزه بقرب بلمو (فى صقلية) ، ولا تنس من المساجد جامع الحسن ، وجامع عمرو ، والأزهر . الى أن قال :

أما انتشار العلوم والآداب فى المغرب ، فقد كان بطيئاً فى البداية بسبب مقاومة البربر لها ، والفتن التى وقعت بين أمراء الاسلام . ولكن فيما بعد شيدت المدارس والمساجد

في القيروان ، وبجاية ، وتلمسان . وكان في بجاية في القرن الثاني عشر علماء نوابغ ، وفيها كان المتصوف الكبير أبو مدين ، وفيها تعلم ليونارد بوناكسي الحساب والجبر والهندسة . وكان في تلمسان أيضا مدرسة شهيرة أقرأ فيها ابن خلدون وغيره . وفي القرن الماضي تخرج فيها محمد السنوسي . وهناك جوامع شهيرة في الحسن مثل جامع سيدي عقبة ، المبني على مرقد الفاتح المذكور ، وجامع سيدي أبي مدين في ضواحي تلمسان ، ثم الجامع الكبير في القيروان . وكل هذه لا تداني في الروق والبهاء جوامع مراکش . (وأطال في وصفها)

وخلاصة فصله هذا هو ما يأتي :

« ان حصة الاسلام في مدنية افريقية كانت أقل من حصة النصرانية فيما يتعلق بتنشيف الأهالي وتربيتهم ، ولكنها أهم في العلوم الصحيحة وصناعة البناء » .

ثم قال تحت عنوان « قيام النصرانية لأخذ النار » ننقله ملخصاً لطول شرحه :

« في القسم الاول من القرون الوسطى ، أهملت أوربا المسيحية افريقية ، الا ما كان من مساعي بعض الباباوات . ولكن تألفت فيما بعد الرهبانيات وجدت الحركة الصليبية ، وكانت سيرة مسلمي المغرب ومصر والشام الى ذلك الوقت تجاه النصارى ، سيرة تسامح وتساهل ، لا بل سيرة ولاء واحسان ، بخلاف الأمم المسيحية التي كانت سالكة تجاه الاسلام خطة البغض والعدوان ، بدون رحمة ولا هوادة . ثم لما وقعت الحرب الصليبية استمد مسلمو المشرق مسلمي المغرب لقتال الصليبيين . فتخلف المغاربة عن هذه النجدة لسببين ، أحدهما كون المغاربة بربراً أكثر مما هم عرب ، فلذلك كان اسلامهم فاتراً ، الثاني كون جيرانهم الفرنج ذوي علاقات تجارية معهم ، ولم يكونوا يطالبونهم بمالك وبلدان كما كانوا يطالبون مسلمي الشرق ويتقاضونهم أن يتخلوا لهم عن بيت المقدس . ثم بلغت العلاقات بين ملوك المغاربة والافرنج ، أن كان أمراء تونس ومراكش يستخدمون في جيوشهم جنوداً من الافرنج يأذنون لهم بأقامة شعائر دينهم علناً ، في السكن التي يفرلون بها (١) ، وكانت قد انعقدت عدة معاهدات بين الأوربيين والمغاربة في القرن الثاني عشر والثالث

(١) يقال ان المأمون أحد سلاطين الموحدين كان عنده عشرة آلاف جندي افريقي ، وكان قد شيد لهم كنيسة في عاصمة مراکش

عشر، أشهرها معاهدة بين جمهورية ييزا، وسلطان المغرب، وأمراء تلمسان، وجزر الباليار — عند ما كانت للعرب (٢٥ يونيو ١١٣٣) — . ومعاهدات بين جمهورية جنوى، والسلطان عبد المؤمن (١١٣٥). فكانت هذه المعاهدات تضمن للفرنجة دماءهم وأموالهم، وتبيح لهم أن يتحكموا عند قناصلهم، وأن يقيموا شعائر دينهم جهرا وكان ملوك الاسلام هم الذين يعطونهم عرصات الارض اللازمة لبناء الكنائس والمقابر . ومن الوثائق المشهورة الشهادة بعظم التسامح الذي كان عليه ملوك الاسلام لذلك العهد ، المعاهدة التي عقدها أبو عبد الله المستنصر صاحب تونس مع فيليب الجريء ملك فرنسا، وشارل دوق انجو، وتيبو ملك نافار سنة ١٢٧٠ وذلك بعد وفاة القديس لويس ملك فرنسا، والتي جاء بها في الشرط السادس « ان الرهبان والقسوس المسيحيين ، يمكنهم أن يقطنوا في ممالك أمير المؤمنين وتعطى لهم الارض اللازمة ، لبناء الكنائس والاديرة ، ودفن الموتى . وللرهبان المذكورين أن يقيموا شعائر دينهم ، ويلقوا المواعظ علناً كما لو كانوا في بلادهم » . فكثير بذلك عدد النصراني في بجاية وسردونية بقرب القيروان ، وكذلك في المغرب الاقصى ، حتى كان لهم مطران يقيم بفاس . ثم تحول الى مراکش (١٢٢٣) وبقى هناك كرسي للمطران الى القرن السادس عشر . ولما استولى جوان الاول ملك البرتغال على سبتة (١٤١٨) ، جعل هناك اسقفية ثانية . وكانت كنائس كاثوليكية عديدة في وهران ، وتلمسان ، وعنابة ، وبجاية والمهديّة ، وتونس ، وطرابلس وكان يخدم فيها الرهبان الفرنسيكان والدومينيكان ، ولكن بث الدعوة المسيحية بين المسلمين كان محظوراً .

وكما كان عند بعض سلاطين الموحدين جند من النصراني فكان أيضاً عند السلاطين المرينيين أخلافهم مثل هذا الجند ، حتى طمعوا أن يستأثروا بحراسه بعض الثغور البحرية مثل طنجة ، وسبتة ، وسلا . وكتب البابا اينوشنسيوس الرابع (١٣٤٦) الى السيد ملك المغرب كتاباً طويلاً ، حاول فيه اقناعه باعطاء الجند الافرنجي الذي عنده قلعة من هذه القلاع البحرية تكون في عهدهم ، وذلك بأن للملك المشار اليه أعداء أقوياء يمكنهم أن يباغثوه ، ويسلبوا ملكه ، وان أصدق أنصاره هم الجنود النصراني الذين عنده وما داموا في خدمته ، فالدول النصرانية كلها تنصره ، ولكن قد تظراً حوادث غير منتظرة وتتغلب

الكثرة على الشجاعة ، فكان من المصلحة أن يعطى هؤلاء الأجناد المسيحيين بعض المدن البحرية المسورة ، ليعتصموا بها عند الضرورة فالسلطان السيد لم يسمع كلام البابا وجاء مطران مرا كش الى رومة (١٣٥٠) وجدد السعى ، فكتب البابا الى السلطان المرتضى خلف السيد يلح عليه في إجابة ذلك الطلب والا فهو يمنع المسيحيين من الدخول في خدمته فلم يعبأ سلاطين المغرب بهذا الوعد ولا ذلك الوعيد ، ولا رضوا بأن يسلموا المرتزة الافرنج الذين في جيشهم قلعة على ساحل البحر ، وبقي مع هذا عندهم أجناد كثيرة من الافرنج .

أما سيرة مسلمي الشمال الشرقي من افريقية ، فكانت تخالف في هذا الموضوع سيرة مسلمي الشمال الغربي ، اذمن المعلوم أن الزخفة الصليبية الخامسة التي كان أكثر رجالها من الجار والامان ، والزخفة السابعة التي قام بها القديس لويس ملك فرنسا كانت وجهتهما مصر ، فأثارت الحفيظة الدينية عند أهلها بعد أن كانوا أولا في غاية التساهل مع المسيحيين فلما استرد المصريون دمياط (١٢٢٨) ، هدموا كنيسة مارمرقس في اسكندرية وهدم السلطان قلاون عند توليه عرش مصر جميع المدن البحرية ، من الاسكندرية الى طرابلس الغرب وطردهم من هذه المدينة . بعد أن كان مضى عليها نحو ١٤٠ سنة وهي في حوزة امراء النورماندين أصحاب صقلية . وفي ذلك الوقت استقر فرسان ماريوحنا المطرودون من فلسطين ، ومن افريقية ، في جزيرة رودس . وبلغ البغض أقصاه بين المسيحيين والمسلمين واضطر نصارى النوبة والغالة Gallas أن يدخلوا في الاسلام في القرن الرابع عشر . ولكن الأحباش ازدادوا تمسكا بالنصرانية ، وأرسل النجاشي زيرا يعقوب وفدا من قبله الى مجمع فلورنسه (١٤٥٢) يلتمس توحيد الكنيسة الحبشية مع الكنيسة الرومانية ، ولما كان التعصب المذهبي شديدا بين الشرقيين والغربيين ، ترصد الأقباط هذا الوفد عند ما بهم من ايطالية وقتلوه .

وكان كثيرون من أسارى الافرنج أرقاء في بلاد الاسلام ، يشتغلون في مزارع كبار المسلمين وهم في أقصى درجة من الفاقة ، حتى كان بعضهم يصبأ عن دينه ليمتد في الخلاص من الرق . فأنشأ الفرنج جمعيات رهبانية لفداء هؤلاء الأسارى ، أشهرهم العصبة المسماة بالفقراء Alfakker من رهبان مار يعقوب الاسبانيولين ، وطائفة الثالوثيين Trinitaires

ورهبان سيدة مرسى Notredame de la Mercy وهاتان الطائفتان من الفرنسيس . وقد كان تأسيس نظام الثالوثيين سنة ١١٩٨ ، على يد رجل اسمه يوحنا متى من البروفانس فى جنوبى فرنسا ، وكان أتباعه يمشون على أقدامهم ولا يؤذن لهم بالركوب الا اذا مسهم الاعياء ، فيركبون الحير ، ولهذا لقبوا بالاخوان ذوى الحير . وانتشرت دعوتهم فى كل أوربا ، وكان لهم فى فرنسا وحدها ١٥٠ ديراً . وقيل ان عدد من أنقذوا من أسرى المسيحيين من سنة ١١٩٨ الى القرن الثامن عشر يبلغ ٩٠٠ الف . وأما النظام الثانى المنسوب الى سيدة مرسى ، فكان غرضه منع الأسرى الفرنج من الدخول فى الاسلام وهم فى الأسر ، وكان من مبادئ أصحابه استعمال السيف اذا الجأ الأمر لأجل الدفاع عن النصرانية ، وقبول الأسر والبقاء رهناً عند العدو ، لأجل منع الأسرى من التحول عن دينهم . وكثير منهم ألقوا بأنفسهم فى التهلكة ، وعاشوا سنين فى الأقياد والأصفاد عند امراء الاسلام ، لأجل المحافظة على ديانة أسرى قومهم وبلغ عدد أسفارهم الى مدينة الجزائر وحدها من جراء فداء الأسرى ٧٣ رحلة ، وعدد من أنقذوه ١٢ الفا وخمسمائة أسير ولكن بعض الرهبان تجاوزوا حدود الحية الى التهور وقام فى أذهانهم دعوة المسلمين الى النصرانية فلم يقدرُوا على تنصير مسلم واحد ، ووقعوا من أجل ذلك فى البلاء . ومنهم من ذهب قتيل خفة عقله ، وهؤلاء مثل انطون ريفولى ، ودانيال بلفيدير ، وريموند لول ، وهو أشهرهم . وكان يعقوب الأول ملك أراغون قد استرد جزيرة ميورقة من أيدي العرب سنة ١٢٩٩ ، فوجد لول هذا هذه الجزيرة مركزاً صالحاً لبث الدعوة المسيحية فى المغرب ، وبني ديراً للفرنسيسكانيين فى الجزيرة وجعل الغرض منه تدريس العربية لامكان بث الدعوة ، وكان هو متضلعا فى العربية وقصد تنشئة مبشرين فى هذا الدير ، يقذف بهم فى بلاد الاسلام للغاية المذكورة . وذهب هو بنفسه الى تونس ، وأخذ يناظر علماء الاسلام ، ويقذف بالرسول أمامهم فالقوه فى السجن ولولا رافة أمير تونس به ، لأوردوه حتفه . وبعد ذلك خلوا سبيله ، فجا إلى الجزائر مبشراً ، ثم الى بجاية حيث ضاق ذرعهم به فقتلوه (٢١ يونيو ١٣١٥) . وبالجملة ، فان النصرانية أمكنها بواسطة المعاهدات التجارية وحسن المعاملة ، أن تطفأ أرض المغرب ، ولا تجد النفرة التى وجدتتها فى مصر وطرابلس الغرب على أثر الحروب الصليبية

مما يدل على كون اللطف والمحاسنة ، أوفى بالمقصود من العنف والمخاشنة .
وفي تلك الأيام حصلت حركة دينية عند البربر ، وظهرت عندهم الطرق الدينية
المشابهة للرهبانيات عند النصارى ، وترجع هذه الحركة الى سببين ، أحدهما ، عقيدة
التصوف التى ترمى الى الفناء فى الاله ، والثانى دعوة أهل البدع والاهواء ، وغير المسلمين ،
الى الاسلام . وأتباع هذه الطرق يشبهون الرهبان فى الانقطاع للعبادة ، وكثرة الصلاة ،
ومنهم من هم نظير الرهبان العسكريين ، يعتقدون أنهم مكلفون باستعمال السيف لنشر
الدعوة ، ولكنهم يفتشقون عن رهبان النصارى بعدم البتولة ، وعدم فطم النفس عن
النساء^(١) . ويقال لمحل اجتماعهم رباط ، ولرئيس الطريقة مرابط . ولذلك لما قام عبدالله بن
ياسين ، بالدعوة الدينية هداية البربر من لمتونة وغيرها ، اجتمعت حوله عصاة سموا
بالمرابطين ، وكانت لهم دولة وصوله بلغت أوجها فى زمان يوسف بن تاشفين (١٠٥٠) . وقام
مقام المرابطين الموحدون ، وكانت لهم دولة عظيمة ، وكان الشرفاء أعقاب ادريس ، من
أتباع العقيدة الصوفية ، وكانت هذه العقيدة تقرأ فى فاس وتونس ، وهما أعظم مراکز
العلم بأفريقية ، وقد أخذ بها خلق كثير . وكان عبد القادر الجيلانى المولود فى جيلان من
فارس ، متصوفا عظيما زكى النشأة كثير التعظيم لسيدنا عيسى ، متساهلا مع النصارى الذين
كان يقول انهم أهل كتاب وان الله سينير عقولهم يوماً ، فأخذ بالوعظ والارشاد ومات فى
بغداد سنة ١١٦٦ ميلادية ، وله أتباع لا يحصى عددهم ، ووصلت طريقته الى اسبانية ،
فلما زالت دولة العرب من غرناطة انتقل مركز الطريقة القادرية الى فاس . وبواسطة أنوار
هذه الطريقة زالت البدع من بين البربر ، وتمسكوا بالسنة والجماعة . وكان هذه الطريقة هى
التى فى القرن الخامس عشر ، اهتدى على يدها زنوج غربى افريقية ، أما الطريقة الثانية
فهى الشاذلية نسبة الى أبى الحسن الشاذلى ، أخذ عن عبد السلام بن مشيش ، الذى أخذ
عن أبى مدين ، وكانت ولادة أبى مدين فى اشبيلية سنة ١١٢٧ ميلادية وقرأ فى فاس ، وحج
البيت الحرام ، ثم استقر يعلم التصوف فى بجاية . وتبعه خلق كثير انقسموا بعده الى ثلاث
فرق ، الأولى الشاذلية المنتشرون فى الجزائر والثانية الدرقاوية الذين مركزهم فى مراکش

والثالثة المدينية الذين هم كثيرون في طرابلس الغرب. قال : (وبعد أن أفاض في بحث الطرق والزوايا وتشكيلاتها وأوضح المشابهة التي بينها وبين الرهبانيات في القرون الوسطى)

ان العرب لم ينتظروا تشكيل الطرق حتى يشوا الدعوة القرآنية في السودان ، بل منذ أواخر القرن السابع كانوا اخترقوا فزان ودخلوا السودان ، وكانت في غانة لأوائل القرن الثامن ليلاد اثنتا عشرة مدرسة للقرآن ، ولكن الاخوان (اتباع الطرق) هم الذين تم على يدهم اسلام القسم الأعظم من مسلمي أواسط افريقية ، وهم الذين أوقدوا الحية الدينية بعد أن كادت تفر ، وأدخلوا معظم السودان في الاسلام بالارشاد والتعليم ، وبالأخذ والعطاء ، وبالمصاهرات مع ملوك الزنج . وقد تقدم ذكر أبي بكر بن عمر المتونى الذى امتاز بنشر الاسلام في السودان ، حتى دانت له جميع الأقطار السنيغالية والنيجرية الى الكونغو . كذلك بنو حسن من عرب بني هلال ، توجهوا جهة ودّان جنوبي طرابلس وتقدموا منها في الصحراء الى والاته ، فتلاقى هناك العرب مع البربر وامتزج بعضهم ببعض ، وجاءت من هذا الاختلاط القبائل المسماة بالمشدوف (هذه القبائل ليست هي المشدوف فقط بل المشدوف والدويش وغيرها وقد الف على هذه القبائل المسيو جورج بوله Georges Poulet كتابا اسمه « مغاربة افريقية الغربية الفرنسية » بحث فيه عن تاريخها الماضى والحاضر ، وعن أحوالها الاجتماعية من كل نوع ، ونظراً لكون المؤلف من مأمورى المستعمرات فقد أتيح له أن يطلع على وثائق لا يطلع عليها غيره ، فجاء كتابه بغاية التدقيق . والمغاربة المذكورون منهم من أعقاب بنى حسن الهلاليين ، ومنهم من صنهاجة وغيرها من البربر ، وبينهم اشراف ينتمون الى آل البيت ، ومجالاتهم من الساقية الجراء جنوبي السوس الأقصى ، الى نهر السنيغال ، وهم خمس طبقات الأولى ، أهل الحرب وهم بنو حسن . والحراثون وهم أشبه بالرعية ، لكنهم أحرار . والمرابطون أى طلبة العلم . وصنهاجة الذين يدفعون الضرائب . ثم العبيد . وأشهر القبائل المذكورة الطرارزة وهم نحو ٨٠ ألف نسمة ، كان أميرهم لعهد تأليف كتاب المسيو بوله سنة ١٩٠٤ ، هو أحمد بن سلوم . ثم البراكنة وهم أولاد عبد الله وعددهم ٤٠ ألفاً ، وأميرهم أحمد وولد سيدى على .

ثم الابكك وعددهم ١٦ ألفا ، وأميرهم بكار ولد سويدي أجد . ثم الشراطيض وهم ٢٠ ألفا ، وأميرهم المختار ولد أجد . والقبائل الساحلية منها آل سيدي محمود وهم ١٠ ألفا ، وأميرهم سيدي المختار ولد محمد محمود . ثم أولاد مبارك وهم ١٨ ألفا ، وهم مع أولاد ناصر من سلائل بني حسن الهلايين ، وعدد أولاد ناصر ١٢ ألفا . ثم الكوتته وهم خمسة آلاف . ومن قبائل الساحل المشدوف وهم أكثرها عددا ، وينقسمون الى عدة فرق لكل منها زعيم ، وزعيم الزعماء محمود مختار وهناك قبائل ساقية الجراء مثل أولاد دليم ، والرغيبات ، والعروسي ، والفيلاي ، والصمايل ، ورئيس هذه القبائل الشيخ ماء العينين المشهور . وقد جنح المسيو بوله عددهم جميعا بثلاثمائة ألف ، وكانت بين امراءهم وبين فرنسا معاهدات لذلك العهد ، اظن انها صارت الآن في خبر كان لاسيما ما كان مع امراء القبائل التي في السنيغال) .

ثم قال المسيو موري تحت عنوان « اكتشافات البرتغاليين على سواحل افريقية » استئناف البعثات الكاثوليكية :

لا يخفى ان العرب ومن معهم من البربر كانوا افتتحوا اسبانية ، واجتازوا جبال البيرانه ، واوغلوا في بلاد الغال (فرنسا) ولولا انتصار شارل مارتل عليهم في پواتيه ، لكانت فرنسا اسلامية ، ولاصاب الكنيسة الغاية ما اصاب كنيسة افريقية وكنيسة اسبانية على أنه في نفس اسبانية ، كان البرتغاليون ، وأهل نافار ، واستورية ، لايزالون يقاومون العرب . ولاسيما البرتقال ، فقد كانوا أول من طرد العرب من بلادهم . ولم يكتفوا بذلك بل شنوا الغارات على العرب في أرضهم ، فافتتحوا سبتة ، وطنجة ، وتطوان . ثم امتدوا على ساحل افريقية الغربية حتى عرفوه كله . وأشهر من قام منهم بهذه الاسفار والفتوحات ، هو الأمير هنري ابن الملك جوان الأول الذي كانت أمه أميرة انكليزية ، فانه ترك اشبونة دار الملك وانتبذ نفسه مكانا في ساغر بقرب رأس سان فذسان ، يحيط به بعض اليهود وبعض علماء المغاربة من فاس ومراكش ، الذين كانوا علماء العالم لذلك الوقت وأخذوا ينقبون في جغرافيات العرب وغيرها حتى عرفوا امكان الدوران حول افريقية . ورسم الأمير هنري هذا الرجل العظيم الذي كان له الفضل على جميع أوربة ، خطة سير السفن عليها ، فاجتازت ، رأس بوجادور (١٤٤٢) ، والرأس الأخضر (١٤٤٤) على أنوار غابات (م ٢٤ - ثاني)

مادار Madères ، التي استمر بها الحريق سبع سنين الى أن بلغت سياره ليون Sierra Léone . وسنة ١٤٧١ بعد موت هنرى أيضا ، واظب البرتغاليون على الايغال في الاقيانوس حتى قطعوا خط الاستواء وجازوا زاير (الكونغو) ، ثم رأس الزوابع الى ميناء آلفوا (١٤٨٦) . وفي ٨ يوليو عام ١٤٩٧ وصل فاسكو دوغاما الى موزامبيق ، ومنها الى ماليندى وثنائي سنة نزل في كاليكوت من الهند الشرقية .

ولما تمت هذه الفتوحات ، شرع البرتغال بنشر الدين المسيحى وتأسيس الاسقفيات واختاروا لهذا الأمر الجزر البحرية ، لما فيها من الوقاية . فجعلوا كرسيّاً أسقفياً فى احدى جزر الخالدات ، وآخر فى جزيرة مادر ، وآخر فى جزيرة امام الرأس الأخضر . وآخر فى جزيرة بازاء زاير ، ومنها صعد الدومينيكيون الى بلاد الكونغو وبشوا دعوة الانجيل ، ونجحوا نجاحاً حل البابا على وضع أسقف فى سان سالفادور (١٥٩٥) . وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة أرسل ملك الكونغو الفارس الثالث ، بعثة الى البابا يلتمس بها مبشرين فارسلوا اليه الكبوشيين فكان نجاحهم باهراً . وخلفهم الجزويت ، فأسسوا مدارس فى سان باولو ، وسان سلفادور (١٦١٩) وصاروا يتقدمون الى داخل البلاد حتى بلغوا كازانتي على ٦٠٠ ميل من الساحل ولكن هذه البعثات كلها سقطت فى أواسط القرن الثامن عشر لاسيما عند الغاء رهبانية الجزويت ، وحاولت جمعية البعثات الخارجية فى باريز (١٧٦٠) أن تقوم مقام الجزويت فى الكونغو ، فلم تفلح . مع هذا بقيت لذلك التعليم آثار ، وكان ألفوف من الزنوج يقرأون ويكتبون .

وبعد قرن كامل من انقطاع التبشير هناك جاء « آباء الروح القدس » واحيوا ما كان درس من آثار الجزويت والدومينيكيين (١٨٦٧) ، وساعدوا على الغاء تجارة الرقيق وعلى الاكتشافات الجغرافية ، وأدخلوا فى هاتيك الاصقاع زراعات وصناعات كثيرة وكان البرتغاليون قد بشروا بالانجيل فى افريقية الشرقية ، واتخذوا مركزاً للدومينيكيين فى موزامبيق (١٦٨٤) . وأقام القديس فرانسيس كسافارس مدة فى موزامبيق ، وفى ماليندى ، وفى جزيرة سقطرة . وأسس فاسكو دوغاما ديبرا للتبشير فى جزيرة زنزيبار ، وامتدت منه البعثات الى مومباسا ، والساحل ، ونمت هناك رعويايت مسيحية عديدة فى القرن السادس عشر والسابع عشر ، ولكن سنة ١٦٩٨ جاءت غارة عربية من مسقط

اخذت على تلك الكنائس ، ورفعت علم الاسلام وحده . سنة ١٧٢٨ ، حاول المبشرون استئناف العمل ففشلوا ، ولزم انتظار القرن التاسع عشر لأجل الرجوع الى بث الدعوة المسيحية في هاتيك الاقطار .

وكان جوان الثانى ملك البرتغال سنة ١٤٨٧ انفذ اثنين من رجاله الفونسو بايفا ، ويروكوفيلهام ، من طريق مصر الى الهند للبحث عن رجل هندى مسيحي يزعمون أن اسمه القسيس يوحنا ، فأت أحدهما المسمى بايفا بمصر وذهب كوفيلهام الى الهند ، ثم عاد الى افريقية ووصل الى الحبشة ، فأكرم النجاشى موصله ، ولكنه لم يسمح له بالخروج . فأخذ هذا الرجل يرسل بلاده ويخبرهم بما رأى ، فأرسلت حكومة البرتغال وفداً من الأشراف والسكينة ، ومعهم عدد من الحدادين ، والنجارين ، والبنائين ، والاطباء الى بلاد الحبشة ، واستمرت هذه العلاقة بين المملكتين دهرا طويلا ، حتى ان راهبا يسوعياً برتقالياً اسمه بايز حول النجاشى سوسينيوس الى الكثلركة (١٦٢٤) . وقيل ان أكثر الاحباش كانوا مستعدين للانضمام الى الكنيسة الرومانية لولا عناد بطرك اللاتين ما نذر Mendez الذى لم يأخذهم بالتؤدة ، بل حاول حملهم على جميع العقائد والشعائر اللاتينية دفعة واحدة وأراد تأسيس ديوان تفتيش ، لمراقبة الذين يأبون الانقياد . فحرت من ذلك ثورة ذهبت فيها حياة المبشرين البرتغاليين ومن تابعهم من الحبش (١٦٤٠) ، وحاول الفرنسيس التبشير فى الحبشة تحت حاية قناصل فرنسا ، فلم يفلحوا ، وقتل المبشرون الذين أرسلوهم الى سواكن ، ومصوع . ولكن الفرنسيسكانيين الطليان أسسوا مراكرهم فى بلاد الغاله (١٨٣٩) ، ثم توجه اخوان فرنسيان انطون ، وأرنولد آبادى ، ومعهما راهب غازارى اسمه سايتو من قبل مدرسة البروباغنده فى رومة ، التى أردفتهم بثلاثة آخرين فأقام أحدهم جا كويس فى عدوه بقرب النجاشى ، وذهب سايتو الى غندار للتبشير فى بلاد الآماره . وكان أحدهم مونتورى قاصداً للسودان المصرى ، فبعد خمس سنوات من وصولهم ، أسسوا عدة كنائس . وفى سنة ١٨٥٣ كان عدد الحبش الكاثوليك خمسة آلاف ، بالرغم من مقاومة أبونا سلامة رئيس الكنيسة القبطية الحبشية . وبقيت هذه البعثة ناجحة حتى تولى النجاشى تيودوروس ، فأراد استئصالها وحمل جا كويس على الأدهم ، فأت فى الحبس سنة ١٨٦٠ . وبعد وفاته قام مقامه المطران بيانشى ومعه

المطران ماساىة ، ووجهها عزمهما الى التبشير فى بلاد الغالة ، وبواسطة الحكومة الفرنسية مع الباب العالى أخذوا فرمائاً بتأسيس مركز فى جزيرة مصوع (١٨٦١) ، واستؤنف العمل الدينى فى الحبشة . ولكن لم يطل الامر حتى وقعت المنافسة بين فرنسا وايطالية فى هاتيك الجهات، وأسست ايطالية مستعمرة الاريترة ، وجعلت مركزها مصوع وأفردتها بأسقفية ، وطردت منها المبشرين الفرنسيين ، ولم يبق لهؤلاء سوى رعويا فى تيغرى ، وبلاد الآماره . وكانوا شادوا مدارس ، ومستشفيات ، ودوراً للصناعات ، وملاجئ ، للايتام والمجانيم . ونشر الطليان الدعوة المسيحية فى بلاد الغالة ، وهم جيل أذكىاء أشداء يسكنون بين الحبشة وبحيرة فيكتوريا نيازا . وصارت هناك رعويا مسيحية زاهرة وامتدت الى بلاد كافا . ثم دخلت الى هرر ، بالرغم من معارضة أمراء الاسلام هناك . ولننظر الى الدعوة المسيحية فى جهات أخرى فنقول ، ان مارفنسان دوپول الفرنسي كان وجه همته نحو جزيرة ماداغسكار ، التى بسطت يدها عليها فرنسا فى أيام الوزير ريشليو ، فانتشر فى سواحلها تجار الفرنسيين وأرسل الرهبان العازريون اثنين منهم سنة ١٦٤٨ ، فأخذوا بالتبشير وصبرا على المكارة ، ومناخ تلك الجزيرة لم يؤاتهما ، فاتا بعد أن نصرا ٦٠٠ نسمة من الوطنيين . ثم ذهب بدلا عنهم أربعة آخرون فأتوا بالحي . فأتى ذلك عزم الرهبان ولا سيما عزيزة مارفنسان دوپول ، الذى بقى يحرضهم على السفر للتبشير ، فذهب آخرون وزرعوا هناك الانجيل ، وتحملوا من الانتقام والعذاب ما تحملوه ، ولكنهم تغلبوا على الوثنية مع تهادى الايام ، فالآن الجزويت ، والبروتستانت ، الفرنسيون ، والكويكرس ، والنورويجيون يستغلون مازرعه العازريون من مائتى سنة فى تلك الجزيرة العظيمة .

ثم تألفت رهبانية آباء الروح القدس ، وسنة ١٧٧٨ أبحر الابوان بيرتو وغليكور الى السينيغال ، فأخذوا ينصرون الزنوج فى سان لويس وجزيرة غورى Gorée وفى سنة ١٨٤٨ اندجحت هذه البعثة فى بعثة قلب مريم الاقدس تحت ادارة يهودى متنصر اسمه ليبرمان ، أحسن التدبير ، وربط الدعوة الكاثوليكية بالحكومة المدنية ، فالتست مؤسسات هذه البعثة فى افريقية تدريجا ، فتجد لها مراكز فى الكونغو البرتغالى ، وفى غامبية ، وفى مستعمرة سيراليون الانكليزية ، وزنجبار ، ولها فى المستعمرات الفرنسية اسقفية ، كرسىها داكار Dakar التى فيها ١٥ ألف متنصر . ومركز فى كيتا Kita فى السودان

السنيغالي ، وآخر في كونا كرى من غينية الفرنسية . واسقفية في غابون Gabon من الكونغو الفرنسية . وأخرى في أوبانغى Oubangui من الكونغو الأعلى . ولم يقتصر هؤلاء الرهبان على التبشير بالانجيل بل نشروا العلم ، وأحيوا الزراعة ، وأتوا بنباتات جديدة ، وأدخلوا حيث وجدوا صناعات مفيدة ، وهذبوا الأخلاق وأبطلوا كثيراً من قبيح العادات .

ثم أتى بعد رهبانتي العازريين والروحيين ، بعثة ليون الافريقية وبعثة الآباء البيض . ففي سنة ١٨٥٦ أسس المطران دوماريون برازيلك أصله من الدعاة في الهند الشرقية ، مدرسة لتخرج المبشرين المراد إرسالهم لتنصير الزنوج . ثم عين هو أسقفاً في سيارا ليون ، فذهب ومعه عدد من الرهبان فهلكوا بالحمى الصفراء ، فتطوع غيرهم للقيام بمقامهم ، وما زالوا صابرين ثابتين حتى أفلح عملهم ، فترى لهم اليوم كراسي في ساحل العاج ، والنيجر الأدنى ، وساحل الذهب ، والداهومي ، وبنين . وقد وفقوا توفيقاً كبيراً في ساحل العاج وفتحوا تسع مدارس منها مدرسة دينية في دابو وقد أجدوا طباع أهل تلك البلاد من السكينة وحب العمل ، بخلاف أهالي داهومي ، الغلاظ الشداد ، المتعصبين للفتيشية ، ثم أسسوا مدرسة زراعية في توكبو ، وأسقفية في بنين Benin

وآخر رهبانية تأسست لنشر الدين المسيحي في افريقية هي الآباء البيض ، أسس هذه الجمعية الكردينال لا فيجري مطران الجزائر سنة ١٨٦٩ ، وعاكسه في هذا المشروع المارشال ماكهاون ، الذي كان رأيه أشبه برأى الشركة الانكليزية في الهند من تجنب الدخول في قضية التنصير ، لئلا يحصل مشكلات للإدارة الفرنسية ، فالكردينال كان يرى غير هذا الرأي ، ويقول انه يجب الامتزاج بالأهالي واستجلابهم اليها ، لئلا يلبثوا على عقيدة القرآن ، التي تجعل بيننا وبينهم فاصلة كبرى . فزال الكردينال مصراً على فكره حتى أنشأ هذه الرهبانية وراعى فيها عادات القوم ، وأردفها برهبانية أخرى للنساء اسمها « الراهبات المبشرات لسيدتنا العذراء » (١)

(١) الحقيقة ان كلامن رهبانتي الآباء البيض والراهبات المذكورات ، نالت عهد الحكومة الفرنسية في كل شيء وارتفعت منها شكوى الجزائريين ، وغيرهم من سكان المستعمرات الفرنسية بدون فائدة ، وليس هنا مقام تفصيل ذلك

وميادين عمل الرهبان البيض هي أولا الجزائر وتونس . ثانيا الصحراء والسودان . ثالثا بلاد خط الاستواء من افريقية . رابعاً بلاد نياسا غربي الموزامبيق التي فيها كرسى أسقفية (١) .

وبلاد خط الاستواء الافريقية وبلاد نياسا كلاتهما ، من المستعمرات البريطانية والبرتغالية ، فلا تهماثنا الا في الدرجة الثانية . ولكنهما مع ذلك لا تخلوان من العمل ، فيما يتعلق بمقاومة الاسلامية ومنع الرق (٢) . فان قرار مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ بمنع الرق ، قد قاومه تجار العرب بالسلاح واضطرت الدول الى قمع ذلك بالقوة (٣) .

أما في الجزائر وتونس ، فلما كان الحكم لفرنسا لم يكن من حاجة الى استعمال القوة فرهبانية الآباء البيض تلجأ الى الوسائل السلمية لا غير . فهي تؤسس بقرب كل محطة مستوصفا طبيا ، وصيدلية . الأول منهما ، يصف العلاجات والثاني يعطيها مجانا ، ثم مدرسة ودار أيتام . وليس الا بعد وقت طويل وبأذن أهل الأولاد ، يلحق الآباء هؤلاء الأولاد

(١) لسائل أن يسأل : لماذا يعملون في تونس والجزائر ولا يعملون في المغرب الأقصى ؟ والجواب دور الآباء البيض وراهبات التبشير ، يأتي في المغرب الأقصى بعد أن يتم اخضاع الثأرين في جبال الاطلس ونوع السلاح من أيدي القبائل ، أما الآن والثورة لا تزال نائرة ، فالحكومة الفرنسية تمهل في هذا الامر وان كانت لا تهمل .

(٢) ان الرق ليس من الاسلامية بل ان الرق عادة قديمة عرفتها النصرانية والاسلامية وغيرهما ، وما حيب الاسلام شيئا الى الناس أكثر من تحرير الرقيق الذي هو من أفضل القربات شرعا . ثم لمانعت أوروبا تجارة الرقيق ثارت في وجهها شعوب مسيحية كثيرة مثل البوير في جنوبي افريقية ، وكل أحد يعلم أن أمريكا انقسمت قسمين في أمر العبيد ، وثار الحرب بين الفريقين أربع سنوات ، فاجتهد بعض مؤلفي أوربة بالصاق الرق بالاسلام خاصة ، هو من حملة التحامل على الاسلام ، كما انني وان كنت أحمد صنع الدول التي ساعدت على إلغاء الرق ، لا أنكر أن معاملة العبيد السود في بلاد الاسلام ، هي أفضل بكثير من معاملات الأمم المستعمرة لرعاياها البيض ، نعم ان هذه الأمم لا تنبيع أهالي الجزائر ، وتونس . وتونسكين ، وغيرهم ارقاء في الأسواق ، ولكنها لا تعرف لهم أدنى حق بازاء الأوربيين ، وهي تضع يدها على ماشاءت من أراضيهم ومعادن بلادهم ، وتستثمر أرضهم ودمهم وعرق جبينهم قسراً بدون أن يكون لهم بذلك أدنى خيار فهل الرق سوى هذا ؟ .

(٣) يذكر المؤلف هنا مقاومة العرب وينسى مقاومة الجنس الأوربي في الترنفال .

التعليم الديني^(١) أما اليتامى فيعلمون التعليم الديني فرضاً . وقد تقدم الآباء البيض الى الداخل فحضر لهم مؤسسات في لاقوات (١٨٦٨) وفي أوأرغله (١٨٧٣) ، وفي توغورت (١٨٧٨) الخ ولما دخلت العساكر الفرنسية مدينة تمبكتو سنة ١٨٩٤ في ١٠ يناير تحت قيادة الكولونل بونيه والقومندان جوفر ، أسس الآباء البيض مركزاً في تمبكتو وستة أخرى في جوارها .

وخلاصة ما قامت به الرسالات الكاثوليكية من برتقال ، وطلينان ، وفرنسيس ، في القارة السوداء ، هي انها هاجت هذه القارة من الجانب الغربي ، ومن الصحراء ، ومن الكونغو ، ومن جهات البحيرات الكبيرة ، نعم انها لم تقدر أن تمزق العصبه الاسلاميه ، لكنها هذبت قسماً عظيماً من الأمم القتيشية ، وتوفقت الى ابطال كثير من عاداتهم البربرية .

ثم ذكر المؤلف ، اشتراك الاساقفة والمبشرين في تهذيب افريقية فقال : ان لفنستون في أحد تقاريره يقول : « ان نهاية الاكتشاف الجغرافي هي بداية العمل التبشيري . وهذه حقيقة كلية . اذ من المحال أن نكتشف أراضى جديدة بدون أن ينبه ذلك فينا شوق دعوة أهلها الى الانجيل ، هذه البشارة التي أعطتنا السلام والعزاء والرجاء » . فلقد رأينا المبشرين الكاثوليك ، يتعقبون آثار البحارة البرتغاليين والفرنسيين والطلينان ، ويؤسسون أوطاناً مسيحية في سواحل افريقية الغربية والشرقية ، متخذين هذه المراكز في سواحل شرقى افريقية محاطة في طريقهم الى الهند ، ولكن كل هذا ما عدا الذي جرى في الحبشة ، لم يتجاوز مناطق معلومة من سيف البحر . ولكن جاء فيما بعد ذلك السائحون الجوابون في الربع الأخير من القرن الثامن عشر والأربعاء الثلاثة من القرن التاسع عشر فدخلوا من مصاب الأنهر . وتوغلوا في البلاد ومنهم من ذهب قتيلاً جرأته فكانوا هم طلائع المبشرين ، وعلى آثارهم سار هؤلاء ، وبالأجبال فداخل افريقية التي توج منها هؤلاء الجوابون الى باطن هذه القارة ، هي أربعة أو خمسة ، وأوها النيل لامتداد طريقه من مصر الى أقصى منابعه . الثاني نهر الغامبية ثم نهر السينيغال . الثالث ، رأس الرجاء المعروف

(١) غير معقول أن يسمح المسلمون أهل الأولاد بتلقينهم تعليماً دينياً غير الاسلام بمجرد رضائهم ، بل هنا أحد أمرين ، اما أن يكون أهل الأولاد لا يحسرون على الاعتراض أو يكونون هم أنفسهم تركوا الاسلام

بالكتاب نظراً لأهمية هذا الموقع التجارى . الرابع ، الجزائر منذ استولت عليها فرنسا ثم طرابلس . الخامس ، جزيرة زنجبار بسبب علاقاتها مع السواحل التى تحاذيها .

وأول من توغل فى افريقية من جهة النيل هو جيمس بروس James Bruce الاكوسى المتوفى سنة ١٧٩٤ ، وصل الى مصر سنة ١٧٦٨ ، وصعد الى الاقصر وشاهد آثارها ، ثم الى اسوان ومنها الى القصير ، ومنها أجاز الى جده وركب البحر من جده الى مصوع ، ومن هذه صار الى الحبشة مزوداً بتوصية من بطريرك القبط فى مصر الى الرأس ميشل ، وإقام مدة بمدينة غندار قصد منابع النيل وظن أنه وصل الى رأس نبع النيل الأزرق ، والحقيقة أنه لم يصل الا الى العبادى ، وهو ملتقى أنهر من النيل لا أصل نبعه . ثم عاد الى مصر من طريق اسوان . وبعد ١٢ سنة من سياحة بروس هذا جاء الى مصر فولناى الكاتب الفرنساوى الشهير ، ولفت أنظار قومه الى وادى النيل قائلاً : « يجب للاستيلاء على وادى النيل ثلاث حروب : الأولى مع انكلترة . الثانية مع العثمانية . الثالثة وهى أشدهن مراساً مع الاسلام . لأنه هو السائد فى هذا الوادى . وربما كانت هذه العقبة غير قابلة الجواز » (كذا) وكان نابليون بونابرت قد قرأ كلمات فولناى ، فكانت مما استفزته الى غزو مصر . ولم يكن تجسيم فولناى صعوبة هذه الحملة الا ليزيد فيها رغبة بونابرت ، فى غرامه باقتحام الصعاب وعشقه للمجد ، فكانت تلك الغزاة الشهيرة التى ظهر فيها من مزايا نابليون العسكرية مظهر ، وانما لم يقدر الناس قدر مهارته السياسية ، استجلابه خواطر المسلمين وامتزاجهم بهم فى عقائدهم وعاداتهم ، وقد كانت غزاة مصر هذه من سنة ١٧٩٨ الى ١٨٠١ ، مبدأ لاسفار ورحلات صوب منابع النيل استمرت الى ١٨٤١ وقد خذا حذو نابليون بونابرت فى سبيل الاكتشاف والبحث ، أمير مصر الكبير محمد على فى زمانه ، وصل فريدريك غاليلو Gailliaud الى طيبة وواحة سيوه ، ثم صعد مجرى النيل الى أن وجد خرب العاصمة القديمة مروييه Meroë (١٨١٨ الى ١٨٢٠) الى ان بلغ الدرجة ١٠ من العرض الشمالى . وبعد هذا يبضع سنين وصل عالم المانى الى النوبة العليا ، وكان أول أوربى دخل كردوفان غربى النيل الأبيض ، ثم أنفذ محمد على بعثة وصلت الى درجة ٤ من العرض الشمالى فى غوندوكورو . وامتد عمل السياح الى الحبشة وبلاد شوا وبلاد الغالا ، فكان ممن اشتهروا بذلك ديريكور

Rochet d'Hericoure وتيوفيل لوفافر Théophile Lefebvre (١٨٣٩ الى ١٨٤٣) ، وأبناء آبادي D'Abbadie (١٨٣٣ الى ١٨٣٨) وهؤلاء من الفرنسيين ثم الانكليزي شارل بيك Beke والالمانيان كراف وايزمان ثم ان الالمانيين أرهاردت وريهان ، هما اللذان توغلا في اصقاع البحيرات الكبرى ، ووصلا الى قنن الثلج من بلاد كينيا Kenia والكيلمانجارو Kilmandjaro (١١ مايو ١٨٤٨) ومن هناك انفتحت الطريق التي انطلق منها سموئيل باكر (١٨٦٤ الى ١٨٧٣) والكلونل غوردون ، وأمين باشا ، ولينانت بك وغيرهم . وكان هؤلاء السياح أثر بعيد الصيت في تهذيب الزنوج ، واجتهد سموئيل باكر وأصحابه بالغاء الرق ، مستظهراً على ذلك بأمر الخديوى ، وهلك غوردون في الخرطوم بيد المهدي ، بعد أن أقام بضع عشرة سنة يرقى من أخلاق السودانين .

ولم يكن شئ يشابه همة هؤلاء السياح الأبطال في شرقي افريقية ، سوى همة أعضاء تلك الجمعية الانكليزية المسماة African Association التي تأسست سنة ١٧٨٨ في لندرة وكانت الاطالس الجغرافية الى ذلك الحين لا تمثل أواسط افريقية الا برقعة بيضاء متسعة ، لأن الجغرافيين لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً . وكما كان السياح الذين ساروا من مصر غرضهم منابع النيل ، كان السياح الذين صعدوا من نهري السنغال والسينغامبيه يقصدون تمبكتو ، تلك المدينة الشهيرة عند العرب . فالماجور دانيال هوغتون Houghton ركب نهر السنغامبيه ، ووصل الى مدينة Médina ، ومنها الى عاصمة بامبوك Bambouck (١٧٩١) ، لكنه لم يبلغ نهر النيجر ، وانقطع خبره . أمامونغاو بارك Mungopark الاكوسي ، فصعد من بلاد غامبيه ، فوصل الى النيجر عند سيغو Segou وعاد من حيث أتى ، ثم بعد تسع سنوات ، عاد فصعد النيجر ووصل الى تمبكتو ، ثم أوغل الى بوسانغ ، وهلك قتيلا سنة ١٨٠٦ . وكان رفيقه الفرنساوي موليان Mollien قد اكتشف منبع نهر السنغال ، و منابع نهر الغامبيه وريوغرانده سنة ١٨١٨ .

ثم ان رينيه كاليه Rene Caillié الفرنساوي ، لم يزل يجوب تلك الأقطار حتي وصل الى تمبكتو بعد مشاق لاتوصف ، وذلك في فبراير سنة ١٨٢٨ ، وبعد أن أقام بها مدة

لحق بقافلة مغربية عائدة الى فاس ، فوصل الى هذه العاصمة في ١٢ اغسطس ، ومنها ذهب الى الرباط وأبحر الى فرنسا ، وأكرمه الحكومة والجمعية الجغرافية ، لكونه أول أوربي وصف تمبكتو وصفا عن عيان (١) .

وسافر الضابط لانغ Laing الاكوسى من طرابلس الغرب ، قاصداً تمبكتو في ١٦ يوليو ١٨٢٥ ، فبلغها في ١٨ أغسطس ١٨٢٦ ، ولكنه قتل أثناء ايابه . وأما الاكوسى كلاپرتون Claperton فاكتشف بحيرة تشاد ، ومملكة الفلاته ، وزار مدن كانوا ، وكازينال ، وسوكوتو ، ومات في سوكونو سنة ١٨٢٧ وكان معه رفيق اسمه ريشاد لاندز فاككتشف مصب النيجر ثم أكمل اكتشاف مجرى النيجر الدكتور بايكي الاكوسى ومعه جامعة ، وذلك من سنة ١٨٥٤ الى سنة ١٨٦٤ .

فهؤلاء السياح وأمثالهم هم الذين بقصص أسفارهم هاجوا شوق مبشرى الكنيسة الانكليكانية والتمثودية الانكليزية ، وكان الانكليكانيون منذ سنة ١٨٠٤ أسسوا مراكز لهم في سيراليون Sierra Leone . واقتدى بهم الميثوديون بعد ١٠ سنوات من ذلك التاريخ ، وفي سنة ١٨٦١ ، كانت لنصارى الزنج في تلك الأقطار كنيسة مستقلة بذاتها .

وأما طريق الكاب فهي الطريق الثالثة التي دخل منها المبشرون الى باطن افريقية ، والمبشرون هنا لم يسبقهم السياح بل كانوا هم السابقين ، بدأ بذلك جورج شמיד سنة ١٧٣٧ ، ويانسن سنة ١٨٠٠ ، فوصلا الى بلاد الهوتنتوت ، ثم ان الدكتور تيودور فان ديركب الهولاندى ، ذهب الى بلاد الكافر من ناحية بور اليزابت . ثم الدكتور فيليب الانكليزى وصل الى بلاد البوشمن Buschmen ، الذين هم أشد أولئك الأقوام توحشا ، وقد تكلم هؤلاء المبشرون عن فسوة طائفة البوير نحو السود ، ولا سيما الدكتور فيليب هذا ، الذى كانت له اليد الطولى في الغاء الرق بتلك الديار ، وكان هو السبب في اعطاء الهوتنتوت حقوق رعايا المستعمرات .

وعن ذهب للتبشير في بلاد الكاب ييسو Bisseux الفرنساوى أحد دعاة البعثة الانجيلية الباريزية ، وصل الى وادى شارون Charron فوجد هناك أربعة آلاف مستعمر

(١) أما العرب فكانوا يعرفون تمبكتو منذ قرون ، وحيث هذه المدينة والمالك التي تجاورها أعصرا طويلا جزءا من سلطنة الغرب الأقصى ، ووصول السائح العربي الى تمبكتو ، لم يكن له من الشأن أكثر من وصوله الى احدى مدن المغرب .

فرنسي من أعقاب الهوغتوط (برتستانات الفرنسيين) ، جاوا الى هناك عند طردهم من فرنسا ، ولكنهم كانوا نسوا اللغة الفرنسية تماما ، ولم يبق عندهم من آباءهم الا بعض نسخ فرنسية من التوراة . ثم ان اثنين من بروتستانات باريز لير Lemire ورولان Roland وصلا سنة ١٨٣٣ الى لسوتو Lessouto . وصار هذا القطر من ذلك الوقت مركزاً للدعاية البروتستانتية الفرنسية . وبعد هذا التاريخ بخمسين سنة ، تقدم أوجين كويليار Eugene Coillard الفرنسي الى بلاد زمبازه العليا ، ونصر كثيراً من زنوج الماروتزي Marotsé .

ولكن الاكوسيين أحرزوا قصب السبق في تهذيب أهالي تلك الأقطار ، اشتهر منهم موفات Moffat الذي قضى زهاء نصف قرن ، يجتهد في تنصير أمة البيتشوانه Betchouana وترجم التوراة الى لغة السيتشوانه Sitschouana ، فأوجد في لغة أولئك المتوحشين أدباً لم يكن معروفاً ، وازوج موفات ابنته ، من ليفنستون الشهير المولود سنة ١٨١٥ ، وكان هذا رحلة ومبشراً معاً ، بدأ سياحته بين نهر الاورانج وزمبازه ، ثم دخل أواسط القارة الافريقية ، ومنها خرج في لواندة Loanda بساحل الكونغو ، ومنها ذهب الى كاليان Quelimane بساحل الموزامبيق ، وهو أول أوربي اطلع على مجرى نهر زمبازه ، وهذه رحلته الأولى من سنة ١٨٥٣ الى ١٨٥٦ ثم باشر رحلته الثانية (١٨٥٨ الى ١٨٦١) فعرف بها مجرى النهر الأدنى ، ودخل بلاد الشيري Chiré ، واكتشف النياسا Nyassa من البحيرات الكبرى في أواسط افريقية . وأما في رحلته الثالثة ، فخاب الاقليم الواقع بين بحيرة نياسا وبحيرة تنغانيكا ، وعرف طرف التنغانيكا الجنوبي ، وسنة ١٨٦٨ اكتشف بحيرة بانغفلو Banguvlo ، وفي هذه السنة انقطعت أخبار لفنستون المذكور ، فقلق بال الناس عليه نظراً لباهر اقدامه وجرائته ، فأرسل مدير جريدة النيويورك هرالد أحد الأخباريين المدعو هنري ستانلي لتعقب آثار لفنستون ، فسافر ستانلي من باريز سنة ١٨٧١ ، فالتقى لفنستون بعد ١٠ سنوات في محل يقال له أوجيجي على ضفة بحيرة التنغانيقا ، ومات لفنستون بعد ذلك بستين أي عام ١٨٨٣ على ضفة بحيرة بانغفلو . وكانت لفنستون هذا همه عالية ، وعزمة راسخة ، استخدمهما في الغاء الرق ومنع تجارة الرقيق ، وتعرض من أجل ذلك مراراً للاخطار .

أما الطريقان الباقيتان الى داخل افريقية فهما (الجزائر وطرابلس) اللتان كانت تذهب

منهما القوافل الى باطن القارة السوداء ، وكانت هذه القوافل تحدث عن بحيرة عظيمة في الداخل يقال لها وانغاراه ، وكانت جمعية الشركة الافريقية في لندره أرسلت الماجور بدى Peddie والضابط ليون بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٩ فهلك الاول، وعجز الثاني عن تجاوز فزان ولكن قنصل انكلترة في طرابلس كان يؤكد لتلك الشركة أن الطريق من طرابلس الى برنو هي مفتوحة نظير الطريق من لندرة الى ادمبرغ (١).

فأرسلت الشركة الافريقية بعثة عقدت عليها للماجور دنهام ، فسارت من طرابلس في آخر مارس عام سنة ١٨٢٢ فرت من فزان ووصلت الى كوكا عاصمة برنو في ١٧ فبراير عام ١٨٢٣ وتوغل كلا برتون أحد اعضاء هذه البعثة الى بحيرة تشاد وزار كانو ، وسكوتو . ثم أرسل الانكليز بعثة ثانية تحت قيادة جس ريشاردسون ، وكان معه الالمانيان أوفرغ Owerveg وبارت Barth فساروا من طرابلس في خريف سنة ١٨٥٠ ، واخترقوا فزان الى العاير ووصلوا الى بحيرة تشاد . سنة ١٨٥٢ مات الالماني أوفرغ ولكن زميله بارت لم يفتر عزمه بل أوغل في بلاد الاداموه في الجنوب وعرف أن نهر بينوى Binoué هو من شعب نيجر . ثم ذهب الى سيكوتوفى الغرب ، ومنها صعد وادى النيجر الى الشمال الغربى حتى بلغ تمبكتو فاقام بهذه المدينة من سبتمبر سنة ١٨٥٣ الى مايو من السنة التالية وعاد من تمبكتو ، الى برنو ، ومنها عاد الى أوربا سنة ١٨٥٥ .

وأما الفرنسي فبعد فتح الجزائر ، بدءوا يجوبون الصحراء ، فكان اسماعيل بودريه ترجان القلم العربى في « الاقوات » أول من أتى بالمعلومات الحقيقية عن الصحراء وعن التوارق الذين بين واحدة وارغله ، وغات وذلك في نحو سنة ١٨٥٠ وعقبه في سنة ١٨٥٩ هانرى دوقافيه فجاء بمعلومات كثيرة عن التوارق . وبعد ذلك بسنين أرسل الكردينال لافيجرى رهبانه الاباء البيض الى أقاصى الصحراء ، حيث أسسوا مراكز للتبشير وفتحوا

(١) الحقيقة أن هذه الرحلات التي قام بها السياح الاوربيون في باطن أفريقية ، وعدها أهل أوربا مآثر عبقرية ، ووضع أصحابها في صف أعظم الدهر ، كان العرب من سياح وتجار ودرائش ، قاموا بأضعاف أضعافها منذ قرون ، ولكن بدون بأو ولا غر ولا ضوضاء عظيمة بل بكل بساطة لا يرى الواحد منهم في الذهاب الى بحيرة تشاد او الى الكنفو من الغرابة ، أكثر مما يرى في الذهاب من تونس الى غدامس . ولما وصل الاوربيون الى تلك الأقطار التي ظنوا أنها مجهولة عند كل العالم ، لم يجدوا من مجاهلها مكاناً الا فيه عرب ، أو آثار للعرب واللغة العربية .

مدارس للتعليم .

ومن المداخل المهمة التي كانت للاكتشاف والتبشير جزيرة ممباسا Mombasa وتوابعا ، وقد كانت مستعمرة برتغالية أو برتغالية ، فاستولى عليها امام مسقط ، ثم سلطان زنجبار . ولما كانت منفذاً للقوافل الواردة من الداخل رأت فيها جمعية التبشير الانكليكانية محلا مناسباً لبث الدعوة . وسنة ١٨٤٤ جاء رجل الماني من ورتمبرغ اسمه كرايف . فسكن في راباي بقرب ممباسا ، ثم انضم اليه جواب آخر الماني اسمه ريمان ، فأزعا السير والنظر في داخل البلاد ، وكان أهم ما اكتشفاه ، جبلان مغطاة قنهما بالثلج الابدي جنوبي خط الاستواء ، وهما كينيا وكيليا نجاروا ^(١) وتقدم هذان الرحالان في بلاد جافا Djagga وكان أهلها من أشد الزوج توحشا يأكلون لحوم البشر فاخذ كرايف وريمان يرشدانهم ويهنيان من أخلاقهم ، وفي احدى المرات أراد أحد ملوك تلك الناحية أن يكافئ كرايف على هدايا قدمها له فوهبه عاجا ومواشي وعدداً من العبيد فقال له كرايف : أما العبيد فلا أقبلهم لان العبودية هي خلاف القانون الالهي ، وأما المواشي والعاج ، فما جئت الى بلاد اوزامبارة لاجل حطام الدنيا ، فاذا شاء الملك يعطيني بعض أولاد غير ارقاء آخذهم معي الى رباي وأريهم . ولما علمت جمعية لندن الجغرافية باكتشافات هذين الجوابين أرسلت بعثة عقدت عليها لضابط من الجيش الانكليزي الهندي وهما ريشارد بورتون ، وسبيك ، فسافروا من زنجبار سنة ١٨٥٨ واكتشفوا بحيرة تانغانيك ^(٢) ثم بحيرة نياسا التي لم يروا الاقسا منها واطلقوا عليها اسم بحيرة فكتوريا ثم توغل سبيك ورفيق آخر معه في شمالي خط الاستواء الى الغرب ، فصادفان نهراً ظنا أنه من أصول النيل ، ثم سارا في نحو الشمالي فوصلا الى غوندوكورو في بحر الجبل ، وتلاقيا مع صموئيل باكر وأمرأته اللذين كانا يبحثان عن منابع النيل آتين من الخرطوم .

وبعد عشرين من هذا التاريخ تلاقى هانري ستانلي مع ليفينغستون في أوجيجي على شاطئ التانغانيك . والضابط كامرون خرج من زنجبار سنة ١٨٧٣ فلقى في الطريق قافلة الزنوج الامناء ، التي كانت آتية بجثة ليفينغستون وأوراقه الثمينة ، وسار

(١) ١١ مايو عام ١٨٤٨

(٢) ١٣ فبراير ١٨٥٨

من الشرق الى الغرب مخترقا جميع قارة افريقية واكتشف مجرى لوكايا Loukaya ولوالا به Loualaba ونفذ الى ساحل بنقويله Benguela على سيف الاطلانتيك (١٨٧٨) . ثم ان هانرى ستانلى تمكن من نقل مركب بخارى الى بحيرة فيكتوريا نيانزا ، فجال في جميع أقسام هذا البحر الداخلى وأقام مدة ببلاد اوغاندا Ouganda ، ثم ضرب الى الغرب ، فوصل الى أعلى نهر الكونغو وعرف الشلالات التى سميت منذ ذلك الوقت باسمه . وأما الضابط البرتقالى سربا بنيتو Serpa-Pinto فاخترق هذه القارة من الغرب الى الشرق ، اذ سار من بنقويله فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٧ ، وأوغل فى مجاهل نانو ، وهيرامبو ، وييهى ، ووصل الى الزامبيز الاعلى ومنها الى بلاد الماتيليه Matelêbe ، والترانسفال .

فاسفار هؤلاء السياح هاجت شوق جمعات التبشير الى بث الدعوة الدينية ، لاسيما كتاب ستانلى الى مسيحي انكلترة الذى حرره من مقرمتيسه Mtesa ملك الاوغانده (١٨٧٨) فقد أحدث هياجا عظيما ، ورأيت جمعات كليات اكسفورد ، وكامبريدج ، ودبلن ، وجعية الكنيسة الانكليكانية ، والاباء البيض ، والمبشرين الالمان ، يتسابقون الى رود هاتيك الارعاء والدعاية فيها .

وهذه الاسفار أيضا كان لها التأثير الأكبر فى اهتمام الدول الأوربية بمنع تجارة الرقيق المخجلة^(١) وكانت انكلترة هى السابقة فى هذه الحلبة ، ولما كانت جزيرة زنجبار هى أعظم مركز لهذه التجارة فقد اجبر الانكليز سلطان زنجبار عام ١٨٧٣ على امضاء تعهد بمنع تجارة العبيد ، وأخذت مراكب انكلترة تضبط جميع مراكب العرب التى تجد فيها عبيداً ، وكثر عدد هؤلاء المستنقذين ، فعمروا لهم مكانا يشتغلون فيه قصاد جزيرة مباسه وسنة ١٨٧٦ انعقد مؤتمر جغرافى فى بروكسل ، انتخب فيه ليوبولد ملك البلجيك رئيسا للشركة الشعوبية لتحضير افريقية ، وهذه الشركة ، هى التى أوجدت حكومة الكونغو الحرة .

وسنة ١٨٨٥ ، انعقد فى برلين مؤتمر لتقسيم افريقية بدعوة البرنس سيسمارك ، وخرج فى نصيب المانية حصص صالحة مثل مستعمرات الكامرون ، وتوقو ، وزنجبار ، وتقرر بين الدول التشديد فى الغاء الرق ، والتعهد بحماية رسالات التبشير الساعية فى تهذيب

السود بدون تفريق بين المذاهب والأجناس ، كما ان حرية الأهالي الدينية بقيت مضمونة وقد أيد قرارات مؤتمر برلين هذا مؤتمر انعقد في بروكسل عام ١٨٨٨ ، تداعت اليه جميع الدول النصرانية وأرسلت اليه بعض الدول الاسلامية مثل تركيا ، وإيران ، وزنجبار معتمديها ، وتقرر انشاء دائرة دولية في زنجبار لمراقبة ابطال الرق .

الرسالات البروتستانتية في افريقية

لم تصل البعثات التبشيرية الى افريقية الا بعد البعثات الكاثوليكية بقرنين ونصف قرن ، وهو أمر طبيعي لأن البروتستانتية قبل أن تفكر في نشر دعوتها في خارج أوروبا ، كان عليها أن توطد قدمها في داخل أوروبا . ولكن البروتستانتين بعد أن بدأوا في التبشير سبقوا أقرانهم الكاثوليك في الاجتهاد والنجاح . وكانت الدول المسيحية بادية ذي بدء أرادت حل الزوج على التنصر بنفوذ الحكومات ، وسارت زمانا على هذه الخطة ، ولكن دول انكلترا وهولانده ، والدانمارك ، رفضت في التالى هذه الطريقة خشية حدوث الثورات في مستعمراتها ، وتركت ايتاء مهمة التنصير للجمعيات غير الرسمية .

وان أكثر الأمم رسالات دينية في افريقية هي الأمة الانكليزية ، فانها تنفق بقدر ثلثي نفقات الرسالات البروتستانية باجمعها . ولكن الذين بدأوا بالتبشير لم يكونوا الانكليز بل الألمان والدانمركيين . وقد كان أول من اقتحم هذه الأخطار من الألمان هو المورافيين حاولوا الدخول من أربعة أبواب معا : الجزائر ، والقاهرة ، وساحل غينية ، والكاب . ففشلوا في الثلاثة الأبواب الأولى بسبب تمسك أهل الاسلام بدينهم ، وبما فتكت بهم الحى في غينية ، فقد كانوا يرسلون الفوج بعد الفوج ، فتحصدتهم الحى تباعا حتى عدلوا عن رسالة غينية ، ولم يستأنف العمل هناك الا بعد ستين سنة بواسطة جمعية (بال) من سويسرة الالمانية . أما في بلاد الكاب ، فقد كانت لهم اليد الطولى في تهذيب الهوتنتوت والكافر Kafres ، وتخفيف آلام المجنومين . ولما توطن المبشر الألماني جورج شميد في بافيانس كلوف على ٥٠ ميلا شرق الكاب ، كان الفلاحون الهولانديون « البوير » يحتقرون الهوتنتوت الى حد أنه هو قرأ امام عدة كنائس الاعلان الآتى « ممنوع دخول اهتنتوت والكلاب الى هنا » . وسنة ١٧٩٢ أسس الموارافيون في تلك البلاد مركزاً أطلقوا عليه اسم وادى الرجة Gnabental ، وفي سنة ١٨٠٠ صار هذا المركز قرية ذات ١٢٠٠ نسمة

فيها صناعات وأشغال مفيدة ، واليوم هي من أزهر بلاد الكاب ، وفيها ثلاثة آلاف هونتوتو مسيحي . ثم أوغل المورافيون في بلاد الكافر الى مسافة ٦٠٠ ميل شرق الكاب . وعاشت أعمالهم حروب الانكليز مع أمة الكافر ، لكنهم ثبتوا في موقفهم وصبروا على الشدائد من سنة ١٨٢٨ الى سنة ١٨٨٥ ، اذ وفقوا الى تأسيس مركز في شمال بحيرة نياسا Nyassa في الجنوب الغربي من المستعمرة الألمانية الشرقية . وكان للبعثة المورافية عام ١٩٠٢ نحو ١٢ مركزا ، و ٢٢ مدرسة ، و ٢٠٠٠ تلميذ ، ونحو ١٠ آلاف متنصر وعاملوا الأهالي البناء والحرق . ولكن أهم عمل قاموا به هو معالجة المجازيم ، فان الانكليز منذ سنة ١٨١٨ بنوا مستشفى لمجنومي الهونتوتو وسلموا خدمته الى المورافيين ، وكان مستشفى واسعاً ذا جدران عالية وباب واحد ، فلبثوا يخدمون هذا المستشفى ٤٤ سنة ، وكان الدكتور لابتز مدير المستشفى متعزياً عند وفاته ، بأنه وجد من المجازيم ٩٥ رجلا قبلوا الدين المسيحي . ولما أرادت الحكومة الانكليزية استبدال قسوس انكليز بهم ، خرجوا من ذلك المعهد الصحي باكين ، ومن الغريب انه لم يصب ولا واحد من المورافيين بالجذام مع شدة عدوى هذا المرض .

ويأتى بعد المورافيين دعاة جمعية بال (أو بازل بالألمانية) فقد نطحوا افريقية سنة ١٨٢٨ بطلب ملك الدانمرك ، فذهبوا الى ساحل اذهب وكانوا سبعة ، فأت منهم خمسة بالحي ، والتجأ أحد الاثنين الباقيين الى أحد الجبال حيث الهوء نقي ، فجعل هناك مركز رسالة ومصححاً معاً ، وسنة ١٨٣٥ أسس في اكروينغ كنيسة لنصارى السود ، وكانت مبادئ العمل في غاية المشقة اذ مضت ٣٤ سنة ولم ينتصر سوى ٨٠٠ شخص ، ولكن منذ سنة ١٨٥٧ أخذت الرسالة تنجح وعدد المنتصرين ينمو ، حتى كان مجموعهم سنة ١٩٠٢ نحو ١٨ ألفا . وهذه الرسالة اليوم ممتدة الى بلاد الاشاني التي قاعدتها كوماسي ، والى حدود مستعمرة طوغو الألمانية . ولها أيضا تسعة مراكز في مستعمرة الكامرون الألمانية ، حيث يلف حولها نحو ثلاثة آلاف نصراني كامروني ، وعندها في الكامرون ١٣٧ من الكتاتيب ، يختلف اليها نحو ٣٢٠٠ ولد . وقد ترجم رجال هذه البعثة التوراة الى

اللغة المسماة دوالاً Doualla

ثم جمعية برلين الافريقية وهي احدى جمعيات برلين الانجيلية ، أسسها ديستلكامب

Diestelkamp سنة ١٨٨٦ للتبشير في شرق افريقية ، فأرسلت دعائها الى الجنوب الغربي من مملكة الاورانج ، والى غربي غريكا ، والى بلاد الباسوت في الترانسفال ، والى شمالي بحيرة نياسه ، فيوجد لها في هذه الأيام ٢٧ مركز دعاية و ٢١ ألف متنصر ، وازهر مؤسساتها مدينة بوتشايلو ، التي عدد سكانها ٤ آلاف كلهم نصارى ، وفيها صناعات ومهن في غاية الفائدة .

ثم جمعية الكنائس الانجيلية في بلاد الرين أرسلت دعائها للتبشير في بلاد الهوتنتوت ، ثم نظحت بلاد الناما Namas ، والهرير و Herreros الذين هم من أشد القبائل عتواً والوافاقبو الذين بين نهر الاورانج والكوئين ، ثم إن أحد البيوتات التجارية الالمانية من برام أسس محلاً تجارياً في اوتجيمبنغه Otijimbinge فامتد هناك الالمان وجعلوا لأنفسهم مستعمرة سموها مستعمرة الجنوب الغربي الافريق ، فالرسالة الانجيلية الرينية عندها في هذه الأيام في مستعمرة السكاب ٢٥ مركز دعاية ونحو ١٦ ألف متنصر ، وفي مستعمرة الجنوب الغربي المذكورة ٢٤ مركزاً ونحو ١٢٥٠٠ متنصر .

ثم جمعية شمالي ألمانبة التي مركزها برام ، وجمعية هرمانسبورغ التي مركزها هانوفر هما أيضاً تشتغلان في الدعاية بافريقية ، فالأولى تخدم هذا المقصد في ساحل العبيد وعندها نحو ٣ آلاف مرید ، والثانية تشتغل في بلاد الباسوتو شمالي الترانسفال ، والباسوتو قوم كان البوير يعاملونهم معاملة أرقاء . ثم تقدم دعاة هذه الجمعية الى بلاد الزولو ، وشرعوا في التعليم والتبشير ، فمن نصف قرن الى اليوم صار عندهم نحو ٤٣ ألف متنصر .

ثم تأتي جمعيات السويد والنرويج ، فالسويد جمعية تبشر في مستعمرة ايطالية بالاريتره ، وفي بلاد كونانه ، ومقاطعة جازه ، شمالي الحبشة الى الغرب ، وكان عندها سنة ١٩٠٢ عشرة مراکز و ٥٠٠ مرید و ١٤ مكتباً للصغار . أما النرويجيون ، فقد أسسوا في ماداغسکر رسالة في غاية العظم ، فانتخبوا مقاطعة بتسيليو للعمل بالاتفاق مع جمعية لندن التبشيرية ، ثم تقدموا الى بلاد ساكلاف في الساحل الغربي من ماداغسکر ، والى الساحل الجنوبي الشرقي . وبعد جهد استمر ٣٠ سنة ، كان عندهم سنة ١٩٠٠ خمائة مكتب ، وواحد وخسون ألف وثلثمائة مرید ، ولهم أيضاً مدرسة علمية عالية ، ومدرسة لاهوتية ، ومدرسة طبية تابعة لمستشفاهم بتاناناريف .

ثم الجمعيات الهولندية ، وأول من اعتنى منها بالتبشير ، جمعية تأسست سنة ١٧٩٧ في روتردام ، اسمها جمعية جنوبي افريقية لتوسيع مملكة المسيح . وكان بطلاها تيمودور فان دركامب وكيشرر ، فذهبا الى بلاد الكاب وباشرا العمل في بلاد الهوتنتوت وعند ذلك اشتدت عزيمة الكنيسة الهولندية في الكاب ، فقامت بما يجب عليها من التبشير بين زنوج بلاد الأورانج والترانسفال . ولما دخلت بلاد الكاب تحت سلطة انكلترة سنة ١٨١٥ ، انطلقت أيدي الجمعيات التبشيرية الانكليزية في العمل لاسيما جمعية التبشير بالانجيل المعروفة بهذه الأحرف الثلاثة S.P.G فقد بثت الدعاية بين الأهالي بهمة المطران غراي ، وسنة ١٨٦٤ دخلت هذه الجمعية ماداغسकर ، وأسست كرسي اسقفية في تاناناريف ، وصار عندها ٩١ ألف مرید .

ثم برزت الى الميدان جمعية رسالات الكنيسة الانكليزية المؤسسة عام ١٧٩٩ ، وكان معظم همها مصروفا نحو افريقية ، وكانت كلمتها « يذنبى رجال ذوو عقل ديني لا كمال عمل روجي » وفي البداية كانت تكتب أكثر دعائها في ألمانية ، فقد أخذت من مجمع مدينة بال وحده ثمانين داعياً كلهم من الطراز الأول . وكان ميدان عملها الكاب ووادي النيجر الأوسط ثم مومباسه ، ثم الأوغانده حيث وقع الخلاف بين المبشرين الكاثوليكين والمبشرين البروتستانتين وجر الى معارك دموية ، ومع هذا ، فإن هذه الجمعية جمعت حولها ١٦٤ ألف منتصر في الأوغانده وحدها وكان يوجد هناك نحو ٢١٢ ألف زنجي كاثوليكي ، و ٤٠ ألف مسلم . ولا يزال نحو ٣٨٠ ألف زنجي على عبادة الأصنام^(١) فالرسالة الانكليزية بواسطة هذه الجمعية تمكنت من تأسيس خمس عشرة اسقفية وهي ما يأتي : اسقفية الكاب (١٨٤٧) . سياراليون (١٨٥٢) نانال (١٨٥٣) ، غرامستاون (١٨٦٣) ، بلومفونتن (١٨٦٣) ، الزولو (١٨٧٠) سان جان في بلاد الكافر (١٨٧٣) تاناناريف بمدغسكر (١٨٧٥) ، بريتوريه (١٨٧٨) ، زنزيبار وشرقي افريقية . خط الاستواء . بلاد النيجر . نياسه وماشونه في روديزيه Rhodésia . ويضاف الى هذه الاسقفيات مدارس للعلوم والمهن كالحدادة ، والنجارة ، وجر الأثقال ، وغيرها ، وأشهر هذه المعاهد الذي في غراهامستون ، ثم الذي

(١) قرأت في بعض الكتب الفرنسية أن الانكليز عززوا قوة الدعاية الانكليزية بالسلاح في الأوغانده وضايقوا الكاثوليك والمسلمين

في بلاد الكافر، ثم الذي في جوار الكاب، ثم الذي في كيبوزي .

ولقد اعترف بجلال أعمال هذه الجمعيات أبعد الناس عن الدعوة الدينية . فقال اليزه ركلوس الجغرافي الفرنسي الشهير : انه بتأثير دعاية الجمعيات الانكليزية دخل كثير من زنوج سيراليون في النصرانية وصار منهم أكثر الوعاظ والمبشرين ، وأقبل الناس على التعلم وتحرر الأرقاء ، وتأسست مملكة سوداء حرة .

ثم جمعية رسالات لندن المؤسسة سنة ١٧٩٥ ، أرسلت دعائها الى بلاد البوشمن في الأورانج الأعلى ، والى ما بين بلاد الكاب وبحيرة ناكامي ، والى جزيرة ماداغاسكر ، وأسست سنة ١٨٧٧ مراکز بقرب تنقانيكا ، واورامبو ، واوجيجي . وقد كان مریدو هذه الجمعية بلغ عددهم سنة ١٨٥٠ في بلاد الكاب ٣٥ ألف نسمة ، وأما في سنة ١٩٠٢ فكان عددهم ٩٦ ألفاً عدا رعية كنيسة ناتال . وتنصر على يد ليفنستون أحد أولاد ملوك بامانقواتو المدعوكلما ، فنع استعمال الأشرطة الكحولية بين الأهالي .

وقد اقتدت بالكنيسة الانكليكانية الكبرى الكنائس التالية ، فالكنيسة المعمدانية نشرت دعوتها في خليج غينية وجعلت لنفسها مركزاً في جزيرة فرناندوبو الاسبانية ، ثم بثت دعائها في الكامرون حيث بنت مدينة فكتوريا التي صارت قاعدة مستعمرة الكامرون الألمانية ، وتركت في تلك البلاد مآثر عظيمة من ترقية الأخلاق . والغاء الرق وابطال السحر واسقاط السحرة الى أن صاروا يتوارون في الغاب وصارت الفتيشية سخرة يهزأ الجميع منها . ولما استولى الألمان على الكامرون لم يرتاحوا الى وجود المبشرين الانكليز فيها ، فتحلوا هؤلاء عن مؤسساتهم لجمعية بال الألمانية (١٨٨٧) ، ولبت النصارى الوطنيون مستقلين بكنائسهم . وتحولت الجمعية المعمدانية من الكامرون الى الكونغو حيث كان البرتغاليون قد أدخلوا كثيرين في الكشلكة ، فاجتهد الانكليز المعمدانيون في استمالة قسم من أهل الكونغو ، ولكن الى اليوم لايزيد عدد المنتصرين على أيديهم على أكثر من ٦٠٠ نسمة (١٩٠٦) .

ويرجع الى هؤلاء المعمدانيين الفضل في تنبيه الأفكار ، الى ما كان يجريه عمال البلجيكي في الكونغو من المظالم والفظائع ، التي تشمئز منها الطباع ، والتي شاع ذكرها فيما بعد ، فصدر أمر ملك البلجيكي ليوبولد حينئذ بالتحقيق عن هذه الفظائع ، وثار من أجل

ذلك غضب أولئك المستخدمين الذين افتضحت أعمالهم لكن المبشرين قاموا بواجبهم تجاه النصرانية والانسانية جميعا .

ثم الكنيسة المسماة بالميثودية Wesleyenne ou Méthodiste ^(١) بدأت بالتبشير في سيراليون سنة ١٧٩٦ ، ونجحت نجاحاً عظيماً حتى يعد مریدوها اليوم بنحو ٧٥٠ ألف نسمة منهم ١٥٠ مبشراً زنجياً وعندها فروع ممتدة من غامبيه الى النيجر . وللكنيسة الميثودية هذه رعية في بلاد الكاب ، والكافر ، والزولو ويحصى مریدوها هناك بنحو ١٠٠ ألف نسمة . وفيما بين الزنوج الميثوديين ظهرت الحركة المسماة بالاتيويية Ethiopisme التي معناها نزوع المسيحيين السود من أمة البانتو Bantous في جنوبي افريقية الى ادارة الكنائس الأهلية بدلا عن الأوربيين ، عملاً بقاعدة « افريقية للافريقيين » ، وقد بزغت هذه النزعة سنة ١٨٩٦ في الترانسفال ، وأخذت اسم الاتيويية بحجة ان أصحابها يريدون الانتماء الى الكنيسة الاتيويية أي الحبشية ، لأنها كنيسة مسيحية أصلية في افريقية تأسست منذ أيام الخواريين . وهم يرمون المبشرين الأوربيين بكونهم غالباً يجعلون التبشير مصيدة للعالم ، وغرضاً من أغراض السياسة والتجارة ، ولا يفهمون حقيقة احتياج الروح السوداء ، فرماهم تأسيس كنيسة افريقية حرة لا تحت سيطرة المبشرين الأوربيين ، ولكن أصحاب هذا المشروع كان ينقصهم العلم اللازم والقوة الكافية لتحقيقه ، فراجعوا الكنائس السوداء بأمر كالأجل مساعدتهم ، فلم يفوزوا بطائل يذكر فانضموا سنة ١٩٠٠ الى كنيسة الكاب الانغليكانية ، واتخذوا لقب الجمعية الحبشية وعددهم نحو ١٠ آلاف ، ^(٢)

ثم الكنيسة البرسبترية L'Eglise Presbytérienne في بلاد الايكوس هامراكز دعاية في بلاد نانال ، وعندها مدرسة في بليتسفورد . وكذلك الكنيسة الايكوسية الحرة لها مراکز في بلاد الكافر ، والزولو ، وعندها مدرسة صناعية في لوفيدال ، فيها نحو ٥٠٠

(١) كنيسة پروتستانتيه-أنسها في اكسفورد يوحنا وسلي John Wesley سنة ١٧٢٩

(٢) يعلم القارئ المفكر من هنا ان نزعة الاستقلال عمت جميع الأمم حتى السوداء ، وصارت الى المسائل الدينية أيضاً فأكاد قسم من الزنوج يتنصرون على أيدي الأوروبيين حتى نهضوا يطلبون استقلالهم الكنسي ، ويحنون الى المنبته النصراني ، ملتصقين بالاضمام اليهم لأنهم افريقيون في الجنس .

طالب ، ويتبعها مزرعة نموذجية ، تبلغ غلتها كل سنة ألف قنطار من الحبوب وبالأجال فالرسالات الألمانية امتازت بالتدقيق في اللغات الافريقية ، وبالثبات وحفظ النظام ، ولكن الرسائل الانكليزية والايكوسية امتازت بالجرأة وبعد الهمة ، وبالصدق في تحرير الزبوج ، ومنع المظالم الواقعة عليهم من المستعمرين ، على ان كلا الفريقين ادخل في افريقية الشغل اليدوى ، والصناعة والزراعة ، مقرونة بالتعليم الدينى والتهديب ، فصرت ترى من هؤلاء السود زراعا وعشقا^(١) وممرضين وميكانيكيين وقوامين على التلغراف .

أما البروتستانتون الفرنسيين فقد أرادوا الاقتداء بغيرهم من أبناء سائر الكنائس الانجيلية ، وتأسست لهم جمعية تبشير في باريز سنة ١٨٢٨ ، وأرادت يث دعائها في العالم الوثنى مبتدئة في ذلك بالمستعمرات الفرنسية مثل جزر الانتيل ، والبونديشيرى ، ولكن الكاثوليكيين أبوا ذلك ، فلم يسمح كارلوس العاشر ملك فرنسا للبروتستانت الفرنسيين بالتبشير في تلك الأصقاع ، فاعمل هؤلاء همتهم في بلاد الكاب لاسيما عند جيل يقال لهم الباسوتو Bassontos وقد مضى على دخولهم تلك البلاد سبعون سنة هذبوا فيها أخلاق هذا الجيل ، وأوجدوا بينهم العلوم والمهن ، وأسسوا مدارس وكتاتيب ومطابع ، وعندهم الآن ٣٠ ألف مسيحي من الأهالى و١٢ ألف ولد في كتاتيب الجمعية ، وقد جمع المبشرون لغة هؤلاء القوم في معجم ، وألفوا لها نحواً وصرفاً وآداباً ، وترجوا لها التوراة .

ولما تأسست في فرنسا الحكومة الحرة أذنت لهم بالتبشير في المستعمرات الفرنسية ، فذهبوا الى السنغال سنة ١٨٦٢ ، والى الكونغو الفرنسى ، والى زمبيزية العليا ، والى ماداغسكر . فأما الرسالة السنغالية فكان عليها أن تجادل خصمين عنيدين . المناخ الوبى ، والتعصب الاسلامى . وبالرغم من ذلك ، تمكنت من تأسيس مركزين أحدهما في سان لويس والآخر ، في بونديور . أما في الكونغو الفرنسى فكان أولا المبشرون الامريكيون من الكنيسة البرسبيتيرية ، فلما قضت الحكومة الفرنسية بتعليم اللغة الفرنسية بصورة اجبارية دعا المبشرون الاميريكيون جمعية التبشير البروتستانتية الفرنسية لأخذ مراكزهم (١٨٩٢)

(١) جمع عشيق أو عشوق وهو الذى يسوى رياحين الحقائق

وأسسوا أربعة مراكز جديدة ، وشرعوا في الوعظ بين قبيلتين أحدهما يقال له الغيلاوه Galoas والثاني الباهوين Pahouins . وأما في زميزية العليا فأنهم جعلوا ميدان عملهم بلاد الباروتزي Barotsis ، فنجحوا نجاحاً عظيماً ، ومن لم ينتصر من هؤلاء القوم ، فقد تهذبت أخلاقه بالاحتكاك مع المبشرين ونشر التعليم المسيحي ، ومنهم لفانيكا ملك البلاد الذي أمر بمنع الأشرقة الكحولية في مملكته ، فالبعثة الفرنسية الانجيلية عندها هناك ستة مراكز ، مع مدارس وكنائس عديدة . ولكن بدأت تراجعها منذ سنوات في ذلك القطر الجمعية الحبشية المار ذكرها ، والتي مبدأها « افريقية للافريقين » .

ولما استولت فرنسا على ماداغسكار بتمامها سنة ١٨٩٥ ، كان التبشير في هذه الجزيرة الكبرى في يد الجمعية النورويجية ، ورسالتين انكليزيتين احدهما ، رسالة لندن ، والثانية رسالة الكويكرس . فلما زحفت العساكر الفرنسية ، اتهم بعض دعاة رسالة لندن بتحريض أمة الهوفا Hovas على المقاومة ، فطلبت الحكومة الفرنسية تحلي رسالة لندن عن قسم من مؤسسانها لرسالة فرنسا الانجيلية ، وكان لرسالة لندن حينئذ خمسمائة كنيسة ، وثلاثمائة وخمسة وسبعون كتاباً للاولاد . ولم يخل هذا الأمر من احداث شكوك وشبهات في افكار الماداغسكاريين المنتصرين حديثاً فاهتبل الجزويت هذه الفرة لتحذير الحكومة من البروتستانتية ، وزعموا ان برونستانتى هو مرادف انكليزي ، وان كاثوليكي مرادف لفرنسي أو محب لفرنسا ، فبمساعدة بعض ضباط الفرنسيين ألقوا في السجون عدداً كبيراً من القسوس الانجيليين من الوطنيين ، وانتزعوا منهم نحو مائة كنيسة ومدرسة ، وسلموها الى الرسالة الكاثوليكية . وما زال هذا الاعتداء واقعاً حتى تولى الجزيرة الجنرال غالباي ، فأبطله . والآن تحت يد البعثة الفرنسية الانجيلية في ماداغسكار في مقاطعة ايميرنه Imérina ٣٤٧ كنيسة يختلف اليها ٧٧٧٥٨ مؤمناً وفي مقاطعة بستيليو Bestileo ١٨٧ كنيسة يختلف اليها ٣٣٣٧٩ مؤمناً ، هذا عدا المدارس الابتدائية والعالية ، ودور المعلمين والمعلمات ، ومستشفى للجاذيم .

ولا ننسى مساعي الكنيسة الانجيلية المتيودية الفرنسية في بلاد البربر Kebylie من جزائر الغرب ، فقد ذهب الى هناك مبشر اسمه جالبرت عظيم الثبات والمهارة لجعل مركزاً في المثن Mathieu ، وآخر في القصور ، وآخر في بجاية ، ونصر عدداً من المسلمين

أكثرهم من البربر ، فظهر أن تنصير المسلمين لاسيما من أمة البربر ، ليس من الصعوبة بالدرجة التي كانوا يظنونها .

ثم ان الامريكيين قد تعاطوا أيضا التبشير في افريقية وذلك ، أن سود امريكا اهتموا باخوانهم سود افريقية من قبيل تضامن الجلدة ، وان البيض تذكروا انهم هم الذين كانوا قد أتوا بهؤلاء السود واستخدموهم واستعبدوهم ، وأذاقوهم العذاب ألوانا ، فرسلتهم التبشيرية الى افريقيه ، هي تكفير جناية الاعتداء على الانسانية مما ارتكبه آباؤهم بحق الافريقيين .

فللامريكيين في افريقية ثلاث رسالات : الرسالة المتيودية ، والرسالة المعمدانية ، والرسالة البرسيبترية . فلما تأسست مستعمرة ليبيرية في ساحل غربي افريقية وجاءها الزنوج من امريكا (١٨٢٠) أرادت الكنيسة المتيودية أن تؤسس في ليبيرية مركزاً فلم تتمكن من ذلك ولكن سنة ١٨٥٨ أسست أسقفية وجد فيها وعاظ مشهورون مثل بورنس وتايلر . (١)

(١) سنة ١٩٢٢ كان محرر هذه السطور من جملة الوفد السوري ، المطالب باستقلال سورية في جنيف لدى جمعية الأمم ، فحسب العادة كنا نطلب من جميع الوفود الدولية بدون استثناء ، الملاقاة معهم لبسط القضية السورية لهم ، فكانوا في الغالب يجيبون سؤالنا ولما كانت جمهورية ليبيرية هي من جملة أعضاء عصبة الأمم ورد لنا الجواب من مندوبيها أيضاً بتعيين موعد للملاقاة ، فذهبت أنا وزميلي احسان بك الجابري . وتذكرنا ساعة ذهابنا ، كيف ان حكومة أمة سوداء زنجيه تكون حرة مستقلة وعضواً في جمعية الأمم ، وان قطعاً مثل سورية وفلسطين هما من أقدم وأشرف أقطار العالم ، وأمة كالامة العربية تكون محرومة استقلالها ، ولا يكون لها حق أن تساوى هذه الامة الزنجية الصغيرة ، في الجلوس على كرسى في عصبة الامم . ولما وصلنا الى المحل الذي فيه مندوبو ليبيرية التقانا اثنان اوربيان ، تكلما معنا بالفرنسية ، وعرفنا منهما انها مندوبتا تلك الجمهورية ، ففرحنا لهما قصتنا والتمسنا منهما كالعادة ضم أصواتهما الى أصوات الذين يطالبون باستقلال الامم ، فاعتدرا بأنهما يخافان الضرر من غرمائنا الفرنسيين والانكليز . فيما لورفعا أصواتهما باسما في مطالبنا ، اذ قالوا لنا ان جمهورية ليبيرية صغيرة ومجاورة لمستعمراتهم ، فيمكنهم الانتقام من الليبيين ، ونحن في الباطن عذراهما ، ولكنهما قالوا لنا ، انهما يمتنان نجاح قضيتنا ونجاح كل البلاد الاسلامية فدألناهما وهل في جمهورية ليبيرية مسلمون ؟ فالتفت أحدهما وقال مؤكداً : « ان جمهورية ليبيرية سكانها مليون وخمسمائة ألف نسمة ، منهم ثلاثمائة ألف نصارى ، ومليون ومائتا ألف مسلمون . فسألناه وكم عدد الاوربيين في ليبيرية ؟ فقال : الاوربيون الثابون الليبريه هم ٥٠٠ نسمة لاغير . فلم نزد في السؤال على ذلك ، ونظن ان ازدياد عدد المسلمين هناك أمر حديث العهد . »

أما الرسالة المعمدانية الاميركية فلها مراكز في موز وفيه ، وسيراليون ، وفي ليبيريا ، وفي بلاديرو وبه ، وقاعدتهم في هذه لاغوس على ساحل غنييه . وقد عضدهم في مساعيهم كلها مبشرو الجمعية المعمدانية السوداء .

وأما الكنيسة البرسبترية الامريكية ، فقد وجهت نظرها من الأول الى مصر (١٨٥٤) ، وساعدها الخديوى سعيد باشا في مشروعاتها ، فشادت مدارس في القاهرة والاسكندرية وسنة ١٨٦٣ ، اسست الكنيسة القبطية الانجيلية وصارت لها شعب في أسيوط ، والاقصر ، والمنصورة ، وسنة ١٨٩٥ ادخلت النصرانية في اسوان بعد أن كانت انقرضت من هناك منذ ١٢ قرنا ، فالاقباط الانجيليون اليوم (١٩٠٦) يبلغ عددهم ٢٥ ألفاً

وانهى المسيو بونه موري كلامه الملخص هنا بقوله ، ان نجاح هذه البعثات الانجيلية كلها في افريقية ، دليل على كون قوة الدعاية النصرانية لا تغلب فيما لو تجردت من الأغراض السياسية ، فانه لا يوجد آفة على التبشير أعظم من المآرب الاستعمارية ، اذ بذلك الأهالي يجعلون التبشير لجميع الآثام والموبقات ، التي تصدر من عمال الحكومات المستعمرة .

نهضة الاسلام في افريقية وأسبابها

ووسائل دعوتها

(١٧٩٠ — ١٩٠٠)

قال : ذكرنا مجاهيد الرسالات الكاثوليكية والبروتستانتية في افريقية ، سواء ، لأجل اعادة الاقباط والاحباش الى حظيرة الكنيسة الرومانية ، أو لأجل تنصير الزنوج ، وبقي علينا استئناف الكلام على امتداد الاسلام في افريقية .

فقد رأينا كيف ان الاسلام بين سنة ٦٣٨ و ١٠٥٠ مسيحية في دوره الأول فتح سريعاً شمالى افريقية وأدخلها في دينه ، وامتد من ساحل البحر المتوسط الى السودان امتداداً كان بطيئاً ، لكنه كان أميناً . وقد توقف سير الاسلام قليلاً في القرن العاشر بسبب ثورات البربر ، وحروب الروم ، وقتن ملوك المغرب بعضهم مع بعض ، ولكنه استأنف هيمته وأدخل في حظيرته نصارى النوبة ، وأمم الغالة ، والسواحليين (سواحل زنجبار) ، وقبائل الصحراء ، ثم أسس في السودان ممالك عزيزة ، ومراكز

عظيمة لبث الدعوة ، وهذا في دوره الثاني .

أما في الدور الثالث من سنة ١٧٥٠ الى ١٩٠١ فقد نهض نهضة ثالثة ، على أيدي مشايخ الطرق أو الاخوان ، وذلك انه في أواخر القرن الثامن عشر ، لما دخلت الدعوة البروتستانتية من كل نوع الى افريقية ، وضاعفت الكنيسة الكاثوليكية فيها مجاهديها بسائق المنافسة ، كان لابد من أن يتنبه الاسلام لمقاومة النصرانية ، وان يشتد الصراع بين هاتين القوتين المتقابلتين ، مقرونا ذلك بالاهواء السياسية ، التي تزيده شدة وحدة .

وأكثر أسباب هذه النهضة الأخيرة ، راجعة الى التصوف ، والاعتقاد بالأولياء ، و بظهور المهدي .

ثم ذكر المؤلف كيفية دخول التصوف في الاسلام مالم نأثره ، لأن مؤلفي الاسلام أدرى بهذا الموضوع ، وأشار الى عقيدة الأولياء قائلا ، انها مخالفة أشد المخالفة لروح القرآن وان نبي الاسلام ﷺ كان نظره عاليا جدا الى السماء ، ومجتهدا أن يعالو الى آفاق بعيدة بانظار المؤمنين و بصلواتهم ، ولكن المؤمنين لم يلبشوا أن شعروا بالاحتياج الى الوسيلة عند الله ، واتخاذ متوسطين لديه تعالى ، يكونون أقرب متناولا . فلم يأت القرن الثالث من الهجرة حتى ظهرت في الاسلام العقيدة بالأولياء ، وابتدعت زيارة قبورهم ، وضاروا يعتبرون لهم خصائص ، ويعزون اليهم الكرامات والخوارق وأصبح نكل منهم أتباع ومريدون ، وأشبهت القضية العقيدة الكاثوليكية من هذا الوجه ، فالولى الفلانى يشفى من الرياح كما كان القديس فيا كر يشفى مرض الباسور . والشيخ محمد أبو طالب ، يقصده الناس لأجل لقياں الحوائج الضائعة ، كما كانوا فى النصرانية يقصدون القديس انطوان بادو والامام الشافعى ، يستغيث به طلاب الأزهر ، للنجاح فى دروسهم والولى الفلانى هو شفيع المحامين مثل القديس ايف Ives . والآخر مستغاث السياح ، يقيهم من اللصوص فى الطريق .

وأفاض المؤلف فى ذكر الأولياء والقبور ، والقبب المشيدة للزيارات وأداء النذور مما لا يحتاج القارئ الى معرفته ، ثم وصل الى عقيدة المهدي فقال :
 معلوم الدور الذى أخذته عقيدة المسيح المنتظر فى اليهودية وظهر فيما بعد أنها مستعارة من الفرس . كذلك المسلمون يعتقدون بظهور رجل فى آخر الزمان يقال له المهدي

علاء الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ويستدلون على ذلك بأحاديث للنبي ﷺ . ثم ذكر المهديين الذين ظهروا فى الاسلام أو ادعوا المهدوية فعدّ منهم ابن تومرت ، الذى ظهر بدولة الموحدىن فى القرن الثانى عشر للمسيح . ثم قال ان كثيرىن من مسلمى الهند اعتقدوا فى أكبر خان المغولى سلطان سلاطين الهند فى القرن السادس عشر انه المهدي المنتظر ثم قال انه سنة ١٨٦٢ ظهر واحد من أمة البله Peulh من بلاد ماسينا فى أواسط افريقية كان درويشا من أتباع الطريقة التيجانية ، فزعم انه المهدي وأسس فى السودان مملكة مستقلة ، الا وهو الحاج عمر الذى سيأتى ذكره (١)

قال وأشهر المهديين فى عصرنا محمد أحمد الذى ظهر فى السودان سنة ١٨٨١ فحشد خمسين ألف مقاتل من المؤمنين المتحمسين ، وهزم العساكر المصرية المرسلّة لقتاله فى عدة وقائع ، واستولى على الأبيض قاعدة كردوفان وعلى بربر مفتاح بلاد النوبة ، ثم حصر الخرطوم عاصمة السودان المصرى الواقعة فى الزاوية المتشكلة من فرعى النيل الأبيض والازرق ، وكان فيها قائد أ كوسى اسمه غوردون فدافع عنها دفاع الأبطال ، ولكنه لم يقدر على المهدي ، فدخل هذا الخرطوم وقتل غوردون وأطاع له جميع السودان (١٨٨٥) لكنه لم تطل حياته بعد هذا الفتح فأتى فى ٢٨ يونيو سنة ١٨٨٥ تاركا سلطنة عظيمة ممتدة من اسوان الى النوبة الى دنقلة الى كردفان الى واحات دار فور . وخلفه عبد الله التعايشى فوسع الفتوح التى كان فتحها المهدي وما زال حتى تغلب عليه الجنرال كيتشنر فى ٣ اغسطس سنة ١٨٩٩ فى واقعة أم درمان ، وبقيت للمهدي أشياع تقاثل فى الأطراف ، الا أنهم انقرضوا شيئا فشيئا .

ولم يعترف جميع مسلمى افريقية بمهدوية محمد أحمد وكان من جملة المعارضين له رئيس الفرقة السنوسية ، (٢) ثم قال المسيو بونه موزى مصنف الكتاب الذى نقلنا عنه كل هذا نقل ما يأتى ملخصا :

-
- (١) هو الحاج عمر القوتى قال لى سيدى احمد المريف انه كانت له صلة مع السنوسية وانه زار الجغبوب
(٢) هذا صحيح فالحق للمهدي السودانى محمد احمد دعا سيدى محمد المهدي السنوسى للاتحاد معه ووعد به بأن يجعله مقدم رجاله ، فرفض دعوته واحتج على دعواه ، وبينهما مراسلات فى هذا الشأن أثبتت سيدى احمد المريف فى تاريخ جده وعمه الذى سينفرد ، وقد اطلعت السيد المشار اليه عليه فى هذه الأيام الأخيرة

انه في القرن الثاني عشر والثالث عشر للمسيح تأسست طرق الدراويش. كأنها من نوع المقاتلة للرهبايات النصرانية في القرون الوسطى ، وللحروب الصليبية . وفي القرن الثامن عشر والتاسع عشر حصلت نهضة جديدة عند أتباع الطريقتين القادرية والشاذلية ووجدت طريقتان هما النيجانية والسوسية .

القادرية

القادرية مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى في بغداد (١١٦٦) ، وكان له حرمة حقيقية للسيد المسيح وكان يقول : « يلزم أن ندعوا لانفسنا فقط ، بل لكل من خلقه الله مثلنا » . فلذلك امتاز أتباعه بروح التسامح مع النصارى واليهود . والقادرية كثيرون جداً في المغرب وزاويتهم الكبرى في « عزارات » أسسها الشيخ مختار الكبير . وبعد وفاته انقسمت القادرية الى ثلاث فرق : الاولى القادرية البكاية الذين مركزهم الزاوية المذكورة ، وقد انتشروا الى تمبكتو . الثانية القادرية الذين في آدرار^(١) ، الثالثة القادرية الذين في والاته وقد انتشروا الى السودان الغربي فلهم مراكز في كانكان وتيمبو ، من بلاد فوتاحلون^(٢) وفي موارساردو من بلاد الماندينق ،^(٣) ومن هذه النقطة امتدوا الى الجهات المجاورة فعمروا ديار بلال الله ، وذكر الله ، ومدينه . وما زالوا حتى وصلوا الى مقاطعة سيراليون^(٤) وبالأجمال فالقادرية هم أحسن مبشرى الدين الاسلامي في غربي

(١) آدرار واحة من الصحراء الغربية شرق الرأس الأبيض على مسافة ٤٠٠ كيلو متر شمال السنغال أهدا بربر وعرب وأم قراها ، شنتيط ، وادان ، واثار ، عرفها الاوربيون منذ سنة ١٨٥٠ بواسطة ليوبولد بانه

(٢) أحد أقسام السودان الفرنسي واقع بين غنية الفرنسية والسودان المعروف بهذا الاسم والسنغال وغنية البرهالية وهو بلاد جبلية لكن ارتفاع أعلى قممها عن سطح البحر لا يزيد على ١٣٠٠ متر . ومنها تنبع أسر النيجر والسنغال والغامبي . ومناخها لا بأس به . ولها معادن ومن حاصلاتها الزيت والقطن والمطاط الكاوتشوك ، وأهلها ستمائة ألف نسمة من جنس الجالوقة والبله والتريقولور ، وكلهم مسلمون وإفرايم يمال لهم المالى من جنس البله . وعاصمة البلاد تيمبو وهي تحت حماية فرنسا ، يشرف عليها والى غنية الفرنسية . عن معجم موريس فال Maurice Wahl مفلس المعارف في المستعمرات الفرنسية (٣) أهل من الراج في غربي افريقية ينسب اليهم قبائل البامباره والمالينكة والسوهنكة

(٤) مستعمرة انكليزية على ساحل غنية يحدّها غنية الفرنسية شمالا والسودان الفرنسي من الشمال الغربي والفرنس ، وجمهورية ليبه من الجنوب ، والاقيانوس الاطلانتيكي من الغرب ، عدد سكانها ١٢٦ ألف نسمة ، وتطاحها وفي لكثرة مستقعاتها

افريقية من السنغال الى بنين ، التى بقرب مصب النيجر . وهم ينشرون الاسلام بطريقة سلمية أى بالاستعمار والتجارة والتعليم ، وتجند التجار الذين من السونينكه والماندجوله المنتشرين على مدن النيجر وفى بلاد كارتا Kaarta وماسينة Macina ، كلهم من مريدى الطريقة القادرية ومن مريديهم من يخدمون فى مهنة الكتابة والتعليم ويفتحون كتابات ليس فى زوايا الطريقة فقط ، بل فى كل القرى فيلقنون صغار الزنج الدين الاسلامى أثناء التعليم ، ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا الى مدارس طرابلس والقيروان ، وجامع القرويين بفاس ، والجامع الأزهر بمصر فيخرجون من هناك طلبة مجازين أى أساتذة ، ويعودون الى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسيحى فى السودان .

الشاذلية

أما الطريقة الشاذلية فقد تأسست فى النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد ، وهى من أوليات الطرق التى أدخلت التصوف فى المغرب ، ومركزها بوبريت فى مراکش . وكان من أشياخها سيدى العربى الدرقاوى (المتوفى سنة ١٨٢٣) ، الذى أوجد عند مريديه حاسة دينية شديدة امتدت الى المغرب الأوسط ، وكان للدرقاوية دور فعال فى مقاومة الفتح الفرنسى . وما امتاز به الدرقاوية هو شدة الطاعة لمشايخهم ، فان الدرقاوى المار الذكر كان يوصيهم ساعة موته قائلاً : « يجب على الاخوان أن يكونوا فى يد المرشد كالجنة بين يدي الغاسل » . فما أشبه هذه المبادئ حتى فى صيغة التعبير نفسها بمبدأ رهبانية اغناطيوس دولويولا .

التيجانية

وهناك الطريقة التيجانية ، مؤسسها أحمد بن محمد التيجانى المتوفى فى فاس سنة ١٧٨٢ ، وكان يتظاهر بالتسامح مع غير المسلمين ، ومع هذا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لم تقف التيجانية عن استعمال القوة فى محاصمة أقرانهم ، ونشر العقيدة الاسلامية ^(١) . وأهم مراكز التيجانية عين ماضى على ٧٠ كيلومتراً فى الجنوب الشرقى

(١) اذا لحظ القارىء ان تغيير طور التسامح الذى كان عليه التيجانية لم يقع الا فى النصف الثانى من القرن الماضى ، علم أنه لم يكن الا من أثر تكالب الآباء البيض جماعة لا فيجى وأمثالهم ، فما لامشاحة فيه أن التسامح يولد التسامح ، والتكالب يهيج التكالب

من اللاغوات ، وفي تياسين . وهم كثيرون في مراكش ، ولقد تبع الطريقة التيجانية عدد كبير من أهالي ماسينه في السودان وأهالي فوتاتورو Fouta-Toro وفوتاجالون وامة البله وصاروا من أشد أنصار الاسلام وانضموا حول راية الحاج عمر ، فكانوا طيلة أربعين سنة هم سادة السودان من تمبكتو الى الاقيانوس الاطلانتيكي .

وكان الحاج عمر هذا ابن شيخ مرابط ولد سنة ١٧٩٧ في قرية الفارمن بلاد ديمار^(١) فرباه أبوه وعامه ، ثم حج البيت الحرام وزار المدينة ، وقرأ مدة في الأزهر وعاد الى بورنو سنة ١٨٣٣ ، ثم ذهب الى بلاد الهاوسه وأخذ يعظ الناس بالرجوع الى عقيدة السلف ويطعن في تساهل القادرية . وفي أثناء ذلك جاء أخوه أجد ومضى به الى بلاد فوتا من السنغال ، فخرج على بلاد البامباره وحصلت معه هناك حوادث وعوارض كثيرة ، لكنه تغلب عليها ، وانضم اليه في بلد كسكان^(٢) رجل يقال له محمد وسار على طريقته وادخل في الاسلام فرقة من البله يقال لهم الواسولونكة Ouassoulonké .

ولما علت كلمة الحاج عمر ونظر اليه الناس نظرهم الى المهدي ، حشد جيشاً صغيراً وأثار جميع مسلمي بلاد غابون^(٣) وهزم البامباره الوثنيين شر هزيمة في تومبا ، واستولى بعدها على كونيا كاري^(٤) سنة ١٨٥٤ جعل مقره العام في نيورو Nioro^(٥) ثم استولى على مملكة سيفو^(٦) وعلى بلاد ماسينه . وكانت وفاة الحاج عمر سنة ١٨٦٥ وهو في حرب مع زنوج ماسينه ، وقد خلف للطريقة التيجانية سلطنة اسلامية عظيمة في وسط بلاد الزنوج الفتيشين .

(١) ناحية من قطر السنغال على الضفة اليسرى من النهر بين والو من الغرب وتورو من الشرق

(٢) مدينة من السودان الفرنسي جنوبي النيجر الأعلى أهلها خمسة آلاف نفس

(٣) ناحية من بلاد الكونفو الفرنسي أشهر مدنها ليرفيل وغلان Libreville et Gllan وبلاد أولي Oulli وبلاد الريب Rip ، ووطد فيها دعائم الطريقة التيجانية . سنة ١٨٤٧ عاد الى نواحي فوتاجالون ، وبنى قلعة حصينه في ديقيراي Dinguiray ناحية من السودان الفرنسي شمالي النيجر أهلها من التوكولور والزنوج المالينكة

(٤) من بلاد غنية الفرنسية

(٥) من السودان الفرنسي شمالي السنغال الأعلى عاصمة احمدو الاولى أهلها من البله ، افتتحها الفرنسيين سنة ١٨٩٠

(٦) من السودان الفرنسي على الضفة اليمنى من متوسط النيجر قاعدة ملك احمد وافتتحها الفرنسيين سنة ١٨٩٠

ثم خلف الحاج عمر ابن أخيه ومريد آخره اسمه اجدو شيخو بن عمر ، وحاولا توسيع فتوحات الحاج عمر ، وأثارا أهالي فوتاتورو والسونينكه الذين في بلاد كآراته Kaarta والتوكولور الذين في السنغال على فرنسا ^(١) ، فصار وجود هذه السلطنة التيجانية في وسط السودان خطراً عظيماً على سيادتنا .

وكان تحرير الخلاف هو هذا : هل يتم تمدين السودان الغربي على يد فرنسا وضباطها والمبشرين المسيحيين ، أم على يد التيجانية ورسول الاسلام ؟

فالكولونل ارشبنارد باخذه جنة Djenne ^(٢) وبنديجار ^(٣) أوقف غارة التيجانية في هذا القسم من افريقية ويسر فتح السودان بين يدي المدينة الاوربية . ثم عقب ذلك فتح الكولونل دورغنيس ديورد Dorgnis-Desbordes لبلد باماكو Bammakou واستلحاق القومندان غالييني Galiéni لبلاد فوتاجلون ، وافتتاح الكولونل ارشبنارد لبلاد ماسينه ، وتوجت جميع هذه الفتوحات باحتلال تمبكتو (١٠ يناير ١٨٩٤) مما خلد أعظم الشرف للعساكر الفرنسية ، وأعاد ذكرى ظفر شارل مارتل في پواتيه Poitiers ، سبب ما كان يترتب من النتائج العظام لمستقبل افريقية ، فيما لو لم يتم هذا الظفر ^(٤)

السنوسية

ثم السنوسية وهم أشد عداء للاوربيين من جميع طرق الدراويش ، وقاعدتهم لجهاد في الكفار وجع كلمة المسلمين أجعين على العدو العام ، وكان مع هذا ، مؤسس هذه الطريقة سيدي محمد بن علي السنوسي مستقلاً في رأيه غير متقيد بالمذاهب . ^(٥)

(١) لا يخفى أن كل قوم يحافظون على استقلالهم فهم ثائرون عصاة في نظر المستعمرين

(٢) بلدة من السودان الفرنسي الى الجنوب الغربي من تمبكتو عدد أهلها ستة آلاف نسمة احتلها

لفرنسيس سنة ١٨٩٣

(٣) من السودان الفرنسي في بلاد ماسينه لا تبعد كثيراً عن ضفة النيجر اليميني

(٤) يشير الى أن افريقية كانت تكون كلها اسلامية لولا قضاء فرنسا على سلطنة التيجانية هذه ، كما ان اوربا كانت تكون اسلامية لولا انتصار شارل مارتل على العرب في پواتيه وهي الكلمة التي يتفق عليها مؤرخو الافرنج .

(٥) سأل محرر هذه السطور سيدي أحمد الشريف خليفة سيدي محمد بن علي السنوسي ، وحفيده ، عن حقيقة هذه الرواية ، فأفكر ذلك ، وانما قال ان جده كان متبعاً للسلف . وقد لحظت ان الأستاذ المثار اليه يقبض في الصلاة مثل الحنفية وغيرهم ولا يرسل يديه مثل المالكية فسألته عن سبب مخالفته في ذلك

ولد محمد بن علي السنوسي بقرب مستغانم^(١) سنة ١٧٩١ ، وقرأ العلوم في فاس^(٢) ثم حج السيد محمد السنوسي بيت مكة (١٨٢٩) وفي أثناء طريقه تلقى اجازات كثيرة ، ودخل في عدة طرق ، وعاد الى المغرب وقرأ في لاغوات . وسنة ١٨٣٩ عاد الى الشرق ، وأخذ يقرأ في الازهر ولكن أحد المشايخ راعه ما هو فيه من استقلال الفكر ، والنزوع الى الاجتهاد ، فافتي بمخالفته للشرع^(٣)

وكذلك حصلت ربية في أمره بمكة ، لميله الى بعض المبادئ الوهابية^(٤) ، ولكنه وجد في اتفاق تام مع السيد أحمد بن ادريس الفاسي شيخ القادرية ، وعند وفاة هذا الاستاذ أسس طريقة جديدة وذهب الى افريقية ، وجال في برقة ، وبنى الزاوية البيضاء ، أول زاوية له^(٥) . وكثر أتباعه في واحة الفرافرة ، وفي القطر الطرابلسي ،

للمالكية مع أنه مالكي فأجاب ، أن جده كان يعترض على السادة المالكية في ذلك ، ويقول ان الذي ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم هو القبض ، وان الذين تقلوا اسباب اليمين عن الامام مالك اخطأوا .
(١) بحلة يقال لها الواسطة

(٢) سيدي أحمد الشريف يقول ان ولادة جده كانت سنة ١٢٠٢ هجرية وفي الترجمة التي ألفها لجده ذكر ما تلقاه من العلوم وقرأ من الكتب ، وأسماء من أخذ عنهم من الأشياخ ، وهو شيء هائل بالمره قل أن يوفق أحد مثله ، ومما يجدر بالذكر أنه أخذ عن السيد أحمد بن ادريس دفين صبيا في عسير ، والسيد أحمد بن ادريس المشهور بالولاية أخذ عن سيدي عبد الوهاب التازي العمر الذي عاش ١٣٠ سنة وأدرك الولي الكبير سيدي عبد العزيز الدباغ وأخذ عنه ؛ ويظهر أن أبناء البيت السنوسي كلهم منتسبون الى العلم ، فان والد السيد محمد السنوسي وجده وأعمامه وأبناء أعمامه ، وكثيراً من نسائهم مثل جدته لأبيه السيدة الزهراء وعمته السيدة فاطمة كانوا علماء ؛ وأكثر تربية السيد السنوسي كانت على يد السيدة فاطمة المشار اليها ، وكانت من فضليات أهل زمانها . متبحرة في العلوم ؛ منقطعة للتدريس والوعظ . يحضر دروسها ومواعظها الرجال . وقد اعتنت كثيراً هذه السيدة بترية ابن أخيها لما توسمته فيه من باهر النجابة ، أما والده السيد علي فكان قد توفي شاباً في سن الخامسة والعشرين . وكان يجمع الى العلم والصلاح الفروسية والرماية الى الدرجة القصوى . لذلك تجدد السنوسية ينزع بهم عرق الى السيف كما ينزع بهم عرق الى القلم .

(٣) لعله يشير الى الشيخ عليش الذي بلغته أشياء لم يقف فيها على حقيقتها . فأصدر فتوى بحق الشيخ السنوسي ، وقيل انه لما فهم جلية الأمر رجع عنها .

(٤) هذا ما ينكره السنوسية

(٥) ان بعض معمرى الجبل الاخضر يقولون، أنهم سمعوه يقول وهو بيني البيضاء هذمان الافرنج سيأتون يوماً الى هناك ، ويهدمون قبة الصحابي سيدي رافع رضى الله عنه ، ويربطون خيولهم في مسجد الزاوية البيضاء ، يأخذون حجراً من بنيان البيضاء قديماً منحوتاً مكتوباً عليه ، عبارات لاتينية . وان هؤلاء

وفي التوات^(١) وفي السودان حيث له عشرون زاوية^(٢)، ثم سنة ١٨٥٥ أسس مركز طريقته في جغبوب وهي سوقا القديمة، على مسافة ثلاثة أيام من سيوه، وصارت أعظم مدرسة لمبشرى الاسلام في أواسط افريقية. وكان المؤدى الى بحيرة تشاد طريقان أحدهما، شرقي من سوكنه الى مرزوق، والثاني غربي من غدامس والعاير، فالسنوسيه نشروا طريقتهم في وادي والباقيري وبوركوت وتبعوا نهر بينوى الى أن بلغوا النيجر الأدنى حيث نجدهم يهدون تلك القبائل الى الاسلام وبواسطة السنوسية صارت نواحي بحيرة تشاد هي مركز الاسلام العام في أواسط افريقية. ويقوّم عدد مريدي الطريقة السنوسية باربعة ملايين، وطريقة هؤلاء الجماعة في التبشير، هي أن يشتروا الارقاء صغارا من السودان ويربوهم في جغبوب، وغدامس، وغيرها، ثم متى بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلم أعتقوهم، وسرحوهم الى أطراف السودان، يهدون أبناء جلدتهم الباقين على الفتيشية، وهكذا يرحل كل سنة مئات من مبشرى السنوسية لبث دعاية الاسلام في جميع افريقية الداخلية من سواحل الصومالى شرقاً، الى سواحل السينغامبية غرباً، ولقد حذا سيدى محمد المهدي وأخوه سيدى محمد الشريف حذو والدهما في السعى الى الغرض الذى توخاه، الا وهو تخليص الاسلام من النفوذ الأجنبي، واعادة الامامة العامة كما كانت في عصر الخلفاء.

وبالاجمال، فان مريدي هذه الطرق هم الذين سعوا في نشر الاسلام ووفقوا اليه في افريقية، قال كوپولانى Coppulani ان هؤلاء تارة بهيئة تجار وطوراً بهيئة مبشرين، يهدون الى الاسلام الأقوام الفتيشيين، وتجدهم بينون زوايا جديدة في هذه الاقطار الواسعة الشاسعة الممتدة من شمالى افريقية الى اقصى أقاصى السودان، وأحيانا يؤسسون ممالك مثل سلطنة راج، واحمدو، وسامورى. انتهى ملخصاً

ثم انتقل المسيويون موري الى ذكر تشكيلات الزوايا، والمدارس، والجموع، والجامعات، مثل الأزهر في مصر والقرويين في فاس، والزيتونة في تونس، وغيرها، وبرامج التعليم فيها. وقال «ان العلوم التى فيها تنقسم الى قسمين الاول، العلوم الاعدادية (مايسمونه بالآلات) كالنحو والصرف والبيان والمنطق والقراءة والعروض والحساب والجبر

المعبرين الذين سمعوا منه هذا الكلام رأوا مصداقه كله في آخر حياتهم. لأن الظليان جاءوا وهدموا قبة سيدى رافع — وان كانوا جددوا بناءها بعد ذلك — وربطوا خيلهم في مسجد البيضاء، وأخذوا الحجر الذى عليه اللاتينى من الجدار

(١) غربي الجزائر

(٢) مجموع زوايا السنوسية اليوم ثلاثمائة زاوية

والثاني ، العقائد وأدب الدين وأسباب التنزيل والحديث والفقه - (قال) : ويقرأون في بعض مدارس فاس ، الكيمياء والطب والهندسة والانشاء والتصوف والموسيقى (قال) : ولم أجد ذكر الفلك في العلوم التي يعلمونها هناك ولا في محل مع ان علم الفلك كانت به عناية عظيمة في المغرب . »

قلنا لعل هذا خطأ ممن أطلعه على برامج التعليم أو سهو ، أو ان علم الفلك أهمل في هذه السنين الأخيرة ، فانه من العلوم التي كانت تعلم في فاس وغيرها من مدارس الاسلام بالاعتناء الزائد ، واليك مثالا على ذلك ماقرأته في سيرة سيدي محمد بن علي السنوسي نفسه ، وهي مخطوط الفه حفيده سيدي أحمد الشريف ، يذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم في فاس فيقول : « ومنهم العلامة الهمام سيدي محمد بن الطاهر الفيلاي الشريف العلوي قرأت عليه مختصر السعد ، وجع الجوامع ، والسلم ، وجلة صالحة من مختصر الشيخ خليل ، وهو يروى عن الحافظ ابن كيران ، والعلامة الزروالي ، وشيخهم العلامة ابن شقرون ، باسائدهم السابقة ، وغيرهم من أمائل علماء فاس . ومنهم العلامة المتقي الماهر المتفان أبو المواهب سيدي أبو بكر بن زيان الادريسي ، حضرته في علوم كثيرة ، وقرأت عليه الفرائض والحساب ، والأربعين وصناعتها ، والأسطرلابين وصناعتها ، والعلوم الأربعة الرياضة والهندسة والهيئة والطبيعة والارتماطيق ، وأصول قواعد الموسيقى ، والمساحة ، والتعديل ، والتقويم ، وعلم الأحكام والنسب (بكسر النون) والوفق والقواعد الجفرية ، والأصول الزايرجية ، والبسط والتكسير ، والجبر ، والمقابلة وغيرها الخ . »

فانت ترى أن الهيئة كانت تدرس في فاس في القرن الماضي وأخبرني السيد أحمد الشريف أن أستاذه سيدي أحمد الريني كان بارعا بهذه العلوم ، وبعلم الهيئة والاسطرلاب ، وكان تلقاها عن السيد العلامة ابن السنوسي ، وكانت عندهم الآلات المتعلقة بهذا العلم ، والكرات والازياج وغير ذلك .

ثم ذكر المسيوبونه موري برنامج الأزهر وأشار الى أن أول مصلح لتعليم الأزهر ، هو الشيخ المهدي العباسي وذكر ما أدخله فيه من الاصلاحات لعهد الخديوي اسماعيل ، وان المصلح الثاني ، هو الشيخ محمد عبده الذي ادخل في برنامج الأزهر الجغرافية ، والتاريخ ، والتاريخ الطبيعي ، والرياضيات ، والفلسفة ، وغير ذلك فنفتح في الأزهر روحا جديدة . (قال) وقاومه بعض العلماء الجامدين وغيروا عليه قلب الخديوي ، فأثرت هذه الحوادث في صحته وتوفي في رمل الأسكندرية سنة ١٩٠٥ .

الزوايا السنوسية

لما كان قد تقدم ذكر الزوايا السنوسية في عدة مواضع وكان عندنا أسماء القسم الأشهر منها آثارتنا الحاق هذا الجدول بما تقدم من خبر هذه الطريقة وهي : —

- ١- زاوية التاج ، في واحة الكفرة ، مقر السادة السنوسية ، ذرية سيدي محمد بن السنوسي .
- ٢- » الجغبوب ، في واحة الجغبوب المقر الثاني للسادة المشار اليهم وفيها المدرسة الكبرى لتخريج تلاميذهم
- ٣- » طرابلس الغرب ، وشيخها سيدي عبد الوهاب العيساوي .
- ٤- » الرجبان ، في جبل يفرن من عمل طرابلس ، وشيخها سيدي محمد العيساوي .
- ٥- » مزده ، فوق قصبة غريان ، شيخها سيدي عبد الله السني .
- ٦- » طبقة ، بقرب زنتان ، اشياخها أولاد سيدي محمد الأزهرى .
- ٧- » الحراة ، بين نالوت وفساطو بالجبل الغربى .
- ٨- » سيناون فوق نالوت — زاوية درج فوق سيناون .
- ٩- » غدامس ، على حدود ايلة تونس ، شيخها سيدي أحمد الحبيب .
- ١٠- » مصراطه ، شيخها السنوسى بن عبد العال .
- زاوية ثانية ، في مصراطه ، شيخها عبد الله بن شنيشيع .
- ١١- » مسلاته — زاوية القطرون .
- ١٢- » مراده ، بين جغبوب وفزان في الصحراء ، شيخها سيدي محمد الرويعي .
- ١٣- » مرزوق ، قاعدة فزان شيخها سيدي عبد اللطيف بن عبيد .
- ١٤- » هون ، في البلاد التي على أبواب السودان ، شيخها سيدي مصطفى الهوني .
- ١٥- » سوكنه ، في البلاد الواقعة بين طرابلس وفزان ، شيخها سيدي الشريف حامد بن بركت .
- ١٦- » واو في جنوبي طرابلس نحو السودان ، شيخها سيدي محمد الأشهب .
- ١٧- » غات شيخها الحاج أحمد الغاتى — التوات جنوبي عمالة الجزائر .
- ١٨- » الهوارى في واحة الكفرة على مسافة خمس ساعات شمالى مقر السادة ، وشيخ زاوية الهوارى سيدي الفضيل السوسى .

- ١٨- زاوية الجوف في نفس واحة الكفرة ، شيخها سيدى عبد الهادى الفضيل .
- ٢٠- » تزربو عن زاوية التاج على مسيرة ستة أيام ، شيخها القطب الصالح السيد المدنى من تلاميذ سيدى ابن السنوسى الكبير .
- ٢١- » ربيانه على ثلاثة أيام من الكفرة ، شيخها سيدى حسين بزاهه .
- ٢٢- » الوجنقة الكبرى في أوائل السودان على خط دارفور على مسيرة ١٧ يوما الى الجنوب من الكفرة ، شيخها سيدى عبد ربه البرعصى .
- ٢٣- » الوجنقة الصغرى ، شيخها سيدى عبد الرازق الفاخرى .
- ٢٤- » قرو عن الوجنقة الكبرى على مسيرة ثلاثة أيام الى الغرب ، شيخها الفاضل الأديب سيدى محمد بن عبد الله السنى أحد دعاة الاسلام في أواسط افريقية . أصله من بلاد سنار في الحبشة عباسى النسب .
- ٢٥- » البرقوات — زاوية زندر في السودان .
- ٢٦- » يرضى على أبواب السودان ، شيخها ابراهيم الغربى — زاوية كانو في بلاد النيجر .
- ٢٧- » قانت بالقرب من غات ، شيخها السنوسى العاقى الانصارى .
- ٢٨- » عين كلك التى جرت الحرب عليها بين السنوسية والفرنسيس على مسيرة ستة أيام غربى قرو ، شيخها الفاضل سيدى عبد الله الفضيل الزوى . وعين كلك هذه فيها أنهار جارئة ومن أخصب بقاع البسيطة .
- ٢٩- » ون قبلى زاوية عين كلك على مسافة يوم ونصف يوم مائلة الى الشرق وهى على مسافة نحو ٢٠ يوما من مرزوق فزان ، وشيخ الزاوية هذه سيدى المهدي السنى ولد سيدى محمد السنى .
- ٣٠- » بنى غازى شيخها الاستاذ العلامة سيدى أحمد العيساوى .
- ٣١- » أم شخنب على مسيرة ٧ ساعات الى الجنوب من بنى غازى كان شيخها الأديب سيدى محمد على بن عبد المولى
- ٣٢- » الطيامون على مسيرة ١٠ ساعات من بنغازى الى الغرب شيخها سيدى محمد على المحجوب
- ٣٣- » مسوس قبلى الطيامون وشيخ هذه الزاوية سيدى سنوسى الاشهب
- ٣٤- » اجداية غربى بنغازى شيخها سيدى عبد اللطيف الزوى .

- ٢٥- زاوية القطفية على مسيرة ٤ أيام الى الغرب من بنغازى شيخها الزوالى بن عبد اللطيف .
- ٢٦- » النوفلية غربى القطيفة بمسافة ٦ أيام شيخها سيدى أحمد بن ادريس .
- ٢٧- » الزعفران غربى النوفلية على مسافة يوم ونصف يوم بجوار قصر سرت شيخها ابن شفيع
- ٢٨- » زليطن فى محل اسمه زو و شيخها سيدى محمد بن عثمان بن بركة .
- ٢٩- » زويله من فزان .
- ٣٠- » زله شرقى زاوية سوكنه شيخها سيدى الخريصى .
- ٤١- » أوجله شيخها سيدى عبد الله الفضيل .
- ٤٢- » جالو وتسمى زاوية العرق و شيخها سيدى عبد الله التواتى .
- ٤٣- » اللبة فى أوجله أيضا و شيخها الحاج محمد فريطيس .
- ٤٤- » شنحره فى بلاد جالو وأوجله شيخها سيدى محمد صالح .
- ٤٥- » سيوه وهى الزاوية الأولى تخص السادة رأسا والوكيل عليها سيدى يوسف بن عبد الله بن أحمد .
- ٤٦- » سيوه المنسوبة الى آل معرف شيخها سيدى محمد بن عبد الله الزوي رقيق سيدى أحمد الشريف الأستاذ الأكبر فى سياحته الى الاستانة والأناضول .
- ٤٧- » سيوه الثالثة تخص السادة رأسا والوكيل عليها أحمد الجيرى .
- ٤٨- » سيوه الرابعة شيخها الشيخ أحمد أبو غالى .
- ٤٩- » حطية الزيتون على مسافة ٦ ساعات الى الشرق من زاوية بنى معرف وهى تخص السادة رأسا والوكيل عليها سيدى الحسين الشريف .
- ٥٠- » القاره على مسافة ١٣ ساعة على الفارس الى الشرق من حطية الزيتون وهى تخص السادة رأسا والوكيل عليها صالح ولد سيدى يوسف .
- ٥١- » الفرافرة على مسافة ستة أيام الى الشرق شيخها سيدى السنوسى بن خالد .
- ٥٢- » القصر الى الشرق من الفرافرة فى الواحات شيخها ابن سيدى محمد الموهوب .
- ٥٣- » الواحات البحرية شيخها سيدى صالح السعدى .
- ٥٤- » الواحات البحرية الثانية شيخها سيدى المبروك القطعانى .
- ٥٥- » منديشة الى جهة صحراء الفيوم شيخها سيدى عبد المالك الموهوب .
- ٥٦- » القلمون فى الواحات أيضا . وكل هذه الزوايا فى سيوه والواحات فى عيون ونخيل وكروم

- ٥٧- زاوية القيوم وشيخها سيدى عبد العال السنوسى .
- ٥٨ - » الزينية بالصعيد المصرى فيها أولاد الولى الكبير سيدى أحمد بن ادريس .
- ٥٩ - » سيدى ابراهيم الرئيس الفاسى فى الصعيد
- ٦٠ - » حوش ابن عيسى بجهة الاسكندرية شيخها سيدى محمد بن مالك
- ٦١ - » الغيط عند العامرية فى مديرية البحيرة شيخها سيدى مرتضى الغريانى
- ٦٢ - » بهيج وشيخها سيدى موسى العقارى
- ٦٣ - » سيدى يادم الايرش على مسافة ساعتين من بهيج
- ٦٤ - » سيدى عبد العاطى بن محيظة على مسيرة نصف يوم من زاوية سيدى يادم
- ٦٥ - » الضبعة ويقال لها زاوية شينة وشيخها سيدى عبد المنعم أبو شينة وهى على مسيرة يومين من زاوية سيدى عبد العاطى
- ٦٦ - » قريوة على مسافة يوم من شينيه وشيخها سيدى عبد الرحيم الفاخرى
- ٦٧ - » فوكه على مسافة ثلاث ساعات من قريوه وشيخها سيدى عبد الرحيم التهاى
- ٦٨ - » محطة فوكه وشيخها سيدى موسى بن موسى .
- ٦٩ - » بقوش وشيخها سيدى هارون بن بدر القناشى وهى على ساعتين من فوكه
- ٧٠ - » سيدى على بن مورد الى الغرب من زاوية بقوش بساعتين
- ٧١ - » أم الرخم غربى مرسى مطروح وشيخها أبو القاسم الطيب
- ٧٢ - » نجيلة الى الغرب بيوم من أم الرخم وشيخها سيدى عبد القادر بن عمر
- ٧٣ - » شماس على ٣ ساعات من نجيلة الى الغرب وشيخها سيدى عمر الاوجلى
- ٧٤ - » عليم الجاول على مسافة ثلاث ساعات الى الغرب من زاوية شماس وشيخها سيدى محمد الشريف
- ٧٨ - » برانى على مسافة يوم الى الغرب من هذه وشيخها سيدى الشريف بن ميلود
- ٧٩ - » سيدى عمران بن ابراهيم على مسافة يوم من زاوية برانى ومن زاوية سيدى عمران ابن ابراهيم الى السلوم مسيرة يوم . وهذه الزوايا من الاسكندرية الى السلوم كلها فى بلاد أولاد على
- ٨٠ - » جبيل على مسافة ثلاث ساعات الى الغرب من السلوم شيخها سيدى محمد الشارف من أولاد عم السادة ✓
- ٨١ - » أم ركه فى موقع دفنة على ٣ ساعات من زاوية جبيل وهى زاوية سيدى على بن عبد الله

- ٨٤ - زاوية سيدى حسين الغريانى فى دفنة أيضا على ثلاث ساعات من أم ركه
- ٨٥ - » المرصص فى غربى مرسى طبرق على مسافة يومين من التى قبلها وشيخها سيدى صالح الشريف
- ٨٤ - » أم الرزم أو أم أرزم^(١) على مسيرة يومين من المرصص وشيخها سيدى مرتضى
فركاش وعندها عين نضاخة وبستان جليل
- ٨٥ - » سيدى محمد بن فارس على ساعتين من أم أرزم الى البحر
- ٨٦ - » مرطوبة على مسافة ساعتين الى الغرب من التى قبلها وشيخها سيدى عبد الله
فركاش وفيها عيون عذبة جارية من الجبل الذى فوقها وبساتين
- ٨٧ - » درنه فى نفس المدينة شيخها السنوسى الغريانى
- ٨٩ - » العزيات من درنة الى الجنوب على مسافة يوم شيخها سيدى السنوسى الجبالى
- ٩٠ - » الخيلة على مسافة يوم من العزيات شيخها محمد بن الحسين
- ٩١ - » بشاره على بضع ساعات الى الجنوب الغربى من درنه وشيخها سيدى عبد القادر
فركاش وعندها عين جارية وبساتين
- ٩٢ - » ماره الى الشرق من بشاره وشيخها سيدى عبد الله أبو سيف وهى على رأس نبع
ماره من انزه وأعذب ينابيع الدنيا وعليه البساتين والطواحين
- ٩٣ - » ترت الى الغرب من بشاره وشيخها كان سيدى محمد الغزالى . وكل هذه الزوايا فى
بلاد قبيلة العبيدات الكبيرة
- ٩٤ - » نقا شرق ترت شيخها سيدى الحبيب بن جلول — زاوية العوينة بهاتيك الجهات أيضا
- ٩٥ - » الفائدية المنسوبة الى قبيلة فائد وشيخها سيدى صالح بن اسماعيل
- ٩٦ - » شحات أى مدينة سيرنا القديمة وهى بلدة عالية فى رأس جبل مشرف على البحر
تنبع المياه من مغارة بأعلاه وتسقط فى شلالات بديعة ولها منظر من أجمل مناظر
الدنيا وشيخ زاوية شحات سيدى محمد الدردنى . والزاوية هى زاوية قبيلة الحاسنة
- ٩٧ - » ماسه وهى الزاوية البيضاء التى كانت أول ما أسسه السنوسى الكبير تبعد عن شحات
نحو ساعتين الى الغرب وهى على بضع دقائق من مقام سيدى رويفع الانصارى
رضى الله عنه وشيخ الزاوية البيضاء الآن سيدى محمد الفهارى . والزاوية زاوية البراعصة
- ٩٨ - » الحامة غربى الزاوية البيضاء على ساحل البحر وشيخها سيدى السنوسى الفهارى
- ٩٩ - » الحنية غربى الحامة وشيخها سيدى أحمد بن العيساوى
- ١٠٠ - » القصرين قبلى زاوية الحامة وشيخها سيدى محمد العرنى

- ١٠١ زاوية العرقوب بشرقي زاوية القصور وشيخها سيدى جاد الله الجبالى
- ١٠٢ » القصور شرقى قصبة المرج وشيخها البطل المشهور القائد للجاهدين فى حرب الطليان
- ١٠٣ سيدى عمر المختار وهى زاوية قبيلتى العرفا والعبيد
- ١٠٤ » اسقفه غربى دريانه وشيخها سيدى الأمين الغمارى
- ١٠٥ » دريانه غربى طلميشه وشيخها الشريف الغمارى
- ١٠٦ » المرج على أربع ساعات قبل طلميشه وهى زاوية سيدى عمران السكورى
- ١٠٧ » كرسا تبعد عن زاوية ماره السابقة الذكر بمسافة ساعتين صوب البحر وجاعتها
- ١٠٨ » التراكى وشيخها سيدى يوسف العجال
- ١٠٩ » الاثرون على ٤٠ دقيقة من زاوية التراكى وشيخها سيدى الحبيب الجلول
- ١١٠ » كفنطه على ساعتين ونصف ساعة الى الجنوب من زاوية الحنينة السالفة الذكر
- ١١١ » وشيخها سيدى حميده بن عمور
- ١١٢ » ميراد مسعود بحرى زاوية القصرين وشيخها سيدى محمد بن حوا
- ١١٣ » الحامدية غربى ميراد مسعود وشيخها سيدى عبد الله الكليلي
- ١١٤ » عائلة دغار على مسافة نصف ساعة من الحامدية الى الغرب وشيخها سيدى محمد الغالى
- ١١٥ » نيان شيخها سيدى العربى الغمارى
- ١١٦ » طلميشه على أربع ساعات بحرى قصبة المرج وشيخها التواتى الكليلي
- ١١٧ » توكره غربى طلميشه وشيخها سيدى عبد الله الجيلانى
- ١١٨ » برسس غربى توكره وشيخها ابن سيدى عبد الله الجيلانى . وأكثر هذه الزوايا فى
- ١١٩ » بلاد قبيلة البرسا
- ١٢٠ » مستغانم فى القطر الجزائرى وشيخها سيدى أحمد بن تكوك
- ١٢١ » سيدى محمد بن صادق فى بلاد الجريد من مملكة تونس وفى تلك البلاد خمس زوايا
- ١٢٢ » أخرى تحت نظارة الشيخ المذكور
- ١٢٣ » جدة فى الحجاز تحت نظارة شيخ زاوية أبى قيس بمكة
- ١٢٤ » أبى قيس بمكة المشرقة شيخها سيدى حامد - زاوية الطائف وهى تحت نظر الشيخ المذكور
- ١٢٥ » الجديدة فى طريق المدينة - زاوية بدر الشهداء وشيخها سيدى محمد الغمارى
- ١٢٦ » المدينة المنورة وشيخها سيدى مصطفى الغمارى - زاوية ينبع البحر
- ١٢٧ » ينبع الوجه - زاوية الحمراء - زاوية الصفراء - زاوية رابغ - زاوية صبح
- ١٢٨ » العيص . وهذه كلها فى الحجاز وجملة ما هو مفقود عندنا من هذه الزوايا ١٣٠ زاوية
- ١٢٩ » ولا تزال زوايا كثيرة فى المغرب والسودان والحبشة والصومال مبهولة عندنا .

جَاهِدُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ

تأليف لوثروب ستودارد الامريكى

LOTHROP STODDARD

نقله الى العربية

الأستاذ عجاج نويهض

وفيه فصول وتعليقات وحواشٍ مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الإسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الأمير شكيب أرسلان

المجلد الأول

الجزء الثاني

دار الفكر
لطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِزْ

حقوق الطبع محفوظة للمترجم

الطبعة الرابعة

١٣٩٤ هـ - ١٩٧٣ م

فهرست

المجلد الثاني

من كتاب « حاضر العالم الاسلامي »

- مساهمة الأندلس للامير شكيب من صفحة ١ — ٥٨
مصير الأندلسيين لسيدى محمد الطاهر عاشور من صفحة ٥٩ — ٦٣
طرابلس الغرب وايطاليا للامير شكيب من صفحة ٦٤ — ١٢٨
أربعة كتب واردة للسيد احمد السنوسي من ١٢٩ — ١٣٥
ما سبق في التاريخ من استيلاء الافرنج على طرابلس الغرب من صفحة ١٣٦ — ١٣٧
عرب طرابلس بقلم عبد الستار الباسل بك من صفحة ١٣٨ — ١٣٩
السنوسية للامير شكيب من صفحة ١٤٠ — ١٦٥
الجزائر والأمير عبد القادر وفرنسا للامير شكيب من صفحة ١٦٦ — ١٧٤
الجزائر وقبائل البربر للامير شكيب من صفحة ١٧٥ — ١٨٧
بلاد الطاغستان والشيخ شامل للامير شكيب من صفحة ١٨٨ — ١٩٣
المهدي المنتظر للامير شكيب من صفحة ١٩٤ — ١٩٦
أفغانستان للامير شكيب من ١٩٧ — ٢١٨
المسلمون في الصين للامير شكيب من صفحة ٢١٩ — ٢٨٥
رأى كوردية في حالة الاسلام في الصين والهند وجاوى والفلبين من صفحة ٢٥٨ — ٢٦٣
حديث لرئيس البعثة الصينية الأزهرية من صفحة ٢٦٤ — ٢٦٧
حديث عالم مسلم صيني من صفحة ٢٦٨ — ٢٧٠
الاسلام في الصين غابره وحاضره للاستاذ محمد مكيين الصيني من صفحة ٢٧١ — ٢٨١

- المسلمون في الصين حديث للوفد الصيني من صفحة ٢٨٢ — ٢٨٥
- مسلحو روسيا في عهد البلاشفة للامير شكيب من صفحة ٢٨٦ — ٢٨٨
- السيد جال الدين الأفغاني للامير شكيب من صفحة ٢٨٩ — ٣٠٣
- الاسلام والجنود السوداء مقالة روجر لايون والتعليق عليها للامير شكيب
من صفحة ٣٠٤ — ٣٥٩
- لمحة على حالة الاسلام الحاضرة من صفحة ٣٠٥ — ٣١٤
- الاسلام الاسود من صفحة ٣١٤ — ٣٢١
- الاسلام عند السنيغاليين من صفحة ٣٢١ — ٣٢٤
- الخلاصة من صفحة ٣٢٤ — ٣٢٦
- ادحاض الأباطيل والمفتريات للامير شكيب من صفحة ٣٢٦ — ٣٥٢
- الجنس الاسود والاسلامية للسيو بريفيه وتعليق الامير شكيب عليه
من صفحة ٣٥٢ — ٣٥٩
- الاسلام في افريقية للامير شكيب من صفحة ٣٦٠ — ٤٠١
- نهضة الاسلام في افريقيا وأسبابها من صفحة ٣٩٢ — ٤٠١
- الطريقة القادرية صفحة ٣٩٥
- الطريقة الشاذلية والطريقة التيجانية ٣٩٦
- الطريقة السنوسية صفحة ٣٩٨
- الزوايا السنوسية من صفحة ٤٠٢ — ٤٠٧